الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

رئاسة الجمهورية

المجلس الأعلى للغة العربية

الفصحى وعامياتها

لغة التخاطب بين التقريب والتهذيب

أعمال الندوة الدولية التي نظمت بالتعاون مع وزارة الثقافة

ضمن فعاليات الجزائر عاصمة للثقافة العربية 2007

يومي 04- 05 يونيو 2007

- بنزل الأوراسي -

منشورات المجلس 2008

تقديم

تقديم

يسعد المجلس الأعلى للغة العربية أن يقدّم لقرّائه الكرام هذا الكتاب الذي يجمع أعمال الندوة العلمية التي جرت فعالياتها في فندق الأوراسي يومي: 4 ـ 5 جوان 2007 حول: الفصحى وعامياتها: لغة التخاطب بين التقريب والتهذيب.

وإذ يقدم هذا العدد فإنّه يستهدف الرقي بالعامية لتعود إلى وضعها الطبيعي لها قبل أن تنزاح عن مستواها الفصيح الراقي والأدبي إلى مستوى أدنى، وهو مستوى خطاب الأُنس، هذا من جهة، ومن جهة أخرى؛ فإنّ المجلس يسعى لتطبيق إستراتيجيته في هذا المجال بالعمل على الرفع من مستوى الدارجة لتقترب من اللغة الوسطى التي لا تحمل في خطابها التقعّر وتستجيب لمتطلبات الحياة المعاصرة ، وضمن هذا المنظور تركزت المحاضرات القيّمة التي قدّمها الأساتذة المختصون في هذه الندوة، ومن بين محاورها الشروط التي ترتقي بالعامية لتقارب الفصحى الوسطى بهدف تحقيق التواصل الجيّد.

إنّ **العربية الدارجة** هي مستوى تعبيري يتخاطب به العامة عفوياً في الحياة اليومية، وهو مستوى غير خاضع لقواعد النحو والصرف ويتصف بالتلقائية والاختزال، **إنها** عربية فقدت بعض الخصائص الموجودة في الفصحى مثل الإعراب، ولكنّها ليست لغة في حد ذاتها مثلما يجوز للبعض أن يسميها قياساً على اللغات المتفرّعة من اللاتينية.

أما بالنسبة للعربية الفصحى والدارجة، فهما غير مقطوعتين من اللغة الأصل؛ فالفصحى لغة العبادات ولغة التعامل اليومي والإداري، وهي اللغة الأصل، وقد يصدق هذا القول عند المسلمين الذين لا يستخدمون العربية الفصحى إلاّ في صلواتهم. وأما الدارجة في الوطن العربي فهي لغة التعامل اليومي، وليست بعيدة عن

الفصحى بحيث نجد فيها 80 % من المفردات فصيحا، وهو ما نلاحظه في التراث الشعبي من أغان وأمثال وشعر ملحون .

إنّ اللغات البشرية هي ظواهر اجتماعية، تصطلح عليها الجماعة، وتغيّر فيها بالزيادة والنقصان حسبما تتطلبه طبيعة النشاط الاقتصادي وخصائص البيئة المحلية، وهذا ليس عيباً أو منقصة فيها، بل كلّ اللغات يصيبها التحوّل الذي يأتي أحيانا لأسباب نجد تفسيرها في الدراسات اللسانية، وخاصة علم الصوتيات وعلمي الاجتماع والنفس اللغوي، فهو ظاهرة طبيعيةً، وهو قانون يسميه اللسانيون (قانون التحوّل اللساني) وهذا ما أشار إليه كل من Ferguson و Fishman و Gumpaz وعدّوا هذا نوعاً من الازدواجية/ الثنائية ورأوا بأنّ هذا عادي؛ لأنّه يحصل في معظم أو في كلّ اللغات، شرط ألا يكون الفرق شاسعاً بين اللغة المقوعدة وهو مستوى حديث النخبة أو لغة الكتابة، والمستوى العام المتداول على لسان الطبقات الشعبية ، ولا يمنع التواصل بين مستعملي المستويين .

إنّ المجلس الأعلى للغة العربية يقدّم هذه المقاربات التي تمهد الطريق لتقليص المسافة بين المستويين، وهذا ما تناولته دراسات المختصين الذين أكّدوا ضرورة الاهتمام بالعامية من منطلق ترقيتها للوصول إلى اللغة الوسطى الشائعة اليوم في وسائل الإعلام، وهذا جانب من منهجية المجلس على المدى المتوسط والبعيد؛ حيث يسعى من خلالها إلى العمل على ترقية استعمال اللغة العربية في أبعادها العملية الوظيفية والعلمية والإبداعية ، ويجسّد مقولة اللسانيين: اللغة وضع واستعمال لذلك الوضع. ونشير في هذا التقديم إلى أن المختصين والباحثين قد تناولوا في مداخلاتهم المحاور الستة التالية:

المحور الأول: العاميّات العربيّة وانشطارها عن الفصحى.

المحور الثاني: العاميّات العربيّة وعلاقتها بالفصحى.

المحور الثالث: جهود المجامع العربيّة وغيرها من الهيئات للتقريب بين الفصحى وعاميّاتها.

المحور الرابع: الوسائل السمعيّة البصريّة في ضوء الفصحى والعاميّة.

المحور الخامس: الإنتاج الأدبيّ والفني بالعاميّات عامل وحدة أم عامل فرقة؟

المحور السادس: ما عسى أن يكون مستقبل العربيّة الفصحى في خضمّ عاميّاتها؟

وبنشر المجلس لفعاليات هذه الندوة بهدف تفعيل اللغة العربية وتقريب لهجاتها من الفصحى، في مسعى تحديث العربية ونشر استعمالها وجعلها لغة وسطى مهذبة، يعمل بها رجال الإعلام، ويستعملها المتعاملون ويتخاطب بها المتعلمون.

لقد دأب المجلس على نشر وقائع نشاطاته التي وصلت في سنة 2007 إلى 75 إصدارا، حظيت باهتمام القراء وبعض المؤسسات والهيئات من داخل الوطن وخارجه، ونحن نقدم هذا العمل ليطّلع عليه المختصون في الجامعات والمهتمون بقضايا اللغة واللسان العربي المبين أملين أن يجدوا فيه ما يثير اهتماماتهم ، ويقرب الغيورين على لغة الضاد الجميلة من الهدف المنشود ألا وهو سيادة العربية في عقر دارها وتفوق منتوجها في العلوم والتكنولوجيا والفنون والآداب.

إشكالية الندوة

الفصحى وعاميّاتها

لغة التخاطب بين التقريب والتهذيب

من البديهيّ أنّ الوطن والدين واللغة أهمّ مكوّنات الهويّة، وأوثق الروابط بين المجتمعات عناصر ثلاثة صهرت الأقطار العربيّة الإسلاميّة في أمّة واحدة من المحيط إلى الخليج، ومن القرن الأوّل الهجريّ إلى الخامس عشر منه، ومن البديهيّ أيضا أنّ الرّابط اللغويّ، وعلى مستوى الخطاب الممارس في الطبقات العامّة، في اضمحلال مستمّر، لعوامل داخليّة وخارجيّة:

ـ ركود ثقافيّ شامل أضعنا به أعزّ مكتسباتنا الحضاريّة، وفقدنا مناعتنا، ركود امتدّ من القرن السابع الهجري إلى القرن الرابع عشر منه، مؤثّرات خارجيّة أبرزها تعاون الغزاة على بلادنا، وتكالبهم على طمس معالم حضارتنا ومحو لغتنا بعد إضعافها لصالح لغاتهم، وحاضر غلبت فيه الأميّة على بوادينا، والهجنة على حواضرنا، وطغيان المستورّد بلسان مخترعيه.

والحقيقة أنّ اللغة العربيّة تطوّرت في اتّجاهين بارزين:

1ـ اتجاه في كنف القرآن حيث حماها وجعل منها لغة الدين والأدب والعلوم والفنون على اختلاف وجهاتها، وجعل منها اللّغة الرسميّة في جميع الميادين. فحافظت إلى اليوم على سماتها، واحتكّت بالحضارات والثقافات مستمدّة ومُمدّة دون أن تفقد خصائصها، ودون أن تنقطع الصلة بين ماضيها وحاضرها. وهكذا نجد أنفسنا مرتاحين لنصوص الجاحظ أو المنفلوطيّ ولشعر المتنبي أو شوقي أو مفدي زكريا.

2ـ اتجاه حر خارج القرآن عرف تطوّرا طبيعيّا، شأن اللغات الغربيّة التي نعرفها ففقدت الكثير من سماتها في المجالات الصوتية والصرفيّة والاشتقاقيّة والإعرابيّة والتركيبيّة، وشانَها الدّخيل بما لا يناسب عبقريّتها ونُظُمها، وكثرت لهجاتها طرائق

الأداء فيها، وصعب رسمها بل استحال في معظم الأحيان، وحرّفت كلمات ودلالات عربية تحريفا يعجز الباحث عن كُنْهها.

ذلك ما جعل فخامة رئيس الجمهورية عبد العزيز بوتفليقة يشير مراراً، وبكلّ أسف، إلى ما داخل العاميّة الجزائريّة من هجنة ورطانة تتعبان البُداة الخُلّص في محاولة فهمها، بَلْه الوافدَ على الجزائر من العرب والعجم. والحقيقة كذلك أنّ القضيّة ليست حكرا على الجزائر، وإن كانت مطروحة بحدّة فيها. فالْبَوْنُ شاسع بين الفصحى ولهجاتها في الأقطار العربيّة كلّها، وبين لهجات القطر الواحد. فالمشكلة مطروحة على جميع الصُعُد في المشرق والمغرب. وهي عامل فرقة، والمفروض أن تكون اللغة عامل توحيد بين أهلها، وعامل فخر واعتزاز وحبّ.

ذلك شأن الفصحى التي وطّدت العلاقة الروحيّة بين مستعمليها في مشارق الأرض ومغاربها، يقرؤونها في الكتب والصحف، ويسمعونها في الوسائل السمعيّة البصريّة فيرتاحون إليها ويسحرهم بيانها. أمّا عاميّاتها فيضيق بها من لا يمارسها بل تُرْهِقه صعوداً لكثرة ما يجهل منها.

وإنّ الغاية التي نريد تحقيقها في هذه الندوة العملُ على تقريب العاميّات من فصحاها؛ لتوحيدها على نطاق واسع، وترقية مستواها، وجعلها لحمة بين أهلها أيّا كانوا. وتتطلّب هذه القضيّة البدء في التفكير في معالجتها بحكمة وتبصّر وتروّ، وبُعْد نظر، فهي متشعّبة الجوانب، متنائية الأطراف، بعيدة المرامي، صعبة التحقيق. وقد يكون هذا التّحقيق مستحيلا. لكنّ لا يمنع ذلك من المحاولة الجادّة والسعي الحثيث الدؤوب لترقية العامية إلى مستوى الفصحى. وهذا يتطلّب العزم الراسخ والقرار الصارم من أولي الأمر بعد إجماع أمرهم والدّراسة المتعمّقة، واقتراح الحلول الناجعة، وطرائق التنفيذ العلميّة المعاصرة.

وقد سبق للمجلس الأعلى للّغة العربيّة، بصفته هيئة معنيّة بسلامة اللغة والرّفع من مستوى استعمالها، والتّمكين لكلّ ما يخدمها، أن نظّم في هذا المجال نشاطات كان

لها الوقع الحسن في النفوس، وقوبلت بكلّ ترحيب. والمجلس على يقين من أنّ هذه **القضيّة** بما تتطلّب من حسْن الأداء، وبما يفرضه الواقع تقتضي أن تعالج على نطاق واسع وأن ينجزها العالم العربيّ كلّه،ليكفل لها النجاح المادّيّ والفكريّ وليضمن لها التصوّر الشامل والحلول الناجحة، لأن لا نقول المثلى. فموضوع العامّيّات العربيّة لا يختصّ ببلد عربيّ دون آخر.

وإذا كانت ورقتنا هذه ليست مؤهلّة سلفاً أن تشرح كلّ ما يحيط بهذا الهاجس المشترك منذ أمد بعيد، فالمجلس الأعلى للّغة العربيّة بالاشتراك مع وزارة الثقافة لواثقان بأن السادة المحاضرين والمشاركين يشرّفانهما بقبول دعوتهما سيثرون الموضوع، ويقدّمون الحلول الكفيلة بوضع أسس متينة للغة تتخلّص من الهجين الشائن وتقترب من الفصحى، لغة يسهل بها الخطاب والتواصل وتوحّد بين المجتمع العربيّ من الخليج إلى المحيط.

وقد رأت اللّجنة العلميّة أن تكون المداخلات في إطار المحاور الستّة الآتية:

المحور الأول: العاميّات العربيّة وانشطارها عن الفصحى.

المحور الثاني: العاميّات العربيّة وعلاقتها بالفصحى.

المحور الثالث: جهود المجامع العربيّة وغيرها من الهيئات للتقريب بين الفصحى وعاميّاتها.

المحور الرابع: الوسائل السمعيّة البصريّة في ضوء الفصحى والعاميّة.

المحور الخامس: الإنتاج الأدبيّ والفني بالعاميّات عامل وحدة أم عامل فرقة؟

المحور السادس: ما عسى أن يكون مستقبل العربيّة الفصحى في خضمّ عاميّاتها؟

اللجنة العلمية للندوة

- أ. د/ محمد العربي ولد خليفة
- أ. د/ مختار نويوات
- أ. د/ الطاهر ميلة
- أ. د/ عبد الجليل مرتاض
- أ. د/ صالح بلعيد
- أ. د/ عبد المجيد حنون
- أ. د/ لمين الزاوي
- أ. د/ محمد تحريشي
- أ. د/ عبد الرزاق عبيد
- أ. د/عبد الحميد بورايو
- أ. د/ عبد القادر خليفي
- أ. د/عبد الحميد حاجيات

برنامج الندوة

الاثنين 04 يونيو 2007

الفترة الصباحية

جلسة الافتتاح

10:00ـ09:30	- النشيد الوطني ـ كلمة ترحيب: رئيس المجلس الأعلى للغة العربية ـ كلمة الافتتاح: معالي وزيرة الثقافة. ـ كلمة ممثل جامعة الدول العربية ـ كلمة ممثل المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.
10:30ـ10:00	استراحة

الجلسة العلمية الأولى:

رئيس الجلسة/ أ.د عبد الرحمن الحاج صالح

10:45ـ10:30	أ.د عبد الملك مرتاض: فصيح العامية الجزائرية *
11:00ـ10:45	أ.د / علي فهمي خشيم: العامي والفصيح والمشترك بينهما
11:15ـ11:00	أ.د/عبد القادر الفاسي الفهري:الازدواجية اللغوية العربية بين التاريخ والحاضر:هل من تخطيط لغوي في خدمة التنمية، *
11:30ـ11:15	أ.د/علي القاسمي:العربية الفصحى وعامياتها في السياسة اللغويّة
12:00ـ11:30	أ.د/نهاد الموسى: الفصحى وعامياتها بين تجليات "الكائن" وتصور"الممكن"
12:45ـ12:00	مناقشة
13:45ـ12:45	غداء

الفترة المسائية :

الجلسة العلمية الثانية :

رئيس الجلسة : أ.د/ علي فهمي خشيم.

14:00ـ14:15	أ.د/ عبد الرحمان الحاج صالح: العاميات العربية ولغة التخاطب الفصيحة
14:15ـ14:30	أ.د سالم المعوش: إشكالية الفصيح والعامي في الأدب الشعبي ـ مقاربة نصّية من مارون عبّود ـ
14:30ـ14:45	أ.د. خولة طالب الإبراهيمي: نحو تصّور ديناميكي لمستويات اللغة العربية
14:45ـ16:00	أ.د . زكا نجيب: اللغة العربية وثقافتها: ضوابط الحداثة وآفاق العولمة
16:00ـ16:15	أ.د .عثمان سعدي: العامية الجزائرية قبل الاستقلال وبعده
16:15ـ16:45	مناقشة
17:00ـ17:15	استراحة

الجلسة العلمية الثالثة:

رئيس الجلسة/ أ.د .عبد الملك مرتاض.*

17:15ـ17:30	أ.د. مختار نويوات: الصّلة بين العربيّة الفصحى وعاميّتها بالجزائر " المعالم الكبرى "
17:30ـ17:45	أ.د .عبد الكريم أمين (ميشال باربو): ميسر لغة العرب في الكشف عن سيميائياتها: تحديث مفاهيمها ومناهج تعليمها
17:45ـ18:00	أ.د. صالح بلعيد: الفصحى المعاصرة طعنة أم ضرورة؟
18:00ـ18:15	أ.د .طاهر ميلة: الازدواجية العربية الحديثة وأثرها في انتشار الفصحى
18:15ـ18:45	مناقشة

الثلاثاء 05 يونيو 2007

الفترة الصباحية: الجلسة العلمية الرابعة:

رئيس الجلسة/أ.د. لمين الزاوي

09:00ـ09:15	أ.د .عبد الجليل مرتاض: العربية الفصحى وعامياتها في السياسة اللغويّة
09:15ـ09:30	أ.د .محمد خان: العربية الفصحى وعامياتها في السياسة اللغوية
09:30ـ09:45	د. أحمد عزوز: التواصل بالعامية بين الأثر والعجز عن التعبير
09:45ـ10:00	د.محمد سعيدي: الأصول اللغوية العربية للمثل الشعبي الجزائري مقاربة لغوية
10:00ـ10:15	أ.د .عبد الكريم بكري: نحو، وعي لغويّ:نظرات في مستويات التخاطب بين المجتمعات في الجزائر والعالم العربي.
10:15ـ10:45	مناقشة
11:00	استراحة

الجلسة العلمية الخامسة:

رئيس الجلسة/ عبد القادر الفاسي الفهري

11:30ـ11:15	أ.د .الأمين الزاوي:
11:45ـ11:30	أ.د .عبد الرزاق عبيد: الفصحى والعامية من خلال متن اللغة لأحمد رضا (أنموذجا)
12:00ـ11:45	أ.د .خالد عيقون: تواصل الخطاب الشفوي بالمدونة العربية القديمة
12:15ـ12:00	أ.د .محمد تحريشي: العامية في الخطاب السردي الجزائري عبد الملك مرتاض والسائح الحبيب أنموذجين
12:45ـ12:15	مناقشة
14:30ـ13:00	غداء

الفترة المسائية 15:00 – 17:45، عمل الورشتين.

ورشة : الوسائل السمعيّة البصريّة في ضوء الفصحى والعاميّة.

رئيس الجلسة:أ. محمد عباس

مقرر الورشة: صالح بلعيد

ورشة: الإنتاج الأدبيّ والفني بالعاميّات: عامل وحدة أم عامل فرقة؟

- رئيس الجلسة: مخلوف بوكروح
- مقرر الورشة: محمد تحريشي

المقرر العام للندوة: أ.د. عبد الجليل مرتاض

بمساعدة: أ.د. صالح بلعيد

أ.د. محمد تحريشي

17:45 - 18:00 - استراحة

18:00 – 18:30 – اختتام أشغال الندوة

كلمة رئيس المجلس في افتتاح ندوة " الفصحى وعامياتها "

معالي السيدة **خليدة تومي** وزيرة الثقافة المشرفة على هذه الندوة وعلى فعاليات الجزائر عاصمة الثقافة العربيّة لهذه السّنة التي تجري تحت الرعاية السامية لفخامة رئيس الجمهورية **السيد عبد العزيز بوتفليقة.**

معالي السادة الوزراء،

معالي السيد رئيس المجلس الإسلامي الأعلى

أصحاب السعادة السفراء،

سعادة السيد ممثل معالي الأمين العام لجامعة الدول العربيّة،

سعادة السيد ممثل معالي المدير العام للمنظمة العربيّة للتربية والثقافة والعلوم،

السيد مدير الموسوعة العربية،

السادة الأساتذة ضيوفنا الأعزاء من الأقطار العربية الشقيقة ومن أوروبا ومن الجامعات الجزائرية، ومراكز البحث ومؤسسات الإعلام والاُتصال.

السادة المبدعون والباحثون في الآداب والفنون.

ضيوف الشرف الأجلاء من روّاد الفكر والذكر في هذه البلاد، ومن الأعلام الذين خدموا الوطن والعربية والثقافة.

أيها الجمع الموقر: أجدد الترحيب بكم جميعا وأشكركم على تلبية الدعوة للمشاركة في هذه الندوة التي تتوسط من حيث توقيتها البرنامج الحافل لسنة الثقافة العربية في الجزائر وموضوعها **الفصحى وعامياتها.**

لست في حاجة في هذا التقديم للتأكيد على مكانة اللغة في الهوية الوطنية وهوية الأمّة العربيّة الإسلامية قاطبة، باعتبارها لغة القرآن الكريم، واللغة الرسمية

لكل البلدان العربية مشرقا ومغربا، واللغة المشتركة والجامعة للعرب والمسلمين منذ ما يزيد على ألف عام. ولن أفصّل القول فيما تعانيه لغتنا من تخلف وتهاون أهلها، وما حل بها من اضطهاد و إقصاء عن شؤون التعليم والإدارة والاقتصاد والاتصال أثناء ليل الاحتلال الاستيطاني الحالك حيث كانت لغة أجنبيّة في هذه الديار، ولولا صمود الشعب الجزائري أثناء المقاومة المسلحة والثقافية ونضالات الحركة الوطنيّة، وفي مقدّمتها حزب الشعب- حركة الانتصار وجمعية العلماء المسلمين بقيادة إمامها الجليل عبد الحميد بن باديس وثورة التحرير الكبرى وشهداؤها وقادتها العظام، لكانت الجزائر فردوس العرب والمسلمين المفقود إلى الأبد ولا ننسى ما حظي كفاح شعبنا من تأييد ومساندة أجمعت عليه الأمة العربية الإسلامية وأحرار العالم.

لقد تركت تلك المرحلة الحالكة من تاريخنا الحديث جرحاً عميقاً في الذاكرة الجماعية وانشطارات بين النخبة وتلوثاً لسانياً سببه البرنامج الإجرامي للكولونيالية الفرنسية المتمثّل في التجهيل والتفقير وتحقير الإنسان الجزائري وتشويه تراثه ومحاولات الإدماج الانتقائي ومضاعفاته في الأذهان والنفوس، وهناك كما تعلمون إلى جانب تاريخية اللغة عوامل أخرى مثل تعاطي الفرد والجماعة معها كظاهرة اجتماعية متعددة الوظائف والتأثير الذي يمارسه تسليع وتسويق الثقافات الوافدة ومنتوجاتها بلغاتها المهيمنة في عصر ثورة الاتصالات والمعلوماتية.

أيها الجمع الموقر: لقد حرص المجلس منذ تأسيسه في نهاية القرن الماضي على تعميم استعمال اللغة العربية في دوائر الدولة والمحيط الاجتماعي والاقتصادي، والجزائر من البلدان العربية القليلة، إن لم تكن الوحيدة، التي تحظى فيها العربية بقانون يجسّد البند الثالث من دستورها الذي ينصّ على أنّ العربيّة هي اللغة الوطنيّة والرّسميّة، ولها أيضا هيئة موضوعة تحت إشراف فخامة رئيس الجمهورية.

تسعى هيأتنا الاستشاريّة لنشر العربيّة وأُستعمالها على أوسع نطاق عن طريق التشاور والتنسيق مع كل المؤسسات والهيئات المركزية والمحلية، وتقديم الوسائل العملية لذلك وتحبيب لغتنا للأجيال من الصغار والكبار والتعريف بروائعها وتشجيع

منتوجها العلمي والأدبي فأفضل دفاع عن العربيّة هو قدرتها على منافسة غيرها فيما تنقله من علوم وآداب وفنون والاُعتزاز بها والغيرة عليها. و إننا نفضّل أن يقدّم المجلس مسيرته من خلال منهج عمله ومنجزاته فذلك ما يبقى في نهاية المطاف، وبين أيديكم لمحة عن حصيلة جهوده في الميدان.

السادة الأساتذة أيها الحضور الكريم: تعاني العربيّة اليوم من التهجين وتزحف عليها العاميات وتكاد تسلبها جماليتها وموسيقاها الرائعة التي نجد صداها في قصائد الشعر الملحون والأدب والفنّ الشعبي الأصيل، وقد نبّه فخامة الرئيس عبد العزيز بوتفليقة في أكثر من محفل إلى خطورة التهجين والتشوه اللغوي في بلادنا.

وتعلمون أن هذه الظاهرة تعمّ كل أقطارنا العربية وتشمل المنطوق والمكتوب وعلى الواجهات والإشهار، فهي تظهر إمّا مشوّهة، و إما غريبة ومنسية في عقر دارها.

السادة الحضور أيها الجمع الموقر: كيف نشخص وضع العربية اليوم؟ وأين الخلل؟ هل هو في منظوماتنا التربوية والإعلامية ومعروف أن منظومة التربية والتكوين في الجزائر تفتح أبوابها لحوالي ثمانية ملايين من التلاميذ والطلاب أي حوالي ربع السكان، وباُستثناء بعض المعاهد العليا وبعض كليات الجامعة فإن الجميع يدرسون العربية وبالعربية، بما فيها المدارس الخاصة إجبارياً، هل وراء هذه الوضعية انعدام التخطيط وغياب السياسة اللغوية على مستوى كل قطر وعلى مستوى الأمّة التي تتوفّر على العديد من المجامع؟ أين نحن مما يجري حولنا من تدُّفق متسارع في مجال المفاهيم والمصطلحات وألفاظ الحضارة، تَدفّقُ يؤسس لعالم ما بعد الحداثة الذي يقوده اليوم الثلاثي (Triade) المتمثل في الولايات المتحدة، والاتّحاد الأروبي، وجنوب شرقي آسيا؟ وكان حال هذه البلدان الأخيرة مثل حالنا في نهاية الستينات وتمكنت خلال العقود الثلاثة من القرن الماضي من تحقيق تقدم مذهل، ولم تنسلخ عن لغاتها ولم تفقد ثقافاتها الوطنية.

إن الفرضية التي نركن إليها هي أنّ اللغة، أية لغة، لا تتقدم أو تتخلف أو تتهجن لذاتها، إن التقدم والتخلف والتهجين من صفات الناطقين بها، فهم الذين يغذون لغتهم وينمون ثروتها

المعرفية والإبداعية أو يتراجعون إلى الوراء إذا أصابهم الوهن والتخاذل والكسل، لقد أثبتت العربية كفاءتها في الزمن العربي الإسلامي الزاهر، وأبدعت في علوم اللسان والبيان والبرهان وفنون الجمال من الخط إلى الرسم والعمران، ووصلت إلى العالمية، وتعولم منتوجها العلمي والأدبي والفني حتى القرن السابع الهجري.

أيها الجمع الموقر: يتطلب التقريب بين الفصحى ولغة الخطاب التخلص من الأمية في أقرب الآجال، فهناك علاقة بين المستوى التعليمي والرصيد اللغوي الثقافي للمتحدثين، على الرغم من أنّه لا توجد لغة ليس لها دارجة منطوقة ولغة فنية متعارف عليها عند أهل الاختصاص، ولكن الفقر الثقافي ونوعية مردود نظام التكوين من المدرسة إلى الجامعة من العوامل التي توسع المسافة بين الفصحى والدارجة، ولذلك من المستعجل تطوير مناهج ومضامين منظوماتنا التربوية والإعلامية وهو ما شرعت فيه الجزائر منذ بضع سنوات ومن المهم كذلك تشجيع البحث العلمي في فقه اللغة واللسانيات، فاللغة سوف تبقى أداةً للمعرفة وموضوعا لها، ومن الحكمة وضع سياسة رشيدة لامتلاك اللغات الأجنبيّة وترجمة وتوظيف ذخائرها وما تراكم فيها من المعارف والتقانات لصالح ثقافتنا ونهضتنا المأمولة، وليس الهروب إلى تلك اللغات أو النفور منها على طريقة النعامة.

ومن المهم كذلك العناية باللغة والثقافات المحلية وأذكر منها الأمازيغية الشائعة في مغرب الوطن العربي لسانا وتراثا، وإبعاد كل من العربية والأمازيغية عن التسييس والأدلجة فلم تكن أي منهما ضرة للأخرى أو منافسا لها عبر مئات السنين لقد تبني الأمازيغ العربية طواعية مع الإسلام عقيدة وثقافة وحضارة، وليس عرقا أو سلالة، وساهموا في إثراء آدابها وعلومها فلكل من اللغتين امتداد في أخرى.

إنّ المصالحة الوطنيّة التي كرس لها الرئيس عبد العزيز بوتفليقة الكثير من جهده وبشّر بها في كلّ فجّ عميق، تعني أيضا المصالحة مع ذاتنا الحضارية ومع عصرنا ومع لغتنا وذلك بحبّها وخدمتها بالعلم والعمل، فالتنمية تبدأ بالإنسان، بالمرأة والرجل فهما معا منطلق التنمية وغايتها.

في البدء كانت الكلمة الأولى في الذكر الحكيم وباللّسان العربي المبين ﴿**إقرأ باسم ربك الذي خلق...**﴾ ومن الكلمة المنطوقة والمكتوبة بدأت كل الحضارات وتطوّرت الثقافات فالديمقراطية ثقافة والتنمية ثقافة..والحداثة ثقافة والمواطنة ثقافة.. والثقافة التي تحمل خصائصنا المميزة من لغة وتراث واختراع وإبداع هي إضافتنانحن للحضارة الإنسانية. وإن الهدف المنشود هو وصول بلدانا العربية إلى تأسيس مجتمع المعرفة ونشرها بين المواطنين بلغة الضاد الجميلة وبناء مجتمع تسوده الحرية والرفاهية.

معالي السادة الوزراء، السادة الأساتذة... أيها الجمع الموقر: هذه كلمة تقديم أقرب إلى الخواطر السريعة، فموضوع الندوة ومحاورها بما فيها الورشتان المخصصتان للسمعي البصري والإبداع الفني والأدبي موضحة في الورقة المقترحة من اللجنة العلميّة، ونحن على يقين بأن الأساتذة الأفاضل من أهل الخبرة والاختصاص سوف يوفون الموضوع حقه من التوصيف والتحليل والاقتراح.

ويسعدني الآن أن أدعو صاحبة الكلمة المشهورة التي وجهتها إلينا في إحدى ندوات المجلس في هذه القاعة بالذات قبل خمس سنوات يوليو (جويلية 2002)، وهي على رأس وزارة الاتصال والثقافة والناطقة الرسمية باسم الحكومة أقتبس من كلمتها ما يلي: "اللغة العربية من أرقى اللغات وأجملها...اعتبروني من فضلكم في خدمة اللغة العربية"

لقد صدقت السيّدة الوزيرة ووفّت بالعهد.

شكرا لك ولمساعديك على مساهمتك الثمينة، وإليك كلمة الافتتاح

د.محمد العربي ولد خليفة

كلمة معالي وزيرة الثقافة السيدة خليدة تومي

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على خير خلق الله

سعادة الدكتور محمّد العربي ولد خليفة، رئيس المجلس الأعلى للغة العربية؛

معالي السيدات والسادة الوزراء؛

سعادة السيد ممثل الأمين العام لجامعة الدول العربية؛

سعادة السيد ممثل المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم؛

سعادة السفراء؛

الأساتذة والدكاترة الأجلاء؛

ضيوف الجزائر الأعزاء؛

أيّها الحضور الكريم؛

إنه لمن دواعي الفخر والاعتزاز أن أشارك جمعكم الموقر هذا، أشغال اللقاء الذي بادرت به هيئة علمية موقرة، نكن لها مشاعر العرفان والتقدير، ونثمن الجهود التي تبذلها في سبيل الحفاظ على اللغة العربية وترقية تدريسها وتداولها في أوساط الشعب الجزائري. وإن المجلس الأعلى للغة العربية ساهم ويساهم بإستراتيجية مدونة في تطوير مقاربة اللغة العربية بحيث لا تعامل كلغة مدفونة في المعاجم، ولكن باعتبارها تراثاً حياً تتداوله الألسن، فينمو ويتحوّل ويغتني ويتجدد باستمرار.

ولا شك أن طرح إشكالية علاقة اللغة العربية بالعاميات، التي تتشكل امتدادا لها، يأتي في صلب الانشغالات التي أصبحت تطرح بإلحاح، وتتطلب فتح نقاش جاد حولها، يسمح بإيجاد حلول عاجلة للواقع اللغوي الذي يميزه الاضطراب والفوضى النابعين من عدم أخذ مسألة تحديث اللغة وفتحها على الراهن المعرفي والتداولي، المكانة المهمة، وهذا لعدة أسباب، يمكن إجمالها في النقاط التالية:

ـ إن اللغة العربية لغة ضاربة بجذورها في القدم، حاملة لرسالة مقدسة، إذ تنزلت بهذا اللسان العربي المبين، آخر الرسالات السماوية، فمثل القرآن العظيم أوج البلاغة والبيان والإعجاز الذي منح اللغة العربية قداسة، وأهلها لتنشر في العالم أجمع، وقد ساعد اتساع الفتوحات الإسلامية، وتحول العربية إلى لغة علوم ومعارف، نتيجة حركة الترجمة الكبيرة، والرقي الحضاري الذي جعل المسلمين يسيطرون على أغلب أجزاء العالم المعروف حينئذ.

ـ قابلية اللغة العربية للنمو والتطور هي التي سمحت لها أن تمتص جزءاً كبيراً من الكلمات المتداولة آنئذ، وتستوعبها، فدخلت كلمات رومية، وفارسية في الحقل الاستعمالي للغة العربية كما أن لغات الهامش، واللهجات المستعملة لدى الناس في مختلف بلاد المسلمين عرفت أحياناً كثيرة طريقها إلى هذه اللغة، مما جعلنا نؤكد أنه على هامش كل لغة رسمية توجد لغات ولهجات تشكل في غالب الأحيان الاستعمال اليومي لهذه اللغة الرسمية، وما يجعل عليها من تخفيفات وتعديلات تتناسب مع أمور المعيشة والحياة، وتمثل ظاهرة صحية لتطور اللغات وتحولها، وعندما نسترجع تاريخ اللغة العربية نلاحظ هذا جليا، فلغة الشعر الجاهلي تختلف عن لغة الشعر العباسي أو الأندلسي. كما أن الثورة التي أدخلها الجاحظ والتي قرب خلالها العربية من اللغة اليومية، منحت آفاقا أرحب، وفتحت هذه اللغة على مستويات بيانية وتداولية أخرى، ثم عندما نأخذ مثلا ألف ليلة وليلة، وهي أجمل حكاية أبدعها العالم، نجد أنها كتبت بلغة قريبة جدا من لغة الناس في ذلك الزمان، حتى أن النقاد عاملوها باعتبارها عملا شعبيا لا فصيحا، وهذا لم يحدث فقط في الثقافة العربية، ولكن حتى في ثقافات أخرى، فالكوميديا الإلهية لدانتي، أبدعها باللهجة الفلورنسية لزمانه، عامدا إلى تطوير اللغة وإثرائها، ومن تلك انبثقت اللغة الإيطالية.

خلاصة القول في هذه النقطة: إنّه لا يوجد تنافر بين اللغة العالمة الفصيحة، وبين اللغات العامية الشعبية التي تمثل عامل إثراء وغناء، إذ عرف اللغويون وعلماء النحو والبلاغيون كيف يستثمرون هذه المادة الخام لإدخالها في النسيج الحي للغة

الفصيحة. ومن الأرجح أن سبب موت اللغات واندثارها هو دخولها في حالة جمود وانغلاق يجعلها تتحنط ثم تبتعد شيئا فشيئا عن شؤون الحياة والمعرفة، للتحول إلى كائن متحفي. ولذلك من الواجب التنبيه، في حضور هذا الجمع من العلماء والمختصين، إلا أن المجهود الذي يجب أن يبذل لا بد أن يذهب في اتجاه عمل تتكفل به مجامع اللغة العربية والجامعات التي عليها أن تنجز سنويا، في المقام الأول، قواميس اللغة العربية، تدخل فيها كل ما يستجد، سواء في الاستعمال اليومي أو في المصطلحات والمفاهيم التي تبدع في الميادين المختلفة، كما يحدث في اللغات الأخرى، كما على المؤسسات العلمية أن تهتم بحركة الترجمة الكثيفة، إذ هي الوسيلة المثلى لتطوير اللغة وترقية البحث فيها،هذا من جهة، ومن جهة أخرى لا بد أن نطور أساليب تعليم اللغة وتبسيط نحوها وقواعدها بما يسمح من تسهيل تعلمها وممارستها، ولابد من عصرنة المفاهيم اللغوية المرتبطة بها. وهنا لابد من تثمين الجهود الجريئة التي بدأها بعض الباحثين، لكنها قوبلت بالشك والتوجس، مما يثبط الهمم، ويفل العزائم.

إن المسألة اللغوية تشكل اليوم إحدى التحديات الكبرى، التي يجب مواجهتها بشجاعة وحكمة وهي رهان يتوقف عليه نجاح مشروع الحداثة الذي مازلنا نتخبط على أعتابه، ونضع رجلا في الماضي الذي لم نستوعبه، ورجلا في الحاضر الذي لا نملك أدواته.

وإذا كان هناك من رجاء، فإنه يتمثل في تبني استراتيجيات كبرى، تنخرط فيها كل الدول العربية، عبر مؤسساتها العلمية والبحثية والأكاديمية، لتقديم تصور شامل للتكفل بأسئلة الراهن اللغوي في العالم العربي.

أما عن العاميّات المتداولة في مجتمعاتنا، فيجب أن نهذبها ونقاربها لا كظاهرة مرضية يجب القضاء عليها، ولكن كواقع يمكن ترقيته، من خلال تقريب العربية وتحبيبها للناشئة وللناس بواسطة أساليب وبرامج مدروسة. وهنا لا بد من الإشارة إلى أن الكثير من التراث الإبداعي لمجتمعاتنا مكتوب بهذه اللهجات، لذلك يجب أن

نسعى للتقريب بين اللغة العالمة واللغة الشعبية دون أن تفقد الأولى من منزلتها ومكانتها.

ولا يفوتني أن أنبّه إلى أن اللغة ترتبط ارتباطا وثيقا بالمنزلة التي يحتلها مستعملوها في الساحة العالمية علميا وسياسيا وثقافيا. إذ يوم كان العرب يسيطرون على العالم، كانت لغتهم هي اللغة الأولى، أما الآن، وهم في آخر الركب، فلا شك أن اللغة تأثرت وتتأثر بحالتنا التي نحن فيها.

لذلك يجب أن نرقي كل أوضاعنا إذا أردنا لغة تكون في مستوى التحديات والرهانات وهذا بالذات هدف البرنامج الضخم للإنعاش الاقتصادي لفخامة رئيس الجمهورية عبد العزيز بوتفليقة، ولا يسعني إلا أن أتمنى النجاح لأشغال ملتقاكم العام هذا.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كلمة ممثل جامعة الدول العربية،

معالي الوزير المفوض السيد ممدوح الوصلي،

ممثل السيد الأمين العام لجامعة الدول العربية.

معالي السيد محمد العربي ولد خليفة، رئيس المجلس الأعلى للغة العربية؛

معالي السيدة خليدة تومي، وزيرة الثقافة؛

معالي الوزراء؛ أصحاب السعادة السفراء

السيدات والسادة الحضور

يطيب لي أن أشارك معكم أنا وزميلي الوزير المفوض محمد الدالي افتتاح أعمال الندوة الدولية حول:" الفصحى وعامياتها". وفي هذا الإطار أتوجه بخالص الشكر والتقدير للمجلس الأعلى للغة العربية، ووزارة الثقافة بالجزائر على دعوتهما الكريمة للمشاركة في أعمال هذه الندوة.

وقد كلّفني السيد عمرو موسى، الأمين العام لجامعة الدول العربية أن أنقل لكم تحياته وتمنياته القلبية بأن تحقق هذه الندوة الأهداف التي نتطلع إليها جميعاً وخاصة دعم وترسيخ لغتنا العربية وذلك لكونها مُوحَدة ومُوحِدة بمعنى أنها لغة العرب التي توحد بين دول وشعوب وطننا العربي من الخليج إلى المحيط، وبالإضافة لذلك يتحدث بها مسلمو العالم أجمع اللذين ينتشرون في دول كثيرة في مختلف القارات وذلك كنتيجة لانتشار الإسلام وما ترتب عليه من اتساع دائرتي الثقافتين العربية والإسلامية في مناطق كثيرة من العالم.

ولعلكم تتّفقون معي في أن حضارتنا العربية والتي تمتد بجذورها في أعماق التاريخ قد قامت أساساً على ما تتميّز به لغتنا العربية من ثراء لغوي في المعاني والتعبير وما تتضمنه من مفردات لغوية قلما توجد في اللغات الأجنبية الأخرى ولقد كان ذلك

خير زاد يستعين به المواطن العربي في كل مكان للتعبير عن ذاته وثقافته وهو الأمر الذي من شأنه إضفاء أبعاد جديدة للغتنا العربية وينقلها من الدائرة الثقافية ليدخل بها إلى إطار الانتماء والهوية لوطننا العربي وهي إشكالية دائماً ما يتناولها فقهاء الفكر السياسي في دراساتهم وأبحاثهم لدرجة جعلتهم يؤكدون على علاقة الارتباط بين اللغة والمواطنة من ناحية، والمواطن وهويته من ناحية أخرى وذلك في إطار ترسيخ مفهوم متميز للأمن الثقافي العربي الذي يشكل أحد مفردات الأمن القومي العربي ككل.

لقد برع العرب في الماضي في توظيف اللغة العربية في كافة فروع المعرفة بل وحققوا من خلالها نتائج مبهرة في كافة المجالات عمّت فوائدها كافة أنحاء العالم، وأصبحت هذه النتائج أساساً لأمهات العلوم في الطب والتشريح والرياضيات والهندسة والجغرافيا والفلك والفلسفة والمنطق، حتى أن ذاع صيت وشهرة العرب في الماضي داخل قارة أوروبا ذاتها حين تداولت أوروبا قولاً مأثوراً عن العرب وثقافتهم وهو" **كلما اتجهت جنوباً كلما ازددت ثقافة**" اقتناعاً منهم بمدى الازدهار الحضاري الذي وصل العرب إليه في تلك العهود وهو ما نهل منه الأوروبيون في عصر النهضة لكي يتحولوا من الظلمات إلى النور.

لقد حان الوقت لكي نستعيد أمجادنا السابقة، والسبيل في ذلك أن نخاطب أنفسنا أولاً قبل أن نخاطب الآخر، وذلك ومن خلال إجراء عملية تقييم للذات الثقافية العربية، بهدف بناء البيت الثقافي العربي من الداخل في أهدافه التي نتطلع إليها ومضمونه الثقافي الذي يستوعب قيمنا ومبادئنا الأصيلة وآلياته العملية التي تضمن عملية التحرك بين الأصالة والحداثة بحيث يمكن أن نتعامل مع الواقع بأسلوب العصر خاصة وأن العولمة بسماواتها المفتوحة وبطرقها السريعة للمعلومات لم تترك مجالاً للانغلاق أو التقوقع حين أصبح العالم وكأنه قرية واحدة تنساب فيه المعلومات لدرجة جعلت البعض يرفع شعار(**ثقافة بلا حدود**) الأمر الذي يتطلب منكم جميعاً باعتباركم خيرة المثقفين العرب وحراس الثقافة العربية، العمل على حماية لغتنا

وثقافتنا العربية بالتصدي للغزو الثقافي الخارجي من خلال توظيف الثقافات الوافدة إلينا في إطار قيمنا ومبادئنا وظروف مجتمعاتنا.

إنّ الثقافة الوافدة قد تفرض على العالم العربي نوعاً من التغيير وفقاً لأفكار دخيلة علينا خاصة ما تنقله الإذاعات والقنوات الفضائية عبر وسائل الإعلام المختلفة، هذا بالإضافة إلى الدور السلبي للعمالة الوافدة إلى المنطقة العربية بعاداتها وأفكارها ولغاتها، ولذلك علينا أن نتصدّى لمثل هذه الثقافات حتى لا يكون الإصلاح والتحديث الثقافي الذي نتطلع إليه نابعاً من الخارج بل يجب أن يكون بعقول عربية تعي معنى وقيمة المواطنة والانتماء إلى عالمنا العربي.

وفي نهاية كلمتي إليكم أود أن أؤكد على أهمية هذه الندوة ودورها في تقديم خلاصة واضحة تتضمن معالجة حقيقية توفق بين العاميّة التي نتحدث بها يومياً في حوارنا الدارج من ناحية ولغتنا العربية الفصحى بما تتضمنه من أبعاد لغوية ونحوية ومعان معبرة قلما وجدت في لغات أخرى مع الأخذ في الاعتبار أن العامية التي أشير إليها ما هي إلا جزء من لغتنا العربية وليست بعيدة عنها فهي تعبر عن تراثها وموروثنا الثقافي الذي يمتد بجذوره في أعماق التاريخ.

شكرا لكم، والله الموفق،،،

كلمة ممثل المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم،

الأستاذ : محمد صالح الجابري

ممثل المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

معالي السيدة خليدة تومي، وزيرة الثقافة؛

معالي الأخ الأستاذ الدكتور محمد العربي ولد خليفة، رئيس المجلس الأعلى للغة العربية؛

الأساتذة الأفاضل؛

السيدات والسادة الأفاضل.

لا مناص في البدء من إزجاء التحية عطرةً مقدَّرة ومستحقَّة لكلّ من فكّر وخطّط ودعا لإقامة هذه الندوة التي تتناول موضوعاً جوهرياً في الثقافة العربية، وفي حياة الأمة العربية، ألا وهو موضوعُ اللغة العربية، وما يحيق بها من أخطارٍ محدِقة، ما تكاد تتوارى حينا حتى تطُلّ برأسها مجدَّداً وقد ازدادت شراسةً وأصبحت أكثر خطورة، سواء أكانت هذه المحدْقاتُ من العاميات التي تتناهش أطرافَ هذه اللغة، أم من اللغاتِ المنافسة المهيمنةِ التي ترتدي لَبُوس العالمية والكونية، وتسعى بكلّ ما أوتيتْ من المناورة والغطرسة لالتهام اللغاتِ الأخرى، في موجاتٍ متعاقبة تستهدف سلبَ الامم والشعوب والحضاراتِ أهمَّ خصيصةٍ ممّا بقي لها من الخصائص، وآخرَ مقوِّم من مقوماتها، مقّومِ اللغة الذي تُدافع به عن وجودها، وتَميُّزِها وكينونتِها.

شكراً للمجلس الأعلى للغة العربية الذي يتمحّض لهذه المهمة النبيلة، ويقوم حِصناَ منيعا للذود عنها في هذا البلد العزيزِ الذي دفع للحفاظِ على اللغة العربية، والمناضِلة في سبيلها ثمناً باهضاً من الشهداء الأبرار الذين اعْتَبرُوا الاستشهاد في سبيل حرِية وطنِهم يحمل في طياتِه رسالةَ استردادِ هويّتهم، وثقافتِهم، ولغتِهم، وعقيدتهم التي بدونها ما كان مذاقُ الحرية في نظرهم له نفسُ الطَّعْم والنكْهة والبهْجة، بل إن

النخبةَ المصلِحة والمفكّرةِ في الجزائر في فترة الكفاح الوطني كانت تعتبر المساسَ باللغة العربية، ومحاولةَ "إعدامها" يُوازي في جُرمه وفظاعتِه إعدامَ الشخصية الجزائرية مثلما جاء في مقال يحمل عنوان " إعدامُ الشخصية الجزائرية بإعدامِ اللغة العربية والدين الإسلامي" نشرتْه جريدة " البصائر" في 21 ماي 1954م.

إنّ موضوع الفصحى والعاميات موضوعٌ قديم متجدِّدٌ، ومن الأهمية بمكان أن تنهضَ المؤسّساتُ التي تُعنَى بالشأن اللغوي برصْد كلِّ حركة في إطاره، سواء أكانتْ عفويةً تلقائية تنجمُ عن الغفلة واللامبالاة اللَّذيْن يتولد عنهما ما يسمَح باستشراء ظاهرةٍ من الظواهر السلبية أم كانت خُطة مبرمجةً تتعمد التدرُّج في تنفيذها، وجسّ النبض قبل الإفصاح عن هدفها.فاليقظة في مثل هذه الأحوال تكون عنوانَ الحزْم والجديَة والتحلّي بالمسؤولية.

وأيا كان الأمرُ، فإنّ مما لا شك فيه أن ظاهرةَ العامياتِ أصبحت منافِسة منافَسةً غيرَ محمودةٍ للفصحى، سيما في مجالاتِ الإعلام، وعلى شاشاتِ القنواتِ الفضائية، وفي المسلسلات، وحتى في بعض الإبداعات، و إذا كانت لا تُشكل في الوقت الراهن خطراً جسيماً وشيكاً فإنها ستشكّل خطراً أشدّ جسامة فيما لو غُضَّ الطرْفُ عنها، وتُركَ لها الحبلُ على الغارب كما يقال.

و إنّ المنظمةُ العربية للتربية والثقافة والعلوم التي تُعدُّ حاميةَ اللغة العربية، و إحدَى قِلاع الدفاع عنها، ودرءِ الأخطار التي تستهدفُها فإن الحفاظ على اللغة العربية ودعمها يُعتبرانِ من أبرز أهدافها إن لم نقُل من أُولَى أولوياتها، ومن ثمّة فإنَّها تُحيِّي المسؤولينَ على إقامة هذه الندوة في إطار هذه السنة سنة الاحتفال بالجزائر عاصمة الثقافة العربية، وتثمِّن مبادرتَهم، وتُبدي استعدادَها لتقديم جميع أوجهِ المساندة لتنفيذ ما يصدرُ عن الندوة من توصياتٍ، وتضع خبرتَها وخبراءَها على ذمّةِ المجلس الأعلى للغة العربية لإنجاح مسعاه، وتحقيقِ أهدافه، وتوسيعِ جبْهته الدفاعية، ورصِّ بنيانه.

كان الأستاذ الدكتور المدير العام المنجي بوسنينة حريصاً على المشاركة بنفسه في هذه الندوة لأهمية موضوعها، لكن ظروفاً طارئة أوجبتْ بقاءَه في مقَرِ المنظمة بتونس، فكلفني أن أمثّل المنظمة في هذا اللقاء.

إن أقربَ تعريف للَّهجات العاميّة هو ما ورد في كتاب أنور الجندي:" اللغةُ العربية بين خصومها وحُماتِها"، وقد عرض فيه لجُمْلة من آراءِ الكتّاب العرب بهذا الخصوص، من بينهم جُورجي زيدان الذي يذكر بأنَّ :" العاميّة " **تمتاز**" بركاكةِ عباراتها مع فيها من الألفاظ الأعجمية"، بينما اعتبر الكاتب المصري عبد القادر المازني بأن:" اللغةَ العاميّة تحتاج إلى ضبطٍ و إصلاحٍ وتوسيع"، أما علي عبد الواحد وافي فإنه في كتابِه" فِقه اللغة" يُعرِّف العاميّة بأنها:" لغةٌ فقيرةٌ كلّ الفقر في مفرداتها، ومضطربةٌ في قواعدها وأساليبِها ومعاني ألفاظِها وتحدِيد وظائف الكلمات في جُمَلها".

وعلى هذا النّحو تتعدد آراءُ العلماء العرب، وتتّفق على أنّ اللهجاتِ العاميّةَ لا تحمل مقوماتِ البديل عن اللغة العربية التي حافظتْ على بنيتها وتطوّرت مع الزمن، وقاومت مختلفَ ضروبِ التحدّي التي واجهتْها طَوال أكثر من خمسة عشر قرنا، ورسختْ إلى جانب اللغات الرئيسية في العاَلمِ مما أهّلها لأن تُصبح إحدى اللغات الكبرى المستعمَلةِ في المنتظماتِ الأممية، و إحدى اللغات العصِيّة عن الذوبان والصَّهر في أيّ كيانٍ آخر، وفي أيّ تشكُّل مُغايِر.

وبالعودة إلى أوائل القرن الماضي نتبيّن أنّ محاولاتِ إحلالِ اللهجات العاميّة مكان اللغة العربية اقترن بظاهرةِ استعمار الدول العربية، حيث ظهرَ فريقٌ من المستشرقين اللذين حاولوا بكلّ الوسائل التقْعيدَ لهذه اللَّهجات لتحقيق غايتين: الأولى إضعافُ اللغة العربية التي ترتبط بالهوية والعقيدةِ معاً، والثانية الفصلُ قدر الإمكان بين الدول العربية التي تُعدُّ اللغة العربية أحدَ مقوماتِ وحدتها وترابطِها، ويرِدُ في سياق ذكْر هؤلاء الأبْ لامنْس، وجورج مارسِي والمستشرق الإنكليزي وُلتر صاحب كتاب "لغةُ القاهرة". ومن العرب سلامة موسى و إسكندر المعلوف، وسعيد عقل الشاعر اللبناني، وذهبتْ المغالاةُ بفريق آخر إلى حدِّ المجاهَرة بالاستعاضةِ عن الحرف

العربي بالحرفِ اللاتيني أُسوةً بما فعل كمال أتاتورك. إلاّ أن هذه الدعواتِ كانت تذهبُ أدراجَ الرياح، وتتحطمُ أوهامُ أصحابها على صخرة التمسّك العنيد والتشبثِ الحميد باللغة الأمِّ اللغةِ العربية.

لعلَّ العاملَ الحاسم في فشل كلّ هذه المحاولات هو انتفاءُ الحجة التي كان يتذرع بها هؤلاء وهيَ صعوبةُ استيعاب اللغة العربية، واقتصارُها على الخاصة دون سائر أفراد الشعب، ذلك أنّ اللغة العربية حققت في العقدِ الأخير على الأقل نقلةً نوعيةً حيث تدرجتْ هذه اللغة نحو التَّيسير والتهذيب والتشذيب والتوليد مماشاةً للعصر، وشاع استعمالُها بين سائر أفراد المجتمع ولم تعُدْ مُلكاً للخاصة دون غيرهم، إضافةً إلى ارتفاع نسبة التعلّم التي مكّنت الجميعَ من مستوى مشتركٍ من التفاهم، وانتفت بذلك حجةُ بعض الذين كانوا لا يفتأون يردّدون بأن العربية وجدت لتكون لغةً للخاصة من العرب.

لقد تطارحتْ المنظمة في عديد المناسبات هذا المشكِل اللغوي الذي يواجه اللغةَ العربية وانفردتْ الخطةُ الشاملة للثقافة العربية التي صدرت سنة 1985م، وتمّ تحيينُها في سنة 1995م، بإبراز هذا الإشكال في القسم الثالث منها القسمِ الخاصّ بالثقافة بوصْفها تعبيراً تحت عنوان : اللغة العربية والمشكلُ اللغوي" الصفحة 246 حيث تُوردُ الخُطّةُ ما يلي:

" تعترض اللغةَ العربيةَ اليومَ – بحكم حيْثيات موضوعيةٍ- بعضُ الصعاب العَرَضية منها:

أ ـ ظروفُ تفهّم اللغةِ السّليمة، و يعمل في هذه الناحية أمرانِ:

* وسائلُ الإعلام السمْعية والبصرية وقد أوصلت اللغةَ السَّليمة حتى إلى الأميّين، ورفعتْ مستوى العاميّةِ، ولكن جهودَها في سلامةِ اللغة تأتي غالباً بشكل عفْوي، وليس عن سياسة مصمَّمةٍ، وتوجيهٍ مخطط، أضِفْ إلى ذلك بعض النزعاتِ الطارئة التي بدأت تنتشِر في بعض الوسائل الإعلامِية: السمْعيةِ منها، والسمعيةِ-البصرية، وكذلك

المكتوبةِ، وفيها ميل واضح إلى تغييب اللغة العربية الفصحى، والتوسُلِ باللهجات استدراراً لعطْف جماهيري رخيصٍ ومغلوطٍ في الآن نفسه، أو جرياً وراء الكسْب والإشهار العاجل.

* * طرقُ تعليم اللغة في المدْرسة وهي ليستْ دوماً جذابةً بسببِ طرق التبليغِ السيئة.

ب ـ ظروفُ المزاحمة التي تلقاها العربيةُ، فهي تلقى مزاحمةً مزدَوجة من العامِية من جهةٍ ، ومن اللغاتِ الأجنبية من جهة أخرى.

ج ـ مدَى استجابةِ اللغة لحاجات العصر، والتجاوب مع مفاهيم الحياة العلمية واليومية الحديثة، ولعلّ سلبية المثقَّفين تحْرم اللغة العربية من حيويتها.

وثمة نظرةُ دونيةٌ يُنظر بها إلى اللغة العربية في المجالات العلمية خاصة، وتُعبِّر هذه النظرةُ عن نفسِها في لغةِ تدريس العلوم في الجامعات ولغةِ الأبحاث العلمية التي تُكتَب وتُسّرِبُ التعابيرَ الأجنبية إلى لغةِ المثقفين. ومنَ القُوَى الأجنبية منْ تُشجِّع العاميةَ دراسةً ودعما، وتؤكِّد صعوبةَ العربية السليمة، وثمة دعواتٌ تدعو لترك اللغةِ الفصيحة، والكتابةِ، والتعليمِ بالعامية وهي دعواتٌ مشبوهة لا يُراد بها وجهُ العلم ولا خيرُ العروبةِ.

لقد أصاب كلّ الذين اختاروا لهذه الندوة موضوعَ معالجَة هذه القضية التي تكتسب وجاهَتها وأهميتَها ومغزاها من جوْهر ومن صميم اللغة العربية التي تكن كمثل بعض اللغات الأخرى قديمها وحديثها مجرّد لغةٍ إنما هي لغةٌ وعقيدةٌ وحضارةٌ وقيمٌ وأفكارٌ و إبداعٌ وتاريخٌ، وليس كلّ هذا بقليل أو يسير.

إنّ الشكر يرتفع بحقّه إلى مقام فخامة الرئيس عبد العزيز بوتفليقة رئيس الجمهورية الذي اتسعت شواغلُه للإحاطة بهذه القضية وبالمحاذير التي تنطوي عليها اللهجاتُ العاميّة من هُجنه ورطانةٍ وخطرٍ على الفصحى، و إلى الذين التقطوا الإشارَة بنباهةٍ ووعي، وخطّطوا لهذه الندوة، وتفضلوا بتوجيهِ الدعوة للمنظمة العربية (ألكسو) وفي مقدِّمةِ هؤلاء معالي وزيرة الثقافة السيدة خليدة تومي، وصديقنا

العزيز الذي عرفنا الكثيرَ من مآثِره ولفتاتِه في دعم اللغة العربية الأستاذ الدكتور محمد العربي ولد خليفة رئيس المجلس الأعلى للغة العربية، وكذلك زملائه ومعاونيه الذين أحاطونا بالرعاية والعناية وحفاوة الاستقبال والترحاب وكرمِ الضيافة.

والتحيّة أخيرا للجزائر العزيزة الخالدة ولمثقّفيها ولتربتها الخيّرة المعطاء، الحافلةِ بعظائم التضحيات.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

تكريم نخبة من الشخصيات الوطنية والثقافية

وعلى هامش الجلسة الافتتاحية، بادر المجلس بعد جلسته الافتتاحية وبمشاركة السيدة خليدة تومي بتكريم نخبة من المفكرين وفرسان العلم الذين خدموا أحد مقومات الوطنية الجزائرية، ألا وهو لغتنا الوطنية الموحدة والجامعة أثناء حقبة الاحتلال الحالكة، وبعد تحرير الجزائر من الكولونيالية الظلامية.

فقد عبر المجلس من خلال هذه المبادرة على عرفان الأجيال اللاحقة لما قام به رجال ونساء الأمس من جهود لخدمة الثقافة الوطنية، وإثراء تراثها العلمي والإبداعي.

والسيدة والسادة المكرمون هم:

- فضيلة الشيخ عبد الرحمن الجيلالي
- فضيلة الشيخ عبد الرحمن شيبان
- الأستاذ عبد الحميد مهري
- الأستاذ عبد الله شريط
- الأستاذ عبد الله الركيبي
- الأستاذة زهور ونيسي

المداخلات العلمية

العامي والفصيح والمشترك بينهما (*)

د. علي فهمي الخشيم
رئيس المجمع الليبي للغة العربية

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

يسعدني أن أتناول الحديث في مستهل هذه الندوة، نـدوة الفـصحى وعامياتهـا، وتكون البداية بالشكر للمجلس الأعلى للغة العربية على اختياره لهذا الموضوع الذي يكتسي أهمية بالغة في حياة الأمة العربية، بعدما آل إليـه وضـع العربيـة بمـستوياتها، العامي والفصيح والمشترك بينهما.

وأبدأ من الجزائر التي عرفت الظاهرة على غرار باقي البلدان العربية، فعندما زرتها في بداية سنوات استقلالها ، لاحظت أن مواطنيها لا يفهمون ما أقول ، ولم أكن أفقه ما يقولون وهذه ظاهرة موجودة في كثير من بلـدان العـالم بمـا في ذلـك البلـدان العربية، ففي لندن مثلا هناك أربع لغات ، تختلف من منطقة لأخرى، بـل في المنطقـة نفسها نجد لغة لا يفهمها إلا القائمون عليها كلغة بحارة لندن الذين يتكلمـون لهجـة أنجليزية ، بل لغة تختلف تماما عن لغة وسط مدينـة لنـدن، وفي فرنـسا كـذلك نجـد هناك عدة لغات، فلغة باريس تختلف عن لغة مارسيليا ولغتهما ليست شبيهة باللهجـة المتداولة في مونبيليه وغيرها، ومعنى هذا أن هناك مستويات في كل لغـة،ففي العربيـة تتباين اللغة العربية العلمية عن الأدبية ومستوى اللغة فيهما يختلف عن لغة الـشارع ولغة وسائط الإعلام، لأن لغة عالم الرياضيات والكيمياء ومختلف العلـوم بقـدر مـا تختلف عن لغة الإعلام، ولغة العامة ، فإنها تختلف اختلافا جوهريـا عـن لغـة الأدب والفنون وخاصة في الشعر الذي يمتاز عن غيره بكون لغته فيها تباين عن لغـة البـشر على اعتبار أنها لغة شياطين (للشعر شياطين). من هنا أنا واثق أن كلامي هذا مفهـوم الآن لدى الجزائريين سواء في قسنطينة أو بسكرة أو تلمسان أو الجزائر أو عنابـة أو

في طرابلس ومسراتة وغيرها، لكون هذه البلاد أصبحت لها لغة موحدة جامعة، منسجمة تماما مع اللغة العربية الوسطى المفهومة في تونس والمغرب ودول المشرق، وفي غيرها من البلدان العربية، غير أن هذا لا ينفي الواقع بوجود لغة عامية أودارجة، فقد خصصنا العام الماضي حلقة علمية لتاريخ ليبيا، فتكلمنا عن حواضرها وأريافها وعن لغة بدوها التي تمتاز بصفائها وخلوها من الدخيل المستهجن، وخصصنا هذا العام حلقة أخرى لدراسة الواقع اللغوي لليبيا، وكان الغرض من الحلقتين الدراسيتين: تأكيد اللغة العربية الأصيلة قصد تدعيمها، وتحديد المصطلحات الدخيلة بغرض الحد منها وتعويضها بما يناسبها في العربية من حيث المعنى والمبنى، وقد وقفنا على حقيقة مفادها أن لغة البدو موغلة في عروبتها إلى درجة الغريب، غير أنّ لغة البدو هذه تكاد تنقرض باستثناء منطقة برقة، التي ما تزال تحافظ على مكانتها في البداوة، لأن باقي سكان ريف ليبيا شملتهم الحضارة بدرجات متفاوتة من حيث استعمال اللغة ، فأصبح الريفيون يملكون شروط التمدن من وسائل اتصال كالموبايل والتلفاز، والراديو والسيارة وغيرها، مما جعل اللغة المستعملة لديهم تتأثر بالكلمات والمصطلحات الدخيلة، وتتحول لغتهم تدريجيا من لغة عربية فصيحة إلى لغة وسطى تحمل في طياتها الكثير من الدخيل المستهجن والعامي.

وهذا الواقع لا يخص المجتمع الليبي أو الجزائري أو غيرهما ، بل إننا نجد الظاهرة امتدت إلى وسائل الإعلام فمنذ 20 سنة خلت لم يكن للمشاهد العربي فضائيات ليعرف اللغة المستعملة في الأقطار العربية، واليوم أصبحت الفضائيات العربية تستعمل اللغة الدارجة أكثر من غيرها، فأصبح يتحدث فيها العلماء والفقهاء ورجال الدين والسياسيون والإعلاميون وكلهم يتحدثون بدارجات بلدانهم، فالفضائيات اللبنانية والمصرية والسورية والخليجية والمغربية والليبية، كلّها تتسابق في تقديم برامجها باللغة العامية المحلية لهذه البلدان ، حتى إن المتتبع لهذه الظاهرة ليجزم بأن هناك تسابقا بين هذه الفضائيات في الترويج للغات العامية المحلية كبديل عن الفصحى في الوقت الذي يوجد فيه لدى الأمة لغة مفهومة عند كل المشاهدين

العرب والمسلمين هي اللغة العربية الفصحى التي يفهمها العربي والمسلم من المحيط إلى الخليج بل إلى كل البلدان والجاليات الإسلامية في باقي بلدان العالم، غير أن ثمة من يصر على استعمال العامي ،ويشجع على ذلك حتى بتخصيص المال لبعض البرامج التي تقدم للمشاهد العربي باللغة الدارجة المحلية ، فأصبح بعض علماء الأزهر يتكلمون باللهجة المصرية، وكأن هناك صراعا حقيقا بين اللغة الفصحى والعامية.

وأذكر أنّه وفي هذا البلد الطيب الجزائر عقد لقاء للكتاب العرب وكان من بينهم كاتبان مشهوران هما: جمال الغيطاني من مصر والطيب صالح من السودان، وهما روائيان مشهوران، حيث دار نقاش طويل حول كتابة الرواية العربية بالعامية أو الدارجة وخاصة فيما يتعلق بالحوار في داخل الرواية على اعتبار أنها تعبير عن واقع شخصيات الرواية التي عادة ما تكون شخصيات روائية من الطبقات الشعبية المحدودة الاستعمال للغة العربية الفصحى ،وكان رأيي أن هذا لا يجوز، وعللت ذلك بكون الروائي العربي الشهير نجيب محفوظ صاحب جائزة نوبل للآداب، والمشهور بثلاثيته التي عبر من خلالها عن الحارة المصرية أصدق تعبير، بالعربية الفصحى، التي لم يجد قارئها في مختلف البلدان من عناء في فهمها إذ أصبحت هذه الروايات متداولة في كل البلدان العربية ومفهومة لدى المهتمين بها.

وأريد التركيز -من جهة أخرى- هنا على لغة الإعلام في الفضائيات العربية التي أصبحت تؤدي دورا في المستوى المطلوب من حيث التغطية الإعلامية للشرائح الاجتماعية التي لها من الوسائط ما يجعلها تتابع عن كثب ما يجري في محيطها الداخلي والخارجي، غير أن هذا الدور ذو حدين ، فإذا كان استعمال العامية في المسرح والمسلسلات والأفلام وبعض الحصص، فمما لاشك فيه أنها تعطي هذه الفضائيات حيزا معتبرا من التغطية الإعلامية وجعل الإعلام في متناول الجماهير الشعبية العريضة، ولكنها إذا استمرت ، بل إذا تمادينا وأفرطنا في استعمال الدارج أو العامي في حلقات العلم وفي الجامعات فإننا سننتهي إلى ما حذر منه البعض ، لكون ذلك سيكون خطرا لا على اللغة في حد ذاتها، و إنما يحيق هذا الخطر بوحدة الأمة، بل وعلى

وحدة المجتمع في القطر الواحد ، وهو ما يجب التنبيه إليه متخذين في ذلك التجربة الأروبية التي كانت تجمعها لغة واحدة أو لغتين ومن خلال التمادي في استعمال الدارج تحولت - مع مرور الوقت- إلى عدة لغات وانشطرت إلى لغات فأصبح الإيطالي لا يفهم لغة الفرنسي إلا إذا تعلمها والإسباني لا يفهم لا لغة الفرنسي ولا لغة الإيطالي إلا إذا تعلمهما وهكذا دواليك بالنسبة لباقي الدول الأروبية.

وعليه فمن الضروري تدعيم اللغة الفصحى باعتبارها لغة الأدب والفنون والعلوم والمعارف في كل زمان ومكان، ولكونها لغة مشتركة بين الأقطار العربية ، والجاليات الإسلامية في العالم، وهذا من باب الحرص على الوحدة والتقارب، فليس لدينا وحدة اقتصادية ولا وحدة صناعية ولا تكامل تكنولوجي ولا حتى تنسيق تجاري أو سوق عربية مشتركة وعلى هذا الأساس ينبغي تدعيم اللغة العربية الوسطى المشتركة التي تجعلنا نقرأ ما قاله الجاحظ وسعيد عقل وأدونيس وأمرؤ القيس وغيرهم من كتاب ومبدعي العربية بل ونستوعب ما قالوا وما يكتبون، وأضرب لذلك مثلا كما قلت سابقا أنني عندما كنت أزور الجزائر في السابق كنت لا أفهم ماذا يتكلمون ولا عن ماذا يتحدثون ، واليوم أصبحت أفهمهم جيدا ويفهمونني بالقدر الكافي ، كون المجتمع الجزائري عرف قفزة نوعية في مجال استعمال اللغة العربية التي اكتسبها عن طريق التعليم الموحد وعبر وسائل الإعلام التي تستعمل العربية في مختلف المجالات بما في ذلك التعليقات الرياضية وهو ما أكسب المجتمع الجزائري لغة مشتركة مفهومة بالقدر الكافي، وهو تطور في غاية الأهمية في مجال اللغة العربية.

وفي الأخير لا يفوتني أن أؤكد أنه لا ينبغي علينا أن نهون من أمر العامية والفصحى في واقعنا العربي، ولا أن نهول منهما بما يفتح الباب على مصراعيه للتأويل والتدويل شأنهما في ذلك شأن كل القضايا العربية التي بدأت محلية وتشابكت وتشعبت عندما تم تدويلها، على أن يعطي الموضوع قدرا كافيا من الأهمية من قبل المختصين والباحثين لتجاوز هذا الخلل، دون الانغلاق على أنفسنا، بل يجب الانفتاح

على محيطنا اللغوي من حيث التأثير والتأثر بما هو إيجابي في اللغات والثقافات الأخرى لنكون في مستوى الآية الكريمة

"لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا"

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

(*) المداخلة تم تلخيصها من التسجيل الصوتي للمحاضر

الفصحى وعامياتها

بين تجلّيات "الكائن" وتصوّرات "الممكن"

أ.د. نهاد الموسى — جامعة عمان الأردن

ملخص

أقيمت صفة العربية الفصحى على ائتلاف عريض من اللهجات التي كانت سائدة في الجزيرة العربية عند نزول القرآن، وقد هيّأ لها نزول القرآن بها "على سبعة أحرف" أن تكون هي النموذج اللغوي المعتمد. وأصبحت على صفتها تلك نموذجَ التعلّم ومعيارَ الصواب وامتدّت في المدوّن فكانت لسانَ التراث العربي الإسلامي الممتد وما تزال حتى يومنا هذا، ولكن اللهجات العربية القديمة بما أن هي لسان التخاطب اليومي قد مضت في طريق التطور بفضل عواملَ لغوية واجتماعية وزمانية متشابكة، وبقيت العلاقة بين تلك اللهجات المتطوّرة وأصولها التاريخية التي قامت عليها صفة العربية ظاهرة على مستويات شتّى حتى لَيخال كُل ناطق بلهجته المحكية اليوم أنّها اقرب اللهجات إلى العربية الفصحى. ولكن هذه اللهجات المحكية قد فارقت الفصحى في إحدى أبرز خصائصها وهي "الإعراب" وهو الفرق الحاسم بين ما سماه ابن خلدون "اللسان المضري" ولغات الأمصار (وهي صنو اللهجات العامية المحكية في أيامنا). وقد أفضى هذا الصدع الذي نجم عن افتراق اللهجات المحكية عن أصلها المشترك الجامع (وهو الفصحى) إلى نشوء الازدواجية.

أصبح لدينا مستويان لغويان رئيسان: الفصحى وهي النموذج اللغوي الذي نتعلّمه، والعامية وهي النموذج اللغوي الذي نكتسبه اكتسابا ويستحوذ على البرنامج اللغوي الأول في الدماغ لدى الناطقين بالعربية. وجرى العرف بأن للفصحى مواقع ووظائف هي مواقع المدوّن والثقافي والرسمي، وللعامية مواقع ووظائف هي مواقع الشفاهي واليومي.

ولكن هذا الواقع الازدواجي قد أعقب في حياتنا اللغوية حالة من اللجلجة بعبارة شكري فيصل، ونجم عن تلاقح الفصحى المتعلّمة والعامية المكتسبة مستوى لغوي ثالث هو العربية الوسطى أو عربية المتعلمين المحكية، وهو يشبه أن يكون سليقيا لدى سواء المتعلّمين وهو يتجاوز غريب العاميات، ويعدّل كثيراً من تحوّلاتها الصرفية، ولكنه ما يزال يقصّر عن بلوغ الفصحى بما أنه غير مُعْرَب على الجملة، وينفتح مشهد التداول بالعربية على تجليات شتّى تتنازعها شروط مختلفة، أما التجليات فتسلسل من **الفصحى** (في أداء التنزيل) إلى **الفصيحة** بالفعل في الشعر والأداء المعدّ كما في نشرات الأخبار والتقارير الوثائقية والإعلانات المدبلجة بالعربية لترويج البضائع في الفضاء العربي، و**الفصيحة بالقوة** وهي العربية المكتوبة فإنها لا تكون فصيحة بالفعل إلا إذا تحققت لها شروط القراءة الصحيحة، و**شبه الفصحى** وهي ما طوّره مراسلو الفضائيات بحافز مهني من أجل الاقتراب من لغة النشرة الإخبارية، و**العربية الوسطى** وهي النموذج الذي نجم عن تلاقح الفصحى المتعلمة والعامية المكتسبة، و**العامية** وهي التي نكتسبها اكتسابا وهي لغة الأميين والأميّات، بل نجمت إلى جنب ذلك، لعوامل تعود إلى عصر الاستعمال القديم، وعصر العولمة وانفتاح الأسواق والآفاق نماذج لغوية مهجنة عربية إنجليزية، وعربية أردية، وعربية فرنسية.

وتتنازع هذه التجلياتِ شروطٌ مختلفة، فالمقدّسُ، والتراثي، والتواصل العربي، يكون بالفصحى. "والبراجماتيُّ" يتردّد بين تلك التجليات على وفق المقاصد، وغلبةُ المكتسب العامي تفضي إلى مستوى بين بين، والانبهارُ بالآخر تفضي إلى تهجين الفصحى بل العامية بالإنجليزية أو الفرنسية... إلخ

وتتفاوت مواقف أبناء العربية من هذه التجليات لأنهم يقاربونها من أبعاد شتّى متقاطعة متفاصلة، وتبقى العاميات بطموحها المتصاعد للانتشار بما تتيحه لها الفضائيات الخاصة هاجسا مؤرّقا إذ أنها تنمّي نزعات جهوية بما هي رموز لأقاليمها. ويصبح تغليب الفصحى بما هي اللسان الجامع بمزاياه المتعارفة مشروعا حيوياً للأمّة.

إنّ تغليب الفصحى في هذه الأطروحة يتمثّل في تدبيرين؛ تدبير لغوي خالص يستقرئ صفة العربية التاريخية بما كانت لغة منطوقة، ويتحرّى نموذجا فصيحاً منطوقاً عفوياً تلقائياً ينأى بنا عن ظنّ بعض الناس أنّ استعمال الفصحى في مواقف المشافهة يفضي بنا إلى التكلّف والاصطناع؛ ذلك أننا نرى أنّ العلّة هنا تكمن في استعمال الفصحى المنطوقة على مثال العربية المكتوبة، وحجتنا في هذه الأطروحة أن العربية الفصحى كانت لغة منطوقة وأن إحياء ما في قواعدها من رخص الحذف والاجتزاء واعتبار موقف الخطاب ... إلخ يقدم لنا نموذجاً فصيحا للخطاب الشفوي يتصف بالتلقائية وينأى عن التكلّف ولا ينأى عن أصله الفصيح. ويشفع هذا التدبير إحياء الجهود التي بذلها أهل العصر من المجامع والأفراد في تأصيل كثير من العامي في الفصحى وتأنيس العاميات بالمشترك فيما بينها من المحيط إلى الخليج.

أما التدبير الثاني فينتسب إلى التخطيط اللغوي ويتمثّل في طائفة من الإجراءات المبرمجة لإشاعة الفصحى وترويجها في دورة حياة الأمة على كُلّ مستوى، وهي إجراءات تقتضي تهيئة الشروط والوسائل الفنية لتقبّلها، وتشكيل الوعي اللازم للتحقق بمزاياها وجدواها. ويكون من وجوه هذا التدبير "عقلنة" الاقتصادي بجدوى الفصحى في تحقيق مدى أوسع للمنفعة، بل بمزايا الفصحى في جمالياتها على العامية بمحدوديتها واستغلاقها، وتحفيز المعلّم بالمردود المادي للارتقاء بأدائه كما كان شأن الإعلامي الذي أخذ يرتقي بأدائه بالحافز المهني، وإيقاظ احتفاء العربي بالفصحى رمزاً جامعا للامة وبديلاً يَفْضُل الانكفاء الجهوي الذي يضيق عنه طموح العربي إلى منزل كريم في المشهد الكوني.

الفصحى وعامياتها

بين تجليات "الكائن" وتصورات "الممكن"

(1)

بناء العربية الفصحى

ائتلاف لا إقصاء

أقيمت العربية، عند وصفها ووضع قواعدها، على ائتلاف عريض؛ إذ انتظمت في وصفها التاريخي لهجات قبائل متعددة، وهي لهجات كانت متبادلة الوضوح؛ تقوم على قدر مشترك جامع في أصواتها وأبنيتها ومفرداتها وتراكيبها وأعاريبها وتفترق فيما بينها بِسِمات محدودة تنفرد بها كل لهجة. وقد انتظمت صفةُ العربية ذلك القدرَ المشترك كما وَسِعَتْ تلك السمات الخاصةَ. وكان نزول القرآن بالعربية هو الذي ارتقى بها إلى منزلة اللغة المعتمدة. وكان هذا المنهج الائتلافي تدبيرا سديدا فإنه عمل في استيعاب لهجات القبائل وتأليفها في بناء سياسي واحد معا، كما كان منسجما مع التيسير الذي شرعه الأثر الشريف في قراءة القرآن على سبعة أحرف. و إنما نحتفي بهذا التدبير القائم على الائتلاف إذ نراه قَسِيمَ الإقصاء الذي قام عليه بناء النموذج اللغوي المعتمد في مِثْل حال الفرنسية التي أقيمت على لهجة باريس والصينية التي أقيمت على لهجة بكين.

(2)

الفصحى ونشوء العاميات

وقد اقترنت العربية الفصحى في صفتها تلك اقترانا مباشراً بالقرآن، وأصبحت دليلَ التعلّم، ومرجعَ التحصيل، ولسانَ التراث الممتد في الزمان العربي الإسلامي. ولكن العربية في واقع الاستعمال اليومي وعلى مستوى عامة الناس كانت تُطَوِّر نمطا لغويا أو مستوى لغويا مفارقا. وعملت دورة الزمن، ثم أسهمت عوامل

لغوية ذاتية وعوامل اجتماعية خارجية على تشكيل هذا المستوى اللغوي الذي عُرِف بكلام البلديين عند الجاحظ ولغات الأمصار عند ابن خلدون واللهجات العامية أو المحكية أو الدارجة عندنا. وقد مثّل انحسارُ الإعراب أقوى العوامل في هذا الصدع الذي أصبح فارقاً حاسما بين الفصحى والعاميات "فإنه تَغَيَّر بالجملة ولم يَبْقَ له أثر" كما قال ابن خلدون[1].

(3)

العربية الوسطى

ثم نجم في العربية، من بعد، وفي أواسط القرن الماضي، مستوى لغوي ثالث يقع بين بين، بين النموذج الفصيح وهو المثال المُتَعَلَّم والعامية وهي "النموذج اللغوي" المحلي أو الجهوي المحكيّ المكتسب. وقد عُرِف هذا المستوى بالعربية الوسطى كما عرف بـ "عربية المتعلمين المحكية". وحقاً أن هذا المستوى الثالث أو عربية المتعلمين المحكية يشبه أن يكون سليقيا لدى المتعلمين والمثقفين، ولكن الإعراب فيه ما يزال غائبا إلا نادراً، وإن يكن تَخَلَّصَ من الخصوصيات المعجمية اللهجية، وعدَّل انحرافات بعض الأبنية الصرفية.

(4)

العربية المكتوبة غير المشكولة

وقد استقر عُرْف التقابل بين الفصحى والعامية حينا من الدهر على أن الكتابة حِمىً للفصحى وأن العامية إنما هي للمشافهة في اليوميّ. ولكن عوامل متشابكة قد أدت إلى أن تكتب العربية غير مشكولة على الجملة، وهكذا نَجَمَ في العربية مستوى رابع هو العربية المكتوبة غير المشكولة. وجُلُّ المتداول بالعربية هذه الأيام حتى ما أكتبه هنا الآن من المكتوب غَيْرُ مشكول على العموم. ووجوه التأويل

---

[1] المقدمة، ص1055.

هنا شتّى؛ فقد يظن بعض الناس أن الشكل التام غير لازم؛ لأن ضبط معظم الكلم يتعيّن لدى الناطقين بالعربية دون إشكال، وينضاف إلى هذا باعث اقتصادي يتمثّل في التخفّف من مؤنة الشكل التام. إنّ هذا المستوى الرابع يَذَرُ العربية الفصيحة كالمعلَّقة، ويجعل الأداء العربي بالعربية على الجملة محفوفاً بالمحذور مشوباً بالنقص. إنه فصيح بالقوة وليس فصيحا بالفعل بالضرورة، وأول الشواهد على ذلك ما نلاحظه على أداء من يقرؤون بالعربية.

(5)

تجليات العربية في المشهد المعاصر

ونتجاوز عن الدعوة إلى العامية في زمن الاستعمار الأوربي؛ إذ إنها صُدَّت بما هي مكر مُبَيَّت لقطع العرب عن النص المقدس والتراث وتقطيع أسباب التواصل الموحِّد بينهم.

ونتوقف إلى ما آل إليه حال العربية في المشهد المعاصر فنجدها تجري على أسماعنا وبأعيننا على هذه الأنحاء:

- عربيّة فُصحى في المصحف المرتّل، وهي عربية ائتلافية فقد أُنزل القرآن على سبعة أحرف.
- وعربية فصيحة بالفعل إذا استوفى القارئُ بما استدخل من نظامها شروطَ الصواب كما في إنشاد الشعر الفصيح والغناء به، وكما في الدراما التاريخية والدراما التلفزيونية المترجمة "المدبلجة"، والتقارير الوثائقية والنشرات الإخبارية وكثير من أفلام الكرتون... وغيرها.
- وعربية فصيحة بالقوّة وهي عربية البحوث والمؤلفات والدوريات والصحف، وهي عربيّة "المُتَرْجَم" حتى في الأفلام والمسلسلات الأجنبية؛ إذ هي مكتوبة غير مشكولة في المعتاد الجاري، وإذن تكون مفتوحة

لمستويات متفاوتة من الأداء، فقد تكون فصيحة بالفعل على الشرط المتقدم ولكنها في السائد عربية ملحونة مشوبة بأخطاء الضبط والإعراب، وهي عربية القارئ العربي على العموم.

- وعربية فصيحة محكيّة يحاولها ويلتزمها متخصصّون ومثقفون ولكنّهم قليل حتى ليكاد الناس يميزونهم بهذه الخصوصيّة.

- وعربية شبه فصيحة تجري بها ألسنة مراسلي بعض الفضائيات في سياق نشرات الأخبار؛ إذ اجتهدوا في تطويرها لتنسجم مع سياق النشرات، ومقتضيات الخطاب الموجّه إلى قطاع المشاهدين في الفضاء الممتدّ.

- وعربية وسطى هي عربية المتعلمين المحكية، وهي مزاج من العامية المكتسبة والفصحى المتعلّمة، تقترب من الفصيحة في معجمها وهيئات أبنيتها وطرائق نظمها. ولكنها تقع دون الفصيحة لأنها غير معربة إلا في بعض المأثور والرواسم (مثلاً طبعاً، بدايةً، أصلاً، شكراً..)، وهي عربية التخاطب بين المتعلّمين الناطقين بلهجات عربية مختلفة.

- لهجات عامية محكية متداولة في سياقاتها المحلية بل ممتدة في فضاء الإعلام والأفلام العربية والدراما الاجتماعية والشعر الشعبي (أو النبطي) وفيض الأغاني الشبابية. وهي اللهجات المكتسبة بالسليقة وهي النُّظُم اللغوية التي تستولي على البرنامج اللغوي الأوّل في الدماغ لدى العربيّ.

- لهجات عامية مكتوبة في حواشي بعض القنوات الفضائية والإعلانات التجارية، وهي تَخْرِق العُرف الاجتماعي؛ إذ تُنْزِل العامي المحكي المنطوق مَنْزِل الفصيح المكتوب وتخرج على رسم العربية المألوف إلى رسوم كتابية عشوائية.

- عربية مكتوبة مجتزأة في الإعلانات المبوّبة لغاية الإبلاغ تُسْقِطُ الروابط جُمْلَةً؛ إذْ تُعَوِّل في خطابها على قرائن السياق، وتستثمرها لغايات الاقتصاد في حيّز الإعلان ومُؤْنَة النفقة.
- عربية مختزلة مكتوبة بالحرف اللاتيني يتداولها الشباب في رسائل الهواتف المحمولة والبريد الإلكتروني وهي في معظم الأحيان عاميّة مشوبة بعبارات إنجليزية سائرة بل تستبدل ببعض الألفاظ أرقاماً (4-for) وتختزل الألفاظ حروفاً (u-you).
- عربية محكية وسطى تخالطها مفردات وعبارات بالإنجليزية أو الفرنسية في المشرق العربي.
- عربية عامية مهجنة بالهندية أو الأُردية في مشرق الخليج العربيّ.
- عربية عامية تخالطها مفردات وعبارات بالفرنسية في المغرب العربيّ.

(6)

الشـــروط

فإذا التمسنا الشروط التي تفسر لنا هذه التجليات وجدناها على هذه الأنحاء:

- شرط "**المقدّس**" الذي يقضي بأداء التنزيل مصونا من أي تغيير أو تبديل.
- شرط "**التاريخي**" الذي يتجاوز ادعاء أية لهجة وذلك في الدراما التاريخية وغناء الشعر.
- شرط **الامتداد في الفضاء العربي**، وذلك في النشرات الإخبارية والتقارير العلمية والاقتصادية والبرامج الوثائقية وكثير من برامج الأطفال وأفلام الكرتون المدبلجة، والمسلسلات الدرامية الرومانسية المترجمة المدبلجة.

- وشرط **الاقتصاد الطامح إلى سوق استهلاكية عربية**، وهو شرط يلتقي الشرطَ المتقدم (شرط القدرة على الامتداد في الفضاء العربي).
- شرط "**المُتَرْجَم**" عن لغة أخرى حتى في الأفلام والمسلسلات الأجنبية، وهو يتجاوز ادّعاء أية لهجة، كما أنه يرنو إلى الامتداد في فضاء عربي شاسع، كما يرنو إلى الرواج على نطاق واسع، ويَخْبأ غرضا اقتصاديا في نهاية التحليل.
- شرط **الاكتساب** الذي يتمثل في استحكام السليقة العامية وتسللها العفوي التلقائي بل "القسري أو اللاوعي" إلى المخاطبات والحوارات والبرامج حتى التي تتناول المسائل الدينية.
- شرط **الجهوية** بدعوى الواقعية، الذي يتمثل في فيض المسلسلات والأفلام العربية.
- شرط **المتلقي** وهو يتمثل في تبسيط الخطاب الديني لتقريبه إلى أفهام العامة، أو جعله بالعربية الوسطى لسواء المتعلمين.
- شرط **الكتابة** فإنه يقتضي الفصيحة كما في ترجمة الأفلام والمسلسلات الأجنبية.
- شرط **الحافز المهني** وهو يتمثل في مقاربة الفصيحة كا في عربية مراسلي الفضائيات.
- شرط **الحد الأدنى من الجهد**، وتلقائية "العواطف" لدى المرسِلين وآمِري المنفعة لدى المستقبلين، وهويتمثل في كتابة العامية في حواشي القنوات الفضائية أو البرامج الترفيهية.
- شرط **تلقائية الضرورة** أو **التباهي** وهو يتمثّل في الخطاب المهجّن.

(7)

ائتلاف الثقافي والاقتصادي

وجوه من السجال

إن هذه التجليات على تباينها والشروط على وجوه افتراقها واتفاقها إنما تفيء إلى التقاطع والتفاصل بين الثقافي والاقتصادي في نهاية التحليل، ولعل الائتلاف بينهما هو السبيل إلى نفي هذه البلبلة، إنّ استعلان اللهجات العامية وتطاولها في القنوات الفضائية العربية يغذيه الميل إلى الاستسهال والتذرّع بالواقعية، وينطوي في حقيقة الأمر على أهواء جهوية تتنامى في المشهد العربي المعاصر، وإن التحقيق في منافع التواصل بالعربية الفصحى على ما يقتضيه من الجهد يمثّل "تصوّرا" للتقدّم نحو أفق أوسع انفتاحا وأعظم جدوى. إن العاميات – وإن احتفى كثير من الناس – بكثافتها وحميميتها في سياقها الخاص – تمثل بنى مغلقة تستغلق على غير الناطقين بها. وإنّ ما نشهده من التراخي في تحصيل العلم بالعربية على وفق نظامها الفصيح في أوساط المتعلمين مرجعه إلى وَهْم المتعلم أنه يمكنه أن يستغني بالمكتسب من العامية عن بذل الجهد المطلوب لاستدخال منظومة العربية الفصيحة؛ ذلك أن الناشئ العربي يكتسب لهجته المحكية المحلية في العادة ويبرمجها الدماغ فتستولي على ملكته اللغوية التلقائية، وتتحكم لديه وتمتد في أدائه وسلوكه اللغويين امتداداً قسريا لا واعيا، فإذا شرع في تعلم العربية الفصحى بنظامها الخاص وجد أن بين عاميته وهذه اللغة شبها كبيرا وأن الفروق بينهما هيّنة فأفضى به ذلك إلى مِثْل الإِلْف والإلفُ يُعْقِب الزراية أو اللامبالاة كما في المثل الإنجليزي. إن تحفيزه إلى أَخْذِ تعلُّم الفصحى بحقّها إنما يكون بتزيين ما تفتح له من سبل المتاع العقلي والانفتاح على تراث ممتد، ومن الفرص الواعدة كما في حال مراسلي الفضائيات الذين طوروا أداءهم الشفاهي إلى قريب من الفصحى بمثل هذا الحافز. فإذا وقفنا إلى الإعلان أو الإشهار وجدناه يكاد يستحوذ على الإعلام، والإعلام مرتهن بالاقتصاد والاقتصاد إنما يصدر عن المنفعة بنزعة ميكافيلية خالصة. وفي هذه المنظومة المتشابكة تختلط مستويات العربية، فإذا وجد الفصحى سبيله في

الترويج الطامح إلى الامتداد من المحيط إلى الخليج اتخذها، ثم لا يبالي بعد ذلك أن يستقبل الرسائل بالعامية أو العامية المكتوبة بالحرف اللاتيني إذا وجد فيها منفعة آنية أو محلية.

وتغذُو الجهوية المتصاعدة في المشهد المعاصر وجوها من تداول العامية مكتوبة في لغة الإعلان. وكثيراً ما تكون هذه العامية مرجوحة مستثقلة بعيدة عن الأناقة والجاذبية، وما أيسر أن "تعقلن" بأبدالها الفصيحة. يَرِدُ في بعض هذه الإعلانات الجهوية مثلا: بسمة ... **متتنسيش**، والمراد "لا تنسى"، والفرق بين العامية والفصحى لا يخطئه الذوق والسمع. ويَرِدُ في بعضها ترويجا لهاتف جوّال: بنوفّر عليك، فيستعمل (بنوفّر) بدلاً من **نوفّر** فيتناقض ويضل عن سر اللغة فيستعمل **عليك** مضيفا إلى ما على المستهلك من أعباء. ولو قال **لك** لخفف عنه وأغراه، وهكذا. فإذا انضاف إلى هذا ما تختزنه الفصحى من قيم الارتباط بالنص المقدس وبما هي مفتاح كتاب التراث في الزمان العربي الإسلامي وبما هي رمز الهوية وأداة التواصل في الفضاء العربي يتبيّن لنا أن المعادلة في منازل الفضل إنما تكون الفصحى.

(8)
تصوّرات الممكن

(8: أ)**مشروع الفصحى المنطوقة**: لعلّ أظهر ما يعترض به مناوئو تعميم الفصحى لغةً للمشافهة ما يجدونه من التكلف والاصطناع الذي يعتري من يستعملون الفصحى في مواقف الخطاب الشفوي اليومي. وتفسير ذلك عندي هو أن هؤلاء يُجْرون الخطاب الشفوي على مثال نظام الخطاب المكتوب. ومعلوم أن الخطاب المكتوب يكون جُلّ المعوّل فيه على المعطى اللغوي؛ إذ إن موقف الكتابة يفتقر إلى السياق المشخص وعناصره من حضور أطراف الخطاب، ومثول الحال المشاهدة، و إذن يصبح النموذج الفصيح المكتوب أشبه بالبِنْية المغلقة أو المكتفية ذاتيا. ولكن التصوّر الذي نقدّمه هنا بإجمال يقوم على أن العربية الفصحى قد انتظمت في بنائها الائتلافي قواعد المنطوق

إلى قواعد المكتوب، فقد تنبه النحاة خاصة إلى دور السياق، وشرعوا فرقاً واضحاً بين مستوى المنطوق ومستوى المكتوب. ونحن نعتدّ بهذا الفرق؛ لأنه يمثّل مساهمة لغوية جدية في حلّ مشكلة "الاصطناع" أو "التصنع" أو "التكلف" الذي يبدو على استعمال بعض الناس للفصحى في مواقف الحديث. ويشخّص هذا التصوُّرَ بِبُعْدَيْه موقفٌ عَرَضَ في ندوة لبحث لغة المسرح عقدها مجمع القاهرة في فواتح عام 1956؛ إذ أعلن أحد المخرجين الاعتراضَ التقليدي على استعمال الفصحى في المسرح، وضرب لذلك مثلاً "مسرحية عصرية تصوّر البيت والشارع والسوق، وهذا زبون يتقدم لبائع الخضر، فيقول كما يراد له أن يقال بالفصحى: أرجو منك أن تبيعني أُقَّة من البطاطس أو اليقطين. أليس في هذا ما يتنافر مع تعبيرنا المألوف في حياتنا اليومية" أو كما قال.

إنّ هذا المثال على التعيين كافٍ في بيان ما نحن فيه. إن قواعد الفصحى المنطوقة –وقد قامت في معظمها على المنطوق– تفسح لنا رخصة الحذف المقرّر في مثل هذه الحال؛ ذلك أن الحذف لدلالة السياق بل إن الحذف الجائز كلّه في العربية إنما يكون لدليل من السياق. وحذف الفعل هنا وهو ضرب واحد من الحذوف كافٍ لدفع هذه الشبهة المصطنعة. إنه يكفي أن يقول الزبون: رِطْلَ بطاطا، حاذفا الفعل، وهو الوجه المقرر في قواعد العربية الفصحى من حذف الفعل لدلالة السياق.

(8: ب) **تأصيل العامي في الفصيح:** إنّ تطوير النموذج المنطوق المنشود يمكنه أن يستفيد بمطلبين آخرين رئيسين: مطلب يتعلق بتأصيل كثير من المفردات والأبنية العامية، ومطلب يتعلق بالإعراب خاصة. أما المطلب الأول فيقوم على أن بين الفصحى ولهجات الخطاب العامية نسبا وثيقا ويتمثل في استثمار المشترك بين العامية والفصحى من المفردات والأبنية ذات الأصول الفصيحة. وقد جرى مجمع القاهرة في هذا الاتجاه وعُنِيت به لجنة اللهجات فقدمت إلى مؤتمر المجمع "طائفة من الألفاظ العامية التي تجري في البيت والمصنع والسوق والحقل، مستهدفة توثيق علاقتها بالفصحى والتنبيه إلى أنه لا وجه لإغفالها أو الترفع عنها في لغة الكتابة، وهي تعايش

الحياة اليومية في التفاهم والتحادث والخطاب"[1]. "وقدمت اللجنة قائمة بمئة كلمة عامية، سجلتها معجمات الفصحى في مفرداتها: ومنها:

العيّل: الولد

الشَّجِيع: الشجاع

الشب والشبة: الشاب والشابة

السُّبوع: الأسبوع

الرِّيحة: الرائحة

حَرَّج: حرَّم وضيَّق

زَوَّق: زيَّن

المراجيح: الأراجيح

محصور: حابس البول

السُّفرة: المائدة

الزُّور: القوة والشدة

الجَرسة: الفضيحة وسوء السمعة

الأطرش: الأصم

حوَّش: جمع

---

(1) مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد 9-10، السنة الثالثة، رمضان 1400 – صفر 1401هـ (آب –كانون الأول) 1980، وتنظر قائمة أخرى مماثلة من قوائم لجنة اللهجات بمجمع القاهرة في: مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد 15-16، السنة الخامسة، ربيع الأول – رمضان 1402هـ، كانون الثاني – حزيران 1982.

الشط: الشاطئ

بياع: بائع

حوَّد: مال

الصيغة: المصوغات

الضّنا: الولد والنسل

هجَّ: شرد ونفر[1].

وقد جرى المحدثون في هذا الاتجاه وانْتَحَوا بدراساتهم هذا المنحى. وانتهى بهم هذا التوجهُ العلمي العملي إلى أن "ليس كل ما تستعمله العامة خطأ"[2] وليس من الخير للعربية أن يكون بين اللغتين –وهما في الأصل لغة واحدة– حاجز حصين يحول دون الخاصة واستعمال لفظ بدلا منه، لا لشيء إلا لأن العامية استعملته أو استحدثته"[3]. فقد تهيأ للعامية، وهي تواكب الحياة، أن تستعمل ألفاظا صحيحة فصيحة ربما كانت اندثرت لولم تستعملها، وأن تستعير ألفاظا عربية أصيلة لمعان جديدة، وأن تحدث من طريق الاشتقاق ألفاظا يحتاج إليها الناس في حياتهم العملية، وأن تختار السائغ المقبول من الألفاظ التي تعددت فيها اللغات"[4]. فمن الألفاظ القاموسية التي استعملتها العامة ولعلها كانت تنوسيت أو تنوسى بعضها لولا استعمال أصحاب المهن والصناعات لها:

1. الزَّفرَ أو الظفر درجة من السُّلَّم. والعامة من البنائين يلفظونه بالزاي. وهي عندهم حجر ناتئ في البناء مستطيل كالدرجة أو العتبة، تلقى عليه العُمُد أو

[1] المرجع السابق.

[2] العربية بين الفصحى والعامية لعارف النكدي، مجلةمجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد الرابع والأربعون، الجزء الأول والثاني، ص59.

[3] المرجع السابق.

[4] المرجع نفسه، ص49.

البلاط. وفي (جمهرة نسب قريش وأخبارها) أن عامر بن عبد الله انهدمت أظفار من درجته فبات تلك الليلة في الدار ...

2. المِدْماك: الصف من البناء، والعامة تقول على الحقيقة. (مدماك مدماك) كما قال الأصمعي على المجاز:

ألا يا ناقض الميثاق مدماكا فمدماكا 13- ..."[1].

ومن الألفاظ التي استعارتها العامة للتعبير عن أشياء مستحدثة:

1. البطيخة: قلت (الدولاب) تجتمع إليه أضلاع الدولاب في العربة أو السيارة، أو تتفرع منه.
2. البندق: على ما جاء في بعض المعجمات الحديثة معرب "فندق" بالفارسية: وهو طين مدور يرمى به. ولم تستعمل العامة هذا اللفظ لهذا المعنى، غير أنها نسبت إليه هذه الآلة العربية فقالت "البندقية".
3. بيضة القبان: أطلقوها على كُرة من نحاس أشبه ما تكون بالبيضة، يعرف بها وزن الأشياء التي ترفع بالقبان. وفي الوسيط: سموها رمانة القبان. فإن لم تكن العامة في مصر تستعمل "الرمانة" فإن "البيضة" أوفق، وهي معروفة في الشام: داخله وساحله. وتستعمل في لبنان للدلالة على قيمة الرجل، أو الجماعة فيقولون هو "بيضة القبان" أو هم "بيضة القبان" حيث مالوا رجحوا.
4. التفاحة: تستعمل لما يمسك الباب أن يفتح من نفسه، وهي دون القفل. ولا بد للباب منها. وكانت أشبه شيء بالتفاحة وعادت اليوم في شكلها إلى مثل ما كانت عليه.

---

[1] المرجع نفسه، ص49، 50، 51.

5. الحية: الحيوان المعروف، أطلقوها على الأنابيب الصغيرة التي يجري فيها الماء وجمعوها جَمْعَه فقالوا "حيّات الماء". ومن التوافق أن العرب أطلقوا قديما على مجاري المياه "الثعبان" وهي الحية الضخمة، أو هي الحية مطلقا.

6. الديك: أطلقوه على الجزء من السلاح. وهو شبيه برأس الديك، إذا ضغط عليه فضرب موضع النار، انطلقت الرصاصة من البندقية أو القذيفة من المدفع. وأَبَتْ الخاصة ذهابا بنفسها من أن تستعمل ما استعملته العامة فأطلقت عليه "الطارق" وبين الاستعمالين فرق والديك هنا خير من الطارق وأخصّ ..". [1]

ومن الألفاظ التي أحدثوها:

1- الجبّالة: آلة يُجبل بها الطين

2- الجرّارة: تُجر بها الأثقال

3- الحفارة: لما تحفر بها الأرض

4- العجانة: لما يعجن بها الدقيق

5- الكسارة: لما يكسر بها صغار الحجارة أو الحصى

6- الفُراطة: أطلقوها على هذه القطع الصغيرة من النقد. وفرط العِقد والعُنقود في لغة المولدين: فرَّقه وبدَّده

7- المنقوشة: رغيف مستدير أو مستطيل، ينقش بالأصابع وتوضع عليها التوابل وتوابلها تختلف عن توابل الفطائر

8- الوصفة: أطلقت على التذكرة يعطيها الطبيب يعين فيها أجزاء الدواء...(2).

---

(1) المرجع نفسه، ص 52-54.

(2) المرجع نفسه، ص 54-57.

ومما خففوه أو هذبوه:

1. الرُّز .. من الأَرُز
2. الوزّ .. من الإوزّ[1]

وعلى هذا النحو تتبع محمد كرد علي في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق الفصيح والمولد في كلام أهل الغوطة[2]. وحَقَّقَ شفيق جبري أصول كثير من المفردات "الدالة" المتداولة في بعض اللهجات، فوجد أنها "عاميات" من "بقايا الفصاح" ونَوَّهَ بفرادتها في طاقة التعبير وقوة التأثير، ومنها "البهدلة" و"التشليح" ...[3]. كما حَقَّقَ أصولَ بعض العبارات السهلة في عامية الشام فوجدها تُنمى إلى نسب متقادم في الاستعمال، ومنها "قولنا في لغتنا العامة: رَجَعَ لونه، إذ نجد في أخبار إسحاق بن إبراهيم الموصلي في معجم الأدباء أنه وقع بينه وبين إبراهيم بن المهدي شيء من التشاتم، وقد استخف كل واحد بالآخر، فرفع الأمر إلى الرشيد وقال له إبراهيم بن المهدي: يا أمير المؤمنين! شتمني وذكر أمي، واستخف بي، فغضب الرشيد وسأل خادميه عن القصة وكانا حاضرين، فجعلا يخبرانه ووجهه يربدُّ إلى أن انتهيا إلى ذكر الخلافة، وقد كان الموصلي قال لإبراهيم بن المهدي: أرجو أن لا يخرجها الله تعالى، أي الخلافة، عن يد الرشيد وولده، وأن يقتلك دونها، فلما انتهى الخادمان إلى هذا القول سُرِّيَ عن الرشيد ورَجَعَ لونه ... ومن هذا القبيل قولنا اليوم في عاميتنا: طار نومه .. فقد جاء في ترجمة الوزير الصاحب في معجم الأدباء كلام لأبي حيان على الصاحب، .. قصة.. ورد فيها "فما زاغ الرجل عن باب ركن الدولة حتى وصل ودخل في ذلك الوقت الفائت إليه فقيل لابن عباد ذلك، فطار نومه وقال، أي شيطان هبط علينا..". وقد رأى جبري في هذين التعبيرين وأضرابهما مثلا من اللغة السهلة البسيطة التي تصلح لكل

[1] المرجع نفسه، ص57-59.
[2] انظر مثلا: مجلة المجمع العلمي العربي، مج 19، ج1، 2، 1944م، 1363هـ، ص 97-103.
[3] انظر لشفيق جبري في مجلة المجمع العلمي العربي أو مجلة مجمع ا للغة العربية بدمشق: بقايا الفصاح (مج 39، ج4، ص552) وعاميات (مج 42، ج1، ص 12)، ولغة العامة (مج 49، ج4).

العصور[1]. بل رأى عبد القادر المغربي في إحياء فصيح العامية واستثماره في إغناء العربية حقا "يطالبنا" به "وفاء الذمم للغتنا المحبوبة". وشَبَّهَ ذلك بما نعمل عليه من "إدخال الكلمات المعربة والمولدة في لغة الحياة الجديدة"[2]. و إنّ تُطْرِفُنا كل لهجة بألفاظ مخصوصة ذات أصول؛ ففي العامية الجزائرية مثلا "مواد فصيحة لا نجدها إلا في بطون المعجمات، ومن ذلك: نوء: ويعني المطر. عقبة: مرتفع. سويقة: تصغير سوق... دويرة: الدار الصغيرة. عِجار: العجار ثوب تلفه المرأة على استدارة رأسها ثم تَجَلْبَبُ فَوْقَه بِجِلْبابها. ومثله المِعجر. الثنية: الطريق المعطوف أو عطفة الطريق. هيا: بمعنى تعال. ينادي الجزائري مثلا ولده الصغير فيقول: هيا"[3]. وتطول قائمة المفردات التي تستعملها لهجة لهجة وهي ذات أصول في الفصحى[4]. ولكن ممّا يُشْبِه الكَشْفَ المُؤْنِس أن نجد أصولا مأثورة لألفاظ نحسبها من مبتذل العامية وعبارات نمطية نظن بها خلاف النحو ونراها مقصورة على لهجة بعينها. فإذا "قال العراقي اليوم: (شُويَّة) أي قليل، فقد قال العامري من قبل:

معاهد لم يُبْقِ صرف الزمان منها ومني إلا شُويّا[5]

و إذا قال: (حَسَب حِسابَه): ففي المقامة الأسدية:

فاحْسِبْ حسابَك والتـمسْ كيما تنال المُلْتَمَـــس

---

[1] انظر: لكل عصر لغة لشفيق جبري، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مج 41، ج4، ص 582-583.

([2]) انظر: دراسة في اللهجة المصرية لعبد القادر المغربي، مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة، الجزء الثالث، 1355هـ-1936م، ص 301.

[3] انظر: إبراهيم السامرائي: العربية الدارجة في القطر الجزائري، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، الجزء الرابع، المجلد الخامس والخمسون، ص778-779.

[4] انظر مثلاً في طائفة من الألفاظ المفردة التي تستعمل في اللهجة العراقية وقد استعملت في الجاهلية: تقريب العامية من الفصحى لحسين علي محفوظ، مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة، الجزء 41، ص 11، ما بعدها.

[5] المرجع السابق، ص16.

وإذا قال: (فرد عين) فقد قال إبراهيم الحربي: "لي عشرون سنة أبصر بفرد عين". وفي تذكرة الحفاظ: "كان الصوري يكتب بفرد عين". ولأبي الحسن علي بن يوسف الفقطي المعروف بالقاضي الأكرم:

شيخ لنا يعزى إلى منـــذر مستقبح الأخلاق والعين
من عجب البحر فحدث به بفــرد عيــن ولسانيــن[1]

وعلى هذا النحو أثبت محمود تيمور، استعمالات عامية نعثر عليها في كتب الأدب القديم، مثل "طيب" و"وجب" و"مجلس حظ" وتعبيرات عامية يسفر عنها التنقيب في المعجمات مثل: "فم الغسيل"، "هلا هب" والحلف "بالأمانة"[2]. ويتجاوز النظر في اللهجات والمفردات المعجمية إلى التقاط بعض الأوزان النادرة، فقد لحظ العقاد أن "العامة في إقليم السودان يأتون بالمصدر من فاعَلَ على فاعال، فيقولون: الحاراب والحاران والخاباط والجاكار"[3]. "ووزن الفاعال من المفاعلة قديم ..."[4].

وتحتفظ اللهجات العربية الحديثة بظواهر صرفية وصوتية منسوبة في اللهجات القديمة التي أقيمت الفصحى على ائتلافها وتأليفها[5]. وانتحى عبد العزيز بن عبد الله ببحث اللهجات منحى إضافياً؛ منحى "تفصيح العامية في الوطن العربي". وقد تمثل في منحاه هذا أن اللهجات العربية المختلفة تصدر عن منبع واحد هو العربية الفصحى "فأغلب الأصول والقواعد الأساسية مشتركة بين الفصحى والعامية" "لا تنفرد (بذلك) العامية في قطر عربي دون آخر بل تمس اللهجات الدارجة

---

[1] تقريب العامية من الفصحى لحسين علي محفوظ، مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة، الجزء 41، ص13.

[2] العامية الفصحى لمحمود تيمور، مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة، الجزء 13، ص 125.

[3] ذهب العقاد إلى أن الجاكار بمعنى المماطلة في البيع وغيره من كلمات الفصحى التي لا تستعمل في عامية الأقاليم الأخرى، والحق أنها تستعمل ونسمعها في عاميات فلسطين والأردن.

[4] أمال من اللهجات العامية لعباس العقاد، مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة، الجزء العاشر، ص 109.

[5] في اللهجات العربية لإبراهيم أنيس، ص 12-13.

في معظم أجزاء الوطن العربي"[1]. وقام عبد العزيز بن عبد الله، على هذا الأساس، بدراسات مقارنة بين العاميات العربية؛ لبيان مدى تقاربها ومظاهر الوحدة بينها[2]، قاصداً إلى تأسيس قاعدة لغوية مشتركة جامعة تصبح من خلالها لغة الحديث في الوطن العربي أقرب إلى الفصحى منها إلى اللهجات الإقليمية الكثيرة التحريف[3]. ولكن هذه التحقيقات ظلت شتى لم تفرز معطياتها في عمل مستوعب شامل ولم تستثمر في معجم لغوي حديث جامع ينتظم العامي ذا الأصل الفصيح دالا على أصوله التي ينتسب إليها في بناء العربية الأول مُعَيِّنا القبائل التي نُسِب إليها ثم مبيّنا حدود انتشاره في اللهجات الحديثة. ولم تُستثمر في عمل معجمي ينتظم الألفاظ العامية الفصيحة الأصول المشتركة بين اللهجات جميعا. وهكذا الأمر في: الأصوات، وأبنية الكلم، وظواهر التركيب الجملي، وأساليب البيان.

إن استقصاء هذه الدراسات جميعا، في هذه الأبعاد المتنوعة المتكاملة من خلال برنامج محكم يضبطه الحاسوب سيكون استثماراً لجهود طويلة امتدت بضعة عشر قرنا وسيصبح بين أيدينا على شاشة حاضرة معطيات سهلة الاستدعاء تبين لنا كل لفظة أو ظاهرة صوتية أو صرفية أو نحوية... في أصلها الفصيح، ومرتبتها في الفصاحة من البناء الائتلافي التاريخي للعربية، بل ظلت هذه التحقيقات، على

---

(1) العامية والفصحى في القاهرة والرباط لعبد العزيز بن عبد الله، اللسان العربي، العدد الثاني والعشرون، ص57-58.

(2) انظر مثلا: مظاهر الوحدة في عاميتي المغرب والخليج العربي لعبد العزيز بن عبد الله، اللسان العربي، العدد الخامس، ص235.

(3) ينظر في الدلالة على هذا المنحى:

- عمر الطاهر: رأي... نحو تفصيح العامية في الوطن العربي، اللسان العربي، المجلد العاشر، الجزء الأول، ص291-292.
- عبد العزيز بن عبد الله: مظاهر الوحدة بين عامية بغداد وعامية المغرب الأقصى، اللسان العربي، المجلد الثامن عشر، الجزء الأول، ص71-74.
- العامية والفصحى في القاهرة والرباط، اللسان العربي، العدد الثاني والعشرون، ص57-72.

تبددها، مجمدة لم يُروَّج لها ولم يُستفد بأصالتها أو فرادتها في الاستعمال المباشر (في الإذاعة والتلفزة والصحافة والكتاب المدرسي والمعجم اللغوي..) فبقيت لذلك كمواد المعاجم القديمة وأمثلة المقارنة التاريخية تُقرأ، حين تقرأ، استطرافا وتذكرة عابرة بما بين الفصحى والعاميات من علائق تاريخية. ولعلها ظلت على الجملة، محاصرة في إسارها العامي بحكم قانون الازدواجية الصارم في تصنيف الاستعمالات اللغوية إلى مقامات فصيحة ومقامات عامية؛ فإن الموقف المستبطن لدى سواء المتعلمين هو العزوف عن هذه العبارات الفصيحة الأصول لورودها في العامية[1].

(8: ج) **استعادة الإعراب:** أما الإعراب فإن سبيله في النموذج المقترح أن يُؤخذ من التسكين بالتدريج، ويُعنى فيه بما يكون الإعراب هو الدال على وظيفة الكلمة بالضرورة (كما في التقديم والتأخير) أو حاسما في تصحيح المعنى المراد، أو مقترنا باختلاف الرسم الكتابي.

ويظهر أن هذا النهج ليس بخارج عن منهج الأوائل في الإعراب عند مواقف المشافهة. وتقع لنا روايات خارجية صريحة تشير إلى منحى واضح لدى العرب بالتخفُّف من الإعراب، تأخذه أخذا طبيعيا رفيقا خاطفا دون احتفال بإظهاره وإتمامه (على منهج الصنعة الذي يرسمه التعلم) فقد ورد في كتاب "نثر الدر" للوزير أبي سعد الآبي: "قال أبو العيناء: ما رأيت مثل الأصمعي قط: أنشد بيتا من الشعر، فاختلس الإعراب، ثم قال: سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول: كلام العرب الدَّرج، وحدثني عبد الله بن سوار، أن أباه قال: العرب تجتاز بالإعراب اجتيازاً، وحدثني عيسى بن عمر أن ابن إسحاق قال: العرب ترفرف على الإعراب، ولا تتفيهق فيه، وسمعت يونس يقول: العرب تُشامّ الإعراب ولا تحققه، وسمعت الخشخاش بن الحباب يقول: العرب تقع بالإعراب، وكأنها لم تُرِد، وسمعت أبا الخطاب يقول:

[1] انظر في هذه المقولة الأخيرة، مثلا: العامية الفصحى لمحمود تيمور، مجلة مجمع القاهرة، الجزء 13، ص125.

إعراب العرب الخطف والحذف. قال: فتعجب كُلُّ من حضر منه"[1]. ويُؤْثَر اللحن حينا، والتخفف من الإعراب حينا عن بعض علماء العربية. فقد رُوِي أن الرشيد سأل الفراء: أتلحن يا يحيى؟ فأجاب: يا أمير المؤمنين، إن طباع أهل البدو الإعراب، وطباع أهل الحضر اللحن، فإذا حفظت أو كتبت لم ألحن، وإذا رجعت إلى الطبع لحنت. وكان ثعلب لا يتكلف إقامة الإعراب في كلامه إذا لم يَخْشَ لَبْساً في العبارة، فذُكِر ذلك لإبراهيم الحربي فقال: أيش يكون إذا لحن في كلامه... [2]. ثم انتهت لجنة اللهجات بمجمع القاهرة، في دراستها ظاهرة الإسكان في اللغة العربية إلى أن "إسكان الحركة الإعرابية ليس بمنكور في الفصحى؛ وهي ترى إمكان الاستناد إلى ذلك في إجازة الوقوف بالسكون على الأعلام المتتابعة"[3]، واعترض بعض الأعضاء منكرين هذا القرار غير أن غالبية المؤتمرين أحجموا عن الاعتراض عليه فاعتُبِر بمثابة فتوى يمكن اللجوء إليها عند الضرورة[4].

فإذا استقامت لنا، بعد ذلك، في دورة الزمن، وسائل إشاعة الفصحى المنطوقة الطبيعية مُعْرَبة بعفويّةٍ تلقائيّةٍ مُقنعةٍ استكملنا لها شَطْرَ الإعراب وكان أمرُها عوداً على بدء، والعود أحمد وعسى أن تحفز هذه الدعوة المستأنفة إلى أَخْذِ فصحى المشافهة مَأْخَذَ الجِدّ؛ لعلنا نحيي نموذجا لغويا موروثا يفتح لنا أبواب التواصل مع التراث في الزمان العربي الإسلامي ونصوغ نموذجا لغويا واقعيا يتجاوز بنا محدودية اللهجة العامية الواحدة المغلقة ويتجاوز بنا حرج التقعُّر المُفْضي إلى المفارقة المضحكة، ويَنْهَجُ لنا سبل التواصل الشِفاهيِّ على مدى الفضاء العربي والإسلامي الذي يَنْشُد تَعَلُّم العربية.

---

(1) عن فصول في فقه العربية لرمضان عبد التواب، ص65.

(2) عن المستوى اللغوي لمحمد عيد، ص46، و(ايش) بين الفصحى والعامية لـ: ف. عبد الرحيم، مجلة مجمع دمشق، المجلد 47، الجزء 2، ص477.

(3) انظر: مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد الثاني، المجلد الأول، ص149. وانظر في أمثلة مؤنسة بهذا الاتجاه في العربية: العامية الفصحى، مجلة مجمع القاهرة، جزء 13، ص123.

(4) المرجع السابق.

(9)

في التخطيط اللغوي

ولكن القضية اللغوية ليست قائمة في فراغ، وليس حلها، في نهاية التحليل، لغويّا خالصا، فهي ممتدة في حياة المجتمع تؤثر فيها وتتأثر بها، وهي مرتبطة ارتباطا عضويا بالمؤسسات القائمة. ولهذا يتطلع بعض العاملين في حقل اللغة وبعض أهل النظر إلى السلطة التي ينتظم إشرافها كُلّ جهة وتمتلك القدرة التنفيذية على الإنجاز الحاسم الشامل. ولا ريب أن القرار السياسي ليس معلّقا في فراغ أيضا، فهو مرتبط ارتباطاً عضويّا بالمؤسسات التفصيلية المباشرة واستعداداتها الموازية الكافية، لِجَعْلِه نافذاً ناجعا. إن القرار السياسي والتدابير التفصيلية يتفاعلان على التنامي والتكامل. إن القرار السياسي المبتغى، على هذا المستوى لحل مشكل الازدواجية، يجدد القرار العثماني التاريخي (قرار عثمان بجمع الناس على المصحف الإمام وإحراق ما عداه). وهو يمثّل في تراتيبه النهائية كالثورة الشاملة. وينتظم تدابير محددة تقصد إلى غرس الفصحى وتنميتها وتعهدها ومد ظلالها واستثمار العامية ما كان لها أصل أو وجه في الفصحى. فإذا استعرنا مصطلحات هذا العصر وبعض مناهجه الاستهلاكية قلنا: إن تعميم الفصحى، وتحقيق إلف الناس بها، سوف يتم من خلال وضعهم في الظروف الطبيعية التي تفضي بهم إلى ذلك حتى يعتادوه. وهكذا تتسرب إليهم الفصحى ويتشربونها كما تسرَّب إليهم النموذج الاستهلا بوسائل مباشرة وغير مباشرة. إن اتخاذ مثل هذه التدابير، واستكمال المؤسسات التي تستلزمها سيختصر علينا الطريق في حلّ جُلّ مشكلات التنمية الاجتماعية والثقافية، ويتجاوز بنا التدابير الإصلاحية الجزئية القاصرة التي تتكسّر كأمواج الشاطئ.

ويتراءى لي، آخر الأمر، أن التدابير التالية المستصفاة المستقصاة يمكن أن تقدم مساهمة فعالة في التحول إلى الفصحى. وقد صنفتها في مجالات ثم جعلتها في بنود محددة.

(9: أ) في الدرس اللغوي (الفصحى ولهجاتها):

1. إعداد فهرس شامل للسمات الصوتية والصرفية والنّحوية والمعجمية الخاصة في اللهجات العربية القديمة.
2. إعداد فهرس شامل للسمات الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية الخاصة في اللهجات العربية الحديثة.
3. تعميم سلسلة من البحوث والندوات (بالفصحى) تناقش مظاهر التباين بين اللهجات العربية وما يؤدي إليه هذا التباين من تنافر ومغالظة وسوء تفاهم.
4. إعداد دليل شامل للمقارنة بين كل لهجة عامية وبين العربية الفصحى، ووضع أسس قياسية توضح العلاقة بينهما وترسم سبيل الانتقال من العامية إلى الفصحى. ولا ريب أن بين الفصحى وكل عامية علاقة قياسية يسهل كشفها وإدراكها، ويمكن، بقليل من التدريب، التعود على ملاحظتها واتباعها في التحول.
5. إجراء دراسات مقارنة بين العامية والعربية الوسطى من جهة، وبين العربية الوسطى والعربية الفصحى من جهة أخرى. لتحديد العلاقة بين هذه المستويات الثلاثة والكشف عن مقدار التطور الذي تمثله العربية الوسطى في الانتقال من العامية إلى الفصحى، وتعيين العوامل التي أَدَّت إلى ولادة هذا المستوى اللغوي (العربية الوسطى)، فإن ذلك يمثل دليلا لنا في تطوير هذا المستوى والتدرج به نحو الفصحى باطراد، وخاصة أنه يبشر بصيغة عربية منطوقة تحمل سمات مشتركة، وتجري بها العبارة عفوا على ألسنة أبناء العربية، وتتجاوز بهم دهليز اللهجة الضيق العاجز عن الوفاء بحاجات التواصل الواسع والتعبير عن المسائل الثقافية والعامة.

(9: ب) في التعليم

1. وضع "تأليف" في قواعد العربية المنطوقة يُسْتَخْرج من كتب العربية، ويراعي الرخص التي يتيحها موقف الخطاب الشفوي.

2. تصميم برنامج مسلسل في المحادثة بالعربية الفصحى يقوم على قواعد العربية المنطوقة، ليكون مثالا للحديث الطبيعي القائم على الاجتزاء، ويقوم به ممثلون مدربون يتمتعون بمزايا متميزة تجعلهم متكلمين نموذجيين يُغرون الناس بمحاكاتهم ويقدمون لهم الفصحى بحيث يحسون أنها تَفْضُل نماذج الخطاب الشفوي الأخرى.

3. انتاج سلسلة من البرامج التلفزيونية والإذاعية لتعليم العربية للمبتدئين.

4. ربط كل كتاب مدرسي مقرر في المرحلة الابتدائية الأولى بأشرطة مسجلة لنصوص الكتب، تُسجل بأصوات معلمين متقنين أو ممثلين مدربين، لتكون نماذج صالحة يحتذيها التلاميذ. وهكذا نبدأهم بالفصحى على صورة صحيحة فلا يتعثرون في ضعف بعض المعلمين وفي صعوبات القراءة بالرسم العربي. وبهذا، أيضاً، يقترن السماع بالقراءة، وتعمل الأذن والعين بانسجام في موقف التعليم. ويصبح معتاداً في مثل هذه الحال أن يُبْدَأ بالاستماع إلى النص المسجل مع النظر إليه في الكتاب.

5. تحرير الكتب المقررة تحريراً لغويا يبرؤها من كل خطأ لغوي أو طباعي.

6. جعل الفصحى لغة التعليم العام جميعا، وجعل إتقان الفصحى شرطا في كل تعيين بهذه المهنة.

7. جعل الفصحى لغة التعليم الجامعي كله، وجعل إتقان الفصحى شرطا في كل تعيين بهذه الرتبة.

(9: ج) في أدب الطفولة:

1. إنتاج زُمر من الأغاني والأناشيد الرشيقة المناسبة للطفولة بالعربية الفصحى.
2. فرز قصص الطفولة المترجم والموضوع، واستبعاد العامي المستغلق وما ليس له أصل في الفصحى وحظره تماما.
3. إنشاء مؤسسة لأدب الطفولة تعمل على تهيئة المواد المناسبة منه بالعربية الفصحى، وتعميم ذلك على الأطفال تعميم الحليب والتطعيم.

(9: د) في محو الأمية:

برنامج شامل لمحو الأمية قد يكون من بعض وجوه تنفيذه أن تعلم البنات أمهاتهن، ويعلم الأبناء آباءَهم. وقد يكون من لوائحه أن يعلّم كل متخرج من المدرسة وكل متخرج من الجامعة عشرة من قريته أو حَيِّه، بحوافز مقنعة وتراتيب موضوعة بإحكام وعناية.

(9: هـ) في الحياة العامة:

1. برنامج إذاعي تلفزيوني مسلسل تقدمه أُمّ (حانية) لطفل في بدء الكلام... تناغيه وتدربه على الكلمات الأولى، والعبارات الأولى، بأداء صحيح عذب طبيعي، يصلح مثالا لكل أم في هذه المرحلة، ويكون مضمونه منسجما مع نموّ الطفل وحاجاته.

2. برامج مماثلة، متدرجة فيها مخاطبات أولية بالفصحى، على مستوى الطفولة تقوم على مواقف حوارية.

3. برامج مصورة، تتناول الأولاد في الحي بألعابهم وأتعابهم، ومحاوراتهم في شكل حكايات، ومواقف مذاعة، ومتلفزة.

4. برنامج يتناول حياة أسرة في بيتها، ويستغرق، في قصة مسلسلة، وجوه استعمال الفصحى بصورة طبيعية، يوظف تسميات الأشياء جميعا بأسماء عربية، ويطوع العربية للتعبير عن شؤون الحياة المنزلية.

5. إنتاج سلسلة من البرامج التلفزيونية الإذاعية التي تجعل الحياة اليومية مادة لها وتجعل الفصحى لغة للتعبير عنها، حتى تأخذ الفصحى مكانها في دورة الاستعمال الحي فتتسرب إلى الناس جميعا. ومن نافلة القول أن نشترط أن تقوم هذه البرامج على قضايا ومواقف حيوية تشد الناس إليها، وأن تقوم على نصوص أدبية متفوقة يضعها كتاب مبدعون، وأن يُبْذَل في تدريب الممثلين على الأداء اللغوي ما يكفل له أن يقدم الفصحى رشيقة جذابة طبيعية عفوية مقنعة. وقد تنتظم هذه السلسلة:

- برنامجا يتناول حياة بائع في سوق المدينة.
- برنامجا يتناول حياة فلاح في القرية.
- برنامجا يتناول حياة راع في البادية.
- برنامجا يتناول حياة موظف في دوائر الدولة.
- برنامجا يتناول حياة عامل في مصنع.
- ... بكل ما يعرض لكل منهم في حياته من علاقات ومواقف.

6. تعريب اللافتات وأسماء المحال وكل وجوه الإعلان وكل مظهر مكتوب في الحياة العامة بإعطائها أسماء عربية صحيحة دالة.

7. نشر معجم مصور بألفاظ الحياة العامة يعتمد الشائع ما كان له أصل في الفصحى أو كان معرّبا على قياسها أو مستخرجا من مواد المعجم القديم، وتعميم هذه الأسماء في كل ما يُباع وما يُنتج وما يُعرض.

8. تعيين هيئة دائمة من المجمع اللغوي والمجلس الأعلى للغة العربية لوضع مقابلات عربية لكل مايدخل إلى البلاد من بضائع وأجهزة، وتزويد هذه الهيئة بكل الوسائل اللازمة لتعميم الأسماء العربية الموضوعة، جنبا إلى جنب مع الأسماء المستوردة.

(9: و) في الإدارة:

1. جعل إتقان الفصحى شرطا في كل تعيين لوظيفة إدارية أو كتابية.
2. تحرير النماذج الرسمية والديوانية والإجرائية تحريراً لغويا محققا.

(9: ز) في الفنون:

1. الاقتصار على الفصحى في المسرح،
2. الاقتصار على الفصحى في صناعة الأفلام،
3. الاقتصار على الفصحى في نصوص الأغاني.

(9: ح) في لغة الكتابة:

1. تعيين محررين لغويين لتصحيح لغة الصحافة، ومدققين لتصحيح أخطاء الطباعة، واعتبار الخطأ اللغوي أوالطباعي تقصيرا مهنيا.
2. "منع المطابع من طبع الكتب أو رسائل بالعامية"[1].

(9: ط) في وسائل الإعلام المسموعة والمرئية:

1. عدم بث أية مادة إذاعية أو تلفزيونية إلا بالفصحى.
2. قصر البث من الفضائيات العربية على الفصحى.

---

(1) مشكلات العربية، مجلة مجمع دمشق، ج4، مج 39، ص 533، ومن حاضر اللغة العربية، ص216-218.

3. إعداد العاملين في التلفزيون والإذاعة "إعدادا صوتيا ولغويا، لعلاج ما يبدو من تحريف في نطق بعض الحروف على ألسنتهم، ومن أخطاء في ضبط بعض الكلمات".

"وعلى وزارات الإعلام وهيئات الإذاعة المسموعة والمرئية أن تستعين في علاج ذلك بالأساتذة المتخصصين في صوتيات اللغة وقواعدها النحوية"[1].

في نقل التحدث بالفصحى من الإطار الفردي إلى المجال الاجتماعي:

- إنشاء ناد للتحدث بالفصحى في كل مدرسة، وكلية، وحي، وقرية، ومصنع، ومزرعة.

ولا ريب أن كل بند من هذه البنود يحتاج إلى خطة متكاملة لعرضه على الناس عرضا يوضح أبعاده، ويحتاج إلى تشريع مفصل يضمن تنفيذه. كما أن هذه البنود تحتاج إلى دراسات ميدانية تحلل العوامل المتداخلة معها، وتستوثق من الظروف المحيطة بها، وتتحقق من جدواها، وتستطلع العقبات التي قد تقوم في طرقها، وتُعِدّ للحوار في كل ما يتعلق بكل منها، وتحدد خير الوسائل لتحقيقها. وقد يستثير كثير من هذه البنود ردود فعل. ولكنها ستكون آنية عابرة. وسوف يتحقق الناس، في زمن قصير، من جدوى هذه التراتيب التي تأخذ في بداية الأمر صورة الثورة الشاملة والنفير العام.

(10)

خاتمة

ولا ريب أن حل مُشكل الازدواجية العويص سيحلّ عقدة اللسان العربي وسوف يحرره من اللجلجة واللحن، وسوف يوفر على العربي تلك المعاناة الذهنية،

---

[1] وقائع مؤتمر مجمع اللغة العربية في القاهرة في دورته الخامسة والأربعين، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، السنة الثانية، العددان 3 و4.

وعلى الطالب العربي ذلك الجهد الضائع في تحصيل العربية، وعلى غير العربي تلك الحيرة التي يضطرب فيها عند اختيار المستوى اللغوي الذي ينشد تعلمه، وسوف يسهم في تحقيق الاتساق الثقافي والاجتماعي والتقدم نحو الوحدة الجامعة. فإذا رأى بعض الناس أن التحول إلى المستوى الفصيح سيؤول بنا من جديد إلى الازدواجية، إذ لا يلبث البون بين اللغة المكتوبة واللغة المحكية أن يتسع رَأَيْنا أن هذا العصر يزودنا بالوسائل المسموعة والمرئية التي تجسد الفصحى مشخصة محكية، كما يزودنا بالكتاب الذي يحفظ الفصحى مدوّنة محمية. وهكذا يحفظ الشريط المسجل لغة الخطاب، كما يحفظ السجل المدون لغة الكتاب.

و: نَحْنُ أَدْرى وقد سَأَلْنا بِنَجْدٍ   أطويلٌ طريقُنا أم يطول
وكثيـرٌ مـن السـؤال اشتيـاق   وكثيــر من رَدّه تعليـل

ثبت المصادر والمراجع

بالعربيـــة:

1. اتجاهات البحث اللغوي الحديث في العالم العربي (لبنان 1901-1960)، رياض قاسم مؤسسة نوفل، بيروت، 1982.

2. أسرار العربية، الأنباري، تحقيق محمد بهجة البيطار، دمشق 1377هـ-1975م.

3. انتشار اللغة ا لعربية رهن بمدى اسهامها في الواقع الحضاري، ز نجيب محمود اللسان العربي، العدد الخامس.

4. أصول النحو، ابن السراج، تحقيق عبد الحسين الفتلي، النجف الأشرف، 1973.

5. إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم، ابن خالويه، أعادات طبعه بالأوفست، مكتبة المثنى ببغداد عن طبعة القاهرة، 1360هـ-1941م.

6. الإعراب من قواعد الإعراب، ابن هشام، تحقيق وتقديم علي فودة نيل، الرياض 1401هـ-1981م.

7. الأعراف أو نحو اللسانيات الاجتماعية في العربية، نهاد الموسى، كتاب الملتقى الدولي الثالث في اللسانيات، الجامعة التونسية، 1985.

8. أقرب الطرق إلى نشر الفصحى، عبد القادر المغربي، مجلة المجمع العلمي العربي دمشق، المجلد 3، الجزآن 7، 8.

9. أمال من اللهجات العامية، عباس محمود العقاد، مجلة مجمع اللغة العربية (القاهرة) الجزء 10، 1958.

10. بقايا الفصاح، شفيق جبري، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، المجلد 39، الجزء 4، تشرين الأول 1964، جمادى الأولى 1384هـ.

11. البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1367هـ-1948م.

12. بين العامية والفصحى، عبد الرزاق البصير، مجلة مجمع اللغة العربية (القاهرة) الجزء 41، جمادى الأولى 1398 – مايو (أيار) 1978.

13. تأملات عامة في اللهجات العربية، ج. قانتينو، مجلة المجمع العلمي العربي (دمشق) المجلد 15، الجزآن، 3، 4، 1356هـ-1937م.

14. تاريخ القرآن، إبراهيم الإبياري، دار القلم، القاهرة، 1965م.

15. تعليم اللغة العربية في ربع القرن الأخير، اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية، ندوة عمان، 1978.

16. تقريب العامية من الفصحى، حسين علي محفوظ، مجلة مجمع اللغة العربية (القاهرة) الجزء 41، جمادى الأولى 1398هـ- مايو (أيار) 1978م.

17. الثنائيات في قضايا اللغة العربية من عصر النهضة إلى عصر العولمة، نهاد الموسى دار الشروق، عمان، 2003.

18. الخصائص، ابن جني، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب المصرية (القاهرة) 1371-1376هـ- 1952-1956م.

19. دراسة في اللهجة المصرية، عبد القادر المغربي، مجلة مجمع اللغة العربية (القاهرة) الجزء 3، 1355هـ-1936م.

20. شرح شذور الذهب، ابن هشام، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية بالقاهرة، الطبعة الثامنة، 1380هـ-1960م.

21. شرح قطر الندى وبل الصدى، ابن هشام، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية بالقاهرة، الطبعة العاشرة، 1379هـ-1959م.

22. شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح، ابن مالك، تحقيق وتعليق محمد فؤاد عبد الباقي، مكتبة دار العروبة، 1376هـ-1957م.

23. عاميات، شفيق جبري، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد 42، الجزء 1، رمضان 1386هـ - كانون الثاني 1967م.

24. العامية .. الفصحى، محمود تيمور، مجلة مجمع اللغة العربية (القاهرة)، الجزء 13، 1961.

25. العامية والفصحى في القاهرة والرباط، عبد العزيز بن عبد الله، مجلة اللسان العربي العدد 22.

26. العربية بين الفصحى والعامية، عارف النكدي، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد 44 – الجزء 1 و2، شوال 1388هـ- كانون الثاني 1969.

27. العربية الدارجة في القطر الجزائري، إبراهيم السامرائي، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد 55 – الجزء 4، ذو القعدة 1400هـ - تشرين الأول 1980م.

28. العربية الوسطى وما نشأ فيها من تداخل بين الفصحى والدارجة، محمد الشايب، المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية، الجامعة التونسية، 1976م.

29. علم اللغة، علي عبد الواحد وافي، مكتبة نهضة مصر، الطبعة الخامسة، 1382هـ-1962م.

30. الفصحى المنطوقة: منزلتها في النظرية النحوية، وصورتها في اللغة العربية، رسالة دكتوراه، إعداد محمد علي يونس رباع، الجامعة الأردنية، 1994.

31. الفصيح والمولد في كلام أهل الغوطة، محمد كرد علي، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، المجلد 19 – الجزآن 1 و2، كانون الثاني وشباط 1944م - المحرم وصفر 1363هـ.

32. فقه اللغة العربية وخصائصها، إميل يعقوب، دار العلم للملايين، بيروت، 1982م.

33. فقه اللغة المقارن، إبراهيم السامرائي، دار العلم للملايين، الطبعة الثالثة، 1983م.

34. في اللهجات العربية، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة السادسة.

35. قراءة ألسنية للتراث اللغوي العربي الإسلامي: نحوي عربي من القرن الثامن الميلادي مساهمة في تاريخ اللسانيات، مايكل ج. كارتر، تعريب: محمد رشاد الحمزاوي، حوليات الجامعة التونسية، العدد 22، 1983.

36. قضايا اللغة العربية المعاصرة (بحث من الإطار العام للموضوع)، شكري فيصل المجلة العربية للدراسات اللغوية، المجلد الثاني، العدد الأول، اغسطس (آب) 1983.

37. قضية التحول إلى الفصحى في العالم العربي الحديث، نهاد الموسى، دار الفكر، عمان 1987 (نشر بدعم من الجامعة الأردنية).

38. كتاب الحروف، الفارابي، تحقيق محسن مهدي، دار المشرق، بيروت، 1970.

39. كتاب السبعة في القراءات، ابن مجاهد، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة 1400هـ.

40. كتاب سيبويه، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، 1385هـ-1966م.

41. لغة العامة، شفيق جبري، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد 49، الجزء 4 شعبان 1394 هـ - أيلول 1974م.

42. اللغة العربية في العصر الحديث: قيم الثبوت وقوى التحوّل، نهاد الموسى، دار الشروق، عمان، 2007.

43. اللغة العربية وأبناؤها (أبحاث في قضية الخطأ وضعف الطلبة في اللغة العربية)، نهاد الموسى، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، 1404هـ-1984م.

44. لغة المسرح، محمد توفيق دياب، مجلة مجمع اللغة العربية (القاهرة)، الجزء 12 1960م.

45. لكل عصر لغة، شفيق جبري، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد 41، الجزء4 تشرين الأول 1966، جمادى الآخرة 1386هـ.

46. اللمع في العربية، ابن جني، تحقيق فائز فارس، دار الكتب الثقافية، الكويت، 1392هـ-1972م.

47. اللهجات العربية في القراءات القرآنية، عبده الراجحي، دار المعارف، مصر، 1969.

48. المدخل إلى علم اللغة، رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ودار الرفاعي الرياض، الطبعة الأولى، 1982م -1402هـ.

49. المستوى اللغوي للفصحى واللهجات وللنثر والشعر، محمد عيد، عالم الكتب، القاهرة 1981م.

50. مستويات العربية المعاصرة في مصر، السعيد محمد بدوي، دار المعارف، مصر.

51. مظاهر الوحدة بين عامية بغداد وعامية المغرب الأقصى، عبد العزيز بن عبد الله اللسان العربي، المجلد 18 – الجزء 1.

52. المفصل، الزمخشري، تحقيق (بروخ).

53. المقتضب، المبرد، تحقيق عبد الخالق عضيمة، القاهرة 1385–1388هـ.

54. المقدمة، ابن خلدون، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، بيروت، 1961م.

55. من حاضر اللغة العربية، سعيد الأفغاني، دار الفكر، الطبعة الثانية، 1971.

56. نحو تفصيح العامية في العالم العربي، عبد العزيز بن عبد الله، اللسان العربي، العدد1 صفر 1384 هـ، يونيو (حزيران) 1964م.

57. نحو تفصيح العامية في الوطن العربي، دراسات مقارنة بين العاميات العربية، عبد العزيز بن عبد الله، اللسان العربي، المجلد 9 – الجزء 1، 1391هـ - 1972م.

58. نحو تفصيح العامية في الوطن العربي، عمر الطاهر، اللسان العربي، المجلد 10 الجزء 1.

59. النشر في القراءات العشر، ابن الجزري، إشراف علي محمد الضباع، دار الكتب العلمية، بيروت (عن المكتبة التجارية بالقاهرة).

60. نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، نهاد الموسى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1400هـ - 1980م.

61. الوجهة الاجتماعية في منهج سيبويه في كتابه، نهاد الموسى، مجلة حضارة الإسلام، دمشق 1394هـ-1974م.

62. وقائع مؤتمر مجمع اللغة العربية في القاهرة في الدورة الثامنة والأربعين 1982م عدنان الخطيب، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد المزدوج 15-16، السنة 5 ربيع الأول – رمضان 1402هـ، كانون الثاني – حزيران 1982م.

63. وقائع مؤتمر مجمع اللغة العربية في القاهرة في دورته الخامسة والأربعين، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العددان 3، 4، السنة الثانية.

64. وقائع مؤتمر مجمع اللغة العربية في القاهرة في دورته السادسة والأربعين، عدنان الخطيب، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد المزدوج 9 – 10، السنة 3، رمضان 1400 - صفر 1401هـ، آب – كانون الأول 1980م.

الإنجليزيـــة:

1. Gembun Itchi, by J.V. Neustupn' y. in Kodansha Encyclopedia of Japan, Tokyo 1983.
2. Instrumentalism in Language Planning, by E. Haugen, in Can Language be Planned? The Univ. Press of Hawaii, Honolulu 1971.
3. Language Development, by C. Ferguson, in Language Structure and Language Use, Stanford Univ. Press, 1971.
4. Language Education in Arab Countries and the Role of the Academies, by S. Altoma, in Advances in Langugae Planning, Mouton 1974.
5. Post-Structural Approaches to Language: Language Theory in a Japanese Context, by J.V. Neustupny, university of Tokyo Press 1978.
6. The Problem of Diglossia in Arabic, by S. Altoma, Harvard Middle Eastern Mongogaph Series 1969.
7. The Revival of a Classical Tongue, by J. Fellman Mouton 1973.
8. The Theory of Language Planning, by V. Tauli, in Advances in Language Planning, Mouton 1974.
9. Toward a Definition of Language Planning, by F. Karam, in Advances in Language Planning, Mouton.
10. What is Educated Spoken Arabic, by T.F Mitchell (Typewritten).

العاميات العربية

ولغة التخاطب الفصيحة

للأستاذ الدكتور عبد الرحمان الحاج صالح

رئيس المجمع الجزائري للغة العربية

إنّ الناطقين باللغة العربية يلجؤون، في جميع البلدان العربية ومنذ القديم،إلى لغة تخاطب تسمى بالعامية في التعبير الشفاهي عن الحاجات العادية اليومية وتنفرد العامية بهذا الجانب من الحياة. وتختلف العاميات من جهة إلى أخرى قليلا أم كثيرا. كما يلجأ غير الأميين منهم إلى اللغة الفصحى في كل ما له علاقة بالثقافة والتعليم والحياة الرسمية وكل ما يخص الإدارة ووسائل الإعلام وغير ذلك. وتنفرد الفصحى بكل ما هو مكتوب ولا تنحصر فيه أبدًا. ومن المعروف أيضا أن العاميات العربية كلها متفرعة تاريخيا عن العربية وتنوعاتها التي كانت تنطق بها القبائل العربية القديمة. وبينها وبين اللغة الأصلية فوارق. فالسؤال الذي نطرحه هو عن هذه الازدواجية وحقيقتها وسلبياتها وهل هي خاصة بالعرب أم هل هي ظاهرة طبيعية؟ وكيف هو الحال بالنسبة للأمم الأخرى ولغاتها؟ فقد شاعت في هذا الشأن أقوال كثيرة لا بد أن نكشف عن حقيقتها وعما يجب أن نفعله لتفادي ما يترتّب عليها من المساوئ وما يعوق منها الترقي الحضاري. هذا وما الذي يجعل لغة الثقافة ولغة التخاطب لا تبتعدان كثيرا؟ وكيف كانت لغة التخاطب العربية في زمان تدوين العربية فهناك شهادة اللغويين من الذين قاموا بجمعها من أفواه العرب.فسنتطرق إلى كل ذلك فيما يلي.

إنّ اللغات البشرية الطبيعية هي أوضاع اجتماعية مثل سائر المؤسسات والنظم الاجتماعية الأخرى كنظام الأسرة وما يرتبط به من زواج وطلاق ومثل ما يتعلق بتنظيم الدولة وغير ذلك. وما يجعلها كذلك هو أنها نظام من الرموز **يتواضع عليه** لتبليغ الأغراض. وككل ما تتواضع عليه المجتمعات الإنسانية فهي تخضع للتحول مع مرور الزمان فأحداث الزمان تغيرّها فتصيّرها على وضع آخر غير ما كانت عليه. وبذلك

تصير لغات أخرى إذا كان التغيير شاملا. وتختلف اللغات البشرية عن غيرها في كونها طبيعية وليست مثل المؤسسات الاجتماعية التي يتواضع عليها الناس وهم شاعرون بذلك وذلك كاللغات المصطنعة (ولغات الصم والبكم وغيرها). وكسائر الأنظمة التي هي من وضع الإنسان وبإرادته. ولهذا فالتحول الزماني للغات الطبيعية لا يشعر به الناطقون بها في وقت التحوّل ولا يتفطن إلى ذلك إلا اللغوي. والسبب الرئيسي لكل تحول هو تأثير الأحداث الاجتماعية في نظم المجتمع من خلال كيفية استخدام أفراده لها. **واللغة هي وضع واستعمال لهذا الوضع**. وهذا قد ينساه الكثير من الناس بالنسبة إلى اللغة العربية. ونخص بالذكر المجامع اللغوية وكل من يشتغل باللغة وتعليمها. فنظام اللغة يصيبه التغيير من خلال الاستعمال له والغاية من استعمال اللغة هو التواصل وهذا يحتاج إلى نظام متماسك من الرموز المتباينة إلا أن الاستعمال فعل محكم وكل فعل فهو مكلِّف فإذا كانت الكلفة باهظة أو تتجاوز الفائدة فيضطر المستعمل إلى التخفيف من جهوده العضلية والذاكرية. وهذا هو السبب الأهم في تحول اللغة من نظام إلى نظام آخر. ولا بد من التنبيه على أن التحول الناتج من هذا الميل الطبيعي إلى الاقتصاد (في جميع أفعال الإنسان) ينطبق خصوصا على لغة التخاطب اليومي العادي لعفويته. وهناك سبب آخر للتغيير وهو المحافظة على النظام اللغوي لأنه لا بيان ولا تبليغ إلا بنظام منسجم من الرموز (مهما كان شكله) وهذا يؤدّي إلى ترميم المجتمع لنظام لغته التي أُصيبت بشئ من الاختلال في نظامها بسبب التحوّل المشار إليه. فيحاول الناطقون **بدون ما شعور منهم إطلاقا** أن يُرمّموا ما صار فيه اضطراب بسبب التحول الزماني. وهذان العاملان قد تفطن إلى وجودهما القدامى من علمائنا واللسانيون المحدثون. فهو عند العرب التخفيف من المؤنة في ظواهر الإبدال والإعلال والإدغام والقلب وغير ذلك. أما العامل المعاكس فهو عندهم "طرد الباب" مثل حمل حذف الهمزة في أكرم على كل تصاريف الفعل وحمل حذف الياء في يعد على كل تصاريف يعد لكيلا يختلف الباب. وهذه الظواهر التحويلية هي جدّ طبيعية ولا يشعر بها الناطق.والعاميات هي نتيجة لهذا التحوّل الزماني.

فهذا التخفيف إذا كان مطلقاً من كل قيد (كوجود نحو مدوّن وكتابة) يغيّر شيئا فشيئا نظام اللغة ويساعد على ذلك تكلف الناطق النطق بما ليس من لغته الأصلية. وذلك مثل تأثير العجم الذين دخلوا الإسلام على لغة أولادهم وهؤلاء على أبناء العرب. ومثل ذلك الأهالي الأصليون في أوربا الغربية بعد غزو الرومان لأراضيهم واستعمارهم لهذه البلدان. فصارت اللاتينية في أفواه هؤلاء بعد تبنّيهم لها تبتعد شيئا فشيئا عند عامتهم وصارت هي اللاتينية الدارجة أو العامية (Vulgaris Latina) وتنوعت بتنوع البلدان المغزوة كما صارت العربية إلى لهجات في كل بلد من البلدان التي فتحها المسلمون وسكنها الكثير من القبائل العربية. فالتحول اللغوي عبر الزمان هو قانون طبيعي عام ولا تفلت من ذلك أية لغة في الدنيا منذ أن خُلق الإنسان. وقد بيّن ذلك جيدا اللسانيون في زماننا ودرسوا ظواهر التحول الزماني دراسة وافية وتناولوا بالدراسة كل اللغات تقريبا. وهذا وإن كان صحيحا لا جدال فيه إلا أنّ القول باستحالة تدخل الإنسان للتأثير في التحول هو قول فيه مجازفة كبيرة لأنه لا توجد أية ظاهرة طبيعية في الدنيا أو أي تحول اجتماعي إلا وقد يحاول المجتمع – في ظروف معينة– إيقافه أو توجيهه وإخضاعه لإرادته. وهذا ينطبق على تحول اللغة فقد تم تدوين اللغة الفرنسية في نظامها النحوي ونظامها المعجمي على أيدي النحاة ابتداء من القرن السادس عشر الميلادي. واعتمدوا في ذلك على لغة باريس ونواحيها بعد أن صارت هي اللغة الرسمية (وكانت لغة البلاط الملكي). فبقي هذا النظام اللغوي واستمر إلى وقتنا الحاضر بشئ طفيف من التغيير مع أنّ اللغة الفرنسية قد تغيّرت تماماً وصارت لغة أخرى في أثناء حرب المائة سنة في أواخر العصر الوسيط إذ لم يوجد في تلك الفترة من يصدّها عن ذلك بالتدوين لنظامها ولم يوجد من أصحاب السلطة من يجعلها معيارًا لغويا رسميا. وقد تكون اللغة المختارة لذلك لغة نص ديني مثل السنسكربتية عند الهنود ومثل لغة القرآن فظهرت في الوقت الذي بدأت هاتان اللغتان تتحولان مجموعة من النحاة فدونّوا نظاميهما فحافظوا بذلك على كيانها. وينبغي أن ننتبه إلى أن هذا العمل قد أوقف اختفاء هذين النظامين. ولم يوقف التحول الذي أصاب لغة التخاطب اليومي العادي إيقافا تاما وهي بالنسبة للعربية

العاميات على اختلاف أنواعها لأن لغة التخاطب تخضع خضوعاً كاملاً لقانون الاقتصاد اللغوي. إلا أن وجود معيار لغوي مدوّن يرجع إليه الناطقون يكون من أسباب بطء التحويل للغة التخاطب أو حصوله من بعض الجوانب دون بعض وذلك يخص لغة التخاطب العادية وبقاءها قريبة جدا من لغة الثقافة ويحصل ذلك إذا كان المستوى الثقافي للشعب غير متدنٍّ. فلغات التخاطب الأوروبية غير اللهجات مثل الفرنسية التي يتكلم بها **أهل باريس ومارسيليا في تخاطبهم اللغوي وخاصة المثقفين منهم هي قريبة جدا من اللغة الفرنسية "الرسمية".**

فما نسميّه اليوم عامية بالنسبة إلى العربية فهي ما أفضت إليه لغة النازلة من العرب في كل بلد (كما يقول الجاحظ) بنفس التحول الذي تكلمنا عنه وبنفس الأسباب التي غيّرت اللاتينية في أفواه الغاليين (Gaulois) وأبناء الرومان في بلاد الغال فجعلتها تنوّعا من لغة التخاطب التيأ 7 بها الرومان بشئ من التغيير. ولا بد ههنا أن نؤكد على حقيقة قد يتغافل عنها بعض المثقفين: فقد يزعم بعض اللسانييّن أن مصير اللهجات العربية القديمة إلى عاميات عربية مختلفة هو بمنزلة ما صارت إليه اللاتينية إلى لغات مختلفة. فهذا غير صحيح. فإن لغة التخاطب للنازلة من العرب في كل واحد من البلدان العربية بل في كل مكان عرف ببعض هذه القبائل لم تتحول التحوّل الكامل في جميع المستويات اللغوية الذي أصاب لغة التخاطب للنازلة من الرومان في البلدان التي غزوها في أوروبا فصارت لغات ولهجات بعيدة كل البعد عن اللغة الأصلية. **فالفرنسية واللهجات المتفرعة من اللاتينية[1] مغايرة تماما للاتينية** فهي "لغة أجنبية" بالنسبة لها وكذلك كل اللغات التي أصلها اللاتينية. وهذا يخالف ما يحسّ به العربي اللسان في زماننا هذا فهو يشعر بوضوح أن العامية التي ينطق بها هي لهجة عربية قد فقدت علامات الإعراب وبعض الخاصيات الأخرى التي تختص بها الفصحى إلا أنه لا يقول أبدا أنها لغة أجنبية ولا يقول إنها تبتعد عنها مثل ما تبتعد

[1] وبما دخل فيها من لغة الجرمان وهو كثير.

الفرنسية عن اللاتينية إلا الجاهل ولا يحس بالبعد العميق إلا الأمي الذي لا يعرف تماما العربية الفصحى.

وعلى هذا فإن كان يحقّ للدول التي تكوّنت في أوربا بعد القرن السادس عشر أن تتخذ إحدى لهجاتها أو اللغة العامية السائدة سياسيا أو اجتماعيا كلغة رسمية (في الإدارة والتعليم وغير ذلك) وذلك لتحقيق الوحدة الوطنية والثقافية وترك اللاتينية لأنها أصبحت لغة بعيدة جدا عما هو مستعمل من اللغات، فليس الأمر كذلك أبدا بالنسبة للعربية وعامياتها فالنواة الجوهرية لهذه العربية وعامياتها لم تتغير: لا تزال كلها متكونة في معجمها من الجذور الثلاثية أساسًا وأوزانها التي تصوغ هذه الجذور.وهيهات أن يكون الأمر هكذا بالنسبة إلى اللغات الرومانية فأين هي كلمة Ile من Insulam وما الذي يربط عند الناطق العادي غير العالم اللغوي كلمة Chef بـ Caput و Courage بـ Coraticu و Gué بـ Vadu و Soif بـ Sepe وغيرها ثم أضف إلى ذلك أن 80% من المفردات بالعامية موجودة في الفصحى. هذا من الناحية اللغوية أي من حيث الفوارق الموضوعية. أما من الناحية الاجتماعية الثقافية والسياسية فهل من منكر أن وحدة الوطن لا تقوى إلا بوحدة الثقافة ووحدة اللغة؟ وماذا فعل حكام فرنسا منذ قرون: ففي عهد فرنسوا الأول أصدر هذا الملك المرسوم الذي جعل لغة أهل باريس هي الرسمية (في 1539) وقد تبنى هذه اللغة كتّاب فرنسا ولغويُّوها وعلماؤها (مثل ديكارت) وعممتها الثورة الفرنسية ورسّخها وزير التعليم جول فيري ترسيخا لا مثيل له وغيره ممن جاؤوا بعده. وهذا لا يمنع أن تتواجد وتتعايش اللغة الرسمية بلغة أخرى.

ثم إن هذه الوحدة لا تخص بلدا واحدا فقد تصير اللغة – وبالتالي الثقافة- الرباط الوحيد الذي يربط بين عدد كبير من الشعوب وأن يوجد بالفعل مثل هذا الرباط يعتبر قوة وسؤددا وحظا كبيرا قد لا يتوفر في الغالب وذلك مثل الاتحاد الأوربي الذي ينقصه الرباط اللغوي. وقد تحاول الدول التي كانت استعمرت الدنيا كلها منذ عهد قريب أن تكون لغتها تجمع في تحالف واسع كل دولة كانت قد استعمرتها مثل فرنسا وانكلترا

وروسيا وغيرها. وحظ الولايات المتحدة الأمريكية أنها جعلت الانكليزية توحّدها على الرغم من الاختلاف الاجتماعي والعرقي والثقافي الذي كان يتصف به مواطنوها في زمان نشوئها والنازحون إليها فيما بعد.

ثم إن قول بعضهم إن الفصاحة فصاحات وأن كل لغة تعتبر فصيحة في حدّ ذاتها وليست العربية الفصحى بأحق من غيرها بهذه الصفة! فهذه مغالطة في الواقع وتخليط بين العلم والحقائق التي يثبتها من جهة وبين الاختيار الاجتماعي السياسي من جهة أخرى. فصحيح أنّ أية لغة بل وأية لهجة تعتبر علميا بأنها فصيحة وأصحابها فصحاء إذا لم تتغير عن النظام النحوي الصرفي الذي يتصف به معيارها بالتحول الزماني الذي أشرنا إليه.فلكل لغة في الدنيا معيار وهو ما يمتاز به نظامها النحوي الصرفي فإذا تحول هذا النظام على لسان الناطق بها فلا يوصف بالفصاحة ولا يقال له إنه ناطق أصلي لها Native Speaker. لأنه ينطق بأشياء لا تنتمي إلى النظام الذي عرفت به هذه اللغة.

فهذا الجانب العلمي وأما ظاهرة اختيار الشعوب لمعيار لغوي لسبب خاص بهم يهمّهم ويهمّ وحدتهم فهي **ظاهرة لا تخص شعبا دون شعب** عبر التاريخ والاختيار فيها هو ظاهرة اجتماعية. فلا دخل للعلم في ذلك إنما على العلماء أن يصفوا مثل هذه الظاهرة وأن يفسروها ولا يحكمون عليها بحكم ذاتي كعلماء بل كمواطنين يهمهم هذا الاختيار. وفيما يخص العربية فإن جميع الدول العربية اختارت العربية الفصحى كمعيار لغوي ولا عجب في ذلك أن تكون هذه اللغة الرباط الأساسي الذي يربطهم وتنتظم عليه علاقاتهم وتواصلهم وتعاونهم.فإن لهم تراثًا بهذه اللغة عظيم يتسع في الزمان إلى 14 قرنا وفي المكان إلى 22 دولة. وهي لغة الثقافة التي بها ترتقي المجتمعات الناطقة بها.

أما فيما يخص العاميّات العربية فإن القدماء من العلماء وغيرهم كانوا لا يسمون اللغة الملحونّة عامية. واستعمل الجاحظ عبارة "الكلام الملحون"لعامية زمانه (البيان، 46/1) فهذه أقدم تسمية للعامية مع استعماله لكلمة " العامي" وصفا للفظ

الذي يأتي على ألسنة من يُسميّهم بالعامة. قال:" كما لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميًّا " (البيان،166/1). واستعملت عبارة "لَحْن العامة" في أقدم العصور وألفّت الكتب في هذا الميدان (انظر كتاب "لحن العامة" للد.عبد العزيز مطر،ص57- 70). ويلاحظ أن العامة عند سيبويه ومعاصريه يعني بها الأغلبية من الناس بدون ازدراء. وكذلك الإمام الشافعي فإنه لا يريد من العامة في عبارته:" عامة عن عامة" إلا الكثرة من الناس. وقد رأينا من أين جاءت العاميات وكيف صارت إلى ما هي عليه ورأينا أن الفوارق بينها وبين الفصحى ليست أبدا مماثلة للفوارق التي كانت قائمة بين اللاتينية واللغات الأوروبية المتفرعة عنها فهذه لغات وهي مغايرة لها تماما.وبقي أن نتسآل فيما يخص عاميتنا عن وضعها الحالي كلغة تخاطب بالنسبة إلى الفصحى وينبغي أن ننظر أيضا في ماهيتها وآراء الناس فيها.

إنّ العامية العربية -في أي بلد عربي كان- هي المستوى من التعبير الوحيد الذي يتخاطب به العرب عفويًا في الحياة العامة **وقد كانت العربية الفصحى في القديم بهذه الصفة- انفرادها بلغة التخاطب المسترسل- وانشقت إلى لغة ثقافة وإلى عامية كلغة تخاطب** تشمل كل الناطقين بالضاد. المثقفين منهم وغيرهم.وفُرضت على جميع أفراد الأمة لأنها بقيت تتصف بكل صفات لغة التخاطب وهي الخفة والاختزال وهذا يُلزمه الخطاب العفوي غير المنقبض. فيفضّل الناس اللغة الملحونة في حالة الأنس لهذا السبب لا للحن الذي فيها فقد قال ابن فارس في كتابه الصاحبي:" لأن الناس لا يزالون يلحنون ويتلاحنون **فيما يخاطب بعضهم اتقاءً للخروج عن عادة العامة.** فلا يعيب ذلك من ينصفهم من الخاصة" (ص،3). وقال أيضا: " وقد كان الناس قديما يجتنبون اللحن فيما يكتبونه ويقرؤونه اجتنابهم الذنوب. فأما الآن (قُبيل سنة وفاته 395) فقد تجوزوا حتى أن المحدّث يحدث فيلحن..."(32) وبقي الأمر هكذا إلى يومنا هذا. ولا يتصور في زماننا أن يكلم الواحد منا في حالة الأنس - لا الانقباض- صديقا له أو أحد أفراد أسرته في الحاجات البسيطة بلغة فيها إعراب وغير ذلك مما تنفرد به الفصحى.والغريب في ذلك هو أن لا يتساءل الناطقون عن السبب

الموضوعي في ذلك! فقد يقول قائل بأن اللغات الحية في زماننـا قـد سـقط فيهـا الـشئ الكثير ومنها علامات الإعراب وصارت بذلك أخف وأكثر نجاعة وذلك مثل اللغات المتفرعة عن اللاتينية فكلها تخلـصت مـن الإعـراب. فيجـب أن نـستبدل الفـصحى بالعامية لأن العامية هي نتيجة لتطور العربية المعربة. وهـي اللغـة التـي تـستعمل في الحياة! **والحق غير هذا إطلاقا.**

فأما علامات الإعراب فلم تسقط من الكثـير مـن اللغـات وذلـك مثـل اللغـة الألمانية من بعض جوانبها ومثل اللغات السلافية كالتشيكية مثلا وكلهـا لغـات حيّـة تستعمل يوميا في التخاطب العادي بعلاماتها الإعرابية. والكثير منها تحول مـن نظـام إعرابي إلى نظام إعرابي آخر. ونكرّر هنا للتأكيد بأن لغة التخاطب هـي أسرع تغـيرًا عبر الزمان من غيرهـا لأنهـا تـستعمل بالمـشافهة العفويـة في أغلـب الأحـوال (وأمـا العاميات العربية فلا تستعمل إلا في المشافهة إلا في الـشعر الملحـون قـديما وحـديثا). فالنطق والأداء الشفاهي المستمرّ يقتضي الخفة وقلة الجهود التـي قـد لا تفيـد عمليـة التواصل. فهذا **هو سبب انفراد العاميـة بالتخاطـب العفـوي** غـير المنقـبض وأعـني بالانقباض الحالة النفسية التـي يكـون عليهـا الفـرد عنـدما يخاطـب مـن لا بـد مـن احترامهم وعند ارتفاع المستوى الثقافي للخطاب أو من قد يحتقره إذا تكلم بلغة عادية (وفي القديم بلغة ملحونة) وكذلك هو حال الأستاذ في المدرسة والجامعة ومـن يكلـم الآلاف من المستمعين في الإذاعة والتلفزة وغير ذلك.

فوجود ازدواجية في نفس اللغة أو بين لغة أصلية ولهجاتها **هـو ظـاهرة عامـة الوجود** وتختلف اللغات مع متفرعاتها في ذلك في درجة اختلاف الأولى بالنسبة للثانية وبالمكانة التي تحظى بها إحداها بالنسبة للأخـرى.قـال في ذلـك اللغـوي الاجتماعـي فرجوسون (A.Ferguson) (وهـو الـذي وضـع لفظـة Diglossia للدلالـة عـلى هـذه الازدواجية[1]) بأن اللغة الواحدة قد يكون لها تنوعان يتنافسان ويكون لكل واحد منها اعتبار مختلف: أحدهما يوظف في الاستعمال اليومي (التنوّع الـسافل عنـده low)

---

[1] هذا واقترحنا أن تسمى "ثنائية" وهو أخص من الازدواجية اللغوية.

والآخر يُفرض كمعيار رسمي في المدارس والمحاكم والصحافة والجيش (التنوع العالي) (في مقال"Diglossia" نشر في مجلة Word 1959 ص325- 340). وهذا على العموم صحيح وشامل إلا أنه لا يخص بعض اللغات كما يزعم[1] **فليس من لغة في الدنيا إلا وفيها ازدواجية من هذا النوع** ولا تنفرد بذلك العربية عن غيرها أبدًا إلا بما اختصت به من الفوارق بين الفصحى وعاميتها **فكل لغة في الدنيا لها مستويان اثنان من التعبير على الأقل:أحدهما يخص المستوى الثقافي فلا يدرس المدرس جميع مواده إلا بهذا المستوى ولا يتكلم المذيع في التلفزة إلا بهذا المستوى** (إلا في بعض البلدان العربية في حالات خاصة) وكذلك القضاة والمحامون وغيرهم في عملهم وكل ما هو رسمي يرتبط بالدولة. وقد كانت البرجوازية والمثقفون عامة - وذلك يشمل البلدان الغربية كلها- هي المتميزة باستعمال هذا المستوى فيما مضى وقد تطور الأمر بالترقية الاجتماعية لفئات كثيرة من الطبقة الكادحة واعتلائهم المناصب بحصولهم على ثقافة.وهذا المستوى العفوي لا علاقة له بالثقافة بل هو الكلام الذي يجري في التخاطب العادي الطبيعي وفيه الكثير من الأخطاء (في كل اللغات) بالنسبة إلى لغة الثقافة ومفردات لا تعرفها لغة الثقافة إلا أن الجزء الكبير منها تستعمله الفئات المتفوقة اجتماعيا في التخاطب العادي.وهذا يفسّر ما يُوجد من القرب بين لغة التخاطب ولغة الثقافة عندهم وقد يبتعد المستوى المستخفّ في حالة الأنس الكامل.

ومهما كان فإن جميع لغات البشر يوجد فيها مستويان اثنان في التعبير ،كما قلنا، بالنسبة إلى اللغة الواحدة: المستوى المنقبض يجري في مقام الحرمة وخاصة في الميدان الثقافي والمستوى المسترسل العفوي غير المتكلف وفيه أخطاء لا يرتكبها المتكلم بالمستوى المنقبض.

وقد يجهل الكثير من الناس- ولاسيما المثقفون عندنا- أن الانكليزية التي تُعلّم في المدرسة والتي يُنطق بها في الإذاعة والتلفزة هي اللغة الوحيدة لكل الإنكليز والمستوى الوحيد الذي يستعمله كل الإنكليز. وهيهات أن يكون الأمر كذلك فإن

---

[1] ومثل لذلك بالألمانية في سويسرا.

في لندن لغة عامية تسمى بالـ كوكني لا تستعمل إلا في التخاطب اليـومي كالعاميـات العربية. وكذلك هو الأمر بالنسبة إلى الألمانية والإيطاليـة إلا أن لغـة الثقافـة في كـل البلدان هي وحدها اللغة الرسمية.

وتنــاول بالدراســة ظــاهرة الثنائيــة فيــشمان وجــومبرس (J.Fishman وJ.Gumpaz) وغيرهم وألحوا على الاختلاف الاجتماعي بين التنوعين وبينوا أن هـذا قد يحصل أيضا بين لغتين مختلفتين تماما مثل الـ بويجية والداناركيـة في الـ بويج فـيما مضى (إذ كانت الدانمارك متسلطة على الـ بويج آنذاك).

والذي يهمنا هنا هو عدم وجود على الإطلاق لغـة واحـدة تـستعمل عـلى حـدّ سواء كلغة تخاطب بعفوية وكلغة ثقافة أو لغة رسمية **إلا في حالة واحدة وهو حالة وجود ثقافة أو أدب شفاهي غير مكتوب** بسبب عدم انتـشار الكتابـة. وبمجـرّد مـا ينتشر استعمال الكتابة تنشق هذه اللغة إلى هذين التنوعين اللـذين همـا لغـة الثقافـة (المكتوبة والمنطوقة) ولغة التخاطب وهي منطوقة ليس غـير. ويحـصل ذلـك بإنـشاء حكم سياسي واحد وضرورة اللجوء حينئذ إلى الكتابة. وهكذا كانت العربيـة قبـل ظهور الإسلام ثم صارت لغة ثقافة مكتوبة ومنطوقة وقامت مقامها ما تفرع منها من العاميات وصارت لغات التخاطـب اليـومي العـادي **هـي وحـدها** (وقـد بيّنـا أن لغـة التخاطــب ولغــة الأدب كانتــا لغــة واحــدة بتنوعــات لهجيــة وغــير لهجيــة في كتابنا:"السماع اللغوي العربي"). ثم إنّ التدوين للغة (المنطوقة) واسـتخراج أصـولها وتنميطها (Standardisation) كتابةً للمحافظة على كيانها (بدافع قوي جـدا كالـدين وتوحيـد الأمـة وغـير ذلـك) هـو ظـاهرة حـضارية تكـررّت في تـاريخ الإنـسانية والحضارات. (أنظر في ذلك ما كتبه بيير جيرو في كتابه:"الفرنسية الشعبية"). ومن ثم نستنتج شيئا مهما جدا **وهو أن الطفل لا يتعلم في المدرسة لغة الأم أبـدا** (كـما يـزعم بعضهم). فالذي يتعلمه هو لغة الثقافة التي لها كتابة أي المعيار الذي أقامه النحويون واللغويون. فمن يدعو في زماننا إلى تعليم العامية بدلا من الفـصحى **يريـد أن يحـول العامية إلى لغة ثقافة** فإن تحقق ذلك فسرعان ما تظهر لغة عامية أخرى غيرها تقـوم

مقام العامية الأولى التي تحولت إلى لغة الثقافة لحاجة الناس إلى العفوية فلا تبقى الأولى بذلك لغة الأم!

فإذا أردنا على هذا، أن تكون الفصحى لغة تخاطب فلا بد أن تتصف بما تتصف به كل لغة يتخاطب بها من الخفة وعدم المؤونة في الأداء. هذا والخطأ الخطير الذي يرتكبه أكثر المثقفين بهذا الصدد هو الاعتقاد بأن هذه العربية التي يتعلمها التلاميذ الصغار في المدارس هي تلك العربية التي تكلم بها العرب في زمان الفصاحة السليقية.وهذا مستحيل لاِتّصاف لغة التخاطب العفوي بالخفة الكاملة.وعلى هذا الأساس أي بسبب هذه الاستحالة تبنّى اللغويون العرب المحدثون فكرة المستشرقين القائلة بأن الفصحى كانت "لغة أدبية مشتركة" لم يتكلم بها العرب في تخاطبهم اليومي العفوي لأنها لا تتصف بما تتصف به لغة التخاطب. وقد شاع ذلك وانتشر بل ورسخ في الأذهان **وهو وهم خطير** والسبب في ذلك هو عدم الالتفات إلى ما قاله النحاة القدامى وأهل الأداء (المتخصصين في القراءات والتجويد) وخاصة ما جاء في أوصافهم لهذا الأداء ومأ 7 به النحاة الأولون هو وصف دقيق جدا للأداء المستخفف أي النطق للكلام المتخاطب به يوميا. وسنحاول أن نمثل لبعض هذه الأوصاف فيما بعد.

فالدليل على أن الفصحى كانت لغة التخاطب اليومي هي هذه الأوصاف التي ذكرها العلماء الذين شافهوا فصحاء العرب في زمان التدوين للغة والسماع لكلامهم. وكل هذه الظواهر اللغوية الخاصة بالمستوى المستخف من الكلام لا وجود له اليوم إطلاقا في التعليم ولا في الكتب الخاصة بتعليم العربية ويجهلها تماما المعلمون وأكثر الأساتذة وكل من اطلع عليها فلا يعتدون بها ظنا منهم أنها لغات شاذة لا ينبغي أن يتعلمها التلميذ. **فجعلوا بذلك معيار الأداء العربي واحدًا**. وهو المستوى المرتّل والمنقبض وحصل ذلك أيضا منذ القديم لعناية المعلمين المبالغ فيها بالنطق الكامل لعلامات الإعراب والتنوين فنسوا أن الوقف على المتحرك بالحركة هو لحن لأن العرب لم يكونوا يقفون على متحرك. وبالغوا في مدّ الحركات وحتى الممدود منها وتجنّبوا كل

اختلاس لها فصاروا يعلّمون مستوى واحدًا من الأداء وهو **الترتيل** بل المبالغ فيه الذي يصير تشاذُقًا وتفيهُقًا.وهو شئ قد عابه وانتقده انتقادًا شديدًا علماؤنا الأولون ومـنهم الجاحظ كما هو معروف. ثم إن كل من ألـف في التجويـد والقـراءات قـد ذكـر أن الأداء هو ترتيل وحدْر وتدوير فالأول هو تمهل و إعطاء كـل الحـروف حقهـا مـن الصفات التي تتصف بها وعدم الإدراج وهو هذا الذي يسمونه حدرًا فهو تأديـة فيهـا اختصار وحذف والتدوير هو أداء وسط بينهما. فلغة التخاطب العفوية لا يمكن أن تكون مرتّلة ولا يتمهل في نطقه المتكلم إلا في حالات عدم فهـم المخاطـب لمـا يقولـه المتكلم أو في حالات خاصة أخـرى. وسـنمثل فـيما يـلي لـلإدراج والتخفيـف. وهـو مستخرج من كتاب (السماع اللغوي،ص180 وما بعدها):

- **فيما يخص الحركات**: الإدراج بالنطق بالحركات يَكثُر بل ويطرد أحيانا عند توالي الحركات.ونص على ذلك سيبويه.قال:" وأما الـذين لا يـشبعون فيختلـسون اختلاسًـا وذلك قولك: يضربها" و"من مأمنك" يسرعون اللفظ. ومـن ثـم قـال أبـو عمـرو:"إلى بارئكم" (البقرة54) (الكتاب 297/2). فالذي يسميه اختلاسا هو-كما تبينـه الأشـعة السينية (الأفلام الراديولوجية)- النطق بحرفين صامتين بمصوّت واحـد[1] فبـين همـزة "بارئكم" والكاف حصل إخفاء لصوت الحركة ولكن الحركة من حيـث هـي حركـة عضوية هوائية (تمكّن من الانتقال من مخرج إلى مخرج آخر) موجودة حاصلة. فهـذا الاختلاس لوحظ في قراءة القرآن الحدرية ولغة التخاطـب وكـذلك في الـشعر.وقـال سيبويه :"ومما يدلّك على أنه يُخفى ويكون بزنة المتحرك قول الشاعر:

---

[1] وهـذا يكثـر في المـستوى العفـوي وهـو طبيعـي في الكـثير مـن اللغـات (يُـسمى عنـد أهـل الاختصاص: explosive group) هذا ولا يعرف الكثير من المثقفين في زماننا معنى الاختلاس فيعتقد بعضهم أنه ضد المدّ !(ومثال من لغة التخاطب:'كتابهم' الباء فيها حركة مختلسة لا يتبيّن صـوتها وليـست ساكنة كما تبيّن ذلك الآلات في المخبر).

وإنــي بمــا قد كلّفتني عشيرتي مـــن الذبّ عن أعراضها لحقيق[1]

(ثم ذكر مثالين آخرين من الشعر) (2/407-408). ومثلوا أيضا للاختلاس في حالة يستحيل فيها أيضا الإدغام لسكون الحرف قبل الحرف المراد إدغامه وذلك:" ابن نوح واسم موسى" فالحركة التي بين النونين أو الميمين أُخفى صوتُها **فكأنهما متحركان بحركة واحدة** وليس أحدهما مدغما في الآخر (الكتاب، 2/402). وكذلك هو النطق بـ "شهر رمضان" في حالة الاختلاس.

- **فيما يخص اختزال الحروف:**

. التقريب (المشاكلة) مع الادغام مثل: من بدالك >مَّمْدالك، أكْرِمْ به > أكربّه، اصطحبْ مطرا > اصحمّطرا، اضبط دُلما > اضبطُّلَما، احبسْ صابر> احبصَّابرا وغير ذلك كثير جدا. وجاء في الشعر:

" تقـول أذا استهلكـتُ مـالاً للَّـذة فُـكيهـةٌ هَشَّـئ بكفيـك لائـق

يريد: هل شيء؟ فأدغم اللام في الشيء" (الكتاب 417،2). وقال:

فـدَعْ ذا ولكـنْ هَتُّـعـين متيّمًـا على ضوءِ برقٍ آخر الليل ناصِبِ

يريد: هل تُعين؟ (نفس المصدر). وجاء من ذلك في القرءات الشئ الكثير مثل قراءة أبي عمرو:"هثُّوْب الكُفّار" (المطففين 36) يريد هل الثوب (نفس المصدر). ويدل على ذلك ما جاء في جميع كتب القراءات من الفصول حول الإدغام. أما الهمزة فتخفيفها قد كثر عند القراء وخاصة أبا عمرو. قال ابن مجاهد:" أما أبو عمرو فكان إذا **أدرج** القراءة أو قرأ في الصلاة لم يهمز همزة ساكنة مثل:"يومنون"و"يومن"و"ياخذون وعن عاصم أنه لم يهمز الهمزة الساكنة"(كتاب السبعة 130-131). وجَعْل الهمزة بين بين أو حذفها كثير في الكلام وخاصة عند أهل الحجاز يقول سيبويه:" إذا كانت

---

[1] الشاهد فيه إخفاء حركة الياء التي بعدها ميم وليس هناك قلب للباء إلى ميم ولا إدغام وإلا انكسر الوزن.

الهمزة مضمومة وقبلها ضمة أو كسرة فإنك تصيرها بين بين [تلينهـا وتـسهلها] وذلـك قولك: هذا درهمُ اخْتك ومن عندَ امِّك.وهو قـول العـرب"(الكتـاب 164،2)."ومثـل ذلــك:الحَمْــرَ إذا أردت أن تخفــف الأحمــر ومثلــه في المــرأة: المــرة والكــلى ة الكماة(الكتاب165،2).وحـ ع أبو زيد في نوادره:" قَريْتَ القـرآن فأنـت تقـرا وهـو مُقْرٍ وخَبَيْت المتاع فهو مخبي...وقالوا: جَا فُلان على التخفيف"(210).

أما عن تفسير وجود التخفيـف في جميـع خطابـاتهم- إذا أدرجـوا ولم يحققـوا- فلأنهم كانوا أميين في أغلبيتهم الساحقة يتناقلون إنتـاجهم الفكـري الفـني مـشافهة جيلا بعد جيل ولا يعتمدون في ذلك على كتابة معينة إلا في أحوال غـير مطـردة. أمـا عندما صارت لغة التخاطب ملحونة صار من يتعلم العربية الفصيحة منهم"فـصيحا" فيها بالتلقين **فتكوّنت، عند انتشار الكتابة وبسبب ذلك، عربية لا تعرف التخفيف** (إلا في قراءة الحدر للقرآن عند أهل الأداء) لأنّها خصصت لنقل الثقافة فابتعدت عن الأداء العفوي واستبدلت في التخاطب العفوي بالملحونة **فصار الإدراج هو الملحون والملحون هو الإدراج** (مع الأسـف الـشديد) ولا علاقـة بيـنهما في الحقيقـة إذ كـان الغالب على كلام العرب السَّليقيين في الفصاحة الإدراج كما كان أيضا حاصـلا عنـد غير الفصحاء عند التخاطب العفوي إلا أنّهم كانوا يلحنون **فالإدراج غير اللحن ولا** يكون كذلك إلا إذا كان فيه ما ليس من كـلام العـرب فـيما يخـص النظـام النحـوي الصرفي. ولوجود الإدراج فيهـا سـميت العاميـة باللغـة الدارجـة مـع أن الإدراج هـو مستوى التعبير العفوي وكان فصيحًا عند قدامى العرب **سواء كان** قـراءة **قرآنيـة أم شعرا أم تخاطبا عاديا.** "(اهـ) وزال كل هذا مع فُشُوا اللحن **وتحوّل الفصحى إلى لغة ثقافة فقط.**

هذا ونلاحظ أن التخفيـف الـذي وصـفه العلـماء (وقـد سـمعوهم هـم أنفـسهم يتخاطبون في حاجاتهم) هو الذي **تتصف به كل لغة تخاطـب في العـالم** مهـما كانـت لأنها عفوية ولا يتأمل فيها الناطق ولا ينظر كيف ينطق إذ يرسـل كلامـه كـما يـرد في خلده. ومثل هذا الكلام يكون في الغالب خاضعا لقواعد لغوية مثل لغة الثقافـة -و إلا

ما أمكن التفاهم- إلا أنه يتعرض لعفويته للتحوّل بسرعة عبر الزمان وخصوصا إذا حصل من الأحداث ، كما قلنا، ما يحمل على تغيير النظام النحوي.

ومهما كان فالذي ينقص العربية الفصحى في زماننا هذا – ومنذ القديم- هو هذا المستوى العفوي المستخف الموجود بالفعل في العامية وهيهات أن يكون لحنًا فكل ظواهر التخفيف موجودة فيها لأنها لغة مشافهة وتخاطب قامت مقامها العامية في هذه المشافهة العفوية. وتحتاج الفصحى- ونعني العربية غير الملحونة - التي يتعلمها الطفل في المدرسة إلى أن يُرجع إليها هذا المستوى من التعبير وذلك بتنبيه المعلم لتلاميذه أن هذا النطق المستخفّ الموجود في لغة التخاطب الذي **سُمع من فصحاء العرب وقُرئ به القرآن** (وقد أحصوا كل ذلك) **ليس بخطأ وليس** من العامية وحدها ويجوز له أن ينطق به في حالة التخاطب المسترسل.

والذي نصبو إليه ليس هو إزالة العاميات فهذا يستحيل تحقيقه بالتمام لكن الذي نريده هو التدخل- وهو ممكن- في تعليم العربية والتدخل في ميداني الإعلام والترفيه لإعطاء الفصحى الفرصة لتكون لغة تخاطب تنافس العامية في الخطاب الشفاهي بإحياء الأداء المستخف المسمّى بالإدراج وقد فقدته ويتم ذلك بتلقينه في المدارس وحثّ التلاميذ على استعماله في الأحوال الخطابية التي يسودها الأنس وكذلك بإدخال الإدراج في التمثيليات وغير ذلك[1].

الخلاصة: تبين من كل ما ذكرناه أن اللغات البشرية ومنها اللغة العربية هي وضع واستعمال لهذا الوضع ولكل واحدة منهما أوصاف وقوانين تختص بها. ويترتب على ذلك ما يلي:

---

[1] وعرضنا على أعضاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة اقتراحات لإعادة الاعتبار للأداء في التعليم وذلك في بحث عنوانه: اللغة العربية بين المشافهة والتحرير(في 1990 ونشر في مجلة المجمع وفي مجموعة نصوص بالجزائر في 2005).

1- إن الاستعمال للغة يخضع لنواميس التحوّل الزماني وهو السبب في تغيّر النظام اللغوي النحوي الصرفي وغيره. ويسبّب هذا التحوّل أحداثا تاريخية اجتماعية.

2- إن العاميات هي نتيجة لتحول اللغات عبر الزمان أيًا كانت وذلك بتغيّر نظامها النحوي الصرفي في الأساس وتغيّر شئ من اللغة يعتبر خطأ بالنسبة لمعيارها وهو هذا النظام اللغوي المتواضع عليه عند أهلها. وهو ظاهرة طبيعية إلا أنها غير محتومة إذ بالتدوين وبالتعليم يمكن الحفاظ على النظام اللغوي.

3- تنشقّ اللغة بهذا التحوّل إذا انتشرت الكتابة إلى لغة ثقافة وهي النظام الذي تم تدوينه ولغة تخاطب عفوي وعادي. وهذا لا يخص العربية بل يمس كل اللغات إلا أن الاختلاف بينهما قد يخفّ بانتشار الثقافة إلى كل فئات الشعب.

4- الثنائية اللغوية بين العاميات العربية والفصحى هي بمنزلة الثنائية بين اللاتينية الدارجة واللاتينية الفصحى وعلى هذا فلا يصحّ القول بأن الفرق بينهما مثل الفوارق التي توجد بين اللاتينية واللغات الرومانية المتفرعة عنها ولا أن تستبدل الفصحى بها لأن الوضعين (العربية وعامياتها واللاتينية واللغات الرومانية) جدّ مختلفين. ثم إن الرباط الوحيد الذي يربط الناطقين بالعربية هو هذه الفصحى.

ينقص هذه الفصحى في استعمالها وتعليمها الإدراج وهو الجانب المستخف الذي تتصف به كل لغة تخاطب أيا كانت وقد كانت الفصحى قديمًا تتصف بالإدراج ووصفها العلماء وصفا دقيقا. ويقرأ به القرآن زيادة على الترتيل. ولن تسترجع الفصحى حيويتها ويعم استعمالها إلا بتعليم الإدراج بجانب الترتيل مع التنبيه على أن هذا مستوى التخاطب اليومي وأنه فصيح مع تعميم ذلك على جميع وسائل الإعلام المرئية والمسموعة وقطاع الترفيه وغيرها. والله وليّ التوفيق .

نحو تصوّر دينامكي لواقع الممارسات اللغوية للمتكلّمين الناطقين باللغة العربية

د. خولة طالب الإبراهيمي - جامعة الجزائر

نودّ في هذه المداخلة أن نرافع من أجل تصوّر ديناميكي وحر لواقع ممارسات المتكلمين الناطقين باللغة العربية، ممارسات تتبنين في إطار سلم تواصلي معقد ومتعدد المستويات يبطل حصافة الخطاطة الثنائية التي طالما اعتمدت لوصف واقع استعمال اللغة العربية، ومن ثمة يعمل على تجاوز السجال المعهود والمفتعل بين اللغة العربية الفصحى وعامياتها بالتأكيد على حيوية هذه اللغة التي فرضت وجودها في مجال المعلوماتية والإعلام والأنترنت. وقد يكون من المفيد والحصيف إذن أن ندرس ونحلّل الكيفية التي يبني بها هؤلاء المتكلمون تصوراتهم ومواقفهم من كلّ تنوّعات اللغة العربية لنلاحظ الانفصام والتعارض الذي يوجد بين هذه التصوّرات والممارسات الفعلية في الميدان حيث أنّ هذه التصورات التي تسير وفق الخطاطة الثنائية المعهودة تضع كلاّ من اللغة العربية الفصحى والعاميات في مواجهة وصراع يتنافى تماما مع ما نشاهده في الواقع من ممارسات تجمع بين انسجام الوضع وتعدّد الإمكانيات وتنوّعها في الاستعمال.

ها هنا يكمن التحدّي الكبير الذي ينبغي على المجتمعات العربية رفعه والبحث عن السبل الكفيلة بتجاوزه ليتسنى لها الرقي بلغتها والدخول في عالم التقدّم والعصرنة بكيفية تضمن لها منزلة مرموقة بين أمم العالم المتطور وتسمح لها بمواجهة عولمة كاسحة لا تبقي ولا تذر. إنّها حقيقة مرافعة من أجل تصوّر دينامكي للواقع اللغوي العربي من خلال ممارسات الناطقين باللغة العربية، تلك الممارسات التي تتبنين في إطار سلّم تواصلي معقّد ومتعدّد وليس في ذلك الهيكل الثنائي الذي كثيرا ما يلجأ إليه لوصف سلوك المتكلمين العرب ومن ثمة تجاوز السجال الدائم بين اللغة العربية الفصحى والعاميات

العربية بالتأكيد على حيوية لغة فرضت وجودها في ميدان المعلوماتية والإعلام وشبكة الأنترنت.

وقد يكون في نفس الوقت من الحصيف بمكان التساؤل عن الكيفية التي يبني بها هؤلاء المتكلمون تصوراتهم ومواقفهم من تنوّعات اللغة العربية التي يستعملونها ممّا يجعلنا نلاحظ البون والانفصام الموجود بين التصورات التي تجري في اتجاه يجعل اللغة العربية الفصحى في مواجهة قوية العاميات وكذلك الممارسات الفعلية التي تجمع بين انسجام الوضع وتعدّدية الإمكانات في الاستعمال.

تلك هي إذن المفارقة الكبرى التي ينبغي على المجتمعات العربية حلّها لتستطيع الدخول في عصرنة معقلنة، عصرنة تعيد لهم الاعتبار بين أمم العالم وتسمح لهم برفع تحديات المستقبل ومواجهة العولمة المكتسحة للاختلاف والتنوع. تعوّد الدارسون استظهار الخطاطة الثنائية لوصف الواقع اللغوي العربي حيث تتبوأ فيها العربية الفصحى المكانة العليا والرفيعة في حين أنّ العاميات تجد نفسها في المرتبة الدنيا ويتم إثبات هذه الخطاطة بالاستناد إلى حجج وشروط تكاد تكون بالنسبة لأنصارها ثابتة وأزلية. ما هي هذه الحجج والشروط ؟ نستعرضها بسرعة لأننا نحسبها معروفة لدى الدارسين.

ـ التخصص الوظيفي لكل قطب من الثنائية إذ تختص الفصحى بالوضعيات الرسمية ومقامات الانقباض ومراقبة السلوك أمّا العاميات فتتسم بالعفوية والمرونة التي تطبع المقامات الحميمية غير الرسمية،

ـ القيمة العالية التي يعطيها المتكلمون للفصحى والاعتبار الرفيع الذي تحظى به حيث أنّها اللغة بأتمّ معنى الكلمة في الوقت الذي ينظر إلى العاميات بنظرة ازدراء واحتقار فهي من هذا المنظور لا ترقى لأن تكزن لغات،

ـ طريقة تحكم الناطقين في المستويين إذ إن العاميات تكتسب بكيفية عفوية أمّا الفصحى فتتعلّم في المدرسة،

ـ وجود تقاليد عريقة ومستمرة لدراسة المستوى الفصيح بحجم ونوعية لا نجدها بالنسبة للعاميات،

ـ وجود مدوّنة من الآداب والتآليف ذات قيمة عالية تمثل تراث المجتمع وذخيرته الثقافية،

ـ وأخيرا الاستقرار المدهش الذي يطبع هذا النموذج الثنائي منذ قرون الذي يحظى بقبول المتكلمين و إجماعهم على ترسيخه في مخيالهم الثقافي إلى درجة أصبح وكأنّه وضع طبيعي يوهمنا برسوخه عبر الأزمان والأحقاب وقد يذهب بنا الظن بذلك حقا خاصة وأن التراث العربي كرّس هذا التصور الثنائي بين لغة الخاصة ولغة العوام، تصور مبني على نظرة صفوية نخبوية متشبثة أشد التشبث بالمعيار اللغوي الفصيح المتفصح.

ولكننا عندما نمعن النظر في النموذج الثنائي نراه غامضا غير محدّد المعالم لا يصمد طويلا عندما يواجه بحقائق الواقع المعيش نحاول الآن تبيان مواطن الضعف فيه و إبراز عدم نجاعته لوصف واقع يتسم بالتغير والتحول السريع (إننا نستند في نقدنا إلى ملاحظتنا الطويلة لممارسات المتكلمين العرب عامة والجزائريين خاصة). ونلاحظ أولا أنّ هذا التخصص الوظيفي الثابت والقار لا يمكن الإقرار به لأن الحواجز بين الخطابات والوضعيات التبليغية ليست على هذا النحو من الصلابة والشدة نذكر على سبيل المثال:

ـ الخطاب الديني وخطاب الوعظ والإرشاد حيث نجد الواعظ أو الخطيب يتنقّل باستمرار بين الفصحى والعامية،

ـ الخطاب السياسي، ما علينا إلا أن نتذكّر خطب الرئيس الراحل هواري بومدين،

ـ الدروس والمحاضرات حيث يستعمل الأستاذ العامية لتنظيم الخطاب داخل قاعة الدرس مثلا،

ـ الرسائل الشخصية،

ـ المسرح

ـ وسائل الإعلام المسموعة المرئية المنطوقة والمكتوبة.

هل ينبغي أن نتحدث عن مدوّنة الأدب الشعبي وعاء الروح والثقافة الشعبية (عبقرية الشعوب العربية وحيوية ممارساتها الثقافية المعبّر عنها بمختلف العاميات). هذه كلّها تفنّد مقولة التخصص الوظيفي ومما يزيد من عدم فاعلية النموذج عند اختباره بمحك الواقع ذلك المستوى اللغوي الذي تحدث عنه العديد من المختصين والذي يعتبر مستوى وسط بين الفصحى المعيار والعاميات والذي سمي بالعربية المعاصرة أو العصرية أو العربية الوسطى لغة الآداب الحديثة والتأليف الحديث والإنتاج العلمي في حين أنّ دارسين آخرين يرون تحقق هذا المستوى الثالث في تنوع عامي مشترك في منطقة من المناطق (العربية المغربية الوسيطة لعبد الرحيم اليوسي اللغوي المغربي مثلا). ولكن الواقع الفعلي أعقد ممّا نتصور لتداخل المستويات ولتنازعه أي الواقع بين الانسجام الوضعي وتنوع الاستعمال. إذ يفند النموذج الثنائي (كلام عمر حلمي إبراهيم) وقد يكون حصيفا أن نبحث عن الأسباب الاجتماعية والمؤسساتية التي تفسر التشبث بالتقابل الثنائي القانوني لا تتجسد الثنائية على صعيد الممارسات الفعلية بل تهيكل العلاقات بين مختلف مستويات اللغة العربية من خلال علاقة الهيمنة والعنف الرمزي التي تعطي لكل مستوى قيمة اجتماعية معينة في السوق اللغوي.

ومن ثمة ولتحليل هذا الواقع المعقّد نقترح نموذجا آخر يمثل تصورا مختلفا تماما للممارسات الفعلية يوضح من خلال سلم تواصلي العلاقات التي تربط مستويات الأداء في اللغة العربية وكذلك يعطي للغات الأخرى المتواجدة في الفضاء اللغوي لأي بلد عربي مكانا خاصا (يتعلّق الأمر بالنسبة للجزائر باللغة الأمازيغية بمختلف تنوّعاتها واللغة الفرنسية ضمن اللغات الأجنبية) فنخرج بهذا النموذج من الخطاطة

الثنائية إلى تصور الاستمرارية بين المستويات اللغوية مثلما تتجسّد في الواقع. يظهر هذا التصور مدى قدرة المتكلمين على الجمع بين كفاءة الانسجام الوضعي (الوضع عند ابن جني) وكفاءة التعدد والتنوع مثلما تصورها العرب القدماء ولمزيد من التفاصيل نحيل القرّاء إلى كتابنا الذي سعدنا بصدور ترجمته العربية في الأيام القليلة الماضية في دار الحكمة بالجزائر [1]

وفي ختام هذه المرافعة لا يسعنا إلا أن نقول هذا هو واقعنا علينا أن نهتم به كما هو وأن ندرسه بدون أن نسقط عليه أحكاما معيارية ولا إيديولوجية ولكن يبقى السؤال المطروح علينا معشر اللغويين العرب يخصّ كيفية دراسته ووصفه، نحاول منذ سنوات من خلال أبحاثنا الشخصية أو الجماعية الوقوف عند مختلف مكونات هذا السلم لتحديد ملامحها عسانا نساهم في معرفة هذا الواقع لمواجهة مشاكلنا اللغوية بروح علمية بعيدة عن الهوى والمواقف المزيفة والخطابية الجافة والعواطف الجيّاشة التي تملأ القلب فرحا وتفقد العقل صوابه فما أحوجنا في هذا الزمن الصعب إلى عقل متبصر ومدبر للخروج من وضعنا المتدهور!

---

[1] عنوان الكتاب الجزائريون والمسألة اللغوية، دار الحكمة، الجزائر، 2007.

اللغة العربية وثقافتها :

ضوابط الحداثة وآفاق العولمة (*)

أ.د/ زكا نجيب، جامعة ليل: فرنسا

أيّها الكرام، أود في مستهل مداخلتي، التركيز على كون ما سآتي به من أراء ليس بالغريب عنكم، وأنتم تواكبون هموم العربية، في تشعباتها، وتعقيداتها، وتعثرها نحو غد أفضل. مداخلتي هي تعبير عن التزام ثقافي، يرافقني وتيرة عملي اليومي لـ ثلاثين (30) من السنوات، كجامعي عربي على أرض فرنسا، يعيش هموم الأمة والثقافة واللغة، كفعل إيمان متجدد لقضية تتجاوز النظريات والتمنيات لتأخذ بعدا يحتم العمل الدؤوب كعنصر أساس لبلورة الشخصية الحضارية العربية، وكوسيلة مصالحة مع الذات ومع الآخرين. نلتقي اليوم ونعم اللقاء على أرض الجزائر الحبيبة، نتبادل الآراء، ونتقاسم الهموم، وننظر إلى الآتي على ضوء فكر يصبو إلى الأفضل.

إنّ موضوع اللغة العربية، ونحن نعلم علم اليقين مدى ترابط هذه اللغة بتاريخنا وثقافتنا ووجداننا. اللغة أهم الروابط العبقرية التي يحصل بها امتداد الإنسان لمسالك الديمومة. فالدفاع عن اللغة الأم ضرورة حياتية، استجابة لأعمق النداءات في وجدان الإنسان ونزوع لأسمى درجات الحرية في العقل، فهي ليست جوهراً كائنا خارج الإنسان في عالم المثل الأرفع وذلك تجميد لحرارة اللغة التي هي كائن حسي. وحسب اللغة أهمية في حياتنا أنها حاجة لا يستغنى عنها، صغير وكبير عالم أو جاهل، غني أو فقير، اللغات كائنات حية تتطور، لا اعتباطاً بل وفق نواميس معينة، لا يمكن معرفتها إلا بعديا على غرار معرفتنا بالأمور الطبيعية والصراع دائم بين الفكر والكلمة، بين الوجدان واللسان، بين الرغبة في التغيير والقدرة على التعبير. و إنّ الدلالة على معنى الواجب وجود اللغة، إذن الغاية هي إصابة المعنى وهذا يقتضي على وجود اثنين على أقل تقدير وجود من يُخاطِب ومن يُخاطب، من يرسل المعنى ومن يتلقاه، هذا هو المجتمع.

ليست اللغة فكرة مثالية على النمط الأفلاطوني، عارية من كل وجود مصدري، اللغة منظور حياتي وعند سعد:" اللغة هي ما يبرر بها الإنسان على أنه ينتمي إلى الإنسانية". فهي ملء قوميته، وهي لغته الأم القادرة وحدها على أن تفصح تماما عن شخصيته. لقد جاء حين من الدهر غدت فيه العربية لغة عالمية، وثقافتها عربية أممية فقد انتشرت في أصقاع شتى متنوعة، ومتباعدة، وإذ بيان العرب يجتاح شرقا من تخوم الصين إلى الجنوب الغربي من أوروبا باسطا جناحيه فوق الشرق الأوسط، ومصر وشمال إفريقيا إذ أن الذي ألصق وأكد انتشار اللغة العربية الكوني، كانت الحضارة التي احتملتها لغة الضاد، فغذت الإنسانية بها آفاقا ما تزال تنعم بها حتى اليوم، ثم هجعت العربية، أهي هجعة مدعي من المجد أم هجعة المتأقلم مع لغة تاريخ الأمم في صعودها وهبوطها.

إنّ البحث عن حلول لمشاكل تواجهها لغة تربو إلى الحداثة، لا يعني فقط تلك اللغة بل الذين يتكلمون بها، ويكتبون بها.هذه المسؤولية تطالنا جميعا وبشكل خاص أولائك الذين يعملون على نشر العربية وتدريسها وفك حجيها، أولائك الذين يمسكون بزمام السلطة أكانت سياسية، أم اقتصادية، أم ثقافية. نحن نعلم أن المواهب لا تتفجر بفعل أمر وأن النبوغ لا يستشجع، أملنا الوحيد أن يعود الزمن الذي كان ينتج فيه العالم العربي طاقات أدبية، وفكرية متألقة العطاء إن عطاءات الكتاب الكبار لا تلبث أن تلقي بثقلها على صيت اللغة التي كتبوا بها والبلدان التي أنجبتهم، ومن المؤسف أن يكون التعاطي مع اللغة العربية على مقاعد الدراسة ضربا من الصراع مع الطلاسم اللغوية، فتصرعهم الطلاسم وينتهون بأن يخرجوا من المدرسة، بعد أن يتركوا فيها زهرات شبابهم، ولغتهم عصية على أنفسهم وأقلامهم، ومحاسنها قسية على مداركهم، وأذواقهم، وفي قلوبهم ما يشبه الحقد عليها وعلى اللذين يدرسونها.

أما ضوابط الحداثة في مجال بحثنا فهي ثلاث:

ـ الإبداع؛

ـ التأقلم مع التطور العلمي والفكري؛

ـ الإطلالة على الماضي كقوة دفع للمستقبل.

نحن اليوم في البحث عن الوقت، ليس البحث عن الوقت الضائع بل الوقت الذي علينا أن لا نضيعه، هذه ضرورة ملحة تطال بالدرجة الأولى اللغة التي هي مرآة الفكر. نحن بحاجة إلى درائعية استعمال اللغة القوة السياسية والاقتصادية في الأمة هي عامل غنى وإشعاع للغة علينا أن نبحث أكثر أن ننتج أكثر، وعلى القيمين أن يساعدوا على تحضير مستقبل مسموع سعيا إلى تحرير كل الطاقات الإبداعية والمبتكرة، ليكون في مقدور اللغة النهوض بنهوض الأمة. عشرون قرنا من الكتابة والكتاب وراء شرعية قوة اللغة العربية كلغة كبرى للحضارة ويعود فضل استمرارية العربية إلى من أثرها كتابة، إلى نسيج علم دلالتها وركائز قواعدها وأدوات علم بيانها، سجلها الأسلوبي، ومادتها على الرغم من ألفيتين من التاريخ. إننا نعيش في عالم دأبه التجدد، والتجدد لا يكون بالبناء والهدم، لا بالهدم دون البناء بل بكليهما. نحن نعلم أن اللغة مظهر من مظاهر الأمة العربية، التي لا يمكنها أن تسير عكس إرادة التطور. التطور واضح وأوروبا قد وعت هذه الحقيقة اليوم، وعت أن انسجام لغة الأمة يسير جنبا إلى جنب مع الانسجامات السياسية، والاقتصادية، والفكرية. ويظهر لنا التاريخ أنه في مقدور كل لغة كبرى حاملة لأعراف وطاقات ثقافية مميزة أن تواجه أخطار اجتياحها من طرف لغة أخرى تساندها مقومات سياسية، وعسكرية، واقتصادية.

والشرط الأول لهذه القدرة على المواجهة هو التمسك بمقاومة فاعلة تضمن للغة الحفاظ على حيويتها وعطاءها والتمسك بمقدورات أعرافها الموروثة وكلما كانت ثروة اللغة الموروثة طائلة في مجالات الفكرية والأدبية، كانت قدرتها على المقاومة أكثر ثباتا. لغتنا ركن ثقافتنا، لغتنا ذاتنا الناطقة، فلا تعبير عن الذات دون الكلمة، ولا كلمة دون فيض الجوهر، علينا أن نعطي لغتنا شرعية بيانية كونية. واللغة كما رأينا ليست مجرد أداة تعبير فقط، وإنما هي على صلة وطيدة بحياتنا الفكرية،

والعاطفية، والاجتماعية للجماعات والأفراد. إنّ هذا الترابط العضوي بين اللغة والحياة الإنسانية في جميع مجالاتها، يثبت عندنا أن التقدم العلمي والتقني مرتبطا هو أيضا بها وبتطورها وبقدرتها على تخطي حواجز الجمود.

صحيح أنّ اللغة حسب تعريف" ابن جني":" هي أصوات يعبر بها كل قوم عن آرائه، لكن التمايز بين اللغة يقع بين الشعوب والقبائل الناطقة بهذه اللغة أو تلك بما أضافته من جديد إلى المعرفة وما أبدعته من فنون وآداب وما أرسته من قيم وبالتالي ما شيدته من حضارة تنتمي إليها اللغة وتنبع منها، تتأثر بها وتؤثر فيها. وفي خضم العولمة وما يجديها من تساؤلات ثقافية، ولغوية، واجتماعية، وسياسية، واقتصادية، نجد أن القضية اللغوية هي في جوهر هذه التساؤلات والكلام عن العولمة في عالمنا العربي، لكن الكلمة الفصل لم تقل بعد الاختلاف الشديد الواقع بين مختلف الخيارات الفكرية العربية حول هذا الموضوع الأغلبية تعتبر العولمة وكأنها فكرة وليست واقعا على الأرض، وأنها محاولة لسحب الهوية والمصالح الوطنية وخطر على الفكر القومي برمته، ما هو الحل؟ والعولمة قائمة تدخل في كل جزئيات حياتنا تساءلنا، توكبنا، تقلقنا، تغرينا، تفتح لنا الآفاق أحيانا، وتتركنا في وضع متأرجح أحيانا أخرى. والعولمة تولد ضربين من المشاعر متناقضة مزدوجة المعنى، إنها من جهة تشعر أبناء الإنسانية أن العالم لم يكن في يوم من الأيام أشد منه تضامنا كما هو عليه اليوم، ومن جهة أخرى تشعرهم بأن فرص الانتصار والصراع والنزاع هي على اضطراب دائما. فالمجتمعات الإنسانية تجد نفسها أمام ظاهرة السير نحو العولمة من جانب وظاهرة البحث عن مختلف الجذور الثقافية والاجتماعية خاصة التي تميزها من جانب أخر. إنّ التنافس بل الصراع الذي نشهده اليوم بين الثقافات والعودة إلى الخصوصية الثقافية هو تنافس وصراع بين القيم. إنّ خصوصيات القيم الثقافية أمر واقع ومشروع إلا أنه لا ثقافة تصمد اليوم إلا إذا كسبت رهان التوليف بين الحاضر الثقافي والعالم الحضاري. نحن بحاجة إلى مشروع عربي نهضوي شامل ذي أبعاد اقتصادية، واجتماعية، وسياسية، وتعليمية، وثقافية.إن الآخر متنوع لا

يمكن أن يكون قوة ضعف واستقالة الذات، بل يجب أن يكون حافزا للإبداع والتجديد والتمييز العقلاني.

نحن بحاجة إلى طاقات تكتب، إلى طاقات تقرأ، والكتابة والقراءة هما أولا تحديات التأقلم مع الواقع الكوني. ومقولة :"الأمة التي تقرأ هي أمة تحيا"، مقولة صحيحة. الكتاب ليس ثروة طبيعية تكتشف وتستخرج وتسوق، إنه عملية ابتكار، الفكر مادتها واللغة قلمها، كلنا مطالبون بكتابة تقرأ، وبقراءة تضفي نورا إضافيا على نورانية إنسانيتنا. كلنا مطالبون بجعل الكلمة الحرة مشروع مقاومة فكرية، وأخلاقية، وروحية، لنعود إلى قراءة الآخر نترجمه لنعود إلى حدائق دمشق، وبغداد، وقرطبة الفكرية وليعم طيف العلم على دروب المعرفة: المدرسة الكتاب المدرسي، المدرس، والقيّم على السياسة التربوية، كلها من مقومات الثورة الثقافية والتعاطي مع العولمة كشركاء وليس كتباع وجمهور متفرج .ما أحوجنا اليوم إلى شجاعة القلوب والعقول للمصارحة ونقد الذات، و إعادة قراءة الواقع.

الخاتمة:

إنّما اللغة مظهر من مظاهر الابتكار في مجموع الأمة، فإذا هجعت قوة الابتكار توقفت اللغة عن مسارها، وفي الوقوف التقهقر وفي التقهقر الموت والاندثار. الجمالية اللغوية هي أيضا تعبير عن الجمالية الفكرية، هنا تصبح محاولة الإبداع إطلالة على الجمال كمصير ذاك أن إنتاج جميل هو دائما على حجم القدر بل إنه قدر بعينه. والتحفة العبقرية قوة دينامية تشيع بمجرد وجودها مناخ يسمح لنا أن نفسر على ضوءه الابتكار والإنسان والكون والتألق.

إنّ الجمال ثروة، لن تنغلق العربية على ذاتها، قوتها في انفتاحها على اللغات والثقافات الأخرى، لا خوف من التواصل مع الواقع الحضاري العالمي. إنّ صراع الثقافات، هو ذروة الصراع الفكري وحوار الثقافات يتطلب التواصل والاتصال، التنقل، والرحيل لأن بؤس الحوار الثقافي يجب أن يبقى مصدر قلق كل مفكر. إنّ

التلاقي يبقى الجواب عن البؤس الجماعي والبؤس الشخ لأ. والإنسانية تراها تتمزق غير قادرة على الحوار إما تاريخيا بسبب تصادم المصالح والثقافات، وإما في داخلنا نحن. إنّ من واجبنا أن نتحاور ثقافيا في داخلنا بعمق حقيقي، يجبرنا على الرحيل في أقدس أقداس الذات ، لأن الرحلات الرمزية والإطلالات رمزية على العالم هي التي تقربنا من الغير، وتمهد لنا العلاقات الممحورة بين سمو التسامح وقدرة تقبل الواقع.

(*) المداخلة تم تلخيصها من المسجلة

اللغة العربية واللهجات المتفرعة عنها:

مقارنة بين عامّية الجزائر قبل الاستقلال وبعده

الدكتور عثمان سعدي رئيس الجمعية

الجزائرية للدفاع عن اللغة العربية

تمهيد:

لكي يتعمق الباحث في مسألة الفصحى والعامية، لا بد أن يلم بتاريخ اللغة العربية منذ العصور القديمة. كل الدلائل تؤكد أنّ الوضع اللغوي يشير إلى وجود لغة عربية أمٍّ لم يحفظها لنا التاريخ، تفرعت عنها لهجات ، لعدم وجود حافظ يحفظ اللغة الأمّ كما هو الحال بالنسبة للعدنانية التي يحفظها القرآن الكريم التي نزل بها؛ وليس معنى هذا أن العدنانية التي استمرت اللغة الفصحى مدة خمسة عشر قرنا لم تتطور ، إنها تتطور لكن في ذاتها، فلغة الصحيفة العربية في القرن الواحد والعشرين ليست لغة امرئ القيس والشنفرى بالدقة، لكن لو بعث امرؤ القيس وقرأ هذه الصحيفة لفهمها، وهذا هو إعجاز اللغة العربية. كان الديبلوماسيون الغربيون يتملكهم العجب عندما يشاهدون الديبلوماسيين العرب الممثلين لعشرين دولة يتكلمون لغة واحدة بلا ترجمان. وهذه الظاهرة اللغوية بالوطن العربي لم ولا يوجد مثيل لها بالعالم.

إنّ اهتمامنا بالعامية لا يعني أنها تحل محل الفصحى، بل دراستها كظاهرة مشتقة من الفصحى وملتصقة بها، مختلفة عنها في الإعراب فقط. ونحن نناهض أن تعم العاميات بالفضائيات العربية، لأن ذلك يضر بوحدانية اللغة. فالعُماني والموريتاني يلتقيان فيتكلمان بلهجتيهما فلا يتفاهمان، فيعودان للفصحى فيفهم كل منهما الآخر. الفصحى إذن هي لغة التواصل بين العرب، وهي الرابط القوي الذي يربط بين العرب، لقد كيّف الغربيون السياسة والاقتصاد بالوطن العربي وفقا لمصالحهم، وبقي رابط العربية حيث بدأوا يتآمرون عليه. لكن هؤلاء الغربيون

يقرّون بعظمة اللغة العربية وبقائها بين القليل من اللغات بالعالم في المستقبل ، فالأديب الإسباني كاميليو جوزي سيلا، الحائز على جائزة نوبل للآداب، يصرّح: ' **إن لغات العالم تتجه نحو التناقص، وأنه لن تبقى إلا أربع لغات قادرة على الحضور العالمي، هذه اللغات هي: الإنجليزية، والإسبانية، والعربية، والصينية**". وقد بنى رأيه على استشراف مستقبلي في الدراسات اللسانية التي توكد موت الكثير من اللغات وتقهقرها واندثارها. [عن فضائية الجزيرة نت يوم 2007/5/25].

الساميات والعروبيات

أطلق اللغويون الغربيون اسم اللغات السامية على اللهجات المتفرعة عن العربية الأمّ، منذ أن ابتكر مصطلح السامية المشتشرق النمساوي اليهودي شلوتزر في كتابه [جدول للأدب التوراتي والشرقي] الصادر سنة 1781 م ، وقبل هذا التاريخ لم يكن يعرف هذا المصطلح ، ولعل خير من وضح ذلك المؤرخ الفرنسي بيير روسيه P.Rossi عندما قال: "**إن التسمية السامية خالية من كل معنى لدرجة أن [الموسوعة الإسلامية نفسها] التي نسبت العرب للساميين لا تفرد لكلمة سامية مادة في فهرس موادها... إن كلمة سامية لا أثر لها في المعجم اليوناني ولا في المعجم اللاتيني... وهي لم تظهر للوجود إلا في نهاية القرن الثامن عشر على يد العلامة الألماني شلوتزر، الذي ابتكر اصطلاح سامي.. كل شيء يمكن أن يكون بسيطا، لو أننا بدل أن نتحدث عن الساميين ـ الأبطال الوهميين ـ نتحدث عن العرب ، عن الشعب الذي وجد في الواقع، له كيان اجتماعي وثقافي ولغوي دائم، الشعب الذي منح الحياة والتوازن للبحر المتوسط، منذ آلاف السنين**" [1].ويقول المؤرخ العراقي أحمد سوسة في كتابه [الحضارة العربية ومراحل تطورها عبر العصور]: " **إن الحضارة التي سميت بالسامية خطأ إنما هي حضارة عربية، ومصدر طاقتها البشرية جزيرة العرب لا غيرها**"[2]. وقبله قال المؤرخ العراقي جواد علي في كتابه [تاريخ العرب قبل الإسلام]: " **ولعلي لا**

---

(1) isis vraie histoire des arabes p12 : La cite d P.Rossi

(2) أحمد سوسه: حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور ص 19

أكون مخطئا أو مبالغا، إذا قلت ان الوقت قد حان لاستبدال مصطلح [سامي وسامية] بـ [عربي وعربية[1]. ويرى بعض اللغويين العرب وضْع كلمة لهجة عربية قديمة بدل لغة سامية، ويعطي مصطلح االلهجات العروبية كبديل للغات السامية العالم اللغوي الليبي الدكتور علي فهمي خشيم. وقد رأيت أن أستعمل هذا المصطلح أي مصطلح **العروبية**، في هذه الدراسة. فاللغة العربية الأمّ تفرعت عنها لهجات كالكنعانية والآرامية، والكلدانية، والبابلية، والأشورية، والحميرية، والسبئية، والعبرية، والبربرية الأمازيغة، وغيرها.

الوضع اللغوي بالمغرب العربي قبل الإسلام: عرف المغرب العربي قبل الإسلام وضعا لغويا شبيها بالوضع بعده. فقد كانت اللهجة العروبية الكنعانية والتي سميت الفينيقية أو البونية تمثل اللغة الفصحى محاطة بلهجات شفوية عروبية هي اللهجات البربرية الأمازيغية. كانت اللغة الكنعانية هي لغة الحضر أي المدن، ولغة الدواوين والعبادات، وبالرغم من أن الرومان دمروا الأمبراطورية الكنعانية قرطاج في 146 قبل الميلاد، إلا أن المغاربة استمروا يمارسون الكنعانية كلغة فصحى. فالمذهب المسيحي المغاربي [**الدوناتية**] الذي اشتهر بالقرن الرابع الميلادي كانت لغته الكنعانية، كان الدوناتيون يصلون في كنائسهم بالكنعانية أي بالفينيقية. وكان الكاثوليك والقديس أوغستين يصلون باللاتينية لأن الكاثوليكية هي مذهب الرومان والاستعمار الروماني، يقول القديس أوغستين بأنه كان يخرج في ضواحي عنابة [هريبون] فيسمع الناس يتكلمون لغة غريبة فيسألهم ما هي هذه اللغة فيجيبون [الكنعانية]. استمر هذا الوضع اللغوي سبعة عشر قرنا قبل الفتح الإسلامي، يقول هـ بي باسيه H.Basset : "**إن البونيقية لم تختف من المغرب إلا بعد دخول العرب، ومعنى هذا أن هذه اللغة بقيت قائمة هذه المدة بالمغرب، سبعة عشر قرنا، وهو أمر عظيم... لقد استمر تأثير مدينة قرطاج قائما حتى بعد تدميرها ، فقد تحولت مدينة [سيرتا] تحت حكم الملوك النوميديين إلى مركز بونيقي. بل إن اسم سيرتا هو [قرطة]**

(1) جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام ج 1

أي المدينة بالبونيقية... لقد جعل الملوك النوميديون البربر اللغة البونيقية لغتهم الرسمية في العهود الأخيرة ، لدرجة أنه كان الناس في بلاد البربر ، وفي المدن على الخصوص، يتحدثون البونيقية أكثر من البربرية. وحتى في العهد الروماني... إن المناطق التي انتشرت فيها البونيقة أكثر هي التي تعربت بالكامل. والبونيقية لغة قريبة من العربية التي ما أن دخلت المغرب حتى خلفت البونيقية وبسهولة، كما أن آلهة قرطاج هي التي مهدت لانتصار الإسلام في هذه البلاد، وأن اللغة البونيقية عبدت الطريق للعربية[1]وتقول موسوعة يونيفارساليس الفرنسية: "صارت اللغة البونيقية اللغة المشتركة لا يتحدث بها القرطاجيون فحسب، لكن يتكلم بها سائر سكان المدن، بل كانت لغة الملوك الأفارقة انفسهم، مثلما تشهد على ذلك العملة المضروبة في عهد ماسنيسان وسيفاكس"[2]

ويقول رينان E.Renan: "إن ساميا عاش في عهد النبي إبراهيم وساميا عاش الآن لا يجدان صعوبة في التفاهم بينهما..إن البربر حذقوا لغة الإسلام بسهولة لأنهم كانوا يعرفون البونيقية" [3] ويقول ويليام مارسيه W.Marcais: "إن فاليروس Valerus قال: سمعت الفلاحين ـ بنوميديا ـ يثرثرون بلغة أجهلها ويرددون كلمة [ثالوث Salus]، وعندما سألتهم عن معناها أجابوني: [ثلاثة]". والكنعانية أو البونيقية هي لغة عربية قديمة مثل الأمازيغية، وعندما حمل الفتح الإسلامي معه اللغة العدنانية التي نزل بها القرآن الكريم خلفت هذه تلك بطريقة طبيعية، وهذا هو الذي يفسر لماذا انتشرت اللغة العربية بسرعة بالمغرب العربي، بينما عجز الرومان عن فرض لغتهم اللاتينية على المغاربة رغم استعمارهم الطويل.

العربية الفصحى وعامياتها

---

(1) H.Basset: Les influence puniques chez les Berberes.Revue Africaine V62 p340

(2) Encyclopeadia Universalis.T1 p633

(3) E.Renan. Histoire Generale des Langues Semitiques 7eme edition pp 199 ,200

وانتشرت اللهجة العدنانية التي اتخذت اسم اللغة العربية بالمغرب العربي عقودا قليلة بعد الفتح الإسلامي، وتجاوب معها البربر الأمازيغ، أولا لأنها لغة الإسلام الذي آمنوا به، وثانيا لأنها ليست غريبة عن لغتهم الأمازيغية، واستمر الأمازيغ في خدمة اللغة العربية، إيمانا منهم بأنها لغتهم ولا يوجد بديل لها. ثم جاء بنو هلال فامتزجوا بإخوانهم الأمازيغ، وكونوا معهم المجتمع العربي المسلم. بل وانتشرت لهجات يمنية ظفارية مثل نطق القاف كافا في جيجل والغزوات وطول كرم في فلسطين، ومثل نطق الغين قافا في الأغواط، وغيرها من اللهجات المنحدرة من القبائل العربية التي رافقت الفتح. وجاء الفرنسيون المحتلون فأوقفوا تعليم اللغة العربية، فلجأ الجزائريون للتعبير عن وجدانهم ومقاومتهم للمحتل إلى العامية والشعر الملحون. كانت العامية قبل الاستقلال راقية غير مشوهة قريبة جدا من الفصحى، ولم يتسرب لها التشويه إلا في عهد الاستقلال، بحيث صارت لهجة مِسخا، خليطا من الكلمات العربية والكلمات الفرنسية، سماها اللوبي الفرنكفوني المتحكم في الدولة الجزائرية [العربية الجزائرية] وطالب بترسيمها بدل الفصحى.

وبمقارنة بسيطة يتبين لنا هذا التشويه، فقبل الاستقلال يصف الزّجّال معاناة الحب فيقول:

جضِّيــت مــن عبــد محْــزورْ　　　مـــاباش يــوقف عليّـــــا
كيمــا جضّ الغـذوي من البور　　　يحـــرث وعْظامــو طـريّــا
يحرث في بـــلاد لقزامـــــيــــر　　　وجــت مخلتـــو بـــالشوَيّـه

وهي أبيات مفعمة بالمعاناة في سبيل الحب والكلمات الفصيحة التي لا توجد إلا في المعاجم الكبرى، فالمحب عانى في سبيل حبيبه، مثلما يعاني المُهر الصغير في حرثه للبور الصعب وعندما يقدم له الغذاء يكون مخلاة بها قليل من العلف. كلماتها: جضَّ عليه: حمل عليه والمحب هنا محمول عليه. حزْرةُ المال: خياره. الغذَوي: الرضيع لا يغذّى بلبن أمه بل بلبن غيرها. تقزّم: اقتحم الأمور بشدة، والقزمير بالبيت هو كتل

التراب الصلبة المخلوطة بجذور النباتات التي تقتلعها سكة المحراث. وهذا يؤكد التصاق العامية الريفية بالفصحى. وبعد الاستقلال يصف مغن معاناة الحب باللهجة المشوّهة فيقول مخاطبا حبيبته:

قلبي وقلبك عند البوشي معلّقين

وهي صورة بشعة تمثل المستوى الذي وصلت إليه اللهجة الجزائرية وبخاصة بالعاصمة بعد الاستقلال، نظرا لطغيان اللغة الفرنسية في إدارة الدولة الجزائرية، وبالاقتصاد. فقبل الاستقلال كان الجزائريون يناضلون للتخلص من الاستعمار ، واللغة الفرنسية أداته الرئيسية فيتكلمون لهجة صافية، فحتى المتعلمون منهم بالفرنسية إن استعملوها تكلموها ، وإن استعملوا اللهجة الجزائرية تكلموها صافية غير مخلوطة. وبعد الاستقلال صارت اللغة الفرنسية لغة الدولة الجزائرية والتمدّن، فصار المواطن لكي يثبت تطوره وتقدمه يخلط كلامه بكلمات فرنسية، بالرغم من معرفته للعربية التي تعلمها في مدرسة الاستقلال. مع العلم أن مدرسة الاستقلال قرّبت بين اللهجات وأثْرت لغة التخاطب بكلمات الحياة، وأفضل من يمثل اللغة الصافية هم تلاميذ المدارس الابتدائية والمتوسطة فهم يتحدثون اللغة الفصحى بطلاقة، لأن التعليم بالجزائر يلزم المعلم بالمدرسة أن يلقي درسه بالفصحى لا بالدارجة، بينما نجد المدرسة بالمشرق العربي يتم فيها التعليم بالدارجة. ولعل خير من يعبر عن هذه الظاهرة الطفل في بلاد القبائل، ففي البيت يتحدث اللهجة الأمازيغية القبائلية، وفي المدرسة يتعلم الفصحى، ففي إحدى زياراتي لمدينة تيقزيرت بولاية تيزي وزّو في الثمانينيات من القرن الماضي، تحدثت زوجتي مع طفل عمره تسع سنوات، فأجابها قائلا: "لا أفهم الدارجة حدثيني بالفصحى" فسألته: "هذا الزورق الذي هو في البحر نريد أن نستأجره، هل سيعود للشاطئ ؟ " فأجابها في إيجاز وبلاغة قائلا: " ربّما ". بعد الفتح الإسلامي وبمجرد انتشار اللغة العربية تفرعت عنها لهجات وكانت صافية، وخير زجل يمثل تلك المرحلة من الزمن الزجل الذي يروي **قصص بني هلال**؛ وأقدّم للقارئ بعض أبيات هلالية. عندما انفصلت الجازية بطلة قصة بني

هلال عن زوجها الشريف هاشم وفُرض عليه أن يعود لمنازله بدونها، أخبروه أنهم تركوا له في كل رحلة رأس خروف مشوي مخبّأ بالرماد تحت صخرة ليتغذى منه، كما أعطوه بغلا ليركبه، فوصف ذلك شعرا :

بـــعد الزّرقـــة العـــتْربيـــة   وركّبـــوني عـــلى بْغَلْ نكّـــاس

وبعـد اللـــحمة والليّـــــة   وعـــدت انقدّد في الْحَمْ الرّاس

وكلماتها فصيحة : نكس الفرس: لم يلحق بالخيل في جريها. قدَّد اللحم: قطعه طولا

الشعر الملحون والمقاومة والثورة: لقد عبر الشعر الملحون بلهجة صافية عن المقاومة والثورة، فالشعر الفصيح كان التعبير فيه محدودا ، وكذلك الشعر المفرنس، نظرا لعدم انتشار تعليم الفصحى. كان المدّاحون في الأسواق الشعبية يعبرون عن فظائع جيش الاحتلال، فعندما سقطت مدينة الجزائر غنى المداحون بالإسواق قصيدة ملحونة:

طاحت سلطانة المدن

ودخلولها النّصـــارى

ونشروا فيها الكفـــر

وعندما استشهد محمد المقراني، قال فيه المداحون

لما طاحت الصفصافـه

حـــزنت إفـــريقيـــا

في هـــــــذا اليـــوم

تكسّر الإســـــلام

و يقول المداحون عن الشيخ حداد:

شفت الشيخ حداد ، هو عالمْ كبيرْ

هاز المعجزات والمواهب الخارقة

عندما دخل الفرنسيون الصحراء ، اضطروا إلى استعمال الإبل بدل الخيول ولم يراعوها في استعمالهم، فانتشرت في بوادي واد سوف قصيدة قصيدة تعتبر من أروع قصائد الملحون تروي معاناة الشعب الجزائري من فظائع المحتل على لسان الإبل، ولحنت وصارت تغنّى بالأعراس فصدر قرار بمنعها، ومن هذه القصيدة:

آ البل قالتْ

نبكي ونْردّي

والدمعة سايــلـه عالخدّي

والعسكر عـنّي متعــــدّي

ويلعب في الكرسيس عبيد

آ البل قالت

نبكي يا دايه

وعبّوني من غير عبايه

وساقوني من غير ثْنايا

وجيت نطبّس عالحلفايه

ضربوني مشغيط حديد

آ البل قالت

وراج زجل عبّر عن حياة الهاربين من الجيش الفرنسي، والمتمردين على السلطة الاستتعمارية، والمرابطين بالجبال، كانوا يسمون **بالمزرطين** أو المنافقين، من أمثال بن

زلمات، وبومزران في بداية القرن العشرين، وأمثال علي البلعيساوي وإبراهيم معاش في منتصف القرن العشرين، وكانوا محبوبين من الفلاحين، كانوا يسطون على القياد والكولون يأخذون منهم المال ويوزعونه على الفقراء، ومن الغريب أن هذا يذكرنا بالثورة الدائرية التي تصدى بها الفلاحون الأمازيغ للكولون الرومان؛ وعندما اندلعت ثورة أول نوفمبر انضم هؤلاء المتمردون لها وكانوا نعم المجاهدين منهم علي البلعيساوي، وإبراهيم معاش، وقرين بلقاسم، وغيرهم. ويُروى عن متمرد حاصره العدو وراودته نفسه على الفرار، فخاطبها قائلا:

رومـــــــي عْجـــــــاج الطّايـــــــب

وهْروبــــك قـــــدام لَعـــــدا خايـــــب

الــــرب يقتــــل والرصـــــاص ســــبايب

لعمـــــر لقــــصف مـــا طولاتـــو ذلـــة

والملاحظ أن لغة هذا الزجل صافية غير مخلوطة، كلماتها عربية. لعمر القصف: العمر القصير، عربية : القصيف هشيم الشجر. واندلعت **ثورة اول نوفمبر** وكان الزجل قد عبر عنها بملاحم عدت بآلاف الأبيات، وشملت هذه القصائد سائر أنحاء البلاد. وقد اشتهرت ملحمة [**حزب الثوار الله ينصر**] بالشرق الجزائري، وتعد أبياتها بالآلاف. ومثل سائر الملاحم فبادئُ نظمِها مجهول، لكن نسجت على منوالها كل دشرة بل وكل أسرة فتغنت بأبنائها المجاهدين والشهداء في لغة صافية، وبكلمات عربية ملحونة، بل سمَّى الزجال المعركةَ باليوم، عملا بالتاريخ العربي الذي يسمي معارك العرب بأيام العرب. ولنستعرض بعض مقاطعها التي يتألف كل مقطع من بيتين مختوما باللاّزمة:

حـــزب الثـــوار اللّـــه ينـــصر حـــزب الثـــوار

شـــــــــــوفوا التّيعـــــــــــاد رجّالـــــه مـــــن كــــــل بــــــلاد

تلاقـــــوا للجهـــــاد على دينـــك يـــا بـــو لَنـــوار

حـــزب الثـــوار الله ينـــصر حـــزب الثـــوار

الأزهـــــر تقمـــــشْ لبياســـه بالحـــب تـــرش

ضــــربوه ادهـــــش مـــن ذرعـــو مقـــسوم اشـــطار

حـــزب الثـــوار الله ينـــصر حـــزب الثـــوار

و يلاحظ القارئ كيف استعمل حرف الشين في وصف المعركة ، كما استعملت لبياسة الفرنسية المتداولة بين تسمية السلاح.

يـــــوم الحـــــد طيّـــاره تـــدي وتـــرد

لرقـــاب ســـدد لفـــرايس مثـــل العرعـــار

حـــزب الثـــوار الله ينـــصر حـــزب الثـــوار

يـــــوم الزرقـــــة لكمـــاين عالرصـــفه ترقـــه

تلاقـــــوا في خنقـــــه والمـــدفع هـــد الكيفـــان

حـــزب الثـــوار الله ينـــصر حـــزب الثـــوار

يـــــوم الجـــــرف غنيـــت عليـــه بـــلا عـــرف

كـــي اذهـــب الكـــرف رام فـــازوا فيهـــا لحـــرار

حـــزب الثـــوار الله ينـــصر حـــزب الثـــوار

يـــوم حـــسي خليفـــه راو لخـــضر داداه وصـــيفه

خلاهـــــم جيفـــــه كـــل شـــعبه فيهـــا ســـبيطار

حـــزب الثـــوار الله ينـــصر حـــزب الثـــوار

مـــــسيو مـــــوريس طالـــب فـــولنطي قنتـــيس

يتحلـــــف فـــــيهم قـــال الفلاقـــة نقـــضيهم

كــــــي طـــــــاحو بيـــــــه وعـــــــاد يــــــذبّل في عينيــــــه

هـــــا العـــــسكر هـــــذا واش بيـــــه

فروخـــــــه وحامـــــــت لطيـــــــار

كــــــي طـــــــاحو بيـــــــه ورّولـــــوا ضـــــرب الثـــــوار

حـــزب الثـــوار الله ينـــصر حـــزب الثـــوار

يــــــــوم الـــــــــزوره طيـــــارة تـــضرب في الـــــدوره

ناضــــــــولها ذكــــــــوره طربوهــــــا طاحـــــت دخـــــان

حـــزب الثـــوار الله ينـــصر حـــزب الثـــوار

موريس هو موريس ديبويه جنرال احتياط يعرف جيدا منطقة النمامشة، تطوع ليعمل كحاكم بمدينة الشريعة ضد الثوار، كان يعرف العربية والشاوية ويحفظ بعض القرآن، أساء كثيرا فنصب له المجاهد البطل عمر البوقصّي كمينا في قنتيس وقتله، وقد حضر الوزير الفرنسي المقيم لاكوست بنفسه للشريّعة للمشاركة في تأبينه ونقل جثته. وتعد أبيات هذه الملحمة عن الثورة بالآلاف، ولم يبذل أي جهد لجمعها وقد سجلت بعضها سنة 1963. وراجت قصيدة أخرى أقل شأنا نورد منها بعض المقاطع، ولغتها رائعة، تقول:

كي ثـــــــاروا أولاد العربيـــــــة

قـــــــصدوا قتـــــــال الـــــــروم

ســـــكنوا في جبـــــال الظهريـــــة

ويـــــن يـــــدور الحـــــوم

جـــــت الطيـــــارة المخليـــــة

وكـــــان طبلهـــــا يـــــزوم

وتبـــــارك في هـــــا الجنديـــــة

ومـــــول القلـــــب يقـــــوم

أبطـــــال أولاد العربيـــــة ومـــــن

حـــــاضر مـــــن القـــــوم

يحكـــوا عـــلى جيهـــة القبليـــة

ومـــا جـــاب المعلـــــوم

فرنـــــسا والـــــبرود تفيّـــــا

بنيـــــانو مهـــــدوم

أكـــــافر واعطـــــي الحريـــــه

عـــــلاش هزيتـــــي المزقـــــوم

تفـــــشختي مـــــشيتي كرويـــــه

ترذختـــــي بـــــالثوم

نحنـــــا هـــــذي البقعـــــه هيّـــــا

في القاســـــم معلـــــوم

وأنتومـــــا دخلتـــــو عيريّـــــا

قـــــسونا آهمـــــوم

أبطـــــال أولاد العربيـــــة ومـــــن

حـــــاضر مـــــن لقـــــوم

واشتهرت قصيدة أخرى قليلة الأبيات تصف دم الثوار فتقول:

كـــــدّاش انفكّـــــر في الجزائـــر عـــادت حيـــة

مـــن دم الثـــوار يقطّـــر متبـــزّع في كـــل ثنيّـــة

ســـال عـــلى الحـــق ومتبـــزّع في كـــل طـــرق

وســـال عـــلى ديـــن الحريـــة

و إذا انتقلنا إلى **الشعر الوجداني** الغزلي وجدناه يتضمن روائع صافية اللغة، يصف الشاعر خدَّ حبيبته فيقول إنه عبارة عن ورد متفتح في وقت نضجه، أو عن شقائق النعمان، بل إنه مزيج من ألوان الورد وشقائق النعمان والفُلّ، وليلاحظ القارئ الجناس الجميل الذي تضمنته المقطوعة:

يـــا خديجـــة خـــدك يبـــانو

ورد مفـــــتّح في أبّـــــانو

بوقرعـــون عـــلى طغيـــانو

بوقرعـــون وورد وفَـــلْ

يـــا خديجـــة واعطيـــني كلمـــه حـــسيت قلبـــي تـــا ينـــسل

يـــا خديجـــة آو قـــدّك صـــاري

عيونـــك ســـودا بـــلاش كحـــل

وحجاباتـــك نـــون القـــاري

شــــــــــــعلت نــــــــــــاري

مـــــن ســـــنّك الــــبرق شـــــعل

يـــا خديجـــة واعطيـــني كلمـــة حـــسيت قلبـــي تـــا ينـــسل

يلاحظ في الزجل أن همزة القطع تسهّل مثل واعطيني

وقد بلغ التصاق الشعر الملحون الجزائري بالشعر الفصيح، حد استعمال لزوم ما لا يلزم أي تعدد حروف القوافي، فالشاعر محمد الربيعي من بير العاتر ومن قبيلة أولاد عبيد المشهورة بشعرائها، يقول واصفا امرأة:

مغروز هدبها والقصّه سودة تُصلبهـا حدّ حواجبها من خزرتها الحاوي يريب

اللي كاسبها مدلّلْها مـاشو مْتعّبــهـا لا مَن شاغبها ولا لْحقها واحـد بالعيـب

واشي يهذّبها العودة تمشي بطربها مقدود ذنبهـا تسَمّ خطاهـا بالترتيـــب

الملاحظ أن الشاعر استعمل حرفين في قافيته الياء والباء. ولهذا الشاعر رائعة، نوردها: دعاه والي تبسة في نهاية الستينيات من القرن الماضي، للمشاركة كشاعر زجال غنّى الثورة ومن العادة أن يشارك شعراء الثورة في الحفلة، لكن في هذه الحفلة حضرت راقصة جعلت المشرفين على الحفلة ينسون الشاعر محمد الربيعي وزملاءه من الشعراء، فنظم قصيدة انتقد فيها الوالي بأسلوب جميل ومهذب، سجلتها له في بير العاتر سنة 1972 ، يقول:

نحلـــــــــف عـــــــــالحفلات ومّاليهــــــــا مادمـــت حـــيّ مـــا عـــدت نوقـــف فيهـــا

مــــــا دامهــــــــا ميجـــــــودا   مـــــا دام فيهـــــا الواهمـــــه الـــــصندوده
أنـــا ظالمـــك يـــا أم العيـــون الـــسودة   أرقــــــصي وارقيـــــــصك يواتيهـــــــا
أرقــــــــــصي في صـــــــــــوابك   ودلْـــــوحي فـــــوق النّهـــــود سْــــخابك
مـــا نلومـــك ومـــا نلـــوم اللـــي جابـــك   تقـــــــدي الـــــــسهريات وتزهيهـــــــا

يـــــا زعبانـــــه يـــــا الواهمـــــه يـــــا شـــيخة الفنانـــــه
تـــــــــستاهلي كــــــــي نحــــــــضروك معانـــــــــا
تلـــــــــزي رجـــــــــال اللـــــــــوم وتـــــــــصفيها
واحـــــــــــد الجبـــــــــــل هـــــــــــذاكهو ميزانـــــــــــه
واحـــــــــــد وقيـــــــــــة ترجّعـــــــــــو ياليهـــــــــــا

أمـــا أنـــت لا نهاجمـــك ولا نُقْـــصدك بـــسيا   غـــــير الأمـــــور الواقعـــــة نحكيهـــــا
زيــــــدي ارقـــــصي لجماعتـــــك واطّـــــرّي   وامـــــشطي شـــــعورك في القـــــدا دربيهـــــا
وكـــي تـــضحكي يبـــان الـــذهب في نيابـــك   مـــــنين العقـــــول الواطيـــــه تـــــديها
راو صـــــــار خـــــــاطري متـــــــبري   ســـــوق الـــــرقيص نخلفـــــو للـــــذّرّي
بـــــالعمر نـــــا مـــــا نبـــــيح بـــــسرّي   عنـــــــدي قـــــــصايد نخبيهـــــــا
قـــــصايد ليّـــــا علـــــى وطننـــــا   ولبطـــــــــــال والحريـــــــــــة
نجوزهـــــا مـــــا دام عـــــيني حيـــــة   مـــا دام شـــعبنا مـــا عـــاد والـــع بيهـــا

هذه نماذج من شعرنا الملحون الذي قمت بجمعه في الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، عندما كانت الذاكرة شابة في مناطق الشرق الجزائري، وليلاحظ القارئ كيف عبر الشاعر عن هذه المعاني المعقدة بأسلوب جميل وبلغة صافية خالية من المزج والخلط.

استعمل الزجالون كلمات خاصة بالعامية مثل:

ماباش: رفض

كيما : مثل

جتْ : جاءت

طْفَتْ : أطفئت

بلاش : بلا شيء . علاش : لماذا

مشغيط: السوط بلهجة واد سوف

سْدِدْ : جمع سدّة المنسج، فجثث المعركة تشبه السدد الممددة على الأرض.

: عندما

ذْهبْ الكرف : ضياع كرف كلب الصيد وهو يتبع طريدته، فيصير في وضع هستيري كبير، وقد استعمله الزجال للتعبير عن أوج الالتحام بالمعركة. عربية: كرف الشيء شمّه.

في القاسم معلوم: أي عندما قسم الله الأرزاق منحنا نحن الجزائريين هذه الأرض

وانتوما دخلوا عيرية: أن أنتم أيها الفرسيون دخلتم أرض الجزائر مؤقتا

القدُّ : القامة وهي فصيحة

الصاري : هو العمود الرئيسي الذي يحمل الخيمة، شبه به الجزال قامة حبيبته لاستقامته.

حْجاباتك نون القارئ : أي حاجب الحبيبة مرسوم كحرف النون تحت يد خطاط ماهر

تْسُمْ خْطاها بالترتيب: يصف الحبيبة بالفرس التي تسِمُ خطاها بانتظام

ويلاحظ أن العامية تستعمل النفي ب**لا** وب **ما** ولا تستعمل لم : مثل : لا من شاغبها أي لم يشاغبها، وما نلومك أي لا ألومك. ما عاد والع بيها أي لم يعد والع بها.

والكلمات الفرنسية التي استعملها الزجالون قليلة: كلكماين، سبيطار ، لكسرسيس: أي التمارين. ومن الأبيات الجميلة، فارس يصف كيف أسرج فرسه السوداء بالليل الأسود وكيف انهمر عرقها ليختلط بتراب الثنايا كما يِبسُّ السمنُ الدقيقَ، وهو تشبيه واستعارة رائعان:

اســــــرجتها ليـــــــل في ليـــــــل عرقهـــا بـــسّسْ تـــراب الثنايـــا

يِسَّ: فعل فصيح أي خلط السمن بالدقيق وصنع منه بسيسة أي طمّينة

و يصف زجّال حبيبته وجمالها وصفا في قمة الروعة فيقول:

دارت عبايـــــــــه بمريـــــــــول وطلعـــت فـــوق الـــسرير درجـــه

والحاجـــب معـــا خـــوه مقـــرون أكحـــل مثـــل تـــوت غنجـــه

والنـــــاب مثـــــل تـــــبرور أبـــــيض تواتيـــــه ثلجـــــه

وحـــــيرتي كيـــــف نرجـــــه وهــــذاك مـــــا يجـــــرالي

تشابيه رائع تعكس بلاغة الفصحى في أوج إبداعها: فالحاجب أسود مثل التوت، والناب مثل الجوهر يشبه في بياضه الثلج. وإذا استعرضنا **الأمثال** نجدها ملتصقة الفصحى: مثل: **خانها ذراعا قالت سحروني**، يضرب المثل على المرأة التي لا تدبر جيدا منزلها.

نوا ذ وعتب والبعض من الذريّه، يضرب المثل على قمة السعادة المتمثلة في كسب الخيل والدار والذرية الصالحة ، والبقعة المميزة للخيل ناصيتها، يقول الرسول ﷺ: "لا تشدوا الخيل من نواصيها فتذلوها". فالخيل خلقها الله بكبرياء وأنفة رافعة الرأس وهذا دليل على أن الإسلام يراعي المعاملة الحسنة للحيوان. **تقطّع البندير وتفرّقت المدّاحه** يضرب على الحدث الذي يفرق الناس. ولنعد للغة الهجين المسخ التي تسود الشارع الجزائري، خليط بين العربية والفرنسية، والتي يسميها اللوبي الفرنكفوني

اللغة الجزائرية، أو العربية الجزائرية، فزجالهم يصف معاناة الحب فيقول مخاطبا الحبيبة:

قلبي وقلبك عند البوشي معلقين

ويلقي رئيس مؤسسة رسمية خطابا بمناسبة اغتيال صدام حسين ، بثته التلفزة الجزائرية جاء فيه: " باسم العمال كافة العمال على المستوى الوطني، باسم كيما يسموه لوكيباسيون العراق ، وضد وقت العيد والاحتلال نهار نتاع الرحمه ، نهار نتاع التسامو ح ، يكون المجرم هذا من طرف ناس اللي يحتلوا العراق.. هذا مجرمة غير مقبولة من طرف العمال، غير مقبولة من طرف الناس اللي يحبو العدالة ، وهذا أخدت الاتحاد العام للعمال المبادرة باش تندد هذا العنف أمام الإنسانية أمام الرئيس صدام حسين أمام الأمم العربية الإسلامية"

الخلاصة:

أولا: إن العامية أو اللهجة بالجزائر قريبة من الفصحى وبخاصة في الريف بسبب بقاء الريف بعيدا عن التأثير الفرنكفوني. وقد عبرت ولمدة قرون عن مقاومة الشعب للعدو، وعن وجدان الناس، وكانت قبل الاستقلال أصفى منها بعده بسبب هيمنة اللغة الفرنسية على إدارة الدولة وعلى الاقتصاد والعمل.

ثانيا: المعروف أن لهجة العاصمة في أي قطر تعتبر أرقى من لهجات المناطق الأخرى وقد شذت مدينة الجزائر التي تعتبر لهجتها أفقر لهجات الجزائر وذلك بسبب معاناتها من الوجود التر طيلة ثلاثة قرون، ومن الاستيطان الفرنسي والآوروبي طيلة قرن وثلث قرن.

ثالثا: إن لغة التخاطب هي وجه كل شعب، ووجه الجزائر بكل أسف مشوه مرقّع، مزيج من الكلمات العربية والفرنسية. ولا يمكن لهذه اللغة أن تصير صافية إلا إذا طبق قانون تعميم استعمال اللغة العربية.

رابعا: لقد عرف القرن العشرون أعظم ثورتين بشريتين هما ثورة الجزائر وثورة الفييتنام ولا يمكن لأية ثورة أن تكون ناجحة إلا إذا حققت هدفين تحرير الأرض وتحرير الذات، ولقد حققت ثورة الفييتنام الهدفين انطلاقا من وصية قائدها هو شي مينه لأبناء شعبه: "حافظوا على صفاء اللغة الفييتنامية كما تحافظون على صفاء عيونكم" ومن تحقيق الفتنمة الفورية والشاملة. أما ثورة الجزائر فحققت هدفا واحدا وهو تحرير الأرض وتركت الذات الجزائرية مستعمرة فرنسية من خلال هيمنة اللغة الفرنسية على الدولة. ندعو الله أن يرزق الجزائر برجال يحررون ذاتها.

خامسا: إن العامية ليست بديلا للفصحى، ولا يمكن أن تكون بديلا لها، ولن تكون بديلا لها، و إنما هي موضوع جدير بالدراسة، وتراثها من زجل وأمثال جدير بالجمع.

سادسا: هذه نماذج من الزجل الذي جمعته مباشرة بعد الاستقلال أقدمها في هذه الدراسة كما جمعت مجموعة من القطع الموسيقية التي تدخل في الموسيقى الوصفية، وهي نادرة، وقد قررت تسجيلها إذاعيا وتلفزيونيا في المستقبل القريب.

الصّلة بين العربيّة الفصحى وعاميّتها بالجزائر

" المعالم الكبرى "

د/ مختار نويوات — جامعة عنابة

موضوع دراسة الصّلة بين الفصحى وعاميّاتها في الأقطار العربيّة موضوع ثريّ، متعدّد الجوانب، مترامي الأطراف، متنوّع الأهداف، صعب المُتناوَل، مهما كان المجال الذي يدرس فيه ومهما كان المستوى المختار له. ذلك أنّ علاقاته بالأزمنة والأمكنة وبنواميس التطوّر في المجتمعات والثقافات والحضارات والألسنة لا تكاد تحصى ولا نعرف منها إلاّ القليل الذي يبرز للعيان بعد حصوله. لم أختر هذا الموضوع إلاّ بعد طول تردّد ولا أتناوله إلاّ من زاوية محدودة يفرضها عليّ المجتمع الضيّق الذي نشأت فيه وصلاتي بغيره ممّا لا يتجاوز الحدود الجزائريّة، وما اقتنيتُ في دراستي المتواضعة وما استنْتَجتُ من بحثي في هذا المجال الذي طالما لفت نظري بل طالما شدّني إليه.

لا نعرف كيف نشأت اللغة التي يدعونها مصيبين أو مخطئين "اللغة الأمّ للألسنة الساميّة" والتي تفرّعت عنها البابليّة القديمة والعربيّة والأشوريّة والعِبريّة والسِّريانيّة والآراميّة والفينيقيّة والحبشيّة، ولم يبق منها إلاّ العربيّة والعبرانيّة والحبشيّة والسرْيانيّة. ويقال إنّ العربيّة أرقاها جميعا.

لم تكن العربيّة قبل الإسلام لغة واحدة بل كانت لغات ذكر منها القدماء ستّا:

-المسند : لغة حمير في اليمن ولم يكن العدنانيون يفهمونها.

-الزّبور : لغة حضرموت وبعض اليمن.

-الرّشَق : لغة عدَن والجَنَد. والجَنَدُ جزء من اليمن.

-الحويل : لغة مهَرَةَ (بين عُمانَ وحضْرَمَوْت) والشّحْرِ، على ساحل المحيط الهنديّ بين عدَن وعُمَانَ.

_الزقزقة : لغة الأشعريّين (من قبائل كهلان من القحطانيّة).

وقد اندثر أكثر هذه اللغات القحطانيّة، فلا يمكننا دراستها دراسة دقيقة ومعرفة مادّتها وأصولها معرفة حقيقيّة ومقارنتها بغيرها مقارنة علميّة.

-المُبين : وهو لغة العدنانيّين بالحجاز ونَجْدٍ وسائر شمال الجزيرة العربيّة. وهي التي وصلتنا في الآثار الأدبيّة القديمة شعرها ونثرها بعد أن توحّدتْ توحّدا يكاد يكون كاملا وصارت بفضل الأسواق الشهيرة والمواسم التي كانت تجمع العرب عدّة مرات في السنة والتي كانت معرضا للإنتاج الفكريّ صارت ما ندعوه اليوم ب"اللغة المثاليّة".

بهذه اللغة المثالية، وبخاصّة لغة قريش، نزل القرآن الكريم فوحّدها وأثراها ومكّن لها في البلاد العربيّة وخارجها وحفظها في مادتها اللغويّة وفي نُظُمِها الصوتيّة والصرفيّة والنحويّة. بل وسّعها بالمحافظة على ما كان دخلها مُعَرَّبا، عبر القرون، من اللغات الأجنبيّة المجاورة أو القاصية التي كان للعرب صلة بأصحابها بوساطة الأسفار والتجارة، وأثراها بوسائل جديدة كالتوسّع في الدّلالة، والكناية، وأنواع التشبيه والاستعارة.

وجد العرب في القرآن نموذجا فذّا بَهَرَهُمْ بأسلوبه وأعجزهم ببيانه حتّى عدّوه في أوّل أمرهم سحرا بأتمّ معنى الكلمة. وكان الشعر عندهم من قبيل السحر. ولمّا اعتنقوا الإسلام وأنِسوا بأسلوب الذّكْر الحكيم وبفصاحة الحديث النبويّ الشريف، لم يرضوا لهما بديلا. فصار القرآن يُتْلَى آناءَ اللّيل وأطراف النهار، ورُصِّعت به الخطب، وتمثّلوه فرسخ في ذاكرتهم وجرى على ألسنتهم وأقلامهم وهذّبوا لغتهم بعد أن كانت جافية.

حفظ العرب القرآن فحفظ لغتهم بعد أن أثراها كما قلنا وهذّبها وجعلها مرنة. وصارت الفصحى اللغة الرسميّة في المساجد والإدارة والميادين الثقافيّة. وهبّ العلماء لجمع اللغة العربيّة من أفواه الفصحاء من الأعراب العارفين خبايا لسانهم المدركين مسالك مجاهيله. وبدأ تدوين اللغة في شتّى المجالات ولا سيّما ما يساعد على فهم القرآن فهما صحيحا مبنيّا على أسرار اللّسان الذي نزل به.

وكانت الفتوح منذ عهد أبي بكر الصدّيق وبخاصّة عمر وعثمان ومن جاء بعدهما تنشر الإسلام شرقا وغربا فنتج عن ذلك دخول الأعاجم في الإسلام، واستعمالهم للغة العربيّة وتكاثر المولّدين الأحرار والغلمان والجواري في القصور وغير القصور وتفشّي اللّحن تفشّيا فادحا لا سيّما في الحواضر حيث قوِيَتْ لغةُ المولّدين وشالت كَفَّةُ الفصحى. وكان العرب حريصين على سلامة لغتهم. فظهر مبدأ الدّفاع عنها بالتّأليف في ما يضمن لغير الناطقين بها استعمالَها بغير تحريف في أصواتها وقواعدها الصرفيّة والنحويّة وفي دلالات ألفاظها وتراكيبها. وبدأ التأليف في اللغة والنحو وبرزت إلى الوجود معاجم اللغة خاصّة مختصرة في أوّل أمرها وعامّة مطوّلة بعد قرون من ذلك. واستمرّت حركة التأليف والإبداع نشطة مثمرة تتّسع مجالاتها من عصر إلى آخر، وتستمدّ من الحضارات القديمة وتتمثّلها أحسن تمثُّلٍ فتؤسّس حضارة جديدة هي أساس الحضارة المعاصرة. وما كاد ينتصفُ القرنُ الرّابع الهجريّ أو ينتهي حتّى تقلّص ظلُّ الفصحى تقلّصا شديدا، حتّى في البوادي، وبعدت الشُّقَّةُ بين اللّغة المكتوبة واللغة المنطوقة، واختصّت العاميّة أو العاميّات بالشارع والمنزل اختصاصا كاملا تاركة للفصحى مجال الرّسميات والتدريس والتأليف في مختلف ميادين المعرفة. وممّا ساعد على ذلك أو كان السببَ الرّئيسَ فيه انحلالُ الدولة العربيّة وانقسامُها إلى دويلات في المشرق والمغرب. فنشأت لهجات محلّيّة مختلفة باختلاف وضعها الجغرافيّ والتاريخيّ ولغتيها الأصليّة والمجاورة لها وتعاقبِ الحضارات القديمة عليها ومدى تأثيرها فيها.

طاف الرحّالة الشهير أبو عبد الله المقدسيّ (نسبة إلى بيت المقدس) البَشّارِيّ (ت.375 هـ) طاف بالبلاد الإسلاميّة فوصف أحوالها ولهجاتها وما تتميّز به، ولاحظ أنّ الفُرْس خير مَنْ يتكلّم العربيّة آنذاك. ومعنى ذلك في نظرنا أنّ الفُرْس عادوا إلى لغتهم الأصليّة فإن استعملوا العربيّة استعملوا الفصحى أو ما هو أقرب إليها. كما لاحظ أنّ لهجات المغرب لا تكاد تُفهَمُ. وذلك طبيعيّ لأنّ المغرب لم تشمل العربيّة رُبوعَهُ إلاّ بنزوح الهلاليّين إليه. بَيْدَ أنّ لغة الهلاليّين وسُلَيْم كانت في القرن الرابع إلى العامّيّة أقربَ منها إلى الفصحى. وقد أورد منها ابنُ خلدون في مقدّمته نصّا شعريّا لا يكاد يُفْهَمُ لبُعْده عن العربيّة. ولمّا استولى السلاجقة على الحكم جعلوا اللّغة الفارسيّة لغة رسميّة بل لغة الأدب والشعر والعلم. وألّف بها الكثير من العلماء حتى أبو حامد الغزالي نفسه (ت. 505هـ) والوزيرُ نظام المُلْك الطوسيّ (ت.458). ألّف الغزالي "نصيحة الملوك" في الردّ على الإسماعيليّة النزاريّة، وتُرجِم إلى العربيّة بعنوان "التِّبْر المسبوك".وصنّف نظام الملْك "سيرة الملوك" (هِدْيَة العارفين:277/5). وضعُفت الملكة العربيّة عند الخاصّة والعامّة في أرجاء العالم الإسلاميّ كلّه فاستغلقت النصوص القديمة على المتعلّمين. وذلك ما جعل أمثال التبريزيّ والمرزوقيّ والعكبريّ (عبد الله بن الحسين) وغيرهم كثير، يبذلون الجهود المضنية في شرح العديد من الدواوين والمصنّفات العلميّة الشهيرة. وتوالت المحن على البلاد كالأوبئة والاضطرابات المتواصلة والانحلال الناتج عنها والحروب الصليبيّة إلى أن اكتسح السيل المُغوليّ الخلافة العبّاسيّة سنة 656هـ فكانت القاضيةُ. خُرّبتْ بغداد وحضارتها والمكتبات الزاخرة ومحتوياتها وأحرقت الكتب أينما وُجِدَت وهلك خلق كثير لا سيّما العنصر العربيّ. ولم يبق في الأمبراطوريّة الإسلاميّة الواسعة دولة عربيّة واحدة تستحقّ الذكر. وإنّما انحصرت سيادة العرب في اليمن والمغرب. لكنّ اللغة العربيّة الفصحى صمدت لكلّ هذه النكبات والمحن وبخاصّة في مصر والشام لأنّها كانت لغة الدين والثقافة وبفضل من بقي بسوريا من أمراء الأيّوبيّين كصاحب حَماةَ الملك المؤيّد عماد الدين إسماعيل الأيّوبيّ العالم المؤرّخ المعروف بأبي الفداء (ت. 732هـ) بل نبغ فيها الشعراء والأدباء والعلماء والمؤلّفون في كلّ فنّ. حتّى المغول الذين هدموا

الحضارة العربيّة الإسلاميّة لم يستطيعوا النيل من الفصحى وكانت آثارهم العلميّة بها. وكان من شأن هذا الوضع أن يُنعش العامّيّات ويوهِن الإبداع الفنّيّ وروح المبادرة العلميّة الخلاّقة ويجعل العلماء عالة على القدماء يجترّون ما لُقّنوا ويغلقون باب الاجتهاد في الوقت الذي فتحه الغربيّون لأوّل مرّة، مستغلّين غفلتنا وما أخذوا من علمنا وحضارتنا. فضعُف في العرب، أو ما بقي منهم ملكة العربيّة التي كانوا يفخرون بها، ولجأوا إلى الصنعة يسترون بها عوراتهم فعمّ السجعُ نثرَهم وغلبت عليه المحسّنات البديعيّة واقترب أحيانا من التعبير العامّيّ. وبقي الإنتاج الفنّيّ والفكريّ كذلك إلى عصر النهضة الحديثة في أواخر القرن التاسع عشر الميلاديّ.

في مُنْسَلَخ القرن السابع الهجريّ ظهر العثمانيّون بآسيا الصغرى وأجلوا عنها السلاجقة وفتحوا القسطنطينيّة وبعض البلاد الأوروبيّة وافتكّوا سورية ومصر من أيدي المماليك الشراكسة وخلعوا المتوكّل على اللّه فكان بذلك آخرَ الخلفاء العبّاسيّين. واحتلّوا العراق والحجاز واليمن وتونس والجزائر. وجعلوا التركيّة اللغة الرسميّة بعد اعتمادهم في أوّل أمرهم على العربيّة وعلى العلم العربيّ. فانحطّت الفصحى على عهدهم انحطاطا لم يسبق له مثيل وخيّم الركود على العقول العربيّة وانتشرت الأمّيّة انتشارا مشؤوما وخلا الجوّ للعاميّات فصالت صولتَها. ولَمّا خرج المسلمون من الأندلس بعد ثمانية قرون من احتلالها وبعد انحلال سياسيّ اجتماعيّ شامل نزحوا إلى المغرب الإسلاميّ بلغة دارجة تكثر فيها الكلمات والصيَغ الأعجميّة وعنهم أخذنا هذه اللغة الهجينة التي تمثّلها أزجال ابن قزمان وأضْرابِه. وجاء الاستعمار الغربيّ فزاد في الطين بِلّة ولم يَنْزَحْ إلاّ بعد أن ترك آثارا عميقة عُزِيَتْ إلى الحضارة والتّمدُّن. والحقيقة أنّنا المسؤولون عن كلّ ما أصابنا. فقد نِمْنا سبعة قرون.

ما سبق بيّن لنا، بما لا يتطرّق إليه الشكّ، أنّ اللغة العربيّة تطوّرت في اتجاهين

- تطوّرت في كنَف القرآن والشريعة الإسلاميّة فحافظت على سماتها البارزة في المجالات الصوتيّة والصرفيّة والنحويّة والتركيبيّة وواكبت العصور التي مرّت بها بكلّ ما أوتِيَتْ من ثراء وعبقريّة، واستوعبت حضارات الأقدمين وثقافاتهم وجزءا

صالحا من المعارف المعاصرة. وهي الآن خير صلة بين الأقطار العربيّة وبينها وبين العالم. وحافظت، في مجملها، على معياريّتها الأساس لكنّها تطوّرت تطوّرا واسعا على مرّ العصور فتخلّصت من مادّتها اللغويّة التي لم تعد صالحة للعصر وحافظت، قليلا أو كثيرا على ما أمدّتها به الحضارة العربيّة الإسلاميّة في أوْج عزّها وعلى ما اقتبست من الحضارة المعاصرة التي تتوق إلى استيعابها في أوسع أبعادها مع المحافظة على عبقريّتها وأصالتها.

- وتطورت تطوّرا طبيعيّا حُرّا فقدت فيه الكثير من مميّزاتها وتعدّدت لهجاتها وكادت تكون لغات متباعدة تباعدَ الفرنسيّة عن الإسبانيّة والإيطاليّة وأصلها واحد. لكنّها احتفظت بمادّتها اللّغويّة بنسبة جدّ عالية تتراوح بين الثمانين والتسعين في المائة. وقد تكون المادّة عربيّة أصابها من التحريف ما يحجُب عن الباحث أصلها الحقيقيّ. وسنعود إلى هذه القضيّة ببعض الأمثلة.

فقدت الإعراب كغيرها من لغات العالم إلاّ فيما ندر. وقيل إنّها استغنت عنه منذ زمن بعيد. وبذلك اختلفت بعض تراكيبها عن تراكيب الفصحى في مواضع معيّنة دَرْءًا للّبس. ولا أريد أن أتجاوز العاميّة الجزائريّة العربيّة، وفي محيط ضيّق، لأسباب كثيرة. منها :

- جهلي بغيرها واتساع رقعة اللهجات في البلاد العربيّة وكثرة الاختلافات فيها على جميع الأصعدة. وقد عدت إلى بعض الدراسات وبعض المعاجم العلميّة وغير العلميّة وقارنت بين الأسماء الدّالّة على شيء واحد فهالني الأمر. وجدت في بعض الأحيان أكثر من خمسة وعشرين اسما للشيء الواحد.

- كثرة اللّهجات في اللغة الدارجة الجزائريّة، وعلى جميع الأصعدة أيضا. يكفينا في ذلك أن نستمع إلى أحاديث النساء والصبيان لأنّهم أكثر حفاظا على اللغة المحلّيّة وطريقة الأداء بها، نستمع إليها في مختلف المدن والأرياف، من وجدة إلى القالة ومن عين صالح الى جيجل. نجد أنفسنا عاجزين عن وصفها وعن الإحاطة بها.

وقديما قيل: "لايحيط باللغة إلاّ نبيّ." وندرك، بإنعام النظر، أنّ اللهجات الجزائريّة موجودة كلّها في اللهجات العربيّة القديمة، وأنّ ما نظنّه غير عربيّ **معظمه** عريق في الفصحى. إنّما دخله تغيير ظاهر أو خفيّ لا يدركه السامع إلاّ بإعمال الفكر والرّجوع المستمرّ إلى المعاجم العربيّة وغير العربيّة وإلى الدّراسات المتخصّصة. وقد تتغيّر دلالة اللّفظ الفصيح بالتوسّع والمجاز والكناية والتهكّم وغير ذلك من أساليب البلاغة. تتغيّر ضرورةً لأداء معنى جديد يتطلّبه العصر أو الحاجة أو للجهل بأصلها في اللغة الفصيحة.

وقد كنّا قمنا، في نطاق مشروع بحث جامعيّ ثلاثيّ الأعضاء، بدراسة لهجة أو لهجات الهضاب العليا أرجعنا فيها إلى الفصحى ما يظهر غير عربيّ أو ما يُجْهَلُ أصلُه فاكتشفنا ما لم نكن ننتظر من النتائج. واستغرقت الدّراسة حوالي 400 صفحة. ولم نعتمد في ذلك إلاّ على ما نعرف من اللغة. ولو مسحنا النّاحية مسحا ميدانيّا حقيقيّا شاملا لكان العمل أوْفى وأدقّ. وأردفنا البحث الأوّل ببحث ثان مطبوع تناولنا فيه أبرز لهجات الزيبان (ولاية بسكرة). ولعلّ الدّكتور محمّد خان العضو الأساس فيه يعطيكم نبذة وجيزة عنه.

وزال منها تحقيق الهمز كما زال في قراءة وَرْشٍ. فلا تجد كلمة مهموزة إلاّ فيما ندر. وتصرّفوا في اجتناب الهمز بطرائق عديدة. بالتخفيف مثل " لا باس عليهْ، والمومنين " في " لا بأس عليه، والمؤمنين" أو بإبدالها واوا أو ياءا مثل " وَذْنيه، والتايبين، والخايفين" في "أُذُنَيْهِ والتائبين والخائفين"، أو بتغيير الصيغة:"ماكل أو كالي، ماجي أو جاي" في آكل وجاءٍ بمعنى آتٍ" أو بالنطق بها بَيْنَ بَيْنَ أو بوسائل أخرى.

ولم يبق في الدارجة تثنية إلاّ نادرا وفي البوادي :"شريتْ نعجتِين". أمّا في أعضاء الجسم فالمثنّى صوريّ " ستّ يْدينْ، عشْر عَيْنِينْ، الرّجْلِينْ..."

ولا يوجد المبنيّ لما لمْ يسمّ فاعلُه إلاّ في النـزْر القليل وفي البوادي " سْرُقْتْ، غْلُبْتْ خْدُعْتْ..." مع إشمام الحرف الأوّل ضمّة. وقد يُؤْمر بالمبنيّ للمجهول خلافا لقواعد الفصحى. تقول للماهر في لعب من الألعاب لم يقهره أحد:"اغْلُبْ ولو كان مَرّه!"

أمّا التأنيث في ضمائر الجمع المتّصلة والمنفصلة فقد زال ومنه ما هو في طريق الزوال في بعض النواحي (في بوادي ولاية سُوف مثلا ما زالوا يستعملون نون النسوة؛ يقولون : ادخلنْ، اخرجنْ، اكتبْنْ).

ولم يبق من الذي وما إليه من الموصولات إلاّ اللّي وذلك منذ أكثر من أحد عشر قرنا أو يزيد.

أما الميزان الصرفيّ فقد ضاق مجاله بالنسبة إلى الفصحى وغلب فيه الفتح على الضمّ والكسر لا سيّما فيما يُدْعى بالصحيح. تقول يَجْلَسْ ويَعْرَفْ وجالَسْ وعارَفْ عِوَضَ يجلِس ويعرِف وجالِس وعارِف، وغير ذلك كثير معروف. وقد نصّ القدماء على أنّ الفتحة أخفُّ الحركات.

وممّا يبعد العامّيّات الجزائريّة عن أصلها العربيّ مطْل الحركات أو عدمه في غير محلّهما والقلب المكانيّ وكثرة الإبدال في بعض الحروف والتّضعيف حيث لا تضعيف والزيادة والنّقص في الكلمة والجملة وغير ذلك ممّا يبعد لغة التخاطب العاديّة عن أصلها الفصيح وممّا لا يمكن تفصيله في مثل هذا المقام.

أمّا على المستوى الصوتيّ وبالأخصّ ما تعلّق ببعض الحروف فقد لاحظ ابن خلدون في مقدّمته (1075-1080 الط. الثالثة، بيروت،1967) أن النطق بالقاف قافا كما ينطق بها في الحواضر أو غينا (مناطق السهوب الجزائرية والسودان وما إليها) أو شبيها بالنطق بها في بوادي الهضاب العليا واليمن وكثير من البلاد العربيّة أو كافا (جيجل) أو كأنّها كاف كلّ ذلك عربيّ مضريّ لم نزد على أن قلّدنا القدماء فيه. وفي اللّهجات الجزائريّة بقايا من اللغات الأجنبيّة التي عرفها المغرب بالدلالة الواسعة

للّفظ، شأنها في ذلك شأن لغات العالم كلّها تُمِدّ وتستمدّ. وهذا لا صلة له بموضوعنا. إنّما يهمّنا ترقيَة لغتنا وتنقيتها ممّا يَشينها وتقريبها من أصلها ومن غيرها من اللهجات العربيّة المعاصرة.

إنّ الشعب الجزائريّ طبقات: حاضر لغته فقيرة، مزيج من لغات كثيرة. وقد لاحظ ذلك ابن خلدون في كلّ الحواضر التي عرفها والقدماءُ وما زلنا نلاحظها اليوم، وبادٍ لغتُه أخصبُ وأنقى. وفي هذه الطبقات أيضا : أمّيّ ومثقّف. والمثقّفون أنواع : منهم من لا يعرف معرفة حقيقيّة إلاّ لغة واحدة : العربيّة أو الفرنسيّة – في الوقت الراهن - لقرب عهدنا بالاستعمار الفرنسيّ ولأنّ بعض الموادّ ما زالت تدرّس في الجامعة بالفرنسيّة. ومنهم مزدوجو اللغة أو متعدّدوها. وقد حدث بعد ثورة التحرير وبعد فترة قصيرة من الاستقلال انقلاب بدأ يعطي أولى ثماره بتعميم التعليم وبتعريبه في معظم الموادّ الدراسيّة. فلم يبق من الشباب والكهول إلاّ القليل ممّن لم يساعده الحظّ في التزوّد بمبادئ الفصحى. وقد لاحظتُ كما لاحظ غيري تحسُّنَ مستوى الخطاب في المنزل والشارع والمؤسّسات العلميّة والإداريّة وغيرهما. قلّما نجد اليوم في المنزل من لا يفهم نشرة الأخبار والموائد المستديرة لا سيّما ما تعلّق منها بالقضايا الكبرى التي تهمّه بالدرجة الأولى والأحداث الجارية في العالم. وقلّما نسمع في الشارع من يقول الكارْ، والكاميو، والطومابيل والبسيكلات. وكانت تلك لغتَنا الغالبة في طفولتنا وشبابنا. إنّما نسمع الولد والكهل الذي لم يختلف يوما واحدا إلى المدرسة يقول: الحافلة، والشاحنة، والسيّارة، والدرّاجة. ومن الواضح أنّ الخطاب اليوميّ في تحسّن مستمرّ بفضل التعليم والوسائل السمعيّة البصريّة التي قرّبت البعيد ووصلت المنفصل وجعلت العالم على سعته، قريةً واحدة أو كالقرية الواحدة. واللّغة تختلف من جيل إلى آخر باختلاف الظروف الثقافيّة والحضاريّة والاجتماعيّة والسياسيّة فتولَد كلمات وتموت أخرى أو تتغيّر دلالتها، والأجيال تتعاقب بحكم سُنّة الله في خلقه فلا تترك من لغتها إلاّ الأصلح للبقاء، ونعني به ما كان صالحا للبيئة الجديدة طبيعيّة كانت أم ثقافيّة. والفرْق بين لغتنا ولغة سَلَفِنا الأقرب إلينا بادٍ للعيان. ما علينا إلاّ أن ننصت في

الآونة الرّاهنة إلى رؤساء الأحزاب يدافعون عن برامجهم ويشرحونها، في كلّ أرجاء القطر، ونقارنها بما كنّا نسمع في حِقَبٍ غير بعيدة لـ بى البَوْنَ الشاسع بين المستويَيْنِ في خطاب الجماهير. وقد عرفتُ في أواخر الستّينيّات وأوائل السبعينيّات وزيرا درس الطبّ ودرّسه بالفرنسيّة ولم يعرف في صباه إلاّ الأمازيغيّة. وكنت أسمعه يتحدّث عن شؤون وزارته بلسان عربيّ يستدعي الإعجاب. وكان استعمال الفصحى أو لغة عامّيّة راقية مفروضا آنذاك. فبذل المسؤولون في الإدارة العامّة والخاصّة وفي الهيئات الدّستوريّة وغير الدستوريّة جهودا غالبا ما كُلِّلتْ بالنجاح أو قطعت شوطا بعيدا في هذا المضمار. ولم تبق اللّغة الأجنبيّة مستعملة إلاّ في الاجتماعات الإداريّة البعيدة عن الأسماع والأنظار.

لكنّ هذه العزيمة أصابها فتور يكاد يكون شاملا. فضعف مستوى الخطاب العامّ وصارت اللغة هجينة لا شرقيّة ولا غربيّة أو هي شرقيّة غربيّة (جزء من الجملة عربيّ وآخر فرنسيّ) أو غربيّة محضة. وأكثر ما يكون ذلك في المدن الكبرى. ومن الكلمات المأثورة: " إذا رأيت خطابا لحمتُه عربيّة وسَداهُ فرنسيّ فاعلمْ أنّ صاحبه جزائريّ". والأَوْلَى أن يقال "جزائريّ حضريّ" لأنّ سكّان البادية، لا سيّما أهل السهوب، لا يمزجون لغة بلغة لأنّ معظمهم لا يعرف إلاّ لسانا واحدا. يوجد عبر العالم شعوب يتكلّم أهلها عدّة لغات. ولا ضَيْرَ على المُواطن أن يختار إحداها ليخاطب غيره في غير المجال الرسميّ المحميّ بالدستور. أمّا أن يمزج لغته بلغة أجنبيّة في الجملة الواحدة لكسل فكريّ أو لعادة استفحلت فانقلبت فطرة أو لنقص في التّكوّن أو في اللغة أو في الأداء أو لِتَباهٍ بلغة فرضت وجودَها فذلك البلاء المبين لأنّ ما جُهِلَ بعضُه لم يُدركْ كلُّه ولأنّ العيب يبقى عيبا. والحقيقة أنّ كلّ هذه الأسباب موجودة في مجتمعنا والغاية من ملتقانا أن نفكّر معا في الوسيلة أو الوسائل الأنجع لمكافحة هذا العيب المستشري في ربوعنا ولتكون لغتنا أصيلة، مشرّقة لنا، مُمَثّلة لهويّتنا.

فكّرتُ كثيرا في القضيّة فلم أجد لها حلاّ سحريّا، ورأيت أنّ الحلّ الأنجع الدائم ما كان طبيعيّا يتوخّى منطق الأشياء والإرادة الصادقة والمثابرة وطول الوقت. لا يكمن الحلّ في الانطلاق من اللّهجات العامّيّة الراهنة التي نعجز عن حصرها بَلْهَ التأثير فيها. فهي نتيجة تطوّر العربيّة الحرّ وستظلّ تتطوّر بكلّ حرّيّة في مسالك لا يعلمها إلاّ الله، لأنّها رهن الغيب. واللّهجات كالكسور الاعتياديّة في الحساب لا يمكن جمعها إلاّ بتوحيد مخارجها، وكالكثير من العمليّات الجبريّة لا تكون ممكنة إلاّ باستخراج عاملها المشترك. وبما أن العاميّات العربيّة منحدرة من الفصحى فالفصحى هي التي توحّد مخارجها وهي عاملها المشترك. ولا يوجد مثقّف جزائريّ يحسن العربيّة أو يجيدها لا يفهم قليلا أو كثيرا لهجة جزائريّة منحدرة من الفصحى. لكنّ العكس غير صحيح. فمن غير الممكن إذنْ أن ننطلق من الشتات.

رأينا أثر المدرسة الجزائريّة في رقيّ لغة الخطاب وفي زوال الكثير من الألفاظ الموروثة عن حقبة الاستعمار وذكرنا أمثلة من ذلك، وقلنا إنّ جيل الاستقلال وهو اليوم في كهولته، تحسّن مستواه اللغويّ فلا تعجزه، في أغلب الأحيان، اللغة التي تنشر بها الأخبار في الوسائل السمعيّة البصريّة. وظهرت طائفة من المبدعين في فنّي المسرح والسينما ومن الكتّاب والشعراء المرموقين الذين نقلت آثارهم إلى كثير من لغات العالم.

ويجلس الجزائريّ، اليومَ، صغيرا كان أم كبيرا، ليشاهد في التّلفاز مباراة في كرة القدم أو في غيرها فلا يسمع إلاّ لغة واحدة فصيحة بسيطة تعوّدها فارتاح إليها وتبنّاها. يسمع ويرى : الهدف والهدّاف والمرمى وحارس المرمى والرّكنيّة والتّماسّ والمدافع والمهاجم والملاكم والضّربة القاضيَة وغير ذلك من الألفاظ التي لم يكن الجمهور المشاهد يسمعها أو يعرفها قبل الاستقلال.

لو طلبت من هذا الجيل المتخرّج من المدرسة الجزائريّة بعد تعريب مرحلتيها الأولى والثانية، لو طلبت منه أن يخاطبك بلغة عاميّة مهذّبة لا هي فصحى بأتمّ معنى الكلمة ولا هي عامّيّة مبتذلة مخجِلة لَلَبّى رغبتك وكان عند حسن ظنّك إلاّ في الميادين

التي لم يتمرّس بها لا في مؤسّسات التعليم ولا في الحياة العاديّة. وكيف يستغني عمّا لم يسمعه إلاّ بالفرنسيّة أو بلغة أخرى، ممّا هو يُمازجُ لحياته ولا يستطيع العيش إلاّ به؟

كيف يسمّي بغير الفرنسيّة أنواع الأسماك وما إليها ممّا اعتاد أكله مثل (merlan, rouget, mérou, pageot, dorade, crevette…) وكيف يدعو الأدوات المنزليّة وغير المنزليّة التي يباشرها كلّ يوم ولا يعرف لها لفظا عربيّا؟ وهذا يقودنا إلى التفكير في سياستنا التعليميّة ويبيّن لنا بكلّ وضوح أنّ المادّة التعليميّة لا توافق العصر وأنّ البيئة التي يتقلّب فيها الولد والراشد تتحدّاه في كلّ ثانية فيستنجد بلغة غيره المفروضة عليه، المستعبِدة له لأنّه لا يعرف غيرها في الميادين الحضاريّة المستحدثة. والأمثلة على ذلك كثيرة، جِدُّ كثيرة فلا داعي إلى ذكر نماذج منها.

ولا يعني ذلك أنّ ألفاظ الحضارة غير موجودة في معاجمنا، فقد قامت المجامع العربيّة في المشرق والمغرب والمؤسّسات العلميّة والباحثون الغُيُرُ على أوطانهم وهويّتهم قامت بدور كبير في هذا المجال. فتعدّدت المعاجم العامّة والمتخصّصة، مزدوجة اللغة وثلاثيّتها. لكنّها غالبا ما تبقى مكدّسة على الرُّفوف وقليلا ما يُنْتَفَعُ بها لأنّ الذين أعدّت لهم شغلتهم عنها الشواغل أو لَمْ يدركوا أهمّيّتها . ولو قُدِرَ جهدُ العلماء العاملين حقَّ قَدْرِهِ لَوُفِّرَتِ الوسائلُ لنشرها في المدارس وغير المدارس ولاجتنبنا الهجنة في خطابنا اليوميّ فلا نقول: " ركّب لي لَبْياسَه، وهات المانيفيل، وزيدْ لي لَكْريكْ، وَاعْطِ لي التُّورَنْفيسْ"، وهكذا دواليْك: كلمة عربيّة وأخرى فرنسيّة، مع أنّ الألفاظ المذكورة يوجَدُ لها مقابِلٌ في العربيّة أو وجدوا لها مقابلا مُقْتَرَضا أو مُعَرّبا بما يوافق معايير اللّغة وعبقريّتها أو موضوعا ابتداءا.

ولا أدّعي أنّ ما سُمّيَ بألفاظ الحضارة يمكن حصرُه ونقله إلى العربيّة بوجه من الوجوه لأنه أوسع من أن يحصَرَ ولأنّ كلّ يوم يأتينا بجديد وفي كل المجالات. وهذا موضوع آخر نتركه للمتخصّصين. إنّما يهمّنا ما يباشره العامّ والخاصّ يوميّا وما هو لصيق بالحياة المشتركة بين أفراد المجتمع. يهمّنا أنْ تكون لغة التواصل الشفويّة خالصة ممّا يشينها، مؤدّيَة لوظيفتها، بسيطة، مستساغة.

ولا أزعم أنّ العربيّة الفصحى قادرة على أن تحلّ محلّ العاميّة. فلكلّ مجاله ومستواه وخصائصه. وما تؤدّيه اللّغة الدارجة من خلجات القلب، وما لها من أثر في النفس ومن إيحاءات وهالات محيطة بألفاظها ومعانيها لا نجده في الفصحى. والعكس صحيح. لأنّ الفصحى لم تصلنا إلاّ مكتوبة واللغة أصوات كما يقول ابن جنّيّ. وقصارى جهدنا في تأديَة معانيها أن ننطلق من العاميّة التي نمارسها ليل نهار ونعرف الكثير من أسرارها فلا نكاد ننجح. لا نزيد في الفصحى على مدّ ما يمدّ وقصر ما يقصر من الحروف. وقد سألت أحد أصدقائي ذات يوم عن الجملة: " جاء محمّد وعليّ وصالح وعُمَرُ". قلت له : "أتفهم هذه الجملة"؟ فقال لي "وما يُشْكِلُ عليك فيها"؟ فأدّيتها بطريقة ثانية. فتبيّن له أنّ الدّلالة اختلفت. ثمّ بطريقتين ثالثة ورابعة. فتغيّر المعنى بطريقة الأداء . ولمّا عدت إلى المنزل وفكّرت مليّا في السياقات التي يمكن أن تدخل فيها هذه الجملة البسيطة وما يلائم كلّ سياق من أداء. فبلغتُ عشر دلالات أو يزيد. والأمثلة على ذلك كثيرة في ميادين شتّى من العاميّة. والعاميّة متأصّلة في المحيطين الطبيعيّ والثقافيّ متمكّنة من الشعب، تفرض نفسها عليه فرضا لأنّها مرآة حياته ولأنّه لا يرى نفسه إلاّ في هذه المرآة.

هدفي الوحيد تنقية لغة الخطاب من الهجنة لئلاّ تكون "ثَوْبًا ضمّ سبعين رقعة" كما قال حافظ إبراهيم. فذلك يَشينها ويُزري بنا. والوسيلة المثلى لتحسين لغة الخطاب تكمن في المدرسة ومحو الأمّيّة وتحسين البرامج بجعلها ملائمة للحياة اليوميّة المعاصرة وجعل التلميذ لا يعجز عن تسمية أيّ شيء وأيّ أداة له بها أوثق الصلات. كأثاث المنزل وأدواته وما يتّصل بها ممّا وفّرته له الحضارة في سكناه وفي الشارع ومؤسّسات التعليم وفي البريد والمواصلات وما إلى ذلك ممّا لا يسمعه إلاّ بلغة أجنبيّة فيضطرّ إلى المزج بين اللغات في الجملة الواحدة. لا نظلمْ أولادنا ! إنّهم يُرجِعون إلينا ما أعطيناهم. ولا نظلم الراشدين فقد اضطُرّوا إلى ركوب الصعب بما لم يُوَفّرْ لهم في برامج تعليمهم أو بعدم الرّعاية لحقوقهم إن لم يختلفوا قطُّ إلى مؤسّسة تعليميّة تربويّة.

المدرسة هي الوسيلة الوحيدة للرّفع من مستويات الخطاب بوسائل بشريّة قادرة على أداء مهمّاتها وماديّة لا مناص من توفيرها لبلوغ الأهداف القريبة والبعيدة، وسياسة تعليميّة رشيدة تتوخّى متطلّبات الواقع المَعيش ومقتضيات الحضارة المعاصرة. ومن أهمّ عناصر هذه السياسة :

- السّهر الدائب الجادّ على تطبيق القوانين الدستوريّة وعلى تحسين مستوى لغة الخطاب في كلّ المحافل وعلى جميع الأصعدة.

- تحسين البرامج المدرسية بما يوفّر للتلميذ نصوصا معاصرة تتناول شؤون حياته اليوميّة وتزوّده بلغة وظيفيّة تجنّبه المزج بين اللغات في الحياة العاديّة.

- تبسيط التعليم وقصره في المرحلتين الأوليين على ما يصلح لسانه ويهذّب لغته واجتناب ما يرهقه من القواعد التي لا داعي إليها.

- تنمية روح المطالعة وتعميمها بتوفير المكتبات في البلدان والقرى وأقسام الدراسة وبتشجيع حركة الترجمة من الآداب العالميّة لتزويد الطفل والمراهق بما يكفل له مادّة غزيرة من النصوص، فإنّ أدب الطفل، مهما قيل، ضحْل في الأقطار العربيّة.

- تعويد التلاميذ على حفظ النصوص وفهمها واستغلالها في التحرير والتعبير فهي خير ما يقوّم لسانه وما يجعل لغته تجمع بين الأصالة والحداثة.

- تعليم اللّغات تعليما حقيقيّا يفتح للمواطن آفاقا واسعة ويجعل منه خير صلة بين ثقافة أهله وثقافة البشريّة وخير مشارك في بناء حضارة عصره.

_ استغلال الوسائل السمعيّة البصريّة استغلالا عقلانيّا وتحسين مستواها بما يعود بالنفع العميم على كلّ مواطن.

-السعي الحثيث على محو الأمّيّة. فالأمّيّة أصل ما نعانيه والعائق الأكبر في سبيل ما نصبو إليه.

وصفوة القول أنّ الفصحى هي الوسيلة الوحيدة للرّقيّ بمستوى لغة الخطاب بشرط أن تكون وظيفيّة لصيقة بالحياة اليوميّة، ملبّيَة لمتطلّبات العصر، وأن تُؤسّس في تعليمها على قواعد علميّة تجعلها سهلة المنال. **وهي خير صلة بين الناطقين بها وبينها وبين العامّيّات العربيّة مهما كانت وأنّى كانت، بشرط أن تكون مبسَّطة مشتركة خفيفة على المتكلِّم والسامع.** لكنّ تحقيق هذه الغاية وعرُ المسالك بعيد المرامي يتطلّب تظافر الجهود والعزيمة الصادقة. بل لن تتحقّق هذه الغاية إلاّ شيئا فشيئا وبعد أجيال. **وما علينا أن نغرس فيأكلوا؟**

مسير لغة العرب في كشف سيميائياتها الصميمة.

تحديث مفاهيم وصفها ومناهج تعليمها لصالح الأجيال القادمة

أ.د .أمين عبد الكريم / ميشال باربو

جامعة ستراسبورغ - فرنسا

اللغة العربية واحدة مهما اختلفت اللهجات القديمة والحديثة التي شكّلت هويتها عبر الأزمنة .تلك التي سمّيت" الفصحى "كانت أصلا مجموعة لهجات متميّزة كرّسها التاريخ والدين الإسلامي ورفعاها إلى مرتبة لغة ثقافية للعرب القدامى، ثم للشعوب التي عرّبت عند ضحى الإسلام .لقد شاعت فكرة خاطئة تزعم أنّ اللهجات المعاصرة ناجمة من فساد اللغة الفصحى بيد أنها تشكّلت وتطوّرت إثر اختلاط الجنود الفاتحين في مختلف المخيّمات والمعسكرات، ومن جرّاء احتكاكهم بالأهالي .إنّ التباينات اللسانية القديمة بين القبائل العربية تعقدت أكثر وأكثر من خلال تقلبات التاريخ وتطوّر الأفراد والمجتمعات المعنية .في هذا الصدد نذكر أن التطوّر " هو تثبيت الزمن في بنى) "لابوري ، ألخيمياء الاكتشاف .(فاللهجات المعاصرة تعكّس ماضي الناطقين بها ، ولا تنفكّ تتحوّل تحت تأثير عوامل الحياة المتقلّبة .

من جهة ثانية ، إحدى خصائص اللغات السامية - والعربية تنتمي إليها – ثبات البنى الصرفية تحت ظواهرالتغيّرات السطحية .من ثمّ وحدة لغتنا معتمدة على ديمومة بناها المختلفة ، ويكفينا أن نقارن بينها وبين تباعد اللغات واللهجات المنحدرة من اللاتينية حتى يتبيّن التقارب الصميم بين اللهجات العربية .هذا الثبات استثنائي في تاريخ اللغات البشرية .هل يرجع ذلك إلى أنّ الفصحى هي لغة تنزيل الكتاب الكريم وختم النبوّة ؟ هاهي حقيقة بديهية تقنعنا نحن المسلمين إلا أنها لا تقنع الآخرين، كذلك يحتجّ العرب مرارا بمتانة نحوهم، ولاسيّما بغنى المعجم الفصيح وضخامة القاموس العربي .هذه حجج لا يقرّ بها المستشرقون، فينكرون علينا هذا الطابع الاستثنائي .لماذا ؟ لأنهم قارنوا النحو العربي بأنواع أخرى من النظم النحوية

وأكّدوا أنّ التصريف اللاتيني أو الإغريقي أو الفرنسي الخ أغنى وأدقّ من التصريف العربي .وأنّ محيط القاموس الفصيح ليس أعمق من الأخرى .على كلّ، ينبثق إنكار المستشرقين من اهتمامهم السائد بهيمنة النحو على جميع جوانب الكلام البشري، وعلى اتخاذ الألفاظ بمجرّد أدوات التعبير عن معان كلية تخصّ البشر أجمعين وتخضع لقوانين عامّة منتشرة في العالم أي لنحو" عالمي ."

تعترض على ذلك الزعم الاستشراقي دراسة معمّقة في المعجم العربي كتلك التي شرعت في إنجازها منذ1955 ، وانهمكت بها يوميّا منذ .1990 استغرق هذا البحث المستمرّ أكثر من 25.000 ساعة عمل شاقّ، وفي بعض الأحيان ليلا ونهارا . ولقلة الوقت ولاستحالة إلقاء محاضرة تفسيرية بعد الندوة كما كنت أقوم به سابقا، أرجوكم المعذرة عن كثافة المعطيات والعجلة المحتومة في التلميح إلى بعض الاستدلالات الضرورية .إني مضطرّ إلى ذلك ، فهاهي نتائج الاستعراض الشامل للمدلولات العربية المدوّنة والمرتّبة في المعاجم الكبرى .جميع الأدوات المفهومية مستمدّة منها بالاستقراء وبالاستنباط ...حتى التمثيلات الهندسية ليست مطبّقة بالغصب على حقائق اللغة : تشكّلت الجداول والرسوم البيانية والبنى الجبرية الخاصّة بنظريتي للالتصاق الصميم بالبنى المعجمية التي سلطت عليها ضوء البحث العلمي .

إنّ المعجم العربي خاضع للقواعد التي تعمل في تنظيم الصيغ الصرفية والمركّبات الصامتية(التي سمّوها" جذورا)"، وترتيبها في جمل الخطاب .يجري ذلك كله على المستوى السطحي ، حيث يسود النحو بأدواته ومفاهيمه التحليلية .أمّا المستوى العميق فهو الذي تنتظم فيه علاقات الألفاظ ، أي أدوات التعبير عن الأفكار والعواطف الإنسانية في قوالب رموز لسانية مترسّخة في النفسانيات والثقافات الفردية والجماعية. على هذا المستوى الأعمق من بناء اللغة، شيّد الناطقون هيكلا علائقيا شامخا عظيما لا مثيل له في سائر لغات البشر .أركانه وعواميده وحتى زخارفه كلها نحتت ونقشت طوال العصور على أسس سيميائية، أي بفضل تنظيم رموزهم الشفهية طوعا لرؤيتهم للكون .على هذا المستوى" المجهري "من النظام

المعجمي، لكلّ قيمة دلالية عماد صامتي يطابقها ، وهو مرتب على محور الـزمن، مـن خلال سلسلة ألفاظ تتقاسم نفس القيمة ونفس العماد الصوتي .ينبثق مـن ذلـك عـالم سيميائي متناسق على صعيدي الدالّ والمداول معا .إنه خاضع لمبـدأ نـسبي وهـو **مبـدأ الترابطية العامّة**، وثابتتها **مراعاة سهم الزمن**) أي : تتابع المركّبات الـصامتية ارتباطـا متصلا أو منفصلا ...(بالطبع لا أتكلم عن الصوامت الـصرفية و إنمـا عـن تلـك التـي تسمّى" جذرية ."

ثلاث مسلمات للنظرية :

.1عدم دلالة الصوامت بحدّ ذاتها -.

الوظيفة الدلالية ليست إيحـاء انطباعـات ذاتيـة غـير مقننـة في قلـب النـاطق والسامع، أي في النظام الجماعي .(هل نحتاج إلى تذكير ما يضاهي هذا الأمر في العلم الحديث؟ وهو أنّ العناصر ليست لها قيمة إلا من جرّاء علاقاتها المتبادلة .

2-تعتمد الدلالة على التباين المرتب على محور الزمن بين صامتين مختلفين -.

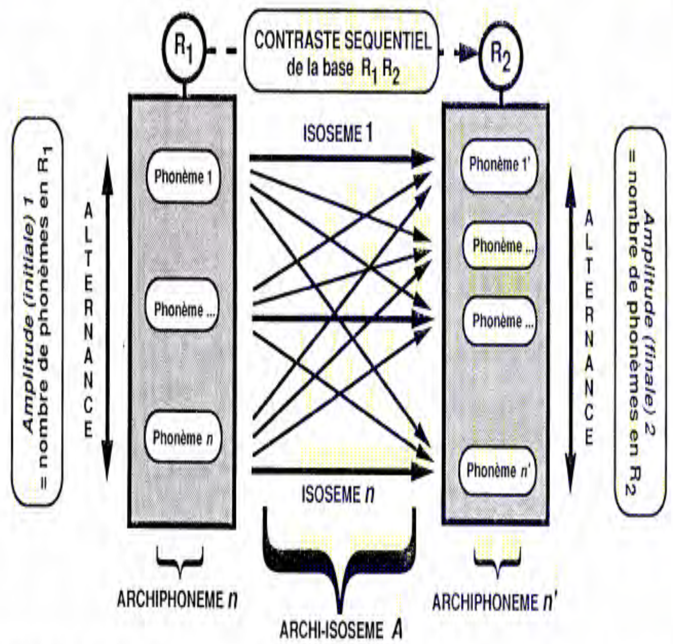
انظروا إلى المحور العمودي حيث تتنـاوب الـصوامت المتعاقبـة ، الملفوظـة في نفـس المخرج . وهذا يرجعنا إلى ما كان يسمّى" إبدالا "عند النحاة القدامى و"التـصاقب " في خصائص ابن جني – إلا أنّ مدى التناوب الـصامتي أوسـع بكثـير ولا يقتـصر عـلى أزواج كلمات مترادفة .(لقد سجّلت أكثر من 120.000 علاقة ثنائية من هذا النـوع إلى حدّ الآن ...

MESURES & CONCEPTS DE L'ANALYSE ISOSEMIQUE

الصورة الأولى

mb - Mai 1995

Ex. des séquences binaires (R_1 R_2)



R_1 = position initiale de radicale ; R_2 = position finale de radicale - R_1 R_2 = *base* (phonique) d'une *isosème*

Contraste d'amplitude (séquentiel) = *Amplitude 1 / Amplitude 2* (voir *Charge isosémique*)

Isosème = notion partagée par un certain nombre de signifiés lexicaux comportant la même base R_1 R_2

Une isosème [nom de notion] est dite "de base *x* R_1 R_2" (*x* = nb de séquences homophones : 0, 2, ..., *n*)

Densité isosémique = nb de paradigmes radicaux dont certains signifiés lexicaux appartiennent à une isosème *n*

Charge isosémique = nb d'isosèmes définissant l'archi-isosème *A* (= *Amplitude 1* x *Amplitude 2*)

Magnitude sémique = nb d'archi-isosèmes définissant le sémème d'un signifié lexical

3-لزوم تبرير كلّ عنصر من عناصر اللفظة المدروسة(هنا الصوامت الجذرية) بالجواب المدلل عليه على ثلاثة أسئلة مسبقة :

1) لماذا اختاروا هذا الصومت ؟

2) لماذا حدّدوا له هذا الموقع في اللفظة على محور الزمن ؟

3) ما هي وظيفته الدلالية المقننة في النظام العامّ ؟

ألحّ على ضرورة طرح هذه الأسئلة المسبقة ، ولا سيّما إزاء اللجوء التقليدي والاستشراقي إلى" الحروف الزائدة "في دراسة الرباعي مثلا .مقالاتي المنشورة والاستدلالات المضادّة لمثل تلك الزوائد المزعومة في أغلب الأحوال ...(هذه التطلبات المنهجية هامّة ولا مفرّ من طرحها ولا محالة إذا أردنا أن نتفهّم من أين جاءت لغتنا مع هويّتها التاريجية الحقيقية .سيسمح لنا المنهج المذكور أن نحافظ على حيوية هذا الزاد الثقافي الخالد الذي هو أثمن كنوز العروبة .سيعلمنا كيف نجعل هذه الطاقات التعبيرية والإيحائية الهائلة في خدمة الحاضر والمستقبل بفضل تحديث تلقين الحقائق اللسانية وتنقية المفاهيم الوصفية والمناهج التعليمية .فإعادة النظر في ما لا يزال قيّما وما يجب إهماله لأنه لا يوافق مقتضيات العالم المعاصر، ليس في ذلك من غضاضة أبدا .لا يبقى أيّ علم من العلوم كما كان عليه في القرون الفائتة .لا يصحّ ولا يصلح الاحتجاج بما كتبه يوما علامة ولو كان فريد عصره ، مثلما كان أطبّاء الغرب الكلاسيكي يحتجّون على المعاينة الجدّية والاختبار العلمي الصحيح باسم" قال كذا بوقراط "أو" قال كذا جالينوس ..."كلّ معرفة منزوية في منشئها التاريخي، مكتنزة في خزانتها المحفوظة من دون الاحتكاك المنشود بمحكّ الزمن، إنه مكتوب عليها بالفوات والإخفاق مهما كانت قيمتها وجدواها وصلاحيتها الفكرية والاجتماعية في أيّامها المنصرفة .إنّ إصلاح اللغات المحكية لا بدّ له من محاسبة التراث وتقييم الماضي وتكوين ...المقيّمين و إلغاء التشدّق الإيديولوجي العاقم .

أيها الإخوة ، سأطلعكم الآن على عدّة نتائج أبحاثي الأخيرة في المعجم الفصيح وبعض عواقبها على المستوى السطحي النحوي :

قبل كل شيء، على التحليل الحديث في المعجم أن يعرض عن تزويج الكلمات المقارنة(مسألة الإبدال أعلاه)هذه منهجية ناقصة تماما لا تأخذ تنظيم المعاني العربية في الاعتبارالضروري .بصفة عامّة، لا يدرس النحاة ولا الألسنيون ما يسمّى الآن "الحقول الدلالية "أو" الحقول المعجمية"، تلك التي تصوّر لنا آفاق الرؤية العربية لقيمة دلالية معيّنة .لا من حيث إشكالية الترادف مثلا أو تعدد المعاني، و إنّما قصد اتخاذ جميع العناصر المتفاعلة بعين الاعتبار .وكذلك على المحلل أن ينتبه إلى العوامل البراغماتية والاجتماعية والثقافية التي توضّح كيفية تشكل الألفاظ واندماجها في النظام المعجم. وفي هذا الصدد، أخطاء المنهجية القديمة – والسائدة إلى اليوم – لعديدة .

ومن أسباب الأخطاء التحليلية هيمنة التصوّر" السطري"،" الخطّي "للأصوات المتتالية ، ذلك الذي يحرّف الحقائق العلائقية كما سـ بى بعد حين. وههنا سبب آخر يترتب على السابق : هو التشبّث العنيد بنظرية **تقاليب الحروف** التي تنسب للخليل بن أحمد ، وقد ورثوها جميعا من دون إعادة النظر في المادّة المعجمية منذ ابن جني حتى يومنا هذا .ويجدر بنا ذكر التحليلات القبّالية اليهودية في الألفاظ العبرية وتأمّلاتهم اللاهوتية والفلسفية(والألسنية أيضا)بناء على ترقيم حروفهم وتقليبها حسب حاجات التأصيلات والتأويلات والاستنباطات والتشبيهات غير المثبتة ...قد تدخل اللغة بعض الهفوات اللسانية ، إلا أنه ليس معقولا – في العلم الحديث - أن يبنى نظام اجتماعي للتعبير والتواصل على مثل تلك الألعاب اللغوية الشكلية لا تثبتها الألسنيات الحديثة إطلاقا .وخاصّة في اللغات السامية حيث تتتابع المورفيمات المحشوّة بمراعاة سهم الزمن بينما يزعم التقليد السائد أنّ الصوامت الجذرية يتقلب ترتيبها على حسب تقدير القائلين ...لا تساير العمليات الدماغية السليمة مثل هذه الألعاب العقلية الموهومة .

MÉTATHÈSE, RÉVERSIBILITÉ DES ARTICULATIONS OU ORDRE SÉQUENTIEL ?

m. barbot - mars 2004

الصورة الثانية

Ex. *ƐaSṬaL / kalâm muƐaSṬaL* 'discours mal coordonné, incohérent"

ƐaSLaṬa(t)- kalâm muƐaSLaṬ "(tenir un) discours confus, embrouillé, non cohérent"

ƐaLSaṬa = ƐaSLaṬa

1°- ANALYSES TRADITIONNELLES (fondées sur le *décompte arithmétique* des phonèmes)

Ɛ SLṬ
Ɛ SṬL
Ɛ LSṬ

TROIS QUARTS des consonnes (radicales ou ajoutées / "incrémentées") se succèdent *en ordre différent* - D'où question MB : sur quoi repose la *synonymie* des trois racines ?

2°- Théorie du *Naḥt 'akbar* (fondée sur la COMPOSITION SÉQUENTIELLE GÉNÉRALISÉE)

Ɛ S Ṭ L : Ɛ – S - Ɛ ... Ṭ - Ɛ ... L - S – Ṭ - S ... L - Ṭ – L
Ɛ S L Ṭ : Ɛ – S - Ɛ ... L - Ɛ ... Ṭ - S – L - S ... Ṭ - L – Ṭ
Ɛ L S Ṭ : Ɛ – L - Ɛ ... S - Ɛ ... Ṭ - L – S - L ... Ṭ - S – Ṭ

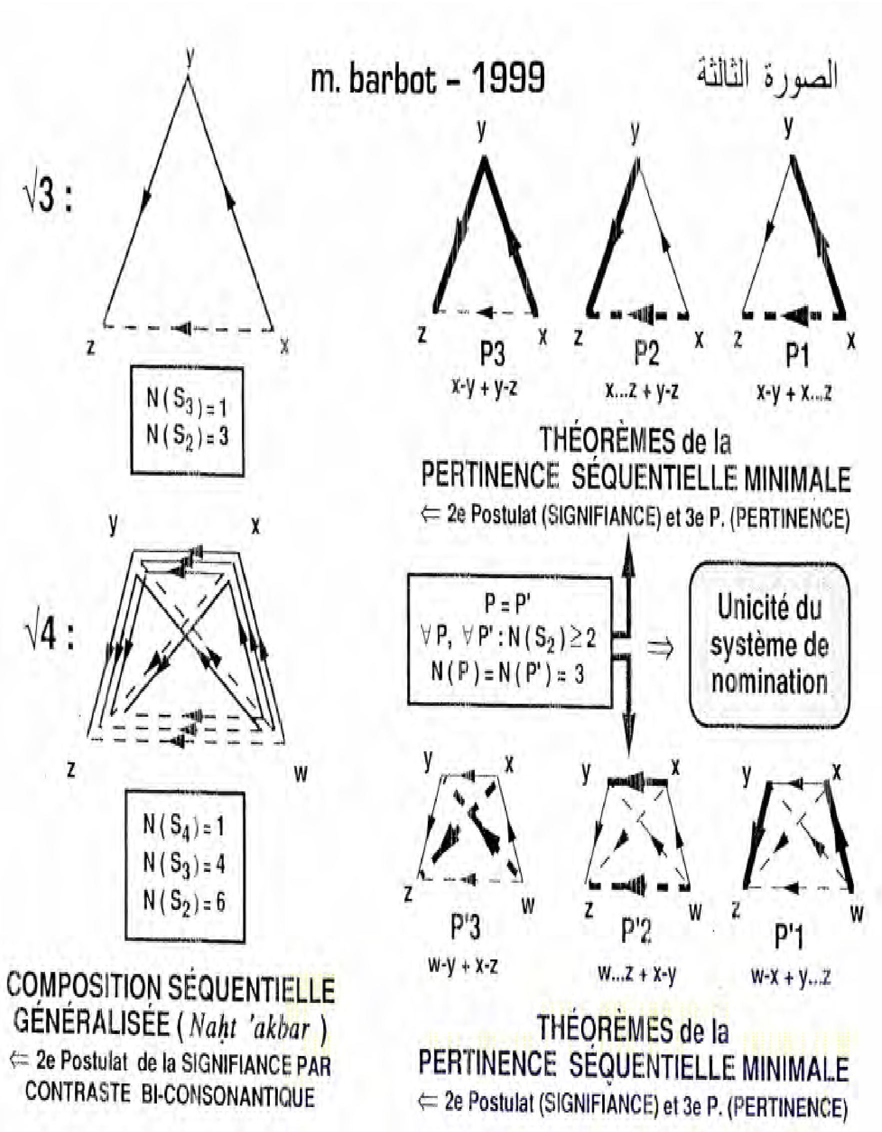
Réponse MB : la *synonymie* des trois combinaisons consonantiques repose sur

- sur les DEUX TIERS des séquences binaires (4 sur 6) si les trois racines sont comparées en bloc
- sur les CINQ SIXIÈMES des séquences binaires (5 sur 6) si les racines sont comparées deux à deux

La SYNONYMIE est due au partage d'une structuration séquentielle commune majoritaire.

أمّا **الصورة الثانية** فتقدّم لكم تحليلا آخر لإحدى المشاكل القائمة في معالجة الألفاظ المترادفة : ثلاث كلمات رباعية بنفس الصوامت إلا أنها يبدو ترتيبها متغايرا .فإذا حسبناها كالمعتاد نقول بأنّ ثلاثة أرباع المادّة الصوتية خاضعة للتغيّر والاختلاف بينما تبقى المدلولات مترادفة .لكن إذا حسبنا الأشياء بالحساب الثنائي، حصلنا على ستّ تتابعات ثنائية أكثريتها(إمّا 2/3 و إمّا)5/6 موجودة في كلّ من الكلمات المعنية، ذلك الذي يفسّح مجال تحليل ترادفها ويوضّح لنا إشكاليتها .

من عواقب أبحاثي في الرباعي لزوم **إلغاء تهميشه التقليدي** من قبل النحاة العرب والمستشرقين الأجانب كذلك .حان وقت الكفّ عن اعتباره مزيدا لمجرّد تقريبه من ثلاثي يقاسمه دلالته (أو يكاد)وبعضا من صوامته .لقد كتبت الكثير في الأمر، وما يتعلق فيه بالخصائص الشكلانية وفي الحقول الدلالية التي نرى من خلال تشابك ألفاظها المتعاقبة أنّ كثافة التأليفات الرباعية موجودة فيها إلى حدّ عجيب . من دلائل إهمال النحاة منذ منطلق الدراسات النحوية لما يخصّ الرباعي أنهم اخترعوا ثلاثة رموز" جبرية "فقط لحروف الكلمة ووصف صيغها الصرفية (ف، ع، ل) -وإنّ هذه فكرة عبقرية لأسباب عدة - إلا أنهم يضطرّون إلى ترديد حرف اللام لذكر وزن كلمة رباعية (تفعلل مثلا لفعل تدحرج) مع النواقص المنهجية والغموض في التحليل بل الأخطاء الناتجة الخ .من المستعجل اتفاق العلماء على حرف رابع لتأمين دقّة الخطاب النحوي والألسني .


m. barbot - 1999
الصورة الثالثة
√3 :
y
z
x
N (S3) = 1
N (S2) = 3
P3
x-y + y-z
P2
x...z + y-z
P1
x-y + x...z
THÉORÈMES de la
PERTINENCE SÉQUENTIELLE MINIMALE
⇐ 2e Postulat (SIGNIFIANCE) et 3e P. (PERTINENCE)
√4 :
w
N (S4) = 1
N (S3) = 4
N (S2) = 6
P = P'
∀ P, ∀ P' : N (S2) ≥ 2
N (P) = N (P') = 3
⇒
Unicité du
système de
nomination
P'3
w-y + x-z
P'2
w...z + x-y
P'1
w-x + y...z
COMPOSITION SÉQUENTIELLE
GÉNÉRALISÉE (Naḥt 'akbar)
⇐ 2e Postulat de la SIGNIFIANCE PAR
CONTRASTE BI-CONSONANTIQUE
THÉORÈMES de la
PERTINENCE SÉQUENTIELLE MINIMALE
⇐ 2e Postulat (SIGNIFIANCE) et 3e P. (PERTINENCE)

هاهي في **الصورة الثالثة** تيوريمات تبرهن على **وحدة نظام التسمية** في لغتنا ، مهما كان عدد الصوامت الجذرية 3 : أو 4 ، فعدد تتابعاتها الثنائية 3 : أو ... 6 في كلا الأحوال، **يجب ويكفي تواجد تتابعتين ثنائيتين في كلمات تتقاسم دلالة معيّنة رغما عن اختلاف جذورها** حتى نجيب على الأسئلة المسبقة الثلاث السالف بيانها لجميع صوامت الكلمة المدروسة . يتّضح الكثير من المشاكل التحليلية عندما نتخذ التباين الثنائي قاعدة للحساب ولتشكل المعنى المعجمي .

من أمثلة الحقائق التي أخطأ فيها التحليل السائد منذ أوائل علوم الصرف والنحو والدلالة ، أمر الالفاظ المبنية على وزن) فعفع" (المكرّر "وما أشبه ذلك) تفعفع ، فعافع الخ.

QUADRILITTÈRES RÉDUPLIQUÉS

m. barbot - novembre 2001

الصورة الرابعة

Analyse traditionnelle

(grammairiens arabes & orientalistes)

Répétition d'un même segment



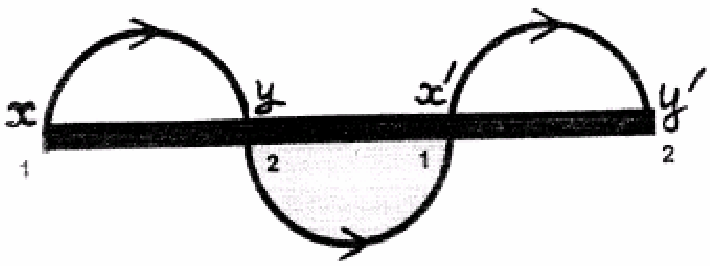
CONTENU : Sons entrecoupés - Réitération d'actions - etc.

Ex. *KaRKaRa* "répéter qc" - *QaLQaLa* "agiter, secouer qc" -

M. & K. BARBOT

(*Luqmân* XIV, 1997-8)

Contraste cyclique de 2 phonèmes



Retour nécessaire à zéro du système oscillant

d'où PRÉSENCE D'UN SEGMENT MÉDIAN

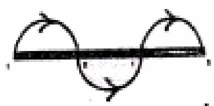
(perçu / exploité ou non par la langue)

KaRKaRa "répéter qc"



DEUX 1-2 (-KR-)

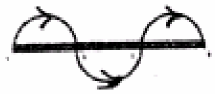
KaRKaRa "pousser des nuages en les amassant dans un coin du ciel"



1-2 + 2-1 (-RK- "AMASSER")

taKaRKaRa II "tournoyer, voltiger"

CYCLE 1-2 > 2-1 > 1-2



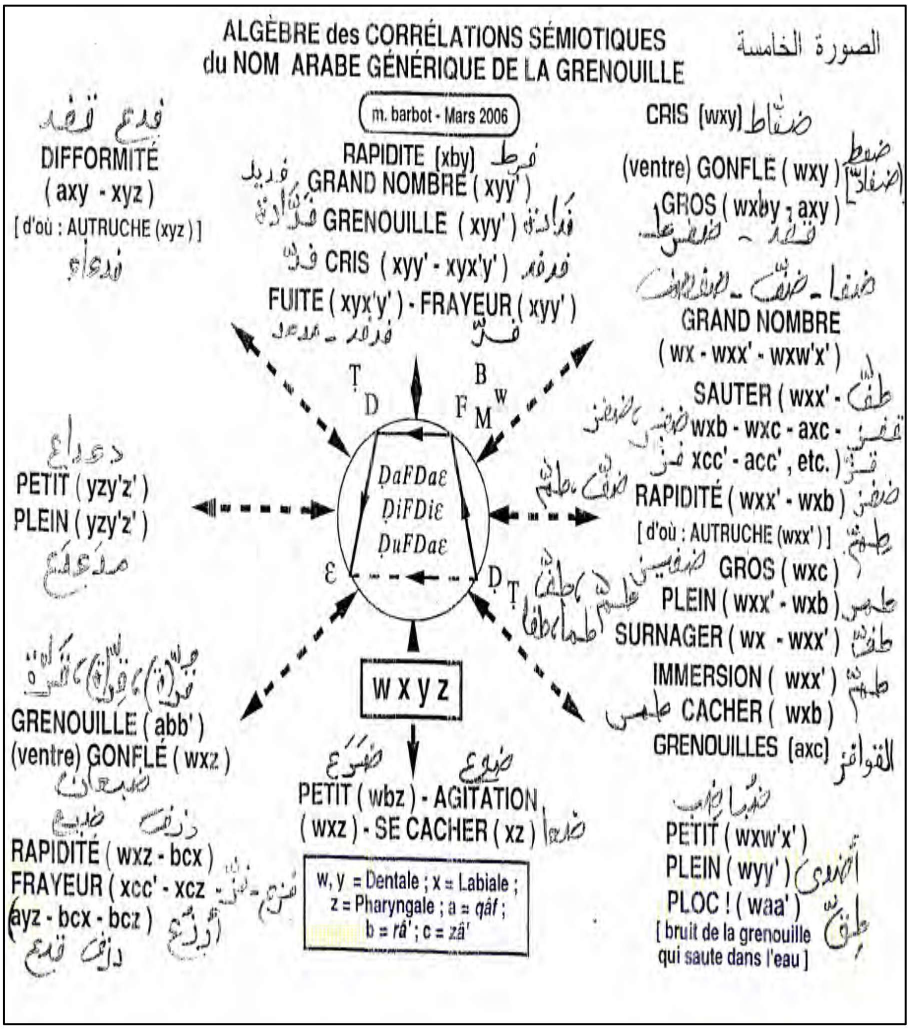
ففي **الصورة الرابعة** ولأوّل وهلة نرى التقطيع الخليلي الشهير – الفراغ بين فع وفع، والصمت الوسطي الذي لاحظه الأسلاف والتوابع في أسماء الأصوات المتقطعة) كالصرصرة (إزاء أسماء الأصوات المطّردة) كالصرير (وكلّ ما استنتجوا من قبيل هذه الأمثلة كتقطيع الأفعال وتكريرها .أمّا المنهج الشكلاني الذي استمددته من دراسة المعجم الشامل فيفضي بنا إلى التأكد المباشر من تواجد أربعة تتابعات - لا إثنتين - في البناء المذكور :

ف1ع - 1ع1ف - 2ف2ع - 2ف...1ع . 2إنّ قطعة / ع1ف / 2الوسطية تؤدّي دورا لا مفرّ منه في حركية هذا النظام المحلي ، وهو مرحلة رجوعه المحتوم إلى منطلق الطور الثاني)ف2ع (2بعد نهاية الطور الأوّل) ف1ع .(1ومن بين خصائص هذه البنية الديناميـة هناك حقيقة هامّة جدّا : ليست قطعة / ع1ف / 2نتيجة تقليب / ف1ع / 1، فإنها تباين صامتي كمثل الثلاثة الأخرى، ولم تنتبه إليه العيون ولا الأذهان لأنها كانت ولا تزال مدرّبة على تفكيك البناء التقليدي - أي من الوسط .وكأنه تشطير مبرمج آلي على غرار ما يجري في الحاسوب ...و إذا تطرّقنا إلى المعجم بأسره و إلى مواقع الألفاظ المبنية على فعفع أو فعافع من الألفاظ المحتوية على / ع1ف / 2، لا نلبث أن نلمّ بكافّة أنواع الترابطات اللفظو-دلالية : إمّا تستغلّ اللغة هذه القطعة الوسطية و إمّا لا .تحليل كركر في أسفل الصورة المعنية .(و إذا استغلت القطعة الوسطية، هناك حالتان : إمّا ترادف فعفع وعفعف)ضباضب /بضابض ، كلكل/لكلك (و إمّا تخصيص قيمة معيّنة ل/فع /وقيمة مضادّة ل/عف : /زلزل/ = زل" /انزلاق، عدم الالتحام الخ/ + "لز" /التحام، لزوج الخ ..."كذلك في أمر/فك /و/ كف /الخ .

و إجمالا التدقيق في تحليل مدلولات هذه الجذور والصيغ المكرّرة يثبت لنا بلا جدال أنّ القيمة الدلالية السائدة ليست" التكرير "ولكن" التذبذب، التناوب، تتابع حركتين أو بالأحرى حركيتين متعاكستين ."وتعبيرها اللغوي مبنيّ على مراعاة سهم الزمن كما يدلّ عليه الرسم المذكور، لا على التقليب - ألحّ عليه مرّة أخرى .ومن مفاعيل هذا البناء تنويع إمكانيات الترابط بين الألفاظ في الحقول الدلالية السالف ذكرها – إمّا بقطعة/ فع /و إمّا

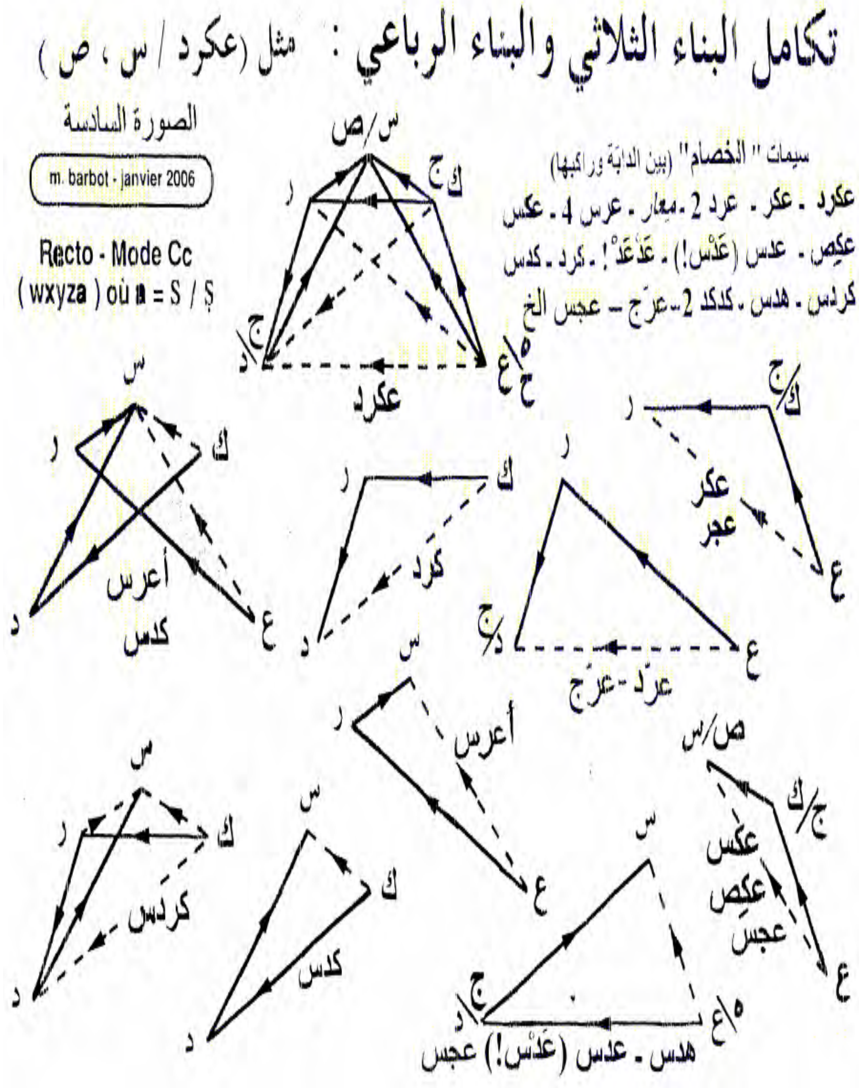
بقطعة/ عف . /ومن جرّاء هذه المرونة التأليفية والإبداعية تكاثر الألفاظ التي نسب إليها النحاة ظاهرة التقليب المزعومة ...خذوا مثل ترمّع/تمرّع بمعنى" ارتجف غضبا) "منخر الغاضب .(فعوضا عن زعم تقليب/ مر /و/رم /يكفينا التأمّل في الروابط اللفظو-دلالية بين هذين الفعلين المترادفين وبين فعلي) مرمر (بمعنى" غضب "و)تمرمر (بمعنى" ارتجف ." فسرعان ما فهمنا كيف تبلورت الدلالة المركّبة المدروسة" : هزّات المناخير تحت تأثير الغضب ."والأساس الشكلي هو الاعتماد على قطعة/ رم /الوسطية في) مرمر (من دون أيّ تقليب ...والصيغة الجبرية للترابطات المذكورة تتلخّص هي كما يلي : إذا اتخذنا رموز ش=ميم ثمّ ي=راء ثمّ ز=عين ، حصلنا على ش 1ي 1ش 2ي 2ز .وهكذا ترمّع = ي 1ش 2ز وتمرّع =ش 1ي 1ز أو ش 1ي 2ز أو ش 2ي 2ز .

هناك أمر مهمّ جدّا قد تبيّن بوضوح من استطلاع المعجم الشامل، وهو أمر **تسمية الأشياء** في لغتنا العربية .لا تكتفي بتخصيص علامة رمزية للإشارة إلى شيء أو آخر والرجوع إليه عقليا عند غيابه .التعمّق في الحقول المعجمية يطلعنا على أنّ **العلامة المذكورة يحيط بها مجموع منسّق من الألفاظ المرتبطة بها على صعيدي الدالّ والمدلول معا** ، وهي تسجّل في المعجم العربي خبرة الأسلاف الناطقين بها، أي ما لاحظوه في أشكال الشيء وفي علاقاتها بأشياء أخرى في سياق وجوده . فإذا عنى الأمر كائنا حيّا ، والكلمة المعنية هي اسم هذا الحيوان مثلا ، نكتشف **شبكة متناسقة من ألفاظ مترابطة** تدلّ على أعضاء جسمه وعلى خصائص حركاته وتصرفه الخ ...ونلاحظ نفس **التنظيم الشبكي السيميائي** في أمر المفاهيم وأسماء العواطف والأحاسيس، حتى أنني أعتبره نظاميا حقا .إنه يسود المعجم بأسره على المستوى العميق الذي يتميّز من مستوى العلاقات الصرفية والنحوية وقد مضى ذكره



إنّ **الصورة الخامسة** تدلنا على اسم (ضفدع) وعدد وافر من ألفاظ مرتبطة به شكلا ومعنى : أسماء الضفادع) فدادات ، قوافز ، قرّة (، انتفاخ البطن) ضفط ، ضفرط ، ضبعان ، مدعدع(، ضآلة الحجم) دعداع ، ضباضب(، مسخ الأعضاء) فدع (والعنق)قفد (، التكاثر) ضفّ ، ضفضف ،ضفا ، فديد(، العياط المزعج) فدّ ، فدفد(، التخوّف) فدّ ، قدع ،فزع،(الفرار) فدفد ، مدمد،(القفز) ضفر ، ضفز، قفز الخ .ولم أذكر هنا إلا بعض

التأليفات والمركّبات المبدلة .ويكفي ذلك للتلميح العاجل إلى **التشابك اللفظو- دلالي الـذي ينظّم التسمية** في لغتنا على أسس شكلية متميّزة بل استثنائية . و إذا عالجنا الموضوع بـالرموز الجبرية ، نحصل على تمثيلات مجرّدة مترابطة ستتيح لنا شيئا فشيئا إدخال الدلالـة العربيـة في الحساب الإلكتروني بعون العليم .يجـب علينـا الآن الانتبـاه إلى خطـورة الأمـر في مختلـف الميادين ، إذ أنه يتجاوز حدود الترادف وتعدّد المعاني وغيرها مـن أبـواب النحـو والألـسنية والمعجميات .غير أنه لا يخلو من عواقب نظريـة عـلى مـستوى المنـاهج التحليليـة .ومـثلا يجبرنا على **إلغاء مفهوم الزيادة المعجمية** : من المـستحيل أن نقـول بـأنّ كلمـة(ضـفدع =) ضفد+ع ولا إنها = ض+فدع الـخ .والمثـل التـالي كـذلك سيفـضي بنـا إلى نفـس الاسـتدلال والبرهان .


تكامل البناء الثلاثي والبناء الرباعي : مثل (عكرد / س ، ص)
الصورة السادسة
m. barbot - janvier 2006
Recto - Mode Cc
(wxyza) où a = S / Ṣ
سيمات " الخصام" (بين الدابة وراكبها)
عكرد - عكر - عرد 2 - معار - عرس 4 - عكس
عكِص - عدس (عَدْس!) - عَدْعَدْ! - كرد - كدس
كردس - هدس - كدكد 2 - عرّج - عجس الخ
عكرد
أعرس
كدس
كرد
عكر
عجر
عرّد - عرّج
أعرس
كردس
كدس
عكس
عكِص
عجس
هدس - عدس (عَدْس!) عجس

تعرض لنا **الصورة السادسة** كيف تـصف اللغـة الخـصام بـين راكـب دابّـة عاصية لا تنقاد ومركبه .لنأخذ فعل(عكرد)ومعناه في المعاجم" عكرت بي نـاقتي إلى ألفها وأنا كاره(أي : رجعت براكبها إلى المخيّم رغـما عنـه) .ومـن المعلـوم أنّ تحليـل النحاة والمستشرقين هـو : عكـرد=عكـر +دال زائـدة .حيـث أنّ الكـره مـشار إليـه في(عكرد)فقط ولا في أصله المزعوم(عكر)، فلنطرح هنا الأسئلة المـسبقة الـثلاث، ومثلا :هل الدال الزائدة آتية بدلالة" الكره"، فتضاف إلى مدلول" العـودة "المحمولـة في(عكر) ؟ كلا .فإذا فتحنا مجال الدراسة وتوخّينـا فحـص جميـع العلامـات الخاصّـة بمراحل الانصراف والتقدّم) العسير (ومحاولات الدابّة وراكبها المتعاكسة والعودة إلى المنطلق في النهاية ، يتضح لنا تنظيم الألفاظ المعنية - وهي عديدة - في سياق سـيميائي يلفت انتباه الألبّاء ويقنعهم **بلزوم الإعراض عن نظرية الزيادة المعجمية** .

من جانب الراكب : أعرس ، عكس) العنـان (، عـدس ، هـدس ، كـدس ، كرد، كردس تكدكد ، الخ .

من جانب المركب : أعرس ، عرّد ، عرّج ، عكص ، عكر ، عكرد ، عجـر ، عيّر /معار /عيير ، عجس ،الخ .وبطبيعة الحـال لا بـدّ مـن الإقـرار بتواجـد ألفـاظ أخـرى تـأتي بدلالـة" العـودة والإعـادة "كمثـل عـاك وكـرّ ووكـر وارتـدّ و...عـاد وحكد...فكلّ هذه الأمثلة تدلّ على أنّ الدال ليست زائـدة في فعـل) عكـرد(، وأنهـا جزء لا يتجزّأ من سلاسل كلمات شتى تقاسم سيماتها المتعاكستين : إمّـا إرادة التقـدّم و إمّا إرادة العودة إلى المنطلق .

ويمكننا أيضا تعبير الشيء بالرموز الجبرية كما فعلنا سابقا والصيغة الشاملة هي :

و ش ي ز ا) و=عين ثمّ ش=كاف أوجيم ثمّ ي=راء ثـمّ ز=دال أوجـيم ثـمّ ا=سـين أوصاد .(فعلى سبيل المثال) كردس = ش ي ز ا (أو) تكدكـد = ش 1ز 1ش 2ز .(2كـلّ ذلـك

قابل للتمثيل البياني في ثلاثة أبعاد ، بل نحتاج إلى المعالجة الطوبولوجية التي لمّحت إليها مرارا في منشوراتي السابقة ، أي منذ أكثر من عشر سنوات .صبر جميل ومن طلب ظفر ...

لقد وصلنا إلى نهاية عرضنا العاجل لأمور تقتضي الاستدلال البطيء حتّى يفهمها المستمع غير المتعوّد على المناهج الشكلانية .فأطلب من الحضور دقائق زائدة محدودة للاطّلاع على نموذج خشبي أتيتكم بجزء منه فقط بسبب ظروف النقل الجوّي .منذ عامين صمّمت نموذجا يمثّل في الفضاء 330 جذر من مجموعها 50 رباعيا .إنها كلها تعبّر عن **"الغضب "**، وصوامتها متشابكة متناسقة وطبعا خالي من أيّ تقليب .يشبه هذا النموذج تمثيلات المركّبات الكيميائية أو الذرّية .والذرى فيه هي الصوامت والقضبان هي الأقواس، يعني العلاقات الموجّة بين صامت وآخر (را **.صورة 1.)** يجسّد العلاقات الثنائية القائمة ضمن لفظة معيّنة وأيضا بينها وبين ألفاظ أخرى تنتمي إلى جذور مختلفة وتتقاسم كلها **سيمة الغضب** .لا يتاح لي أن أشير كما يلزم إلى الاستطلاعات والاكتشافات المستنتجة من هذا النموذج .عليّ أن أختصر تقديمه ، فتفضّلوا بالنظر إلى القسم الأسفل حيث تترابط عشرات التأليفات الصامتية .هاهي قائمة محدودة أذكرها : متلغّد ، مرغادّ ، مردّ ، مغدّ/مغداد سلغدّ/سلّغد ، زغد ، زغدب ، سخط ، سخدود ، غضب ، ضبد ، ضبّ ، اضفادّ ، ضمضم ، دمدمة ، سدم ، عذم ، تذمّر ، تدمّر ، مرمر ، تمرّع ، رمع/ترمّع وهلمّ جرّا ...تواجد بل تشابك هذه التأليفات يبرهن على **ضرورة إلغاء مفهوم الزيادة المعجمية** والإقرار بهيمنة **الترابطية العامّة** .أي : ما سمّيته في منشوراتي السابقة" **النحت الأكبر**"، حيث أنّ تنظيم علاقات الألفاظ - شكلا ومعنى - قائم على **تداخل المركّبات اللفظو-دلالية)** لا الألفاظ ذاتها كما كان يقول به" النحت "التقليدي .(والحقّ أنّ ما يقال "زائدا "إنما هو :

(إمّا أحد المورفيمات القديمة التي أصبحت صوامت جذرية مع مرور الزمن) كمثل الميم في مفعل أو النون في فعلن الخ .(ب (و إمّا إحدى الصوامت الجذرية" الأصلية ."تقاسم تتابعها الثنائي تأليفات صامتية أخرى) ثلاثية أو رباعية(، فهي" جذرية "في كلا الأمرين . مثلا الدال في) عكرد (بالنسبة إلى) عود ، عرّد ، حكد الخ .(ليس هناك أيّ **اشتقاق ولا**

أصول على هذا المستوى العميق مـن النظـام المعجمـي، إذ أنّ الترابطـات التزامنيـة المدوّنـة طابعها سيميائي لا نحوي ، والأدلة على ذلـك عديـدة . كفـاني أن أذكّـركم **أوّلا** أنّ صـوامت المخارج) الذرى ههنا (قد تكون غير جذرية : الواو الـشفهية في) سـخدود (صرفيـة إلا أن مرتبتها في النموذج السيميائي قائمـة بـين ذروتي الأسـنانيات . **ثانيـا** : مـا سـمّوه" الغريـب " و"الشواذ "خاضع تماما لنفس النظام، فكلمة" شاذة "كمثل) عبنجر (و إن لم يكن لها جـذر فإنها مرتبطة بعشرات الجذور وتقاسمها دلالة" السمن والبدانة ."**ثالثا** : سبق لي أن عرضـت الاختلافات الجوهرية بين **الصيغ الصرفية الاشتقاقية**) المنتمية إلى المستوى السطحي حيـث تترابط كلمات لها نفس التأليف الصامتي، وذلك على أساس القيم النحويـة (وبـين **الـصيغ العلائقية**) المنتمية إلى المستوى السيميائي العميق حيـث تـترابط كلـمات متغـايرة التـأليف الصامتي .(وهكذا أكّدت أنّ بعض الكلمات لها صيغة صرفيـة وصـيغة علائقيـة أخـرى : مثلا) دحدر (على وزن فعلل أو فعفل) فاءها=د (إلا أنّ صيغتها العلائقية عفعـل)مـن جـرّاء علاقاتها بجذر حدر شكلا ومعنى ، فعينها=د .(بالخلاصـة، إنّ **القـسم البـاطن مـن النظـام المعجمي أعظم بكثير من القسم الظاهر**) النحوي(، بل هو أهمّ منه في تاريخ اللغة ، إذ أنـه ناتج من تبلور العناصر والعوامل غير النحوية التي تحدث التخاطب والتعبـير عـن الـنفس واستحضار العوالم الذهنية والخيالية الخ .ليس من العجـب أن يتـسع المـستوى اللانحـوي هذا الاتساع وأن يتعقد بقدر تعـدّد عوامـل الـترابط ، إلا أنّ العجيـب بـل الأسـتثنائي هـو التناسق السائد في هذه الأمور .وأن تبقى هذه الترابطية العامّة لاشعورية في معظم الأحوال وغير معترف بها في التحليلات الشائعة ، المعتمدة عـلى المقـاييس والمعـايير النحويـة ، ذلـك شيء لا يؤثر بوجود هذه الحقائق، كما كان ولا يـزال التركيـب الكيميـائي للـماء أو الهـواء يجهله أغلب الناس مهما كانت فرص شربه وتنفسه تستمرّ به من المهد إلى اللحد ...

وألـحّ أيـضا عـلى **الطـابع الـشفهي الـسائد** للغـة الـضاد الـذي طـال قرونـا عديدة)وربّما ألفية وأكثر (قبل التنزيل المبارك .لا شكّ في رأيي أنّ هذا الطـابع الـذي يطوّر قوى الذاكرة قد ضاعف وسائل التذكير والتذكّر ونوّعها تنويعا على ممرّ الزمن وتوالي الأجيال .نعرف مثلا أنّ تسلسل الكلمات المحتبكة بعضها بـبعض بنـاء شـكلي

يسهّل تذكيرها . كما يسهّله تكرار الأصوات في الخطاب) قا .دور الترجيعة أو اللازمة في الغناء الشعبي ، ودور القافية في الشعر المقفىّ.(و يعلم الإخصائيون أهمّية ما يسمّونه "الذاكرة الدستيكية) "أي التي تعمل بالربط المقصود بين شيئين .(وقد يكون ذلك أمر ترسّخ التتابعات الثنائية في بناء **ألفاظ مترابطة بشكل قطع مرتبة على محور الزمن توظّفها اللغة تدريجيا**، وقد رأينا نتائج هذا التطوّر القديم جدّا كما تصفها نظرية **النحت الأكبر** .

علي الآن أن ألفت انتباهكم إلى فتح آفاق فسيحة في كلّ من ميادين التعليم الرسمي والتعلم الفردي واختراع المصطلحات المشروعة – أي : المستمدّة من بنى المعجم لا بمجرّد الاشتقاق كما يفعلون منذ الأوائل) را .النشاط الاصطلاحي في العهد العبّاسي (، و إيضا على أساس بنى الترابط السيميائي .وقد مضى بيان هذا المقترح في إطار ندوة أقاموها بفاس-مكناس حول المصطلح الفني قبل سبع سنوات .(2000)

أمّا قضية الازدواج اللغوي ومحلّ اللهجات في المعجم العربي فأقول الآن أنّ اللغوات الدارجة متواجدة في البنى المذكورة وخاضعة لها رغما عمّا يبدو، كمثل الوحدات المعجمية الفصيحة .إن **لغتنا واحدة** .ولو كان لي الوقت الكافي لكنت أطلعتكم على أمثلة دارجة في المغرب العربي من قبيل) غدّد (أو) ضبع (في حقل "**الغضب**"، وعلى محلها في النموذج الذي كنت أريد عرضه وتفسير أجزائه .فخيرها بغيرها كما يقال، والسلام عليكم .

الفصحى المعاصرة: طعنة أم ضرورة؟

د. صالح بلعيد- جامعة تيزي وزو

المقدّمة

يفضل الحديث عن الفصحى المعاصرة بحذر؛ باعتباره حديثاً عن **اللغة الثالثة** والتي ينظر إليها البعض على أنّها لغة جديدة، ومنها تأتينا الأفكار المضلّلة العاملة على تخريب هذه اللغة العربية التي هي ديننا وإرثنا وحضارتنا وهويّتنا ومستقبلنا، وبها نكون أو لا نكون، فهي **طعنة** في ظهورنا، ومثلها مثل الدعوة إلى العامية على حساب الفصحى لقصم ظهر الفصحى ولا غير، أو هو كلام جديد على كلام المستشرقين في القرن الماضي بإحلال العامية محلّ الفصحى، والذي أُريد بالبعض منه قطع الصلة بيننا وبين تراثنا؛ حيث كانت المحاولات الأجنبية مركّزة حول إسقاط الفصحى من الاستعمال اليومي ومن التعليم؛ كفعل أنطوان إسحاق سلفستر دو ساسي Antoine Isac Silvestre de Sacy في تدريس العامية، ومن ثمّ أصبح له أنصار يدافعون عن الفكرة وتلاه وليام ولكوكس William Willcocks مهندس الريّ؛ الذي عمل على إدخال العامية في موضوعات علمية وأدبية ليكون ذلك عاملاً للقضاء على الفصحى، وممّا طرحه من سؤال: "لِمَ لم توجد قوّة الاختراع لدى المصريين إلى الآن؟ فأجاب: إنّ العربية الفصحى –ولا شيء غيرها- هي التي أماتت الاختراع، ولا أمل في إحيائها إلا باتّخاذ العامية بدلاً منها[1]". كما ألّف سلدن ولمور كتاباً عنوانه: **العربية المحكية في مصر**، وقال فيه: إنّ الفصحى صعبة جامدة، فهي حبيسة بطون الكتب والمطبوعات، ولا تنطق بها وسائل الإعلام، لا ومنابر، ولا الخطابة، ولا قاعات الدرس والعامية لغة حيّة غنية متطوّرة، فهي التي توجد في كلّ ما ذكرناه. في الوقت الذي قال الدوس هكسلي الإنجليزي الداعي إلى قومية لغة إنجليزية: إنّ من يبتغي كتابة العلم بلغة عامة

---

[1] ع/ عبد الرحمن بودرع أحمد شفيق الخطيب عبد الله آيت العشير، اللغة وبناء الذّات، سلسلة (كتاب الأمة). قطر: 2004، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، العدد 101، ص 61.

الإنجليز يؤدّي إلى ضعف المواهب العلمية ويقضي على ملكة الإنشاء بالفصحى، فترقية عقول العامة لفهم عقول العلم أفضل من نزول العلماء إلى العامة فيتراجعون ويتأخّرون.

إنّ حديثي لا يصبّ في هذا الاتّجاه، فأنا مع البحث في العاميات لا من باب الدعوة إليها، بل كرافد من روافد اللغة العربية، فلا تكون بديلاً عن الفصحى، أو هي تُثري الفصحى، أو تُشرّفها. ولكن الوقت المعاصر يستدعي منّا الاهتمام بلغة العامة، وهي لغة الشارع، وما يستعمل من ألفاظ في السوق وفي المصنع وفي الحقل، عن طريق تكريس **الاستعمال المهذّب** لما يُسمع في هذه الميادين؛ لأنّه بالوضع والاستعمال نصل ما بين اللغة والحياة، وبالسماع نقرّب بين العامية والفصحى، واللغة وضع واستعمال كما قال اللسانيون. هذه اللغة التي نجدها في المجتمع، وفي لغة القصص، والمسرح، وفي لغة الإعلام والاتّصال، حيث الفنون الأدبية في العامية تندفع في عصرنا إلى الاقتراب من الفصحى اندفاعاً، ولا شكّ أنّها تعمل على ترقية الفصحى، ومن هنا أخالف الذين يبالغون في إظهار خطر الاهتمام بالعاميات خوف القضاء على الفصحى، والحقيقة عكس ذلك فإنّ **الفصحى المعاصرة** ما تزال تقهر العامية في كلّ الميادين، ولها ساحات لغوية شعبية وخاصة في الإعلام والمسرح والفنون القصصية.

أقول يجب التفريق بين اللغة واللهجة عند حديثنا عن اللغة العربية ولهجاتها، باعتبار اللغة بمفهومها الاجتماعي العام يشمل اللغة المنطوقة والمكتوبة والنموذجية والعامية بتنوّعاتها اللهجية والنظر إلى عوامل وخصوصيات اللغة العربية من الزوايا التالية:

1ـ زاوية اللغة المثال: وهي اللغة التي يقع التفاهم بها، باعتبار عامل المشيئة والقرابة الروحية والوعي بالانتماء القومي، فهذا لا يوجد إلا في الفصحى، باعتبار عامل الفهم المتبادل الواسع لا الضيّق.

2ـ زاوية المكانة الاجتماعية: اللغة الفصحى أعلى من اللهجة، باعتبار المكانة الرسمية للفصحى.

3ـ زاوية عامل الحجم: اللغة الفصحى تضفي عامل الوحدة على المجتمع، ولا يحصل هذا في اللهجة؛ فاللغة أكبر حجماً من اللهجة، أي أنّ النوعية التي تتضمن العدد الأكبر من الوحدات اللغوية تكون هي اللغة، بينما تكون النوعية ذات العدد الأقلّ هي اللهجة.

وانطلاقاً من هذه الخصوصيات التي لا ينكرها إلا جاحد، هناك عوامل يجب الوعي بها وهناك سلبيات علينا دراستها وتحليل أسبابها، لا التخفّي عند الحديث عن اللهجات وراء الشعارات التي لا توصلنا إلى حلّ الإشكال اللغوي الذي عَلِق باللغة العربية منذ الشرخ الذي حدث بين الفصحى والعامية. وأمام هذه الحقائق التي هي من حقوق المواطنة اللغوية العربية، يمكن أن نطرح الحقائق التالية: هل يمكن للفصحى أن تعود الآن إلى وضعها الطبيعي بحيث تكون لغة الاستعمال في مختلف المقامات والسياقات وكلّ المجالات والمحافل؟ وهي يمكن أن يحصل ذلك في لاحق من الزمان؟ وهل لنا نيّة العودة يوماً ما إلى الأصل الصريح، وإلى الارتباط بالجذور؟ وهل يمكن الحفاظ على الموازنة والمزاوجة المثمرة بين القديم والحديث، وبين الأصيل القديم والأصيل الجديد بطريقة لا تعترف بالتنازل عن اللغة الأصل، أو استبدالها أو إسقاطها من الحساب، بصفتها لغة أساساً في حياتنا الفكرية والعملية؟ ذلك ما سيجيب عنه الواقع اللغوي العربي.

1ـ الواقع اللغوي العربي: إنّ الوضع اللغوي القائم في العالم العربي ينحو منحى تزايد استعمال العامية في فصول الدراسة، وفي وسائل الأعلام، وتسلّلها إلى كلّ مناحي الحياة، وسريانها حتى على ألسن الخاصة، بَلْهَ الحديثَ عن العامة، كما أنّ معرفة الفصحى الراقية غير متيسّرة للكثيرين من أبناء الشعب العربي، أو يصعب التحكّم فيها عند خاصة المثقفين فضلاً عن عامتهم وأصبحت بذلك لغة النّخبة، ويضاف إلى

هذا وجود بعض العراقيل اللغوية في الفصحى[1]؛ من مثل تقييدها بجملة أحكام نحوية معقّدة، وخُلَو الخط العربي من الحروف المصوّتة، وعجز العربية الآن عن ملاحقة إنتاجات العصر، ولا نتحدّث عن العزوف عن القراءة، والانشغال بوسائل المشاهدة والتوجّه إلى إحلال اللغات الأجنبية المحلّ الأعلى. كما يُملي علينا الواقع اللغوي والثقافي المضطرب إكراهاتِ التنازل، أضف إلى ذلك التنازع القائم بشأن العولمة اللغوية، ثمّ الضعف والتهجين والاستسلام للمؤثّرات الخارجية والداخلية، والتأثير الفعّال لوسائل الإعلام الأجنبية حول قدرة اللغة العربية الفصحى، وبثّ التشكيك فيها. واقع لا تفسير له، وأنت لا تجد العربية في دول الخليج التي ترطن الإنجليزية العوجاء، وتتباهى بلغة لا تتحكّم فيها جيّداً، واقع ترى فيها قوة اللغة الفرنسية في دول المغرب العربي، واقع ترى فيها بعض الأغتام بمصر يريدون تمصير العربية وبالشام تجد من يعلك العربية الفصحى علك اللجام، ويهاجر بلسانه نحو أوربا وأمريكا، واقع ترى فيه من يرفع شعار العربية ليرضي به أنصاره، من جهة، ومن جهة يتنصّل من العربية كما تنسل الحيّة من خرشائها، واقع ترى فيه من لا يبتغون زحزحته عن الإنجليزية أو الفرنسية باعتبارهما دار الأمان ولغات الخبز... هذه العوامل وغيرها تأتي على محكّ المواطن، وتمرّ عليه وهو يدفع ضريبة ترقية لغته التي ما ارتقت، فماذا يقول الناشئ عندما يرى بعينه هذه الثغرات، ويسمع أو يقرأ بأن قارئ العربية لا

---

[1] هناك دراسات علمية أجريت في أكثر من بلد عربي، وخرجت إلى اقتراح الحلول التالية:

- الميل القومي إلى سقوط حركات الإعراب من (عربية حديثة) باعتبار هذه اللغة أكثر طواعية لمستعمليها؛ خاصة على المستوى الشفائي.
- التسليم بأنّ الأبجدية بصورتها الحالية تقف عائقاً أمام تعلّم العربية، خاصة في حالة القراءة، ويقتضي إصلاحاً جوهرياً يقوم على أساس تمايز الحروف ووضوحها، والأهم أن يكون المكتوب متطابقاً مع المنطوق.
- مراعاة الحفاظ على اللغات الوطنية، وتفعيلها.
- وجوب الاهتمام بتدريس اللغات الأجنبية؛ باعتبارها مجرد لغة، وليست أداة للتعليم.

ينظر: التأريخ الإسلامي وأزمة الهوية، ط1. ليبيا: 2000، إصدار جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، مقال: **اللغة والهوية.**

يذهب بعيداً، ومنتوج العربية غير مربح. أسجّل -بكلّ أسف- هذه النُقاط السوداء التي يمليها الواقع اللغوي العربي الذي لا يعمل على توثيق الصلة بين الناشئة والتراث وهنا يكمن الخطر في أنّ هذه الناشئة تبتعد كلّ الابتعاد عن تراثها، فنجد ثقافتها هشّة وسطحية فهل نبكي ماضينا أم نبكي واقعنا ونخاف أنّ الواقع الحالي أحسن من الآتي.

إذا كانت الأمم تُعنى بلغاتها وتعمل على ترقيتها، فإنّ الأمة العربية لا تقلّ عناية بلغتها، غير أنّ العرب اليوم لا يتكلّمون بالفصيح من العربية حقيقة، وتكمن المشكلة اللغوية في أنّنا نقرأ بلغة ونتمتم في صلواتنا بلغة، ونناغي أطفالنا بلغة، ونغني بلغة... ولابدّ من معالجة الواقع اللغوي الحالي بكلّ الطرائق الممكنة، والتي منها تطوير لغة يُزاوج فيها بين القديم والحديث، وبين الأصيل والمولّد الجديد، في خطّ متوازن وبطريقة واعية، وبمنهج سيّد لا يقرّ بالتنازل عن اللغة الأصل، أو استبدالها أو إسقاطها، ورأيت أنّ الحلّ يكمن في العمل **على تسهيل الفصحى وتقريب العامية منها والبحث عن القاسم المشترك البسيط**، ويمكن أن يحصل هذا عن طريق التخطيط لإصلاح اللغة العربية وتيسيرها والارتقاء بها عن طريق الإجراءات التربوية المساعدة في توطيد **اللغة الثالثة**؛ وهذا بالعمل على الإصلاح اللغوي وخاصة النّحوي، والاهتمام بلغة الإعلام، والعمل على مَحْوِ الأمية، وإقحام المجمعيين في عمليات التطوير والإصلاح، والاهتمام بترقية العامية، وردّ ألفاظها إلى الفصيح، والاهتمام بالألفاظ والمصطلحات العلمية المعاصرة.

2ـ **تاريخ البحث في اللغة الثالثة**: ظهر البحث عن اللغة الثالثة بقوّة في العصر الحديث، وهذا في إطار البحث عن وسائل لإصلاح اللغة العربية، أو الكشف عن طرائق فاعلة، وتيسير تعلّمها بدعوى مواجهة التحدّيات المعاصرة وديمقراطية التعليم، ولكن وجدت إرهاصاتها في قرون الفصاحة، حيث تواصل التطوّر العلمي والأدبي للفصحى بقوّة في العصر العباسي عن طريق الترجمة واستقبال الثقافات الأجنبية "واستطاع الأدباء في أثناء ذلك أن ينفذوا إلى أسلوب جديد غَذَّوْه بعقولهم الخصبة، وما أثاروه من المعاني المبتكرة، مع احتفاظهم فيه للفصحى بكلّ مقوّماتها

وأوضاعها النّحوية والصرفية، وهو أسلوب نهض على أساسيين لفظيين هما: نبذ الألفاظ الحوشية الجافة، ونبذ الألفاظ العامية المسفة المبتذلة؛ أسلوب وسط بين الغرابة والابتذال، يقوم على الألفاظ المتخيّرة التي لا تنبو عن ذوق العباسيين المصفّى، ولا عن حسّهم المرهف[1]". وهذا ما نجده في الحقيقة في أساليب أولئك المبدعين من الكتّاب أمثال: ابن المقفع وابن العميد وعبد الحميد الكاتب... هؤلاء النحارير كان لهم إسهام وفضل في نشأة البلاغة، فلقد التمسوا ألفاظها ممّا لم يكن وعراً وحشياً، ولا ساقطاً سوقياً، فكانوا أرباب هذا الفنّ بجدارة ما استعملوه. كما نجد في القرن الرابع أحمد بن فارس 395 هـ في كتابه (متخيّر الألفاظ) يقول: "**الكلام ثلاثة أضرب: ضرب يشترك فيه العِليةُ والدونُ، وذلك أدنى منازل القول، وضرب هو الوحشي، كان طباعَ قومٍ فذهب بذهابهم. وبين هذين ضرب لم ينزل نزول الأول، ولا ارتفعَ ارتفاع الثاني، وهو أحسن الثلاثة في السماع وألذُّها على الأفواه وأزينُها في الخطابة، وأعذبُها في القريض، وأدلُّها على معرفة من يختارها**[2]". ونرى ابن فارس الذي يقرّ بفصاحة اللغة التي لا تتحقّق مع الدونية ولا مع التكلّف، بل في اجتناب السهل من الخطاب واجتناب الوعر منه، وهذا لا يكون إلا في المستوى **الثالث الوسط** الذي يستمد عناصره ومكوّناته الأساس من الفصحى المعيشة، ومن الروافد الداخلية والخارجية العاملة على التأثير اللغوي. ومع كلّ ما يقال فإنّ البحث عن المستوى الثالث لم يظهر علناً في عصر الضعف الذي بدأ من القرن الخامس الهجري، واستفحل الركود من القرن السابع إلى القرن الرابع عشر وفيه عشعش الاجترار اللغوي، وغاب الإبداع في كلّ المجالات، بسبب سوء التحكّم في الفصحى ولمعطيات تخصّ العصر، وكان على المصنّفين أن يبدعوا بلغة أبعد من لغة الواقع. وازداد الشرخ اتّساعاً بظهور اللهجة العربية التي أصبحت لهجات، وغياب المؤسّسات العاملة على معالجة التدهور اللغوي، حتى العصر الحديث الذي ظهرت في المؤسّسات المجمعية التي اهتمّت بشكل محتشم باللهجات، وكان في نيّة القائمين على هذه المؤسّسات

---

[1] مجمع اللغة العربية، شوق ضيف "الفصحى المعاصرة" القاهرة: 2006، مطبوعات المجمع (اللهجات العربية الفصحى والعامية، ج2) ص 132.

[2] أحمد بن فارس، متخيّر الألفاظ. بغداد: 1970، مطبعة المعارف، ص 43.

أنّ كلّ مساس باللغة مساس بالدين والأدب الرفيع. وتصدّى مجمع اللغة العربية بالقاهرة لعلاج الظاهرة اللغوية عن طريق الاهتمام باللهجات، وكان أحد أهدافه "**أن ينظم دراسة علمية للهجات الحديثة بمصر وغيرها من البلاد العربية**" كما نجده يقرّ بتدريس اللهجات العربية قديمها وحديثها دراسة علمية لخدمة الفصحى والبحث العلمي، وأن تدرس من خلال القراءات القرآنية. ولقد استطاع المجمعيون التوصّل إلى:

- إنجاز طريقة لكتابة نصوص اللهجات العربية الحديثة بحروف عربية.
- وضع الأطالس اللغوية.
- الربط بين القراءات القرآنية واللهجات.

كما أنجز المجمعيون دراسات ذات بعد وعمق علمي أكاديمي، والتي تحلّ كثيراً من مشكلات الفصحى، وقضاياها، وبخاصة بعد تعديل عمل اللجنة، وأصبحت تسميتها: **لجنة اللهجات والبحوث اللغوية.** كما أصدر المجمع كتاباً متخصّصاً عنوانه (اللهجات العربية بحث ودراسات) جمع وإعداد: ثروت عبد السميع، مراجعة: محمد حماد، إشراف كمال بشر (مقرر لجنة اللهجات سنة 2004) وأنجز عملاً ضخماً حول اللهجات العربية، وهذا سنة 2004، كما أصدر كتاباً عنوانه: العامي الفصيح في المعجم الوسيط، للأستاذ أمين علي السيد، ط1، 2006. وقد ضبطه وأعدّ مداخله وراجع تجاربه سميرة صادق شعلان، بمعية: جمال عبد الحيّ أحمد وخالد محمد مصطفى. دون أن ننسى أنّ المجمع قد خصّص دورة هامة لمعالجة العلاقات اللغوية بين الفصحى واللهجات وهذا سنة 2000، أضف إلى ذلك ما تبحث فيه على الدوام **لجنة اللهجات** بالمجمع. وإنّ جهود لجنة اللهجات كبيرة جداً؛ حيث تبحث في جذور الكلمات العامية وتردّها إلى الفصحى، وهذا محاولة منها لتفصيح العامي، وكلّ ذلك خدمة للعربية الفصيحة. ومن القرارات التي صدرت عن المجمع:

1ـ أن يُحصر بحث اللهجات أول الأمر في اللهجات المصرية.

2ـ أن تبحث اللغة العامية المصرية من النواحي التالية:

أـ استخراج ما فيها من الكلمات العربية الفصيحة التي يتجافاها الأدباء لمجرّد جريانها على ألسنة العامة.

ب ـ دراسة ما طرأ على أصوات اللهجات العامية من تغيير وتحريف وأسباب ذلك.

ج ـ البحث في نحو العامية وصرفها وبلاغتها، ووضع قواعد لذلك.

د ـ جمع المؤلّفات العربية وغير العربية التي بَحثت في موضوع اللهجات.

هـ ـ أن تمكّن اللجنة من تسجيل اللهجات من الناحية الصوتية وطرق الأداء في سجلات صوتية من أقراص وأشرطة، بآلاتها الخاصة، وتحفظ في المجمع[1].

لقد فتح المجمع اللغوي باب البحث في اللهجات بشروط لا تُخلّ بأصول اللغة العربية، فنجد من تأثّر بالمستشرقين: ولهلم سبيتا (ألماني) وكارلو لندبرج (سويدي) وكارل فولرس (ألماني) وسلدن ولمور (إنكليزي) الذين كان دافعهم تدوين العلوم بلغة العامة، وفي هذا الدافع محاربة اللغة العربية ومحاولة إضعافها وخلق بؤر لغوية مختلفة "إنّ مصدر الدعوة إلى العامية أجنبي، كما اتّضح لي من دراسة الكتب الأجنبية التي تناولت اللهجة المصرية، وخاصة منها ما كان في أوائل عهد الاحتلال البريطاني في مصر[2]" وهذا جوليان باندا Julien Penda يدعو عام 1946 إلى مزيد من نشر لغات في الشعوب المستعمرة بقوله: "إذا كنّا نريد أن نضمن للغرب وحدة روحية، فعلينا أن نجهزّ الحملات في سبيل إنشاء لغة غربية تضاف إلى مختلف القوميات الغربية، وهذه اللغة يتلقفها الأولاد جنباً إلى جنب مع لغة بلادهم، بالإضافة إلى لغتهم[3]" وللأسف نحا أو انساق بعض العرب في هذا التيار، وسلكوا سبل إدخال العامية في المدارس وكتابتها، و إصدار جرائد وكتب، ودافع عن هذه الأفكار من مثل: رفاعة الطهطاوي، يعقوب صنّوع، جرجي زيدان، محمد النجار... وفي هذه الفترة

---

[1] شوقي ضيف ، مقدمة كتاب (اللهجات العربية بحوث ودراسات). القاهرة: 2004.

[2] نفوسة سعيد، تاريخ الدعوة إلى العامية، ط1. الإسكندرية: 1964، ص 8.

[3] ع/ مازن المبارك، نحو وعي لغوي. دمشق: 1970، ص 46.

كَثُرَ على العربية الإرجاف، وأثيرت حولها الشكوك، فتصدّى لهذا الأمر كُتّاب الفصحى وأنصارها من مثل: عباس محمود العقاد، طه حسين، مصطفى صادق الرافعي، أحمد حسن الزيات، توفيق الحكيم، المازني، محمود شلتوت، المراغي، عبد الحليم محمود، هيكل، محمد كرد علي، حسني سبح، عدنان الخطيب، معروف الرصافي، الزهاوي، الشبيبي، عبد القدوس الأنصاري، عثمان حافظ... واستطاع هؤلاء أن يفشلوا الدعوة إلى العامية، ويرسّخوا مزايا الفصحى. وكانت أفكارهم العامة بأنّ البحث في اللهجات شيء هام، لأنّ هذا يخدم العربية الفصحى على اعتبار أنّ اللهجات فصحى محرّفة، كما قال بها كثير من أهل اللغة والعلم، وعلى رأسهم المرحوم شوقي ضيف في مقال له: **العامية فصحى محرّفة.** كما اتّهم بعض المعاصرين اللغة الوسطى بأنّها تعمل على الخرق اللغوي، ولا يقصد بها إلا إقصاء الفصحى وزحزحتها عن مكانها ليخلوَ للعامة والأجنبية "ولقد كان الهدف من وراء ذلك وقف العربية عن النّمو، وهي لغة الفكر والعلم والعبادة لدى ملايين المسلمين، وإحداث لغة وسطى بين العامية والفصحى، وذلك للنزول بالثقافة والفكر إلى مستوى العامية[1]".

ولم يمنع الأستاذ الحاج صالح أن يشرح ذلك بأنّ المطلوب في استعمال اللغة العربية هو **المستوى المتأدّب** وهو الغائب في استعمالنا الدائم، لأنّ اللغة وضع واستعمال؛ بحيث إنّ اللهجات هي من المستوى الثاني للفصحى التي فيها الاقتصاد والخفّة والتقليل من المجهود العضلي أو الذاكري، عند إحداث عبارات الاستئناس وعدم الانقباض "فكلّما كان المقام مقام أُنس كان المتكلّم إلى حذف ما هو غني عنه لإبلاغ مراده أميل وأكثر ارتياحاً، وهذا هو بالذات ما يمنح للغة حيويتها، وقد كانت الفصحى التي دوّنها اللغويون العرب الأولون تتّصف بهذه الصفة، وأكبر دليل على ذلك كثرة ما سجّله أولئك اللغويون من العبارات المختزلة ذات العناصر المضمرة، وكثرة ما ورد في كتاب سيبويه وكتب القراءات من شواهد الاختلاس والتسكين والتخفيف للهمزة وحذفها والإدغام والإبدال والقلب ممّا لا سبيل إلى وجوده في اللغة

---

[1] عبد الرحمن بودرع أحمد شفيق الخطيب عبد الله آيت العشير، اللغة وبناء الذات، ، ص 61.

التي يتعلّمها الطفل في المدارس واللغة الفصحى التي يلتقطها في الإذاعة والتلفزة وغيرهما[(1)]" وفي مقام آخر يقرّ بأنّ للعربية مستويين: **المستوى الإجلالي أو الترتيلي**، وهناك **المستوى العفوي** الذي أهمله الباحثون، وقد أجازته العرب من تسهيل للهمزة و إدغام الكثير من الحروف بين كلمتين، وانتفاء الحركات واختلاسها وتسكين بعض المتحرّكات، وحذف ما يستغنى عنه في حال الخطاب المرئي ولغة المشافهة في جميع الأماكن وجميع العصور، وهي أكثر اختزالاً وأوسع تصرّفاً من لغة التحرير، وبالتالي أكثر اقتصاداً. ويرى الأستاذ كامل حسين في كتابه (اللغة العربية المعاصرة) بأنّ مستويات اللغة العربية أربعة، وهي:

1ـ اللغة العالية؛ وهي لغة الأدب الرفيع والخطب والمواعظ.

2ـ اللغة المخفّفة؛ وهي الشائعة بين المثقفين والمتعلمين.

3ـ العامية المنقّحة؛ وهي تقوم على إحلال وتغيير بعض الأصوات والمفردات وطرق النفي والاستفهام الفصيحة محلّ ما يقوم مقامها من العامية.

4ـ العامية الخالصة.

ويبدو لي أنّه يمكن أن نبحث في هذا الموضوع "لنتبيّن الفصيح منها والنصّ عليه، على نحو ما صنع محمد علي الدسوقي في كتابه (تهذيب الألفاظ) وأحمد تيمور في كتابه (معجم تيمور الكبير) وأحمد عيسى في كتابه (المحكم في أصول اللغة العامية) ومحمود تيمور في كتابه (العامية الفصحى) وعبد المنعم سيد عبد العال في (معجم الألفاظ العامية ذات الحقيقة والأصول العربية) ومحمد داود التنير في كتابه (ألفاظ عامية فصيحة) [(2)]". وتكملة في هذا الطرح نجد توفيق الحكيم يرفع شعار

---

(1) عبد الرحمن الحاج صالح "اللغة العربية بين المشافهة التحرير" مجلة مجمع مصر. القاهرة: 1990، العدد السادس والستون، ص 118.

(2) شوقي ضيف "بين الفصح والعامية المصرية" مجلة مجمع مصر. القاهرة: 1990، العدد السادس والستون ص 135.

اللغة الثالثة التي يرى تجسيدها في **لغة المسرح**، وهي لغة وسط بين الفصيحة والعامية، لغة تبتعد عن الزخرف اللفظي وغريب اللغة، ولا تهتم بالجوانب الشكلية، ومن هنا دعا إلى طريقة عملية تطبيقية في اللغة العربية بتوظيف اللغة الثالثة، فقال: يجب الاقتراب قدر الإمكان من اللغة العامية التي تتطلّبها حياة بعض الشخصيات العادية... إنّها تجربة النزول باللغة العربية الفصحى إلى الأدنى لتلاصق **العامية دون أن تكون هي العامية، والارتفاع بمستوى العامية دون أن تكون هي الفصحى**، إنّها اللغة الثالثة التي يمكن أن يتلاقى عندها الشعب كلّه[1]". لقد أقرّ توفيق الحكيم خصائص هذه اللغة التي تبدأ من المسرح لما له من دور مشترك بين الخاصة والعامة ولذلك كان من مشجعي نشر العامية، وجسّد ذلك في مسرحيته (الصفقة) التي نشرها عام 1956م. ويعضده بعض الباحثين من أمثال عصام محفوظ في كتابه (دفاعاً عن العامية في المسرح العربي) الذي يرى بأنّ اللغة الثالثة ضرورية، فهي توجد في التمثيليات؛ هذه التمثيليات التي تتّسع لتجسيد حالات شعورية محدّدة في سياق درامي محدّد، إنّها عملية تواطؤ بين المكتوب الشفوي لتوليد لغة حيّة ومعاصرة، لغة الحياة أولاً وأخيراً، لا حاجزاً إضافياً ينتصب بين الخشبة والجمهور. وإنّ المسرحيين يوظّفون لغة التراث الشعبي، وهي اللغة التي يفهمها الجمهور وينفعل معه، وهي تجربة النزول بالعربية الفصحى لتلاصق العامية، وهذا ما يلمس في المسرح الجزائري من خلال أقوال القوّالين والمدّاحين وما يسمع في حلقات الرواة، وكان علالو يقول: كنت أكتب باللغة العامية المفهومة من طرف الجميع، ولكن ليست بالعامية السوقية الرديئة، فهي لغة غريبة ملحونة ومنتقاة.

وفي الحقيقة فإنّنا كثيراً ما نسمع ألفاظاً وكلمات في لهجاتنا العامية ونعتقد في أغلب الأحيان أنّها كلمات عامية، وليس لها أصول في العربية الفصحى، وربّما نسخر من عاميتها، ولكن عندما نمعن النظر فيها نجد أصولها عربية فصيحة حدث فيها تحريف بسيط؛ مما جعلها تخرج من فصاحتها إلى العامية. وعلى مرّ السنين نرى هذه

---

[1] توفيق الحكيم، مسرحية الصفقة. القاهرة: مكتبة الآداب، ص 158.

الألفاظ لسلاستها تنحو منحى بعيداً عن الفصحى فتأخذ مجاريَ جديدةً عن طريق الحذف أو الإبدال أو التسهيل في النطق، وهذا ما يمكن أن نلاحظه في كثير من الأسماء والصفات والأفعال، ويلمس هذا في اللهجات العربية بشكل قويّ، والآن ألا يجب البحث في شوارد هذه الألفاظ وردّها إلى محالها؟

ويمكن اختصار هذا العنصر في أنّ العربية منذ العصر الجاهلي عرفت التطوّرات التالية:

أ ـ ظهرت عربية العصر الجاهلي فصيحة وقد زكّاها القرآن بنزول كلم الله بها.

ب ـ عرفت العربية في صدر الإسلام دخول ألفاظ وأساليب جديدة، زادت من توسيعها وتسهيلها.

ج ـ عرفت في العصر العبّاسي تطوراً في المفاهيم وتسهيلاً في قضايا النّحو.

د ـ عرفت انحداراً في عصر الضعف، ودخلتها الابتهالات وسفاسف الألفاظ.

ه ـ احتكّت بقوة في العصر الحاضر باللهجات، وباللغات الأجنبية، وبكثير من المؤثّرات، فلم تعرف تلك الفصاحة التي وجدت في أنماطها الأولى.

وـ عرفت الاحتكاك القويّ بوسائل الأعلام الذي أمدّها بأساليب لم تعرفها في السابق، وتولّت أنماط مزيج بين العاميات واللغات الأجنبية.

ز ـ ظهرت دعوات لتيسير العربية من قبل المجامع، والبدأ بتيسير نحوها.

ط- ظهرت فكرة إيجاد علاقة بين العاميات واللغة الفصحى عن طريق التقريب بينهما أو ردّ العامية إلى أصلها الفصيح، وسمّاها البعض **بالفصحى المعاصرة**.

3ـ **الفصحى المعاصرة**؟ هي اللغة الوسطى المحكية، لا يلغى فيها الإعراب بتاتاً، و إنّما يُتخفّف منه إلا في مواقف الشُّبهة واللّبس، وتُعني في واقعها بمستوى لغويٍ يقف وسطاً بين الفصحى وبين العامية، وبين لهجاتها المحلية المختلفة، وتكون بمثابة

لغة مشتركة سليمة سائغة يجيدها الخاصة ولا تعجز عنها العامة. هي لغة تواصل، وأساس تحقيق المزيد من الترابط الفكري والتماسك الحضاري "لغة تتّسع الفرص بها للتعبير بالعربية الصحيحة في كلّ مجالات الإعلام والتعليم والتوعية والتثاقف المحكي بنحو عام. وهكذا تسهم هذه اللغة في تحقيق المزيد من ديمقراطية العلم والمعرفة في المجتمع العربي، وفي تضييق الفجوات الثقافية بين طبقات هذا المجتمع[1]" فرضت الفصحى المعاصرة نفسها بديلاً وحلاًّ للإشكال اللغوي، وقد تكون الحلّ الأمل للأَزَمَة التي تواجهها اللغة العربية ويمكن أن تكون الوسيلة التي تخفّف حدة الصراع بين فصحى العربية وعامياتها كما يمكن أن تكون الوسيط الواصل الذي يتوحّد عليه أو يلتقي عنده أفراد المجتمع العربي في مجالات التعليم والتثقيف. وبذا بدا لي بأنّ قضية الفصحى المعاصرة (اللغة الثالثة) هي **الضرورة** المطلوبة التي نسعى أو ننشد وجودها بالفعل في البحث عن التطوير اللغوي الجاد في التخطيط اللغوي الذي يعالج المشكلة اللغوية في اللغة العربية من ناحيتين:

1ـ ناحية اللغة العربية، والمطلوب فيها:

- تنقيتها من العناصر الداخلية غير الفاعلة.
- تفصيحها في جميع مجالات الاستعمال الرسمي والإعلامي والتعليمي.
- توسيع مجالات الدعم السياسي قولاً وفعلاً.
- تبسيط قواعد النّحو.
- تحديث مناهج وطرائق ووسائل التعليم.
- إغناء رصيدها بالمصطلحات الحضارية.

---

[1] أحمد محمد المعتوق، نظرية اللغة الثالثة دراسة في قضية اللغة العربية الوسطى، ط1. المغرب: 2005 المركز الثقافي العربي بالدار البيضاء، ص 7.

– إعطاء المكانة العلمية للغة الوطنية (الأمازيغية) وتفعيلها تفعيلاً علمياً يأتي في المرتبة الثانية بعد اللغة العربية الموحِّدة.

– تطبيق سياسة وطنية خاصة باللغات الأجنبية.

2ـ **ناحية اللهجات العربية**: الإقرار بواقع لغوي يحتاج إلى دراسات ووضع أطالس لغوية لمختلف اللهجات العربية على اعتبار أنّها روافد للغة العربية.

وبذا يبدو لي أنّ المشكلة اللغوية سوف تخفّ أو تهدأ بالاستناد إلى التخطيط الناجع الذي "... يحكم عمليات التدخّل في توجيه اللغة، وينظم سيرها، كما تؤكّد ذلك بعض الدراسات المتعلّقة به نشاطات إدارية وتربوية وسياسية لا تستهدف جانباً معيّناً من اللغة أو ظاهرات محدّدة مرتبطة بها وإنّما تستهدف كلّ ما يتعلّق بها من جوانب، وكلّ ما يرتبط بها من ظاهرات، وما يتبعها من قضايا ومن تعقيد وتيسير وتنقية وتفصيح وتحديث وإصلاح، أو تطوير للأنظمة الأساسية المرتبطة بالأصوات أو المفردات أو التراكيب[1]". وفي هذا التخطيط يتدخّل الحديث عن خصائص اللغة الثالثة من حيث:

1/2: إطاراها العام: وهو الجانب الشكلي الذي يحدّد الباحثون في:

– أن تكون عربية محكية، فصيحة سليمة في تكوينها العام.

– أن تكون لغة التعليم في جميع مراحله، ولغة الإعلام الجماهيري في معظم أشكاله، ولغة للثقافة والتثقيف المحكي عامة.

– أن تسير في مختلف درجاتها ومجالاتها وفق قواعد العربية الفصحى.

– أن يكون لها من الألفاظ الأجنبية المعرّبة والدخيلة نصيب واف، ولكنّها خالصة في متنها وبناء مفرداتها.

[1] أحمد محمد المعتوق، نظرية اللغة الثالثة، ص 31.

- أن تكون منسجمة مع مستجدات الحياة الحاضرة وظروفها المتطوّرة، ومع طباع الناس وذوقهم العام المشترك.

- أن تكون متخفّفة من كلّ ما يمنع من ديمقراطيتها، وديمقراطية الأدب والفكر الذي يتمّ إيصاله ونشره بها.

- أن تكون بعيدة عن كلّ ما يؤدّي إلى الشعور بصعوبتها أو الإحساس بخصوصيتها أو عزلتها وبعدها عن الحياة العامة.

- أن تكون ميسّرة القواعد والأساليب.

- أن تكون بعيدة عن كلّ ما ينأى بالجيل أو يفصله على المدى القريب أو البعيد عن نصوص وعناصر تراثه الفكري والأدبي.

- أن تكون سهلة التعليم والاكتساب؛ حيث يمكن أن تكتسب لبساطتها وكثرة تداولها في مجالاتها الخاصة بها من خلال السماع[1]".

2/2ـ محاسنها:

- تحدّ من الزحف المتواصل للعاميات.

- تمنع اضطراب الفصحى.

- تكون وسيلة اتّصال بين المختصّين والمثقفين، وبين الذين يتمتّعون بحسّ مميّز وسليقة لغوية خطابية سليمة.

- يكون لها أحيانا طابع إقليمي مميّز، ولكن يبقى الطابع العربي الفصيح المشترك هو السائد.

- تعنى بالنّمط اللغوي التواصلي الذي يتخلّى المتحدّث فيه أحياناً عن مفردات لهجته الخاصة ليستبدل بها ألفاظاً فصيحة مشتركة.

---

[1] أحمد محمد المعتوق، نظرية اللغة الثالثة، ص 99ـ 101 (بتصرّف).

- يتمّ التحاور بها في المواقف الخطابية الرسمية والمناسبات الثقافية الرسمية، يستعملها المثقفون في مناقشاتهم للرسائل الجامعية.

3/2ـ معجمها:

- يستند إلى الفصحى.
- يسترفد من العامية.
- يعتمد المفردات المولّدة.
- يقترض من اللغات الأجنبية.

ومن هنا فلا مناص من الإقرار بأهمية هذا المستوى اللغوي الثالث الذي يمنع الاضطراب في استعمال اللغة العربية في أطرها ومجالاتها السليمة، ويحفظ نوعاً من الموازنة. وعلى سبيل المجاز يمكن إطلاق التسمية عليها بأنّها **اللغة الثالثة ذات الكيان اللغوي الذي لا يرقى في أعلى مراتبه إلى منزلة الفصحى، وإنّما هي أدنى منها.**

4ـ هل هناك فصحى معاصرة؟ لقد استوعبت الفصحى المعاصرة ما لا يكاد يحصى من الألفاظ والمعاني، وحصل تطوّرها في مجال الأدب، وحدثت ضروب شتّى من التحوّل والتطوّر ممّا أعدّ لظهور أنماط لغوية جديدة ظهرت في الشعر والمقالة والقصة والمسرحية، وهذا عندما شعر الباحثون والمبدعون بأنّهم في حاجة إلى أسلوب جديد يرتفع عن الابتذال، ويهبط عن الإغراب الشديد، أسلوب وسط يقترب من أفهام عامة المثقفين دون ركاكة أو إسفاف. فنجد لغة الشعر المعاصر تعمل على كسر طبقية الثقافة وبورجوازيتها؛ بحيث صار الشعر على أفواه بعض الشعراء خبزاً يومياً يأكله 300 مليون عربي، فماذا نقول في شعر نزار أو درويش أو صديقي، أو ميهوبي... شعر لا تجد فيه التضييق والجمود والتقيّد بأغلال السجع والبديع وبقيود النّحاة ونرجسية بعضهم في تلك الحدود التي فرضوها: لا يجوز هذا القول/ لقد أخطأ/ لم يلتزم القاعدة/ قل ولا تقل... ويصحبهم في هذه القيود المحنّطة أولئك

الحرّاس على اللغة أو شرطتها مدجّجين بالعُقد ومُركبات النقص، والغيرة على الإبداع المعاصر الذي لم يحترم المعيارية الصفوية. ولا أراني أبالغ إذا قلت: إنّ الشعر المعاصر عمل على دفع اللغة إلى الأمام، وأمدّها بزخم لغوي أثرى زادها، ويضاف إلى هذا تلك الفنون الأدبية التي نجدها في العامية؛ حيث تندفع في عصرنا إلى الاقتراب من الفصحى اندفاعاً، كما تجد اللغة المستعملة في كثير من المسرحيات المعاصرة الإقبال الجماهيري لما لها من قول حسن بسيط؛ يجمع بين العامية والفصحى، وذات الشيء يلاحظ في الأزجال الشعبية المعاصرة.

5ـ **دور وسائل الأعلام في تثبيت الفصحى المعاصرة**: لقد اغتنت الفصحى المعاصرة بقوّة عن طريق لغة الإعلام لما تحمله المقالات الصحفية من مصطلحات وتعابير، وكان للغة الإعلام آثار إيجابية في تحقيق المزيد من التنمية اللغوية، رغم من يرى بأنّ الخرق اللغوي جاء من الصِّحافة. ومع كلّ ما يُقال فإنّ لوسائل الإعلام تأثيراً متميّزاً في فصاحة الحدث الصِّحفي؛ حيث أُشيد بالأسلوب السهل المشرق الذي طرأ على العربية اليوم والفضل فيه يعود إلى وسائل الإعلام التي ترمي ببعض قواعد الفصحى، وتزيل ظلال الدلالة، وتغيّر لونها، وتعطي لها صورة بعيدة عن الأصل في ثوب سهل مشوّق، ومع هذا فلا ننكر أنّ وسائل الاتّصال -بشكل عام- عملت على تثبيت هذه اللغة نظراً لاستجابتها للتطوّرات اللغوية المعاصرة، ولخفّتها وسهولة الاتّصال بها بيسر وبأقلّ جهد، ومن هنا فهي في الحقيقة **لغة الإعلام المعاصر** وهي عامية معرّبة أو مفصحة؛ تتّصف بالجدّة والطّرافة، وهذه الجدّة تظهر في توليد دلالات جديدة "ولا تتقدّم بعد منتصف القرن الماضي طويلاً حتى تتكاثر عندنا الصحف، وحتى تنشأ معها لغة ثالثة وسطى بين الفصحى والعامية. لغة فصيحة مبسّطة لا تنزل إلى مستوى الابتذال العامي، ولا تعلو على العامة؛ بحيث يفهمونها دون أيّ عسر أو مشقة. لغة بسيطة سهلة يخاطبون بها طبقات الأمة، ولا تميّز بين طبقة وطبقة، بل ربّما كان اهتمامها بالطبقات الدنيا يزيد على اهتمامها بالطبقات

العليا في الشعب، إذ نريد أن تنتشر بين جماهيره[1]". ولقد لعبت وسائل الإعلام الدورَ الرئيسَ في التقريب بين اللهجات والفصحى؛ فكانت تمثّل مستوى من مستويات اللغة الفصحى المعبّرة عن معاني الحياة الجديدة إلى متطلّبات الحياة العصرية، وبفضل هذه الوسائل نجد دارجة الألفية الثالثة تقترب إلى الفصحى في بعض المرامي، وأطمح أنّ هذا البعد سوف يتقلّص بفعلها، وبمحو الأمية. ومهما يسجّل من مساوئ على لغة الإعلاميين، فإنّه كان لهم السبق في ترسيخ لغة يفهمها العامة والخاصة بشكل مقبول، إلا أنّ هذا السبق هو جهد يسجّل عليهم، ومع ذلك يحتاج إلى العناية بالنقد الأدبي لما يُذاع ويُنشر سواء بالعامية الراقية أو الفصحى، ويَحتاج إلى العناية بتدريب الصحافيين والمذيعين الجُدد على النطق السليم والكتابة العربية الصحيحة، ولا يجب الإغفال عن متابعة رصد الأخطاء وتصحيحها بهدف الارتقاء بلغة الصحافيين، فقد أثبتت التجارب التي قمنا بها في هذا الشأن بأهمية رصد تلك الأخطاء وردّها إلى صوابها، فكان الإعلاميون يتابعونها ويصححون أخطاءهم[2]، ولا يقتصر الأمر على التصحيح، بل يجب أن تتقوّى دروس العربية في كليات الصِّحافة، وتتعزّز العلاقة بين مجامع اللغة العربية ووسائل الإعلام؛ بحيث تسارع المجامع إلى تزويد وسائل الإعلام بما تعتمد من مصطلحات، وإحداث جوائز تشجيعية للمتفوّقين في العمل الإذاعي بحسن استعمال اللغة العربية تحريراً وإلقاءً.

والخلاصة: هذه لمعة تطفّلت بها على الباحثين النّحارير، وقد تسدّ الثلمات، وربّما ترتق الفتوق وهل العلم إلا المحاورة وقدح زِناد الآراء. طرحٌ محرجٌ، لكنّه يفتح أمامنا مواقع وضع أقدامنا ويهدينا سبيل تطوير هذه اللغة بمنطق وبواقعية، حتى تكون سلوكاً

---

(1) شوقي ضيف "بين الفصحى والعامي" مجلة مجمع مصر. القاهرة: 2000، العدد التاسع والثمانون، ص 44.

(2) أجرى فريق من طلبة الماجستير دفعة 2004ـ2005 دراسات ميدانية حول لغة الأعلام، ومن بين الأبحاث التي وقع تركيزنا عليه (**نشرة الثامنة نموذجاً**) التي أخذت عيّنات من الأخطاء التي تصدر عن المذيعين، وقد عملنا على نشرها في وسائل الأعلام، وتابعنا أثر ذلك في تصحيح المذيعين للغتهم، وبالفعل تمّ تصحيح كلّ الأخطاء المرصودة، وبإقرار عيني كان ذلك بلسماً للغة المذيعين من خلال التصويبات التي حصلت في الأخطاء التي عمل الباحثون على نشرها في بعض الصحائف الوطنية.

يومياً معيشاً، تنمو وتنضج تبعاً لتعاقب الأزمان، وفي مواقف حياتية تتّسم بالتعدّد. أنا مع الفصحاء المدافعين عن العربية من تحريفات وأوهام الشُّداة، المقصّرين العاجزين عن العمل، وضد أولئك الذين عسعس فيهم التردّد والتراجع، وعشعش فيهم الخمول والتكاسل. أنا مع الرافعين شعار **التقريب بين الفصحى والعامية ومعالجة الواقع اللغوي بتوحيد وجهات النظر**. ويسجل عليّ التاريخ بأنّ الفصحى المعاصرة التي أنشدها لا تخرج عن:

1ـ التفريق بين لغة المشافهة ولغة الكتابة: فالفصحى المعاصرة تنشد بقوّة في لغة المشافهة وفي المقامات المتنوّعة؛ بحيث يوظّف فيها الرَّوْم والاختلاس والإدغام والإشمام، وهذا ما هو متوفّر في القراءات القرآنية.

2ـ المحافظة على النّمط اللغوي الفصيح في لغة الكتابة: ولا يجوز النزول بلغة الكتابة إلى مستوى توظيف الألفاظ ذات البعد البسيط، وحتى في المواقف التي تستدعي ذلك. ويا حبّذا الرقي بلغة الإدارة، ولغة الحياة اليومية أن تكون وظيفية فصيحة تؤدّي التواصل بكلّ انسياب في المكتوب.

3ـ مراعاة المواقف والمقامات: بحيث نجعل للغة مستويات ثلاثة:

أـ المستوى المتأدِّب ويترك لخاصة الخاصة. ب ـ المستوى العام؛ وهو المستوى الثالث الذي يلتقي فيها كلّ الناس ويكون وسيلة الاتّصال الدائم. جـ - المستوى العامي؛ يترك لأهله. ولا أعني بهذا النزول بالعربية إلى توظيف اللهجة فقط، أو الخليط الذي نسمعه في بعض الإذاعات، وفي بعض الفضائيات[1].

---

[1] من الإذاعات الجهوية التي تعمل على المسخ اللغوي (**إذاعة البهجة**) التي تبثّ في الوسط الجزائري تستعمل الهجين اللغوي بتوظيف الدارجة والأمازيغية والفرنسية، ولا تعطي احتراماً للعربية الفصحى، ولا تعمل على ترقية الدارجة. ويتعدّى أمر هذا الهجين إلى **الفضائيات اللبنانية** التي تعمل على مسخ لغوي قبيح، علماً أنّ هذه الفضائيات تستقطب جيل الشباب بقوّة.

4ـ **تشجيع لغة الصحافة**: ليس دفاعاً عنها، بقدر ما هي السبب الرئيس في أنّها تمدّ اللغة المعاصرة بأساليب ومسكوكات جيّدة تعمل على مسايرة المستجدات، وهذا في إطار المحافظة على الحدود اللغوية البسيطة التي يتملّكها مستعمل الفصحى المعاصرة.

ومن هنا أريد جهود أولي العزم من المؤمنين بسيادة العربية التي تبتغي التطوير التي بمعناها التحسين والبحث عن النوعية، مثلما شهدت حركات التصحيح المتمثّلة في طرد بعض الألفاظ من حظيرة الفصحى، أو تغيير دلالة ألفاظ أُخَر، ناهيك عن إضافة تعابير جديدة يومياً. وإنّي لا أريد أن نجري وراء بقيعة واهية، والحقّ لا يُمترى فيه أنّ الأبحاث العلمية والتربوية واللسانية تثبت أنّ المستوى الثالث يمكن تحقيقه، ويكون حبل النجاة للفصحى، وقد ينقلها في لاحقٍ من الزمان إلى عصورها الزاهرة. وبذا ترونني أقرّ بأنّ حفظ العربية تعتمد الاستعمال لا الاهتمام بالقواعد، وإذا تعارض القياس مع السماع، فالسماع أولى (أي الاستعمال). إنّني أنشد الفصحى المعاصرة (اللغة الوسطى) التي هي **ضرورة فليست طعنة**؛ باعتبارها لا تبتعد عن الأصل، بل تستند في أصولها إلى الفصحى، ولا تبقى صلبة جافة متحجّرة تلتصق كلّ الالتصاق بذلك الأصل فتنعزل، وينعزل أهلها عمّا يحيط بهم، لغة تسمح لنفسها بالتواصل مع اللغات الأخرى، لغة لم تبقَ تقف عند معلقةِ عنترةَ ولا شعر الشنفرى، لغة في ثوبها السهل الذي يكون في متناول الجميع، ولكنّها لم تهبط إلى لغة تاجر الخردوات، أو لغة بائع السمك المتجوّل. لغة هي أقرب ما تكون إلى لغة ابن المقفع والجاحظ، وابن رشيق القيرواني، لغة لها مرونة الجمع بن الفصحى والعامية، فهي ذات صدر رحب واتّساع لمزيد من **الاقتراض من المصطلحات الحديثة، ومن إحياء الألفاظ القديمة، ومن الأخذ بالألفاظ الأجنبية.**

وأختم لأقول: ما أردت من خلال هذا الطرح الذي أنشد فيه **المستوى الثالث** للغة العربية إلا إصلاح الوضع اللغوي، الذي ما استطعنا التمسّك بالتراث، ولا جارينا الحداثة، فثقافتنا هشّة، وأنّى للعربية أن تتطوّر، وهي تُضايَقُ في أكثر من مكان، فبحثتُ عن المكان الذي تموت فيه العربية وأين تحيا، فوجدتُها تموت في كلّ مكان، إلا في المجلس الأعلى للغة العربية فهي تحيا وتحيا وتشعّ فأنعم به من مجلس!

الازدواجية العربية وأثرها على انتشار الفصحى أو العربية المشتركة

د/ الطاهر ميلة- جامعة الجزائر

أنجزت أعمال كثيرة حول العامية والفصحى في العصر الحديث، يمكن تصنيفها إلى مجموعتين، المجموعة الأولى هي دراسات لوصف طبيعة العلاقة التي تربط بين هذين المستويين من العربية، ولما يتميز به كل واحد منهما عن الآخر وهذه الدراسات حديثة نسبيا، جرى معظمها في النصف الثاني من القرن الماضي وانصبت خاصة على مسألة تفصيح العامية، إذ كتب عدد كبير من المقالات حول العاميات العربية وتقصى أصحابها ما فيها من فصيح[1]ما قدمت أعمال حول أثر العامية في المسرح والقصة والرواية[2]وقليلة هي الدراسات التي عالجت الموضوع من جوانبه المختلفة، واستفادت من البحوث اللسانية الحديثة[3].

أما المجموعة الثانية من الأعمال، فتتمثل في الجهود التي بذلت من أجل إيجاد حلول لهذه الظاهرة. وقد بدأ القدامى هذا النوع من الأعمال ذات الصلة الوثيقة بموضوع العامية والفصحى بدراساتهم للحن العامة وتصحيح الأخطاء من خلال ما يعرف ب قل ولا تقل، وكثر هذا النوع من الأعمال في القرنين الماضيين[4].

---

(1) انظر مثلا عبد العزيز بنعبد الله، العامية والفصحى في القاهرة والرباط مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ج 53، فبراير، 1984، صص214-238.

(2) شوقي ضيف، لغة المسرح بين العامية والفصحى، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ج 45، مايو 1980، صص 51-64.

(3) مثل – سعيد محمد بدوي، مستويات المعاصرة في مصر، دار المعارف بمصر

– نهاد الموسى، قضية التحول إلى الفصحى في العالم العربي الحديث دار الفكر للنشر والتوزيع.

(4) رياض قاسم، اتجاهات البحث اللغوي الحديث في لبنان، 1901- 1960، مؤسسة نوفل، ط1، بيروت، 1982، 189- 244.

وهناك جهود، ليس لها صلة مباشرة بموضوع الفصحى والعامية، وأقصد بذلك ما بذل من جهود لخدمة الفصحى عامة حتى تساير ما يستجد من تغيرات حديثة في المجتمع العربي في جميع أحواله، ويظهر ذلك في حركة توليد ألفاظ الحياة اليومية الحديثة والمصطلحات العلمية والتقنية، والسعي لنشرها في أوساط المجتمع بالوسائل المختلفة كالتعليم والإعلام وما إلى ذلك[1].

تبين لي من خلال قراءة ما كان في متناولي من دراسات وأعمال حول علاقة العامية بالفصحى، أو ما يسميه اللسانيون المحدثون الثنائية أو الازدواجية وجود عدد من الإشكاليات المطروحة في هذه الظاهرة اللغوية التي تعرفها بعض اللغات، ومنها العربية، شارك في ظهورها عدد من العوامل التاريخية والاجتماعية واللغوية المتداخلة[2].

والإشكالية المطروحة في هذه الورقة تنطلق من فرضية ترى أن عدم وجود لغة منطوقة في العربية الفصيحة، تستعمل بكيفية عفوية في سائر مجالات الحياة، أو بعبارة أدق غياب المنطوق الفصيح الذي كان متداولا أثناء عصور الاحتجاج في التعاملات اليومية، هو السبب الرئيسي في عدم انتشار الفصحى وضعف التحكم فيها من قبل المتعلمين، لأنها ابتعدت عن اهتمامات الناس اليومية منذ قرون[3]، لهذا حرمت من الممارسة اليومية التي تحولها إلى لغة وظيفية وعفوية، وهما سمات اللغات الطبيعية. ونتج عن الوضعية السابقة احتكار العاميات العربية التعبير عن أمور الحياة اليومية، وانفراد الفصحى المكتوبة بالتعبير عن المجلات الدينية والأدبية والفكرية والثقافية. وهو ما جعل مجالات استعمالها محدودة وخاصة بالفئة المتعلمة من الناس

---

(1) ينظر عل سبيل التوضيح:
- نشأة ظبيان، حركة الإحياء اللغوي في بلاد الشام، دمشق، 1976.
- إبراهيم الترزي، مجمع اللغة العربية بالقاهرة في خمسين عاما

(2) Boyer (H), Elément de sociolinguistique…Dunod. 1991, pp 92-100

(3) أي منذ انتهاء عصر الاحتجاج في القرن الرابع للهجرة.

دون غيرها، أما العاميات العربية، أو اللغة المنطوقة عامة، فهي أكثر استعمالا من الناحية الإحصائية [1]سواء في عدد الناطقين أو في الوقت المخصص لاستعمالها، وهي لذلك أكثر عفوية ووظيفية، لأنها أقرب إلى انشغالات الناس اليومية، أما الفصحى فقد حرمت من كل الناطقين المحتملين ومن الوقت الكافي لاستعمالها، لأن مجالات استثمارها محدودة في المكتوب، وأي محاولة لنقلها إلى المنطوق تصطدم بالرفض، لأن سلطان العامية، كما سماه محمود تيمور[2]الناتج عن كثرة الممارسة وقربه من حاجات المستعملين منع ذلك، وقد يكون هذا سببا أيضا من الأسباب التي جعلت معظم ما يكتسب من اللغة في المؤسسات التعليمية لا يصل إلى كل الناطقين بالعربية، أو هو ليس في متناول كل الناس، ولاسيما إذا كانت الأمية منتشرة، كما هو حالنا اليوم مقارنة بشعوب الدول المتقدمة.

إنّ اللغة سلوك عفوي مكتسب، يصعب تغييره في وقت قصير، على الرغم من المحاولات الكثيرة التي بذلت منذ قرون لتصويب كلام العامة من خلال **قل ولا تقل،** ولهذا ربما يفهم رضوخ الناس لهذه الوضعية اللغوية المتوارثة، ورأت النخبة منهم أن المستوى المكتوب هو الذي يحتاج إلى رعاية و إصلاح، وهو ما حدث قديما وحديثا، أما المستوى المنطوق العامي، فأهمل لأسباب قد تكون معقولة في فترات تاريخية معينة[3] ولم يلتفت إليه إلا في العقود الأخيرة[4].

---

(1) محمد العبد، اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة: بحث في النظرية، دار للفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 1990.

(2) سلطان اللغة العربية أو رأي في الصراع بين العامية والفصحى، مجلة مجنع اللغة العربية بالقاهرة، ج 11، 1955.

(3) لعل من أهم هذه الأسباب في البداية حماية لغة القرآن الكريم من التحريف.

(4) ألف عدد من المعاجم في ألفاظ الحياة اليومية

مثل: _ معجم الحضارة لمحمود تيمور، 1961

- معجم ألفاظ الحضارة ومصطلحات الفنون لمجمع اللغة العربية بالقاهرة، 1980.
- معجم ألفاظ الحضارة لمحمد قاسم، 1995.

ومن هذا المنظور لا تعتبر علاقة العامية الحالية بالفصحى مجرد علاقة اللغة المنطوقة بالمكتوبة، كما هو عليه حال بعض اللغات الآن، لأن هذه الأخيرة تكون لغة مشتركة بين جميع الناطقين بها، بينما علاقة العامية بالفصحى في العربية الحالية تنتفي فيها هذه الصفة، لابتعاد العامية عن أصلها الفصيح، لأسباب طبيعية، تعرفها كل اللغات المنطوقة غير المقننة، ولتباين العاميات العربية فيما بينها، وهذا ما أدى إلى ظهور مشكلات لغوية كثيرة وكبيرة – في رأيي- نتيجة طبيعة هذه العلاقة، ومن بين هذه المشكلات هي أن الناطقين بالفصحى يجدون صعوبات كبيرة للتعبير عن أمور الحياة اليومية، والناطقين بالعامية يعجزون عن التعبير بها عن القضايا الفكرية والعلمية، وأحسن مثال يذكره الدارسون لهذه الحال هو كون دعاة العامية في العقود الماضية يدافعون عنها بالفصحى في الصحف والكتب وكون المدافعين عن الفصحى يتكلمون بالعامية في أمور حياتهم اليومية، وهذا شيء طبيعي، لأن اللغة سلوك يصعب تغييره، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، ولأنّ الهوة بين المستويين من العربية كبيرة [1]، وخاصة فيما يتصل بمتنهما.

إن المشكلة التي أقصدها هنا ليست في الكلمات الموروثة في العاميات العربية، أو في كيفية نطق أصواتها، لأن معظمها من قبيل الفصيح الائتلافي، كما يسميها نهاد الموسى[2] أو الفصاحة فصاحات عند رشاد الحمزاوي [3]، بل إن المشكلة تطرح أكثر فيما طرأ ويطرأ على العاميات الحديثة من جديد من لغات أخرى في عصرنا هذا، وما أكثره، لأنّ الرأي الذي يقول إن معظم عناصر العامية أو تسعين بالمئة منها على الأقل،

---

(1) ينظر على سبيل المثال، مجيد الماشطة، العلاقة بين العربية الفصحى والعامية في الماضي والحاضر والمستقبل، الملتقى الدولي الثالث في اللسانيات، الجامعة التونسية، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، العدد 6، صص 213 فما فوق.

(2) قضية التحول إلى الفصحى في العالم العربي الحديث، مرجع سابق، ص 51.

(3) الفصاحة فصاحات، محمد رشاد الحمزاوي، دار الغرب الإسلامي، ط2، ص 17.

هي من قبيل الفصيح[1] يحتاج إلى نظر. فإذا سايرنا هذا الرأي نتساءل حينئذ أين تكمن المشكلة إذن بين الفصحى والعامية، ما دام معظم ما في العامية فصيح. ثم حتى وإن كانت هذه الكلمات والأداءات المختلفة فصيحة الأصل وحدث فيها تطور بكيفية متباينة من عامية إلى أخرى، فأين اللغة المشتركة التي تعد من بين الميزات الأساسية للفصحى؟ لذلك تمسك بها الناس منذ قرون إلى اليوم، زيادة عن الجانب الديني فيها.

ولهذه الثنائية العربية انعكاسات كثيرة على المكتسبات اللغوية في الفصحى والعامية خاصة، وعلى التنمية الاجتماعية بصورة عامة. وتتجلى الحالة الأولى في قلة استفادة الطفل من مكتسباته اللغوية السابقة، أي من عاميته، عندما يدخل إلى المدرسة، لسببين، فيما أرى، أولهما اختلاف المستويين اللغويين من حيث البنية والدلالة، كما أشرنا إلى ذلك، وثانيهما ضعف التأطير الذي يستطيع أن يثمن ما في لغة الطفل من فصيح[2]. وبالرغم من كل ذلك، فإن الطفل في هذه المرحلة من النمو يتعلم ما يعرض عليه بسرعة كبيرة، لو يجد مجالا خارج المدرسة لتوظيف ما تعلمه، أو ما يسميه بعض الدارسين المحدثين الحمام اللغوي الفصيح[3]. فالدراسات حول التعلم المبكر للغات الأجنبية، بينت أن الطفل في السنوات الأولى من عمره بمقدوره، ولاسيما قبل 10 أو12 سنة أن يتعلم بسرعة كبيرة أكثر من لغة وبكيفية لا تقل تحكما عن لغته الأولى أو لغة المنشأ كما يسميها أستاذنا عبد الرحمان الحاج صالح. والحقيقة التي لا يختلف فيها اثنان أن المحيط عندنا لا يشجع حاليا توظيف ما اكتسبه المتعلم، سواء وهو في مرحلة الدراسة أو بعد انتهائه منها، لأنّ المحيط العام سيطرت عليه العامية، وفي بعض الأوساط الاجتماعية اللغات الأجنبية. وهو الأمر الذي أدى إلى ضعف مستعملي اللغة العربية الفصيحة، على الرغم من بقائهم في مقاعد الدراسة مدة

---

(1) مختار نويوات، بين العامية والفصحى، أعمال المائدة المستديرة التي نظمها المجلس الأعلى للغة العربيـة في 200، دفاتر المجلس، الجزائر، 2005، ص 5.

(2) لقد أدخل معدو الرصيد اللغوي الوظيفي في بلدان المغرب العربي إدخـال عـدد مـن الكلمـات لهـا أصل فصيح ليتعود الطفل على استعمالها في المراحل الأولى من التعليم.

(3) أو ما يسمى في اللغة الفرنسية Bain de langue في تعلم اللغات الأجنبية.

طويلة، وهذا ما تشير إليه كل الدراسات الميدانية[1]، فضلا عن بعض العوامل المرتبطة بعملية التعليم نفسها التي تأتي، فيما أرى، في الدرجة الثانية. وقد عبر أكثر من دارس لتعليم العربية عن هذه الحال بقولهم أن ما تبنيه المدرسة يهدمه الشارع.

إنّ نشر الثقافة العلمية على نطاق واسع والتوعية الاجتماعية والصحية لكل الناس في بلد ما أو في مجموعة من البلدان التي تشترك في لغة واحدة، يقتضي استعمال لغة مشتركة مبسطة واضحة – إن وجدت- حتى تصل الرسالة التي يراد تبليغها إلى أكبر عدد من الناس، وهذه الشروط غير متوفرة كلها في الوقت الحالي لا في العربية الفصحى ولا في العامية، لهذا نجد عددا كبيرا من صفحات الإشهار والإعلانات وحملات التوعية، تتم بالعاميات، أي على حساب الفصحى، ولا يستفيد منها كثيرا من لا يحسن العامية المستعملة في غير بلده أو إقليمه.

ولهذه الوضعية أيضا انعكاسات –نتيجة لما سبق- على التنمية عامة، لأن الإنسان لا يستفيد كثيرا من المعارف العلمية والتقنية التي هي أساس أي تنمية في عصرنا الحالي، ما دام هذا الإنسان غير متحكم في اللغة، لأن جل وقته يقضيه في السعي لفهم اللغة وفك رموزها. واعتقد أن البلدان المنتجة للمعرفة اليوم، قد تجاوزت هذه المرحلة، لأنها توصلت إلى لغات معيارية منمطة، بها تنشر الثقافة العلمية والفنية وغيرها على نطاق واسع، وقد تكون اللغة عند هذه البلدان عاملا أساسيا من عوامل تطورها. قد يقول قائل إنّ الأعمال اللغوية التي أنجزت لتحديث العربية، وانتشار التعليم والثقافة والوسائل السمعية البصرية الحديثة في العقود الأخيرة، قربت بين العاميات العربية فيما بينها من جهة، وقربت بين الفصيح والعامي من جهة أخرى. قد يكون هذا صحيحا مقارنة ببداية القرن التاسع عشر مثلا، أو ما قبله ببضعة قرون، غير أن درجة التقارب مازالت ضعيفة، أو هي دون المستوى الذي يطمح العرب إلى بلوغه لأن أثرها كان قليلا جدا على الفصحى، باعتبارها وسيلة

---

[1] ينظر مثلا نهاد الموسى، اللغة العربية وأبناؤها، بحث في قضية الخطأ وضعف الطلبة في اللغة العربية مكتبة وسام، عمان، 1990.

اتصال في شؤون الحياة اليومية، إن لم تكن منعدمة بالنسبة إلى بعض الفئات الاجتماعية المحرومة من أي تكوين. ولا يفهم من هذا أن الجهود التي بذلت والوسائل المختلفة التي سخرت، لم يكن لها أثر محمود على نشر العربية الفصحى عامة، والمكتوبة على وجه الخصوص في عصرنا هذا، وبفضل هذه الجهود بقيت العربية لغة العلم والحضارة[1].ومن المظاهر الإيجابية التي تحققت خلال القرنين الماضيين نجد:

- أن الصراع الذي كان دائرا بين دعاة العامية ودعاة الفصحى زال أو خف، واقتنع معظم المهتمين بهذا الموضوع بضرورة وجود لغة مشتركة.

- إنّ كثيرا من الألفاظ الحضارية والمصطلحات العلمية التي ولدت حديثا منتشرة بكيفية موحدة، وخاصة تلك المتعلقة بالجوانب الثقافية والسياسية والقانونية، لأن هناك مؤسسات رسمية سهرت وتسهر على نشرها، عكس الألفاظ المرتبطة بأمور الحياة العامة خاصة، لأنّها تدخل في الاستعمال مباشرة من الأسواق العالمية، وعن طريق وسائل الإعلام وملصقات السلع التجارية.

- إنّ فئات كبيرة من المتعلمين باستطاعتهم استعمال العربية الفصيحة عند الضرورة، أي في المناسبات التي تستدعي استعمال المستوى الفصيح، وهذا ما يلاحظ في لغة الشباب الذين يشاركون في بعض الحصص الإذاعية والتلفزية، وفي الجلسات الرسمية وشبه الرسمية. ولكن لابد أيضا من الاعتراف أن للعامية حضورا قويا في شؤون الحياة اليومية، بل حضور بدون منافس، ماعدا اللغات الأجنبية التي تستعمل إلى جانبها من قبل بعض الفئات الاجتماعية، ومازالت العامية حاضرة في بعض المجالات الخاصة بالفصحى، مثل المسرح والقصة والرواية والإشهار، وهي أيضا لغة التواصل في مواقف خطابية، يفترض أن تكون بالعربية الفصيحة، مثل الدروس التي تلقى بالعامية في كثير

[1] ينر نهاد الموسى، مرجع سابق، ص 167- .171

من الفروع التقنية والعلمية التي تدرس بالعربية كما هو الحال في بعض مراكز التكوين المهني[1]وفي الحصص التي تبث في وسائل الإعلام المسموعة والمرئية[2].

ويمكن أن تكون النتائج المسجلة لصالح العربية الفصيحة أكبر مما هي عليها الآن، لو استغلت الجهود التي بذلها الأفراد والمجامع والمؤسسات اللغوية الأخرى، خلال القرنين الماضيين استغلالا حسنا من قبل المسئولين والعاملين في مؤسسات الإعلام والتعليم وسائر المؤسسات والهيئات الأخرى التي تستعمل اللغة العربية لمخاطبة الجمهور الواسع، أي أن هذه المؤسسات والهيئات لم تعط المنطوق الفصيح حقه من الاهتمام، بحيث يصبح هدفاً ضمن أهدافها الأساسية الأخرى. ويمكن أن نقول أيضا إن المؤسسات اللغوية، رغم إنجازاتها الكثيرة عملت في مجال المكتوب من العربية والمصطلح العلمي فيها أكثر مما عملته في المنطوق والألفاظ الحضارية. ولا يسع المقام هنا لذكر نقائص كل قطاع على حدة، فهناك دراسات ركزت على هذا الموضوع، وأعطته ما يستحقه من العناية[3].

ونستطيع أن نضيف إلى ما سبق، اختلاف نظرة اللغويين المحدثين إلى ما يجب أن يكون عليه وضع العربية في عصرنا، ويظهر ذلك من خلال عناوين المقالات المخصصة لموضوع الفصحى والعامية، فهناك من يرى تفصيح العامية ولكن دون توضيح لأي عامية، وليس في هذا الرأي سند علمي قوي - فيما أرى- ما عدا ما عرفه تاريخ بعض اللغات قديما التي كان أصلها لهجة من اللهجات، وهناك من يرى التقريب بينهما، ولم يبين أصحاب هذا الرأي - فيما أعلم- ماذا يقرب من ماذا وماذا يستبعد[4]وهناك من يدعو

---

(1) مغاوي نجوى، دراسة تجربة التخصصات التقنية باللغة العربية في مراكز التكوين المهني، مذكرة ماجستير، قسم اللغة العربية وآدابها جامعة الجزائر، 2006.

(2) سامي محمد ربيع الشريف، الأطفال ومحتوى الإعلانات في التلفزيون السعودي، الدارة، العدد 4، رجب شعبان رمضان، 1414 هـ.

(3) نهاد الموسى، التحول إلى الفصحى، 197 فما فوق.

(4) ينظر مثلا عبد العزيز بنعبد الله، التقريب بين اللهجات العربية، نماذج من المصطلحات الدارجة في المغرب الأقصى، اللسان العربي، مج 16، ج1.

إلى نشر الفصحى[1] أو على الأقل العربية الفصيحة أو المشتركة في المرحلة الأولى، كما أرى، حتى نتفادى بعض الاختلافات حول مفهوم الفصحى ونجعل العربية مرنة لقبول ما يستجد. ويبدو لي أنّ لهذا الغموض في الهدف أو تباين المواقف تجاه ما يجب القيام به من إصلاح تأثيرا على نوعية النتائج التي عرضنا عينات منها.

أليس بإمكاننا إحلال لغة عربية مشتركة محل العامية؟ وتكون العربية الفصحى، أو على الأقل الفصيحة منها، نموذجها الأعلى، ونقهر بذلك سلطان العامية الذي وقف حاجزا أمام كل إصلاح لغوي عام، بدل الدعوات إلى تفصيح العامية أو تهذيبها أو التقريب بينهما.

إنّ في تاريخ اللغات تجارب بينت أنه يمكن تحويل لغة منطوقة إلى لغة مكتوبة، ومنها تاريخ العربية وغيرها من اللغات المكتوبة، وبين هذا التاريخ أيضا أنه يمكن تحويل لغة مكتوبة إلى لغة منطوقة، وأحسن مثال على ذلك تجربة اللغة العبرية في عصرنا الحالي [2]، وكذلك ما عرفه عدد من اللغات المعيارية المعاصرة مثل اللغتين الفرنسية والإنجليزية.

نعم إنّ مثل هذا الاختيار الذي نادى به بعض اللغويين العرب طوال القرن العشرين، قد لا يجد إجماعا بين اللسانيين لاختلافهم في مسألة التدخل في اللغة، لأن عددا منهم، غالبا ما يؤمنون بالتطور الطبيعي للغات، ولذلك لا يرون ضرورة توجيه اللغة إلى الوجهة التي نرغب في الوصول إليها، ولو حاولنا ذلك لما استطعنا، لأن اللغة ظاهرة تتحكم فيها عوامل كثيرة ومعقدة، يصعب التحكم فيها[3].

---

(1) وهو رأي كل المجمعيين وكذلك راي بعض اللسانيين المعاصرين مثل عبد القادر الفاسي الفهري ونهاد االموسى.

(2) Nahir (M), L'aménagement de l'hébreu moderne, politique et aménagement linguistique, Jacques Maurais, pp 257

(3) Sauvageot (A) Le refaçonnage de la langue, Bulletin de la société de linguistique de Paris, t l xxiv, fascicule 1, 1973, p 173:

وهناك فريق آخر من اللسانيين العرب والأجانب يرى إمكانية التدخل في اللغة والعمل على إصلاحها بغية الوصول بها إلى وضع لغوي معين[1]. وحججهم في ذلك مسار عدد كبير من اللغات التي عرفت إصلاحات حتى وصلت إلى ما وصلت إليه الآن.

ولابد من الاعتراف أنّ لكلّ فريق من الفريقين حججاً قوية، ليس من السهل المرور عليها مرور الكرام كما يقال. ويمكن تلمس ذلك في تاريخ اللغة العربية الغني قديما وحديثا، إذ لولا التدخل المقصود للغويين وللنخبة العربية وللمؤسسات اللغوية عامة في رأيي، لما وصلت إلينا الآن وهي من بين اللغات الأولى في عالمنا المعاصر، بل اللغة الأولى أيام ازدهار الحضارة الإسلامية، ومثل هذا المسار وغيره من المسارات التي عرفتها لغات أخرى، يقوي ما يؤمن به دعاة التدخل في اللغة ولكن لابد من القول أيضا من جهة أخرى، إنّ الأهداف التي حددها العاملون على إصلاح أوضاع العربية في عصرنا هذا لم تتحقق كلها، وخاصة فيما يتصل بالعربية المنطوقة، أو فيما سمي تفصيح العامية أو التقريب بينهما. إن مثل هذه النتائج الأخيرة تنحو إلى ما نحا إليه اللغويون البنويون، وأرى أن ضعف نتائج الإصلاح ليست مرتبطة كلها بمبدأ الإصلاح في حد ذاته، بل يتعلق خاصة بكيفية القيام بهذا الإصلاح وبحجم الوسائل المسخرة له ونوعيتها. قد يتساءل البعض منا لماذا لغة فصيحة أو الفصحى عند البعض، وليس تفصيح العامية أو التقريب بينهما؟ لأن هذا المستوى من العربية:

- مستعمل في المكتوب دون أي مقاومة من العامية، ماعدا بعض الحالات القليلة التي أشرنا إليها، أي أن الصراع الذي حصل بين دعاة الفصحى ودعاة العامية في العقود الماضية قد مال إلى صالح الأولى بشكل كبير.

- لديه وجه منطوق عفوي أيام عصر الفصاحة السليقية، أو عصور الاحتجاج، وآثاره باقية في كتب اللغة والنحو وفي القراءات القرآنية.

---

(1) Hagege (C) Voies et destins de l'action humaine sur les langues, La réforme des langues, volume 1, Belgium, 1983, p 65

- يؤدى منطوقاً في عصرنا هذا في ميادين التعليم والإعلام وفي الندوات والمؤتمرات القطرية والعربية المشتركة، ولو أنه يتصف بشيء من التكلف حتى بالنسبة إلى المتحكمين فيه، أو الخروج أحيانا عن بعض معاييره، إذا كان المتكلم غير متمكن.

ويعني ما سبق أن تبني العربية الفصيحة أداة تواصل في الحياة اليومية يمكن تحقيقه، لأن الأداة اللغوية جاهزة، لا تحتاج لا إلى تفصيح ولا إلى تهذيب، بل هي في حاجة إلى نشرها بكيفية مكثفة في الحياة العامة بالوسائل السمعية البصرية وبشبكات الاتصال الحديثة المختلفة التي يعرفها عصرنا الحالي، مع الأخذ بعين الاعتبار ما توصلت إليه بعض البحوث اللسانية التطبيقية وخاصة في التعليميات والتخطيط اللغوي.

قد نحتاج لتحقيق هذه الغاية إلى عدة عقود، وقد نحتاج إلى نوع من المرونة والتدرج في التغلب على الصعوبات التي يمكن أن تعترض هذه المسيرة، وهي كثيرة، لأن اللغة التي تستعمل في رقعة جغرافية كبيرة وعند عدد كبير من السكان في بلدان مختلفة، غالبا ما تنزع إلى التنوع، وهو الأمر الذي أدى إلى وجود بعض المشكلات في العربية المكتوبة، لم تحل إلى الآن، غير أن ما لا شك فيه هو إمكانية الوصول إلى إحلال العربية المشتركة محل العامية، إذا توفرت الشروط والظروف اللازمة للعمل العربي المشترك وطبقت الاقتراحات التي قدمت أو ستقدم.

ويبدو لي أن هذا الطرح الذي هو قريب جدا مما قدم من قبل، أي الفصحى يعد الحل الجذري لوضع اللغة العربية في هذا العصر الذي يشهد صراعا كبيرا بين اللغات من أجل البقاء أو لاحتلال مواقع جديد في العالم.

ولابد من توضيح بعض المسائل التي قد تبدو غامضة في هذا الطرح، وهو أنّ المقصود بنشر العربية المشتركة في الحياة العامة، وعاؤها الفصحى، ليس محاربة اللغات الأجنبية أو اللغات المحلية المستعملة في بعض البلدان العربية، وليس المقصود كذلك التعبير بها عن الخصوصيات المحلية التقليدية، كالمأكولات والملابس، وما إلى ذلك من الأشياء التي ورثناها منذ القديم، أو استبدال نطق الأصوات وبعض التعابير

المغرقة في العامية بما هو أفصح، بل المقصود في المرحلة الأولى جعل العربية المشتركة تعبر بكيفية واحدة ومنسجمة مع قواعد العربية، عما هو مشترك في العالم العربي وداخل البلد الواحد من المفاهيم والأساليب التي استحدثت في هذا العصر، لأن ما دخل في ألسنتنا من هذا القبيل كثير، ولم يتمكن المحدثون من إخضاعه إلى قواعد العربية، ولم يصلوا إلى توحيده، فمعظمه أجنبي من لغتين مختلفتين على الأقل.

ومن هنا تظهر أهمية السياسة والتخطيط اللغويين في العمل على إحلال العربية المشتركة محل العاميات الحديثة، لأن هذه المسألة ليست مسألة لغوية محضة، وليست قضية اجتماعية أو سياسية، بل تتخل فيها كل هذه العوامل وغيرها لذلك فهي في حاجة إلى تخطيط وقرارات مشتركة، تأخذ بعين الاعتبار كل العوامل التي قد تسهم في نشر عربية منطوقة مشتركة في مختلف الفئات الاجتماعية.

ولا أظن أنّ مثل هذه الغاية تتحقق ببعض الطرق الإلزامية التي استعملت إلى حد الآن، ولا بترك العربية تسير سيرا طبيعيا، كما يرى عدد من اللسانيين المحدثين لذلك لابد من الاستعانة بكل المعارف والوسائل التقنية الحديثة ومن مراعاة حقوق الإنسان والنظم الديموقاطية الحديثة.

هناك حلول إجرائية كثيرة اقترحت في العقود الماضية[1]، وكثير منها ما يزال صالحا، وأرى أن تدرس هذه الحلول في البداية من قبل اللسانيين والأدباء ورجال التعليم والإعلام والفنانين والمجتمع المدني، ثم تعرض مقترحاتهم على الهيئات العربية المؤهلة للنظر فيها واتخاذ قرارات لتطبيقها. فكل فريق من الفرق السابقة له مهام خاصة به في

---

(1) Hagege (C) Voies et destins de l'action humaine sur les langues, La réforme des langues, volume 1, Belgium, 1983, p 65

ينظر مثلا:

– نهاد الموسى، التحول إلى الفصحى، 224.

– الطاهر ميلة، عوامل تقريب العامية من الفصحى، العلاقة بين العامية والفصحى، دفاتر المجلس الأعلى للغة العربية، مرجع سابق، ص 15 فما فوق.

هذه العملية، والنتيجة النهائية لهذا المشروع متوقفة على نتائج كل الفريق، لأن تغيير العادات اللغوية في حاجة إلى تدخل كثير من المؤسسات والهيئات والجمعيات التي لها تأثير مباشر في المجتمع.

العربيّة الفصحى وعاميّاتها

في السياسـة اللغويـة

د. علي القاسمي أستاذ باحث
بمركز التعريب بالرباط

اللغة هي أداة النفاذ إلى مصادر المعلومات وتداولها، وهو أمر ضروري لإيجاد مجتمع المعرفة القادر على تحقيق التنمية الإنسانية الشاملة. وكلّما كانت اللغة موحّدة وقوية أصبحت عمليّة استيعاب المعلومات وتمثُّلها وإعادة إنتاجها والإبداع فيها، أيسر وأسرع.

اللغة العربيّة تعاني حالة ازدواجيّة تتمثّل في وجود مستويَين فيها هما: الفصحى للكتابة والمناسبات الرسميّة، والعامّيّة للاستعمال اليوميّ، وذلك لأسباب تاريخيّة وجغرافيّة ولسانيّة. وهذه الازدواجيّة تعرقل اكتساب اللغة الفصحى واستعمالها بصورة فاعلة. ولهذا لا بدّ للسلطات من القيام بتخطيط لغويّ يرمي إلى تنمية الفصحى على حساب العامّيّات. وتشتمل السياسة اللغويّة التي تنتج عن هذا التخطيط، على جوانب لسانيّة، وإعلاميّة، وتربويّة، واجتماعيّة، خلاصتها الاقتصار على استعمال الفصحى في جميع مراحل التعليم ومستوياته وتخصُّصاته، ومنع استعمال العامّيّات في جميع وسائل الإعلام المسموعة والمقروءة والمرئيّة، واستخدام الفصحى وحدها في الإدارة والتجارة ومرافق المجتمع المختلفة. وهذا لا يعني بتاتاً عدم تنمية اللغات الوطنيّة غير العربيّة ولا عدم تعلّم اللغات الأجنبيّة.

التخطيط اللغويّ والسياسة اللغويّة:

يُعرّف التخطيط اللغويّ بأنه نشاط رسميّ تضطلع به الدولة وتنتج عنه خُطَّة تنصبّ على ترتيب المشهد اللغويّ في البلاد، خاصة اختيار لغة (أو أكثر) لغة رسميّة

أو إدارية. ويمثّل التخطيط اللغويّ الجهود المتكاملة التي يقوم بها الأفراد، والجماعات، والمؤسسات، للتأثير في الاستعمال اللغويّ والتطوّر اللغويّ[1].

وعندما يصادق برلمان الدولة على هذه الخُطَّة اللغويّة، تصبح سياسة لغويّة للدولة تلتزم الحكومةّ بتنفيذها. وقد تتجسد السياسة اللغويّة للدولة في قانون واحد، كما هو الحال في اتّحاد جنوب إفريقيا، أو تصدر مُفرَّقة في قوانين متعددة، كما هو الحال في الولايات المتّحدة الأمريكيّة، حيث يُلزِم (قانون مترجمي المحاكم) كلَّ محكمة بتوفير مترجِم للمترافِع الذي لا يُجيد اللغة الإنكليزيّة، ويلزم (قانون التصويت لعام 1975) السلطات بتوفير بطاقات تصويت ثنائية اللغة في المناطق التي يكون 5% من المواطنين فيها يتكلّمون لغة غير اللغة الإنكليزيّة. كما يمكن أن تكون السياسة اللغويّة للدولة مضمرة أو غير معلنة وليست مدوّنة في قوانين أو أنظمة ولكن يمكن استخلاص خطوطها العريضة من مواقف الدولة الفعليّة من الاستعمال اللغويّ ومن ممارساتها العملية.

والتخطيط اللغويّ معروف منذ قديم الزمان حين نشأت أولى الدول في وادي الرافدين ومصر والصين وإمبراطوريات الأستيك، وإن لم يكن تدخُّل الدولة في الشأن اللغويّ آنذاك نتيجةَ تخطيط علميّ كما نفهمه اليوم. ولكن لا يُنكَر أنّ تلك الدول القديمة قد حدّدت لغتها الرسميّة، وقنّنت استعمالها في مراسيمها الملكيّة، ووثائقها الرسميّة، ومراسلاتها الإداريّة.

وقد عرفتْ ثقافتُنا العربيّة الإسلاميّة التخطيطَ عموماً بوصفه وسيلةً لترقية حياة الإنسان، كما حدّدتْ خطواته العلميّة بشكل لا يختلف كثيراً عما هو متّبع في عصرنا الراهن. وهذه الخطوات هي: مسح الاحتياجات، رسم الأغراض والأهداف والغايات، تحديد الإجراءات، اختيار الوسائل والأدوات، التنفيذ، التقييم. وفي هذا يقول عبد الله

---

(1) David Robinson, " Language Policy and Language Planning" in ERIC Clearing House on Languages and Linguistics, Washington, D.C. 1988. See: www.ericdigest.org

بن المقفع (106 ـ 142هـ /759ـ764م) في كتابه " **الأدب الصغير**": " **لكلِّ مخلوق حاجة، ولكلّ حاجة غاية، ولكلّ غاية سبيل. والله وقَّت للأمور أقدارَها، وهيَّأ إلى الغايات سُبُلَها، وسبّب الحاجات ببلوغها. فغايةُ الناس وحاجتهم صلاحُ المعاش والمعاد. والسببُ إلى دَرْكها العقلُ الصحيح، وأمارةُ العقلِ اختيارُ الأمور بالبصر، وتنفيذُ البصر بالعزم.**" [1]

وكانت للدولة العربيّة الإسلاميّة سياستها اللغويّة، إذ تبنّت لغة القرآن الكريم لغةً رسميّة. وما قيام الخليفة الأمويّ عبد الملك بن مروان (26ـ86 هـ/646ـ705م) بتعريب الدواوين التي كانت بالفارسيّة في العراق وبالبيزنطينيّة في الشام إلا جزء من تلك السياسة اللغويّة. وما إنشاء بيت الحكمة في بغداد في زمن الخليفة العباسيّ المأمون بن هارون الرشيد (170ـ218هـ/787ـ833م) لتعريب فلسفة الإغريق، وعلوم الهند، وآداب الفرس إلا وجه آخر من وجوه تلك السياسة اللغويّة.

وتمكّنت الإمبراطورية الرومانيّة من الاحتفاظ باللغة اللاتينيّة لغةً رسمية للدولة خلال قرون عديدة في العصور الوسطى. ويُذكَر أنّ الملك أدوارد الثالث عاهل إنكلترة استخدم سلطاته السياسيّة في إصدار قرار سنة 1363م يقضي بإحلال اللغة الإنكليزيّة محل اللغة الفرنسيّة لغةً للدولة. وبعد قرنين من الزمن تقريباً، أصدر الملك فرانسو الأول سنة 1539م مرسوماً ملكياً يُلزم الإدارة الفرنسيّة باستعمال اللغة الفرنسيّة بدلاً من اللغة اللاتينية. وهذه المراسيم الملكيّة هي مظهر من مظاهر السياسة اللغويّة لتلك الدول.

وفي سنة 1993م، أُجريت دراسة ميدانيّة شملت 173 دولة، فوجد أن 130 منها (حوالي 75% من هذه الدول) تنصّ في دساتيرها على اللغة الرسميّة للبلاد، على حين أن 43 دولة فقط (حوالي 25% من هذه الدول) لم تنصّ في دساتيرها على اللغة الرسمية للبلاد[2].

---

[1] ابن المقفع، **الأعمال الكاملة** (بيروت: دار الثقافة، ب ت)

[2] L'interventionnisme linguistique" in : www.tlfq.ulaval.ca/AXL/Langues/4intervention_def.htm

ظهر مصطلح " التخطيط اللغوي" على أيدي اللسانيّين الأمريكيّين أوّل مرّة في منتصف القرن الميلادي العشرين. أما اللسانيّون الفرنسيون، فيطلقون عليه اسم "التدخُّل اللغويّ " أو " التدبير اللغويّ " أو " التوجيه اللغويّ".

لماذا تلجأ الدولة إلى التخطيط اللغوي:

يحصل التخطيط اللغويّ استجابة لاحتياجات سياسيّة واجتماعيّة واقتصاديّة. فالدولة تحتاج إلى سياسة لغويّة عندما تُستعمَل في البلاد أكثر من لغة وطنية واحدة ويؤدي هذا التعدّد اللغوي إلى توتّرات اجتماعية ، أو عندما تكون للّغة الرسمية لهجة عاميّة أو لهجات جغرافيّة (جهوية) أو طبقيّة، أو عندما تريد الدولة تحقيق التنمية الإنسانيّة التي تتطلّب إيجاد مجتمع المعرفة، فتنمي اللغة أوّلاً لأنّها أداة النفاذ إلى مصادر المعلومات وتداولها. في هذه الحالات تتدخّل الدولة عادة في الشأن اللغويّ فتلجأ إلى التخطيط اللغويّ لتحقيق العدالة بين الناطقين باللغات الوطنية المختلفة، عن طريق تقنين العلاقة بين هذه اللغات أو بين اللغة الرسميّة ولهجاتها، صيانةً للمصالح العليا للدولة. ومن الأمثلة على ذلك أن الحكومة الماليزية التي كانت في أواخر السبعينات تخطط لبلوغ درجة عالية من التنمية البشرية والاقتصادية خلال عشرين عاماً، اختارت لغة (البهاسا)، أي اللغة الماليزيّة، لغةً رسمية، على الرغم من وجود عدد من اللهجات الصينية والهندية في ماليزيا. فإحصاءات السكان في ماليزيا تشير إلى وجود 55 % من السكان من أهل البلاد الماليزيّين الأصليّين، و30% من السكان صينيون، و15% من السكان ذوو أصول هندية. وفي كوريا الجنوبية، مثلاً، اختارت الدولة اللغة الكورية الفصحى المشتركة أساساً للتنمية الاقتصادية فيها، ومنعت استعمال اللهجات الكورية في التعليم والإعلام وجميع الإنشطة الرسميّة والاجتماعيّة الأخرى[1]. ففي كوريا الجنوبية يوجد 110 من المحطات الإذاعية والتلفزية جميعها

---

(1) يوسف عبد الفتاح ، "التجربة الكورية في التخطيط اللغوي" دراسة قُدّمت في مؤتمر "لغة الطفل العربي في زمن العولمة" الذي عقده المجلس العربي للطفولة والتنمية، القاهرة ، 17ـ19/ 2/ 2007.

أهلية إلا واحدة، وكلّها مُلزمة قانوناً باستعمال اللغة الكورية الفصحى المشتركة. وللتذكير، تحتل كوريا الجنوبية الرتبة 26 في سُلّم التنمية البشرية (إيطاليا مثلا 21).

خطوات التخطيط اللغوي وإجراءاته:

تمرّ جهود التخطيط اللغوي، عادة، في مراحل عديدة، أهمها ما يأتي:

1) مسح الاحتياجات وتحليلها، باستخدام منهجيّات التحليل السياسيّ والاجتماعيّ لأنماط التواصل في البلاد.

2) اختيار لغة رسمية مشتركة للبلاد (أو أكثر من لغة، أو لغات جهوية إلى جانب اللغة الرسميّة)، بحيث تُستخدَم هذه اللغة الرسميّة في جميع مرافق الحياة الثقافيّة والتربويّة والإعلاميّة والاقتصاديّة، إلخ.

3) إخضاع اللغة الرسميّة المشتركة لجملة من الإجراءات لتمكينها من القيام بدورها، وأهم هذه الإجراءاتُ:

أ ـ **التقعيد**: وضع قواعد للغة الرسميّة التي تمّ اختيارها.

ب ـ **التقييس**: اختيار مستوى موحّد من مستويات اللغة. وفي نطاق المصطلحات، يعني التقييس توحيد المصطلحات والتخلّص من الازدواجيّة المصطلحية توخيّاً للدقة والوضوح.

ج ـ **التنمية**: إغناء مفردات اللغة، وتوسيع بنياتها وأساليبها، وتوفير وسائل كتابتها وطباعتها وحوسبتها، وذلك لتمكين اللغة من أداء وظيفتها التواصليّة في مقامات مختلفة وأغراض متعدّدة وعلى أوسع نطاق.

د ـ **التيسير** : إنشاء المؤسَّسات وتوفير الأدوات التي تساعد في تيسير استعمال اللغة المختارة، مثل تأسيس المجامع اللغويّة، وتصنيف المعاجم المتنوّعة، وكلّ ما من شأنه أن يصون اللغة وييسِّر استعمالها.

4) **التقييم** : إجراء تقييم قَبلي ومرحلي وبَعدي، للوقف على مواطن الزلل في الخُطّة وتقويم المسار إذا لزم الأمر[1].

المسؤولون عن التخطيط اللغويّ:

نظراً لأنّ التخطيط اللغويّ يستجيب لاحتياجاتٍ ذات طبيعة سياسيّة واجتماعيّة واقتصاديّة، فإنّ عملية التخطيط اللغويّ ينبغي أن تضمّ في مراحلها المختلفة مختصّين في العلوم السياسيّة والاقتصاديّة وعلم اللغة الاجتماعيّ واللسانيّات وغيرهم من الحاسوبيّين والإحصائيّين. كما يشارك في تنفيذ الخُطّة اللغوية التربويّون والإعلاميّون والإداريّون وغيرهم.

الواقع اللغويّ في بلادنا: التعددية والازدواجية:

إن مسحاً سريعاً للمشهد اللغويّ في بلادنا يدلّ على وجود ظاهرتَين لغويّتَين رئيستَين:

الأولى، التعدّدية اللغويّة، أي وجود عدد من اللغات الوطنيّة في البلد الواحد. فإلى جانب اللغة العربية، توجد، على سبيل المثال، الآرامية في سورية، والنوبية في مصر، والأمازيغية في الجزائر والمغرب. ويقول "**تقرير التنمية البشرية للعام 2004**"[2]. إن هذه الظاهرة موجودة في جميع دول العالم. ولا نتطرق إلى هذه الظاهرة هنا لأنها ليست موضوع دراساتنا هذه.

الثانية: الازدواجيّة اللغويّة، تعني الازدواجية اللغويّة وجود مستويَين للغة الواحدة: أحداهما مستوى اللغة الفصيحة أو المشتركة الذي يُستخدَم في المناسبات الرسمية والكتابة والأدب والتعليم والإدارة وأماكن العبادة، والآخر مستوى اللغة العامِّيَّة أو اللهجات الدارجة الذي يُستعمل في الحياة اليوميّة وفي المحادثات في المنزل

---

(1) David Robinson, op.cit.

(2) البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة، **تقرير التنمية البشرية للعام** 2004 (نيويورك: الأمم المتحدة، 2004)

والشارع وأماكن العمل. وهذه الظاهرة ذات صلة مباشرة بموضوع دراستنا هذه: "اللغة العربيّة وعاميّاتها في السياسة اللغويّة".

الازدواجية اللغوية: الفصحى والعامية:

كان أوّل من بحث في هذه الظاهرة اللغوية في العصر الحديث، اللغوي الأمريكي تشارلز فرغيسون Charles Ferguson ونشر بحثه عنها عام 1959 في مجلة " **اللغة** " الأمريكية "[1]. وعرّفها بقوله:

" وضع مستقرّ نسبيّاً توجد فيه بالإضافة إلى اللهجات الرئيسة للغة (التي قد تشتمل على لهجة واحدة أو لهجات إقليمية متعددة) لغةٌ تختلف عنها، وهي مقنّنة بشكل متقَن (إذ غالباً ما تكون قواعدها أكثر تعقيداً من قواعد اللهجات)؛ وهذه اللغة بمثابة نوعٍ راقٍ، يُستخدَم وسيلة للتعبير عن أدب محترم، سواء أكان هذا الأدب ينتمي إلى جماعةٍ في عصر سابق، أم إلى جماعة حضاريّة أخرى، ويتمّ تعلُّم هذه اللغة الراقية عن طريق التربية الرسميّة، ولكن لا يستخدمها أي قطاع من الجماعة في أحاديثه الاعتياديّة." [2]

وكان فرغسون قد تناول في بحثه أربع لغات من بينها اللغة العربيّة، ولكنّه أكد أن الازدواجيّة ظاهرة موجودة في جميع اللغات الكبرى. فللغة الإنكليزيّة البريطانيّة، مثلاً، لهجات متعدّدة في ويلز، واسكتلندة، وأيرلندة، وكَنْت، وغيرها من الأقاليم البريطانيّة، بل لها لهجة يستخدمها سائقي سيارات الأجرة في لندن تُسمى الكوكني، ولكن اللغة الإنكليزيّة الفصيحة المشتركة هي التي تُستخدَم في التعليم والإعلام والكتابة.

---

(1) Charles Ferguson, " Diglossia" **Word,** 15 (1959) 325-340.

(2) الترجمة مقتبسة من :

- علي القاسمي، **علم اللغة وصناعة المعجم** (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، الطبعة الثالثة 2004) ص 40.

لا تنجو أيّة لغة كبرى من ظاهرة الازدواجية. فكلّ لغة كبيرة لها مستويان: فصيح وعاميّ. اللهم إلا إذا كانت اللغة صغيرة ثانويّة واستعمالها محدود في رقعة جغرافيّة ضيّقة أوتتكلمها قبيلة واحدة، فتقتصر، عند ذاك، على مستوىً واحد. ولكن عندما تُكتَب هذه اللغة وتنتشر في المكان وتمتدّ عبر الزمان، لا بدّ من أن تنمو وتتغيّر في نطقها ومفرداتها وبنياتها، بحيث يظهر لها مستوىً آخر يتما يجمع ما تتطلّبه سرعة الاستعمال اليومي الجاري من اختزال واختصار وابتسار، وهكذا يظهر فيها مستويان: أحدهما فصيح للكتابة والمناسبات الرسمية وأماكن العبادة، والآخر عاميّ للاستعمال اليومي في المنزل والسوق. فالجغرافية والتاريخ يفعلان فعلهما في جميع الكائنات الحيّة، بما فيها اللغةّ.

العلاقة بين اللغة العربية الفصحى وعاميّاتها:

في البحث اللسانيّ العربيّ الحديث، توجد مقاربتان رئيستان للعلاقة بين اللغة العربيّة الفصيحة واللهجات العاميّة:

المقاربة الأولى تعدّ العاميات المعاصرة سليلة اللهجات العربيّة القديمة قبل الإسلام التي كانت تُسمّى " لغات القبائل". وعند نزول القرآن الكريم وحّد تلك اللهجات في لغة مشتركة واحدة هي لغة قريش، التي أصبحت تُدعى بالعربية الفصحى. وفي هذا يقول عبد الهادي بوطالب:

"إنّ اللغة العربيّة نشأتْ من مجموعة اللهجات العربيّة التي فرّقتها، ولكن جمعها القرآن الكريم الذي وحّدها على لغة قريش وقال عنها إنّها لسان عربيّ مُبين."[1]

المقاربة الثانية تعدّ العاميّات المعاصرة تحريفاً للعربيّة الفصحى. وطال هذا التحريف النظام الصوتي بصورة خاصة. وفي هذا يقول الدكتور شوقي ضيف، الرئيس السابق لمجمع اللغة العربية بالقاهرة:

[1] عبد الهادي بوطالب، **معجم تصحيح لغة الإعلام** (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 2006) ص . هـ.

" وهي (أي العامية) ليست لغة بل لهجة مولَّدة من تحريف كلمات الفصحى. وتبلغ الفصحى المحرّفة فيها نحو 80 % من كلماتها." [1]

وأحسب أنّ المقاربتَين متكاملتان وليستا متعارضتين، خاصّة إذا افترضنا أن اللهجات العربيّة، واللغات الساميّة بشكل عامّ، قبل الإسلام كانت قد تطوّرت من لغة فصحى واحدة، كما ارتأى ذلك عباس محمود العقّاد، إذ قال:

" أما الذي نؤثره ونستند في إيثاره إلى الأصول المعقولة، فهو تغليب كلمة العربية على كلمة السامية على اختلاف مدلولاتها، حيث يرجع الأمر إلى أربعة آلاف سنة من تاريخ هذه اللغات القديم أو على الأصحّ من تاريخ تلك اللهجات، كما ينبغي أن تُسمَّى في ذلك الحين، لأنها كانت قبل أربعين أو خمسين قرناً لهجات تتفرع على أصل واحد قديم." [2]

ومن ناحية أخرى، فإنّ النظر إلى اللغة الفصحى التي نزل بها القرآن بوصفها لغةً مشتركة موحِّدة للغات القبائل أو اللغات السامية (العربيّة)، لا يمنع، من الناحية اللسانيّة، أن تتفرَّع هذه اللغة الفصحى بدورها إلى عامياتنا الحديثة، بفعل المؤثرات الجغرافيّة والتاريخيّة والاجتماعيّة، وبفعل تراث اللهجات العربيّة القديمة.

ومهما يكن من أمر، وسواء أكانت العربية الفصحى توحيداً للهجات سابقة أو أن اللهجات العامية الحالية تحريف للفصحى، فإنّ الذي يُجمع عليه اللسانيّون العرب الذين درسوا العلاقة بين الفصحى والعامّيّة، هو أنّهما لا يشكّلان لغتَين مختلفتَين وإنّما هما مستويان للغة واحدة ويشتركان في نظامهما الصوتيّ ونظامهما الصرفيّ ونظامهما النحويّ وبنيتهما التحتية. وفي هذا يقول اللغوي المؤرخ الروائي الصحفي العبقري جُرجي زيدان في معرض ردّه على المهندس البريطانيّ وليم ولكوكس الذي ألقى خطاباً في نادي الأزبكيّة في القاهرة سنة 1893م عنوانه (لِمَ لَمْ توجد قوّة الاختراع لدى

---

[1] أحمد عبد العزيز "مقابلة مع شوقي ضيف "منشورة في جريدة (**العربي**) في 23 نوفمبر 2003.

[2] عباس محمود العقاد، **أشتات مجتمعات في اللغة** (القاهرة: دار المعارف 1988).

المصريّين الآن) عزا فيه السببَ إلى استعمالهم الفصحى التي تختلف عن العامّيّة التي يستعملونها في حياتهم اليوميّة، ونصحهم فيه بالتخلّي عن الفصحى وتعميم استعمال العامّيّة المصريّة، تماماً كما فعل الإنكليز عندما تخلّوا عن اللاتينيّة لغةً للتعليم واستعملوا الأنكليزيّة بدلاً منها فأصبحوا قادرين على الاختراع. فأجابه جُرجي زيدان بقوله:

" إن الانكليز باستبدالهم اللغة اللاتينيّة باللغة الإنكليزية قد استبدلوا لغةً أجنبيّة بلغة وطنية. وليس كذلك الحال في اللغة العربيّة، فإنّ الفرق بين لغة الكتابة ولغة التكلّم عندنا ليس بالشيء الكبير، وقد لا يكون أكثر من الفرق بين لغة كتّاب الإنكليز ولغة عامّتهم الذين لا يعرفون الكتابة." [1]

وقد مثّلتُ للعلاقة الوثيقة والتداخل بين العربية وعامياتها من جهة، وبين العامّيّات فيما بينها من جهة أخرى، بشكل دوائر متداخلة.

وفي تقديري، أن الأهم من ذلك كلّه هو أن أبناء الشعوب الناطقة بالعامّيّات العربية يشتركون في بنيتهم الفكريّة والنفسيّة التي تنتج البنيات التعبيريّة وتتأثر بها. وبعبارة أخرى، إنّهم نتاج ثقافة واحدة تستعمل العربيّة الفصحى أداة لتسجيلها وبثّها وحفظها وتراكمها ونقلها من جيل إلى آخر.

الغربيّون والعربيّة الفصحى:

منذ تصاعد حركة الاستعمار الأوربيّ في القرن التاسع عشر الميلاديّ وانتصار بريطانيا وفرنسا وأمريكا على الدولة العثمانيّة وحلفائها في الحرب العالمية الأولى (1914ـ1918م) وتقسيم البلاد العربية بين الدول المنتصرة وفق معاهدات سريّة وعلنية، وجميع الأوربيّين والأمريكيّين ينصحون حكّام العرب ومثقّفيهم باستعمال اللهجات العامّيّة بدلاً من الفصحى لكي يتعلّم أطفالنا بالعامّيّة التي يعرفونها فيحصل لديهم الفهم والإبداع.

(1) جورجي زيدان، **مجلة الهلال**، القاهرة، الجزء السادس، السنة الأولى، أول فبراير 1893م.

جميع الغربيّين، سواء أكانوا عسكريّين أو سياسيّين أو تجّاراً أو تقنيّين أو صحفيّين، وسواء أكانت لهم معرفة بلغتنا أم يجهلونها، يتحوّلون، عندما يتّصلون بنا، إلى لغويّين متخصّصين، وينصحوننا باستبدال العامّيّات بالفصحى. وللبرهنة على حسن نواياهم، موّلوا بسخاء مؤتمرات حول ضرورة استعمال اللهجات، وموّلوا إصدار مجلات وصحف باللهجات، وموّلوا إنتاج أفلام للأطفال باللهجات، وموّلوا تأسيس جمعيات تدعو إلى استعمال اللهجات، بل خصّصوا منحاً جامعيّة لأبنائنا لدراسة اللهجات.

وعندما نذهب إلى الجامعات الأمريكيّة أو الأوربية لدراسة اللسانيات، ينصحنا المشرفون على أطروحاتنا الجامعيّة باختيار اللهجات، ووصف أنظمتها الصوتيّة والصرفيّة والنحويّة، موضوعاً لتلك الأطروحات بحجة أن ذلك أسهل للطالب وأسرع في نيله الشهادة الجامعية المنشودة. ولكن لا يُنصَح أيُّ طالب أمريكيّ أو أوربيّ بإعداد أطروحته حول لهجته العامّيّة.

إن أصدقاءنا الغربيّين واثقون تماماً من أنّ تقدُّم أقتصادنا، وازدهار ثقافتنا، وتطوّر أحوالنا لا يمكن أن تتمّ إلا إذا استعملنا عامّيّاتنا العراقيّة، والشاميّة، والجزائريّة، والقَطريّة، والعُمانيّة، والحجازيّة، والنجديّة، إلخ. وطوّرناها بحيث تنفصل تماماً عن الفصحى وتُصبح لغات مستقلة، كما انفصلتِ اللهجات اللاتينيّة عن اللغة الأم خلال العصور الوسطى وصارت لغات مستقلة كالفرنسيّة والإيطاليّة والأسبانيّة والبرتغاليّة. إن أصدقاءنا الغربيّين واثقون كلَّ الثقة من أنّ سعادتنا تكمن في هذه الخطوة البسيطة.

ماذا لو استعملنا العاميات وتخلّينا عن الفصحى؟

لنفرض أنّنا قبلنا نصيحة أصدقائنا الغربيّين، وأنّنا اتّبعنا سياسات لغويّة، معلنة أو غير معلنة، تشجّع العامّيّات وتقمع الفصحى وتقزّمها تدريجيّاً، حتّى نصل في نهاية

المطاف إلى إلغائها بحيث تمسي لغة ميّتة كاللاتينيّة، ويستقل كلّ بلد عربي بلغته العامّيّة، فما الذي يحصل، يا ترى، نتيجة لذلك؟

يمكن أن نتخيّل النتائج الطبيعيّة والمنطقيّة التالية:

1) **صعوبة التفاهم بين بلداننا،** بحيث نحتاج إلى الترجمة بين اللغة السورية والمغربية وبين السورية والحجازية، وبين الحجازية والتونسية، وبين السورية والجزائرية، وبين الجزائرية والعراقية، إلخ. وهكذا يُضاف حاجز اللغة بين أقطارنا إلى بقية الحواجز المتنوعة، مثل الحدود الجغرافية، والحواجز الجمركية، والأنظمة السياسية والإدارية والنقدية وغيرها. وبذلك يتمّ الإجهاز تماماً على أي حلم يراودنا في إنشاء سوق مشتركة، أو إقامة اتحاد من أي نوع.

2) **قطع الصلة قطعاً باتاً بالتراث العربيّ** الذي يبلغ عمره حوالي ألفي عام والذي يعدّ أغنى تراث في تاريخ الإنسانية جمعاء، بما له من مخطوطات وكتب ومنشورات إلكترونية. ويتعيّن علينا إلقاء تراثنا في سلة المهملات لأن ترجمته إلى لغاتنا العامية الجديدة أمر من سابع المستحيلات. ولا أتصور كيف تنمو ثقافاتنا الجديدة القائمة على اتخاذ العاميات وسيلةً لحفظها وتراكمها. وهل تتمكن شجيرات من النمو بعد أن تقطع جذورها؟

3) **قطع الصلة مع السكان العرب في الأقطار غير العربية،** مثل تشاد، والنيجر، ونيجيريا، والصومال، وأرتيريا، وجزر القمر وغيرها، ومع الجاليات العربية في بلدان المهجر حول العالم. إن ما يربط هؤلاء الناس بنا ويضمن تضامنهم معنا وتعاطفهم مع قضايانا هو الثقافة العربية الإسلامية ووسيلتها العربية الفصحى. وهؤلاء الناس يقتنون، الآن، مطبوعاتنا، ويستمعون لإذاعاتنا، ويشاهدون فضائياتنا. وعندما نتخلى عن العربية الفصحى، سينبتّ الحبل الذي يربطهم بنا، وسيضطرون، هم كذلك، إلى التخلي عن لغتهم العربية واستعمال عاميتهم فقط أو تبني اللغات السائدة في أقطارهم.

4) **قطع الصلة بالبلدان الإسلامية** كأندونيسيا وتركيا ونيجريا وغيرها. فهذه البلدان تعلّم اللغة العربية الفصحى لأبنائها في مدارسهم الابتدائية أو الثانوية أو كليهما، لأنها لغة القرآن الكريم ولأن لغات تلك الشعوب وآدابها قد تأثرت بها. تنصّ المادة 16 من دستور جمهورية إيران الإسلامية على ما يأتي:

" بما أن لغة القرآن والعلوم والمعارف الإسلامية هي العربية، وأن الأدب الفارسي ممتزج معها بشكل كامل، لذا يجب تدريس هذه اللغة بعد المرحلة الابتدائية حتى نهاية المرحلة الثانوية في جميع الصفوف والاختصاصات الدراسية." [1]

5) **استمرار التفتت اللغوي والتشرذم الجغرافي والسياسي**، لأن العاميات مختلفة فيما بينها حتى داخل القطر الواحد. ففي العراق مثلاً، نجد أن عاميّة الموصل هي ليست عامية البصرة، وهما تختلفان عن عامية الكوفة. وفي مصر تختلف عاميّة الإسكندرية عن عاميّة القاهرة، وعن عامية الأقصر، وهكذا دواليك. ولهذا ستحصل تقسيمات جديدة على أسس لغوية حتى يكون الوطن العربي كله مجرد كانتونات لاستهلاك المنتجات الغربية مقابل ثرواتنا الطبيعية المسلوبة، ونكون خدماً للسياح الغربيين الذين يدفعون نفقات سياحتهم الرخيصة إلى الوكالات السياحية في بلادهم، ويشعر الإسرائيليون بالأمن وتستمر دولتهم مدة أطول، وعندها يتحقق المشروع الأمريكي في خلق شرق أوسط جديد ينعم بالديمقراطية الأمريكية. والعراق هو النموذج الأمثل لهذه الديمقراطية.

اللغة والتنمية البشرية:

إنّ حرصنا على اللغة العربية الفصحى المشتركة ليس نابعاً فقط من حقيقة أنها مقوم رئيس من مقومات وجود الأمة، وكل خطر يتهددها يهدد شخصية الأمة واستمرارها والترابط بين أجيالها، و إنما كذلك لأنها الأساس الضروري لتحقيق تنمية بشرية شاملة. فالاقتصاد العالمي الجديد مبني على المعرفة، والنمو الاقتصادي مرتبط

---

[1] محمود فوزي المناوي، **في التعريب والتغريب** (القاهرة: دار الأهرام، 2005) ص 117ـ 119.

بالنمو العلمي والتقني للقوى العاملة. ولهذا فإن الدول الراقية تسعى إلى إيجاد مجتمع المعرفة القادر على تحقيق التنمية البشرية عن طريق تفعيل النفاذ إلى مصادر المعلومات واكتسابها المعلومات وتبادلها بسرعة بين الأفراد والمؤسسات. ومعروف أن اللغة هي أداة النفاذ إلى مصادر المعرفة ووسيلة تبادل المعلومات، تماماً كما أن العملة النقدية هي وسيلة تبادل السلع والخدمات في المجتمع. فكلما كانت العملة قوية وموحدة أصبحت عملية التبادل التجاري أيسر وأسرع. وبالمثل، كلما كانت اللغة ثرية موحّدة، أصبح تبادل المعلومات بين الأفراد والمؤسسات أيسر وأسرع، فتزداد وتيرة النمو الاقتصادي وتتحقق التنمية البشرية المنشودة.

ويحتاج هذا العصر الذي يتسم بالانفجار المعرفي والإفراط المعلوماتي إلى لغة غنية بمفرداتها ومصطلحاتها، متطورة في تراكيبها وأساليبها، فالبنيات الفكرية بحاجة إلى بنيات لغوية مقابلة لاستيعابها والتعبير عنها وإظهار مدلولاتها. والعاميات، كما أسلفنا عند التحدّث عن ظاهرة الازدواجية اللغوية، محدودة في مفرداتها ومصطلحاتها، بسيطة في تراكيبها وأساليبها، لا تتسع لاستيعاب العلاقات المنطقية المتعددة، ولا تتمكن من التعبير عن أنماط التفكير المتطورة.

لقد أصبح من البديهيات أن تأصيل العلوم والإبداع فيها وانتشار المعارف في أمة من الأمم لا يكون إلا بلغتها القومية.

معالم السياسة اللغوية اللازمة للتنمية البشرية:

ولهذا كله فإن إيجاد مجتمع المعرفة يتطلب، أولاً، سياسة لغوية محكمة تهدف إلى تنمية اللغة العربية، وتمكين أفراد المجتمع من امتلاكها استيعاباً وتعبيراً. ويمكن إجمال معالم السياسة اللغوية بالجوانب التالية:

أولاً) الجانب اللغوي:

1) تنمية اللغة العربية ذاتها، وتشجيع البحوث والدراسات المتعلقة بإغناء مفرداتها ومصطلحاتها، وتيسير قواعدها، وكتابتها، وطباعتها.

2) توفير أدوات استيعاب اللغة العربية، وبصورة خاصة المعاجم المتنوعة المناسبة لمختلف الأغراض والمراحل العمرية، وتوفيرها مطبوعة وعلى الشابكة (الإنترنت).

3) إنشاء وتفعيل المؤسسات التي تُعنى بتنمية اللغة العربية كالمجامع اللغوية ومنحها سلطة فعلية على الاستعمال اللغوي في البلاد.

ثانياً) الجانب الثقافي:

1) تشجيع صناعة الكتاب، ورفع جميع الحواجز الجمركية والضريبية والبريدية التي تقف عائقاً في وجه إنتاجه وتوزيعه واقتنائه، والعمل على صيانة حقوق المؤلِّف، وتخصيص الجوائز المختلفة للمؤلفين ومنحهم الامتيازات التشجيعية.

2) إنشاء مركز قومي للترجمة إلى العربية ومنها وفق تخطيط محكم في اختيار الكتب، وتدريب المترجمين في أقسام متخصصة للترجمة في الجامعات العربية، والعمل على تشجيعهم ودعمهم وتخصيص الجوائز لهم.

3) تنمية النشر الإلكتروني باللغة العربية ودعم إنشاء المدوّنات ذات التخصصات المختلفة، وتوفير المعاجم العربية على الشابكة (الإنترنت).

ثالثاً) الجانب الإعلامي:

ضرورة سنّ قانون ملزم للجميع باستعمال اللغة الفصحى فقط في جميع وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية، سواء أكانت حكومية أم أهلية، وفي جميع برامجها الدينية والسياسية والترفيهية وغيرها. وعند تطبيق هذا القانون ستضطر جميع شركات إنتاج الأفلام والمسلسلات التلفزية إلى استعمال الفصحى في جميع منتجاتها. إن القوانين المرعية في فرنسا وألمانيا وغيرها من الدول المتحضرة تمنع استعمال العاميات في وسائل الإعلام، بل تعاقب على اقتراف خطأ لغوي فيها.

رابعاً) الجانب التربوي:

1) تطبيق قوانين التعليم الإلزامي، لسدّ منابع الأمية.

2) استعمال العربية الفصحى في التعليم في جميع مراحله ومستوياته وتخصصاته. وتعليم اللغات الأجنبية ضروري، ولكن لا يمكن التعليم بها بتاتاً.

3) استعمال العربية الفصحى في البحث العلمي. ويمكن ترجمة البحوث إلى لغة أجنبية عند نشر هذه البحوث في دوريات عالمية.

4) إنشاء مراكز بحوث تربوية تُجري البحوث اللازمة لتطوير تعليم اللغة العربية للناطقين بها ولغيرهم، وتطوير أفضل الطرائق التعليمية والوسائل المعينة الحديثة.

5) إعداد الكتب المدرسية وكتب القراءة للأطفال والأطالس وغيرها من الكتب المرجعية وتوفيرها على الشابكة (الإنترنت).

6) إلزام جميع المعلمين والمدرسين في جميع الموضوعات بإلقاء دروسهم بالعربية الفصحى، وتنظيم دورات تدريبية لهم لترقية لغتهم.

خامساً) الجانب الإداري:

استعمال العربية الفصحى في جميع مرافق الدولة في الداخل والخارج، في مراسلاتها واجتماعاتها، وللجهات التي تتعامل مع أجانب أن ترفق ترجمة باللغة الأجنبية مع النص العربي.

سادساً) الجانب الاجتماعي:

1) العمل بجد على محو الأمية بالعربية الفصحى وفق خطة محددة.

2) تشجيع مؤسسات المجتمع المدني على استخدام العربية الفصحى في جميع اجتماعاتها وأنشطتها.

3) كتابة جميع اللافتات في الشوارع والطرقات بالعربية الفصحى ويمنع استعمال اللغة الأجنبية والحروف اللاتينية إلا في الأمكنة التي قد يؤمها الأجانب كالمطارات والسفارات والفنادق، وفي هذه الحالة تُكتَب اللغة الأجنبية بحروف أصغر تحت الكتابة العربية.

هذه الملامح العامة لسياسة لغوية للبلاد العربية هدفها تمكين الناس من لغتهم لتكون أساساً لاكتساب المعرفة وتدولها وللتنمية البشرية المنشودة.

السياسات اللغوية العربية وعرقلة التنمية:

تخبرنا الأنظمة العربية أنها تريد تحقيق التنمية البشرية والانتقال بمواطنيها من المرض إلى الصحة، ومن الجهل إلى المعرفة، ومن الفقر الذي يحط من الكرامة الإنسانية إلى رفاهية الحياة التي تحفظ كرامة الإنسان. ولكن هذه الأنظمة التي تهيمن على السلطة منذ عقود طويلة من الزمن، لم تحقق أهدافها. فمعظم البلدان العربية تحتل المرتبة ما بعد 121 في تقرير التنمية البشرية السنوي الذي يصدره البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة، على حين أن دولاً أخرى استقلّت بعد استقلال البلدان العربية بعشرات السنين، استطاعت أن تحقق التنمية البشرية المنشودة وتحتل رتباً في العشرينات من سلّم التنمية، كما هو الحال في كوريا وماليزيا وسنغافورة وغيرها.

ويرجع السبب في تخلّف البلدان العربية إلى أن الأنظمة الحاكمة لا تأخذ بوصفة التنمية المعروفة المؤلَّفة من ثلاثة إجراءات:

1) تبنّي ديمقراطية حقيقية تحترم حقوق الإنسان وتُطلق طاقاته الخلاّقة،

2) تعميم نظام تربوي جيد يقوم على استعمال اللغة الوطنية أداة لاكتساب المعرفة،

3) الأخذ بآخر مُعطيات العِلم والتكنولوجيا في الإنتاج والخدمات[1].

---

[1] علي القاسمي، **الجامعة والتنمية** (الرباط: سلسلة المعرفة للجميع، 2002) ص 40ـ68.

الأنظمة العربية تعلن عن نيتها في تحقيق التنمية البشرية، فيبادر علماء الأمة ومفكروها بتبيان كيفية تحقيق التنمية، ولكن الأنظمة الحاكمة تتوانى عن القيام بمتطلباتها وتتقاعس عن توفير شروطها. إنها مثل المريض الذي يريد الشفاء فيلجأ إلى الطبيب الذي يشخّص الداء ويصف العلاج، ولكن المريض يمتنع عن تناول الدواء.

لقد تضافرت أفضل العقول العربية على دراسة قضية التنمية الإنسانية في البلاد العربية، وأصدرت تقريراً في أربعة أجزاء خلال السنوات 2002، 2003، 2004، 2005. وقد شرح التقرير بالتفصيل وبالوضوح التام الخطوات اللازم اتباعها لتحقيق التنمية الإنسانية. وأول خطوة هي استعمال اللغة العربية في التعليم بمختلف مراحله ومستوياته وتخصصاته، ونص على ما يأتي:

" تنطوي علاقة اللغة العربية بنقل المعرفة واستيعابها على قضايا عدّة، تتقدمها قضيتان محوريتان هما: تعريب التعليم الجامعي، وتعليم اللغة العربية." (1)

ولكن ما الذي فعلته أنظمتنا العربية بعد صدور التقرير؟ لقد اتخذت خطوات واضحة في:

أولاً، التوسّع في استعمال اللغة الأجنبية في التعليم، لا في التعليم الجامعي فقط، بل في رياض الأطفال والتعليم الابتدائي والثانوي. وأعطت الإذن لمدارس أهلية خاصة تعلّم باللغة الأجنبية فقط.

ثانياً، في ما يتعلق بتخريب تعليم اللغة العربية، توسّعت السلطات في استعمال العامية في جميع برامج الإعلام، وأعطت الإذن بإصدار صحف كاملة بالعامية، وإذاعات كاملة بالعامية، وفضائيات كاملة بالعامية!

---

(1) برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، تقرير التنمية الإنسانية العربية (عمان: المكتب الإقليمي للدول العربية لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي، 2002 2004، 2005، 2006)، ويمكن الاطلاع على التقارير الأربعة على الشابكة : www.undp.org

بل أخذت كثير من المصالح الحكومية في عدد من البلدان العربية تنشر إعلاناتها باللهجة العامية حتى في الصحف التي تصدر بالفصحى. وكان الدين الإسلامي يمثّل الخط الدفاعي الأخير للغة العربية الفصحى في فترات انهزام الأمّة العربية، بيد أنني سمعتُ مؤخراً رجل دين مُعمّم يفسّر القرآن في إحدى الفضائيات بالعاميّة فيقول في تفسير آية (وعلّم آدمَ الأسماءَ كلها): " يعني ربّنا بيغشّش أبونا آدم."، مع العلم أن كلمة (علّم) أخفّ وأوضح معناً وأيسر نطقاً من كلمة (بيغشّش).

إنّهم يلوثون فضاءنا اللغوي، ويجهّلون أبناءنا، ويحطّون من أقدارنا، وإنا لله وإنا إليه راجعون!

الظواهر اللسانية لانشطار الفصحى إلى عاميات

.د.عبد الجليل مرتاض
- جامعة تلمسان

أي سبيل لبحث الموضوع؟ ربما سيكون بحثنا هذا أكثر جدوى، ونحن نحاول أن نتحدث عن الظواهر اللسانية المتسبّبة في انشطار لغة واحدة إلى عاميات وتكلمات، لو نَحوْنا منحى الحديث عن المستويات الداخلية للغة عوض الكلام عمّا اعتراها من أوصاب وفتورات واهتزازات خارجية، غير أنّ تَنَاوُلَ اللغة من الداخل يحتّم عليك أن تتناولها في صميمها المتمثل في ثمانية مستويات على الأقل:

1- المستوى الصوتي.

2- المستوى الفونولوجي.

3- المستوى السانتكسي.

4- المستوى المورفولوجي.

5- المستوى المعجمي.

6- المستوى الدلالي.

7- المستوى البلاغي والمجازي.

8- المستوى العام الذي قد تَشْرد عناصره بك شروداً قد "لا" تعثر عليه في المستويات السبعة للغتك، أو لأنه لا يزال ينتظر دوره لأن تُهيّأ له قاعدة حتى يُلْحقَ بأحد المستويات الشائعة أوْ لِمَ لا يوضع له مستوى خاصّ به، إذا كان ذلك لا يتعارض مع طبيعة النظام الداخلي أو العامّ للّغة؟، نقول هذا، ونحن نعلم أن أطرافاً أخرى من الباحثين اللسانيين تقلّص المستويات اللغوية إلى أدنى من هذا التّعْداد، على أنّ البنيات الكلية لسانياً بين اللغات قابلة للانقسام إلى ثلاثة مستويات:

- المستويات الفونولوجية.

- المستويات النحوية.

- المستويات الدلالية.

ويؤسس اللسانيون المحدثون مقولتهم هذه على أن كل اللغات المعروفة أو المعثور عليها تتميز بالتمفصل المزدوج إلى مورفيمات (أصغر وحدة دالّة) وفونيمات (وحدات صوتية تمايزيّة)، وأن العدد المحدود للفونيمات المستعملة كثيراً ما يكون أقل من خمسين، أضف إلى هذا الفصائل أو الأنماط السانتكسية (النحوية) وعلاقات أخرى كالعلاقة بين ما يسمى بالموضوع (المسند إليه) والمحمول (المسند)[1]. وإذا ما قُدّر لك أن تقف وقوف الفضولي المتأمّل في الموروث اللغوي والأدبي العربي، وأنت تتصفح مدونات لسانية عربية قديمة لاقتنعت من توّك بانضواء مستويات فرعية من التكلمات الفردية أو الجماعية الضيقة تحت مستوى أساس واحد، وهذا ما أردنا أن نتفاداه حتى لا نورّط عملنا أو قراءتنا فيما لا تحمد عقباه، وأما إذا فكّرت في بحث موضوعك هذا في ضوء اللسانيات الجغرافية أو علم اللهجات فإن المادة لا تطاوعك، وطبيعة العربية مُمْثَّلَةً في فصحاها لا تنساق لك، وتجد نفسك خارج الموضوع الذي رصدت له جهدك ونيّتك، نقول هذا ونحن نعلم أن الغربيين منذ عقود غَدَوْا يميزون حتى بين اللسانيات الجغرافية التي أُوكل لها تسجيل أصناف التكلمات داخل لغة واحدة منشطرة على نطاق واسع وفق خرائط أطلسية، بينما علم اللهجات صار يفهم عندهم:

1) كدراسة مقارنة لأنظمة لغوية تخص محلياً كل لغة.

2) أو كوصف لتكلمات دون الإحالة على التكلمات المجاورة، ومع ذلك فإن التشديد يكاد يقع حصرياً على العامل الجغرافي، فلغتنا المستعملة لا تعتبر وسيلة

---

[1] ينظر التحولات الجديدة للسانيات التاريخية، ص: 13 عبد الجليل مرتاض ويقارن بـ: Dictionnaire de didactique des langues, P : 579-580.

محايدة عمَّن يتكلمها، ولا شكلاً أحادياً حتى على مستوى مستعملين منتمين استعمالاً إليها، لأن بنيتها أو أنظمتها قابلة للتغير تبعاً للفوارق الاجتماعية والتباينات الثقافية والوظيفية والمهنية، وليس معنى هذا أننا من القائلين بتطور اللغة، ولكنا من مؤيّدي القائلين بتحويلها في بعض مستوياتها التي لا صلة لها بالمستويين: النحوي، والصرفي، إذ لا يمكن لضرب النصب والفتح أن يتحول إلى ضرب الجر والكسر أو الرفع والضم... ولا ما يسند إلى متكلم يسند إلى غائب، حتى وإن تبادلت الضمائر المواقع، وتكاملت فيما بينها:

-أنا ولده ← أنا +هو.

- هو ولدي ← هو + أنا.

- أنا ولدها ← أنا + هي.

- هي بنتي ← هي + أنا.

وكل قول بتطور لغة يجب أن يقابله قول بتخريب لنظامها من الداخل، وهنا تصبح اللغة المعتدى على نظامها لغة أخرى غير اللغة الأولى، بل حتى اللغة التي قد تختلط بلغة أخرى لا تقتبس منها إلا نادراً صرفاً ولا إعراباً، وقد لا تقتبس مطلقاً، ومن ثم فإن الاقتراض السائد بين اللغات لا يتوقف إلاّ على العناصر اللّكسيكية أو الكلمات المعزولة دون العناصر النحوي، إلا إذا اختلطت الواقعة اللفاظية بالواقعة النحوية، وهي وقائع لسانية قليلة، وحتى إذا ما قدّر لهذه الحالة أن تحدث، فلا تتمّ إلا بوساطة الترجمة الدلالية، وليس بوسطة الكلمة المقترضة ذاتها، ولتنتقل من واقعها اللفاظي الأصلي إلى واقع نحوي أو صرفي، فإنها تَمُرّ بمحك نواميس اللغة المقترضة (بكسر الراء). لا يختلف باحث في اللغة أيًّا كان تخصُّصه وأدواته بأن لغتنا تتغير وتتنوع في فضاء كان يتمدّد، فيما مضى، تمدداً بطيئاً، وأصبح اليوم يتمدّد تمدّداً أسرع مما نتصور حتى إنه لأمسى عسيراً عليك أن ترسم له بؤراً معينة، وحدوداً فاصلة. إن الإشكالية المطروحة أمامنا تدرك ما يحدث عن أي انشطار نابع من لغة واحدة من أشكال دنيا من التكلمات التي ترأسها اللغة الأم، وهي اللهجة التي عادة

ما تراد في العامية عندنا بالنسبة للعربية الفصحى، لتليها لهجة أقل منها اتساعاً قد تدعى اللهجة الإقليمية أو المحلية Le Patois، ويعقب الثانية مستوى ثالث من التكلمات المختلطة من أكثر من لغة وهي اللغة الهجين Le Créole، ويأتي بعد اللغة الهجين مستوى رابع أكثر اختلاطاً ومزيجاً من لغات شتى كعاميتنا الجزائرية أحيانا، ويدعى SABIR، إلى جانب تكلم خامس على نحو خاص يسمى ARGOT، ويُعْنَي به تكلمات فئة اجتماعية أو لغة اصطلاحية، ولربما أطلقت الأرغة ARGOT على العامية ذاتها.

غير أنّنا تجنبنا أيضاً هذا الطريق الذي نراه مسدوداً من أمامه، وإلا أَقْصَيْنَا التعامل مع الفصحى، لينصبّ جهدنا على العامية وحدها، وهذا يخالف الغرض الذي نرومه من وراء هذا المبحث الذي يريد أن ينطلق من الإحالة على بعض الظواهر اللسانية التي تبنتها أرقى الخطابات الفصيحة وارتضتها بلاغاً عربياً مبيناً لها رغم أنف النحاة واللغويين الذين هجروها هجراً جميلاً لاحتيارهم أمامها، وقَصْدُنا بهذا الاحتيار أنهم لم يهتدوا إلى تهيئة قواعد لها أُسوة بما هيأُوا من ضوابط لظاهر لسانية أخرى أغْنت الناس المتواصلين بالعربية عمّا لم يُهَيَّأْ لها من قواعد لا تبرح مهملة أو موصوفة بأوصاف هامشية شتى في موروثنا اللساني العربي، ولا أحسب أن أصحاب لغة من آلاف اللغات المنتشرة على كرتنا الأرضية يتداولون قواعد في إحدى لغاتهم، وهم في الوقت نفسه يمنعون من استعمالها والتواصل بها كَعُرْف لغوي غريب، ولكن هذا العرف اللغوي حاصل بيننا لأسباب لا تتصل بخصوصية اللغة كظاهرة اجتماعية هدفها الأسمى التبليغ. ليست اللغة العربية في مَنَعَة مما يعتري نظيرتها من اللغات الأخرى من انشطار وتغير وانحراف وتنوع زمني، فهي تخضع لما تخضع له أية لغة أخرى، ومن ثمّ فإنها تتنوّع تبعاً لثلاثة تغيّرات:

1)- تغيرات حسب الأمكنة.

2)- تغيرات تبعاً لمستوياتهم.

3)- تغيرات بحسب الموضوع.

بالنسبة للنقطة الأولى أن لغة تتمدّد جغرافياً وتتنوع أعراقاً تَمَدُّدَ العربية وتَنوُّعَ من أقبل على اكتسابها من أجناس، يحدث لها ما حدث للعربية من تغيرات ارتبطت بكل فضاء على حدة، حدث هذا للانجليزية اللندنية والنيويوركية، أو سان فرنسيسكو، ولإسبانية إشبيلية والمكسيك، وبونوس إريس، وبرتغالية لشبونة والبرازيل،... وقد يؤدّي الأمر بهذه التغيرات الفضائية المتنائية إلى الحدّ الذي لا يتم معه تفاهم بين مكان هنا ومكان هناك، فالمنظومة السانتكسية قد تؤول إلى تغيرات متباينة، في حين أن المستوى اللكسيكي يظل أكثر ارتباطاً بالمحيط والحياة اليومية، وأما النطق وهو الإشكال الأكبر، فقد يشكل عائقاً حقيقياً في عملية التفاهم، وقد يدور بخلد متلقٍّ أن إشارتنا إلى المنظومة السانتكسية يتعارض مع نفينا لأي تطور بالنسبة للنظام اللساني من حيث القواعد، وبالنسبة لنا لا يوجد أي تناقض، لأن ما قد يحدث في هذا الاتجاه، وخاصة بالنسبة للغات غير المعربة، هو في نظرنا تَشَوُّه لما هو ماثل وكائن، أو تهيئة طارئة لما هو غائب ومنعدم في هذه اللغة الحديثة أو تلك، فنحن بإمكاننا، إذا شئنا، أن نضع قواعد لكل عامية على حدة في بضعة عقود من الزمن، ولكننا لن نفلح في تعليمها إلا إذا محوناها محواً، وسحقناها سحقاً من أطالسنا اللغوية، لأنه يستحيل عليك أن تحوّل نظاماً لسانياً مُمَارساً طبيعياً وسليقياً إلى نظام لساني تعسُّفِي لا معنى له إزاء لغة أمومة اكتسبها أصحابها اكتساباً طبيعياً بصورة لا واعية.

وبالنسبة للتغير اللغوي بحسب المستويات، فإن اللغة وفي مكان واحد يمكن أن تسمح بعدة تغيرات في مستوياتها أو سجل استعمالها من مستوى أكاديمي وأدبي راقيين إلى مستوى عامي Vulgaire، فإلى ما دون العامية، وهذا المستوى يشير إلى كلمات مأنوسة وشائعة بين المتخاطبين، والتي قد ينفر أو يعفّ متخاطبون في فضاء آخر عن تلفّظها وحتى سماعها، ويمكن لهذا المستوى الضيق أن يعني، فيما يعني اللغة الدارجة التي لا تفيد بالضرورة أنها أسفّ وأحطّ من العامية، ولكنها أضيق مساحة، وأكثر استعمالاً، خلافاً للعامية التي هي أوسع مساحة وأقل استعمالاً، لأن الناس كلما كثروا وتباعدوا تباينوا أكثر فأكثر في استعمالاتهم اللغوية، والأمثال العربية القديمة

جلّها دارجيّ فبناء كمية منها يشير دارجيتها إشارة واضحة إلى مستوياتها الداخلية، وتعدّ في تقديرنا الشرارات الأولى لانشطار الفصحى إلى عاميات لاحقة.

أما النقطة الثالثة فترجع إلى مستوى اللغة الذي يستعمل في حديث عن الموضوع المراد تبليغه من حيث درجة المعرفة التقنية لمتحدث، وكذا العادات البلاغية عند المجموعة، بل الفرد نفسه يمكن أن يتكيّف في مفرداته تكيّفاً مُمَيَّزاً في لغته وأسلوبه، فالطبيب يتحدث لزميل له عن صُدَاع رأس المريض، والفلاح يشكو لفلاح آخر ضعف محصوله الفلاحي،... فاللغة تتغير تغيراً هائلاً حسب ثقافة الجماعة التي تميز آلياً بين استعمال مباح للخاص والعام، وآخر محرّم على العام ومباح للخاصّ.

لا ازدواجية بين الفصحى والعامية: ومما أراه مشروعاً يجب أن يُذكَّر به أننا لسنا أمام ازدواجية لغوية كلما أثرنا موضوع الفصحى والعامية، لكن أمام لغة رسمية عامة، ومستويات دونها رقياً حتى أضحى بعضها كأنه لا يمت إلى أمه الفصحى بصلة لتباينه في نطقه الصوتي وتحقيقه الفونولوجي وتكسير حركات إعرابه تارة واختلاسها تارة أخرى، وتشويه ما فيها من سوابق ولواحق وضمائر متصلة، وحذف ما لا يجب أن يحذف،...

إنّ عامياتنا العربية لا تمت بصلة لما يشبه الازدواجية Bilinguisme فضلاً عن أن تكون تعدُّدية لغوية Multilinguisme لأن متكلمها غير متعدّد اللغات Plurilingue، كل ما في الأمر أنه لهجوي عموماً باعتبار اللهجة Le Dialecte تكلماً جهوياً متنوعاً من لغة واحدة ذات هيمنة على كل ما قد ينشطر منها من تكلمات تتميز بخصائص صوتية وفونولوجية وخصوصيات معجمية، ونادراً ما تختلف في بناها التركيبية Ses Morpho Syntaxiques وهذه الاختلافات اللهجية في إطار لغة واحدة لا تؤدي إلى عدم التفاهم المطلق، لكن عوامل ما فوق لساني كالنبر والتنغيم وعادات التكلم والأداءات الصوتية والفونولوجية فضلاً عن توظيف كلمات محلية شُوِّهَتْ تشويهاً بعيداً هي التي قد تُسْهم في توسيع الفهم بين عامية لبنانية وأخرى مغربية وهلمّ جرًّا، بل إن الازدواجية تعني استعمال مجموعة منتمية إلى جنسية واحدة أو بلد

واحد لغتين رسميتين. أو أكـثر كاسـتعمال البلجيكيـين لغـة فَلَمَنْدِيَّـة FLAMAND وأخرى فرنسية، والكنديين لغة فرنسية وأخرى انجليزية،... وفي بعض البلاد العربية توجد أيضاً ازدواجية قوية، كما هو الحال عندنا في الجزائر، حيـث يغلـب عـلى لغـة العامة والخاصة والأصاغر والأكابر استعمال اللغتين في التواصـلات اليوميـة وحتـى الرسمية بصورة قصدية أو عفوية أو نفسية أومن باب وَلُوع المغلـوب بالغالـب وفـق الرؤية الخلدونية، والأهم مما أشير إليه أنه لا توجد ازدواجية بين الفصحى وعاميتها، وبين هذه ولُهَيْجَاتِهَا التي لا حصر لها لارتباطها بتكلمات فـضائية معقـدة ومتـشعبة، وبعبـارة لـسانية عامـة، لـكي تكـون هنـاك ازدواجيـة، ينبغـي أن تكـون البنيتـان الفونولوجية والسانتكسية متباينتين بـين اللغتـين المعنيتـين، وهـذا مـا لا ينطبـق عـلى العربية الفصحى وعامياتها.

أشكال من التكلمات (تحديد المصطلح): إن تحديد المصطلح المستعمل في أي بحث ضروري له ولمتلقّيه، إذْ أشرنا إلى أكثر من صنف لهجي، وحاولنا رسم واجهة شفافة أشبه بخمار كاشف بين كل مفهوم وآخر، وكان لجوؤنا إلى درجة المستويات لتلك الأصناف اللهجية المخرج الذي ارتأيناه أنسب، غير أن هذا لا يشفع لنا أن نترك تداخلاً مازلنا نشعر به بين بعض هذه المصطلحات وخاصة بين Le Dialecte و Le Patois، إن اللهجة قد تطلق على لغة أو لغات قائمة بذاتها داخل لغة مهيمنة وطنياً ورسمياً وتربوياً، ولكننا نرفض هذا الإطلاق، ونقر بلغويتها حتى ولو لم تكن تعني إلا أقلية من المتكلمين إذا كانت تتباين لسانياً في البنية الفونولوجية والصوتية والمورفوسانتكسية، غير أن ما يعنينا هنا بوجه أخص ما يمكن تمييزه من إدراك بين مصطلح للهجة Dialecte و Patois.

تطلق اللهجة عادة من الناحية اللسانية على تكلـمات لهـا امتـداد جغـرافي في إقْليم أكثر اتساعاً، ولها خصائص أكثر ملاحظة من Le Patois الموصوف بأنه تكلـم محلّي أو جهوي يشكّل نسقاً متغيراً داخل لغة واحدة، بخلاف الـ Patois التـي مـداها الجغرافي محدود جداً وغالباً ما تظهر أشكالها المتواصل بها شـفهياً، وبوضـوح أكـثر،

التمييز بين لهجة Dialecte و Patois تمييز أكثر ثقافياً ولغوياً اجتماعياً منه لسانياً خالصاً، وغالبا ما يظل هذا التمييز طافياً متأرجحاً، ويظهر مع ذلك أن اللهجة Dialecte قابلة لأن تفهم على أنها الاستعمالات الأكثر اتساعاً وهذا الإدراك على هذا النحو قد يسمح لنا بتمييز بَاتْوَاتٍ Des Patois داخل لهجة، والعكس غير صحيح[1]، بمعنى أن الباتوا تحتل الدرجة الثالثة بعد اللغة واللهجة.

عامية واحدة أم عاميتان؟ وبناء على التصور السابق للهجة والباتوا، فإن عاميتنا العربية بالنسبة لأمها الفصحى هي لهجة داخِلها باتْوَاتٌ، بمعنى أنه ليس ثمت إلا عامية عربية واحدة لا عاميات، ونصل بهذا الطرح إلى أن العامية العربية هي التي انشطرت إلى تكلمات ضيقة أضحى كل مظهر منها يشكل بَاتوا الذي نفضل أن نطلق عليه "لُهَيْجَة".

وما أشير إليه سابقاً يقودنا إلى القول بأن اللغة العربية الفصحى تمخض عنها عامية عربية واحدة ما لبثت أن تناءت كثير من بُنَاها السليمة، مما نتج عن ذلك هذه الأمشاج والأشتات من اللهيجات على أنحاء ضيقة تباينت تكلماتها تبايناً أصبح التفاهم بين مستعمليها أحياناً مستحيلاً.

الرَّنات الصوتية التمايزية في عملية التبليغ: لم يَعُدْ لساني يجادل صِنْوه بأن الوظيفة الأساس للغة البشرية هي التبليغ والتواصل في قوالب تحتية تكاد تكون مشتركة بين معظم التخاطبات الإنسانية، حتى وإن كانت كل لغة تعبّر عن أداء وظيفتها التبليغية بطريقتها المتميزة، ومن هنا يأتي اختلاف الألسنة، وليس فيما تعبّر عنه، لأن المسميات المتماثلة بين محيط لغوي وآخر مشتركة، لكن أداءها متباين بتباين الأصوات كثرة وقلة "بل إن الشخص الواحد قد يتكلم بطريقة مختلفة حسب اختلاف المناسبات"[2]، بحيث كل مناسبة تقتضي شكلاً من نوع خاص يتقارب من

---

(1) راجع: Comprendre la linguistique, P : 13-16

(2) الأصوات والإشارات، ص: 180، أ.كندراتوف، ترجمة شوقي جلال.

مستويات أخرى في لغة النطق أو الاستعمال نفسه دون أن يكون هو نَفْسَها وعلماء اللسان العام أجمعوا على أنّ "أصوات الكلام متعددة ومتباينة إلى ما لا نهاية، والشيء المهم الذي يعنينا هو أن نمايز فقط بين الأصوات النوعية (الفونيمات) التي تشكّل أساس اللغة أي الكلمات ومعانيها، بل إننا لا تعنينا كل أوجه التباين في نغمة الكلام، وإنما نقصر اهتمامنا على الفوارق النمطية التي ندركها جميعاً بشكل عام"[1]، ولهجاتنا العامية ترتكز على الوحدات الصوتية التنغيمية Intonèmes، ودراستها دراسة حديثة العهد لم تبدأ قبل عقود، ولكن الفهم بغير علم أصوات الكلام، سواء شعرنا بذلك أم لم نشعر، بعيد المنال، سواء تعلق الأمر بالتكلمات العامية أم الفصيحة، بل العامية أحوج إلى النبر والتنغيم والترقيق والتغليظ والهمس والجهر،... من الفصحى.

لغتنا المستعملة حية وحركية، وإذا كانت صوامتها خرساء، فإنَّ صوائتها قصيرةً كانتْ أمْ طويلةً صور صوتية سمعية بمقتضاها يتمّ التمايز بين الناس، حتى في إطار لغة مشتركة بينهم، وطبيعة هذه المصوّتات التي تسمح بأدائها أداءات مختلفة (إغلاق، انفتاح، تضييق، انخفاض، رخاوة، شدة، فتح، إمالة،...) هي التي تميز قروياً عن حضري، وغريباً عن بلدي، وخليجيّاً عن شامي، ومشرقياً عن مغاربي،... وهي نفسها ما يميز لغة فصحى عمّادونها، ونصًا أدبية وآخر عامّياً، ومما يُلاَحَظ أن تحوُّل رَنَّه صائت METAPHONIE، في مكان، وتحوّلَ رنَّة الصائتِ نَفْسه في مكان آخر، هو الذي يُسْهِم بكثافة في تباين التكلمات، ويزيد من توسيع هُوَّة سوء التفاهم في العاميات، لأن الرنّات الصوتية تتغير تغيراً لا نهائياً، ولربما احتاجت منا إلى استحداث مصطلحات ما فوق لغوي لها حتى نتمكن من رصدها ووصفها.

ومما أسجّله على نفسي أنه كثيراً ما وقع لي ارتباك من بعض التراكيب والأمثال العامية التي أوظفها على ألسنة شخوص، كلما عُدْتُ إليها بعد برهة من الزمن لإعادة قراءتها، فالجأ إلى نطقها الفونولوجي الأصلي مثلما سُمِعَت ورَسَخَتْ، وهنا أستحضر قول أبي هلال العسكري، وهو يتحدث عن المثل: "هو من الكلام الذي قد عرف

[1] نفسه، ص: 180.

معناه سماعاً من غير أن يُدلّ عليه لَفْظُه"[1]، وأجدرْ بهذا الإدراك أن يكون سليماً "لأن تركيباً مثل "الصيف ضيَّعتِ اللـ بَنَ" بكسر التاء إذا خاطبت العدد والجنس بجميع أنواعها يدلّ على شذوذ في البنية السانتكسيّة المستقيمة نحوياً ومورفولوجيا وكذلك في مثلهم: "أعْطِ القوسَ باريها" بتسكين الياء في باريها بدل فتحهَا، لأن المثل هكذا سمع، وهكذا يجب أن يروى ويظلّ، حتى كأنّ البنية الدلالية تصير لا علاقة لها باستقامة البنية القواعدية، حتى وإن كنا ندرك دائماً أنّ البنية في مثل هذه التراكيب، وحتى في التعابير العامية هي بنية مقدَّرة في التركيب العامّ السليم، أي هناك بنيتان: بنية سطحية قد يكون ظاهرها غير مستقيم، وبنية عميقة مُقَدَّرة تقديراً سليماً وفق القواعد المعهودة"[2].

وقول أبي هلال العسكري معضود قبله بقول أبي زيد الأنصاري، وهو يشرح بيتاً:

ولقد رَأَبْتُ ثَأَى العشيرة بَيْنَهَا　　　وكَفَيْتُ جَانِيَهَا اللَّتَيَّا والَّتِي

بقوله: "ويقال اللّتَيَّا واللُّتَيَّا، فاللُّتَيَّاجَرْيٌ على أصل التصغير، وأنشدوا:

بَعْد اللُّتَّا واللُّتَيَّا والَّتي　　　إذا عَلَتْهَا أَنْفُسٌ تَرَدَّتِ

وهذا مثل سائر قَدْ عُلِم المحذوف منه، فلذلك حُذِفَتِ الصِّلَة، ولولا ذلك لم يَجُز إذْ كانتِ الصلةُ تَمام الاسم، والمثل بمنزلة الإشارة، وإنما يُعْلَم المرادُ به على هيْئتِهِ، فإن غُيِّرَ فَسَدت الدَّلالة، وبَطَلَ المعْنَى"[3].

---

[1] تاريخ الأدب العربي: 1/ 408 د.شوقي ضيف.

[2] التحليل اللساني البنيوي للخطاب، ص: 22، عبد الجليل مرتاض.

[3] النوادر في اللغة، ص: 122، أبو زيد الأنصاري.

الطبيعة البنيوية للخطاب الشفهي: شعرنا ونحن نثير الفصحى وانشطارها إلى عاميات بعقبة السابق على اللاحق، والمخفي على المرئي، والغامض على الواضح، والسهل الممتنع على الصعب المنقاد، إذ مهما "كنا جادّين وصادقين في اختيار أي منهج لساني كوسيلة للتعامل مع هذه الأشكال من التراكيب، فإننا نصطدم دائما بوقائع لسانية سابقة علينا سلفاً، ويجد اللساني نفسه أو الدراسات الأخرى التي تتخذ اللسانيات منهجاً لها أمام نظام موجود قبله هو اللغة"[1].

ولعله ليس من الهذر أن نؤكد أن تركيباً لغوياً قبل أن يتحقق يـدخل في قفـص وقائع لسانية خارجية، ثم لا يلبث بعد هذا التحقق الفعلي في مجاله التواصـلي أن يلـج مجالاً آخر هو واقع اللسانيات الداخلية، لكن ثبوت هذه التراكيب من عـدمها تبقـى مسألة نسبية، إذ كم لغة انقرضت أو قُهرت، وكم تراكيب زالت بزوال استعمالها.

وبما أن عملنا هنا انشطار الفصحى إلى عاميات، فـلا نـرى جنوحًـا بعيـداً ولا غريبًا عن الموضوع، إذا أشرنا إل الطبيعة البنيوية للتراكيب والتعابير الشفهية[2]:

1- وجوب حضور المتكلم والمستمع معًا في زمانٍ ومكان واحد.

2- عفوية الخطاب الشفهي، وهو غير قابل للمراجعة والتنقيح، وإذا كـان لابدّ مما ليس منه بـدّ، فـإن ذلـك يـتم بمرسـلة لغويـة أخـرى، وبـشكل آخـر شـكلاً ومضمونًا:

أ- ما رأيت عليًا بل سميـراً ← وظيفة إضرابية.

ب- ما صافحني أخوك بل أبوك ← وظيفة عطف بعد نفي وإثبات.

وربما دلّت على وظائف أخرى كخروجها من قـصة إلى قـصة دون إبطـال مـا تقدم، كقوله تعالى: ﴿**وَاللهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ**﴾[3]، وربمـا اسـتعملها

---

[1] نفسه، ص: 25.

[2] راجع التحليل اللساني البنيوي للخطاب، ص: 10-17.

[3] سورة البروج، الآيتان: 20 و21، وهي هنا مرادفة للواو.

العرب في تواصلاتهم الشَفهية في قطع خطاب واستئناف خطاب آخر لتكون دليلاً بين المتكلم والمتلقي لانقطاع ما سبق عما لحق كقول شاعرهم:

ما هاجَ أَحْزَاناً وشَجْواً قد شَجَا   بَلْ بلدةٍ ما الإنسُ من آهالهـا

وربما لجأ المتكلم إلى توظيف وحدات أخرى إذا رغب أن يغير وجهة نظر المتكلم نفسه نحو متلقّيه إزاء حُكْم بعينه كالاستدراك مثلاً الذي يَنْسُبُ حكما لما بعده مخالفاً لما قبله:

1- جاءني القوم لكنْ عمرو لم يَجِئ.

2- ما أكرمْتُ علياً لكنْ محمداً.

3- ﴿مَا كَانَ محمدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ولَكِنْ رَسُولَ الله وَخَاتَمَ النَّبِيّينَ، وكَانَ اللهُ بكلّ شيءٍ عَلِيمًا﴾[1].

وسبب لجوء المتحدث إلى هذه التقنية في نسج وبناء خطابه الشفهي أنه لم يكن بوسعه إلغاء تركيب وتبديله بتركيب آخر لأن ما تفوَّه به قد وصل المخاطب المعني، مما اضطره إلى اختراع أدوات لسانية من جنس اللغة نفسها تمكّنه من تغيير وجهة خطابه أو إعادة النظر فيما قرع سَمْع مُخَاطَبه.

وفي اللغة العربية مائات الأدوات الحقيقية والأداءات المجازية التي كان العربي السليقي في فصحاه يعتمد عليها في تواصله مع الآخر كأدوات العرض والتحضيض، والطلب، والتوكيد، والجواب، والتفسير، والتثنية والاستفتاح والنفي، والاستفهام، والتمني،... فضلاً عن عناصر بلاغية أخرى مثل الذكر والحذف، والكناية أو التورية،... ورجالات الاختصاص في اللغة العربية وعلومها يعلمون أن تراثنا اللساني العربي الثريّ بأشكال لسانية لم يَعُدْ مسموحاً لأحد من المستعملين استتعمالُها، وهذه الأشكال تشكل ثروة لغوية كبيرة وتخصّ قواعد عربية قديمة في

[1] سورة الأحزاب، آية: 40.

كل مستوياتها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية والمعجميـة، وتوجـد هـذه الأشـكال اللسانية المحظور تداولُها في المصادر المحتجّ بها، وعلى رأسها القرآن الكريم:

- "وأَسَرّوا النجوى الذين ظلموا"

- "إن هذان لساحران"

- "أريد أنْ أُنكحَكَ إِحْدَى ابْنتَيَّ هاتَيْنِّ" (قرأها السبعة بتشديد النون)

أما المصدر الثاني الذي هو الشعر المعين بقرن ونصف ما قبل الإسلام وقرن ونصف ما بعده، فلا يخلو من قواعد وتراكيب لم تعد مستعملة إلا لحناً أو جهلاً بما أسماه النحاة المعياريون بالقاعدة المطردة أو السليمة،مما جعل مساجلات ساخنة تنشأ بين شعراء من جهة ونحاة صارمين من جهة أخرى، وذلك منذ مطلع القرن الثاني الهجري.

وحتى كلام العرب العام من غير المصدرين السابقين وردت فيه تراكيب لم تَعُد قواعدها الواردة فيها يسمح لها بالاستعمال:

- أكلوني البراعيث.

- عسى الغوير أبؤساً.

- ليت القِسِيّ كلَّها أرجلاً.

ويجب أن أشير هنا إلى أني لا أقصد الفوارق اللهجية بين القبائل العربية، ولا الضرورات الشعرية المسموح بها للشاعر دون الناثر، ولا مستويات أخرى بعيدة وعميقة فيما وصلنا من نصوص جاهلية وإسلامية قديمة، بل أعني قواعد أو عناصر للسانية عامة لا علاقة لها بكل هذا.

3- تتميز اللغة الشفهية باستعمال سانتكس بسيط يتجلى في جملهم الموجزة، لأن المتكلم شفهياً له وقت مقدّم، لكن ليس له وقت مؤخّر غير الوقت الذي هو فيه، كلما تفوّه، ليفكر في صفات معينة بَدَلَ ما يحضره عفوياً تبعاً لواقع الخطاب ودرجة المقام.

4- القاموس الأساس يقوم في هذا الخطاب على الوحدات اللغوية ذات الوظيفة الانتباهية غرضها إقامة الاتصال بين المتكلم شفهياً والمستمع لذات الخطاب، ويعتمد بصورة تلقائية وبمحض الصدفة على ما يحضره من مفردات سارية الانتشار، يتلفظها دون عناء ولا تحضير سابق لأوان المناسبة تلفظا عادياً كتلفّظ كل عربي منّا اليوم عامية بلده أو قريته.

5- مرجعية ذلك التواصل السليقي المحال عليها لا يلاحظ عليها تعقيد ولا تجريد ولا قيود بصور بلاغية إلا ما تضمنته من وظائف طبيعية منها تدخل فيما يسمى بالسهل الممتنع.

معالم انشطارية داخل الفصحى: إن هذه العاميات لم تنشطر انشطاراً غير مشروع مما يسمى بالعربية الفصيحة، بل انشطرت انشطاراً مشروعاً قائماً على وقائع وحقائق لسانية لا ينكرها إلا جاهل بالتراث اللساني العربي القديم، وهناك ظواهر لسانية كانت متداولة بين العرب، ولما كان النحويون واللغويون والعروضيون منعوها الناس خاصّتهم وعامّتَهم من تعاطيها والتخاطب بها، ولست في حاجة إلى التدليل بالشمس على النهار واجتزئ بثلاثة أمثلة أو نصوص. فهذا ابن عصفور يبرر جَعْلَه صَرْفَ ما لا ينصرف من قَبيل الضرائر الشعرية أسوة بمن تقدَّمه قائلاً: "فإن قلت: كيف جعلت صرف ما لا ينصرف من قبيل الضرائر، وقد زعم أبو الحسن الأخفش في الكبير له أنه سمع من العرب من يصرف في الكلام جميع ما لا ينصرف؟ وحـ ع الزجاجي أيضاً في نوادره مثل دلك؟ فالجواب أن صرف ما لا ينصرف في الكلام، إنما هو لغة لبعض العرب، قال أبو الحسن: فكان ذلك لغة الشعراء، لأنهم قد اضطروا إليه في الشعر فصرفوه، فجرت ألسنتهم على ذلك، فلذلك جُعِلَ من قَبِيل ما يختص به الشعر"[1].

لكن ماذا عسى ابن عصفور أن يقول لنافع والكسائي وأبي بكر وهشام، وهم من القراء السبعة، الذين قرؤوا "سلاسل" بالتنوين في قوله تعالى: ﴿**إنَا اعتدْنَا**

---

[1] الضرائر الشعرية، ص: 24-25، ابن عصفور.

للكَافِرِينَ سَلاسِل وأَغلاَلاً وسَعِيراً﴾(1)، وماذا يقول لنافع والكسائي وابي بكر الـذين قرأوا بالتنوين في "قواريراً قواريراً" بينما قرأ ابن كثير الأولى مـنهما منوّنـةً والثانيـة منهما بغير تنوين فيهما من الآيتين الشريفتين؟

- **﴿ويُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَة من فِضَّةٍ وأكوَابٍ كانتْ قَوَارِيراً﴾**(2).

- **﴿قَوَارِيراً من فِضَةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً﴾**(3). وهل القرآن خاضع لوزن وإيقاع عروضيين أم هؤلاء العلماء الثُّقاة الثّقات الورعون من جانبهم الصواب في عربيتهم؟

وفي مستوى لغوي آخر أثبت شاعر التنوين والنون في اسم الفاعـل عـلى غـير العـادة الكلامية المطردة المألوفة:

وليس حاملنـي إلا ابـن حمـال

على الرغم من أن البيت ورد في القصيدة الأصلية برواية أخرى سليمة(4):

ألا فتَـى من بني ذُبْيَـانَ يحْمِلني   وليس يَحْمِلُني إلاَّ ابنُ حَمَّال

مما جعل المبرد يعلق: "وهذا لا يجـوز في الكـلام، لأنـه إذا نُـوِّن الاسـم لم يتـصل بـه الضمير، لأن المضمر لا يقوم بنفسه، فإنما يقع معاقباً للتنوين، تقول: هذا ضاربٌ زيداً غداً، وهذا ضاربك غداً، ولا يقع التنوين هاهنا، لأنّه لو وقع لا نفصل المضمر، وعـلى هذا قوله تعالى: **﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾**(5)، مردفا أن سيبويه روى بيتين محمـولين عـلى الضرورة زاعماً أن كليهما مصنوع، لأنه لا يوجد نحوي يجيز مثل هـذا في الـضرورة،

(1) الآية 4 من سورة الإنسان، وانظر التيسير في القراءات السبع، ص: 217، الداني.
(2) سورة الإنسان، آية: 15.
(3) سورة الإنسان، آية: 16.
(4) انظر الكامل ، ص: 1/ 363، المبرد.
(5) الكامل، 1/ 364، المبرد، وقارن بالموشّح، ص: 149، للمرزباني.

وإلا انفصل المضمير أو الكناية (الضمير المتصل)، وأما البيتان المصنوعان اللذان رواهما سيبويه فهما:

هُـمُ القـائلونَ الخـيرَ والآمرونـه ... إذا ما خشُوا يوماً مـن الأمـر مُعْظَـمَا
ولَمْ يرْتَفِقْ والنَـاسُ مُحْتَضِرُونَـهُ ... جمِيعًـا وأَيْـدِي المُعْتَفِيـنَ رَوَاهِقُـه

ولا نريد أن نستمر مع المبرد في هذه الظاهرة اللغوية غير المعمول بها معيارياً في العربية، لأن مذهب المبرد في كل ضمير متصل في نحو: الضاربك، والضارباك والضاربوك سواء رُسِمت النون أم لم ترسم، الجرُّ لا النصبُ خلافاً للأخفش الأوسط، وساند المبرد كلّ من الجرمي والمازني، ومذهب الأخفش هو مذهب سيبويه لقوله: "وإذا قلت: هم الضاربوك وهما الضارباك، فالوجه فيه الجرّ، لأنك إذا كففت النون من هذه الأسماء في المظهر كان الوجه الجرّ، إلا في قول من قال: "الحافظو عورَةَ العشيرة"[1].

والحق أن هذه الظاهرة اللسانية التي لا يختلف فيها سيبويه مع المبرد إعراباً، حتى وإن فاقه سيبويه فيها تقصِّياً وتحليلاً لا يُقارنان، لم ترد على لسان سيبويه وحده في شواهده، بل هي ظاهرة شائعة بين غير قليل من المتكلمين العرب السليقيين، لأن قبولك أو رفضك ظاهرة لغوية شيء، واستعمالها شيء ثانٍ، والتقعيد لها شيء ثالث، إذ مما جاء شبيهاً بما أورده سيبويه قولهم[2]:

ولـيْسَ بِمُعِيينِي وفِي النَـاس مُمْتِـع ... رفِيـق إِذَا أعْيَـا عـليَّ رَفِيـقُ
ومـا أدري وظـنّي كُـلَّ ظـنٍّ: ... أمُسْلِمُنِي إلى قـومِي شَرَاحِـي؟
هـل اللهُ من سَرْوِ الفـلاةِ مريحُنِي ... ولَمَّا تَقَسَّمنِي النهـارُ الكـوانسُ؟

---

[1] الكتاب، 187/1، سيبويه، ونصبت "عورةً" على نية إثبات النون لا حَذْفِها، لأن النون لا تعاقب الألف واللاَّم.

[2] العربية بين الطبع والتطبيع، ص: 39، عبد الجليل مرتاض.

بينما "وحسب القاعدة المطردة الجديدة في العربية أننا نقول: بِمُعْيِيَّ، ومُرِيحِيَّ، ومُسْلميَّ، ولكن هؤلاء زادوا النون، كما يزعمون، للضرورة"[1].

في تراثنا اللساني العربي ظواهر لسانية أعظم من أن تكون كلها ضرورات أو هفوات أو حتى لُحُونات، بل هي تكلمات متنوعة تَنَوُّع استعمالها، ومتميزة تميُّزَ خطابها، وكان مستعملها السليقي يتصرّف فيها تصرّف من يعرف أكثر من نظام لغوي ضيق، لأن الطاقة اللغوية في العربية من جهة، وكفاءة المتكلم البلدية من جهة أخرى سمحتا له بهذا التصرف الخارج عن كل معيارية قاتلة، وزمنية أبوية أبدية، ولم يكن المتكلم العربي ذو الكفاءة اللسانية الطبيعية يشعر بأدنى حدّ يضيّق عليه استعماله، بل كان مطلق الإرادة وفق ما يقتضيه موقف الخطاب.

أيّ عاميّ وأيّ فصيح؟إن الأشكال اللسانية التي سبق أن أشرنا إلى نمط منها ظواهر موثوقة ومستعملة في مختلف المصادر اللغوية المعتد بها، وبعضها ورد في القرآن المجيد، وهي أشكال كثيرة مهملة لا تقل -في تقديرنا- عن عُشُرِ ما يستعمل في العربية التي ارتضاها وقعّد لها النحاة العرب، وهذه الظواهر تغطي كل المستويات اللغوية.

و إذاً، فهل هذه الظواهر اللسانية عامية أم فصيحة؟ فالعامة نقيض الخاصة، وكل ما نُسِب إليها فهو عامّي، والتاء "في العامة للتأكيد بلفظ واحد دالّ على شيئين فصاعداً من جهة واحدة مطلقاً"[2]، والشيء نفسه بالنسبة للتاء في الخاصة أي التأكيد. إننا لا نريد أن ندخل في متاهات دلالية قاموسية لا فائدة فيها، ولكن ما نراه جديراً بالذكر أن معنى الفصاحة لَمْ يَرِد منها في القرآن الكريم وروداً صريحاً بالصوت والمعنى إلا كلمة واحدة على صيغة اسم التفضيل في قوله تعالى: ﴿ **وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا، فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقُنِي، إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ**﴾[3]،

---

[1] نفسه، ص: 39.

[2] المصباح المنير، ص: 430، الفيومي.

[3] سورة القصص، آية: 34.

فالفصاحة هنا غرضها البيان والإظهار للمراد أو الرسالة التي أُمِرَ سيِّدُنا موسى بتبليغها إلى فرعون وملئه. لكن ما معنى الفصيح من العامّي عملياً؟ حين تتحدث بعض المصادر عن الظرف "عند" تقول: "عِنْد: ظرف مكانٍ، ويكون ظَرْفَ زمَانٍ إِذَا أضيف إلى الزمان نحْو "عِنْدَ الصبحِ" و"عند طلوع الشمس"، ويدخل عليه من حروف الجر "مِنْ" لا غيْرُ، تقول: "جئت من عِنْدِهِ"، وكسْر العِين هو اللغة الفصحى، وتكلم بها أهل الفصاحة، وحُكِي الفتح والضمّ"[1]. وقالوا في قوله تعالى: ﴿**قُلْ: إِنْ ضَلَلْتُ فإنما أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي**﴾ بأن فتح عين "ضَلّ"، وهي لغة نجد، هي اللغة الفصيحة خلافاً لأهل العالية الذين يكسرون: ضَلِلْتُ أَضِلُّ[2]. وإذا ما عُدنا إلى بعض الأعمال القديمة التي حملت عناوينها "الفصيح" كما هو الشأن بالنسبة إلى "الفصيح" لثعلب (291هـ)، فإننا نجد الرجل يقول في مقدمة كتابه "هذا كتاب اختيار فصيح الكلام مما يجري في كلام الناس وكتبهم، فمنه: ما فيه لغة واحدة، والناس على خلافها، فأخبرنا بصواب ذلك، ومنه ما فيه لغتان وثلاث وأكثر من ذلك فاخترنا أفصحهن، ومنه ما فيه لغتان كَثُرَتَا واسْتُعْمِلَتَا، فلم تكن إحداهما أكثر من الأخرى، فأخبرنا بهما"[3]. ومن ذلك أننا نقول: "ذَوَى العُودُ يَذْوِي ذَيًّا" بفتح عين الفعل ماضياً وكسرها مضارعاً، بينما قال ابن السّكيت: "ذَوَى البقلُ يَذْوِي ذُوِيًّا فهو ذَاوٍ أي ذَبَلَ قال: ولا يقال: ذَوِيَ البقلُ بالكسر"[4]، بينما قال أبو عبيدة نقلاً عن يونس بن حبيب أن "ذوِيَ" لغة، لكن مصدراً آخر موثوقاً به جداً في العربية قال: "ذَوَى العود ذَوْياً من باب رَعَى وَذُوِيّاً على فُعُول بمعنى ذَبَل"[5].

وأوّل ما استهلّ به ثعلب "فصيحه" قوله: "تقول: نَمَى المالُ وغَيْرُه يَنْمِي، قال الشاعر:

---

[1] المصباح المنير، ص431.

[2] الصحاح، 5/ 1748، اسماعيل بن حماد الجوهري.

[3] الفصيح، ص: 45، أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب.

[4] الصحاح، 6/ 2347.

[5] المصباح المنير، ص: 211.

يا حُبَّ لَيْلَى لاَ تَغَيَّـرْ وازْدَدِ   وَانْمِ كَمَا يَنْمِي الخِضَاب فِي اليَدِ"[1]

وفي المصباح: "نَمَى الشيْء يَنْمِي من باب رَمَى نَمَاءً بالفتح والمـدّ كَـثُرَ، وفي لغـة ينمو نُمُوًّا من باب قَعَد"[2]، وأما الصحاح فجاء فيه: نَمَا المالُ وغَيْرُهُ يَنْمِـي نَمَـاءً، وربمـا قالوا: يَنْمُو نُمُوًّا، وأَنْمَاه الله، قال الكسائي: ولم أسمعه بالواو إلا مـن أخَـوين مـن بـني سُلَيْم، ثم سألت عنه بني سُـلَيْم، فلـم يعرفـوه بـالواو، وحـكي أبـو عبيـدة: نمـى ينمـو ويَنْمِي،... ونَمَـوْت إليـه الحـديثَ فأنـا أنمـوه وأَنْمِيـه، وكـذلك هـو ينمـو إلى الحـسب ويَنْمِي"[3].

وفي بيت للنابغة الذبياني[4]:

فَعَدِّ عَمَا تَرَى إِذْ لا ارْتِجَاعَ لَهُ   وَانْمِ القُتُودَ عَلَى عَيْرَانَةٍ أُجُـدِ

وأما أبو القاسم علي بن حمزة البصري (375هـ) فأثنى على فصيح ثعلب قـائلاً: "لما رأيت اختيار فصيح الكلام كثير المنفعة، ورأيته على قلـة عـدد ورقـه أنفـع مـن أضعاف عدده، وأنه قد جمع على لفظه ما لم يجمعه كثير من الكتب الكبار، رأيت أن أجعل له جزءاً من عنايتي، وأن أنبّه على حروف وهـم فيهـا أبـو العبـاس رحمـه اللـه ليكون كتاباً تامَّ المنفعة"[5]، وأول ما ينبِّه عليه علي بن حمزة المادتان السابقتان (نمـى، وذوى) اللتان استهل بهما ثعلب كتابه، واللتان لا يوافقه فيهما: "قـال أبـو العبـاس في

---

[1] الفصيح، ص: 46، وقارن بأساس البلاغة، ص: 656، للزمخشري.

[2] المصباح، ص: 627.

[3] الصحاح، 6/ 2515.

[4] ديوان النابغة، ص: 5، عدِّ عمّا ترى أي انْصَرِفْ، وانْم: ارْفَع، والقُتُود: عِيدَان الرَّحْل، وذكر الأصمعِي أنه لم يسْمع بواحِدٍ لهذا الجمع، وفي نسخة أخرى واحد القتود قِتْد، والعَيْرَانة: الناقة الشبيهة بِالعِيرِ في صلابتها، والأُجُد: الموثَّقَة الخَلْق من النوق، وتزعم بعض الروايات أن الفعل (انْمِ) رباعي (أَنْمِ) من أفعل لا من فعل.

[5] التنبيهات، ص: 177، علي بن حمزة البصري.

الباب الأول من كتابه: تقول نَمَى المال وغيرُه يَنْمي، وذوى العود وغيره يذوي... وفي ذَوَى لغتان فصيحتان بل التي نكّب عنها أفصحُ من التي أورد"[1] مستشهدا برواية أبي زيد الأنصاري: "قيس تقول ذأى العود يذأى ذأياً، وتميم تقول ذوى، وهكذا قال غير أبي زيد ذأى، وهي علوية[2]، وذوى تميمية، وقال يعقوب: ذَوَى العود وغيره يذوي ذُوِيًّا وذَأَى يَذْأى ذَأْيًا، إذا يبس وفيه بعض الرطوبة، وقال الأصمعي: لا يقال ذَوِيَ، قال أبو عبيدة: قال يونس: هي لغة،... وكذلك الحرف الأول فيه لغتان أعني يَنمِي،... ولم يأت أبو العباس (ثعلب) إلا بيَنْمِي[3]، وسكت عن ينمو، وينمو في فصاحتها كينْمي..."[4].

ولم يَرُدَّ علي بن حمزة على فصيح ثعلب وحده، بل شمل رده "الكامل" للمبرد، و"الغريب المصنف" لأبي عبيد القاسم بن سلام، و"إصلاح المنطق" لابن السكّيت، و"المقصور والممدود" الذي ألّفه أبو العباس بن محمد بن ولاّد المصري.

قال علي بن حمزة: أول أغلاط المبرد في "كامله" في أول شيء شرحه ما وقع من غلط في شرحه أحد الأحاديث النبوية: "إنكم لتَكثُرون عند الفزع، وتَقِلُّون عند الطمع"، "الفزع في كلام العرب على وجهين، أحدهما تستعمله العامة تريد به الذعر، والآخر الاستنجاد والاستصراخ..."[5] رادّاً عليه شواهده من كلام العرب قائلاً: "وأكثرُ هذا الكلام فاسد، وهو كلام متخبِّطٍ لم يَعْرِف حقيقة الفزع،... وقد تخبّط في

---

[1] التنبيهات، ص: 177.

[2] علوية نسبة إلى العالية، وهي كل ما كان جهة نجد من أرض أحجاز، ويوصف أهلها بالفصاحة، والنسبة إليها علوي على غير قياس.

[3] عدّه الكسائي فيما تلحن فيه العامة.

[4] التنبيهات، ص: 178.

[5] التنبيهات، ص: 91.

هذا الحرف قبل أبي العباس وبعده جماعة من الرواة، كل واحد منهم أضبط من أبي العباس، ولم يُغْنِ عنهم ضبْطهم فيه شيئاً"[1].

ويستمرّ الرجل في تغليطه أصحاب هذه المصنّفات ومن تقدّمهم من اللسانيين العرب في وحدات لسانية كثيرة أوردها هؤلاء الروّاد بشواهد ودلائل وسماعات عينية، ولا ندري صاحب الخطأ من الصواب، وكل ما في الأمر أنّ الأجيال اللاحقة وجدت نفسها حائرة في خضم هذا التراث اللساني الهائل الذي يفوق طاقتها التبليغية، إذ أعظم كاتب مستوعب للآداب والعلوم والفنون كعباس محمود العقاد لم يستعمل أكثر من عشرة آلاف كلمة، وهو الكاتب العظيم ذو الثقافة الواسعة الذي ألّف أكثر من ستين كتاباً "مع أن الصحاح يضم أربعين ألف مادة، والقاموس ستين ألف مادة، والتكملة ستّين ألفاً[2]، واللسان ثمانين ألفاً، والتاج عشرين ومائة ألف مادة"[3].

وهكذا لَوْ تتبعنا الوحدات اللغوية التي زعم لغويون أنها أفصح أو فصيحة لوجدنا اعتراضاً عليها من لغويين آخرين بأنها لا تخلو من جدل بشأنها، وفي تقديرنا أنه ليس مستحباً لأحدٍ من اللسانيين أن يحدّد مقاييس معينة لما يُسَمى بالفصاحة ما دام الدليل الملموس يعوزه على الرغم من بعض المعطيات الأولية التي قد يأنس الملاحظ بها، ويرتاح إليها كلما غمرته مشاعر على درجة كبيرة من الثقة إزاء ما يحيل عليه من مرجعية أبوية أو مقدمة أو جهل بطلاسم الوقائع اللغوية التي لا يملك فيها أكثر من مدونة خطية صمّاء يختلف الناس في مستوياتها أكثر مما يتفقون، حتى قيل: "الاختلاف بين العلماء أعمّ منه بين العرب"، لأن التأويلات والغلوّ هما اللذان تسبّبا في اختلافات لسانية أرادت أن تفرض على المتكلم أداءات وقواعد لم تقل بها العربية،

[1] نفسه، ص: 92.

[2] التكملة والذيل والصلة ألّفه الصغاني جمع فيه ما أهمله الجوهري، وبلغت مراجعه المعتمدة ألف كتاب.

[3] مقدمة الصحاح، ص: 23-24، أحمد عبد الغفور عطار.

و إذا كنا نحب هذه اللغة فعلاً ونبجّلها فعلينا أن نرفع عنها هذه الوصايا الأبوية التاريخية، وأن نحرّرها من قيود غُلَّتْ بها.

و إذاً، فأي فصيح وأي عامّي؟ هل ما أقرته السجلات المزدحمة باقتناءات رضيت عنها لأسباب واهية لا تمت بمنطق إلى الوقائع اللسانية الحية هو ما ينبغي أن نستعمله استعمالاً صارماً، وما حكمت عليه باطلاً بأنه غير فصيح ننبذه ونعاقب من يتعاطاه؟ بمعنى أننا يجب أن نقول: "قضِمت الدابة شعيرها تقْضَمُه" ولا نقول: "قضم" من باب ضرب، ونقول: "بَلِعْتُ الطَّعام أو الشيء أَبْلَعُه، ولا نقول: "بَلَع من باب نفع"، ونقول: "سَلِجْتُه من باب تعب إذا ابتلعْتُه"، ولا نقول: سَلَجْتُه من باب قتل"،... وهكذا دواليك، وهذا على مستوى الوحدات المعجمية، أمّا على مستويات أخرى فإشكالها ليس بعدها إشكال. ومما يُعْزى إلى سيدنا محمد ﷺ أنه قال: "أنا أفصح العرب بيدَ أنّي من قريش، وأنّي نشأت في بني سعد بن بكر"[1] مما جعل أبا عبيد يقول: "وأحسب أفصح هؤلاء بني سعد بني بكر"[2]، وأوضح ابن فارس أن هؤلاء (بني سعد) من قال فيهم أبو عمر وبن العلاء: "أفصح العرب عُلْيا هوازن وسُفْلى تميم"[3]، بينما استأنس فريق آخر بعبد الله بن مسعود (32هـ) الذي كان يستحبّ أن يكون كتبة المصاحف من مضر وحدها، أو من قول عمر بن الخطاب (23هـ) الشائع في كتب اللغة والطبقات: "لا يُمْلِينَّ في مصاحفنا إلاَّ غلمانُ قريش وثقيف" أو من قول عثمان بن عفان (35هـ): "اجعلوا المُمْلي من هذيل والكاتب من ثقيف"، وهذه الاستنتاجات لا دليل يدعمها بأن هذه الفضاءات العربية المشار إليها كانت أفصح سائر الفضاءات العربية الأخرى، والعالمون بِشأن الدراسات اللغوية العربية يعرفون أن هناك مناطق وقبائل عربية غير التي ذكرت توصف بأن رجالها ونساءها وحتى عبيدها فصيحة، نقول هذا ونحن نسبح في الظلام، لأننا لم نَعِ بعدُ: ماهي الفصاحة؟

---

[1] فقه اللغة، ص: 57،أبو الحسين أحمد بن فارس.

[2] نفسه، ص: 57.

[3] نفسه، ص: 57.

وبنا على ما يوجد من تراكيب لسانية تمثل خطابات موثقة وراقية بالنسبة إلى مدوناتها أو قائليها، فإن كل مطلع عليها لا ينأى مما قد يخامره من ذهول وتردد في الحكم على فصاحتها، بالمفهوم التقليدي الشائع، من عدمها.

ولعله من المناسب الآن أن نسجل حقيقة لا مناص من القفز عليها تتمثل في أن نحاتنا ولغويينا سمعوا لغاتهم وتراكيبها وشواهدها ومستوياتها الموصوفة بأوصافها التي أضفوها عليها من متكلمين معينين سلفاً بالنسبة لقبائلهم ومناطقهم، ومقابل ذلك وثّقوا لنا قواعد عامّة أو شبه ذلك أكثر انتماء إلى اللغة بوصفها ظاهرة تخاطبية أو نظاماً من العلامات القارة حيناً والمتغيرة حيناً آخر، منها إلى الكلام، مع أن الأولى ظاهرة اجتماعية والثانية ظاهرة فردية، والأولى نظام أو نظام أنظمة قائم بذاته، بينما الثاني لا يتجسّد إلا في الأفراد الذين يتواصلون به في شتى أغراضهم المادية المحسة والمجردة، وأن اللغة مدونة تنحو نحو الثبات والسكون، بينما الكلام يجنح دائما إلى أن يكون مساراً متحركًا، وربما تصادم وتصارع مع اللغة التي تريد أن تفرض عليه سلطانها القاهر، غير أن الكلام يتمرّد أحياناً ويَشْرُد رغبة منه في الانعتاق من معيارية جامدة، وأبوية جائرة، فيقع الانزياح والشذوذ ما دام اللاممكن ينطلق دائماً من حيث ينتهي الممكن.

وهل المسألة اللغوية متعلقة بشجاعة تغيب عنا دائمًا كلما رُمْنا أو بدَا لنا أن نصوغ موقفًا إزاء مائات من الظواهر اللسانيّة العربية التي أهملتها القواعد، وأنكرها الاستعمال؟ وهل نحن أعلم ممن استعملها وعبّر بها عن معاني شتى؟ وهل مجيء ظواهر منها في القرآن الكريم نفسه لم يشفع لها لأن تُقَعَّد وتَسْتَعْمَل معاملةً بالمثل بالنسبة لما سُطّر وصِيغَ من قواعد عامة، والقرآن أول مصدر من مصادر الاحتجاج اللغوي لذات القواعد؟

وأحسب أن المسألة لا تتعلق بشجاعة غائبة أو حاضرة ما دامت الوقائع اللسانية وقائع مادية ملموسة لا تحتاج لأكثر من تَقْنِينٍ أو تهيئة، وإلا فبأيّ منطق تُوءَدُ قواعد حيَّة غزيرَة طيّعة الاستعمال؟

غير قليل من هذه الظواهر تداولها عرب أقحاح، ولما كان التنزيل نزل بما يشبه بعضًا منها، وجاء القراء فقرأوا بها، فلماذا مُنِعَ الناسُ بعد ذلك استعمالها بمن فيهم من عاصروها وتواصلوا بها؟

لكن، هل الخلاف أعمّ بين العرب منه بين العلماء أم العكس؟ ويتراءى لي أن ترجيح تساؤل على آخر لا قيمة له، إذا كنا لا ندرك أن اللغة كمنظومة داخلية مستقلة شيء، ومن ينطق بها شيء آخر، إذ لا المتكلم كان خارج لغته فيما استعمل، ولا العالم كان خارج استعمالات سمعها فوثّقها ونشرها، وإذا كانت هناك ملاحظة على الأخير، فإنها تبدو في تلك الأوامر والنواهي، وتفضيل استعمال على استعمال، وإضفاء تفسيرات جانب بعضها الوقائع اللغوية الحية.

ومن الأمثلة على ما أشرنا إليه أعلاه ما جاء في معاجمنا التراثية الصادقة الأمينة: "أَوَ الرجل يَأْوَ إِباءً بالكسر والمدّ وإِبَاءَةً: امْتَنَع فهو آبٍ وأَبِيٌ على فَاعِلٍ وفَعِيلٍ وتَأَوَّ مِثْلُه، وبِناؤُهُ شاذّ، لأنّ باب فَعَل يَفعَل بفتحتين يكون حَلْقِيَّ العين أو اللاَّم، ولم يأت من حلقيّ الفاء إلا أَوَ يَأَو وعَضَّ يَعَضُّ في لغة، وأَثَّ الشَّعَرُ يَأَثُّ إذا كثُرَ والتفّ، وربما جاء في غير ذلك، قالوا: ودَّ يَوَدُّ في لغةٍ، وأما لغة طيء في باب نَسِيَ يَنْسَى إذا قَلَبُوا وقالوا: نسَى يَنْسَى فَهو تَخْفِيفٌ"[(1)]، وإلى هنا يمكن أن يكون الأمر عادياً، لكن ألم يَحْكِ ابن سِيدَة عن قوم آخرين: أَبِيَ يَأْوَ من باب تعب، وابن جني وصاحب القاموس: أَوَ يَأْبِي من باب ضرب، مما جعل لغويين يقولون ما لم تَقُلْه اللغة البريئة مشيرين إلى ما أسموه تداخل اللغات زاعمين أن المتكلم الذي فتح فيهما من باب صنع أخذ الماضي (أَوَ) من لغة، والمضارع (يَأْوَ) من لغة أُخرَى؟، بل هل الشاعر المعمّر المُسْتَوْغِر بن ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم كان طائياً لما قال[(2)]:

هل ما بقَا إلا كما قد فَاتَنَا   يومٌ يَكُرّ، وليلةٌ تَحْدُونَا؟

---

(1) المصباح المنير، ص: 3.

(2) انظر: طبقات فحول الشعراء: 1/ 33، محمد بن سلاّم.

وزهير بن أبي سلمى ألم يقل:

تربَّـع صَـارةً حتى إذا مـا   فَنَا الدُّحْلاَنُ عنـهُ والإضَـاءُ؟

ولذا، فإن القول ما قال ابن سلاّم: "قوله: بَقَا، يريد بَقِيَ، وفَنَا يريد فَـنِيَ، وهمـا لغتان لطيء، وقد تكلمت بهما العرب، وهما في لغة طيء أكثر"[1].

والمأتَمُ معناه عند العرب يشير إلى النساء يجتمعن في الخير أو في الـشر، كقـول شاعرهم (أبو غطاءٍ السِّنْديُّ):

عشِيَّة قَامَ النَّائحَاتُ وشُقِّقَـتْ   جُيُوبٌ بِأَيْدِي مَأْتَمٍ وَخُـدُودُ

أو يشار به إلى اجتماع نساء في الخير.

وقول الآخر (أبو حيّة النُّمَيْرِيُّ):

رمَتْـه أَنَاة من ربيعـةِ غَامِـرٍ   نَؤُومُ الضُّحَى فِي مَأْتَمٍ أَيِّ مَأْتَمِ!

غير أن "العامة" يشيرون به إلى المصيبة فقط كالجنازة لأنهم يقولـون: كنـا في مأتم فلان، والصواب أو الأجود في نظرهم أن يقال: كنـا في مناحـة فـلان لا في مأتمـه ناسين أو غير مدركين أن غير العرب الخلّص أو حتـى العـرب اللاحقـين منـذ العـصر الإسلامي، خاصة بعد الاخـتلاط الاجتماعـي واللغـوي، لم يعـودوا قـادرين في كـل موقف على الدلالة بمدلولين أو أكثر بدال صوتي واحد، كـما هـو الـشأن في الأضـداد اللغوية وغيرها من المستويات اللغوية.

ولْنُمَثِّلْ بكلمة جاريةٍ في عاميتنا الجزائرية، وأعـني بهـا "المِيـزَابْ"، إذ كتـب اللغة تراها بهمزة ساكنة فوق الياء، لكنها لا تنكر أن الميزاب بدون همزة لغـة أيـضاً،

---

[1] السابق، ص: 34.

وجمعُ الثاني مآزيب (بالهمزة الساكنة، وجمع الأول ميازيب (بدون همزة)، وترى أنه ربما قيل: موازيبُ من وَزَبَ الماءُ إذا سال، وذهب بعضهم إلى أن الجمع بالواو معرّب أو مولَّد، وربما قيل فيه: مِرْزابٌ براء مكان الهمزة الساكنة أو المخففة، لكن لغويين أمثال ابن السكيت والفراء وأبي حاتم منعوا اللغة الأخيرة، حتى وإن كان ابن الأعرابي ذكر أنه يقال: لِلْمِئْزَابِ مِرْزَاب ومِزْرَابٌ، ونقل ذلك الليْثُ وجماعة أخرى من اللغويين.

بل حتى لفظ الجلالة لم يتفق اللغويون والنحاة في تركيبه ونطقه واشتقاقه أو جماده اتفاقاً موحّدا "فالإِلَهُ فِعَال بمعنى مفعولٍ مثل كتاب معنى مكتوب، وبساط بمعنى مبسوط، وأما اللهُ فقيل غير مشتقّ من شيء بل هو عَلَمٌ لزِمَته الألف واللام، وقال سيبويه: مُشْتَقّ وأصْله إِلاَهٌ، فدخلت عليه الألف واللام... قال أبو حاتم: وبعض العامّة يقول: لا، والله فيحذف الألف، ولابُدَّ من إثباتها في اللفظ،... وقد وضَع بعضُ الناسِ بيتًا حذف فيه الألف، فلا جُزِيَ خَيْراً، وهو خطأ، ولا يعرف أئمة اللسان هذا الحذف"[1]، ويزعمون أن واضع هذا البيت:

قَدْ جَاءَ سيْلٌ جاءَ مِنْ اللهْ   يَجْرِدُ جرْدَ الجنَة المُغِلَّهْ

هو العلامة قطرب[2]، وهذا الزعم في نظرنا مردود، لأن أبا حاتم الذي اتهم قطرباً بذلك لم يقدّم لنا دليلاً يحتّم على قطرب ذلك إلا إذا كان هذا الأخير من أهل العامّة !

بل ثمت من أشار (ابن دأب) إلى أن أع ق همدان قال:

مـن دَعَـا لِي غُـزَيِّلِـي   أَرْبـح الله تِجَـارَتُـهْ!

---

[1] المصباح المنير، ص: 19-20.

[2] انظر الكامل، 1/ 53، هامش: 3.

على الرغم من تعجب الأصمعي واستبعاده هذا: "يا سبحان الله! يحذف الألف التي قبل الهاء في الله، ويسكن الهاء، ويرفع تجارته، ويُجَوِّزُ هذا عنه، ويروي الناس عن مثله"[1] مردفاً القول: "ولقد سمعت خلفاً الأحمر يقول: "لقد طمع ابن دأب في الخلافة حين يُجَوِّز مثْلَ هذا عنه"[2]، وعلاوة على هذين الخللين الصوتي والنحوي، فإنّ جملة من اللغويين لا يقبلون "من دَعَا لي" لأن القول الصحيح عندهم: "من دعَا لِغُزَيِّلي، ومن دعا لبعيرٍ ضالّ"[3].

وإذا أردت أن تستنير أكثر فأكثر فيما هو عامّي ممّا هو فصيح، فحسبك أن تقف على بعض المصادر اللغوية العتيدة كـ"أدب الكاتب" لابن قتيبة، والذي شرحه أبو عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي (444-521هـ) لاحقاً بعنوان: "الاقتضاب في شرح أدب الكاتب"[4]، وإذا كان بحثنا هذا لا يَسَعُ التمثيل لكل ما جاء في هذا الباب، فإن طبيعة العمل تحتّم علينا الإشارة، ولو عرضاً، إلى تراكيب أو وحدات لغوية لعلها تزيد عملنا أكثر وضوحاً.

ومن هذه الاستعمالات التي غدت تُنْعَت أو تُنْسَب لاستعمالات العوام على غير حقيقتها:

1- الأفعال التي تهمز والعوامّ تدع همزها.

من ذلك نقول: "هَنَأَنِي الطعام ومَرَأَني" فإذا أفردْنا قلنا: "أَمْرَنِي"، لكن البطليوسي، واستناداً إلى الزجاج في كتابه "فعلت وأفعلت" أن الفعل "مرأ" إذا انفرد

---

(1) مراتب النحويين، ص: 156، أبو الطيب اللغوي.

(2) نفسه، ص: 157.

(3) نفسه، ص: 157.

(4) حققه الأستاذان مصطفى السقا وحامد عبد المجيد تحقيقاً جيداً، ونشر في الهيئة المصرية العامة للكتاب وكان قد شرحه أبو منصور موهوب الجواليقي (465-540هـ) ونشر سنة 1350هـ، ويعد أدب الكاتب من دواوين الأدب الأربعة التي ذكرها ابن خلدون في مقدمته، وما عداها تَبَعٌ لها وفروع عنها، بتعبير ابن خلدون.

جازت فيه اللغتان: فعل وأفعل، خاصة وأن الأخفش[1] ذكر أن "من العرب من يترك الهمز في كل ما يهمز، إلا أن تكون الهمزة مبدوءاً بها"[2].

- الأسماء والأفعال التي تُهْمز، والعوامّ تبدل الهمزة فيهما أو تسقطهما.

من هذا "آخذته بذنبه" لكن الشارح رأى أن ما قاله ابن قتيبة هو أفصح اللغات، وما حكاه الأخفش: "آخذته بذنبه وواخذته" هي لغة غير مختارة ولا فصيحة أي يَقبل آخذ، ويرفض وخذ، ومن الأسماء يقال: "سِحَاءة القِرْطاس"، غير أن المفسر لا يمانع، وبناء على شواهد، من أن يقال: "سِحاية"، ويرى ابن قتيبة أن نقول: "أحبَسْت الفرس في سبيل الله، ولا يقال: حَبَسْتُهُ"سوى أن المفسر، وبناء على ما جاء لدى أبي إسحاق الزجّاج، يجيز اللغتين (فعل وأفعل) باتفاق المعنى مثل: غامت السماء وأغامت.

3- ما لا يُهْمَز، والعوامّ تهمزه، وهو باب طويل منها ماهو متصل باللهجات العربية الفصيحة نفسها، ومنها هو مرتبط بالأداءات الصوتية وتنوع مخارجها، وسوء أو نقص السماع الدقيق، ومنها ما يرجع إلى طبيعة الخطاب وإرساله وتلقّيه بين المتكلمين، وهذه الظاهرة لا تخص عامة دون خاصة، ولذلك اختلف اللغويون في هذا الباب اختلافاً كثيراً، وخطَّأوا بعضهم بعضاً، حتى إنه ليصعب تحديد الخطأ من الصواب، من ذلك مثلاً أنه جاء في أدب الكاتب: "ضربته بالسيف فما أحاك فيه، وحاك خطأ"، إلا أن البطليوسي ردّ هذا الخطأ على ابن قتيبة مُسْتَصْوِباً "حاك" بدون همز استنادًا إلى ما جاء في فصيح ثعلب، وإلى ما ورد لدى أبي إسحاق الزجاج في "فعلت وأفعلت"، وابن القوطبة في كتابه "الأفعال" مُخَطِّئًا على بن حمزة الذي ردّ إجازة

---

[1] يظهر أنه الأوسط لا الأكبر.

[2] الاقتضاب، 2/ 170.

ثعلب في "حاك" على وزن فعل قائلاً "وكان أبو القاسم علي بن حمزة يـردّ عـلى ثعلـب إجازته (حاك) ويقول: الصواب (أحاك) وعلي بن حمزة هي المخطئ لا ثعلب"[1].

وفي بـاب الوحـدات اللغويـة الإفراديـة شـاعت كلمـة "الإجّـاص"[2] التـي واحدتها إجّاصة ومثلها الإجَّانة[3]، لكن اللغـويين حكـوا أن ناسـاً مـن أهـل الـيمن "يبدّلون الحرف الأول من الحـرف المـشدَّد نونـاً، فيقولـون: حَـنْظٌ، يريـدون حَظًّـا، وإِنْجَاص، وإِنْجَانَة، فإذا جمعوا رجعوا إلى الأصل"[4]، ممـا جعـل البطليـوسي يقـول: "وهذه لغة لا ينبغي أن يُلْتَفَت إليهـا"[5] زاعـمًا أن اللغـة اليمنيّـة فيهـا أشـياء مُنْكـرة خارجة عن المقاييس المألوفة في العربية الفصيحة.

وأما ثعلب فأنكر قول العامة: "فلان يتعاهـد صـنيعته" مـن تفاعـل، والأفـصح عنده تفَعَّل أي تعهَّد يتعهّد، وعلّق بن درسـتويه: "إنمـا انكرهـا ثعلـب، لأنهـا عـل وزن يتفاعل، وهو عند أصحابه لا يكون إلا من اثنين، ولا يكون عندهم متعدياً إلى مفعول، مثل قولهم: تعاملا، تقاتلا، تغافلا"[6] مردفًا قوله: "وهذا غلط، لأنه قد يكون تفاعل من واحد، ويكون متعدّياً" مستشهداً بامرئ القيس:

تجَـاوَزْتُ أحراسًـا إليهـا ومَعْـشَـراً حِرَاصًـا عَـلَيَّ لـو يُـسِرُّون مَقْـتَلي
فلمّا تنازعنـا الحـديث وأسْمَحـــَتْ هَصَـــرْتُ بِغُصْنٍ ذي شماريخَ مَيَّال

ولسنا بحاجة للمزيد بحـشد الروايـات الطويلـة والـشواهد الثقيلـة لتأكيـد احتيارنا من تساؤلنا السابق: "أي عامّي وأي فصيح" مادمنا نصطدم في جـل مـا أنكـر

(1) الاقتضاب، 2/ 176.
(2) ما يسمّى في عاميتنا الجزائرية بُوعْوِيدَة' لأنها تُجنى دون عُودِهَا.
(3) الإجَّانة: إناء يُغْسل فيه الثياب والجمع أَجَانِين.
(4) الاقتضاب، 2/ 181.
(5) نفسه، 2/ 181.
(6) نفسه، ص: 181.

على العامة أنه عربي فصيح وسليم، ولعل سبب الاختلاف بين العلماء يرجع أساساً إلى فضاء سماعه، وطبيعة تكوينه، وهو أمر مألوف جداً بينهم، فلا أحد يستطيع أن يخطّئ الآخر، لأن كل واحد منهم ما روى إلا ما سمع.

ولعل ابن الجوزي الذي سجل لنا التكلمات البغدادية عبَّر تعبيراً قد يناسب هوَسَنا بشأن العامة: "واعلم أن غلط العامة يتنوع: فتارة يضمّون المكسور، وتارة يكسرون المضمون، وتارة يمدون المقصور وتارة يقصرون الممدود، وتارة يشدّدون المخفّف، وتارة يخفِّفُون المشدّد، وتارة يزيدون وينقصون منها، وتارة يضعونها في غير موضعها إلى غير ذلك من الأقسام"[1].

ونحسب "أن العامة الذين يشير إليهم ابن الجوزي هم متكلمو بغداد أنفسهم، لأن الرجل ولد في بغداد، ودرس وتفقه على شيوخها وأعلامها، وجلس للوعظ ولما يَسْلُخِ السابعة عشرة"[2].

شعور عربي بِهَجَانَةِ الفصحى: في حوزتنا كَمّ لغوي، وتراث أدبيّ يُجْمِل لنا أداءات كلامية لعل أقلّ ما توصف به أنها تمثّل ظاهرة من ظواهر التهجين العفوي البسيط الذي ظل يصحب اللغة العربية الأدبية ذاتها خلافا لِمَا ارتضته الجماعة اللغوية وتواصلت به من تكلمات بليغة صافية حرصت كل الحرص ألاّ تشوبها عيوب لسانية في أي عنصر من عناصرها، ومستوى من مستوياتها، حدث هذا والعربية لا تبرح في فضائها المنغلق على نفسه تُنْطق طبعاً وجبلَّة.

وهذه العيوب التي سنورد عينات منها لاحقاً لم تكن تشكّل أدنى تشكيل مما غدا يسمّى فيما بعد بالعامية، بل هي هفوات لسانية عامة تنسجم انسجاماً تاماً مع كل سلوك طبيعي في أي منحى من مناحي الحياة وحركة الإنسان وسكونه، وعلى الرغم من وصف ملاحظيها بأوصاف صوتية شتّى، فإن أحدًا لم ينسبها إلى العامة،

---

[1] تقويم اللسان، ص: 56، ابن الجوزي.

[2] تراكيب لهجية عربية جزائرية في ظل الفصحى، ص: 99.

ولكن التنبيه إليها جعلها تنتقل من اللاشعور إلى الشعور بها، فأعرض القوم ما أمكن عن تعاطيها، مما حُكم عليها بالانزواء والندرة والإهمال، لأن العربي الفصيح من تكلم طبعاً لا تطبعاً وتكلفاً، ومن وُلِدَ ونشأ وسط أحضان عربية فصيحة طبيعية لا تَعَلُّمِيَّة، وهو من عَرُب لسانُه من فعُل بضم العين لا من عَرِبَ لسانُه من فَعِل بكسر العين المشار به إلى أي متكلم أو فرد يفصُح منطقة بعد لُكْنة من قِبَل لسانه والأمر هنا لا يتعلق بعاهة فيزيولوجية أو ما يدْعى أمراض الكلام، بل بكون الفرد نشأ في منطقة غير "فصيحة" ثم التحق بعرب فصحاء. ومما يجب أن نتفق عليه أن اللغة العربية بالنسبة للمفهوم العربي القديم هو ما نطق به العرب وتواصلوا به، ولا فرق في ذلك بين أعراب وبَرِيّين ولا عرب مدَرِيّين، ولا حتى بين أجانب ثَوَوْا في البادية، وجاوروا البادين، وظعنوا بظعنهم، سوى أن من سكن المبْدى مُجاوراً البادين فهم أعراب، ومن استقر في محضر معين لا يكاد يباينه، ممن ينتمي إلى العرب، فهم عرب حتى وإن لم يكونوا فصحاء باصطلاح القدماء الذين نزلوا البادية وجاوروا البادين وظعنوا بظعنهم"[1]، غير أن من جاور البادين وظعَن (ارتحل) بظعنهم فهم أعراب، ومن استقر في قرية أو مدينة معينة، ممن ينتمي إلى العرب، فهم عرب حتى وإن لم يكونوا فصحاء بتعبير القدماء وعلاوة على هذا، فإن العرب كانت تصف كل عربي خالص، حتى لو تعلق الأمر بغير الإنسان والتي لا تداخله هجنة بـ"العِراب" كقول شاعرهم (حُبَيْهَاء الأشجعيّ) يصف عنزة كان قد مُنح إيّاها[2]:

تَـرَى تحْتها عُـسَّ النُّـضَارِ مُنَيِّفًـا	سَـمَا فَوقَـه مـن بـاردِ الغُـرْزِ طَـامِحُ
سَديسًا من الشُّعْرِ العِرَابِ كـأنَّها	مُوَكَّرَةٌ مِنْ دُهْـمِ حَوْرانَ صَـافحُ

وقياساً على هذا، فإن كلّ منْ لا تُداخِلُ لسانَهُ هُجنةٌ كلاميةٌ فهو عِرَابٌ.

ولمّا كان الإسلام أطلق القوم "التعرُّب" على كل أعرابي يتوق الرجوع إلى البادية ويقيم مع الأعراب بعد أن فارقهم مهاجراً، بل يشبّهون من يفعل ذلك بغير

[1] اللسانيات الجغرافية في التراث اللغوي العربي، ص: 10.

[2] المفضليات، ص: 168-169.

عذر بمن ارتدّ عن الدين، ويزعمون أنه جاء في بعض الأحاديث: "ثلاث من الكبائر، منها: التعرّب بعد الهجرة"، وفي السياق ذاته ذكر ابن محمد بن سلام أن النابغة دخل على عثمان بن عفان، فقال: أستودعك الله يا أمير المؤمنين وأقرأ عليك السلام، قال: لِمَهْ؟ قال: أنكرْتُ نفسي، فأردْتُ أنْ أخرج إلى إِبِلي فأشربَ من ألبانها وأشَمَّ من شِيح البادية، وذكر بلده، فقال: يا أبا ليلى: أما علمت أن التعرّب بعد الهجرة لا يَصْلُحُ؟ قال: لا، والله ما علمت، وما كنت لأَخْرُجَ حتى أستأذِنَك، فأذِن له، وضرب له أجلاً"[(1)].

والفصاحة قد تطلق على العربي وغير العربي سواء بسواء، "من ذلك كلمة "العجمة" في اللسان عندهم تعني اللكنة وعدم الفصاحة، والأعجمي عندهم لا يطلق على ما هو غير عربي جنساً إلا تجاوزاً ومجازاً، لأنها قد تطلق على الأعجمي مثلما تطلق على العربي إذا كان هذا الأخير غير فصيح، مع الفارق في التعميم والتخصيص"[(2)].

وتناول العربي هذه الإشكالية "منذ العصر الجاهلي البعيد خطَاباً، وفي العصر العلمي اللاحق دراسة وممارسة في الميدان، فعرّفوا العَيَّ والحَصَرَ اللذين هما ضد البيان، وعابوا من يَعَيُّ في منطقه ووصفوه بالعَيِّ أو العَيِيِّ"[(3)]، وهذه التداعيات بين ماهو كلام سليم، وكلام هجين كان العرب يحسون بها ويسمعونها في محيطهم اللغوي منذ عهد مبكر، فهذا المبرد يقول: "وحدّثني من لا أحْ لأ من أصحابنا عن الأصمعي عن شعبة عن قتادة، قال: قال معاوية يومًا: من أفصح الناس؟ فقام رجل من السماط فقال: قوم تباعدوا عن فراتية العراق، وتيامنوا عن كشكشة تميم، وتياسروا عن كسكسة بكر، ليس فيهم غمغمة قضاعة، ولا طمطمانية حمير،..."[(4)].

---

(1) طبقات فحول الشعراء، 1/ 127، لابن سلام.

(2) اللسانيات الجغرافية في التراث اللغوي العربي، ص: 11.

(3) نفسه، ص: 11.

(4) الكامل، 2/ 223.

ولدينا من النصوص الأدبية القديمة ما يـدلّ عـلى هـذه الإحـساسات العربيـة بهجانة ما في لغتهم[1]:

هُــمُ يَطَــدُونَ الأرضَ لــولاهُمُ ارتَمَــتْ ... بمــن فوقهــا مــن ذي بيــانٍ وأعجــما
وهُــمْ يَــدْعَمُون القــومَ في كــل مــوطن ... بكــل خطيــب يــترك القــوم كُظَّــما
يقـــوم فلا يَعْيـــا الكــــلامَ خَطِيبُنَـا ... إذا الكَــــرْبُ أنْسى الحبسَ أن يتكلّمـا

ولربما افتخر عربي في جهة ما بلغتـه كافتخـار أحـد العُلْـويِّين[2] كـما أفادنـا الجاحظ[3]:

فإنَّ في المجـد هِمَّــاتي، وفي لُغَتِــي ... عُلْويــةٌ، ولســاني غيرُ لَحَّــــانِ

وكان لهم شعور دقيق بالأمراض اللغوية، وأطلقو عليها مـصطلحات مـشتقة مما يناسب صفاتها[4]:

1- التمتمة "التردد في التاء" كقول ربيعة الرّقي:

فلا يحسب التمامُ أنّي هجوتُـهُ ... ولكنّني فضّلْت أهل المكـارم

2- الفأفأة (التردّد في الفاء) كقول أحدهم:

ليـس بفـأفَـاءٍ ولا تمتـَا ... مٍ ولا مُحِبّ سَقَـطَ الكـلامِ

3- العُقْلة (التواء اللسان عند إرادة التكلم):

---

(1) المفضليات، ص320-321.

(2) نسبة إلى العالية، وهي أرض جهة نجد من الحجاز (سبقت الإشارة إليها).

(3) البيان والتبيين، 1/ 167.

(4) راجع اللسانيات الجغرافية في التراث اللغوي العربي، ص: 12-16.

وقد تَعْتَرِيه عُقْلَـةٌ في لسانـه   إذا هُزَّ نَصْلُ السيفِ غيرَ قريبِ

4- الحبسة، وهي أشدّ من العُقْلة، وهي عادة ما تعتري لسانًا إذا انقطع طويلاً عن التمرين والكلام أو انتقل من لغة الأم الطبيعية إلى لغة مكتسبة كانتقال أحدنا من عاميته العربية للخوض حديثاً شفهياً بالفصيحة، ومن هذا قول أحد الرُّجَّاز:

كأنَّ فيـه لَفَفَـا إذا نَطَـقْ   من طولِ تَحْبِيسٍ وَهَمٍّ وأَرَقْ

ولذا قال ابن المقفع: "إذا كَثُر تقليب اللسان رقَّتْ جوانبه، ولانَتْ عَذَبَتُهُ (طرفه)"، وهذا شبيه بقول العتابي: "إذا حُبِس اللسان عن الاستعمال اشتدت عليه مخارج الحروف".

5- الرُّتّة، وهي صفة من صفات عيوب الكلام، ولا تختص بعامة دون خاصة، ولربّما عُدَّ صاحبُها هُزْأَةً:

هَزِئَتْ زُنَيْبَةُ أَنْ رَأَتْ بِي رُتَّةً   وفَمًا بِهِ قَضَمٌ وجِلْداً أَسْوَدَا

6- الغمغمة، وهو أن تسمع الصوت، ولا يَتَبَيَّن لك تقطيع الأصوات، كقول عنترة:

وصاحبٍ ناديْتُه فغمغما   يريد: لَبَّيْكَ، وما تكلَّما

قد صار من خوف الكلام أعجمَا

7- الطمطمة، وهي أن يكون الكلام مُشبِهًا كلام العجم.

8- اللكنة، وهي أن تعترض في كلامك اللغة الأعجمية كلغة الجزائريين الحالية عاميةً وفُصْحَى، وهذه اللكنة ورثها الجزائريون من الفرنسيس بفعل عدة عوامل تاريخية واجتماعية ونفسية نعرفها معرفة مفصّلة.

ولخّص المبرد هذه العيوب الكلامية بقوله: "التمتمة: التردد في التاء، والفأفأة: التردد في الفاء، والعقلة: التواء اللسان عند إرادة الكلام، والحبسة: تَعَذُّرُ الكلام عند إرادته، واللّفَف: إدخال حرف في حرف، والرته: كَالرَّتَج تمنع أول الكلام فإذا جاء منه شيء اتصل، والغمغمة: أن تسمع الصوت ولا يتبيّن لك تقطيع الحروف، والطمطمة: أن يكون الكلام مشبهاً لكلام العجم، واللكنة: أن تعترض على الكلام اللغة الأعجمية، واللُّثْغَة: أن يُعْدل بحرف إلى حرف، والغُنّة: أن يُشْرِبَ الحرفُ صَوْتَ الخَيْشُومِ، والخُنة أشدّ منها، والترخيم: حذف الكلام"[1].

ومما نراه مناسباً أن يشار إليه أن العلاقات العربية الأجنبية المبكرة نتج عنها علاقات لغوية غير متوازنة بين لغة دولة جديدة كاسحة، وبين أجيال وأجناس شتى في الشرق والغرب وجدت نفسها صدفة تنضوي حباً أو كرهاً تحت سيادة هذه الدولة، حيث أصبح الجيل الجديد يرتضخ لُكْنات موروثة لم يستطع أن يتخلص منها، من ذلك مثلاً أن صهيباً الرومي كان يرتضخ لكنة رومية، وعبد الله بن زياد بن أبيه يرتضخ لكنة فارسية جاءته من قبل زوج أمه، وأبو مسلم الخراساني، على الرغم من حسن ألفاظه وجوده معانيه استناداً إلى وصف الجاحظ إياه، كان يقلب القاف كافاً، وصارت هذه الأجيال في الحواضر العربية الجديدة يبدّلون أصواتاً بأصوات لأن أوتارهم ومخارجهم الصوتية لم تنسجم معها انسجام العربي السليقي، وأضحوا يبدلون القاف كافاً ولربما بدّلوه طاء، والسين ثاء، ولربما بدل بعضهم الراء وحدها أربعة أصوات: غيناً، وعيناً، وياء، وزاياً[2].

ومما لا يكاد يختلف فيه اثنان أن العرب كانت في جاهليتها وصدر من إسلامها تتخاطب سجية بفصحاها كتخاطبنا نحن اليوم طبيعياً بعاميتنا، وبقي التواصل مطرداً على هذه الوتيرة السليقية "حتى فتحت المدائن، ومُصِّرَت الأمصار، ودُوِّنت الدواوين، فاختلط العربي بالنبطي، والتقى الحجازي بالفارسي، ودخل الدين أخلاطُ الأمم،

[1] الكامل، 2/ 221.

[2] انظر تاريخ آداب العربية، 1/ 163، مصطفى صادق الرافعي.

وسواقط البلدان، فوقع الخلل في الكلام، وبدأ اللحن في ألسنة العوام،... ثم فشا اللحن وكثر، بعد اختلاط الناس وكثرتهم"[1].

وما اعترى العربية من ختلال وفساد في مستوياتها لم يكن ينحو مناحي متشابهة في أنظمتها وعناصرها، فما يفسد في عنصر لغوي في بلد ليس ضرورة أن يكون هو العنصر ذاته في بلد آخر، مما جعل التحكم في تتبع فسادها أمراً صعباً بل مستحيلاً، ولعل هذا ما لاحظه منذ القرن الرابع الهجري الزبيدي الأندلسي الذي أشار إلى أنه لما تصفح كتاب "لحن العامة" لأبي حاتم السجستاني، لفت انتباهه أن كثيراً من التراكيب اللغوية الفاسدة التي نسبها أبو حاتم إلى أهل المشرق قد سَلِمَتْ عامّة أهل الأندلس من موافقتها "ثم نظرت في المستعمل من الكلام في زماننا، وبأفقنا، فألفيت جملاً لم يذكرها أبو حاتم ولا غيره من اللغويين، فيما نبّهوا عليه، وذكّروا به، مما أفسدته العامة عندنا، فأحالوا لفظه أو وضعوه غير موضعه وتابعهم على ذلك الكثرة من الخاصة حتى ضمّنه الشعراء أشعارهم، واستعمله جِلّة الكتّاب وعِلْية الخاصة في رسائلهم، وتَلاَقَوْا به في محافلهم"[2].

إن المختصين في البحث اللغوي الأصيل لا يَعْزُبُ عنهم الأحداث الاجتماعية والسياسية واللغوية والدينية التي صحبت، وظلت تصحب النموّ المطرد لفساد اللسان العربي، وما تمخض عن ذلك من بناء صرح لساني لا يزال يطرق باب العالمية إلى يومنا، و إذْ تُضْرِب طبيعة البحث عن إثباتها هنا، فإننا لا نتجاهلها.

غير أن ثمت ومضات تلحّ علينا أن ندرجها مما لا يتعارض مع طبيعة هذا العمل تأكيداً لجدواه، وتنويهاً بذلك التنوير القوي الذي كان يسود اللسانيين العرب القدماء الذين لم تَبْدُ لهم ظاهرة لغوية مختلفة أو غريبة إلا انتهزوا فرصة لتشريحها تشريحاً وصفياً في أي منطقة قُدِّر لهم أن يتواجدوا فيها، فهذا أبو الطيب اللغوي يصرح: "فأما

---

[1] لحن العامة، ص: 34-36، الزبيدي.

[2] لحن العامة، ص: 36 37، الزبيدي.

مدينة الرسول ﷺ فلا نعلم بها إمامًا في العربية"[1]، داعمًا قوله بمـا يقـول الأصـمعي الـذي قال قبله: "أقمت بالمدينة زمانًـا مَـا رأيـت بهـا قـصيدة واحـدة صـحيحة إلا مـصحفة أو مصنوعة"[2]، وكثيراً ما كان الأصمعي يتعجب من قـول ابـن دَأْبٍ الـذي زعـم أن أعـ ق هَمْدَان قال[3]:

مـن دعـا لـي غُـزَيِّلِـي　　　أربـح الله تِـجَـارَتُـهْ

مردفًا القول: "يا سبحان الله! يحذف الألف التي قبل الهاء في "الله"، ويـسكّن الهاء، ويرفع "تجارته" وهو منصوب، ويُجوِّز هذا عنه، ويروي الناسُ عن مثله"[4].

ومثلما وصف الأصمعي المدينة المنورة بأنه لبث فيها مدة، فلم يعرف بها إمامـاً في العربية، فهذا أبو حاتم (255هـ) يصف كلام أهل بغداد وصفًا مَشيناً مؤكّداً أنه لم يكن في بغداد "من يوثق به في كلام العرب ولا من تُرْتَضى روايتُـهُ، فـإن ادَّعـى أحـد منهم شيئًا رأيته مخلِّطًا صاحب تطويل، وكثرة كلام ومكابرة، ولا يفـصل بـين علـماء البـصرة بـالنحو، وبـين الـرؤاسي والكـسائي، ولا بـين قـراءة أهـل الحـرمين وقـراءة حمزة..."[5].

ومن باب التنويه بما هو أهله أن غير قليل مـن الدارسـين العـرب القـدماء قـد فَطَنوا "إلى هذه الظواهر اللسانية في تباين المستويات والخطابات سواء كان ذلك بين العلماء المحترفين أم وسط الجماعات المتكلمـة هنـا وهنـاك في الأمـصار، مـن هـؤلاء الدارسين نفطويه الّذي ألّف كتاباً يستدل فيه على أن العـرب تـتكلم طبعـاً لا تعلـماً، وهذا علي بن ربيعة البصري الذي وضع كتاباً بعنوان: "ما قالته العرب وكـثر في أفـواه

(1) مراتب النحويين، ص: 155، أبو الطيب اللغوي.
(2) نفسه، ص: 155.
(3) انظر بعضًا من سيرته في نور القبس، ص: 310-311.
(4) مراتب النحويين، ص: 157، وسبق أن ألمحنا إلى هذه المسألة.
(5) المرجع السابق، ص 160.

الناس"، ولأبي عمر الزاهد (345هـ) كتاب ما أنكرته الأعراب على أبي عبيد فيما رواه وصنّفه، وللأصمعي كتاب صريح يدلّ عنوانه "ما تكلم به العرب فكثر في أفواه الناس" دلالة قوية على ما نحن فيه[1].

بروز شبح العامية داخل الفصحى: مما وقفنا علي وقوفًا يؤكد لنا أن اللغة العربية بدأت تنحلّ انحلالاً مبكراً نظراً لسرعة انتشارها، واتساع فضائها، وإقبال الأجناس الجديدة على تعلمها والتحدث بها، واستعمالها لغة وحيدة في كل مرافق الدولة منذ تعريب الدواوين في عهد عبد الملك بن مروان.

ويمكن القول بأن اختلال النظام الداخلي للغة العربية جعل يَعْظُم استفحالاً بعد منتصف القرن الثاني الهجري بشكل لا يَغْرُب عن كل من فحص هذه الفترة الانتقالية بين دولة دائلة وأخرى ناشئة، ولذا فإن اللغويين العرب كانوا محقين وموفقين بتحديدهم منتصف القرن الثاني الهجري نهاية لفترة الاحتجاج اللغوي، لأنهم لاحظوا أن كلام العامة بدأ يغلب كلام الخاصة، حتى صار القوم من فقهاء ولسانيين لا يجدون أدنى غضاضة في استعمال لغة العامة على حساب التضحية بالاستعمالات العربية الفصيحة. وإذا كان لابد من ضرب أمثلة على ما أشرنا إليه أعلاه، فإنه جاء أن مالك بن أنس (179هـ)، وهو عربي قرشي كان يلحن أو يتعمد اللحن في مخاطبة العامة، حتى إن أحدهم قال مدافعاً عنه: "وإن قبيحاً مفرط القباحة بمن يعيب مالك بن أنس بأنه لحن في مخاطبة العامة بأن قال: "مُطِرْنَا البارحَة مطراً أيَّ مَطَراً"، أن يرتضي لنفسه هو أن يتكلم بمثل هذا، لأن الناس لم يزالوا يلحنون ويتلاحنون فيما يخاطب بعضهم بعضًا اتقاء للخروج عن عادة العامة، فلا يعيب لك من ينصفهم من الخاصّة، وإنما العيب على من غَلِطَ من جهة اللغة فيما يغيرُ به حكم الشريعة"[2]، الأمر الذي جعل أحمد بن فارس (308-395هـ) يعلّق على هذه الظاهرة التي استبشعها بقوله: "وقد كان الناس قديماً يجتنبون اللحن فيما يكتبون أو يقرؤونه

---

[1] تراكيب لهجية عربية جزائرية في ظل الفصحى، ص: 4، عبد الجليل مرتاض.

[2] الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، ص: 66، أحمد بن فارس.

اجتنابهم بعض الذنوب، فأما الآن فقد تجوّزوا حتى إن المحدّث يحدّث فيلحن، والفقيه يؤلف فيلحن، فإذا نُبّها قالا: ما ندري ما الإعراب! وإنما نحن محدِّثون وفقهاء"[1].

وهذا الفراء (207هـ) العظيم الذي قيل فيه: "لولا الفراء ما كانت عربية" لتحصينه إياها وضبطها أو "لولا الفراء لسقطت العربية" يحـ ء عنه خبر مسند إلى معاصره قطرب (206هـ) أنه دخل يومًا على هارون الرشيد "فتكلم بكلام لحن فيه مرات"، فصاح في وجهه وزير الرشيد أبو الفضل جعفر بن يحيى (187هـ): "إنه لحن يا أمير المؤمنين"، فقال الرشيد للفراء: "أتلحن؟ قال: يا أمير المؤمنين، إنّ طباع أهل البدو الإعراب، وطباع أهل الحضر اللحن، فإذا تحفظت لم ألحن، وإذا رجعت إلى الطبع لحنت، فاستحسن الرشيد قوله"[2]، واعتراض الوزير على الفراء لا يعني قط أن الرشيد لم يَفْطَنْ إلى هفوة طبع المتحدث، لأن جعفراً البرمكي لم يكن أعلم من الرشيد، وإنما يكون الخليفة قد جارى ملاحظة جعفر على اللامبالاة، ما دام الحديث الذي تفوّه به الفراء لم يكن حديثاً رسميًا"[3].

وكان بعض الخلفاء ومنهم الرشيد خاصة، ربما وجد في نفسه مضاضة إذا ما حدّثه أحد أمام العامة أو ذوي الجاه بالبلاط بغير ما اعتاد أن يسمع، كأن يُؤْ 7 بكلام جافّ غريب أو تراكيب ذات دلالات بعيدة[4]، ويذكر أن ثعلباً كان إذا كتب كتابًا إلى بعض أصحاب السلطان لم يكن يخرج عن طبع العامة[5].

أين يحصل التهجين اللغوي؟ وبحوزتنا أحداث لغوية منذ العهد الإسلامي المبكر تدل كلها على انتهاء فترة لسانية قديمة، والانتقال إلى مرحلة لغوية جديدة

---

[1] نفسه، ص: 66.

[2] طبقات النحويين واللغويين، ص: 131.

[3] تراكيب لهجية عربية جزائرية في ظل الفصحى، ص: 97، عبد الجليل مرتاض.

[4] نفسه، ص: 97.

[5] انظر طبقات النحويين واللغويين، ص: 43.

فرضها واقع التواصل الاجتماعي الجديد بين عرب أقحاح من جهة وأجناس بشرية لها حضارتها وثقافتها ولغاتها وفنونها من جهة أخرى، مما حتم على العربية الجديدة أن تضحي بمحاصيل صوتية وصرفية ونحوية ومعجمية بغية التعايش والتعامل مع شعوب وقبائل غدت تشكّل معها حياة واحدة، وثقافة مشتركة.

وأما علماء اللسان العربي الذين أدركوا أن التهجين اللغوي، إذا وقع، إنما يقع فيما هو متداول على ألسنة الناس لا في الكلمات الغريبة والقواعد اللسانية البعيدة لقلة استعمالها، فلم يتمالكوا أن تصدّوا بما توفّر لديهم من معارف وأدوات لِمَا اعتور العربية من خروقات وهجانات، فظهر، كما أشرنا، مؤلفات كرست جهود مؤلفيها إلى تسجيل هفوات القوم ومحاولة هدايتهم إلى المنطق السليم، لأنه من العبث في تقديرنا أن نعمل على مقاومة العامية، وهي لغة العامة من الجمهور العريض، لأن هذه العامية إن لم تولد معنا ولادة، فهي تنمو وتَتَرَعْرَع بنُمُوِّنَا وتَرَعْرُعِنَا بصورة لا شعورية مِنّا دُونَ بذل أدنى جهد خارجي من أحد إلا القرية والمدينة والغابة والمحيط، فهي تترسخ فينا ترسخاً أقرب إلى سلوكات وغرائز بيولوجية منه إلى اكتسابات لغوية عادية.

هل من مقاومة للعامية؟ أجل، إن العامية لا تُقاوَم لأنه لا يمكن لك أن تقاوم نفسك وقريتك وغابتك وسوقك وشارعك وعامّة الناس، ولكن يمكن تهذيبها بتهذيب محيطها، وهنا ينبغي عليك أن تفكر في بدائل وتكديسات هائلة، وإمكانات مادية باهظة، وموارد بشرية انتقائية، ووسائل سمعية بصرية مغرية وإلا فإنك لن تستطيع أن تتحكم في رقبة جملة لغوية واحدة.

إن الاستعمار الفرنسي الذي تمطّى بصلبه، وأردف أعجازًا، وناء بكلكله على الشعب الجزائري زهاء مائة وثلاثين عامًا لم يستطع أن يمحو كلمة واحدة من لغة الشعب، فغادر هذا البلد خائباً، والعربية أقوى مما وجدها، ومن الخطأ الفادح أن نستمر في التدليل على بقاء العربية بفضل مؤسسة أو خلايا ثقافية عمَّرت بضع سنين، مع أن الفضل كل الفضل يرجع إلى هذا الشعب برمته، خاصة في قراه ومداشره

وأوديته وجباله، بل لعلنا لسنا أقرب إلى الهذيان إذا ذهبنا إلى أن العامية الجزائرية هي التي حافظت على الفصحى، وليس العكس. ولا يفهم من إشارتنا إلى العامية الجزائرية أننا نمجّد العامية أو ندعو إليها بدل الفصحى، ولكننا لا نزدريها أو نعدّها من الخطابات والتواصلات المذمومة المدحورة، فهذه العامية على فساد مختلف مستوياتها تملك تراثاً شعبياً خالداً في كل الأجناس الأدبية والفنيّة، وفضلاً عن ذلك فإنها عملت دون هوادة في صيانة هويتنا وخصوصية ثقافتنا، وهي الآن تحتاج منا إلى التفاتة اعترافاً بجميلها. إن أية عامية عربية لن تكون عائقاً أمام الفصحى ما دامت الأولى عالة في بنياتها اللغوية على الثانية، وليس العكس، إذ لكي يحلّل مدلول كلمة أو جملة أو نص بالعامية ينبغي عليك أن تستحضر آلياً وفي الوقت نفسه لغتك الفصحى من وجهة بنيوية تحتية، ولكن عاميتك قاصرة قصوراً يشعر به المبدع والفنان، وخاصة المفكر والفيلسوف والديبلوماسي والسياسي والمربّي، وما زلت أذكر واقعة وقعت لي مع المرحوم مولود معمري في المغرب ونحن نشارك في ملتقى دولي[1]، إشارتها أن إحدى الإذاعات طلبت منا مقابلة، فاحتار بأي لغة يتكلم بعدما رفضت منه الفرنسية، فقلت له: "تكلم بالعامية فأنت تملك لغة عامية مهذّبة" فأجابني: "يا بنيّ إنها عاجزة لا تؤدّي ما أريد أن أبلّغه"، فاضطرت الإذاعة إلى الترجمة المباشرة من الفرنسية إلى العربية، فتعلمت من هذا المبدع العالمي الكبير صاحب "الربوة المنسيّة" أن العامية، فضلاً عن كونها ذات مستوى محدود، لأنها لا تمثل إلا نسبة جزئية من الفصحى بشتى مستوياتها، فإن مداها قريب في التخاطب والتبليغ، ولها ما لها من خصوصيتها السطحية على الرغم من ذكائها وعفويتها، وأما فضاؤها فمحاط بأسيجة طبيعية غير شفافة.

---

(1) توفي رحمه الله مباشرة بعد عودته من هذا الملتقى (فبراير 1989) في حادثة مؤلمة بسيارته، رجوت منه ألاّ يعود ليلاً إلى العاصمة، لكنه أخبرني أنه سيقضي ليلته عند إحدى بناته في سيدي بلعباس، غير أن الفقيد تراجع عن ذلك، فكانت المأساة

أقدم كتاب لبناني، وقد تحدّى الفصحى، ليصدّر ديواناً شعريًّا بالعامية اللبنانية، فقرأها بعض اللغويين وآخرون في مصر والبحرين وسورية والأردن والكويت واليمن فلم يفهموها ولذا فعلى كثرة من دعوا إلى العامية، فإن أحداً منهم لم يستجب هو شخصياً لدعوته ليتخذ العامية لغة كتابة رسمية يعبر بها، فسلامة موسى أكبر قطب من أقطاب الدعاة إلى العامية ونبذ الفصحى، فإنه اقتنع بعد أكثر من نصف قرن باستحالة "اتخاذ العامية لغة أدب وعلم فلم يكتب بها مقالاً أو كتاباً واحداً"[1]. إن عاميتنا العربية التي رسخت فينا رسوخًا لا شعورياً تواصلات واقعية وإرادية معًا، واقعية لأنها مفروضة علينا فرضًا بوساطة لغة الأمومة التي هي عادةً ما تختلف عن لغة المدرسة والجامعة والخطاب الرسمي، وإرادية، لأننا، كما قال الفراء، إذا تحفظنا تحفظاً شديداً وأحضرنا حواسنا وقواعدنا لن نخطئ، وإذا سهونا أو جهلنا أو خاطبنا جمهوراً عامياً وجدنا أنفسنا نستعمل لغتنا الطبيعية لا لغتنا المدرسية.

التواصل اللغوي بين الخطأ والصواب: والسؤال الذي يخامرنا في إطار الشعور اللغوي من عدم الشعور به يدعونا إلى طرحه على الرغم من مراراته: هل هناك فعلاً خطأ لغوي أو لحن أو شيء من ذلك كلما جنح تعبير ليتخذ سبيلاً غير سبيل ما جَرَتْ عليه العادة اللغوية في ضوء لغة واحدة؟ في لغتنا الجاهلية والقرآنية أو الفصحى العامة تراكيب لا علاقة لها بمعيارية لغتنا المتداولة أو صواباتها، ومع ذلك فإنها تُسْتَعْمَلُ استعمالاً واسعاً أو ضيقاً ولم ينكرها أحد من الدارسين بصرف النظر عن رأيه أو مذهبه أو موقفه إيجاباً أو سلباً منها.

ما أكثر الأشتات اللغوية التي يتضمنها تراثنا اللغوي، والتي لم تُهَيَّأ لها قواعد تناسب توجهاتها! "كل الاختصاصيين في اللغة العربية يعرفون أمثال هذه الظواهر اللغوية وزيادة، ولكن الذي نصل إلى قوله من وراء هذه الأشتات... أن النصوص الشفهية التي ضاعت تبعاً لأقوال العلماء الثقات كانت تشمل أنظمة نحوية وصرفية وصوتية هي كلها ليست نفس الأنظمة التي وصلتنا، ومن الأدلة على ذلك، وهي

[1] آراء في اللغة، ص: 56.

متعددة، أن القواعد اللغوية المسكوت عنها قصداً أو المنبوذة من المؤسّسين الروّاد لهذه القواعد تعدّ من النوادر بمكان ما يسمح لنا بوضع نظام قواعدي للغة العربية الباقية يمكن أن يصبح نظامًا موازياً للقواعد التقليدية المألوفة في اللغة العربية"[1]. بل قُهر فرسان البيان أنفسهم من الاستمرار في نسج خطابهم حراً سليقياً بدعوى أن الشعر "ختم باين هرمة"، ولم يعد المتكلم يتحرك في مجالات لغوية واسعة وفق اكتسابه اللغوي الطبيعي، ولعل هذا ما أكّده ابن فارس بقوله: "وليس لنا اليوم أن نخترع، ولا أن نقول غير ما قالوه، ولا أن نقيس قياساً لم يقيسوه، لأن في ذلك فساد اللغة وبطلان حقائقها، ونكتة الباب أن اللغة لا تؤخذ قياساً نقيسه الآن نحن"[2]، ومن الواضح أن ابن فارس كان ملزماً عليه أن يذهب إلى هذا مادام أنه القائل بنظرية التوقيف، وإلا فكيف نغلق باب القياس والاجتهاد في اللغة؟ وفي المعنى نفسه شكا شيخ من الكوفة همه إلى خلف الأحمر: "أما عجبت من الشاعر قال:

أنبت قَيْصُومًا وَجَثْجَاثا

فاحتمل له، وقلت أنا:

أنبت إجاصًا وتفاحا

فلم يحتمل لي؟"، ولكن أحداً لم يُشْكِهِ، بل علّق ابن قتيبة قائلاً: "وليس له أن يقيس على اشتقاقهم فيطلق ما لم يطلقوا" مستشهداً بقصة رجل أنشد الخليل بن أحمد:

ترافع العزّ بنا فارْفَنْعَعَا

فقال له الخليل: ليس هذا شيئاً، فاحتج المنشد: "كيف جاز للعجاج أن يقول:

تقاعس العزّ بنا فاقْعَنْسَسا

---

[1] في رحاب اللغة العربية، ص: 76، عبد الجليل مرتاض.

[2] الصاحبي في فقه اللغة، ص: 67.

ولا يجـوز لي؟"[1].

وبتعبير أبسط هل الخطأ في اللغة يمثل في الوقت نفسه صـوابًا ممـا سـمح لهـذه العاميات العربيـة التـي لا حـصر لهـا أن تنـشطر انـشطاراً فوضـوياً دون رقيـب ولا حسيب؟ أين نحن من قدوتنا ونبينا ﷺ الذي، فيما يحـ ع، سمع رجلاً بحـضرته يلحـن، فقال: "أرشدوا أخاكم، فإنه قد ضل"[2]؟ أو مـن افتخـاره بنفـسه: "أنـا مـن قـريش، ونشأت في بني سعد، فأنّى لي اللحن؟"[3] وأين نحن من عمر بـن الخطـاب الـذي صـان العربية بمنعه المعسكرات العربية خارج بلاد العجم للاختلاط مع الأعاجم حاثًّا على تعلّمها آمراً عامله أبا موسى الأشعري أن يضرب كاتبه سوطًا ويعزله عن عمله بسبب خطأ لغوي وقع فيه؟[4]، بل يظهر أن هذا الخليفة أول من فرق بين الخطأ (من أخطـأ) واللحن، وإلا أليس هو القائل: "لأن أقرأ فأخطئ أحبُّ إليَّ من أن أقرأ فألحن، لأني إذا أخطأت رجعت، وإذا لحنت افترَيْت"[5]، بل مما أمـر بـه "ألاّ يقـرأ القـرآن إلا عـالم بالعربية"،... وأين، وأين،،...؟؟ وبعبارة أبسط، هل نحن نتواصل بأخطاء تقـوم مقـام صوابات أم بصوابات تنوب مناب أخطاء ولحون؟ وهل كلّ ما ينضوي تحت ما يسمى بالفصحى لغة الخاصة، وما يجري في عامياتها لغة العامة والسوقة بالمفهوم الجديد لهذه اللفظة؟ أو كما أوضح ابن مكي الصَّقَلّيّ: "أهل البلـدان مختلفـون في أغـاليطهم فربمـا يصيب هؤلاء فيما يَغْلَط فيه أولئك، وربما يصيب أولئك فيما يَغْلَط فيه هـؤلاء، وربمـا اتفقوا في الغلط، ألا ترى أن أهل المشرق يقولون "النَّسْيان"[6] و"آمـين" عنـد الـدعاء بالتشديد وأخذت للأمر "هبته" وليس في بلـدنا أحـد يقـول إلا "النـسيان" و"آمـين"

---

[1] الشعر والشعراء، ص: 16، ابن قتيبة

[2] الخصائص، 2/ 8، لابن جني، وقد يُروى الحديث عن عبد الله بن مسعود، (إرشاد الأريب، 1/ 82).

[3] المزهر، 2/ 397.

[4] انظر مثلاً نور القبس، ص: 583، وإرشاد الأريب، 1/ 67، والإيضاح في علل النحو، ص: 96، للزجاجي.

[5] الإيضاح في علل النحو، ص: 96.

[6] أي يفتح النون بدل كسرها، أما رجل نسيان (بفتح النون) على وزن سكران فهو الكثير الغفلة.

بالتخفيف، وأخذت للأمر "أهبته""[1]. ومما يذكر أن الكسائي كان يقول للرشيد: ليس أحد يلحن في الدنيا ولا شيء من كلام الناس إلا وله وجه صحيح، لا يعلمون ما يعنوه[2] أي أن المتكلم "قد يتكلم كلاماً بما في نفسه حتى ولو لحن، وفهم المتلقي غير ما يعني المتكلم، ولذلك لما سمع الرشيد صاحب باقلاّء يقول: المقلي، المقلي، دعا الكسائي، وقال له: كيف تزعم أنه ليس أحد يلحن؟ فما معنى هذا المقلي وهو يريد مَقْلوًّا من قلاه يقلوه قلواً؟ فقال الكسائي: يا أمير المؤمنين: إنما يعني هذا أنَّ الناس قد قَلَوْه من القِلى، وهجروه ولكنه لا يعلم[3]. ربما كنّا نحفظ ونتشدّق بشواهد قرآنية وشعرية ونثرية من حِكَم العرب وأمثالهم، ونحن نعلم أنها تتضمن قواعد نحوية وصرفية وصوتية ودلالية واشتقاقية لا تنسجم كلها مع النظام اللساني العربي العامّ، ومع ذلك نقبلها ونجترّها، ولا يجد الواحد منا شجاعة أدبية في نفسه ليقيس عليها بدعوى أن المستنبطين الأولين من نحاة ولغويين أفتوا بتجنّبها، والأسئلة التي تُطرح علينا، فهل أبو النجم العجلي أخطأ حين قال:

إن أباها وأبا أباها   قد بلغا في المجد غايتاها؟

ومثله ما أنشد أبو الغُول المفضَّل الضبيّ لبعض أهل اليمن[4]:

واشدُدْ بِمَثْنَيْ حَقْبٍ حَقْوَاها   ناجِيةً وناجِيًا أَبَاها؟

وعلّق أبو زيد الأنصاري ذاكراً أن لغة هؤلاء قلب الياء الساكنة إذا ما انفتح قبلها (عَلَيْهَا = عَلاَهَا) ألفًا، يقولون: "أخذت الدرهمان، واشتريت ثوبان، والسلام عَلاَكُمُ"[1].

---

[1] تثقيف اللسان وتلقيح الجنان، ص: 46، ابن مكي الصقلي.

[2] نور القبس، ص: 285، المرزباني واختصار اليغموري.

[3] تراكيب لهجية عربية جزائرية في ظل الفصحى، ص: 97.

[4] راجع النوادر في اللغة، ص: 58، لأبي زيد الأنصاري.

وهل أخطأ جرير، وهو القائل:

عرفنـا جعفـراً وبنـي أبيـه   وأنكرنـا زعانف آخريـن؟

بل قال قبله ذو الأصبع العدواني:

إنِّي أبِيٌّ أبِيٌّ ذو محـافـظـةٍ   وابنُ أبـيٍّ أبـيٍّ من أبيِّيـنِ؟

ومثل قول سحيم بن وثيل الرياحي:

ومـاذا يبغي الشعـراء منـي   وقد جاوزْتُ رأسَ الأربعيـنِ؟

وهل أخطأ قيس بن زهير صاحب داحس (فرسه):

ألـم يأتيـك والأنبـاء تنمي   بما لاقـتْ لبـونُ بني زيـادِ؟

وهل أخطأ طرفة بن العبد البكري:

اضْرِبَ عنك الهموم طارِقَهـا   ضَرْبك بالسيف قَوْنسَ الفريس؟

وهل أخطـأ نـافع والكسائي وأبـو بكـر في تنـوين مـا لا يُنَـوَّنُ في قولـه تعـالى: "ويُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وأكوابٍ كانَـتْ قَـوَارِيراً قَـوَارِيراً مـن فِـضَّةٍ قَـدَّرُوهَا تَقْدِيراً"[2]، بينما نوَّن ابن كثير الأولى (قواريرًا) ولم ينون الثانية فيهما،

([1]) نفسه، ص: 58.

[2] سورة الإنسان، الآيتان: 15 و16.

وهل أخطـأ القـراء الأربعـة (نـافع، الكسائي، أبـو بكـر، هـشام) في تنـوين "سلاسل" من قوله تعالى: ﴿**إِنَّا اعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاَسِلَ وأَغْلاَلاً وسَعِيراً**﴾[1]، في حين قرأ الثلاثة الباقون بغير تنوين؟

وهل أخطأ أبو دؤاد الإيادي في قوله[2]:

فـأبْـلـوني بليتكـم لعلـي | أصالحكـم وأسْتَدْرِجْ نَوَيـًّا؟

ومثله قول المُنَخَّل اليشكري[3]:

يطـــوف بي عكــــب في معـــدّ | ويَطْعُـــنُ بالـــصّملّة في قَفَيَّـــا؟
فـإن لم تثـــأراني مــــــن عكّـب | فـــلا أرْوَيْتُـمَـا صَــــــــدَيَّا؟

وهل أخطأ العجاج حين قال[4]:

يـا ليت أيـام الصبـا رواجعـا؟

ومثله قولهم: "ليت القسيَّ كلها أرْجلاً"؟

أو كقول شاعرهم:

إذا اسْودَّ جُنح الليل فلْتَأْتِ ولْتكن | خُطاكِ خفافاً، إنَّ حرَّاسَنَا أُسْدَا

وبكلمة واحدة فهل:

1)- عود الضمير على متأخر.

---

[1] سورة الإنسان، آية: 4، سبق أن أشرنا إلى هذا
[2] انظر الخصائص، 1/ 176، لابن جني.
[3] نفسه، ص: 177.
[4] طبقات فحول الشعراء، 78.1

2)- صرف ما لا ينصرف.

3)- قصر الممدود.

4)- مدّ المقصور.

5)- حذف جزء أو بعض الأجزاء من كلمة.

6)- إلحاق نون الجمع مع الاسم المضمر:

هم القائلون الخير والآمرونـه إذا ما خشوا من مُحْدث الأمر مُفْظِعَا

7)- حذف الإعراب:

فاليوم أشْرَبْ غيـرَ مُسْتَحْقِـبٍ إثْمًـا مِـنَ الله ولا وَاغِـلِ

8)- جمع فاعل -نعتًا- على فواعل كأن يجمع صاحب على صواحب[1]:

وإذَا الرجَال رأوا يزيد رأيتهـم خُضُع الرقاب نَوا كِسَ الأبْصَارِ

9)- وهل إدخال "إلا" التي هي تحقيق مع "ما ينفك" و"مـايزال" المـسبوقين بـ"ما" وهي جَحْد، كقول ذي الرمة[2]:

قلائِص ما تَنْفَـكّ إلاّ مُناخـةً على الخَسْفِ أو نَرْمي بها بلداً قَفْرا

10)- وضع الشيء في غير موضعه مخالفة للعرف والعادات الكلامية،... كلـه أخطاء في أخطاء؟

---

(1) انظر الموشح، ص: 167، للمرزباني والبيت للفرزدق.

(2) نفسه، ص: 287.

وإذا كان كل هذه الانزياحات اللغوية أخطاء فكيف نفهمها ونقبلها ولا تشكّل علينا سوء تفاهم بيننا؟، أم هناك أخطاء يمكن أن تكون صوابات، وصوابات قد تتضمن أخطاء؟ أم ما بين الفصحى والعامية يشبه إلى حد ما: 2×2 أو 2+2؟

وإذا حكمنا على مائات بل ألوف التراكيب اللغوية العربية التراثية التي نبذتها المعيارية بدل أن تهيئ لها قواعد تناسبها، فهل نحن أمام عامية أم فصحى أم أمام لغة بَيْنيَّة لاهي فصيحة يسمح استعمالها، ولا هي عامية تُسْتثنى من أي تركيب فصيح؟

وتساؤلاتنا الآنفة لا تجعلنا في غفلة من أمرنا حتى لا نميّز بين "الأخطاء المرتكبة بحق المنظومة اللغوية، والأخطاء الناجمة عن التباين بين مستوى القول، ومقتضى الحال"[1]، فالأخطاء المرتكبة بحق المنظمة اللغوية التي يُقْصد بها هنا تتابُعُ وحدات لغوية أو كلمات في جملة تقتضي "تصحيحاً لا يدع مجالاً للخيار بين متطلبات المنظومة المتفق عليها وبين العثرات الفردية الطارئة"[2]، في حين أن الهفوات الواقعة في مستوى القول ومقتضى الحال تدفعنا لاستعمال الفكر "حتى نتخير المستوى المناسب، فلا نُصْدر على الصيغة حكماً قاطعاً بأنها عامية أو مبتذلة أو محلّية"[3]، وفي الحالتين معاً، فإن مالك زمام لغة يستطيع أن يتصرف في مختلف ما يسمى بالمستويات اللغوية، ومنها الفصحى المكتسبة وعاميتها الطبيعية.

هل العامية أسبق من الفصحى؟ وهنا نجد أنفسنا أمام تساؤل آخر: هل العامية أسبق من الفصحى، وبذلك نجد آثاراً من هده الظواهر اللسانية غير الشائعة استعمالاً بصورة واسعة أم ليست العامية العربية إلا انبثاقاً وانشطاراً من الفصحى نفسها، وهي ليست أكثر من ظاهرة لسانية مستحدثة "خرجت على القواعد، وفتحت الباب للدخيل من كل لغة، يغلط فيها الإنسان غلطًا قد يكون سَبْقَ لسانٍ فلا يصوّبه،

---

[1] مدخل إلى اللسانيات، ص: 38، رونالد إيلوار، ترجمة: د.بدر الدين القاسم.
[2] نفسه، ص: 39.
[3] نفسه، ص: 39.

فيسمعه من دونه، ويظنّه صواباً فيستعمله فيغلط وينتشر الغلط، وذلك كثير مثل تذكير المؤنث وتأنيث المذكر"[1].

وزعموا أن القرآن الكريم أشار إلى العامية أو غير الفصحى في قوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ، لِسَانُ الذي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ، وهَذَا لِسَانٌ عربيّ مُبِينٌ﴾[2]، لأن القرآن احترز "عندما وصف اللسان بأنه عربي فوصفه بأنه مبين، والمبين: الفصيح الذي لا كدرة فيه من عجمة أو لحن أو عيب"[3]، وربما عدّوا هذه الظواهر اللغوية المتبقية حية من غير استعمال لاحق جزءاً من رواسب اللغة العربية البعيدة "قبل أن تنضج وتكتمل وتستوي" لأنه من الخطأ -في نظر بعضهم- أن يفهم أحدنا "أن الجاهليين كانوا في نجوة من الخطأ، وفي عصمة من اللحن، بل كان فيهم من يلحن ويخطئ"[4]، بدليل مجيء أبيات في الشعر الجاهلي لا تجيزها قواعد النحو والصرف. ومما تقدم ندرك أن القواعد المشار إليها، هي القواعد الوضعية أو الصناعية المستنبطة من النحاة العرب، وهي قواعد لغوية لا قواعد كلامية، ومن جهة أخرى، فإن نحاتنا من استشهدوا بكلام العرب، واحتكموا إليه، ولم يعد المتكلمون يحتكمون إلى النحاة إلا في فترة لاحقة متباينة زماناً، ومتضاربة مكاناً، ومن ثم فإن ما صنع من قواعد لا يقوم حجة على ما أهمل في كل حال، وإذا كان للبصريين حجتهم، فإنّا نستغرب موقف نظرائهم الكوفيين الذين لم تكن لهم الشجاعة اللسانية لتجاوز ما ورد من قواعد بصرية تجاوزاً يلفت الانتباه.

ما كنت لأتمنّى أن يصل التفكير بالأستاذ أحمد عبد الغفور عطار ليذهب إلى ما ذهب إليه، وهو يعلم أن تراكيب قرآنية كثيرة قرأ بها الصحابة والسبعة ولم تجزها قواعد النحو والصرف وإنما الرأي الأصوب في نظرنا ما ذهب إليه الزجاجي من أن

---

[1]- مقدمة الصحاح، ص: 15، أحمد عبد الغفور عطار.

[2] سورة النحل، آية: 103.

[3] مقدمة الصحاح، ص: 17.

[4] نفسه، ص: 15.

العرب لم يكونوا كلهم ذوي مستوى واحد في معرفة اللغة كلها غريبها وواضحها ومستعملها وشاذّها، بل كانوا في ذلك طبقات يتفاضلون فيها، كما أنه لم يكن كلهم يقول الشعر ويعرف الأنساب كلها[1].

والتفكير السابق لأحمد عبد الغفور عطار قاده إلى أن يزعم مع من زعم أن العامية أقدم من الفصحى لتبرز من جديد مع الفصحى لاحقاً، ومما قرّره "من يزعم أن العرب جميعاً في الجاهلية كانوا يتحدثون الفصحى، ويزعم أن العامية غير موجودة، فإن الدليل يعوزه، لأن الطبيعة الإنسانية التي لا تغالب تأبى أن يكون لسان كل عرب الجاهلية على مستوى واحد من البيان والفصاحة والإعراب،... ونحن واثقون كل الثقة أن العامية عاشت بجانب الفصحى في العصر الجاهلي وما بعده،... غير أنّ الذي أريد أن أقوله: إن عامية العصر الجاهلي وعصر صدر الإسلام لم تكن كعاميتنا الحاضرة التي انشقّت على أمها الفصحى، وأصبحت مغايرة لها، وما عاميتنا إلا امتداد لعامية من سبقونا، وبُعْدُ عاميتنا عن أمها العامية القديمة جعلها تظهر وكأنها لغة عامية جديدة لا صلة لها بالجذر القديم، وكأنها ليست فرعاً منها، ومن المستحيل أن تكون لغة فصيحة للأعلياء الخاصة تكون هي نفسها لغة العامة، وإلا فقدنا الفارقة بين الخاص والعامّ"[2].

إني لست في مستوى من ينبّه الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار بأن اللغة الطبيعية أيًّا كانت لا ازدواج فيها حتى من حيث المستويات، وعلاوة على ذلك، فإن لغة الأمومة هي النواة المركزية للغتنا، حتى وإن بدا لنا نحن اليوم "أنّ الأمر أكثر من عادي من أجل اكتساب لغة طبيعية كلغة الأمومة الّتي تمثل النواة المركزية للغتنا المنطوقة حاليا حتى وإن كان من المستحيل إدراك هذه النواة مادامت أنها تتم بصورة لا واعية، وبمجرد التفكير فيها نكون قد انتقلنا من اللاوعي إلى الوعي،... وكل متكلم في مرحلة من مراحل نموّه البيولوجي والعقلي يمرّ قسراً في صورة لا واعية

---

(1) انظر الإيضاح في علل النحو، ص: 92، للزجاجي.

(2) آراء في اللغة، ص: 32-33، الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار.

بالنقطة المركزية لهذه النواة"[1] المتوارثة آلياً بين أجيال أدبرت وأجيال أخرى أقبلت. وفي تقديرنا الراسخ على مرّ العقود أن الجاهلي كان يتكلم طبعاً وجبلة سواء أصاب أم أخطأ في نظر المعياريين اللاحقين، وأنه كان مطبوعاً في فصحاه أو في خطابه كطبع العربي الحديث في عاميته، وأن اللغة ظاهرة حركية مرتبطة ببنية الحياة الاجتماعية والثقافية والعادات والخطاب، وأن تنوّعها بين قاعدة وأخرى لم يؤدّ في أي عصر من عصورها إلى سوء التفاهم أو انعدامه بين أوساط متكلميها، وما تلك الظواهر اللسانية التي أوردنا نماذج منها إلا دلالات ملموسة وصادقة أقل ما يقال عنها إنّها تمثل بقايا لغوية كانت متداولة في محيطها وفضائها تداولاً طبيعياً وسط أصحابها، وعلى الرغم من تحفظ الناس من استعمالها، فإنها تشكّل عامل البقاء بالنسبة للغة العربية القديمة.

وما اعترى الفصحى من انحلال في عصورها المتتالية إلى وقتنا هذا أصاب قواعدها وأصواتها، أي ما يتعلق بالبنية التركيبية التي هي من صنع واختيار المتكلم، أما اللغة بمفرداتها ونظامها الداخلي فلا تزال محصّنة بقرآنها وحديثها وآدابها وأمثالها وحكمها ولسانياتها. والعاميات العربية المنشطرة من أمها الفصحى ربما كانت أمارة من أمارات الإبداع التواصلي أكثر مما كانت دليلاً على فساد هذه الفصحى وانحطاطها، لأن فصحانا نشأت أول ما نشأت طبيعية، وما طرأ بعدُ من كتابة وتدوين وتقعيد لم يعوّض طبيعتها الشفهية، مما جعلها تجنح طوال تاريخها التواصلي نحو الانجذاب إلى آليته الشفهية القائمة على الطبع والسليقية، ولما كانت الفصحى باعتبارها لغة مكتسبة عجزت عن أن تنهض بتلك الوظيفة، حلّ محلّها هذه التواصلات التلقائية المتمثلة فيما يُتدَاول من تواصلات عامية غريبة لا حصر لها.

كيف نقلّص من تهجين الفصحى؟ إذا ما خامرنا حلم جميل للحيلولة دون المزيد من تعدد العاميات العربية على المديين: القريب والمتوسط، فإننا نصطدم بعدة عقبات نكداء تقف حاجزاً صلداً أمام هذا الحلم الجميل، ومما يُحزن فأكثر أن

[1] اللغة والتواصل، ص: 94، عبد الجليل مرتاض.

هذه العقبات عربية تغذيها تمزقات سياسية، وحواجز جغرافية، وأوهام نفسية، وزعامات أنانية.

لا يمكن للغة أن تكون لغة موحَّدة إلا بأمرين: إما أن يتزعّم ويتعهّدَ اللغة أمة واحدة، وإما أن تتوحد شعوب حول هذه اللغة وتُقبل عليها إقبال حب وإرادة واقتناع، ومما يؤسف له أن هذين الأمرين غير متوفرين حالياً على الرغم من حصول ما يضاهيهما تاريخيًا من المحيط العربي إلى خليجه، وفي ظروف أصعب وأحلك من الوقت الراهن. إن الغزو اللساني الأجنبي بذريعة التفتح على ثقافة العالم الخارجي، والمسخ والتهجين الإعلاميين اللذين أصبحا يشكلان خطراً أي خطر لم يسبق له مثيل في تاريخ اللغة العربية على مرأى ومسمع من العرب دون أن يحرّك المعنيون ساكناً، وخاصة في موطن العربية الأصل، إلى جانب عوامل إنتاجية وتواصلية أخرى لا تغيب على أحد من الملاحظين البسطاء، لن تزيد الفصحى إلا ضعفاً، والعاميات إلا قوة ومزيداً من الانشطار. ومن سعد بخت اللغة العربية أن ما يتفرع عنها من عاميات في هذا البلد العربي أو ذاك لا يخرج عن كونه أزيد من مستويات، مما يجعل مجال تهذيبها وتصفيتها مما علق بها من شوائب هجينة ممكناً ومتاحاً متى أردنا ذلك.

وإذا أردنا أن نصل إلى نتيجة ترضينا بشأن الحدّ أو التقليل على الأقل من انشطار العربية الفصحى إلى عاميات متتالية مطردة، فلا اختيار لنا من تهذيبها في زمن واحد، ومكان مختلف بفضل إنشاء فرق بحث لهذا الغرض، مع إنشاء ثلاث مجامع للعربية العامية أو ما يقوم مقامها (في مصر، والخليج، والمغرب العربي) بهدف الإشراف والتنسيق وتبادل المعلومات السريعة، وبدون هذه المجامع، فإننا سنظل ندور دون طائل مفيد حول أنفسنا، وعلاوة على هذه المجامع، فإنه بات إلزاماً أن تنشأ كراسيّ علم اللهجات في الجامعات العربية، إذ تراثنا اللساني الهائل يمكننا من إحداث علم لهجات لغوي وآخر أدبي.

ومما هو مضحك وغريب أننا نـدْرُس وندرّس الآداب الشعبية في معظم الجامعات العربية، ولا نلتفت إلى الأداة التي أنتجته، ومن ثم فقد آن الأوان للاعتراف

التربوي بلغة الشعب الغالبة ودراستها بهدف تنقيحها وتصفيتها وتقريبها من الفصحى ودمجها بها لنحصل في النهاية على لغة بَيْنِيَّة تفهمها طبقات عريضة من مجتمعنا الذي لم يتخلص بعد من الجهل والأمية. وفي ضوء بعض الدراسات المحتشمة التي خرجت عن المألوف، وأشارت بِبَنَانها إلى كلمات عامية عربية في بلد تشبه نظيرة لها في عامية أخرى، والقول الفصل في هذه الحالة للفصحى المؤهّلة بإقرار صواب كلمة في عامية من خطئها في عامية أخرى، فإنّ الاعتقاد السائد حالياً بين المثقفين العرب أن كل واحد منهم يَجْزِمُ أنّ عاميته أقرب إلى الفصحى، والواقع أنّ الطبيعة الصوتية والفونولوجية المعتاد عليه طبيعياً هي التي تميل به إلى مثل هذا الجزم، لأن الفونيمات التي تُنْطق غير ممكن تحقيقها في صوت مجسد مادياً، أي أن الفونيم ليس وحدة صوتية مادية، بل وحدة مجردة يمكن أن يكون لها صور صوتية عديدة يسمّيها الفونولوجيون تنوعات تختلف باختلاف السياقات الصوتية (صوت واحد ربما يرقق تارة، ويفخم مرة،...)، وإذا كان تروبتزكوي يرى أن الفونيم ليس إلا عضواً لغوياً في نظام اللغة، وأن صفات الفونيم، لا تُحَلَّل إلا في إطار نظام صوتي خاص بلغة المتكلم الطبيعية كعاميتنا أو في لغة واحدة على ألاّ تُقَارن بلغة أو لغات أخرى، باعتبار هذا التحليل لا يتحدد إلا من خلال نظام اللغة ذاتها، فإن اللغات ليست متشابهة في فونيماتها، ومن ثمّ فإن ما يميز صفة في لغة تمييزاً فونولوجياً لا يكون هو نفسه في لغة أخرى[1].

إنّ ترك الحبل على الغارب لعاميّاتنا العربية سيؤدي لا محالة إلى المزيد من الانشطارات الداخلية في ذاتها، مما سيبعدها جيلاً بعد جيل عن علاقتها بأمها الفصحى، بمعنى أنه يجب أن نتناول العاميات كظاهرة واقعية تعيشنا ونعيشها، وأن ندرسها دراسة تاريخية وآنية على أن يكون القول الفصل بيننا جميعاً العربية التاريخية الفصحى.

---

[1] راجع علم اللغة، ص: 112-113، د.محمود جاد الرب.

هل من تهذيب لعامياتنا؟ لم يَعُدْ لعربيّ إطلاقاً أن يبلّغ مراده ورسالته لعربي آخر بلغته الطبيعية المُمَثّلة في عاميته التي لا تزيد بين كل فنية وأخرى إلا تنائياً وإسفافاً وتهجيناً، لكن هذه الصفات المذمومة لا تحول دون دراسة وتنقية كل عامية عربية في بلدها أو منطقتها على حدة ما دامت مرجعية الاحتكام في النهاية واحدة، ولكننا متأخرون تأخراً كثيراً في إقدامنا على فحصها ومداواتها بمصلها الأنجع لها، لأننا منحنا جهودنا لِمَا هو سليم أزيد مما أَوْلَيْنَا شيئاً من اهتمامنا لما هو مريض.

إن باحثاً لغوياً سعودياً ضليعاً يقول لنا: "السطل كلمة عربية كما ذكر ابن منظور في لسان العرب، وزعم ابن دريد أنه أعجمي، ولكن لا دليل عنده كما قيل، ولعله عربي، ولكن العامية حرَّقته فجعلت طاءه مكسورة وهي ساكنة، والجمع في العربية والعامية، سطول، ويجوز أن يكون معرّباً إذا صحّ قول ابن دريد"[1]، وتقول لنا بعض المعاجم إن السطل معروف، وهو معرّب، والجمع أسطال وسطول، والسّيطل لغة فيه[2]، وهو في عاميتنا الجزائرية التي نعرف "الدّلو"، ولربما قيل فيه: "الْبِيدُو" من الكلمة الفرنسية Bidon الدالة على وعاء للسائل، ولكننا لا نكسر الطاء في السطل بل نلتفظه مثل الفصحى إذا عرَّفناه، وننطقه "سْطَلْ" إذا نَكَّرْنَاه. وذكر الباحث ذاته أن لفظه "الهبرة" في العامية السعودية القطعة من اللحم لا عظم فيها، وهي فصيحة وهي في عاميتنا كذلك، حيث ننطقها بضم الهاء بدل فتحها الفصيح، حتى وإن كان الباحث لم يذكر لنا كيف تُنطق صوتياً في العامية السعودية، وهنا نسجل فراغاً في الرسم العربي.

ومن خلال تتبعي لبضع كلمات سعودية أوردها الأستاذ أحمد عبد الغفار عطار على أنها مهجَّنة كأية عامية عربية سواها، لكن الأستاذ ركّز حديثه كثيراً على الكلمات اللاتينية والفارسية والتركية واليونانية والبرتغالية والعبرية والبنغالية والإيطالية والهندية التي عُرِّبت تعريباً سَيّئاً فنطقت نطقاً صوتياً منحرفاً، فضلاً عن

---

[1] آراء في اللغة، ص: 196.

[2] المصباح المنير، ص: 176، الفيومي.

كون الباحث ترك الكلمات العامية غُفْلاً من أي شكل، وكأن العرب كلهم يعرفون مثله العامية السعودية، ومن الكلمات التي أوردها متشابهة مع العامية الجزائرية:

- السمسار ← تتلفّظه عاميتنا بفتح السين.

- القنديل ← بفتح القاف عندنا، في العامية السعودية شمعة، وهو عندنا فتيلة توضع في القنديل، وتشتعل بالزيت

- برتكال أو برتقال ← المجلوب من برتغالي من الصين عام 1547م يسمّى بالفصحى برتقالاً، وبالعامية اللَّتْشِينْ.

- الصابون ← ذات الأصل اللاتيني والبنغالي معروف عالمياً، لكن ليست عربيتها الغاسول، لأن الغَسول الماء الذي يُغْتسَل به، والغِسل ما يُغْتسل به الرأس، وأما الغاسول في عاميتنا التي نعرف عبارة عن معدن ترابي يعرَّض للشمس حتى يَيْبس ويجِفّ ثم يُحلَّل في المياه وتدهن به المرأة شعرها في الحمام.

- القادوس ← تردّد الباحث في تعيينه، وهو عندنا ليس برميلاً ولا خابية ولا وعاء للماء، لأنه مخروط عندنا من الجهتين، وهو معرروف لنقل الغاز أو الماء أو صرف المياه القذرة.

- زنبيل ← ذكر أنها عامية محرّفة من "الزنفليجة" المرجّح أنها فارسية، بينما الزّنبيل(بفتح الزاي) عندنا وعاء معروف لحفظ الشاي أو القهوة ونحوهما، وهو قد يرادف في عاميتنا "القوطي".

- تكرفس ← من تكرفس الرِّجل إذا تداخل بعضه في بعض، وعندنا تكرفس الشيء إذا تكسّر أو فسد وما شابه ذلك، ويبدو أنها من البقلة الشعبية المعروفة بـ"الكَرَفْسُ" في المعاجم، والملفوظة في عاميتنا بـ"لَكْرَافَسْ" لأنه يُكْرَفس أو يقصّ قبل إلقائه في الطبخ.

- الســروال ← استفاض الباحث حديثاً في هذه الكلمة المعرّبة من الفارسية إلى العربية مقتفياً اختلاف علماء اللغة العربي في جنسها وعددها وأصلها، وهو في عاميتنا مذكر مفرد مفتوح السين، نقول "السَّروال العَرْبِي" وجمعهُ عاميةً "سْرَاوَلْ".

- الديس ← في العامية السعودية ثَدْيُ المرأة، وقطع الباحث بعدم عربيتها، وذكر أن أهل العراق يسمّون الثدي الديس، في حين أن الديس (بكسر الدال) عندنا يطلق على نبتة وحشية تنبت في الغابة ترعاها الماشية بصعوبة وحذر لأن أوراقها ليست رطبة ولا ملساء بل خشنة حرشاء يخرج قصباً يتّخذه الناس وقوداً. و إذا ما استثنينا كلمات أخرى تتقاطع معها العامية الجزائرية مثل الإسطبل والفرن والفصّة وداق الطعام ونقز (ينطق قافها عندنا: G) والفوطة... فإن سائرها كلمات منكرة على الرغم من أن أصل كلمات منها عربي فصيح، ولكنها بعدت بعداً لم يعد لبعضها رائحة الفصحى، على الرغم من بعض التخريجات الصوتية التي لا تخلو من تعسّف.

الزمان والمكان عاملا تحصين أم تهجين؟ وليست العامية السعودية أو الجزائرية وحدها التي تهجّنت وناءت عن أمها الفصحى، بل البلوى تشمل العاميات العربية كلها، وقد يتعجب المرء من فساد العامية السعودية أزيد من تعجبه لهجانة أية عامية عربية أخرى بدعوى أن هذا البلد الموطن الأصل للغة التنزيل، ولغة امرئ القيس،... و إذا كان مقامنا لا يسع حديثنا لتأكيد أو ردّ هذا التعجب الذي يبدو مبدئياً أنه منطقي ومشروع، فإن الوقائع اللسانية قد تثبت لنا أن اللغة ربما فسدت في بؤرتها الأصل أكثر مما تفسد خارجها، ومن ثمّ نلاحظ أن لغة العامة من العرب والمتعربين في الأندلس وصقلية قبل سقوط الواحدة تلو الأخرى، إلى جانب عاميات المغرب العربي العربية أنصع وأصقل وأصفى من العاميات المشرقية، وبدل أن يعمل الزمان والمكان على فتور الفصحى وانحلالها في هذه البؤر الغربية من الوطن العربي كانت المفاجأة أنْ عَمِل عملاً على تحصينها من الظواهر المنكرة التي شابتها في مناطق عربية أخرى، وهذه الملاحظة غير دقيقة تحتاج إلى دراسة مقارنة وتمحيص لساني

واسعين وعويصين، ولكن ما نهضنا به من مقارنات أولية لتكلمات عربية في الأندلس وصقلية وبغداد هو الذي أوحى إلينا التفاتة مثل هذه وليس حكماً مطلقاً.

ومن جهة أخرى، فإن المتكلم الأصلي في لغته يختلف استعمالاً من حيث الكم والكيف والتصرف بالنسبة لاستعمال متكلم غير أصل في اللغة ذاتها، فهذا الأخير يجتزئ بقاموس لغوي متواضع وبقواعد بسيطة خلافاً لمالك اللغة ذاتها الذي عادة ما يجنح جنوحاً غير واعٍ إلى التنويع في استعمالاته قاموساً وقواعد، ومن هنا لا تجد عمقاً بعيداً في الأجناس الأدبية التي صدرت عن متعربين بعيدين عن موطن العربية التاريخي زماناً ومكانًا، وكان يجب أن ننتظر قروناً حتى تتكون لغة تقترب من اللغة الأم وتتداخل معها. إن اللغة العربية الفصحى انتشرت انتشاراً شفهياً، والتواصل الشفهي عينيّ وفضائي وآني غير ملزم باستعمال ما لا يلزم، فهو تواصل محدّد بإرسال مباشر، وبتوظيف خطاب عاجل، وجمل قصيرة، ونصوص صغيرة لا تتعدى كونها أمراً أو نهياً أو ترغيباً أو إخباراً،... حتى كأنما العربية سُجِّلَتْ شفهيا بين المتعربين قبل تقييدها خطياً.

لا علاج للعاميات إلا في إطارها اللساني: ومما نميل إليه أن المُعَرِّب غدا في فترة لاحقة يخضع عنوة إلى ألسنة المتعربين، فهو يشكّل أقلّية، وهم يمثلون أغلبية، فهو غريب عن الدار وهم أصحاب الحل والعقد في بلدهم، ولذلك فإنه على الرغم مما حدث من تجاوزات وحوادث مؤلمة طوال قرون عديدة في سماء الغرب الإسلامي العربي، فإننا لم نعثر على ما يشير إلى صراع لغوي في هذه الربوع بين لهجات ولغات سابقة وبين لغة لاحقة، فالصراع اللغوي المفتعل في هذه الربوع العربية الإسلامية من صنع الاستعمار وأذنابه وذوي النزعات الانفصالية المغذّاة بجهل هؤلاء وضلالتهم العمياء وضعف شعورهم الوطني بحكم انجذابهم ثقافيا إلى ما وراء البحار.

إن معالجة العاميات العربية يجب ألاّ يخرج عن إطاره اللساني العلمي مهما كانت الطرائق والوسائل الممكن تكريسها لذلك، ويجب ألاّ نخلط بين مبدأ الفصحى كنقطة تجميع مركزي وتوحيد بيننا، والذي لا يقبل الجدل، وبين دراسة

العاميات وتقريبها من أمها الفصحى ما أمكن إلى ذلك سبيلا. وقبل إنهاء هذا المبحث نشير إلى قضيتين، أولاهما أنه لا يمكن بحال قبول فكرة ترقية العاميّة، بل الأنسب قوله أن نعمل على تهذيبها وردها إلى مستواها اللغوي السليم الذي كانت عليه قبل أن يُشَوَّه في بنيته السطحية وصورته الصوتية السمعية، حتى أصبح وكأنه لا يمت بأي صلة إلى مستواه الفصيح، ونقول الفصيح في خطابهم الأدبي الموحّد العام. إن ما يسمّى بترقية العاميات العربية طرح مرفوض عندنا، فنحن نملك لغة فصيحة راقية تلوكها ألسنتنا يوماً لَوْكاً واسعاً في مؤسّساتنا التربوية والجامعية، وفي صلاتنا ونُسُكنا، وفي مؤلَّفاتنا وندواتنا،...ومع ذلك، فإننا مازلنا شبه متردّدين إزاء استعمالها فيما تستعمل فيه سائر اللغات التي هي دون اللغة العربية حضارة، وتاريخاً، وثراء، وطواعية لسانية، ويسراً في أصواتها وكلماتها وجملها. غير أن إشارتنا السابقة لا تعارض دراسة عامياتنا العربية دراسة علمية لسانية بما ينسجم مع كل عامية، ولن يتأ̃7 ذلك، من وجهة نظرنا إلا بهيكلة أكاديمية مستقلة، لأنا نحسب أن دراسة العاميات سوف يقفنا على ملامح حية للمراحل التي مرّت به هذه التكلمات، على الرغم من الصعوبات التي ستواجهنا لكوننا لا نملك عنها وثائق وشهادات تاريخية وماثلة إلا نصوصاً قليلة. وأما القضية الثانية التي أريد أن أثيرها، فتعني هذه الشروحات والفصائل من العاميات: كيف حدثت، وآلت لما آلت إليه على النحو الذي نلحظه على مستوى كل عامية عربية؟ كنا أشرنا سلفاً إلى أن الفصحى لم تنشطر إلى عاميات، بل إلى عامية عربية واحدة، وما اختلاف هذه العاميات فيما بينها إلا كاختلاف الفصحى نفسها في مستوياتها عموماً، ثم ما لبثت هذه العامية العربية أن انشطرت داخلياً إلى لُهَيْجَاتٍ تتمثل في هذه الأداءات التباينية بين كل لهيجة وأخرى. ويظهر أن حدوث العامية في أفق الغرب الإسلامي غير حدوثها بالشكل نفسه في المشرق، لأنّا لا نتصور أن العربية رحلت كلها مع من حطوا رحالهم في هذه الربوع التلية والجبلية والصحراوية، فالذي حطّ هنا ضارباً بجرانه لم يكن أكثر من كلام شفهي تلقّته ألسنة تلقيات لا تخلو من تشوّه وانحراف ما لبثا أن رسخا طبيعياً في عاميتنا هذه، ومن هنا كان الاختلاف بين العاميتين: المشرقية والمغربية اختلافاً شاسعاً ومتوازياً، لأن العامية المشرقية انبثقت

من لغة، والعامية المغاربية انشطرت من كلام، وشتان ما بين الأمرين، بمعنى أن العامية المشرقية طعنت الفصحى في الصميم أي في أنظمتها الداخلية الكلية، في حين أن العامية المغاربية شدختها في سطحها أي في صورتها الصوتية التي سُمِعت سماعاً غير دقيق. ومن حق من يقف على هذه الطروحات أن يتساءل مستغرباً: كيف يمكن لنا أن نُسيغ انشطار العربية الفصحى إلى عامية أو عاميتين، في الوقت الذي نجد فيه عاميات ضيقة هنا، وواسعة هناك، حتى غدا من الصعب على أي ديالكتولوجي أن يعدها ويحدّدها؟ ومما نراه أن هذا التساؤل مشروع، ومما يتماثل لنا، ومنذ مدة، في سياق الموضوع ذاته أن العاميات تتعدد بتعدد المتكلمين الذين يتبنّون ويتعوّدون أداء صوتياً وفونولوجيا معيّنين، علاوة على ما يصحبهما من عناصر لسانية أخرى، أما العامية فهي عامية واحدة، ولا تتعدد تعدّداً ذاتياً، مثلها مثل أمها الفصحى تماماً، بمعنى أن النظام اللغوي لا يتبدل، بل يظل مصوناً، وإلا لما أمكن ردّ ألوف من الكلمات العامية إلى مستواها اللغوي ذي الأصل الفصيح. ونشير أخيراً إلى أن إمكان تفصيح العامية ممكن تحقيقه على مستوى اللغة والمحادثة في المجالات التربوية التعليمية، وعلى مستوى الكلام الخاص والعامّ، لكن الوسائل السمعية البصرية والسينما والمسرح وبعض الخطابات أو الرطانات الرسمية التي نبصرها ونسمعها هنا وهناك تعدّ عوائق لا يستهان بها في طريق الوسائل المتاحة لتفصيح العامية وتهذيبها، لأنّه من غير المنطق ولا طبيعة الأشياء أن نحلم يوماً بتيسير الفصحى، ولكن نتطلع إلى تيسير سبل وميكانيزمات تعلّمها، فضلاً عن أن نطمح إلى التضحية بفصحانا المحصّنة بقرآنها وآدابها وأشعارها وتراثها إرضاء للعامية ومن يدعون إليها، لأنه إذا كان مما لابدّ فشرّهما لخيرهما الفداء.

بيبلوغرافية البحث:

1- آراء في اللغة، أحمد عبد الغفور عطار، ط: 1964/1، المؤسسة العربية للطباعة، جدة.

2- أساس البلاغة، الزمخشري، ط: 2004، دار الفكر، بيروت.

3- الإيضاح في علل النحو، الزجاجي، تح: مازن المبارك، دار العروبة، القاهرة.

4- البيان والتبيين، الجاحظ، تح: عبد السلام محمد هـارون، ط: 1950، مطبعـة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة

5- تاريخ آداب العربية، مـصطفى صـادق الرافعـي، ط: 1974/4، دار الكتـاب العربي، بيروت.

6- تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف، ط: 3، درا المعارف، مصر.

7- تثقيف اللسان وتلقيح الجنان، ابن مكي الصقلي، تح: عبـد العزيـز مطـر، دار المعارف، مصر.

8- التحليل اللساني البنيـوي للخطـاب، عبـد الجليـل مرتـاض، ط: 2000/1، دار الغرب، (وهران).

9- التحولات الجديدة للسانيات التاريخية، عبد الجليل مرتاض، ط: 2005/3، دار هومة، (الجزائر).

10- تراكيب لهجية عربية جزائرية في ظل الفصحى، عبد الجليـل مرتـاض، ط: 2005، دار الغرب (وهران).

11- تقويم اللسان، ابن الجوزي، تح: عبد العزيز مطر، دار المعارف، مصر.

12- التنبيهات، علي بن حمزة البصري، تـح: عبـد العزيـز الميمـني، دار المعـارف، مصر

13- التيسير في القراءات السبع، الداني، إسطانبول، ط: 1930.

14- الخصائص، ابن جني، تح: محمد النجار، دار الهدى، بيروت.

15- ديوان النابغة الذبياني، تح: شكري فيصل، دار الفكر، بيروت.

16- الشعر والشعراء، ابن قتيبة، طبعة ليدن، 1902.

17- الصاحبي في فقه اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس، تح: مصطفى الشويمي، ط: 1963، مؤسسة بدران، بيروت.

18- الصحاح، إسماعيل بن حماد الجوهري، تح: أحمد عبد الغفور عطار، ط: 1984/3، دار العلم للملايين، بيروت.

19- الضرائر الشعرية، ابن عصفور، تح: السيد إبراهيم محمد، ط:1980/1، دار الأندلس، بيروت.

20- طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلاّم، تح: محمود محمد شاكر مطبعة المدني، القاهرة.

21- طبقات النحويين واللغويين، الزبيدي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر.

22- العربية بين الطبع والتطبيع، عبد الجليل مرتاض، ط: 1993، ديوان المطبوعات الجامعية، (الجزائر).

23- في رحاب اللغة العربية، عبد الجليل مرتاض، ط: 2005/1، ديوان المطبوعات الجامعية (الجزائر).

24- علم اللغة، د.محمود جاد الرب، دار المعارف، ط: 1985/1، مصر.

25- الفصيح، أبو العباس ثعلب، تح: صبيح التميمي، دار الشهاب، (الجزائر).

26- الاقتضاب في شرح أدب الكاتب، السيد البطليوسي، تح: مصطفى السقا، حامد عبد المجيد، ط: 1981، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

27- الكامل، المبرد، تح: محمد أبو الفضل، السيد شحاته، دار نهضة، مصر.

28- الكتاب، سيبويه، تـح: عبـد الـسلام محمـد هـارون، ط: 1966، دار القلـم، القاهرة.

29- لحن العامة، الزبيدي، تح: عبد العزيز مطر، ط: 1981، دار المعارف، مصر.

30- اللسانيات الجغرافية في الـتراث اللغـوي العـربي، عبـد الجليـل مرتـاض، ط: 2003، درا الغرب (وهران).

31- اللغة والتواصل، عبد الجليل مرتاض، ط: 2003/2، دار هومة، الجزائر.

32- مدخل إلى اللسانيات، رونالد إيلوار، ترجمة: د.بدر الدين القاسم، ط: 1980، جامعة دمشق.

33- مراتب النحويين، أبو الطيب اللغوي، تح: أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي.

34- المزهر، السيوطي، تح: جاد المولى وآخرون، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة.

35- المصباح المنير، الفيومي، المكتبة العلمية، بيروت

36- المفضليات، المفضل الضبي، تـح: محمـود محمـد شـاكر، عبـد الـسلام محمـد هرون، مطبعة المدني، القاهرة.

37- الموشح، المرزباني، تح: علي محمد البجاوي، ط: 1965، دار نهضة، مصر.

38- النوادر في اللغة، أبو زيد الأنصاري، ط: 1894، المطبعة الكاثوليكية، بيروت.

39- نور القبس، المرزباني، واختصار اليغموري، تح: رودلف زلهايم، ط: 1964، دار النشر فرانتس شتايز بقسبادن .WIESBADEN

40- Comprendre la linguistique, sans la direction de Bernard Pottier.

Edition Marbout, Paris, 1975.

41- Dictionnaire de didactique des langues Hachitte, 1976.

العامية وصلتها بالفصحى

دراسة في منطقة الزيبان، بسكرة.

د. محمد خان عميد كلية

بجامعة ، بسكرة

اللهجة، عند القدماء، هي اللغة، وعند المحدثين، هي مجموعة من الخصائص تنتمي إلى مجموعة بشرية، يشترك فيها جميع أفرادها، وهي بدورها تشترك مع غيرها من اللهجات في مجموعة من الظواهر اللغوية، التي يتفاهم بها أبناء اللغة الواحدة. واللغة العربية الفصحى عرفناها مكتملة البنية في نصوص الأدب الجاهلي، وازدادت قوتها بنزول القرآن الكريم بها فكان لها الشرف التليد أن ترتبط به في حضارتها العريقة، وتاريخها الطويل، فكانت وعاء الفكر الإسلامي، ولسانه المعبر عن جميع العلوم والمعارف، وصارت تزداد انتشارا على لسان أبنائها جيلا بعد جيل، وعلى لسان الداخلين في عقيدة الإسلام على مر العصور. وإذا نصّ الفارابي على لهجات ست قبائل أُخذ عنها أكثر العربية، فإن هذا الخبر لا ينفي وجود لهجات أخرى لقبائل تجاوزت الستين (60)، وتلك إحصائية استنتجناها من دراستنا للقراءات في البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي. تطورت العربية خارج مجال التعليم تطّوراً حرّاً، فقدت فيه الكثير من سماتها، ونتج عن ذلك اللهجات الدراجة التي نعرفها اليوم في مختلف الأقطار العربية، وهذا تطور طبيعي تمرّ به جميع اللغات البشرية وفق قوانين عامة. وقد نادى كثير من العلماء بضرورة دراسة اللهجات العربية المعاصرة في مختلف أنحاء الوطن العربي، لاكتشاف الثوابت في تطور اللغة العربية في جاهليتها السحيقة، وفي تاريخنا الإسلامي الطويل، ولاكتشاف القوانين العلمية الطبيعية التي تسيّر اللغات البشرية أياً ما كانت وأنّى وجدت.

سايرت الفصحى، وأما ما يمكن أن نسّميه بالفصحى لتعدد القبائل النازحة بلهجاتها إلى شمال إفريقيا منذ أربعة عشر قرنا – سايرت لغات عديدة، وعرفت

حضارات جديدة، وتأثّرت بها وأثّرت فيها، وأخذت أشكالا لم تكن لتأخذها، لولا اختلاط الأجناس، وانصهارها في مجموعة تكاد تكون متّحدة في تصوراتها الذهنية، وعاداتها الكلامية، وعرفت بيئات جديدة طبعتها بطابع خاص.

لهذه الدراسة هدفان: هدف لساني عان، يسعى إلى كشف النواميس الخفية التي تحرك جميع اللغات البشرية، وهو هدف بعيد المنال يتطلب تظافر الجهود، ووفرة البحوث، وتعاقب الأجيال.

وهدف ثان مباشر يدرس مابين العامية الجزائرية(في منطقة الزيبان)، وبين العربية الفصحى من وثيق الصلات، وهو ما يكشف لنا مجالات واسعة في الميادين التربوية والعلمية والثقافية والتاريخية.

ومنهجنا في هذا أن نعتمد الوصف والمقارنة في شتى المجالات اللغوية، ونحاول شرح الظواهر، وتعليلها بالرجوع إلى غيرها من اللهجات العربية في القديم، وفي العصر الحاضر وما جدّ في العلوم اللسانية. وذلك بإرجاع الكلمات في اشتقاقها أو في دلالتها إلى أصولها العربية، وذلك ما فرض علينا الاقتصار على ما يُظنّ أنه غير عربي، أو ما يجهل أصله. وكانت هذه المرحلة عسيرة لتعدد الاستعمالات، وتغير الدلالات من صقيع إلى آخر، ولما يطرأ على اللفظ، أو التعبير من تغير بالحذف والإبدال والقلب. وغيرها ممّا يتطلب معرفة واسعة بعلم الأصوات، والرجوع المستمر إلى المعجمات العربية وغير العربية، والكتب اللغوية على اختلاف أنواعها ومضامينها، والدراسات النحوية بأوسع دلالاتها.

الأصوات المستعملة في العامية: تستعمل العامية في منطقة الزيبان، بسكرة، الأصوات المستعملة في العربية الفصحى، ولكن بزيادة صوت القاف المعقودة (ق = كَ)، وبالغاء صوت الضاد، ونطقها (ظاء).

1 ـ **القاف المعقودة** : ينطق العوام بعض الكلمات مثل القَمح، والقنطرة، والقمر، والقبيلة، بالقاف، وبالقاف المعقودة، ولا فرق في الدلالة بين الصوتين هنا، فهما صوتان

لمدلول واحد. ولكن تصير القاف صوتا مميزا في كلمات أخرى في مثل القرعة(زجاجة) والقرعة (يقطين).

والقاف المعقودة قديمة على ألسنة أهل البادية حتى لا يكاد عربي ينطق بها، لا بالقاف الخالصة الموصوفة في كتب اللغة، ووصف القدماء بالجهر يجعلها أقرب إلى القاف (ک)في العامية كالقمح." وهذه الجيم القاهرية نسمعها كذلك في بعض اللغات الشامية كالعبرية والشريانية والحبشية، فهو صوت سامي قديم، وهو لا يفترق عن الكاف في شيء سوى أن الجيم القاهرية مجهورة، والكاف مهموسةٌ.[1] وذكر ابن فارس أنها لغة أهل اليمن:" أما بنو تميم فإنهم يُلحقون القاف باللهاة حتى تغلظ جدّاً، فيقولون: القيوم." [2]

2ـ __الضاد__: الضاد العربية التي وصفها سيبويه بأنها من أول حافة اللسان، وما يليها من الأضراس [3] رخوة، مجهورة، مطبقة، لم تعد تنطق منذ أمد بعيد، وأنها آلت منذ قرون إلى عدة أشكال، كل شكل يستخدم في جهة من جهات البلدان التي تتكلم العربية. وأن أشهر تلك الأشكال نطق الضاد ظاء كما في معظم البلدان العربية، ونطقها دالاً مفخّمة في مصر، ونطقها لاماً مفخّمة في السودان. [4]

إن هذه الدال المفخمة تمثل الطاء العربية القديمة المجهورة التي صارت منذ أمد مهموسة(تاء مطبقة) فخرجت من اللغة العربية إذن الضاد القديمة، ودخلت الطاء الحديثة، وانتقلت الطاء القديمة لتمثل نطق الضاد في بعض البلاد العربية.[5] وعلى

---

[1] رمضان عبد التواب، مدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ومكتبة الرفاعي- الرياض، 1982، ص 54.

[2] الصاحبي، تحقيق مصطفى الشويمي، مؤسسةأ .بدران للطباعة والنشر، بيروت 1964

[3] الكتاب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة لخانجي، القاهرة، ومكتبة الرفاعي- الرياض، 1977، ج4/ 433.

[4] غانم قدور الحمد، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، مطبعة الخلود، بغداد، 1986، ص 280.

[5] ابن جزري، التمهيد في علم التجويد، تحقيق علي حسين البواب، مكتبة المعارف، ط1، الرياض، 1985، ص 130، 131.

هذا الأساس صورت كتابتها بالحروف اللاتينية (D). والظاهر أن هذا الإبدال بهذا الصوت كان من خصائص النبطية.[1] وكان الأندلسيون ينطقون الضاد مثل ذلك وقد استدل الإسبان بها(L D) في الكلمات المستعارة في لغتهم مثل القاضي، فصارت في الإسبانية (ALCALDE) .[2] وكان بعض العرب ينطقون (اِلْطَجع) بدل اضطجع، وشاهده قول منظور بن حبة الأسدي[3](رجز): نقلت كتب التراث اضطراب نطق الضاد، والتداخل بينهما، وبين بعض الأصوات كالظاء منذ عهد عمر(ض)[4] لذلك احتاج الناس إلى وضع الكتب في الفرق بينهما. وذكر بعض الباحثين أن نطق الضاد العتيقة موجودة في لهجات الجزيرة بالسودان، وتنطق كاللام المطبقة عند أهل حضر موت.[5] قال ابن الجزري:" والضاد انفردت بالاستطالة، وليس في الحروف ما يعسر على اللسان مثله. فإن ألسنة الناس فيه مختلفة، وقلّ من يحسنه، فمنهم من يخرجه ظاء، ومنهم من يخرجه بالذال، ومنه من يجعله لاما مفخمة، ومنهم من يشمه بالزاي، وكل ذلك لا يجوز.[6] ويكمن أ، نحدد أشكال صوت الضاد في الأصوات الآتية:

1 ـ الظاء.

2 ـ الدال العادية والمفخمة.

3 ـ اللام المفخمة.

4 ـ الطاء.

---

[1] يوهان فك، العربية، دراسات في اللغة واللهجات والأساليب ترجمة رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ومكتبة الرفاعي، الرياض، 1980، ص 112.

[2] برجستراسر، التطور النحوي، تصحيح رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ومكتبة الرفاعي، الرياض، 1982، ص 19.

[3] الكتاب، مرجع سابق، 4/ 483.

[4] روي أن عمر(ض) سئل: هل يضحى بظبي؟ نطقها السائل هكذا (هل يضحى بضبي؟) فقال له: ما ضرك لو عكست.

[5] رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة، مرجع سابق، ص 74.

[6] النشر في القراءات العشر، تصحيح محمد علي الضباع، دار الكتاب العربي، بيروت، 1/ 219.

5 ـ الطاء ممزوجة بالذال.

6 ـ الضاد مشمومة بالزاي.

والضاد تنطق في هذه اللهجة ظاء، وهي ظاهرة فاشية عند العامة والخاصة، حتى عند المعلمين والمثقفين، فلا يفرقون في النطق بينهما، ويحرصون أشد الحرص على التفريق بينهما في الكتابة.

الإبدال بين أصوات هذه اللهجة:

الإبدال في اللغة جعل الشيء مكان آخر، وفي الإصلاح وضع صوت في الكلمة مكان آخر بهدف التخفيف وتيسير النطق على المتكلم (من غير إدغام). ويكون في أصل الكلمة، وفي اشتقاقها وفي مفردها وفي جمعها. فإن اقتصر على أصوات العلة سمي (إعلالا) وإن كان في غيرها من الحروف الصحيحة سمي (إبدالا).هذا إذا عرف اللفظ فيه، أما ما جهل أصله، لاشتهار الكلمتين، وتعادلهما في التعريف، فيسمى تعاقبا.

وقد أشار علماء العربية إلا أن الإبدال يقع في كثير من الأصوات، يقول أبو حيان النحوي:" وجميع حروف المعجم جاء فيها البدل على ما سنذكره إلا الحاء والخاء والذال والضاد والعين والقاف، فالضروري في التعريف جمعت في قولك:" طال يوم أنجدته" [1]

ونشرع الآن في دراسة بعض النماذج من باب الهمزة والباب:

الهمزة : تميل اللهجة إلى تسهيل الهمزة؛ لأنها من أشق الأصوات؛ إذ تتطلب جهدا عضليا قويا، كقولهم: راس، ذيب، مومن، وهذا ما يوافق رواية ورش عن نافع في قراءة القرآن، في هذه المنطقة. والهمزة تبدل واوا وهاء وميما وعينا. فيقولون: وْذن في(أذن)، زَنْس في (إنس). والصيد يزهر(الأسد يزأر)، وربما قالوا: يزمر، يبدلون

[1] ارتشاف الضرب، تحقيق مصطفى النحاس، مطبعة النسر الذهبي، ط1، القاهرة 1984، ج1/ 63.

الهمزة ميما، كما بدلوها في مثل ماكل وماخذ، وما جن. ويقولون: (القرعان) في القرآن، وفقع عينه في (فقأها).

(أو): يظهر من استعمال (أَو) في العامية أن اللفظ مضاد لدلالته في الفصحى، يقال: أو بمعنى قَبِل، وما باشْ للدلالة على الرفض، ومنه: تَاَو والاّ ماتابشْ؟ ونرجح أ، هذا اللفظ من (أو) تطورت دلالته بالتوهم. تقول مثلا: هل جاء فلان؟ فيجيبك المخاطب: (لا، أَو).ومن الواضح أن (أو) يدل على الرفض في هذه الجملة، وأن أصل التركيب: لا، أو أن يجيء. وبكثرة الاستعمال والسرعة في النطق تُوهُمٍّ أن (لا) داخلة على الفعل لنفيه، لا لتوكيده، فقيل: لا أو، ثم: لاَو، وظُنَّ أن أو معناه قَبِل، ولا بي: لم يقبل ونتج عن ذلك دلالة لأو على القَبول، وخاصة إذا قيل التضاد: تَاَو وا لاًّ ما تاباش؟

(أجر): الأجر أو الأجرة: الثواب على العمل، والأجير: العامل بالأجر،بقيت هذه المادة في العامية، ولكن بتخفيف الهمزة، فيقولون في التعزية، عظمت له الاَجْر.واليُجرة: مايأخذه الإنسان على عمله، وهو من إبدال الهمزة ياء.

(أخر): تستعمل المادة (أخر) بصيغ مختلفة في العامية، وصلتها في الفصحى واضحة إلا في كلمة (ساخر) بمعنى (تأخّر) التي هي من استأخرت، خففّت، وحذف بعض حروفها. كما يقال: وخَّر، وموخّر والاخَّر، وتاخِير، وتاخِيرة، وهي صيغ تخضع للقاعدة العامة، وهي الفرار من الهمزة، ومن أمثلتهم تاخير الزمان يكثر الكذب.

(أدى) : يقال في العامية: فلان أَدَّى له ماله في سياقين مختلفين:إمّا أخذ منه ماله ابتزازّاً، و إما أعطاه ماله إحقاقاً. وهذا التضاد ناتج من الحرف(لام الجر). أهو بمعنى(له) أم بمعنى(إليه). فالصحيح: أَدَّى دَيْنه: قضاه، وأدّى الشَيْءَ: أوصله إلى صاحبه، واستأداه مالا: صادره واستخرجه منه. إذن (أَدَّى) في العامية من الأضداد، وهو ناتج عن لبس في الجار والمجرور في العامية لا في الفصحى. ومنهم من يستعمل لفظ(ودّى) بمعنى

أوصل، ويودّى الأمانة (التأثير من القرآن) ولعلها من :ودّاه: أعطاه ديّته. وهي مادة واوية.

(أذن) : يقال يَاذَنْ له من الإذن، ووذْن(الأذن) وفلان وذْني أي يسمع لغيره.فهذا من قلب الهمزة واوا.

(أرك) : يقولون: فلان مْريّك، ومَتريّك بمعنى مِرفه، منعم في حياته، والفعل منه يتَريّك والمصدر التترياك، وهو من (الأريكة). كما يقولون يتمولك من (الملك)، ويتسلطن من (السلطان)، ويتبيّش من (باشا).

(أزر): أزَر به الشَيءُ: أحاط. والإزار: الملحفة، وكل ما يستر الإنسان، ومنه المئزر وتخففه العامية بتسهيل الهمز فيقال: (لِزارْ). وغلب استعماله على الكساء الذي تغطى به أضرحة الأولياء وذوي البركات. ويقال التازيرة (والجمع توازر)، وهي مطلق الثياب، وقد تطلق على البرنس أو القشابية في حال النسج (وهي في النول).ولفظ (الزَّاورة) بمعنى البطانية من الإِزْرة فيها مكاني، (وجمعها زْوُرْ).

(إلى): تستعمل (إلى) بعدة معان، وكثيرا ما تخفّف، فتصير لاما. وقد يراد بها(إنْ)، يقال مثلا: ما تنساش تقول لفلان ما وصيتك به.فنجيبك: إلى جا. بمعنى إن جاء. بدلالتها في الفصحى التي تدل على الشك لا قطع. وتتحد مع كلمات حتى ينسى أصلها مثل (الهَوْن) بمعنى هنا. أي: تعال. وقولك: اللَّهْنا، بمعنى إلى هنا. وقد توسعت الدارجة في الاستعمال، فيقال: الْهِيهْ بمعنى ابتعد، والهَايهة، أي بمعنى إلى هناك، كما يقال: إيه، بمعنى نعم.

(إنا): يقول أحدهم لصاحبه بالدارجة: إنَّايْ لله يا فلان إذا تغير حاله، وتباعدت بينهما الأيام، أو نسيه أو أنكره. والظاهر أن العبارة مختزلة من قوله (إنا لله) بمعنى البقاء والدوام لله.

(بتھ): بَاث وأَباث واستباث بمعنى واحد، وباث المكان بيْثاً: إذا خفر فيه، وخلط فيه تُراباً. وحاثِ باثِ: قُماش الناس أي: أرذالهم. شبّهوهم بفتات الأشياء. وفي العامية

تستعمل في سياق السخرية والتهكم: واش من قماش؟ويريدون حثالة الناس. وقد استحدثت عبارة مرادفة.

وهي: واش من TRAIN جاب الغاشي؟ كما يقال: هذا هو القماش ادِّ وإلاَّ خَلِّ. وتستعمل كلمة (بثون) بزيادة الواو، للدلالة على الارتباك والخلط في الكلام.

(بحح) : البحبوحة: وسط الدار، ومنه بحبح الرجل وتبحبح: تمكّن من البقاء والحلول. وفي العامية يقال: فلان مْفَحْفَحْ وفَحْفوح وهو مْبحبح، والفاء مبدولة من الباء، وهو بحبوح بالمعنى كريم.

(بخس): بخس وبخص متداخلتان في الفصحى، والمادة في الدارجة أقرب في النطق إلى (بخص) مفحمة الصاد. فالبخس في الفصحى النقص، وهو أصل المعنى، وتدل المادة في الدارجة على العار والفضيحة والخزي، وكل ما يخجل منه الإنسان، ويراه منقصة له، من ذلك قوله: بَخْصُه في العرس، وجهه وجه (بخايص). ومن أقوالهم: لون البخص وجه قمير (فرنسا). وتوجد دلالة أخرى دالة على المدح حقيقة أو على سبيل التهكم، يقال: (فلان بخَّاصهم) على سبيل المدح. أو على سبيل العتاب في مثل قولهم: صَحَّيت يا بخَّاصهم .

(برخ) : البرْخ: الكبير الرخص، وبرخ: ذل وخضع، وقيل المادة عمانية أو عبرانية أو سريانية. والبريخة في العامية تعني المغلوب في اللعب. كما يقولون: التمر مْبروخ أي لا أحد يشتري أو يسوم.

(بزع): تبزّع الشر: هاج وتفاقم/ وفي العامية يقال: تَبزغ الماء وغيره من السوائل. وبزّع الحَبَّ. وفلان يبزّع الحديث: لا يكتم الأسرار. وتْبزّعت علية الدنيا، وعنده الخير مبزّع. وقد تكون من مادة (مزع) ومنه مزع القطن أو اللحم، أو هو من (بزع) أي فرق. أو هو من (بصع الماء) بإبدال الصاد زايا، ومعناه رشح قليلا.

(بزق): بزق الأرضَ: بذرها- وقيل هي يمنية- يقال في العامية بزقه أي أسقطه أرضاً، وأعطاه بزقة: ضربه بقوة. وفلان يتبوزق: أي يتحدث من دون إذن جلسائه، فكأنه يقطع حديثهم بحديثه. وهو يلعب البازقة (لعبة الورق) والجامعة يبزقوا معه. وقد

تكون من مادة (مزق) بإبدال الميم باء، فهما كثيرا ما يتبادلان.أو من مادة (بزخ) ظهره بالعصا يبزخه. أو من مادة (شق) الثوب. أو بشكه: قطعه في خفّة.

(بشش): تبشّش به: آنسه، والبشاشة: طلاقة الوجه وحسن الاستقبال. والبشيشة في العامية قطعة اللحم مطلقا أو قطعة القطعة الصغيرة. وبشّش: فتّت اللحم، " وفلان يبشش في لحم خوه" أي يغتابه. ولا نجد هذه الدلالات في مادة (بشّ) الفصيحة إلا على أنواع من التخريج.من ذلك أن اللحم المقدّم إلى الضيف عنوان لحسن استقباله، وللبشاشة في وجهه أو الاستئناس به، أو دليل على أن للضيف جاها وحرمة. ولعلها من مادة (بثّ) بإبدال الشين من الثاء بمعنى فرق ونشر وقطع. ومن هنا تكون البشيشة (البثيثة) هي قطعة اللحم الصغيرة أو فتاتة ثم عمّمت دلالتها، ويحدّد السياق حجمها وجودتها أو رداءتها، أو تكون سميت كذلك لأنها توضع مبثوثو على الجفان.

(بشم): بَشِم من الطعام: أكثر منه حتى اتخم، ويقال في العامية: بشمتْ الصوف: أزالت عنه التلّبد، وما لصق به من حسك قبل تمشيطه وغزله. ويكون ذلك بأن يضغط على قطعة الصوف بسبّابة إحدى يديها وإبهامها، وتجذب بعضها بالأخرى.وهذه الدلالة ليست في (بشم) الفصيحة. إنما في (بزم) بمعنى عضّ بمقدم الفم. وبزم الناقة: حلبها بالسبابة والإبهام فقط. والظاهر أن (بشم) منها على التشبيه والتوسع؛ وبإبدال الشين من الزاي لقرب مخرجيهما.

(بقس): يقولون: نارهُ تبقَس، بمعنى تلمع وتتلألأ، وربّما نطقوها بالصاد، تبقص ومنها القبص، وعود من الحطب مشتعل من أحد طرفيه، وعلى المجاز: فلان عامل كالقبص، بمعنى نحيف ومؤذٍ. وهذه المادة لا توجد في (قبس).ولعلها من (قبس) على القلب المكاني، و إبدال السين صادا. ودليلها قوله تعالى ﴿ **أو قبس من نار**﴾.

(بله): البله والبلاهة: الغفلة وقلة التمييز مع الحمق وقلة التصرف. وفي العامية يقال: الأبله والبهلّي والبهالي والبهلول. ومن أمثلتهم: " اعمل روحك بهلولْ تشبع كسور". أي: تَبالهْ تنلْ عطف الناس وتبلغ ما تريد. ونرجّح أن البهلول من البله تحوّل إلى

(بلهوه) ثم إلى بهلول ومنها أخذ البهلي والبهالي على النسبة والقلب المكاني، وليس من البهلول الذي يعني السيد الجامع لصفات الخير، المرح الضحاك. وإذا كان من هذا فلا بد من التأويل، فيكون الإنسان الخيّر غافلا عن حقّه في نظر الناس.

(بوجادي): يقال: فلان بوجادي لا يعرف حقيقة الشيء، وما زال لم يتعلم صنعته، وفعلها تبوجد، والمصدر تبوجيد، وهم بواجد، وبوجادية، والظاهر أنها من حروف (أبي جاد): أبجد هوز حطي، ومعناها (أميّ) لايعرف الحروف.

والخلاصة أن هذه اللهجة ذات صلة متينة بالعربية الفصحى، وفي قوانينها العامة: الصوتية والمعجمية.وفيها بعض الظواهر التي بقيت من آثار اللهجات العربية القديمة (كالقاف مثلا). وممّا يكون جدير علينا بالذكر أن الإبدال كاد يعمّ جميع الأصوات، فقد اكتفينا بباب الهمزة والباء في هذه المداخلة، ونحيل المستمع الكريم إلى كتابنا:" العامية الجزائرية وصلتها بالعربية الفصحى". ليطّلع على باقي أبواب المعجم. فوجدنا أن الباء تبدل ميما وفاء، وهو من تأثير اللغات الأعجمية كالفارسية، والفرنسية مثلا والتاء كذلك، والراء تبدل ذالا، والشين زايا وغيرها من ضروب الإبدال التي لم تعرفها الفصحى.

" التواصل بالعامية بين الأثر
في التفكير والعجز عن التعبير"

د. أحمد عزوز جامعة وهران.

مقدّمة

تعدّ قضية الفصحى والعامية من القضايا التي أثرت الجدل والمناقشة بين الباحثين المختصين ورجال العلم في المجالات العلمية المختلفة، ولا تزال الأقلام تسيل حولها الحبر وتدعو جهابذة الفكر والدارسين إلى تناولها بالبحث والمعاجلة. ولت بقيت الفصحى واحدة في العالم العربي، ولدى من تعلّمها من الأجانب،فقد تعدّدت العاميات واختلفت من قطر إلى قطر،ومن عاصمة إلى أخرى، بل ومن جهة إلى جهة،فباتت بعيدة عن اللغة الأم في العقود الأخيرة من حيث النطق والتعبير والمفردات بين أفراد الأمّة العربية من مشرقها إلى مغربها، وقد ازدادت تباينا حتّى أنّه - في بعض الأحيان – لا يفهم ولا يفقه عربي من بلد ما يقوله الآخر من بلد آخر. وكانت أعمال الباحثين في هذه المسألة منقسمة إلى:

– البحث في العلاقة بين العامية والفصحى التي تكمن أصولها في الفصحى وتوضيح انحرافها سواء من حيث الأصوات أو المعجم أو التراكيب.

- البحث في تقريب العامية من الفصحى لأنّها ترتبط بها، وأنّها منحدرة منها وكذلك تهذيبها حتى تكون متداولة بين الناس ومفهومة بينهم.

وركّزت هذه الأبحاث على:

– الجانب الصوتي في العامية وكيفية النطق بالأصوات واختلاف مخارجها وصفاتها وموازنتها بالفصحى.

– الجانب المفرداتي وأصوله الفصيحة،وكيف تطورت دلالاتـه عـبر الـزمن وتأثير السياقات المختلفة في ذلك.

1 - إشكالية البحث: لـن نخـوض في القـضايا التـي بحثهـا الدارسـون،و إنّما نتعرّض إلى مسألة ترتبط بجميعها وهي:

– العلاقة بين العامية وتفكير متكلّميها ،وبمعنى آخـر هـل للعاميـة أثـر في التفكير مثلما للفصحى ذلك،إذ من المعروف لدى علماء النفس والتربية والاجتماع أنّ اللغة تؤثّر في عقلية الفرد وتقولبه وفق رؤيتها وتصوّرها للحياة وتصنيفها للواقع.

– وهل العامية قادرة على التعبير عن متطلّبات الحياة مثـل اللغـة الفـصحى، وهل هناك علاقة بينها وبين ما يتواصل به الأفراد اليوم؟

– وهل التواصـل بالعاميـة يـنعكس عـلى التفكـير، وعـلى طـرق اكتـساب الفصحى وهي لغة العلوم والحضارة والفكر والتقنيات.

– وما هي العامية الجديرة بمعرفتها والتركيز عليها؟وهذا السؤال هو جوهر المشكلة في الواقع؟

– وهل العامية - كما هـو حالهـا اليـوم - تـستطيع أن تعـبّر عـن المـشاعر والأحاسـيس وتـصل بـين الأفـراد، وتـؤدّي بهـم إلى التعـاون والتفـاهم والمـشاركة والتعاطف؟

– ثمّ هل الواقع اللغوي ينبئ بضرورة الإسراع لمعالجـة المـشكلة، أو الحـدّ منها على الأقلّ قبل أن يزداد الأمر استفحالا؟وكيف يتم ذلك؟

إنّنا نعتبر العامية ابنا للفصحى، ولد مشوّها ،فأصابه مـن العطـب والمـرض مـا أصاب الأم من الآلام والأمراض المختلفة التي حلّت بها عبر الأزمان والعصور.

"فاللغة العربية التي خرجت منهكة من جرّاء ما تعرّضت لـه مـن مـؤامرات وهجمات شرسة خلال عصر الانحطاط،وما أعقبه من عقود انتداب،لم تحظ بالعناية الكافية لإنهاضها من كبوتها"[1].

فكان من علل ذلك:

- احتكاك الأمة العربية بالشعوب الأعجمية

- احتلال الأجنبي للمنطقة العربية، وهيمنته عليها لفـترة طويلـة، وسـعيه الحثيث لفرض لغته.

- تأثر بعض الأفراد من العرب بلغة الأجنبي، وتخلّيه عن لغته العربية.

- دعوات الأجانب وغـيرهم إلى اعـتماد العامّيـة مـشافهة وكتابـة وتعلـيما لأسباب واهية، وقد أكّـدت دراسـات أنّ هـذه الـدعوة أجنبيـة واسـتعمارية ،فهـذه الدكتورة نفوسة سعيد من الذين رصدوا تاريخ الدعوة إلى العاميـة وآثارهـا في مـصر فقالت:"إنّ مصدر الدعوة إلى العامية أجنبي، كما اتّضح لي من دراسة الكتب الأجنبية التي تناولت اللهجة المصرية،وخاصة منها ما كان في أوائل عهد الاحتلال البريطـاني في مصر"[2].

2 - **شيوع ظاهرة الثنائية اللغوية في اللغات:** يتميّز الواقـع اللغـوي العـربي بثنائية الفصحى النموذجية الراقية التي تتعلّم في المـدارس والجامعـات ومـن الكتـب المختلفة ومن الصور المتعدّدة التـي تحملهـا مثـل التلفزيـون والإذاعـات والـصحافة وغيرها، والعامية التي سيطرت على حياة الأمّة العربية في شـؤونها اليوميـة والعاديـة باعتبارها تستخدمها في أغراضها المختلفة. ولا تخضع العامية لقوانين تضبطها، وقواعد لغوية تحكم عباراتها،لأنّها تلقائية متغيّرة بتغيّر الأجيال، والظروف المحيطة بها، فهي

---

[1] ينظرعاطف جميل عواد،مشاكل الناشئة مع اللغة العربية الفصحى وتصورات حلول لها، مجلة المنطلق، الاتحاد اللبناني للطلبة المسلمين، لبنان،العدد: 78/ 79،سنة:1991،ص:99.

[2] د.نايف معروف،خصائص العربية وطرق تدريسها، ص:57.

ضرب من التحرّر من قيود الإعراب، والميل بأسلوب الكلام والحديث في كلّ اتجاه حيث لا موازين ولا أقيسة ولا حواجز يتمّ الوقوف عندها والتقيد بها. واللغة العامية هي لسان أو لهجة محلية يستعملها عامة الناس مشافهة أو محادثة لقضاء حاجاتهم والتفاهم فيما بينهم. فهي لغة مشوهة وإن كانت تفي بأغراض التواصل في مواقف كثيرة ومقامات اجتماعية متعدّدة. وبذلك اتّسعت دائرتها لكلّ ما استحدثته الحضارة من المفردات المولّدة والمقتبسة في المنزل والحديقة والمتجر والورشة والناس الذين ويؤثرون السهل للتفاهم ويستعملون الشائع. فكل مصطلح يخضع إلى اشتقاق خاص، وكل لفظي أجنبي يصاغ وفق قياس معيّن ودون ضابط ،خاصة وأن الفصحى تعثّرت في استعمال كلمات الحضارة ولما لم تكن الدول العربية صانعة ومبدعة للسلع فهي تستورد وبالتالي قد تتأخر في إبداع المصطلح المناسب للسلعة المعينة. وأصبحت الثنائية اللغوية مصطلحا أساسيا اليوم ومتداولا في علم الاجتماع اللساني. وهي ظاهرة طبيعية عرفتها لغات عالمية كثيرة، ولكن بالنسبة للغة العربية ازدادت في السنوات الأخيرة أكثر من أي وقت مضى بعدا عن الفصحى، فأصبحت ظاهرة تدعو إلى القلق،والتخوّف إذا لم يفكر أبناؤها على اختلاف مستويات مسؤولياتهم لمعالجتها، إذ لم تعد لها تلك المناعة التي كانت لها أيام السيادة العربية، أو حين كان الصراع من أجل التحرّر على أشدّه، لأنّ المعرفة باللغة الفصحى كان شكلا من أشكال المقاومة للأجنبي والمحتل، ولذلك كانت العامية أقل وطأة على الفكر والحالة النفسية على الإنسان العربي من اليوم.

وإذا كان الناس لا يتكلّمون الآن العربية الفصحى وليست لهم فيها الكفاية اللغوية، فإنّهم لا يعجزون عن فهمها، ولو كانوا من بين الأمّيين،والدليل على ذلك المتابعة المتميّزة والمستمرّة للمسلسلات المكسيكية باللغة العربية الفصحى، والمسلسلات التاريخية لعامة الناس كبارا وصغارا، والنشرات الإخبارية في التلفزيون والإذاعات وهي تبث بالعربية الفصحى،ومتابعة الأطفال للرسوم المتحرّكة قبل السن المدرسية وبعدها بل إننا نراهم يحفظون عبارات وكلمات وأساليب ويردّدونها بمناسبة

أوبدونها. وهذا ما يدل على أن المشكلة ليست في الفصحى، وإنّما في نفوس الذين يستقبلونها والذين لا يرغبون تعلمها أو تعليمها أو الحديث بها أو توظيفها والتعوّد عليها في الحياة اليومية. ولكن رغم الدعوات إلى العامية والاستهانة بالفصحى من أبنائها وغيرهم، إلاّ أننا نلفي تأثيرها وتغلبها على اللهجات العامية شيئا فشيئا منذ بدء النهضات الفكرية والقومية،حتى أنّ التقدم في هذا المضمار أصبح يظهر إلى العيان – ويلمس لمس اليدين – وهذا على الرغم من عدم وجود خطة موضوعة لمكافحة العامية ونشر الفصحى بصورة منتظمة فعالة[1]، خاصة وأنّها "استطاعت أن تتغلّب إلى الآن على جميع عوامل البلبلة التي تألّبت عليها خلال عصور الانحطاط الطويلة، فلم تفقد نسغ الحياة،حتّى في عهود حكم الأجنبي القاسي وعصور الاستعمار الخانق"[2]. فأبناءنا يتكلّمون في العلوم الطبيعية والفيزيائية والكيميائية والرياضيات واختصاصات أخرى بالعربية الفصحى، والجراحون يتكلمون في أدق الجراحات بمصطلحات عربية وفي الزراعة والغابات وغيرها. وتشارك في هذه الخطة العلمية جميع الهيئات بعد أن تقتنع بها ليسهل تنفيذها فيما بعد، فتتكفّل بالموضوع بأمانة ومسؤولية ورعاية أكثر مما مضى.

والواقع إن ما بقي في العامية من شيء جميل وانضباط قريب ،فهو من الفصحى قبل أن يتطرّق إليه التشويه، ذلك أنّه كان دائما وعلى مرّ العصور، وفي كلّ اللغات الهدف من وضع القواعد ليتقيّد بها المتكلّمون حتّى تستقيم ألسنتهم حال النطق بها، فلا تنزلق بدخيل أو لحن يفسد سلامة اللغة ويشوّه بيانها، والأمّة تضع القوانين لتسيير شؤون الناس فلا يتخطّوها، ولا يجوز لهم ذلك، بل عليهم أن يحترموها، وإلاّ لماذا توضع تلك القوانين، وهذا شأن اللغات. وقد يقول قائل إن القوانين تتطوّر، فلا أحد ينفي ذلك، ولكن تطويرها لا يعني تدمير المجتمع، وكذلك

[1] ينظر ساطع الحصري،آراء في اللغة والأدب وعلاقتهما بالقومية،ص:49-50.
[2] ساطر الحصري،المرجع السابق،ص:50.

اللغة فهي خاضعة إلى التطوّر، ولكن ليس إلى حد مسخها وتشويهها والقضاء على خصائصها ومميّزاتها [1].

3- مبرّرات دعاة العامية: لقد برّر دعاة العامية دعوتهم بمبررات متعدّدة منها:

- إنّها اللغة الأم التي يرضعها الإنسان منذ صغره، فتترسّخ لديه ملكة التكلّم، فتصبح وسيلة تعبيرية وأداة تفاهم مع أفراد المجتمع،ولذا وجب البقاء على تعلمها والكتابة بها.

- إنّ الطفل حين يدخل المدرسة يجد نفسه أمام لغة لم يسمعها من قبل فيجد صعوبة في تعلّمها لأنها بعيدة عما كان يتكلّم و يتواصل به.

- لقد عبّر الشعراء باللغة العامية عن موضوعات مختلفة، وأغراض متعدّدة مثل الغزل والرثاء والهجاء وغيرها،وكتبت بها قصص وحكايات شعبية،ومعنى ذلك إنّها صالحة للتعبير الأدبي، فإن أردت التعبير عن المعاني الدقيقة السامية كان لا مفرّ لها من الاقتراب من الفصحى.

- إنّ اللغة العامية تعبّر عن واقع المجتمع وعن أغراضه.

والواقع إنّ العامية "أداة طيّعة للتفاهم في المجتمع،ووسيلة ممتازة تكتمل بها الثقافة الوطنية والقومية،فهي تحتوي على مجال هام من التعبير الشفوي"[2]،ولا يجوز الانتقاص من شأنها،ولا يجوز أن نعتبرها لغة صالحة للتعليم والتدريس[3]،فمن أرد التعبير عن المعاني الدقيقة السامية لا مفرّ من الاقتراب من الفصحى. ولكن في حقيقة الأمر إنّ اللغة العربية قد أقامت الحجّة على قدرتها في نشر المعرفة بكلّ أنواعها،من

---

[1] ينظر د.نذير محمد مكتبي، الفصحى في مواجهة التحديات،دار البشائر الإسلامية للطبعة والنشر والتوزيع،ط:1،1991، بيروت، ص: 18،وص:158.

[2] ينظر مصطفى الأشرف، الجزائر:الأمّة والمجتمع،ترجمة د.حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،سنة:1983،ص:432.

[3] ينظر، مصطفى الأشرف،المرجع نفسه،ص:432.

الحرف والصنائع إلى الفلك والرياضيات والفلسفة والطب والألعاب الفكرية كالشطرنج.

4 - **العامية في الجزائر قبل الاحتلال وأثناءه:** يورد أبو القاسم سعد الله مقالا طريفا في كتابه "دراسات في الأدب الجزائري الحديث"، يتحدّث فيه عن أحد الرحّالة الذين زاروا الجزائر بعد ثلاث سنوات من احتلالها، وترجمه من كتاب "رسائل من الجنوب"، لتوماس كامبل، (وهو شاعر ومؤلف اسكتلندي)، فيتحدّث فيه عن الأدب والذوق والثقافة الجزائرية في مطلع القرن التاسع عشر. فيقول:" كلّ الجزائريين يتكلّمون لهجة عربية محلية، رغم أنّهم لا يكتبون باللغة العربية الفصحى إلاّ بعد دراسة وجهد"[(1)]. ويقول:"إنّ نظرة فاحصة إلى الجزائريين تجعلني أعتقد أنّهم يصبحون ذات يوم،شعبا راقيا على مستوى عال في الآداب، والعلوم...إنّ الجزائريين بوجه عام،شعب ذ واجتماعي"[(2)]. إنّ اللهجة التي يتحدث عنها توماس كامبل كانت نقية ،وصافية من الشوائب التي نلحظها اليوم ،ولا تكاد تختلف عن الفصحى إلا من حيث بعض التغيرات التي تطرأ على الأصوات أو النبر أو التركيب أو الإعراب. والأمثلة على ذلك كثيرة، ويكفي أن نقرأ هذه المقطوعة وهي بالعامية لأحد المتصوّفة،وهي بعنوان: "لساني لسانه:

الله أكـــــبر الكـــــبير المتكــــبر	علـــى نفـــسه يـــستحيل العبوديـــة
العبــد اســم بــلا مــسمّى في حقّنــا	يــديره مــن كــان مثلــي بمــشاهدتي
مثلـــه كمثـــل البحـــر والأمـــواج	فهاكـــذا الخـــالق مـــع المخلوقـــات
صـــفاته لا تفـــارق ذاتـــه أبـــدا	ظـــاهره صـــحوي وباطنـــه ســـكرتي
هـــو النـــاطق علـــى لـــساني لـــسانه	لا انفـــصال بـــيني وبـــين الربوبيـــة[(3)].

[(1)] د.أبو القاسم سعد الله،دراسات في الأدب الجزائري الحديث،الدار التونسية للنشر،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،سنة:1985،ط:3،ص:12.

[(2)] د.أبو القاسم سعد الله،دراسات في الأدب الجزائري الحديث،ص:15.

[(3)] ديوان الشيخ قدور بن عاشور الزرهوني،جمع وتحقيق محمد بن عمر الزرهوني،ط:1،سنة:1996،ص:371.

ومثل هذا النماذج في التراث الشعبي العربي والجزائـري كثـير،- ولـيس معـنى هذا إننا ندعو إلى نظم مثل هذا الشعر- ،و إنّما لنوضح أنّ صفاء هذه العاميـة ونقاءهـا وبيانها الواضح وقربها من الفصحى في الواقع المنطوق هو الذي جعل بلا شك كامبـل يصدر أقواله السابقة. ومعنى ذلك إنّ الذي يتلقاها لا يجد صعوبة في تعلـم الفـصحى، لأنّ هذه العامية خرجت من رحمها ، ثمّ أصـابها شـوه كبـير وخلـل فـادح خاصـة في العقود الأخيرة.

5- **أثر اللغة في التفكـير**: لقـد أثبتـت منـذ القـديم الدراسـات صـلة اللغـة بالتفكير، وأثر كلّ منهما في تنمية الآخر، واكتساب الفرد ملكة اللغـة العاميـة منـذ صغره يؤثّر على عقله وعلى رؤيته للواقع وتصنيفه وتحديده لماهيات الأشـياء. ونجـد الفيلسوف الإنجليزي جون لوك(1632 – 1704)(John locke) ربط مشكلة المعرفة بقضايا اللغة حينما قال إذا أردنا أن نفهم طبيعة التفكير والمعرفة ،فلا بدّ قبل ذلك مـن أن نفهم طبيعة اللغة التي بها نفكر ونوصل أفكارنا إلى الغير[1]، ومفاد ذلك أنّ "اللغـة ليست عبارة عن مجموع ما تتضمّنه من مفردات فحسب، بل هي كذلك أداة يـستعين بها الإنسان ليرى الحياة كما رآها الأجداد، ولينشئ لنفسه نمطا من المعيشة مقبولا مـن طرف أبناء قومه[2]،فهل العامية تحمل تلك الرؤية التي حملها الأسلاف فنظروا بها إلى الحياة؟ فكلّ شعب ينطق بلغة معيّنة إنّما يحلّل العالم الخارجي تحلـيلا فريـدا يختلـف عن تحليل غيره من الشعوب التي تنطق بلغات أخرى، ولذلك فالشعب الذي يـرث مـا خلفه الأقدمون من خبر وتجارب في الحيـاة، يـترك بـدوره للأجيـال اللاحقـة طريقـة خاصة في النظر إلى الوجود، وتحليل الواقع وهذا ما ذهـب إليـه جوسـت ترايـر Jost (Trier) حين قال:"إنّ كلّ لغة إنّما هي منظومة تنتقـي مـا تـراه صـالحا للانتقـاء مـن الواقع الموضوعي، فهي تنشئ عن ذلك الواقع صورة كاملة مكتفيـة بـذاتها،وكلّ لغـة

---

[1] ينظر د.حنفـي بـن عيـسى، محاضـرات في علـم الـنفس اللغوي،الـشركة الوطنيـة للنـشر والتوزيـع، الجزائر،ص:31.

[2] ينظر،د.حنفي بن عيسى،المرجع نفسه،ص:36.

تبني الواقع حسب طريقتها الخاصة،وبالتالي فهي تضع عناصر الواقع الخاصة بتلك اللغة...وإذا بحثت عن تلك العناصر في لغة أخرى،فلن تجدها على نفس الصورة من الانتظام، كما أنّ تلك العناصر ليست نسخة مباشرة مأخوذة من الواقع، بل هي على العكس،منبثقة من حيث المبنى اللغوي والمفهوم التصوّري عن نظرة خاصة إلى الواقع"[1]. وممّا يدلّ على ذلك أنّنا لم نسمع بأمّي كتب له الزمان الحصر في لغته العامية وفكرها أن أصبح من عظماء العالم والمفكرين الخالدين، كما "أنّنا لم نسمع من قبل أن من وضع في بيئة تعليمية تتّسم بسلامة اللغة قد أخفق في تعلّم اللغة"[2]، بل إنّ البيئة التعليمية تعطي تعليما فعّالا علميا ولغويا،وتكسب المتعلّم كفاية لغوية وتواصلية تسمحان له بالتعبير وتبليغ ما يريد دون مشقّة وعناء وصعوبة وفي أوضح السبل وأيسرها وبأقصرها. وذلك لأنّ اللغة النموذجية أو العالمة هي التي تطوّر من فكر الفرد وتنمّيه، فكبار الكتّاب يصنعون بالكلمات ما كان يصنعه الملوك القدماء بالنقود إذ يفرضون قيمتها التي يرونها، ويحدّدون سعرها الذي على كلّ فرد أن يقبله وبذلك ينفذ فينا شيء من عقليتهم، أي إنّ عقلية هؤلاء الكتّاب العظماء هي التي تؤثّر في الناس وليست عقلية العامّة. وممّا لا ريب فيه أنّ الكلام الجيّد، والمستقيم الحسن هو أداة جيّدة للتفكير، تؤثّر في عملية التعلّم من خلال الألفاظ الجيّدة والمناسبة لفكرة ما، واستخدام الصفات والنعوت المناسبة لها، فضلا عن المترادفات والقياس، ومن هنا فالمعلّم والمتعلّم كلاهما لا يفكر إلاّ بالكلمات والجمل ، ولا يتكلّم إلا بفكر،ولذلك فالكلام يتعدّى وسيلة نقل الأفكار إلى خلقها وتوليدها وإبداعها[3].
ويبيّن الواقع اللغوي أنّ الفرد ينهل هذه الملكة اللغوية مما تهيئه له المدرسة من تراث جهابذة الفكر والمبدعين العظماء، فيتخّذهم مثلا يحتذى بهم ليحقق المثل الأعلى للغة

---

[1] عن حنفي بن عيسى،محاضرات في علم النفس اللغوي،ص:36-37.

[2] ينظر سميردوجي الفيصل، اللغة العربية الفصيحة في العصر الحديث،منشورات اتحاد الكتاب العرب،سورية،1993،ص:49.

[3] ينظر د.محمد عبد الله عطوات،المعلم واللغة العربية، مجلة التربية،،العدد 150،سنة:2004، الأمانة العامةللجنة الوطنية القطرية للتربية والثقافة والعلوم، دولة قطر،ص:144.

الأدبية والعلمية والنموذجية في صورتها العامة والمشتركة. وتتطوّر ملكة العاميـة في المدرسة من الفصحى التي لها زخم معـرفي وتـراث فكـري ونظـام بنـائي للتراكيـب والجمل، وثراء مفرداتي ومصطلحاتي،أنّا إذا ظلّ غير المتعلّم حبيس فكر اللغة العاميـة في سذاجته وبساطته، فإنّه لا يمكنه أن يبدع إبداعا عالميا وخالدا ومـؤثرا في حـضارة أمّته والأمم الأخرى. وقد سجّل أندريه مارتينيه MARTINET بأنّ الانتقـال في بعـض المواقف اللغوية والاجتماعية من شكل من الكلام إلى آخر لا يمرّ إلاّ تـدريجيا،فحين تغيير سجل الكلمات يعـني تغيـير نظـام لغـوي صـوتي صرفي نحـوي اشـتقاقي، وإنّ الانتقال من لغة إلى أخرى لا يكون دائما فجائيا،ولا يمكن أن يحـدث إلاّ تـدريجيا[1]، ومعنى هذا إن الكفاءة التواصلية تكون ضعيفة مهـما كـان المـستوى اللغـوي الـذي يتميّز به هذا المتكلم.

ومن هنا فإنّ توظيف لغتين مختلفتي النظـام والتركيـب والمعجـم يـدع العقـل ينتقل في لحظة واحدة من نظام لغوي مصنف لواقع معيّن له جهة معينة في الدماغ وله طرق تفكيره وتعبيره إلى نظام لغوي آخر مختلف قد يؤثّر في التفكير وطرق التوصـيل والتبليغ.

وهذا ما يلاحظ في مجال الكتابة أيضا عندما ننتقل مـن خـط عـربي يبـدأ مـن اليمين ويسير بجهاز مفهومي عربي نحو خط آخر يبدأ من اليسار، فتكـون قراءتنـا بجهاز مفهومي آخر، وهذا متعب للعين والعقل معا أثناء البحث عن الكلمات وتـارة لا نفهم شيئا فنضيع الوقت في البحث عن معانيها...

6- **العامية وعجزها عن التعبير**: إنّ المبدأ في أي مجتمع أومدنيـة هـو أن نقـل علوم ومعارف حضارته لا يتمّ إلاّ بأرقى أساليب لغته، ولم يعرف مجتمع نقل فكـره أو حضارته بلغة غيره، أو لغة عامية، علما أنّ اللغة الراقية ذات البيان الواضح تنتج عقلا راقيا وتنمّي فكرا، ولم يتطوّر فكر بلغة بدائية أو عامية، وكـل إنـسان يـسعى إلى أن

(1)Voir Juliette Guermadi,La sociolinguistique.PUF,1édition ;1981 ;France ; P :149.

يرقى عقله إلى الأعلى، فلا يكون له ذلك إلاّ بلغة عالية ونموذجية. ولا ينكر أحد بأنّ العامية واقع أو كيان لغوي لا مفر منه،ولكن التنكر – في الحقيقة – ينصب حول الدعوة إلى تدريسها والتدريس بها، لأنّها ليست المثل الذي يحتذى. فالعامية في البيئة التعليمية وغيرها من البيئات تقضي على التفكير الإبداعي واللغة الصحيحة، وتضعف قدرات التحليل والموازنة والقياس والاستقراء والاستنتاج. وبالتالي فهي لا تستقيم، ولا يمكن أن تستجيب لحاجات التأليف والتدريس والخطابة والشعر والصحافة وغير ذلك، كما أنّها لا تصلح لتوحيد هذه الأمّة والبلوغ بها مراتب الأمم المتقدّمة في المجالات المختلفة[1]. كما أنّ اللهجات المحلّية من الناحية الاجتماعية لا تستعمل في نشر الثقافة والعلوم، ولو فرض التعليم بها لبات بسيطا بدائيا فيبقى الإنسان على فطرته أو في مراحله الأولى، كما يؤدّى ذلك إلى اتساع رقعة التمزّق وازدياد حجم الخلاف والفرقة بين أفراد الأمّة الواحدة. كما أنّه ليس للعامية تحديدات دقيقة للأشياء والمسمّيات أو المصطلحات التي نعبّر بها، وإنّما ما احتوته من ذلك فقد اكتسبته من الفصحى، ويكفي أن نستشهد هنا بالحديث عن ماهية الماء مثلا أو أي مصطلح آخر فلا ندري تعريفا للماء بالعامية ، ولا يمكن أن يكون لها ذلك، وإنّما ما تضمنته فقد اكتسبته من الفصحى، التي تظلّ مرجعيتها وأصلها، وفي حاجة إليها، وهذا ما يدلّ على ضعفها عن التحديد أو التعبير. فإذا أخذنا مصطلح الأوعية مثلا في العامية فإنّنا نلفي كلماتها قليلة وغير دقيقةّ أمّا في الفصحى فنجد ما يلي:" القمطر وعاء الكتب،العيبة وعاء الثياب،المزود وعاء زاد المسافر، الخرج وعاء آلات المسافر، الكنف وعاء أدوات الصانع، الصفن وعاء زاد الراعي وما يحتاج إليه...الحفش وعاء المغازل، القشوة وعاء آلات النفساء.قال الليث هي قفّة يكون فيها طيب المرأة، الجؤنة للعطّر، الصوان للبزّاز [2]"،فهذه السعة من خصائص الفصحى. - أو كذلك في مثل تقسيم أطعمة الدعوات وغيرها فإنّ العامية لا تحتوي على هذا

---

[1] ينظر،د.محمد عبد الله عطوات،المعلم واللغة العربية، مجلة التربية،ص154 -155.

[2] أبو منصور الثعالبي،فقه اللغة وأسرار العربية،منشورات دار مكتبة الحياة،بيروت،ص:169.(البزّاز:بائع الثياب).

التجزيء ممّا يدلّ على ضعفها وقصورها في التعبير فهذا أبو منصور الثعالبي يورد ما يأتي:"طعام الضيف القرى،طعام الدعوة المأدبة،طعام الزائر التحفة،طعام الأملاك الشندخية(عن ابن دريد)،طعام العرس الوليمة،طعام الولادة الخرس،وعند حلق شعر المولود العقيقة،طعام الختان العذيرة(عن الفراء)،طعام المأتم الوضيمة(عن ابن الأعرابي)،طعام القادم من سفر النقيعة،طعام البناء الوكيرة،طعام المتعلّل قبل الغداء السلفة واللهنة،طعام المستعجل قبل إدارك الغداء العجالة،طعام الكرامة القفي والزلة"[1]. ولمّا كانت الفصحى هي أصل العامية، فقد أثبتت ذلك دراسات متعددة سواء من حيث مفرداتها أو بعض صورها أو المعاني أو الأغراض الشعرية أو الإيقاع، وبالتالي فلماذا يبحث عن الفرع ويترك الأصل، خاصة إذا كان الفرع مصابا بكثير من التشويه والفساد،ولا يستقيم في التعبير عن الأغراض والعلوم وما إلى ذلك.

7 - **تجارب الأمم في محاربة العامية:** إذا كانت العامية قادرة على تبليغ المعارف والعلوم والثقافة والتعبير عن الأحاسيس المختلفة بما يشبه الفصحى وهي الأساس في تطوير المجتمع، فلماذا لا يستعملها دعاة العامية في كتابة آرائهم وتسجيل أفكارهم؟ فلعلّهم يعلمون أنّهم "إذا ما حاولوا صياغة أفكارهم بالعامية لما استطاعوا،ولو فعلوا لأخفقوا ووجدوا أنفسهم أمام لغة غثّة تعجز عن التعبير الدقيق والأسلوب المحكم الذي تمتاز به لغة القرآن"[2]. ولا مرية في أنّ الأمّة ليست في حاجة إلى لغة ساذجة بسيطة تقترب من الحياة البدائية، لأنّها تريد أن تؤسّس مجتمعا متطوّرا يمتاز بخصائص التقدّم والازدهار، وبالتالي فهو في حاجة إلى لغة ناضجة دقيقة تصلح لربط قواعد المجتمع وجمع أركانه في بوتقتها[3] .ولذلك كانت اللغة الفصحى هي الوحيدة الصحيحة المشتركة والمفهومة لدى جميع الشعوب العربية، فقد تختلف اللهجات العامية من بلد إلى آخر، لأنّه لا توجد لغة عامية واحدة مفهومة لدى هذه

(1) الثعالبي،فقه وأسرار العربية،ص:170.

(2) ينظر د.نذير محمد مكتبي، الفصحى في مواجهة التحديات،ص:164.

(3) ينظر نذير محمد مكتبي، الفصحى في مواجهة التحديات،،ص:159.

الشعوب مثلما هي اللغة الفصحى، ونسأل هنا – أيضا - بأي لغة عامية سيكتب الكتّاب مثلا حتى يفهم جميع العرب ما يكتب لهم؟

وممّا يجدر ذكره أنّ لكل بلد في العالم – على الأرجح – لغة عامية إلى جانب لغتها الفصحى الرسمية، ونسأل مرّة ثانية لماذا لم توجد الدعوات لاعتماد اللغات العامية في بلدان أخرى غير البلدان العربية؟ بل وجدنا شعوبا كثيرة جنّدت إمكانياتها لمحاربة هذه اللهجات من جهة واستعمال الآليات الضرورية لعدم استخدامها في التعليم والتدريس والكتابة الأدبية والعلمية. فالراهب غريغوار يقول: "لأنّ مبدأ المساواة الذي أقرّته الثورة الفرنسية يقضي بفتح أبواب التوظيف أمام جميع المواطنين،ولكن تسليم زمام الإدارة إلى أشخاص لا يحسنون اللغة القومية يؤدّي إلى محاذير كبيرة. وأمّا ترك هؤلاء خارج ميادين الحكم والإدارة،فيخالف مبدأ المساواة، فيترتّب على الثورة - والحالة هذه – أن تعالج هذه المشكلة بجدّية، وذلك بمحاربة اللهجات،ونشر اللغة الفرنسية الفصيحة بين جميع المواطنين"[1]. ونستشهد هنا – أيضا - برجال الفكر والسياسة في فرنسا الذين لم يقولوا: فلندع الناس يتكلمون باللهجات التي ألفوها،بل قالوا: يجب أن نقضي عليها.

ولم يقل رجال الأدب والقلم: فلنكتب باللهجات الدارجة بين الناس لنشر فكرنا، بل قالوا:لنسع إلى رفع الحوار والكلام إلى مستوى لغة الكتابة والأدب، و إلاّ...لما تقدّمت اللغة الفرنسية تقدّمها المعلوم، ولا كتبت الآثار الكلاسيكية الخالدة، ولا ظهر إلى عالم الوجود شيء من الأدب المعاصر الزاهر[2].

8 - **اقتراحات وآفاق:** والواقع إنّه لا يمكن أن تزال اللهجات بقرارات فوقية تتّخذها الحكومة أو ببيانات تصدرها المجالس التمثيلية والنيابية والعلمية، نعم قد تساعد تلك المجالس كثيرا، ولكن زوال العامية يتطلّب[3] عملا متواصلا يستمر عدّة

[1] ساطع الحصري، آراء في اللغة والأدب وعلاقتهما بالقومية،ص:44.

[2] ينظر ساطع الحصري، آراء في اللغة والأدب وعلاقتهما بالقومية، ص:46.

[3] ينظر ساطع الحصري، آراء في اللغة والأدب،ص:44-45.

أجيال وتسهم فيه هيئات مختلفة، ولذلك دعا مجلس الثورة الفرنسية جميع الناس إلى الاهتمام بهذا الأمر فقد جاء في بيانه: "أيها المواطنون فليدفع كل منكم تسابقا مقدّسا للقضاء على اللهجات في جميع أقطار فرنسا لأنّ تلك اللهجات إنّما هي من بقايا عهود الإقطاع والاستعباد"[1]. ويكون التخلص منها رهن العمل التربوي على إنجاز هدف محاربة اللهجات، وليس التكيف معها أو تقريبها من اللغة الفصحى،ولعلّ الأمر يكون كالآتي:

أ- إعادة الثقة بالفصحى، لأنّها تعبير عن سيادة الأمّة الناطقة بها، فهي لغة رسمية في محافل الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة وليست العامية.

ب - تربية الفرد والمواطن العربي على الشعور والإحساس بقيمة لغته الفصحى ومسؤوليته اتجاها،وأنّه لا حياة كريمة له إلاّ بها،ولا يمكن أن يحيا في لغة أخرى أو بها فهي وعاء شخصيته وحضارته وتاريخه. أن تحافظ المؤسسات التربوية على الفصحى بغرس محبتها في نفوس الأجيال والاعتزاز بها والافتخار بلغة القرآن والعلوم وعلى أنّها أدّت دورها ويمكن أن تؤدّيه بامتياز ثانية إذا وجدت من يعمل لها أو على الأقل من لا يحاربها من أبنائها.

ج – ترسيخ المفهوم العلمي لصلة الفصحى بالعامية بغية التحرر من الأوهام اللغوية والنفسية.

د - توسيع استعمال الفصحى منها، وجعلها لغة المسرح والسنيما والتلفاز، ولا سيما في البرامج الموجّهة إلى الأطفال الصغار الذين يعتمدون إلى حدّ بعيد على السماع في تكوين حافظاتهم اللغوية[2].وكما يقول ابن خلدون:"السمع أبو الملكات اللسانية".

---

[1] ساطع الحصري، المرجع نفسه،ص:44.

[2] عاطف جميل عوّاد،مشاكل الناشئة مع اللغة العربية الفصحى وتصوّرات حلول لها،مجلة المنطلق:ص:105.

كما يمنع هذا في المحطات التلفزيونية، والسؤال المطروح هو هل المحطات الأجنبية والإذاعات تدخل في برامجها اللغة العربية وعامياتها؟ فلماذ نفعل نحن ذلك؟ وفي هذا الصدد فلقد التزم الألمان مثلا اتّجاه لهجاتهم العامية المحلية حين حرموا عليها دنو دخول المدارس والمحاكم ومصالح البريد والنوادي والصحافة والإذاعة، مع العلم أنّ إتقان العربية الفصحى أسهل علينا بكثير من الألمان[1].

و - إنّ للغة العربية تراثا ضخما وغنيا وعريقا وأصيلا في جميع الميادين، المطبوع منه والمنشور،أنفق أجدادنا جهودا جبارة في رفع بنيانه المشمخرّ.

ما تزال تحتفظ مخطوطات بهذا التراث باللغة العربية في متاحف الدنيا، فلو لم تكن له قيمة وفائدة لأحرق وأتلف منذ مدة، وما بقي يحتل المكان والرفوف ويشغل بال كثير من المفكرين والعلماء ،ثمّ من الذي سيستفيد من هذا التراث إذا ضاعت لغته، لأنّ العامية تجمّد العقل فلا تدعه يفكر ويبدع بما هو أسمى في اللغة، ولذا تلعب المؤسسات الإعلامية المختلفة دورا لا يستهان به إما في نشر الفصحى أو تدميرها ونحن نريد أن نحافظ على الفصحى وليس العكس.

ز – جعل اللغات الأجنبية وسيلة نقل العلوم والمعارف من وإلى اللغة العربية ووسيلة تعلّم وأداة تفاهم وحوار مع الحضارات والثقافات وعدم تمكينها الغلبة على حساب اللغة العربية، وعدم إقصاء العربية من مجالات الحياة الإعلامية والإدارية وغيرها، وإحساس كلّ فرد بأنّ تعلمّ اللغة الأجنبية إنّما لإفادة اللغة العربية الفصحى وفكرها وثقافتها وليس للانسلاخ عن الأمّة والتشبّث بقيم ليست منها، وترسيخ في نفوس الأجيال العربية الفصحى بأنّها مكوّن من مكوّنات الشخصية الوطنية والعربية.

---

[1] ينظر سعيد الأفغاني، من حاضر اللغة العربية،دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،بيروت،ط:2،سنة:1971،ص:216.

إنّ هذه المحاولات التي تـستهدف تهـشيم اللغـة العربيـة الفـصحى وإحـلال العامية مكانها، تتوخّى تفسيخ العالم العربي إلى كيانـات سياسـية مـستقلة، متباعـدة اللهجات إلاّ على نحو ما جرى في أروبا التي كانت تتكلّم اللغـة اللاتينيـة، فـاعتماد اللهجة المحلية لغة كتابة وتفاهم يجعل التواصـل صـعبا بـين منـاطق البلـد الواحـد، فكيف إذا كان الأمر يتعلّق ببلدان عربية متباعدة المواقع واللهجات العامية[1]. ولقد رأى جماعة من رجال الثورة الفرنـسية أنّ اللهجـات واللغـات المحليـة، إنّمـا هـي مـن مخلّفات عهود الانحلال والإقطاع، فقالوا بوجوب محاربتها من هذه الوجهة أيضا[2].

وفي النهاية هل نقول ما قاله أبو خلدون ساطع الحصري:فنحن العـرب نفتقـر إلى " لغة" يتفاهم بها جميع الناس، في جميع الأقطار العربية، وما السبيل إلى ذلك؟"[3]، أو ما ذكره محمد عزيز الحبابي:إنّنا أمّة بدون لغة،وهو يقصد بذلك الـردّ عـلى الـدعوة إلى العامية في قوله:"إنّ هذه الدعوة تريد أن تقول بأنّنا أمّة بدون لغة:هل لسنا مقتنعين بها، "سنبقى في وضعنا الغريب المفجع، ما دامت لغة مجامع اللغة والجامعـات تقـترب من لغة القاموس المحيط أكثر منها من لغـة الخبّـاز والجزّار،ودونـما علاقـة بـالمطبخ وغرفة النوم والأزقة أي مـن الحيـاة في مـدّها وجزرهـا، مـن التـاريخ الـذي نـصنعه ويصنعنا، نصارعه يوميا "[4]. ولكن نقول في الأخير لنعط الفرصة للغة العربيـة كـما أعطاها لها التاريخ ول بى كيف سيكون الأمر.

---

[1] ينظر عاطف جميل عواد،مـشاكل الناشـئة مـع اللغـة العربيـة الفـصحى وتـصورات حلـول لها،مجلـة المنطلق،العدد 78/ 79،حزيران 1991،الاتحاد اللبناني للطلبة المسلمين، لبنان،ص:90.

[2] ينظر ساطع الحصري،آراء في اللغة والأدب،ص44.

[3] ساطع الحصري، آراء في اللغة والأدب ص:30

[4] محمد عزيز الحبابي، تأملات في اللغو واللغة،ص:163.

الأصول اللغوية العربية للمثل الشعبي الجزائري:

مقاربة لغوية (*)

أ.د/ سعيدي محمد- جامعة تلمسان

أسعى في هذه الدراسة إلى محاولة إبراز هوية الانتماء اللغوي العربي للمثل الشعبي الجزائري. لقد سلكت في هذه الدراسة مسلكا لغويا مقارنا، حيث حددت متنا متواضعا من الأمثال الشعبية الأكثر انتشارا وشيوعا في المجتمع الجزائري وحاولت متابعة ما يعادلها في التراث العربي القديم من أمثال سجلها العرب القدماء في مصادرهم اللغوية والأدبية والتاريخية. قسمت الدراسة إلى قسمين اثنين :

1 – القسم الأول: دراسة البنية المعجمية للمثل الشعبي الجزائري والمثل العربي الفصيح وذلك من أجل إبراز:

- القيم المعجمية الثابتة في النصين.

- الآليات الصوتية والتركيبية المتغيرة في النصين.

2 – القسم الثاني: دراسة موازنة لمثل شعبي عربي متنوع (المثل الشعبي الجزائري ـ المثل الشعبي المصري ـ المثل الشعبي الفلسطيني...).

يتمثل الهدف الأول والأسمى لهذه الدراسة في إبراز هوية الانتماء اللغوي العربي للمثل الشعبي الجزائري من جهة ، ومن جهة ثانية إبراز الوحدة الأساسية للهجات العربية والتي ظلت محتفظة ومحافظة على أطرها اللغوية كقيمة ثابتة وأساسية والتي تترجم وحدة الفكر الثقافي والاجتماعي العربي ووحدة فلسفته ورؤيته للحياة وللأشياء نخبة وشعبا، شرقا وغربا...

(*) ملخص مداخلة

نحو وعي لغوي : نظرات في مستويات التخاطب بين المجتمعات في الجزائر والعالم العربي

د/ بكري عبد الكريم — جامعة وهران

نود أن ننطلق في هذا البحث مما ظل يذكرنا به أولوا العلم: من أن اللغة ليست مجرد أداة للتعبير فقط، أو قناة بريئة للتواصل، وإنما هي مطية لجملة من الشحنات الفكرية والعاطفية حيث إن سلوك الفرد، وطرق تفكيره، وأهم مكونات شخصيته، إنما يستمدها من اللغة المتداولة في الدوائر الاجتماعية المحيطة به منذ الطفولة إلى مرحلة الرجولة. ومن هنا يأتي الدور البالغ الأهمية الذي ينبغي أن تقوم به الدوائر الإعلامية التعليمية في البلاد العربية لمواجهة هذه الهجمة الشرسة التي تأتينا بطريقة مباشرة وغير مباشرة وفي صور مختلفة ولكنها تتضافر لتخدم في النهاية أهدافا خطط لها ورسمت لها المقاصد المرجوة منها. إن التسابق المذهل الذي يشهده العالم في مجال تقنيات الإعلام قد أدى إلى تسريب وتشريب ما تريد تمكينه فينا هذه الدوائر من رسائل ورؤى وسلوكات وأساليب العيش ومصطلحات وقوالب جاهزة للتعبير والتفكير (وهذا هو بيت القصيد) مما جعل الثقافة الوطنية ترحل وتنسحب وتتخلى تدريجيا عن دارها ومواقعها مكرهة.

جاء في تقرير خاص بمشكلة الثقافة والاتصال أعدته إحدى لجان اليونسكو أن دولا معينة ومتقدمة تكنولوجيا تستعمل امتيازاتها التقنية لممارسة شكل من أشكال السيطرة الثقافية والإيديولوجية تعرض البلاد المستهدفة لخطر فقدانها مقومات الأصالة والهوية(1). والخطر الذي تحدث عنه التقرير يكمن في أن شبكات التلفزيون في معظم البلدان العربية لا تكتفي بالاعتماد على ما يتدفق عليها من برامج تلفزيونية، بل وتقدم البرامج والأفلام باللغة الأجنبية ومن غير أن تترجمها إلى العربية،

---

(1) الثقافة ووسائل نشرها، ص 264، منشورات الأكاديمية الثقافية – بيروت- 2001.

وإذا عرفنا أن حصة كبيرة من البرامج الناطقة بلغة أجنبية موجهة للأطفال والمراهقين أدركنا أبعاد هذه المخاطر التي سوف لا تنتهي عند حد الاستيلاب الثقافي والفكري، بل تمضي لتجعل اللغة العربية مغيبة في كل المجالات الفكرية والثقافية والترفيهية التي توراثتها الأجيال عبر العصور المختلفة.

بهذه النظرة الواعية المستوعبة لمشاكلنا اللغوية الراهنة، نعود والى ما تخبئه لنا العناية الإلهية من أرصدة لغوية في خزائن التاريخ والجغرافيا المشكلين لعالمنا العربي والإسلامي، حيث نجد أننا في العالم العربي أمام وضع لغوي يكاد يكون ظاهرة فريدة على مر التاريخ فاللغة العربية أثبتت بالفعل أنها قد فرضت نفسها كما قلنا في الزمان والمكان وأصبحت لسان مئات الملايين من الشعوب العربية وطائفة معتبرة من الشعوب الإسلامية فشكلت بذلك جسورا متماسكة تتواصل من خلالها الأفراد، والجماعات رغم مر العصور وتقلبات التاريخ وبذلك أصبحت الشعوب العربية تملك كنزا عز على كثير من الشعوب التي تحاول أن تصطنع فيما بينها مثل هذه الروابط لتقريب الفوارق اللسانية والثقافية فيما بينها، وتسهيل وانجاز مشاريع التعاون والتكامل الاقتصادي، ونحن عندما نحاول (من باب الإسقاط التاريخي) أن نستق لأ المعطيات التاريخية والانتروبولوجية نجد أن الشعوب التي كانت تعيش في إطار وحدة جغرافية جامعة نجحت في أن تنسج فيما بينها أصولا، وقواعد لغوية واحدة على الرغم مما كان بينها من فوارق وفواصل لهجية تتقارب تارة إلى درجة الانسجام والتشابه وتختلف تارة إلى درجة لا تبعدها عن قواعدها الأصلية، ولقد لاحظ علماء اللغة وهم يدرسون المسارات اللغوية لتلك المنطقة أنه بقدر ما كان هناك تحرك بطيء تمليه القوانين اللغوية، نحو التفرع إلى لهجات بقدر ما تظافرت عوامل أخرى للتوحيد[1]، لعل أهم هذه العوامل والجوامع قبل الإسلام هو الأسواق التجارية والنوادي الأدبية التي كانت تجمع فطاحل الشعراء والخطباء في المناسبات

---

[1] ينظر كتاب اللغة، ج فندرييس ، ص 236 وما بعدها، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو مصرية – القاهرة-.

التجارية والدينية ثم ما كانت تتميز به لغة قريش من اعتبارات خاصة بين القبائل بكونها لغة التواصل في أداء طقوسهم الدينية وعباداتهم للأصنام، وفي القيام بنشاطاتهم التجارية، وسوف ونحن نقلب صفحات تاريخ هذه اللغة أن صراعها بين التوجه نحو الانزواء والتشعب، وبين السعي نحو التوحد والتماسك ظل مستمرا ومتقلبا مع الأجواء السياسية والاجتماعية.

فعندما نحاول أن نستق لأ الأحداث اللغوية التي وقعت بعد الفتح الإسلامي نجد أن القبائل التي هاجرت إلى البيئات المفتوحة بلهجاتها المختلفة واجهت شعوبا تتكلم بألسنة مختلفة منها القبطي ومنها البربري ومنها الدرزي والفارسي... الخ، حيث تسربت منها بعض الآثار اللغوية والصوتية لتترك بصماتها على تلك اللهجات، غير أنها ظلت محتفظة بأصولها وشكلها العربي في الدلالة والتركيب والتصريف والصيغة والعدد (ماعدا المثنى) ، واسم الإشارة والموصول، والماضي، والمضارع، واسم المفعول، والتذكير والتأنيث (في المفرد خاصة). وهكذا ظلت الشعوب العربية تحافظ على سلامة لهجاتها وعلى صلاتها العائلية الحميمية بالفصحى، وهذا بفضل توفر عوامل التقريب والتوحيد مما أدى إلى بروز لغة تفاهم مشتركة بين القبائل والجهات والبلدان وهي مستمدة أساسا من الفصحى مع اختزال صوتي في نطق بعض الكلمات وتبسيط الصيغ اللغوية ونظام تركيب الجملة والتنازل عن بعض ضوابط التصرف الإعرابي والاحتفاظ بالقواعد الثابتة في مواقع التركيب. ونود أن يستقر في الأذهان – بعد الذي ذكرناه- أن العامل الأساسي والحاسم الذي حافظ على تماسك اللغة العربية وتعايشها مع اللغات المحلية، بحيث أصبحت كالجسد الواحد هو أنها لغة القرآن الكريم الذي كتب الله له الحفظ حيث قال تعالى (إنا نحن نزلنا الذكرى وإن له لحافظون)[1]. فلقد أنزل القرآن الكريم (وهو كتاب الله الخالد الذي لا يتسرب إلى الشك وما ينبغي أن يناله التغيير) لتجسد هذه الوحدة بين اللغات (وحدة لم تلغ لهجات البيئات العربية بل جمعتها في كل يهيمن على الجزء، حيث حوى هذا النص

[1] سورة الحجر، الآية 15.

ألفاظا وتراكيب ممثلة لتلك البيئات اللغوية[1]، من ذلك أن الواحد منهم كان يحس بالفخار والاعتزاز والتقرب إلى الله وهو يتعلم القرآن بلغته العربية التي نزل بها، حيث يقول تعالى ﴿**وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين**﴾ [2] حيث أجمع العلماء على أن كلمة القرآن إنما تنصرف إلى نصه العربي المحفوظ إلى يومنا هذا، وترجمة القرآن إلى لغات أخرى ليست لها أحكامها... وهكذا أصبحت معرفة اللغة أمرا واجبا لأنها من الدين، ولأن فهم الكتاب والسنة فرض لا يفهم إلا بالعربية وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. والذي يرى استباق المسلمين لسماع القرآن وتعلمه وأداء شعائرهم الدينية يدرك في يسر لماذا وكيف أصبحت أسماع وألسنة العرب والمسلمين على اختلاف لهجاتهم ولغاتهم متصلة ومتناغمة مع الفصحى، على الرغم من المحن التي عرفتها اللغة العربية في تاريخها الطويل وعلى الرغم من محاولات التشويه والتمزيق والإبعاد التي تعرض لها التراث العربي الإسلامي.

وإذا كنا قد تحدثنا على استمرار تماسك اللغة العربية في صورتها الكلية ومقاومتها لعوامل الإنحلال والذوبان فإننا نود أن نضيف في هذا الموقع من البحث أن النقاد والأدباء على مر العصور ظلوا يعملون على أن يبقى التواصل قائما بين مستويات الأداء اللغوي بحيث يتم تفصيح العامية وتطويعها وإدراجها في أعمال أدبية، يقول قدامة بن جعفر وهو يفصل القول في الأسلوب الفصيح من جهة وفي الأسلوب المستعمل في الملحون والقصص الشعبي من جهة أخرى " فهذا من سمات الطبقات الحصيفة المثقفة من العلماء والحكماء، وذلك من كلام الرعاع والعوام، إذ أن الحكماء ربما استعملته في خطاب من لا يعرف غيره طلبا لإفهامه، وللفظ السخيف موضع آخر لا يجوز أن يستعمل فيه غيره، وهو حكاية النوادر والمضاحك ... فإنه متى حكاها

(1) ينظر د. بكري عبد الكريم: بين تفصيح العامية وحماية الفصحى، مجلة اللغة العربية، المجلس الأعلى للغة العربية، العدد الثاني،ص 88، 1999.

(2) سورة الشعراء، الآية 26

الإنسان على غير ما قالوه خرجت عن معنى ما أريد بها وبردت عند مستعمليها وإذا حكاها كما سمعها وعلى لفظ قائلها وقعت موقعها وبلغت غاية ما أريد بها "[1] ولقد ذهب الجاحظ مذهب قدامة، حيث يصر على أن الملح والطرائف والنوادر سرعان ما تفقد نكهتها عندما تنقل من ألفاظها العامية إلى الكلمات الفصيحة ودعا بعد ذلك إلى نقلها في صورتها العامية لتضل محتفظة بمتعتها الواقعية وبظلالها البيئية والاجتماعية، يقول: " ومتى سمعت حفظك الله بنادرة من كلام الأعراب فإياك أن تحكيها إلا مع إعرابها، ومخارج ألفاظها، فإنك إن غيرتها بأن تلحن في إعرابها فقدت نكهتها ... وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام وملحة من ملح الحشوة والطغام فإياك أن تستعمل فيها الإعراب، أو أن تتخير لها لفظا حسنا، أو تجعل لها من فيك مخرجا سريا فإن ذلك يفسد الإمتاع ويخرجها من صورتها ومن الذي أريدت له وتذهب استطابتهم إياها واستملاحهم لها"[2].

أدرجنا هذين النصين القديمين الجديدين في توجههما لنصل إلى قناعة مؤداها أن العاميات العربية إذا ارتقت واقتربت أو أدمجت في الفصحى، أصبحت قادرة على تحقيق قدر كبير من التواصل اللغوي بين مختلف الشعوب العربية، أما الظن بأنه سيأتي يوم تسود فيه الفصحى وحدها في الحياة اليومية، وفي الكلام العادي وفي أوقات الاسترخاء والترفيه فهذا وهم قائم على مثالية وليس مؤسسا على قواعد علمية، حيث يجب أن ندرك أن فهم اللغة الفصيحة شيء ومهارات استعمالاتها شيء آخر، فالعربي الأمي عندما يسمع العربية الفصيحة من وسائل الإعلام المسموعة والمرئية فإنه يفهمها، ويستطيع التعبير عن فهمه إياها بصياغة عامية تؤدي بدقة المعنى المراد، ويكفي أن ننظر إلى هذا الإقبال المتزايد من قبل كافة الشعوب العربية بمختلف

---

(1) ينظر د. بكري عبد الكريم: القرآن الكريم وتعليم اللغة العربية، ص 05، مجلة الجامعة الإسلامية، عدد مارس 1994، لندن المملكة المتحدة.

(2) العربية، يوهان فك Johan fuck ، ترجمة محمد أمين ومحمد يوسف، 142-143، دار الكتاب العربي –القاهرة- 1951.

مستوياتها الثقافية على ما يبث في القنوات الفضائية من مسلسلات وأفلام ومسرحيات وبرامج ناطقة في بعضها بالعربية الفصحى لنعلم أن العربي مهما كان مستوى تحصيله العلمي يمتلك رصيدا لغويا فصيحا يمكنه من التجاوب مع مضامين ومعاني هذه النصوص والأعمال الفنية. ولقد ظل التفاعل والتعايش قائما بين الفصحى والعامية على مر العصور، حيث كانت الفصحى تتسامح وتتسع لعبارات عامية لتندرج وتدخل في نسيج الأسلوب الفصيح على نحو ما نقرأه في قصص ألف ليلة وليلة، مثل " فلما رأى الملك شهريار طار عقله من رأسه"، " أنت فرحان وصاحبنا رايح يموت "، " ألف دينار متسبب بها "، "هذا شيخ كبير خرفان"، "أنا تسلطنت ".

وكانت العامية من جهتها تتهذب، وترقى لتقترب أو تلتقي مع الفصيح خصوصا في الشعر الملحون، ويكفي أن ندرس القاموس اللغوي لهذه الألوان الأدبية لنتبين مدى التقارب الذي تحقق في جميع المستويات الدلالية، والنحوية والصرفية، من ذلك هذه الأبيات الشعرية المنسوبة إلى الشيخ عبد الرحمن المجذوب الذي ظل مرجعا أساسيا لدى قطاع كبير من عامة سكان المغرب العربي عند ضرب الأمثلة واستحضار الحكم يقول عبد الرحمن مجذوب مثلا:

يا لايم لا تلومني في وسط الناس   وإذا عينك في الملامة فـرزني

الفضة الصافيـة ولات نـحاس   والثوب الي كان وافي عـراني

****

خفيف لقدام بنمل لوكان وجهه مرايا   قليل لكتاف ينذل لوكان جهده عتايا[1]

حيث نلاحظ أن كل الكلمات والتراكيب المستعملة في هذه الأبيات عربية أصيلة لا أثر فيها لكلمات دخيلة محرفة أو أجنبية مقحمة. ولذلك، وانطلاقا من هذه

---

(1) كتاب القول المأثور من كلام الشيخ عبد الرحمن المجذوب، ص 43، 54، المطبعة الثعالبية –الجزائر– د.ت.

المعطيات والعوامل الإيجابية التي تحيط بلغتنا العربية، فإننا نود أن تتظافر جهود الجميع لكي تظل لغة العامة قريبة غير غريبة عن الفصحى تتولد فيها الكلمات والعبارات التلقائية والعفوية دون الخروج عن القواعد العامة للغة الأم التي ينطلق من رحمها كل إقلاع حضاري أو انطلاق علمي. و إذا كنا لا نقبل أن نبقى بمنأى عما يعرفه العالم من تطورات في التكنولوجيا والاتصال والمعلومات التي تساهم في تدويل الإنتاج المعرفي، فإن ذلك لا ينبغي أن يحجب عنا ما يجب الدعوة إليه من إعادة البناء وترميم كل ما يعزز التماسك فيما بين جميع المستويات من جهة وفي كل الأوطان العربية على الأسس والمرتكزات التي ظل العالم العربي قائما صامدا بفضلها وهي المقومات اللغوية والروحية والفكرية والثقافية. إننا نعتقد أن نقطة الارتكاز التي يقوم عليها أي مشروع نهضوي تتمثل في تطوير اللغة العربية وتطويع الأدوات البيداغوجية والمنهجية لتصبح وعاءا جامعا لمجتمع المعرفة والعلم والإبداع ولكي تكون أداة أو قناة لتحصيل، وتوصيل ما يعرفه العالم من حولنا من ثروات وثورات تكنولوجية. ولست أدري كيف يمكن أن نفكر في إصلاح نظمنا التربوية ومناهجنا التعليمية دون أن نقبل على تهيئة أرصدتنا اللغوية وخلق واقع لغوي حي يمكننا من مسايرة ما يحيط بنا من عوالم معرفية مختلفة، حيث لا يتصور أن ننخرط في نادي المبدعين والمخترعين دون تأصيل لغوي حقيقي لأدواتنا المعرفية والبحثية، ولا يكفي أن تتقن فئة قليلة منا بعض لغات العالم لنضمن أننا قد بلغنا الغاية المنشودة، والتحقنا بمن سبقونا في الميادين العلمية، ذلك أن أهمية اللغة الوطنية في إنتاج المعرفة وفي إشاعة التفكير العلمي لا يدركها إلا من يؤمن بدورها البالغ الأهمية في إنتاج الرموز والمصطلحات العلمية، وأدوات التواصل، والتعاطي مع المستجدات، والمسميات الجديدة وصياغة القوالب اللغوية في المجالات الثقافية والاجتماعية. ونحن نلاحظ كيف أنه لا يكاد يمر يوم واحد دون أن تطالعنا فيه المجلات والنشريات العلمية بمسميات ومصطلحات، وكيف أننا لا نقابلها بما ينبغي القيام به من إرساء مناهج علمية قائمة على الوضوح الفكري المفضي إلى تنشيط التواصل بين العلماء مما يمكن من سرعة التقاط المعرفة و إيجاد القوالب اللازمة وصياغة الأوعية المناسبة لاستقبال

مضامين المعلومات الواردة علينا وبالسلاسة اللغوية التي ينبغي إتباعها عند النقل والترجمة لتتحول هذه الثروات العلمية إلى مواد مكتسبة ساكنة في كياننا المعرفي. ولسنا في حاجة إلى التأكيد على متانة اللغة العربية وقدرتها التعبيرية والاشتقاقية مما يؤهلها لأن تكون لغة العلم والإبداع واحتضان المعارف بمختلف أنواعها، ذلك أن أية لغة مهما أوتيت من القوة والقدرة على الصمود لن تسترد مكانتها إلا عندما تمارس الأدوار التي يفترض أن تقوم بها في حياة الناس. ولقد أصبحنا الآن نؤمن بحقيقة أظهرتها لنا مستجدات العصر، وهي أن التربية لم تعد وحدها القادرة، أو الضامنة لضبط سلوك الأجيال وتنمية القيم الخلقية والروحية فيه، حيث أصبح الإعلام العالمي المعولم هو الذي يعيد صياغة ذهنيات الأجيال بالقالب الذي يريده واللون الذي يختاره.وبما أن هذا الخطاب الإعلامي المعاصر لا تفهم أبعاده إلا بلغة منطوقة أو بعلامة أو صورة أو رموز أو إيحاءات أو إحالات، فإن نظرتنا إلى لغة الخطاب الإعلامي ينبغي أن تتسع وتتعمق، أي أن الأمر يتطلب منا جميعا أن نقف وقفة تحليلية وفهما مختلفا لثقافة الكلمة. - ولقد آن لنا وأمام هذه المعطيات والوقائع المستجدة – أن نفكر في مصير الأجيال القادمة لحمايتها مما يتربص بها من أخطار لا يقف مداها عند المستوى اللغوي و إنما سوف تتعداه إلى تشكيل شخصية الفرد وصياغة سلوكاته. ومما يؤيد ما نذهب إليه ويعطينا صورة عما ينتظر شبابنا من طرق وأساليب لتكريس روح الانهزامية والإحباط والتسليم بكل ما يأتي من الغرب، هذا المثال الذي جاء به أحد المشاركين في ملتقى انعقد في جامعة وهران في الأيام الأخيرة حول: " ترجمة الخطاب الإشهاري" ونص المثال " عيـش La Vie " حيث يبدوا للوهلة الأولى أننا أمام جملة تتشكل من هجين لغوي نصفه عربي والنصف الآخر فرنسي، وأن خطره يكمن فقط في تشويه العبارة اللغوية الفصيحة، وإفساد الذوق اللغوي لدى المتكلم والسامع، غير أننا وجدنا (وهذا تحليلنا الشخ لأ) عند قراءة هذا المثال بتأن وبمنظار سيميولوجي كاشف للمعاني الثانية في المثال أن العبارة تخبئ في بنيتها العميقة دلالات أخرى تترجم في ذهن السامع، حيث إن هذه الجملة توحي للسامع أو القارئ ما مؤداه أن العيش الحقيقي لا يكون إلا في الحياة الفرنسية أو على الطريقة الفرنسية، فقد كان

بالإمكان أن تأتي الجملة هكذا (عيـش حياتـك) ولا تفقد شيئا من أدائها الإعلامي أو بريقها الإشهاري ولكن الإصرار على أن تكون كلمة (الحيــاة) بتعبير فرنسي يجعلنا نعتقد بأن الخطاب ليس بريئا من الوجهة الدلالية والنفسية. هذا مثال من عشرات الأمثلة التي تفرضها علينا آليات العولمة وتعيش معنا داخل بيوتنا مع أسرتنا صباح مساء.

ولقد أصبحت الكلمة البريئة المحايدة (الخـــام) تصنع وتقولب على النحو الذي يريده لها المنتج لتوجه إلى الزبون المتلقي وتبلغه ما تريد تبليغه من إيحاءات ودلالات، يقول علماء النفس اللغوي: إن فعل القراءة والاستماع ما هو إلا عملية لصب المعاني في النص وليس العكس ويصف الأستاذ فرانك سميث FRENK Smith فعل القراءة بأنه عملية تتم وراء الحواس وان الفهم تحدده وتقوده النظرية التي تتشكل لدى القارئ[1]. ومع كل هذه الأوضاع اللغوية الشاذة على العرف اللغوي عندنا فإن الأمل في أن تستعيد العربية (في الجزائر وفي العالم العربي) مجدها وتستدرك ما فاتها مازال قائما، فما زالت نسبة الكلمات الأجنبية وحتى (العاميــة) في الرصيد اللغوي لأطفالنا لا تدعو للخطر، وما زالت الحصيلة اللغوية العربية لسكان المناطق الداخلية والأرياف والصحارى تمثل منجما لغويا ثمينا يمكن الاعتماد عليه في كل تهيئة لغوية. ثم إن عوامل القوة والصلابة والثبات التي ظلت تميز لغة الضاد قد ازدادت تبلورا وتطورا في ظل سهولة إنتاج المعرفة ووفرت وسائل نشرها في العصر الذي نعيش فيه، ولقد أثبتت هذه اللغة أنها تجاوبت مع كل التطورات التقنية والعلمية التي عرفها تاريخ العلوم، ومن بين تلك العوامل:

1- أنها لغة القرآن الكريم كتاب الله الخالد الذي يتلوه نحو مليار وربع المليار مسلم منتشرا في جميع أنحاء العالم وهي اللغة التي لها صبغة القدسية حيث تؤدى بها شعائرهم وصلواتهم.

---

[1] نظرية التلقي: إشكالات وتطبيقات (مجموعة أبحاث)، منشورات كلية الآداب، الرباط

2- أنها اللغة الرسمية والفعلية لاثنين وعشرين دولة عربية فهي بذلك إحدى اللغات الرسمية الأكثر انتشارا في العالم.

3- أنها اللغة المعترف بها في الهيئات الأممية والمؤسسات الدولية (الأمم المتحدة)، اليونسكو ... حيث يعترف بها من بين ست لغات رسمية في العالم.

4- أنها اللغة المتداولة والرسمية للدول المنتجة للطاقة بمختلف أنواعها مما يجبر العاملين في الشركات والمؤسسات الأجنبية على تعلمها لما تمثله من ثقل اقتصادي ومالي.

5- أنها تحتل مكانة مرموقة في شبكات الانترنيت وما زال عدد مستعملي الحاسوب يتزايد باطراد وباستمرار مما يسهل التواصل بين الأفراد والهيئات والجمعيات والمؤسسات العلمية في العالم العربي.

6- أنها من أكثر لغات العالم عراقة وثراء والأجدر بأن تكون المرجع الذي لا غنى عنه في الدراسات المقارنة بين اللغات السامية واللغات الهند أوربية.

7- أنها تدرس باعتبارها لغة الآدب والحضارة والفكر والتاريخ في معظم جامعات العالم.

8- أنها أصبحت لغة إعلام نافذة، لغة الفضائيات والقنوات الناجحة التي أثبتت نجاعتها على المستوى العربي والمستوى الدولي[1].ولقد أدركت الدول الكبرى أهمية العربية في القنوات الفضائية فأنشأت لها في مختلف القارات محطات موزعة في مختلف أنحاء العالم وتبث براجها باللغة العربية. مما يجعل الدول العربية ملزمة (يعد هذا التطور الكبير والانتشار الواسع للإعلام العربي) بأن تسارع إلى تجنيد الكفاءات المختلفة وأن تقيم علاقات تعاون بين مختلف وسائل الإعلام إلى العالم العربي، خصوصا الإعلام المرئي من أجل تعميم لغة عربية مبسطة مشتركة تصاغ بها كل ما ينتج في المحطات التلفزية من حصص علمية، وثقافية، وفنيـة.

[1] يراجع في هذا الموضوع قضايا استعمال اللغة العربية، ص 294، عبد القدر الفاسي الفهري، أكاديمية المملكة المغربية، عدد ماي 2003.

علاقة اللغة العربية بالعاميات (*)

د. أمين الزاوي، المدير العام
للمكتبة الوطنية ـ الجزائر

أبدأ مداخلتي بالحديث عن اللغة العربية في علاقتها بالعاميات، أو اللهجات العامية، وهذا ليس خوفا على اللغة العربية ، فأعتقد أن اللغة التي حملت كتاب الله قادرة على أن تحمل أي شيء أخر من العلوم والمفاهيم والمصطلحات. سنبدأ من منطلق كوني ممارساً للكتابة ومبدعاً باللغة العربية واللغة الفرنسية، لذا ستكون مداخلتي عبارة عن أفكار حول التلوث اللغوي الذي تعرفه البيئة اللغوية. اليوم 6 جوان وهذا اليوم يصادف اليوم العالمي للبيئة، وأنا أعتقد أن البيئة ملوثة واللغة أيضا، وجميل أن نجمع بين حماية البيئة الطبيعية والبيئة اللغوية .

من أين جاء هذا التلوث اللغوي؟ نتطرق لهذا التلوث في النقاط الآتية:

النقطة الأولى: في العهد الاستعماري، أي بعد عصر الكلونيالية ظهرت أنتليجنسيا تعيش بين اللغتين وهذا التزاوج بين الأنتلجنسيا المعربة والأنتلجنسيا المفرنسة، تولد عن هذا الذهاب والإياب خلط لغوي، علما بأنه لا توجد لغة صافية وأن كل اللغات ملوثة.

النقطة الثانية: العشرية الأخيرة، العشرية المعلوماتية، والتدفق الكبير للمصطلحات الجديدة، فكل ماهو تكنولوجي خلق نوعا من الفوضى، نوعا من الزلزالات داخل اللغة العربية، خاصة وأن دولنا دخلت هذا المجال دون تحضير ومعرفة للتكنولوجيا ولا يعتبر هذا الاستعمال إلا استهلاكاً.وهذه الحالة شملت كل الدول العربية والأمر ليس مقتصرا على الجزائر فقط.

وفي ملتقى نظمته المكتبة الوطنية في الأيام القليلة السابقة، مشاركة مصرية في مداخلتها حول "تألية المكتبات" فبدأت تتكلم وهي تستعمل عدة لهجات: المصرية،

العربية الأنجليزية، فأحتار المترجم كيف يترجم هذه المداخلة التي كانت عبارة عن خليط، وهذا دليل على وجود هذا التلوث اللغوي في جميع المناطق العربية ، الجزائر، ومصر، وبلدان الخليج.

ويمكن تلخيص أسباب التلوث اللغوي فيما يلي:

ـ مخلفات الاستعمار؛

ـ التدفق المصطلحي للتكنولوجيات الحديثة؛

ـ اليد العاملة الوافدة، وهذا السبب خاص ببلدان الخليج.

كيف لنا أن نعالج هذا التلوث؟

علينا أن نضع قانوناً للغة الأجنبية لنحمي به اللغة العربية، وتحديد مكانة واضحة للغات الأجنبية، أي لا بد من تقنين هذا الوجود االلغوي لحماية اللغة الأم، لأننا لا نخاف من الخطأ في اللغة العربية بقدر ما نخاف من التلوث اللغوي، ويجب علينا أن نفرق بين التثاقف اللغوي، والتلاغي، والتلوث، هذا الأخير الذي يعتبر اختراقاً فوضاوياً للغة العربية. فالأمة التي لا يقرأ: مهندسوها، وأطباؤها الأدب من رواية، وشعر،...لا يمكنها أن تعيش وتعايش اللغة وقد أشار لذلك سماحة الشيخ عبد الرحمان شيبان، رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في مقال له صدر خلال سنة 1949، "على ضرورة دخول الأدب إلى هذه الشرائح في المجتمع"، وقد نبه إلى ذلك في وقته. وللمكتبات أيضا دور حاسم في الحد من هذا التلوث، فكلما توسع نسيجها كلما حوصر التلوث اللغوي. كذلك إعادة النظر في المجامع اللغوية العربية المتواجدة في دولنا، و إخراجها من النظام الأكاديمي القديم، وربطها بالحقل الثقافي والإبداعي.

والمجلس الأعلى للغة العربية، خرج عن الصورة التقليدية التي كانت في أذهاننا على أنه عبارة عن جمع للمتقاعدين والشيوخ، وقد تحول ببرامجه في منبر حوار الأفكار ومنبر فرسان البيان حيث فتح الباب أمام المهتمين والمثقفين بصفة عامة

والشباب على وجه الخصوص وتشجيعه للمبدعين من خلال الجوائز وفتح المسابقات التنافسية لنشر اللغة العربية، وتنظيفها من الدخيل والقضاء على التلوث اللغوي، وخاصة عندما أصبحت أعماله تنشر وتوزع وهي سنة محمودة ينبغي على باقي المؤسسات أن تحذو حذوه.

(*) المداخلة تم تلخيصها من التسجيل

العربية الفصحى والعامية:

متن اللغة لأحمد رضا (أنموذجا)

د. عبد الرزاق عبيد، عميد كلية

بجامعة الجزائر

اللغة أداة للإبلاغ، ودعامة للتفكير، ووسيلة لتحليل المشاعر، ووعاء للتعبير الفني [1]. وإذا كان بإمكان المرء أن يمتنع عن الأكل والشرب، ليوم وأكثر من يوم، ,أو يمتنع عن السير أو الجلوس لساعات طويلة، فإنه لا يمكنه أن يتوقف عن ممارسة اللغة لحظة واحدة شاء ذلك أو أو. فإن لم يجد المرء من يخاطبه، خاطب نفسه، وتداعت أفكاره ماضيا وحاضرا. واللغة إحدى الأشياء القليلة التي تلازم الإنسان في صحوه ونومه، وحله وترحاله. ولشدة سيطرتها عليه جعل الله سبحانه وتعالى من علامات الإيمان والتوبة: الصومُ عن مخاطبة الآخرين. قال سبحانه وتعالى: ﴿**فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا**﴾ [2]. واللغة بمقدار ما هي فردية وخاصة، فإنها جماعية وعامة، نأتي إلى هذا الكون فنجد اللغة في انتظارنا، وما تفتأ أن تصبح أداتنا الأولى وللجماعة التي ننتمي، تواجهنا في كل مسلك من مسالك حياتنا، وكل كبيرة وصغيرة في معاملاتنا وأعمالنا. تقربنا من غيرنا تارة، وتبعدنا عنهم تارة أخرى. نتعلم بها ونعمل وننتج بواسطتها. تحتفظ بآثار ماضينا، وتنظم حاضرنا، وترسم خطوط مستقبلنا. وهذه الوظائف وغيرها هي التي تجعلها في دينامية دائمة تستجيب لمتطلباتنا الكثيرة، وتكون أكثر من ضرورية لنا. وإذا أحببنا أن نتعرف عن كثب على حياة جماعة لسانية معينة فليس هناك أفضل من مفرداتها لتق لأ أدواتها المادية، وأحداثها الفعلية، وآرائها الفكرية، وتصوراتها

---

[1] مبادئ اللسانيات العامة، أندري مارتيني، ترجمة أحمد الحمو، وزارة التعليم العالي، دمشق، 1404-1405هـ/ 1984-1985م، ص. 13.

[2] سورة مريم، الآية26.

الخيالية، وشعائرها العقائدية [1]. إن المفردات هي الصور الوفية التي تبقى شاهدة على ماضي الجماعة وحاضرها، والخزان الذي لا ينضب للتكفل بكل ما يحتاجه مستقبلنا.

ولم تشذ اللغة العربية عن هذه الانشغالات فكانت المرآة العاكسة لحياة الجماعات العربية من خلال مفرداتها القديمة، وامتداد كلماتها الحاضرة. وكل كلمة من كلماتها تتضمن عنصرا من عناصر محيط أصحابها المادي والمعنوي.

أحسّ أعراب شبه الجزيرة العربية في مرحلة من مراحل حياتهم بالأثر الفعال لهذه الوسيلة التبليغية فأقاموا لها المهرجانات الأدبية، واحتفوا بمن بلغ الشأو فيها، وعلقوها على جدران معابدهم الدينية. وكانت قبيلة من قبائلهم أشد إحساسا بها فتخيرت من مفردات القبائل الأخرى أسهلها ومن أساليبها أسلسها[2]. ومن معظم لسانها تكوّن معيار جديد يتضمن بعض مفردات القبائل الأخرى، وتقلّ فيه آثار اللهجات المحلية الضيقة. وبنزول القرآن الكريم على خاتم الأنبياء والرسل محمد عليه الصلاة والسلام ترسخ هذا المعيار، وتجذّر تبليغا ومعاملات.

---

(1) MATORE, Georges, *La méthode en lexicologie :Domaine français,*Paris, Librairie Marcel Didier, 1953.

Voir aussi : whorf, Benjamin Lee*, Linguistique et anthropologie*, trad/Claude Carm, Paris, Denoel/Ggonthier,1969.

(2) أجمع علماؤنا بكلام العرب، والرواة لأشعارهم، والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهم، أن قريشا أفصح العرب ألسنة، وأصفاهم لغة؛ وذلك أن الله تعالى اختارهم من جميع العرب، واختار منهم محمدا صلى الله عليه وسلم، فجعل قريشا قطّان حرمه، وولاة بيته؛ فكانت وفود العرب من حجّاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج، ويتحاكمون إلى قريش، في دارهم، وكانت قريش، مع فصاحتها وحسن لغاتها، ورقة ألسنتها، إذا أتتهم الوفود من العرب تخيّروا من كلامهم وأشعارهم أحسنُ لغاتهم، وأصفى كلامهم؛ فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى سلائقهم التي طبعوا عليها؛ فصاروا بذلك أفصح العرب" (المزهر في علوم اللغة وأنواعها، جلال الدين السوطي، تح. محمد جاد المولى بك، محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، 1986م، ص. 1/ 210).

ولأسباب أخرى كثيرة وصلنا هذا المعيار في أوج قوته بدءا من العصر الذي يطلق عليه الباحثون: "**العصر الجاهلي**". وهو جاهلي من حيث بعض العادات والتقاليد، وجاهلي من حيث عبادة الواحد الأحد، أما الناحية اللغوية فإن مستوى لغته يكاد يشبه المعجزة [1]، يكفي أنه وسع كلام الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام. وقد أجمع الدارسون القدامى والمعاصرون على تسمية ذلك المستوى: **باللسان العربي** [2] **الفصيح**، أو **اللغة العربية الفصحى** تمييزا له عن المستوى الذي أخذ يتشكل بعد ذلك نتيجة لاحتكاك العرب الأقحاح بغيرهم من الأمم الوافدة عليهم، وارتحال بعضهم لمواطن بلاد العجم.

أما العرب في جاهليتها وصدر إسلامها فللفصاحة معنى آخر لديها لا يمت بأي صلة للغة[3]. وخلافا لما قد يعتقده بعض الناس فقد كان المستوى الفصيح المشار إليه هو عامية ذلك العصر. فكان وسيلة الصبي الغِرِّ [4] والعجوز الدردبيس [5]، وأداة

---

[1] وهذا ابن جني العالم اللغوي الفذ يقف مشدوها أمام اتساق هذه اللغة واكتمالها. يقول: "إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة، الكريمة اللطيفة، وجدت فيها من الحكمة والدقة ، والإرهاف، والرقة، ما يملك علي جانب الفكر، حتى يكاد يطمح به أمام غلوة السحر" الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تح. محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، 1952، ص. 1/ 47.

[2] وغالبا ما يقابل اللسان العربي في الجاهلية وصدر الإسلام باللسان الأعجمي. من ذلك مثلا الآية الكريمة: لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي سورة النحل، الآية 103.

[3] "أفصح اللبن: ذهب اللبأُ عنه؛ والمفصح من اللبن كذلك. وفصح اللبن إذا أُخذت عنه الرغوة؛ قال نضلة السُّلميّ:

(... وَتَحْتَ الرَّغْوَةِ اللَّبَنُ الْفَصِيحُ). لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت، 1374هـ-1955م/ 1412هـ-1992م، باب الحاء، فصل الفاء.

[4] "قال ابن دريد في أماليه: أخبرنا عبد الرحمن عن عمّه الأصمعي قال: سمعت صِبْية بحِمَى ضَرِيَّة يتراجزون، فوقفت وصدّوني عن حاجتي، وأقبلت أكتب ما أسمع إذ أقبل شيخٌ فقال: أتكتب كلام هؤلاء الأقزام الأدناع" ، المزهر، السيوطي، ص. 1/ 140.

[5] "ومن أمثلة ما رُوِيَ في هذا الفنّ عن النساء والعبيد، ما رواه أبو زيد في نوادره. قال: قلت لأعرابية بالعيُون ابنة مائة سنة: مالك لا تأتين أهل الزقة؟ فقالت: إني أخْزى أن أمشي في الزّقاق: أي أستحي" نفسه، ص. 1/ 139.

الشاعر الكافر [1] والخطيب المفلق، والرعاع وعامة الناس، وغاية العقلاء والحكماء، وحتى المجانين والمعتوهين [2]. وصفات لأفراد من هذا القبيل، وطبقات اجتماعية كهذه من شأنها أن تجعلنا أمام لهجات مختلفة الأداءات[3]، متفاوتة المستويات [4]؛ أولاها لغة القرآن الكريم [5] وحديث نبيه عليه أز ة السلام[6]، وأخراها ما نحت إليه بالتدرج نحو العاميات سنة تلو السنة إلى أيامنا هذه. عاميات لم تفلح معها محاولات المعياريين[7] في ردّ

---

[1] "قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام في فتاويه: اعتمد في العربية على أشعار العرب وهم كُفَّار؛ لبعد التدليس فيها" نفسه، ص. 1/ 140.

[2] "وكذلك لم أرهم توقّوا أشعار المجانين من العرب؛ بل رووها واحتجوا بها؛ وكتب أئمة اللغة والنحو مشحونة بالاستشهاد بأشعار قيس بن ذريح مجنون ليلى" نفسه، ص. 1/ 140.

[3] "اختلاف لغات العرب من وجوه: أحدها: الاختلاف في الحركات كقولنا: نَسْتعين ونِسْتعين بفتح النون وكسرها. قال الفرّاء : "هي مفتوحة في لغة قيس وأسد، وغيرهم يقولونها بكسر النون"(...) ووجه آخر: وهو الاختلاف في إبدال الحروف، نحو: أولئك وألالك (...) ومنها الاختلاف في الحذف والإثبات، نحو: استحييت واستحيت..." أنظر بقية الاختلافات في: الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، أحمد ابن فارس، إشراف بلاشير رجيس، جبور عبد النور، تح: مصطفى الشويمي، بيروت، مؤسسة بدران للطباعة واالنشر، 1982م ص ص. 48- 51.

[4] "قال ثعلب في أماليه: ارتفعت قريشٌ في الفصاحة عن عنعنة تميم، وتلتلة بهراء، وكسكسة ربيعة، وكشكشة هوازن، وتضجع قريش، وعجرفية ضبة، وفسّر تلتلة بهراء بكسر أوائل الأفعال المضارعة". المزهر، السيوطي، ص.1/ 211.

[5] "فإن قال قائل: فهل يوجد في سنن العرب ونظومها ما يجري هذا المجرى؟ قيل له: إن كلام الله –جل ثناؤه– أعلى وأرفع من أن يضاها أو يقابل أو يعارض به كلام، وكيف لا يكون كذلك وهو كلام العلي الأعلى خالق كل لغة ولسان؟" الصاحبي، ابن فارس، ص.41.

[6] "روى البيهقي في شعب الإيمان عن محمد بن إبراهيم بن الحرث التيمي: أن رجلا قال: يا رسول الله؛ ما أفصحك! فما رأينا الذي هو أعرب منك. قال: حق لي، فإنما أنزل القرآن عليّ بلسانٍ عربي مبين" المزهر، السيوطي، ص. 1/ 209.

[7] محاولات تمثلت في تأليف المعاجم ، والكتب قديما، والدوريات، والأفلام والمسرحيات وغيرها حديثا. نشير فيها على سبيل المثال للقائمة الطويلة من المعاجم القديمة التي ذكر منها أحمد الشرقاوي 116مؤلفا. منها: لحن العوام، للكسائي، البهي فيما تلحن فيه العامة أو البهاء فيما تلحن فيه العامة، للفرّاء، ما تلحن فيه العامة، لأبي عبيدة، ما تلحن فيه العامة للأصمعي، ما خالفت فيه العامة لغات العرب، للباهلي ...الخ. أنظر عناوين بقية المعاجم بالتفصيل في: معجم المعاجم، أحمد الشرقاوي إقبال، دار الغرب الإسلامي، د.م، 1987م، ص ص.66- 89.

المستعملين للمثال الأول منذ أول لحن سمع[1] إلى آخر ما نشهده اليوم. ويعد هذا التفاوت سببا[2] رئيسا من أسباب انقسامها إلى مستويين سوف يلازمانها باستمرار، وسوف يتخصص كل مستوى منهما بوظيفة محددة في المجتمع:

1) **المستوى المعياري الفصيح**: الذي يقتصر على الخاصة، ويتميز بثراء المصطلحات والمفاهيم المجردة، وهو وسيلة الاستعمال في المحافل الرسمية والعلمية والإعلامية، وفوق هذا منهج العبادات والشعائر الدينية للمسلمين. كما يتميز بمراعاة الأحكام اللغوية الفصيحة من إعراب وصرف وأساليب على غرار الأساليب الأولى، واختيار المفردات المناسبة لسياق المقامات، وبحكم هذه الوظيفة تفرض العربية الفصحى نفسها على الجميع وتستمر في البقاء محافظة على مقامها السامي في نظر عامة الناس وخاصتها، ومحاطة بكثير من التقدير والإجلال.

2) **المستوى العامي**: الذي يتخذه السواد الأعظم من أفراد المجتمع المعاصر وسيلة للتبليغ وقضاء الحاجات اليومية[3]، ويتميز بالتحرر من الأحكام الإعرابية

---

[1] "أول ما سمع ذلك في الحركات الإعرابية زمن خلافة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، على ما جاء في طبقات ابن الأنباري؛ وذلك أنه قدم أعرابي في زمن خلافته فقال: "من يقرئني شيئا مما أنزل على محمد؟" فأقرأه رجل سورة براءة وقال: "إن الله بريء من المشركين ورسولِه" بالجر، فقال الأعرابي: "أو قد برئ الله من رسوله؟ إن يكن الله بريء منه فأنا أبرأ منه!" فبلغ ذلك عمر فدعاه وقال له: أتبرأ من رسول الله يا أعرابي؟ فقال: يا أمير المؤمنين إني قدمت المدينة ولا علم لي بالقرآن، فسألت: "من يقرئني؟" فأقرأني هذا سورة براءة فقال: "إن الله بريء من المشركين ورسولِه" فقلت: "أوقد برئ الله من رسوله؟ إن يكن الله بريء منه فأنا أبرأ منه!" فقال عمر: "ليس هذا يا أعرابي". فقال: "كيف يا أمير المؤمنين؟" قال عمر: "إن الله بريء من المشركين ورسولُه" ورفع رسوله، فقال الأعرابي: وأنا أبرأ ممن برئ الله ورسولُه منهم. فأمر عمر أن لا يقرئ القرآن إلاّ عالم باللغة". الشيخ أحمد رضا، متن اللغة: المقدمة، ص. 53.

[2] وهناك أسباب أخرى كثيرة كالاحتكاك، واختلاف الأمصار والجهات الجغرافية، وصراع الأجيال، والقياس الخاطئ، والحذلقة وغيرها من العوامل الأخرى. لمزيد من المعلومات أنظر: التطور اللغوي: مظاهره وعلله وقوانينه، رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة–دار الرفاعي بالرياض، 1404هـ–1983م.

[3] "لغة التفاهم" كما يسميها يوهان فك، ويصفها بكونها: بسطت "المحصول الصوتي، وصوغ القوالب اللغوية، ونظام تركيب الجملة، ومحيط المفردات، وتنازلت عن التصرف الإعرابي، واستغنت بذلك عن مراعاة أحوال=

والصرفية الصارمة، وبروز الآثار اللهجية الجهوية إلى حدّ اللكنة والإسفاف والابتذال أحيانا، وبالافتقار إلى المصطلحات العلمية والمفاهيم الفكرية المجردة، ويتكفل بقليل من المجالات الأدبية؛ كالمسرحيات والأغاني الشعبية على وجه الخصوص.

ومع هذا فقد تلازم المستويان وتعايشا في جميع المراحل الماضية التي مرت بها المجتمعات العربية. وتبين أنه من الصعب إنكار وجود العربية الفصحى بنسب معينة في جميع العصور، كما تبينت صعوبة إنكار العامية بنسب معينة كذلك ووجودها كحقيقة واقعية.

إننا لا ننظر إلى أي مستوى من هذين المستويين نظرة تقييمية معيارية وإنما نحاول أن ننظر إليهما نظرة مجردة وموضوعية، وهذه النظرة هي التي تجعلنا نقول إن بعض الميادين لا تكاد تصلح لها إلا العربية الفصحى، وأخرى تكاد تقتصر على العامية. ومن الميادين التي كادت تقتصر على الفصحى بمفردها إلى جانب ما أسلفنا ميدان: صناعة المعاجم وهو موضوع حديثنا.

لقد عرفت الحياة اللغوية العربية نهضة في تأليف المعاجم اللغوية لم تعرفها كثير من الأمم. ولا أدل على ذلك من العدد الذي أحصاه أحمد الشرقاوي إقبال والمقدر بما يزيد عن ألف ونصف ألف من المعاجم التراثية وحدها (1500) [1]. معاجم متفاوتة الأحجام، ومتعددة الموضوعات. وإذا أضفنا لها العدد الهائل من المعاجم الحديثة التي تبدأ مع تلاميذ الطور الابتدائي وتنتهي لدى الجامعيين والمتخصصين فإن الحصيلة سوف تكون بالآلاف.

=الكلمة وتصريفها، كما ضحت بالفرق بين الأجناس النحوية" العربية: دراسات في اللغة واللهجات والأساليب، يوهان فك، تر: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بمصر-دار الرفاعي بالرياض، 1404هـ-1983م، ص. 20.

[1] معجم المعاجم، أحمد الشرقاوي إقبال، دار الغرب الإسلامي، د.ت، 1407هـ-1987م.

ولعل أهم ملاحظة يمكن تدوينها على هذه المعاجم هي غلبة المستوى الفصيح عليها والسكوت على المستوى العامي إلاّ استحياء. فمن جهة نجد مادة غزيرة للعاميات في الكتب المؤلفة قديما وحديثا [1]، ومن جهة أخرى لا نكاد نجد لتلك الألفاظ ذكرا في المعاجم المتزامنة معها أو التي جاءت بعدها. وهذا ما يفوت على الباحثين جوانب هامة كثيرة تتعلق بحياة المجتمعات ومحيطها المادي والمعنوي وبكل مرحلة من المراحل التاريخية. ولم يتنبه لهذه الثروة الفكرية الهامة من المعجميين إلاّ القليل. ويأتي على رأسهم من المعاصرين الشيخ أحمد رضا صاحب معجم: "متن اللغة".

وأهمية هذا المعجم تكمن في كونه معجما موسوعيا يتكون من خمسة مجلدات كبيرة [2] حاول فيها الشيخ أحمد رضا أن يضمنها عربية الماضي، وشيئا من عامية الحاضر في أيامه.

---

[1] نذكر منها على سبيل المثال وليس الحصر : بخلاء الجاحظ، وألف ليلة وليلة، والسير، وكتب الأغاني في وقتنا الحاضر وغيرها.

[2] يضم المجلد الأول: (609 صفحة)، خصص منها صاحبه 130 صفحة لمعالجة القضايا التالية:

* تصدير، 6 – 8.
* ترجمة حياة المؤلف، 9 – 12.
* مقدم المؤلف (مولد اللغة) 13 – 30.
* اللغة العربية ونشأتها، 31 – 54.
* الحركات الإعرابية في اللغة العربية، 55 – 63.
* من أوهام الأعلام، 64 – 71.
* ترتيب الكتاب، 72 _ 78.
* المصادر القياسية للأفعال المزيد، 79.
* الرموز الواردة في الكتاب، 80 _ 81.
* المقادير عند العرب، 82.
* الأوزان، 83. المقاييس، 84.
* جدول الأوزان والمكاييل، 85 _ 87. =

المجلد الأول:

يتكون من 479 صفحة، عدد الكلمات العامية فيه حوالي 350. ويبدأ بحرف الألف، وينتهي في حرف الجيم.

المجلد الثاني:

يتكون من 689 صفحة، عدد الكلمات العامية فيه حوالي 340، ويبدأ بحرف الحاء، وينتهي في حرف الراء.

المجلد الثالث:

يتكون من 671 صفحة، ويضم بين دفتيه حوالي 410 كلمة عامية. ويبدأ بحرف الزاي وينتهي بحرف الظاء.

المجلد الرابع:

يتكون من 688 صفحة، ويضم حوالي 440 كلمة عامية. ويبدأ بحرف العين وينتهي بحرف القاف.

= * جدول المساحة، 88.
* جدول الموازين النسبية بينها محولة إلى الغرامات، 89.
* الكلمات الطارئة على اللغة، 90.
* ماعربه المؤلف الشيخ أحمد رضا، 91 _ 99.
* ما عربه مجمع اللغة العربية الملكي بمصر، 100 _ 113.
* ما عربه المجمع العربي بدمشق، 114 _ 120.
* ما عربه مجمع مصر الأول، 121.
* ما عربه المجمع الثاني المصري في نادي دار العلوم سنة 1910، 122 _ 126.
* أوضاع نشرها أحمد تيمور اللغوي المصري، 126 – 127.
8 أوضاع الأب أنستاس الكرملي، 128 _ 130.

المجلد الخامس:

يتكون من 843 صفحة، ويضم حوالي 370 كلمة عامية. ويبدأ بحرف الكاف وينتهي بحرف الياء.

وبجمع هذه الأعداد نتحصل على حوالي 1910 كلمة من العامية. إن هذا العدد يعد قليلا إذا قورن بالكلمات العربية الفصيحة التي تضمنتها مجلدات هذا السفر الضخم. ومع ذلك فإن هذا العدد القليل يعطينا صورة واضحة عن خصائص الكلمات العامية، والفروق التي تتميز بها عن الكلمات الفصيحة. فروق تتمثل بداهة في التحريف، والدلالة، والأصوات، والصيغ الصرفية من جهة، ومن جهة أخرى جوانب تتمثل في القلب والإبدال، والنحت والدخيل، والإشارة إلى كثير من عاميات الوطن العربي.

ولعل السؤال الذي يطرح في هذا المقام هو: ماذا اختار الشيخ أحمد رضا من الكلمات العامية، وماذا ترك؟ الظاهر أنه اختار الكلمات التي لها صلة ما بالفصحى، وإن اختلفت عنها في جانب من الجوانب. وكأننا به يريد أن يثبت أن العامية المعاصرة لم تقطع كل صلة بالعربية الفصحى، وإذا عرفنا هذه الفروق سهل علينا إصلاح ما عطب. وله في الإشارة إلى ذلك مجموعة من العبارات الجاهزة مثل: "والعامة تقول:..."، و"تسميه العامة:..."، و"يسمى عند العامة:..."، وقد تكون الكلمة من عامية وطن آخر من الوطن العربي فيشير إليها بعبارة: "ويعرف في..."، أو "ويقال لها في..."، ووجدناه أحيانا يجتهد في تقريب كلمة عامية من كلمة فصيحة باحثا لها عن مخرج يخرجها به فيقول: "أحسب أنها المسماة في..."، أو "ولا يبعد أن تكون محرفة من...".

وسوف نتعرض في الصفحات القادمة بشواهد توضيحية لعدد من الحالات التي يستشف منها اختيار الشيخ أحمد رضا لنوع الكلمات العامية التي رأى مكانها في متنه. ونظرا للمساحة المخصصة لهذا البحث سوف نقتصر على الشاهد والشاهدين

وذلك لأن المقام مقام تلخيص وليس مقام بسط. وستكون على شكل مقارنة بين ما هو فصيح، وما هو عامي، مبينين في كل مرة علاقة الفصيح بالعامي.

اختلاف الدال، والمدلول واحد بإبدال حرف مكان حرف.

الإبدال ظاهرة معروفة في اللغة العربية الفصحى، فقالوا: الصقر بالصاد، كما قالوا: السقر بالسين، والزقر بالزاي. وعلى غرار ذلك جاء في متن اللغة:

أَجَّ ـِ النارُ: سمع صوت لهيبها. (والعامة تقول وجَّ على البدل).

أَرَّشَ بين القوم: أغرى وأفسد. (والعامة تقول حرّش وهي فصيحة).

البُخْنُقُ: خِرقة تنتفع بها الجارية فتشد طرفيها تحت حنكها لتقي الخمار من الدهن وتقي الدهن من الغبار. (والعامة تقول البشنقة والبشنوقة بإبدال الخاء شينا، وقد ذكرها التاج في مستدرك بشق وتسمي العامة بخنقا العقد الذي ينتظم فيُلبس حول العنق).

اختلاف الدال، والمدلول واحد دون إبدال:

وهذه أكثر من أن تحصى في المتن. ومنها:

الأتوم: السُّفرة من خوص ينخل عليها الدقيق. (وهي المعروفة عند العامة بالمنخلة).

الأَرنَة: الجـ ـة الرطب. وأرى إطلاقها على ما يعرف في لبنان بالقريشة. (تعرف في جبل عامل باسم القريشة الحلوة).

المبَاءة:... بيت النحل في الجبل (والعامة عندنا تسميه مارد النحل، والنحل الذي يسكنه مارود أيضا لتمرده عن تناول العسّالين).

الإبدال والتحريف:

وهو أن يبدل حرفا من حروف الكلمة الفصيحة بحرف آخر في الكلمة العامية، وتحرف الصيغة الصرفية أيضا. ومنه في المتن:

الأَوْنُ: مصدر بمعنى الدعة والرفق والمشي الرويد: واحد الأونين وهما العِدلان يعكنان وهما جانبا الخرج: الخاصرتان. (والعامة تبدل وتحرف فتقول عَينة الخرج لأونه).

القلب بين الفصحى والعامية:

الحِجْرُ من الإنسان: حضنه: ما بين يديه من ثوبه. (عامتنا تقلب وتقول له: حِرْج).

حادله: راوغه؛ عن الأزهري. (تقول العامة: دَحَل وحَدَل بالأمر إذا عالجه كثيرا...).

اختلاف المدلول، والدال واحد.

وهو أن يكون شكل الكلمة واحد بين الفصيح والعامي، مع اختلاف في المعنى بينهما. ومنه:

أَحْأَحَ: أكثر من قول يا أحاحُ. (أحأح عند العامة سعل سعالا خفيفا).

اختلاف الدال، واختلاف المدلول:

وهو أن يقع إبدال في شكل الكلمة الفصيحة والعامية مع اختلاف المعنيين، إضافة وجود كلمة أخرى في الفصحى مساوية لدلالة الكلمة العامية. وكثاله في المتن:

أَبَطَهُ أَبْطًا الله: هَبَطهُ. (والعامة تقول: عبطه إذا ضمه إلى صدره وأحاطه بساعده وحمله. وأصلها بالهمزة فأبدلوها عينا، وكثيرا ما يفعلون ذلك. وفصيحها احتضنه).

حذف الهمزة وتسهيلها:

ظاهرة تسهيل الهمزة قديمة في اللغة العربية،ومن القبائل ما كانت تسهل الهمزة كقريش، ومنها ما كانت تحققها كتميم. (سال/سأل)، (الذيب/الذئب).

الأَوْج: العُلُوُّ: (والعامة تقول: اللوج مخففة من الأوج بحذف الهمزة).

بَأَشَهُ: صرعه غفلة. (سهلت العامة الهمزة فقالت: باشه يبوشه بوشا ثم هجر هذا كله وبقي منه بوشا على غفلة بمعنى بغتة).

زيادة حرف على الأصل:

وكما تخفف العامة بعض الكلمات بحذف حرف منها، فقد تضيف إليها حرفا وتراعي المعنى نفسه. من ذلك:

البَتُّ: ضرب من الطيالسة يسمّى الساج مربع غليظ أخضر من وبر، أو صوف، أو خزّ. (أحسب أن منه البشت عند العامة، وهو جبة قصيرة الأكمام غليظة لا يتجاوز طولها الركبتين تتخذ من صوف أو وبر يلبسها رعاة المواشي).

النحت:

قال ابن فارس في "فقه اللغة": "العرب تنحت من كلمتين كلمة واحدة، وهي جنس من الاختصار؛ وذلك "رجل عبشمي" منسوب إلى اسمين"([1]). وعلى غراره جاء في المتن:

الأَوَّل:...وتقول بالإضافة: لقيته عام الأوّل، وهو قليل ولكنه شائع عند العامة ومنعه ابن السكيت. (تنحتها العامة بكلمة واحدة تقول: عملوَّل أي عام الأوّل).

جاء به: أ 7 به. (والعامة تقول في جاء به: جابه على حذف الهمزة وجعل الكلمتين كلمة واحدة. والأمر عندهم جيب أي جئ به).

---

(1) المزهر، السيوطي، 1/ 482.

توسيع المعنى من الخاص إلى العام:

التوسع في المعنى من الخاص إلى العام ظاهرة معروفة في كل اللغات تقريبا، وقد تكون الكلمة ضيقة المعنى مقتصرة على صفة واحدة فتصبح بعد مدة واسعة تدل على النوع بأكمله. من ذلك "الطعام، وكان يطلق على البرّ خاصة وصار يطلق على كل ما يساغ حتى الماء. "قال الخليل: العالي(أو الغالب) من كلام العرب أن الطعام هو البرّ"[1]. وعلى شاكلة هذا صنعت العامة. جاء في المتن:

البِذْلَةُ: ما لا يصان من الثياب: الثوب الخلق. (العامة تقول بذْلة ويريدون بها ما يلبسه المرء من الثياب الكاملة للبسة واحدة من قباء وسراويل وقميص سواء في ذلك أكانت مما يصان أو لا يصان).

تضييق المعنى من العام إلى الخاص:

وعلى خلاف ما رأينا في النقطة الفارطة هناك كلمات كان معناها جليلا فتدنت ومثال ذلك "كلمة "الحاجب" التي كانت تعني في الدولة الأندلسية "رئيس الوزراء" ثم صارت على النحو المألوف الآن"[2]. وقد ترتبط بموقف عام وتتحول بعد مدة لاستعمال واحد ضيق لا تتعداه.

البُلَعُ: المرأة تبلع كلّ شيء، وهي بُلَعَةٌ. (والعامة في الشام تقول في الشتم للمرأة: يا بلاّعة يا شلاعة).

العامي الفصيح:

وهناك الكثير من الكلمات الفصيحة التي تستعملها العامة في مخاطبتها اليومية، ولشدة دورانها على الألسن صارت كأنها عامية. وهي كثيرة سواء على مستوى منطقة الشام، أو على المستوى المحلي الضيق كجبل عامل. ومنها في المتن:

---

[1] متن اللغة، الشيخ أحمد رضا، مادة: (ط ع م).

[2] دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط.5، 1984م،ص.140.

خاش الرجل: دخل في غمار الناس. (والعامة تقول: خشّ وهو فصيح لا غبار عليه).

من العامي الشامي الفصيح:

المَجْزِر والمِجْزِر: موضع الجَزْر. (ويعرف في بلاد الشام بالمسلخ، وهو من السلخ، واستعماله فصيح).

العامة في بلاد الشام تطلق اسم الختيار على الشيخ المسنّ ويشتقون منه فعلا فيقولون ختير إذا أسنّ فإما أن يكون من اسم عضو مجلس القرية اختيار وأصله ممن اختاره بمعنى انتقاه، وقد كانوا من ذوي السنّ أو من الأراميّة القديمة لهذا المعنى).

من عامية القطر:

بيع المحافلة: بيع الزرع قبل بدوّ صلاحه: مبايعته في سنبله بالحنطة: اكتراء الأرض بالحنطة: المزارعة بحصة من النماء.(وفي قطرنا يقال له: الزراعة بالقسم أو بالأقسام).

من عامية جبل عامل:

الحفْش والحَفَش: البيت الصغير من بيوت الأعراب، وهو القريب السّمك من الأرض. (ويسمى في جبل عامل: الخِشّة، محرفة من حِفشة. ويعرف الحَفش بما يرسب في مجاري الماء وأنابيبه من المواد الكلسية ونحوها من طول الزمن).

من عامية الفلاّحين بجبل عامل:

خَصَلَه: ... رذله: قطعه "وهو الأصل في المعنى". (فلاحو جبل عاملة يقولون: خصل البذار إذا نقى الحب الذي ببذره في الأرض وخلّصه من الشوائب، وفيه معنى القط مجازا).

من عامية البنائين في جبل عامل:

الدستاهيجات "دخيلة عباسية، فارسية معربة" الدعائم التي تبنى بجوار الأسوار لتقويها وتعرف اليوم بالبلغة في الديار الشامية: ما يخرج من الحائط في وسطه إلى داخل البناء الممتد ليقيه من السقوط. (وسمعت البنائين في جبل عال يدعون هذه بالرواجع واحدتها راجعة).

من عامية البلاد:

خلّل: ... البطيخ والقثّاء: نظر ما لم ينبت فوضع آخر مكانه. (والعامة تقول في بلادنا: خطّاه).

من اللهجة البدوية:

الحَزُّ: الحين والوقت: (الحزُّ: للوقت والساعة الحاضرة باق في اللهجة البدوية إلى هذه الأيام).

الخوّة: الأرض الخالية: الفترة: الأرض المتطامنة. (الخوّة عند عرب البادية: ما يدفعه الغريب لشيخ القبيلة ليحميه عند مروره في أرض القبيلة، أو يدفعها الشيخ الصغير للشيخ الكبير للدفاع عنه؛ وهي مختزلة من الأخوذة أي أنه بعد دفعها صار أخا له، فهي سبب الأخوّة).

من عامية لبنان:

ولا يكتفي الشيخ أحمد رضا بذكر عامية قريته وقطره ف باه يوسع الدائرة لتشمل بلدان المشرق العربي كلبنان والعراق ومصر وغيرها. ونكتفي منها بذكر الشواهد التالية:

جَسَّهُ: اختبره. (والعامة في لبنان تقول: داسه ودسّه بمعنى جَسّه).

من عامية العراق:

بَهِتَ بَهْتًَ، وبَهُتَ بُهْتَ، وبُهِتَ بَهْتً " وهذه أشهرها وأفصحها": استولت عليه الحُجة: دُهِشَ وتحيّر. (والعامة تقول: بَهت اللونُ إذا كمد وتغيّر كما يكمد لونُ المبهوت من دهشته، وهو مجاز. وفي العراق يقولون بهك بالكاف وفي رأي بعضهم أن بهك مقلوب بكه بالأرامية ومعناها فسد وخبث ورقّ).

البَهْوُ:...يطلق على قاعة الاستقبال الكبيرة لأنها في الغالب مُقَدَّمَةٌ أمام حجرات المنازل. وقد استعملت في العصر العباسي لهذا المعنى. (ويعرف في بلاد الشام بالصالون وفي العراق دده خانه أو ديوان خانه وهما دخيلتان.

من عامية اليمن:

الجَرْمُ: زورق يمني. (العامة تسمي الماعون التي تنقل محمول السفن إلى الشاطئ جرما والنقل فيها التجريم، وهي النقيرة في اليمن والجرم أيضا).

من العمية الحبشية:

الرِّجل: القدم أو هي من أصل الفخذإلى القدم. (والعامة تقول: إجر وهي من الحبشية كالأيد عندهم من اليد).

من عامية مصر:

ابْتَاع الشيء: اشتراه. (قال في التاج: يقال هذا الشيء مبتاعي أي اشتريته بمالي، وقد استعمله المصريون فيحذفون الميم ومنهم من افرط فجمع فقال بتوعي وهو غلط).

الحَتُّ:... ويقال في يدي منه حت أي شيء).

الدخيل من أصل قبطي:

كما أن الشيخ لا يفوته أن يدون الكلمات الدخيلة التي لا تزال مستعملة في العامية، ونجد منها ما هو قريب جغرافيا من بلا الشام كتركيا، وما هو بعيد كألمانيا. وهذه شواهد منها:

الجَرْوَلُ: ...ما سال به الماء منها فتراه مُدَمْلَكًا من سيل الماء به. (وتسميه العامة الزلط، وهو في الفصيح الحصى الصغار كحصى الجمرات. ويقال: ان الزلط "بزاي مفخمة" دخيلة قبطية).

الدخيل من أصل تر :

الإِصار: القِدُّ يضمُّ عَضدَي الرجل. (وتعرف باسم الكلبجة، وهي لفظة تركية هي الآصرة ولكنها من حديد.

الدخيل من أصل سرياني:

أَبْحَرَ الماءَ: وجده مِلْحًا. (والعامة تقول: بَحَّرَ الثوب: غسله لأول مرة "من السريانية" بمعنى اختبره وامتحنه).

الدخيل من أصل آرامي:

تَكْتَكَ الفرس: م ق كأنما يطأ على شوك أو نار. (وقالوا تكتك الفرخ زقزق لأمه وأمه حنّت بصوتها إليه. وتكتكت الساعة إذا سمعوا صوتها تك تك. واحسبه فيهما من حكاية الصوت. وقيل دخيل من الأرامية بمعنى هذر وثرثر).

الدخيل من الفارسية:

التِّنْبَلُ...: القصير. (قال في التاج التنبل الثقيل الوخم البليد، عامية. أقول: وهي كذلك عندهم إلى يومنا هذا، والظاهر انه دخيل من الفارسية، وهو الطنبل).

الأَفريز: الطَّنْفُ، وهو الناتئ وسط الحائط معرّب "برواز" وعربيته الجيد. وقيل الفرواز "فعلال من فرز الشيء إذا عزله"... (والعامة تقول برواز رجوعا إلى الأصل الفارسي).

الدخيل من أصل ألماني:

الشَّخْتُ: ... الحطب الدقيق؛ وبه سمي عود الثقاب الذي تؤرب به النار شختة. ويصلح أن يكون فصيحها نَبْخة وهي الكبريتة التي تثقب بها النار. (وهذه التسمية عامية فيما أعلم لأنها حديثة بمعناها، وهي عود دقيق يقتدح بحكّ طرفه على سطح خشن. وكثير من العامة من يسمي العلبة التي يودع فيها شَحطة "بالحاء" ويقال انها ألمانية وهي فيها "Schachtel" ومعناها العلبة).

الخلاصة:

إن القوانين التي أدت إلى ظهور العاميات قديما لا تزال هي التي تتحكم في صنع الكلمات العامية المعاصرة. فلا يزال تصحيف الحروف مستمرا، ولا يزال تغيير أبنية الكلمات بالزيادة فيها والنقص منها نشطا، ولا تزال العامة تخفف المشدّد وتشدّد المخفف، كما لا تزال تسهل الهمز مرة وتحققه مرة أخرى، وتحرك الساكن وتسكن المتحرك، وتحرف الدلالة بتضييق ما كان عاما وتعميم ما كان منها خاصا، وتغير النسبة، وتقترض من اللغات الأخرى ما هي في حاجة إليه وما هي في غير حاجة أيضا. ولا تزال الفصحى تمارس ريادتها على أغلب المجالات العلمية والفكرية والدينية. ولا يزال دعاة المعيارية ينشطون للحدّ من طغيان العامية على الفصحى. ولا تزال العامية تقاوم وتتربع على عرش ملايين الأفراد. كما لا يزال كل مستوى من المستويين يؤدي وظيفته على أكمل وجه. وما زلنا ننتظر تدوين العامية وفتح نوافذ لها في معاجمنا وهي التي تحمل مشاعر وأحاسيس ملايين البشر الذين عاشوا هذه الحياة وماتوا وبقيت أسماء بعضهم مدونة في الشوارع العامة والساحات وهم الذين لم يستعملوا يوما غير العامية وسيلة للاتصال.

فهرست المصادر والمراجع

1) القرآن الكريم.

2) التطور اللغوي: مظاهره وعلله وقوانينه، رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة-دار الرفاعي بالرياض، 1404ل-1983م.

3) دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط.5، 1984م.

4) متن اللغة، الشيخ أحمد رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، مج. 1/1377ل-1958م.

مج.2/ 1377ل-1958م.

مج.3/1378ل-1959م.

مج.4/1379ل-1960م.

مج.5/1380ل-1960م.

5) الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تح. محمد علي النجار، بيروت، دار الكتاب العربي، 1952م.

6) الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، إشراف بلاشير رجيس، جبور عبد النور، تح. مصطفى الشويمي، بيروت، مؤسسة بدران للطباعة والنشر، 1982م.

7) لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر بيروت، 1374هـ-1955م/1312هـ-1992م،

8) المزهر في علوم اللغة وأنواعها، جلال الدين السيوطي، تح. محمد جاد المولى بك، محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، المكتبة العصرية، صيد-بيروت، 1986م.

9) مبادئ اللسانيات العامة، أندري مارتيني، تر.أحمد الحمو، وزارة التعليم العالي، دمشق، 1404-1405ل/1984-1985م.

10) معجم المعاجم، أحمد الشرقاوي إقبال، دار الغرب الإسلامي، د.م، 1407ل-1987م.

11) العربية: دراسات في اللغة واللهجات والأساليب، يوهان فك، تر. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بمصر، معجم المعاجم، أحمد الشرقاوي إقبال، دار الغرب الإسلامي، د.م، 1987م.

11) Georges MATORE, *La méthode en lexicologie : Domaine français,* Paris, Librairie Marcel Didier, 1953.

B.L.Whorf, *Linguistique et anthropologie,* trad. Claude CARM, Paris, Denoel/Gonthier, 1969.

تواصل الخطاب الشفوي بالمدوّنة العربيّة القديمة

أ/ خالد عيقون - جامعة تيزي وزو

الأدب الشفوي الدّيني، منظومة معرفية ثرية، وحقل جمالي خصب، متنوّع في أشكاله ومضامينه ولهجاته، يمتد في جذور الماضي، وينتظم بروافده حتّى بدء الخليقة بحكاياته التّأسيسية الأولى، ويحلّق في آفاق مستقبلية بحكاياته التّنبؤية العجيبة. هذا الصّرح الشّامخ من الحكايات الدّينية المتراكمة، حُرم أن ينال مكانته الرّاقية الجدير بها، ولا يزال ينتظر أن يرد له اعتباره، ممّا يضع مسؤولية كبيرة على عاتق الباحثين وأولى الأمر في الكشف عن جذورنا، كأساس راسخ وطيد لوجودنا ومحطة لإقلاعنا، ويتطلب النّهوض بالدّراسات العلمية المعمقة في معالجة هذه القضية الحضارية الكبرى قضية التّراث الإسلامي بروافده وفروعه القوس-قزحية: الفكرية، الفلسفية، التّشريعية، الرّوحية، الصّوفية، الأدبية والقصصية، مشكلا بمنظومته حلقة ذهبية هامة في سلسلة الحضارة والثّقافة الإنسانية المعاصرة.

سعيًا إلى التّعرف على المناهل التي نهل منها الأدب الشفوي الديني ومحاولة الكشف عن دلالته في الحقل الثقافي العربي الإسلامي للوقوف على مواطن الوصل ومواطن الفصل. وانطلاقا من ضرورة اهتمام الدّارس بالرّواية الشّفوية بمقدار اهتمامه بالنّص المكتوب، وأنّ الوصول إلى فهم النّصوص الشفوية الحالية لا يتم إلا في سياقها الحقيقي: اللغوي والفكري والتّاريخي، فإنّنا حاولنا أن نعيد النّصوص الشّفوية إلى جذورها الأصلية في القرآن الكريم والتّفاسير والأحاديث وغيرها من كتب التّراث والتّاريخ والسير والقصص والرّحلات وغيرها.

إنّ إشكالية الموضوع في حدّ ذاته عملية صعبة باعتبارها نتاجًا متشابكًا مركّبًا من مستويات متداخلة أمازيغية عربية، أدبية دينية، شعرية قصصية، فهذه كلّها تضع

الباحث أمام امتحان عسير في القدرة على التّصدي لها والمعالجة، وتوخي الدّقة العلمية، وذلك لبلوغ الهدف وتحقيق نتائج مقاربة لليقين. وركّزت في اقتناء المدونة على معايير معرفية ولغوية وجمالية، ومدى التّلاقي بأصولها، حتّى تتضح أوجه تلاقي التّراث القصصي الشّفوي في المجتمع الصّغير الذي يدرسه الباحث، مع ربط هذا التّراث المحلي بالتّراث الخاص بالمجتمع الكبير الوطن الجزائري من جهة والمجتمع الأكبر العربي الإسلامي والإنساني عموما، وذلك بهدف الكشف عن أوجه التناظر والقواسم المشتركة في إطار بحثنا عن وحدة هذه الثقافة.

إذا كانت الدراسة العلمية للنصوص تلتزم بضرورة فهم الأسس الجمالية التي ترتكز عليها بنيتها، واكتشاف دلالتها وخصائصها وعلاقاتها التي تربطها بجذورها، فإنّه من خلال دراسة النصوص الشفوية تبيّن أنّها تنحدر من الأصول الآتية.

أولاً – القرآن الكريم وتفاسيره

يمثّل القرآن الكريم المصدر الأساسي والأوّل للقصص الشفوي الديني، إلى حدّ أنّ جلّ القصص الديني بأنماطه يستمدّ مادّته من القرآن وتفاسيره «... فيه خبر ما قبلكم ونبأ ما بعدكم.. ولا تنقضي عجائبه(*)...»[1]. تؤكّد النصوص القصصية المتداولة والمجموعة من الميدان، على تأثّرها بالقرآن الكريم. ليس على مستوى البنية العميقة فحسب، وإنّما حتّى على مستوى المبنى والصياغة، كالاستهلال والاختتام والشخوص والأمكنة والأزمنة والخصائص الأسلوبيّة والخصائص الفنيّة.

1 – الوحدة النصيّة الاستهلاليّة:

أ – تستهلّ النصوص القصصية الشفوية: العربية والأمازيغية بوحدة نصيّة موجزة قد تكون صيغة البسملة (بسم الله)، أو الحمدلة (الحمد لله)، أو سبحان الله، كما في قصّة

(*) انظر: Arkoun Mohamed: Peut on parler de merveilleux dans le Coran, in: l'etranger et le merveilleux dans l'Islam, Medevel, Paris, Jeune Afrique, 1978.

(1) الترمذي: كتاب الجامع الصحيح، ج 4، ص 345.

آدم وحواء ومنظومة الأنبياء، وقصّة يوسف وغيرها، مثل: سبحان الله إخلفن آدم يرناد حوا ذزواجيس، وهي الوحدات النصيّة التي استهلت بها قصص القرآن الكريم، مثل: الأنعام، الإسراء، الكهف، سبأ، فاطر، وغيرها: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى** ﴾[1].

ب – تستهلّ بعض القصص الدينية الشفوية بصيغة: يا سائلي:

يا سائلي نعيد لك هذي القصّة ما بين الحمامة والباز ماذا صار

وهي الصيغة نفسها الموظّفة في القرآن: ﴿ **يسألونك** ﴾، ﴿ **عمّ يتساءلون** ﴾، ﴿**سأل سائل**﴾.

جـ - تطيل بعض الحكايات في الاستهلال مما اصطلح عليه بالفرش أو الاستخبار، كما في قصّة الموت والمنظومة البرزخية. شأنها شأن القصّة القرآنية التي تستهلّ بما اصطلح عليه بأسباب النزول، مثل قصّة أهل الكهف وغيرها.

د - تُستهلّ بعض الحكايات الأمازيغية بوحدة نصيّة عربيّة بمثابة ترجمة لمعنى آية قرآنية تحمل دلالة النصّ كلّه، مثل: لا إله إلا الله: يفنى العبد ويبقى الله [2].

هـ - وتُستهلّ بعض الحكايات بالصلاة والسلام على الرسول محمد عليه السلام:

الصلاة أفرسول أعزيزن بوالقلب أحنينن

فلاس أبدون أوال[3]

الصلاة على محمد شارف الأنوار عدد ما يكون في الدنيا وسكانها

---

[1] سورة الإسراء، الآية: 1.

[2] ترجمة لمعنى الآيتين الكريمتين: ﴿ **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۞ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ** ﴾. (سورة الرحمن، الآيتان 26 و27)

[3] يترجم: الصلاة على النبي العزيز ذي القلب الحنين به يستهلّ الكلام

وإذا ما عدنا إلى القرآن الكريم فإنّ سورًا عديدة تستهلّ بالنبي محمد ﷺ، مثل طه، يس، يا أيّها النبيّ، يا أيّها المدّثر، يا أيّها المزمّل...[1]. هذا وقد خصّص حسن بن علي المسيلي (ت 1185م) الذي كان يكنّى بأبي حامد الغزالي الصغير والمتميّز بالمصنّفات الحسنة والقصص العجيبة المستحسنة كتابًا سمّاه "التفكير فيما تشتمل عليه السور والآيات من المبادي والغايات"، واستهله بقوله: اعلم وفّقك الله أنّ هذا الكتاب حسن في معناه، مخترع في مبناه" [2].

2 - **الاستغناء عن الاستهلال:** تستغني بعض الحكايات عن الاستهلال، فتلج في الموضوع مباشرة، وهي بذلك توحي بخاتمة مأساوية، مثل قصّة "قابيل وهابيل":

سقابيل إدبذا لفـل الشـيطان استغفل

إبليس ذمغري

وقصّة "يعلى"

ثقصيت نسيدنا يعلـى ذوحيـد إثريا يمّـاس

وقصّة راشدة:

قصّة العبد في خلوتـه يعبـــد ربّـي بنيتُـه

وإذا ما عدنا إلى القصص القرآنية نجد بعضها تلج في الموضوع مباشرة حتى أنّ سورة التوبة استغنت عن البسملة: ﴿ **بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ ...**﴾.سورة نوح: ﴿ **إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾

– سورة المجادلة: ﴿ **قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ...**﴾.

---

(1) انظر: السور: طه، يس، الأحزاب، الطلاق، التحريم، المدثر، المزمل على التوالي.

(2) الغبريني: عنوان الدراسة، ص 33 – 34.

- **الألفاظ والصيغ:**

تشكّل نصوص المدوّنة بألفاظها وصيغها المقتبسة من القرآن عوالم دلاليّة، وارتبطت الألفاظ الموظّفة أكثرها بالعالم الآخر، وتزخر النصوص الشفوية الأمازيغية بألفاظ القرآن ومصطلحاته، مثل: الجنّة، الفردوس، الكوثر، الكافور... إلى حدّ أنّها تصلح بحثًا مستقلاً.

اعتمد الرواة والشعراء في وصفهم للعالم الآخر على ألفاظ القرآن، وتتجلّى بكثافة في نصّ "وصف الجنّة" إلى حدّ يعدّ كلّ بيت بمثابة ترجمة لمعنى آية قرآنية مع المحافظة على المصطلح القرآني.

يشكّل موضوع الرحلات إلى العالم الآخر محورًا أساسيًا في السير والملاحم والحكايات الشعبية، مثلما نرى في ملحمة "جلجاميش" البابلية، وإلياذة "هوميروس"، ورسالة الغفران للمعرّي، والكوميديا الإلهية لدانتي. وإذا ما عدنا إلى الأدب الأمازيغي نكتشف قصّة "المعراج وأشعار الصبي"، وهي قصّة منظومة بالأمازيغية، تصف طفلاً رحل إلى العالم الآخر، ونزل إلى الجحيم بحثًا عن والديه[1]. ولا تزال الرواية الشفوية الحالية تحكي قصّة "رحلة الطفل إلى العالم الآخر"، وتتلخّص فيما يأتي: « كان طفل يعيش مع والديه في سعادة وهناء، وكان ذا أخلاق وتربية حسنة، وذات يوم فوجئ بوفاة والديه كليهما، فحزن حزنًا شديدًا عليهما إلى حدّ أنّه لم يطق الحياة بدونهما. ولم تمضِ أيّام حتّى التحق بهما إلى العالم الآخر، وفوجئ الطفل بوجوده في جنّة الفردوس حيث ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر بقلب بشر. وراح ينتقل بين درجاتها من روضة إلى أخرى بحثًا عن والديه، ولكنّه لم يجد لهما أثرًا، فاشتدّ حزنه لأنّه أيقن أنّهما في عذاب الجحيم. أصرّ الطفل على النزول إلى الجحيم، وصار ينتقل بين دركاتها حتّى عثر عليهما وهما في وضع لا يطيق

[1] انظر: دائرة المعارف الإسلامية، ج 2، مادّة بربر، ص 519. (مخطوط بالأمازيغية، المكتبة الوطنية، ومكتبة باريس بفرنسا).

رؤيته وتحمّله، وأصرّ أن يبقى إلى جانبهما إلى أن يستجيب الله لدعائه بالعفو عنهما، ونقلهما إلى الجنّة، فاستجاب الله عزّ وجلّ له، وانتقل الجميع إلى جنّة الفردوس وعاشوا خالدين في نعيمها وهم يتغنّون بالجنّة، كما يأتي:

أتسيا الجنث ذي ثرجيث أكا إتسيوحا يحي
لحشيش ذا الكافور أمانيس ذلعطر
أيا إكرجان أيا صبّار[*]
يخلق أسيف تامنت إتسازال وادي الكوثر
أيتراح أكثر العطر يلا ألاذاسيف نلخمر
أيا إكرجان أيا صبّار
ألاح لعذاب أوسميظ أولاح اللاز اذلعرى[**]
أكفا أحبر نلقوث ولا أمان ذو أصغار
أيا إكرجان أيا صبّار
يخلق ثيمس أفسبعة العصاة أكذ الكفار
الشيطان يبعذ أرثنزر الشيطان يبعذ أرثنزر
أيا إكرجان أيا صبّار
أكفا رمضان تسزاليث يكفا الحج ذلعشور
اكفان لهموم ندونيث يكفا اتسخميم ذحبر
أيا إكرجان أيا صبّار[1]

(*) ترجمة لمعنى الآية ﴿ **وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا ...**﴾ (فصلت:35).

(**) ترجمة لمعنى الآية ﴿ **إِنَّ لَكَ أَلا تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى** ﴾ (طه:118).

(1) الراوية: سعدية شرفاوي.

4 – **الوحدة النصيّة الاختتامية:** ورد الاختتام في الحكاية الدينية في أشكال عديدة يمكن توضيحها فيما يأتي:

أ – تُختم الحكاية بوظيفة مكافأة واعتلاء العرش كقصّة يوسف عليه السلام، وسماعندى وسليندى، وبذلك ينطبق عليها قول بروب الذي يرى بأنّه لا بدّ من عودة البطل في نهاية القصّة ليكافأ بالزواج واعتلاء العرش.

ب – وقد تختم القصّة بالدعاء والتوسّل إلى الله بمكافأة دخول الجنّة، مثل قصّة يعلى، وقصّة موسى.

جـ - الإحالة إلى المصادر المعتمدة، حيث يؤكّد الراوي المبدع على المصدر الذي استقى منه مادّته القصصية، وهو القرآن الكريم.

ففي قصّة يوسف عليه السلام يقول:

باسم الله الجليـل القديـر الغفـار   تمّيت القصّة وفي الكتاب موجود معناها

وفي قصّة موسى عليه السلام، يقول:

هذي القصّة حكاهـــا القهّار   كلّ ما في الكتب جبت بلساني

يؤكّد الشاعر على المصدر الذي استقى منه مادّته القصصية في الاستهلال والاختتام، فهو يستهلّ قصّة يوسف عليه السلام بقوله:

بسم الله نبدا ونقول يا حضّـار   خذو هذي القصّة ونعيد أخبارها

الحديث موجود في كتاب الجبّار   في سورة يوسف يا ناس قريتهـا

يحرص المؤرخون وكتّاب السير والقصص الدينية أثناء عرض قصّة من قصص الأنبياء، مثلاً على إحالة القارئ إلى القرآن الكريم باعتباره المصدر الأساسي الذي استقوا منه مادّتهم القصصية. كقول المسعودي أثناء عرضه لقصّة يوسف عليه السلام:

« ... وقحط أهل الشام، فكان من قصّة يوسف و إخوته ما قصّه الله تعالى في كتبه ...»[1].
«..فكان من أمر موسى ما قصّه الله في كتابه»[2].

بعد الفحص والقراءة المتأنية للحكايات المجموعة من الميدان نكاد نجزم بوجود أصولها أو إشارة إليها في التفاسير الإسلامية، باعتبار القرآن النموذج الأصلي لكافّة الحكايات. وحتّى بعض الحكايات الأمازيغية والتي تبدو أنّها من صميم التراث الأمازيغي، لقرائن عديدة كروايتها بالأمازيغية وارتباطها بمكان حقيقي جرجرة، نكتشف أنّها تتواصل وتلتقي، إن لم نقل تنحدر من أصولها في التفسير القرآني مع تبادل الأدوار واحتفاظها بالرواية الأصلية. ونكتفي بهذه العيّنة:

- عجوز يناير أو أيّام الحسوم

- لالة ميمونة.

وتتلخّص الحكاية الأولى "عجوز يناير" في عزم عجوز على التوجّه مع حيواناتها إلى أعالي الجبل للرعي والاصطياف، قبل حلول موعد الرحيل، مخالفة بذلك طقوس قومها ومتحدّية عوامل الطبيعة من برد وثلج، ونفذت وعدها وانطلقت حتّى بلغت الجبل وهجت يناير ومدحت فورار. واختتمت القصّة بانهزام العجوز أمام شهر يناير، وتجميدها على شكل تمثال صخري ضخم بأعالي جرجرة، لا يزال يحمل اسمها إلى الآن بالمنطقة: صخرة العجوز، أو تمثال العجوز [3]. و إذا ما عدنا إلى أصولها في القرآن الكريم وتفاسيره، فقد ورد في سورة الحاقّة قولـه تعالى: ﴿ **وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۞ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ** ﴾[4]. ويفسّرها الفخر الرازي بقوله: دلالة لفظة

---

[1] المسعودي: أخبار الزمان وعجائب البلدان، ص 262.

[2] نفسه، ص 270.

[3] المرجع السابق، ص 185.

[4] سورة الحاقّة، الآيتان: 6 و7.

(الحسوم): المقصود بها أيّام العجوز، وإنّما سمّيت بأيّام العجوز لأنّ عجوزًا من قوم عاد توارت في سرب، فانتزعتها الريح في اليوم الثامن فأهلكتها في أواخر الشتاء [1].

وإذا ما قارنا بين النصين: الشفوي الأمازيغي والأصلي يمكن استنتاج أنّهما يتفقان إلى حدّ التطابق في أوجه عديدة، منها:

- الاستهلال والاختتام.
- الشخصية الرئيسية: العجوز.
- الوظائف: قرار - رحيل - مخالفة - أذى وإساءة - تحوّل.

الزمن: وهو سبع ليال أو ثمانية أيام من آخر الشتاء.

ثانيًا - المدائح النبوية

اقترنت الأذكار والمدائح الأمازيغية وارتبطت بمثيلاتها العربية ارتباطًا عضويًا، ليس على مستوى الموضوعات فحسب، وإنّما حتّى على مستوى الخصائص اللغوية والفنيّة كالاستهلال والاختتام والبناء والإيقاع والأوزان والقوافي، وبذلك تصدق عليها المقولة: « كلّما كان النصّ الأمازيغي دينيًا كلّما كان أقرب إلى العربيّة، مع احتفاظه بخصوصيته ». وإذا كانت الأذكار والمدائح هي نظم لمعاني القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والتجارب الإنسانية في لُغزَي الحياة والموت، فإنّ موضوعاتها يمكن حصرها فيما يأتي:

- الذكر ومناجاة الله
- مدح النبي محمد ﷺ
- قصص الأنبياء والصحابة

---

[1] انظر: التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، مج 15/ ج 30، ص 104.

- انظر: خالد عيڤون: أسطورة من منطقة القبائل: برد العجوز، مجلّة الثقافة الشعبية، معهد الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان، العدد الأوّل، 1994، ص 41.

- قصص الأولياء والوليات

- تجارب الحياة والموت

يؤكّد سعد الله ذلك بقوله: « إنّ الشعر الديني، وخصوصًا المدائح الدينية من أهمّ الأغراض التي طرقها الشعراء قديمًا وحديثًا، وتحتفظ الوثائق بقصائد نادرة في مدح الرسول ﷺ والتشوّق إلى زيارة قبره بالمدينة المنوّرة، وإحياء مولده...»[1].

دعاني الهوى والشوق أقلق مـا بيـا   وحـادي الـركب بالعيش غاديـا

وجئت على ضعفي وعجزي وفاقتي   ولبيت داعـي الشوق حين دعانيـا

وخـضت البـحار والمهـامـة   تخوم الحجاز والجبال الرواسيـا[2]

ورغم أنّ كلّ فرقة من فرق المدائح الدينيّة تنتمي إلى الطريقة الرحمانية إلا أنّ كل واحدة تتميز عن الأخرى في موضوعاتها وإنشادها وإيقاعها، وحتّى في طريقة عرضها فمنها ما تنشد مديحها في شكل حلقة يتوسّطها رئيسها، مستعينة برقصات صوفية عنيفة إلى حدّ أن يُغمى على أحد أفرادها، فيُحمل إلى خارج الحلقة، لكن ما إن يستعيد وعيه حتّى يهرول إلى الحلقة مواصلاً رقصته، وينسجم مع الصوت، حيث يعتمد على التقطيع والإيقاع اللهْ اللهْ اللهْ.

وقد تكون الفرقة على شكل صفّ يتصدّره رئيسها، ويعتمد المديح على النفس الطويل، فتنشد المدائح الطوال التي تدوم ساعات إلى حدّ الغياب عن الواقع، وينسون أنّهم في حفل، ولا يستجيبون لأيّ أمر بالتوقّف، أصواتهم مؤثّرة حزينة وعيونهم تفيض من الدمع حزنًا.

تؤدّي الأذكار والمدائح وظائف عديدة، منها تطهير النفس الضعيفة وترويضها والارتفاع عن كل نزعة وميول وغريزة وتفريج الكرب وتخفيف الأزمات النفسية وآلام

---

(1) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، ص 253 أو 259.

(2) محمد بن عبد الرحمن الجرجري.

المرض المزمن، وفجائع الموت المباغتة « وقد ثبت أنّ للقصائد أثرًا عظيمًا في تفريج الكرب ونيل الرغبات أعظم من الأثر الذي تحدثه الدعوات »[1]. ومنها وظيفة التسلية والمؤانسة عن الملل واليأس والأرق والانعزال، ممّا يصيب الشيوخ والعجائز وهم في معاناة أرذل العمر فيعكفون على ممارسة الذكر والمدح في ليالي الشتاء الباردة وأيّام الصيف الحارّة بطريقة انفرادية أو جماعية، وسار التهليل والتكبير والتسبيح يجري عليهم مجرى الطعام. ونكتفي بالتركيز على فرقة حيزر باعتبارها عيّنة متميّزة وممثّلة لمدائح المنطقة وشكّلت تطوّرًا نوعيًا لهذا الفنّ على كلّ المستويات الموضوعيّة والفنيّة واللغوية، ويترأسها الشاعر المبدع رمضان محفوف الذي يتمتّع بموهبة ابتكار المدائح الدينيّة النادرة، إلى حدّ أن تبنّتها الفرق الأخرى إعجابًا بها وتقديرًا لها، ونال شهرة في المنطقة وخارجها، وأهمّ إنتاجه:

- منظومة أسماء الله الحسنى
- منظومة قصص الأنبياء
- منظومة قصص أولياء جرجرة
- منظومة الرحيل إلى الآخرة أو المنظومة الألفبائية أو البرزخية.

وتعدّ هذه الأخيرة من أروع المدائح الدينية الأمازيغية، باعتبارها إبداعًا وتطوّرًا على كلّ المستويات الموضوعي واللغوي والإيقاعي، وتمثّل نموذجًا للمدائح في صورتها الحالية الأخيرة، ولقيت انتشارًا واسعًا لا يعدله في الرواج مديح آخر، وأحدثت أثرًا عميقًا في نفوس الجماهير رجالاً ونساءً وأطفالاً، يحفظونها ويردّدونها في المناسبات، وأحيانًا بطريقة تلقائيّة.

يتشكّل نصّ المنظومة من سبعة ومائة بيت موزّعة على خمس وثلاثين ثلاثية، وجعل أساس كلّ بيت ومخرجه حرفًا من الحروف الألفبائية الثمانية والعشرين، مع

---

[1] محمد إبراهيم الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، تحقيق: عادل نويهض، مؤسّسة الرسالة، ط 2، بيروت، لبنان، 1985، ص 82.

مراعاة ترتيبها الألفبائي، وتكرار الحرف في كلّ ثلاثية، ويستهلّ بالبسملة والصلاة والسلام على رسول الله الشفيع، ثمّ يقدّم الشاعر نفسه ومكان ميلاده ومنهجه في الحياة، فيقول:

الصلاة والسلام عليك يا حبيب الرحمن سـيدنا محمـد أمشافع ذكتشني

نك أسميو محفوف رمضان أتسعاوزغ إيضـان أبغيغ رحمـة الوالـدين

أخضيغ إيواين إيخضان يـــاك إقــرّا أفضان ذي الصـراط أذعديـن

تعبّر كلّ وحدة ثلاثية عن صورة من صور الموت في تجلّياته وأسبابه ونتائجه، مع التركيز على مدح النبي وطلب الشفاعة منه.

ثوســـاد الموتس سلحرف البـــــا ثوفـــاد لهـــلاك ذسـبّــــــة

أورزميـر الطبّــــة أرســــــول صاحب القبّة أمشافـع ذكتشيـني

الصلاة والسلام عليك يا حبيب الرحمن سيـدنــا محمـد أمشافع ذكتشني

ثمّ يتخيّل الشاعر أنّه ميّت ودخل في اللحظة البرزخية ويرثي نفسه ممّا يدخل في إطار الرثاء الصوفي.

ثوساد المــــوتس سلـحـــرف التـا كـشــــمــــغ دار المــوتـــى

أزيـــــــيـــيــــــــد إفرطـطّـــــــة أتســــرون الطيــور فحنــي

الصلاة والسلام عليك يا حبيب الرحمن سيـدنا محمد أمشافع ذكتشني

ونظرًا إلى أنّ الشاعر المبدع أمّي لا يقرأ ولا يكتب نحاول إبراز نظرته الصوفية الشعبية في صورتها الحالية الأخيرة من خلال دراسة الصور الصوفية ودلالتها

المعبّرة عن اللحظة البرزخية (*) المشكّلة لخطّ التقاطع والاتصال بين العالمين: الدنيا والآخرة، ونكتفي بالتركيز على ما يأتي:

الاستهلال: الأموات يخاطبونكم أيّها الأحياء، فاستمعوا وأنصتوا، فإنّه لا مفرّ لكم من الموت.

الموتس إورثلي ثرولا حسـثـد إوْمسـلا أدهـذرن ويـذ إيموثـان

عالم الدنيا: الفراشة تحوم حول الميت وتطوف في حركات راقصة، والطيور تحلّق في الجوّ وتحوم حول الميت نائحة وراثية، والأشجار تتمايل باكية، والأحجار تنقلب منزعجة. ويصل الطلبة والشيوخ لقراءة القرآن وترديد الذكر والمدائح لأخذ الأجر، أمّا الورثة فلم يتخلّف أحد منهم وبدأوا يتهامسون وهم يجرون العمليات الحسابية للحصول على حقوقهم في الميراث:

ثوســاد المــوتس ســلحرف التــا أزينيــــد إفرطّــــة
ثوســاد المــوتس ســلحرف الطــا أتــسرون الطيــور ذقــني
ثوســاد المــوتس ســلحرف الــرا أتــسرون أتجــور أذيــزرى
أوســاند الطلبــة ذشــياخة أرســول صــاحب النــسخة
ادتــساسن الورثــة كــلّ يــون أشــو يتــسمنى

(*)البرزخ جمعه برازخ: الحاجز بين الحياة والموت، وما بين الدنيا والآخرة، يقال للميت هو في برزخ لأنّـه بين الدنيا والآخرة، ومنه قوله تعالى: ﴿ **من ورائهم برزخ إلى يوم يُبعثون** ﴾. المؤمنون، الآية: 100. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج 3، مادّة برزخ، ص 8.
- آمنة بلعلى، الحركة التواصلية بالخطاب الصوفي، البرازخ النصية، ص 2.

عالم الآخرة: يرسم الشاعر لملك الموت عزرائيل صورة نادرة مخالفة، حيث يطلّ على الميت من وراء الباب، وهو يسأل بابتسامة وبشاشة:

ملك الموت يسقساد ثفكاثيد ثبورث يضصاد: أنذاك ألفلاني

وضمن الرسول محمد ﷺ له الشفاعة بعدما ألقى عليه السلام، في حين رحّب به الإمام علي، وهو يفتح له باب جنّة الرضوان ويهنئه على دخول الجنّة: إنّ هذا النهج الذي نهجه الشاعر رمضان محفوف في مدائح الأمازيغية قد شاع في المدائح العربية منذ القرن السابع عشر، وقد ورد على أشكال عديدة، منها:

1 – استهلال بيت كلّ قصيدة بحرف من حروف الهجاء، مع مراعاة ترتيبها الألفبائي، مثل:

الألف ألّفت الهوى صحى لي حلف واجعل قلبي دار حيطة بأطرافه

الباء باحت دمعتي بأسرار القلب شوف لخدي توجد المهنى مكتوب[1]

2 – استهلال كلّ لفظ من ألفاظ النصّ الشعري بحرف من حروف الهجاء مع مراعاة ترتيبها الألفبائي:

أبا جعة بالوادي بين تبوئي صباح جنتها خاليات خواصب

دعي ذكرى روض رووه سقى شربة صباح ضمّي طير ظما عواقب

غرام فؤادي قاده كلّ ليلة متى ما نأس وهنا هواه يراق[2]

3 – قراءة النصّ الشعري من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين مع التطابق في المعنى والمبنى:

(1) سعيد المنداسي: الديوان، تحقيق محمد بكوشة، ش وللنشر والتوزيع، د.ط، الجزائر، د.ت، ص 112.

(2) محمد أبو القاسم الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، ص 550.

أس أرمـــــــــــلاً إذا عـــــــــــرى وارع إذا المـــــــــــــرء أســـــــــــا
أســـــــــند أخـــــــــا نباهـــــــــة أبـــــــــن أخـــــــــا دنـــــــــسا
أســـــــــل جنـــــــــاب غاشـــــــــم مـــــــــشاغب إن جلـــــــــسا ([1])

أمّا على مستوى الموضوع فإنّ المنظومة الأمازيغية البرزخية أقرب إلى البردة التي يتمحور موضوعها الأساسي حول الغزل الصوفي ومدح النبي ورجاء شفاعته:

أيحـــسب الـــصبّ أنّ الحـــبّ منكـــتم مـــا بـــين منـــسجم منـــه ومـــضطرم
لولا الهوى لم تـــرق دمعًـــا علـــى طلـــل ولا أرقـــت لـــذكر البـــان والعلـــم
محمـــد ســـيد الكـــونين والـــثقلين والفـــريقين مـــن عـــرب ومـــن عجـــم
هـــو الحبيـــب الـــذي تُرجـــى شـــفاعته لكلّ هـــول مـــن الأهـــوال مقـــتحم([1])

لقيت البردة انتشارًا واسعة لا تعدلها في الرواج أيّ قصيدة أخرى في أيّ عصر، وأحدثت أثرًا عميقًا في نفوس الجماهير الذين يحفظونها ويردّدونها في المساجد والزوايا أثناء المناسبات الدينيّة خصوصًا المولد النبوي الشريف. وقد نظمت أكثر من مائة قصيدة في مناظرتها وزنًا وقافية وموضوعًا، كما عنيت بشروح ودراسات عديدة قديمًا وحديثًا، كانت أهمّها شرح ابن خلدون « شرح ابن خلدون البردة شرحًا بديعًا دلّ على انفتاح ذوقه وتفنّن إدراكه، وغزارة حفظه...»[(2)].

وتُرجمت البردة إلى لغات عديدة كالفارسية والتركية والكردية والألبانية والبوسنية والأمازيغية، حيث كانت إلى عهد قريب من المدائح الأساسية في جنوب المنطقة، ولا تزال بعض مقاطعها متناثرة في المدائح الأمازيغية الحالية[(3)].

[(1)] الحرير
ي: المقامات، المكتبة الشعبية، د.ط، بيروت، لبنان، ص 154.
[(2)] عبد الرحمن بدوي: مؤلفات ابن خلدون، الدار العربية للكتاب، ط 2، بيروت، لبنان، 1979، ص 41.
[(3)] انظر: دائرة المعارف الإسلامية، م 2، مادّة البردة، ص 528 و529.

ثالثًا – الحديث النبوي الشريف

وقد يعتمد الراوي الأمازيغي في صياغته لنصّه القصـ لأ المنظوم على الحديث النبوي الشريف، مثل قصّة "المرضى الثلاثة"، وقصّة "راشدة":

هـــــــذي قـــــصّة بحـــــديثها	في كتـــــاب كــــبير قريتــــــها
عــــن ابـــــن عبـــاس ارويتــــها	وابـــــن صـــــاحب علايـــــــن

ويمكن إدراج الأولى في إطار الحكايات التمثيلية، وتتلخّص فيما يأتي: إنّ ثلاثة أشخاص أصيبوا بمرض مزمن، وهم: أبرص وأعمى وأقرع، وبعد الدعاء والتوسّل إلى الله شفاهم واستعادوا صحّتهم، واندمجوا في الحياة، حتّى صاروا أغنياء. وذات يوم أراد الله أن يختبرهم فأرسل ملكًا إليهم في صورهم: أبرص وأعمى وأقرع، وطلب من كلّ واحد منهم أن يتصدّق عليه، فأنكر كلّ من الأبرص والأقرع ماضيه، ونسي ما كان عليه، فدعا عليهما فعاد كلّ منهما إلى صورته التي كان عليها، في حين رحّب الأعمى بالملك وأكرمه ذاكرًا فضل الله عليه، فرضي الله عنه وسخط على الآخرين.

وقد ورد النصّ الأمازيغي كما يأتي:

أتـــــسخيلك القـــــدرة ربّـــــي	سوضـــــــــــيي أربي أثـــــــــــزرغ
أذنتــــــسا إيقْحـــــاب وولـــــو	أفغيـــــــغ أكيـــــــذس أقّيمـــــــغ
أثـــــسفرير ثـــــــافوث أفــــــول	أذحلـــــــو مــــــــاذا أوضـــــــانغ
أشــــــــو نــــــــسبّة أينـــــــو	أســـــــبّاو نــــــــسيدنا أيـــــــوب
أســــــــــبّايو أذكـــــــــــسملاغ	أســــــــبايو ييـــــــــون اسّــــــايل
أبدييـــــــــــــد أفثيـــــــــــــورث	ثـــــــيط إثيـــــــــوجبن ثحلـــــــــل
أقيمــــــــغ ثـــــــسرباعث إينـــــو	اســـــــتحاغ أذيــــــس نموقـــــــل
إنيغــــــــاس اذهــــــــب ســــــــيني	نَـــــغ أديـــــدو ذيـــــس وركــــــل
يتمريغــــــغ ذي القاعـــــــة يقّـــــارس	ثَعَدّيـــــــست يــــــبغن القــــــوث
ذاشـــــــو مـــــــاذا امنخـــــــذم	أثــــــش الرمــــــــل أذمنحـــــــــتم

ألان زيك ثلاثة إيموضينن   هلكن لهلاك أريسعي حلو
ييون يهلك أفرضاس   وايض يهلك أجذام
بوسلاثلاثة ذاذرغال   أغنيمنعاربي سمكول لبلا
يبواس اذعان ربي   لو كان أنحلو أنوغال أمزيكني
أذيحلو فرضاس أذيحلو وجذام   أذيوغال أذرغال يتسولي
أنعبذ ربي ذقيض ذوقاس   أنزال أنصدق أنزوم
أفرجذ ربي فلاسن   أحلان أُغالن أخدمن
أسني إشقعد ربي الملك   الملك ذي الصورة انسن
روحاث غورسن جربشنسن   ماثسترجعن الخير أثخذمن
قصذن أجدام إحوزيشنيد   إيوضن سفرضاس إيتلقثنيد
ألمي يحضر إوضن ساذرغال   يناياسن: عسلامة مرحبا أسون
أكا إليغ زيكني   الحمد الله ثورا إحليغ
ثورا أكنرفذغ ألماموثغ   عسلامة مرحبا إسون
إميريني وكذني أمك   اسنخذم سيدي ربي
يراثن أكن الان زيكني   ييون يراث ذجذام وايض ذفرضاس
ثعداد القدرة ربي   ثنايسن أشو إونيخذمن أكا
نناس إهمالا ثقصيت انغ   أم ثقصيت سيدنا أيوب ([1])

وإذا ما عدنا إلى الحديث النبوي الشريف، فقد وردت صورة الحكاية الأصلية كما يأتي[(2)]: « رُوي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول: « إنّ ثلاثة في بني إسرائيل: أبرص وأعمى وأقرع بدا الله أن يبتليهم، فبعث الله إليهم ملكًا، فأ 7 الأبرص فقال له: أيّ شيء أحبّ إليك؟ فقال: لون حسَن وجلدٌ حسن، قد قذرني النّاس، قال: فمسحه، وذهب عنه، فأعطي لونًا حسنًا وجلدًا حسنًا، فقال: أيّ المال أحبّ إليك؟ قال: الإبل، فأعطي ناقة عشراء، فقال: يبارك الله لك فيها. قال: وأ 7 الأقرع، فقال له: أيّ

---

(1) الراوية: سعدية شرفاوي.

(2) البخاري، صحيح البخاري، ج 3، ص 1276.

– أيضا: الحافظ بن كثير، البداية والنهاية، ج 2، ص 138.

شيء أحبّ إليك، فقال: شَعر حسن، ويذهب عنّي هذا، قد قذرني النّاس، فمسحه، فذهب وأعطي شعرًا حسنًا، فقال: أيّ المال أحبّ إليك؟ قال: البقر، فأعطاه بقرة حاملاً، فقال: يبارك الله لك فيها. وأ 7 الأعمى وقال له: أيّ شيء أحبّ إليك؟ قال: يردّ الله إليّ بصري، فأبصر به النّاس، قال: فمسحه فردّ الله له بصره، قال: أيّ المال أحبّ إليك؟ قال: الغنم، فأعطاه والدًا فأنتج هذا وولد هذا، فكان لهذا واد من الإبل ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من الغنم. ثمّ إنّه أ 7 الأبرص في صورته وهيئته فقال له: رجل مسكين تقطّعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ اليوم إلا بالله، ثمّ بك، أسألك بالذي أعطاك اللون والجلد الحسن والمال بعيرًا، أتبلّغ عليه في سفري، فقال له: إنّ الحقوق كثيرة، فقال له: كأنّي أعرفك! ألم تكن أبرص يقذرك النّاس؟ فقيرًا فأعطاك الله عزّ وجلّ؟ فقال: لقد ورثت لكابر عن كابر، فقال: إن كنت كاذبًا فصيّرك الله إلى ما كنت.

وأ 7 الأقرع في صورته وهيئته، فقال له مثل ما قال لهذا، فردّ عليه مثل ما ردّ عليه هذا، فقال: إن كنت كاذبًا فصيّرك الله إلى ما كنت عليه. وأ 7 الأعمى في صورته، فقال: مسكين، وابن سبيل، وتقطّعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ اليوم إلا بالله، ثمّ بك، أسألك بالذي ردّ عليك بصرك شاةً أتبلّغ بها في سفري، فقال: قد كنتُ أعمى، فردّ الله إليّ بصري، وفقيرًا فقد أغناني، فخذ ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله عزّ وجلّ، فقال: أمسك مالك، فإنّما ابتليتم، فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك ».

إنّ جملة من قصص الأولياء وكراماتهم التي تُروى في الميدان هي في الأصل مقتبسة من الحديث النبوي الشريف، ومعتمدة على قانون الاستبدال. منها هذه القصة التي تروى عن الشيخ محند الحسين وتُنسب إليه بأنّه يتمتّع بقدرة خارقة كتحكّمه في الحيوان وفهم لغته، مثل حكاية "الثور العنيد" الذي رفض الانصياع لأوامر مالكه وأضرب عن مواصلة الحرث، ولم تنفع معه كلّ محاولات صاحبه السلمية والعدوانيّة. لجأ الفلاح إلى الشيخ محند الحسين وشكا إليه أمر ثوره فأقبل الشيخ إلى الثور الرابض على الأرض كالأسد وداعبه بيده ثم همس في أذنه بحديث سرّي:

أمّـــــي لـــــو كـــــان أكتـــــسقم ثـــــوانزا
نوكيـــــد الخدمـــــة ثكـــــرزا
أمّـــــي أكنـــــسقم ثـــــوانزا
أكنـــــاوي ســـــكراز أكيعلـــــف ســـــثكترا
أيـــــا أمّـــــي أكيـــــواري ربّـــــي النفعيـــــك
أوغـــــال أروخدمـــــة أرثكـــــرزا([1])

وما إن سمع الثور كلام الشيخ حتّى وقف مستويًا، وانصاع لأمر صاحبه مواصلاً حراثة الحقل أمام دهشة الحاضرين. ورغم أنّ الراوي يؤكّد أنّ القصّة وقعت فعلاً، لكنّنا عندما نعود إلى المدوّنة نجد ما يماثلها، إن لم نقل أنّها أصلية، في حكاية "محمد ﷺ والجملان" التي تتلخّص فيما يأتي: « لمّا سافر محمد ﷺ وميسرة في رحلة إلى الشّام في تجارة لخديجة وحدث أن تأخّر جملان عن القافلة، وبدت عليهما علامات التعب الشديد، ولم يقدر ميسرة على إلحاقهما بالقافلة، فقد غمر العرق جسم الحيوانين البائسين، وهي العلامة على اقتراب أجلهما، فأخبر ميسرة محمدًا بذلك. عاد محمّد إلى الجملين فوجدهما استلقيا على الأرض، فلمّا حثّهما على القيام أخرجا صوتًا يتمثّل في الشكوى والألم العميق، فانحنى عليهما، ولمس بيديه المباركتين أخفتهما التي قطعتها أحجار الطريق الحادّة فقاما بعد أن كانا لا يبديان حراكًا ونشاطًا حتّى أدركا مقدّمة القافلة »[2]. ويكاد كلّ وليّ من أولياء المنطقة أو شاعرٍ أو راوٍ أن تُنسب إليه قصّة تجلي ملك له ليمدّه بالحكمة أو الميثاق أو موهبة الشعر والرواية، وهي لا تعدو أن تكون مجرّد استبدال للشخوص والأحداث لما حدث للنبيّ محمد عليه السلام، وغيره من الأنبياء عليم السلام.

---

(1) الراوي: محمد قمراوي.
يُترجم: عليك أن تواصل عملك حالاً، وإلا فإنّ سيّدك سيبيعك إلى الجزّار الذي سيذبحك ويعلّقك من عرقوبك، ثمّ يقطّعك إربًا إربًا.

(2) نصر الدين دينيه: محمد رسول الله، ص 84.

رابعًا - كتب القصص والسير والتاريخ

دوّن المسلمون أثمن تراثهم الشفوي مثل السير الشعبية والحكايات والأساطير وغيرها من الأجناس الأدبيّة وهي ما تزال محفوظة في شكل مخطوطات بأمّهات المكتبات العالمية، وكان للقصص الديني والمغازي النصيب الأوفر، فقد نظم أبو حامد الأسواني أرجوزة وملحمة طويلة بلغت مائة وثلاثين ألف بيت حول حكايات بدء الخليقة ونظام نشأة الكون وقصص الأنبياء[1]. وبذلك يمكن القول إنّ الأصول القديمة المدوّنة نفسها مستقاة هي بدورها من الرواية الشفوية. ولكن التدوين لا يلغي الرواية الشفوية التي ظلّت مستمرّة ومتوارثة مع النقل الكتابي[2].وانطلاقًا من اعتبار النصّ الشعري بنية متميّزة, أسمى شكل للإبداع الأدبي، وديوانًا كاملاً للمعارف الإنسانية، وأقدر على تمثيل خصائص المنطقة المدروسة. وهذا أمر يجعلها مستساغة أكثر لدى القارئ والسّامع، ويسهل على الذاكرة استيعابها، وعلى اللسان استظهارها. وتبرز في حكايات الألغاز المرويّة بالأمازيغيّة أو العربيّة الدارجة ملامح أصول التراث العربي، ففي حكاية "بنت الخرّاز" قال ابن الملك لرعيّته: لن تدخلوا السّوق حتّى تفسّروا هذا اللغز: ما هي الشجرة التي تتكوّن من اثني عشر فرعًا وكلّ فرع يتكوّن من ثلاثين غصنًا؟ وفي تغريبة بني هلال وردت على هذا الشكل: أخبرني عن شجرة فيها اثنا عشر غصنًا وفي كلّ غصن ثلاثون ورقة، وفي كلّ ورقة خمس ثمرات: اثنتان لونهما أبيض، وثلاث لونهما أسود، فيجيب: هي السنة والأشهر والأيّام والصلوات الخمس. ويُلاحظ أنّ الراوي المحترف أحمد فراج يستقي مادّته في الألغاز من كتاب ألف ليلة وليلة، لكنّه يدخل عليها تعديلات كأن يصوغها شعرًا بالدارجة، ومثال ذلك هذه الأبيات:

كـــــاين خلقــــــة خلقهـــــا الله	**فيهــــــا أمثـــــــال أربعـــــــة**
ملعــــــــود أدات الـــــــــراس	**وملجمـــــــــل أدّات البركـــــــة**
ملمنجــــــــل أدّات ضـــــــراس	**ملبغـــــــــل أدّات الـــــــصكة**

---

[1] انظر: آدم ميتز: الحضارة الإسلاميّة (عصر النهضة)، ج 1، ص 321.

[2] انظر: محمد أركون: القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ص 159.

الــــــــــــــراس راس العــــــــــــود	تـــــــــــــــبرك كالجمــــــــــــــــــل
كرعيهـــــــــــــا كالمنجـــــــــــــــل	وكـــــــــــي تطــــــــــير تــــــــــصك

إنّ هذا اللغز ورد على لسان النظّام في حكاية تودّد الجارية في كتاب ألف ليلة وليلة على الشكل الآتي: وما الدّابة التي لا تأوي إلى العمران وتسكن خرابًا وتبغض بني آدم وخلق فيها سبعة، رأسها رأس الفرس وعنقها عنق الثور، وجناحها جناح النسر، ورجلها رجل الجمل، وذنبها ذنب الحيّة وبطنها بطن العقرب، وقرنها قرن الغزال؟

قالت: هي الجرادة. وبذلك يصدق على هذا النموذج القص لأ ما يؤكّد عليه الباحثون الأنثروبولوجيون من ضرورة مقارنة عناصر التراث الشفوي المتداول في المجتمع الحاضر والذي يدرسه الباحث دراسة حقلية بعناصر التراث المكتوب والقديم الخاص بذلك المجتمع.

العامية في الخطاب السردي الجزائري

عبد الملك مرتاض والسائح الحبيب أنوذجين

الدكتور محمد تحريشي جامعة بشار

إن الكتابة بالعامية في الخطاب السردي أو توظيفها فيه قد يكون لغرض جمالي للوصول إلى واقعية الحدث وصدقه، وقد يكون مراعاة لحال المتكلم أو مناسبة لوضعية المتلقي والحال هذه فقد توظف العامية لتكون عامل فرقة كما قد توظف لتوحد بين أفراد المجتمع المتنوع في الاستعمال اللغوي؛ لأن كل موحد ما هو في الأساس إلا مجموعة أجزاء، فالتوحد يكون في المتعدد، والمتعدد يكون في التوحد مما يولد جمالا ومتعة فنية.

من المبدعين من يوظف العامية للحفاظ على تلك الشحنة القوية لحمولة الكلمات العامية أو الاستعمالات الشعبية، والتي يرى أنه لا يمكن أن تؤدى إلا بهذه الصيغة، في حين نجد آخرين يعمدون إلى تفصيح العامية بشرح في الهامش، أو يعزفون عن هذه الاستعمالات العامية بتوظيف لغة وسطى تقع بين الفصيح والعامي، ولكن هل سنكتب بالفصحى أم بالعامية المصرية أو بالعاميات الأخرى أم نزاوج بينها مثلما فعل توفيق الحكيم ونجيب محفوظ؛ لأن هذه المزاوجة تضفي على النص الروائي نوعا من الواقعية والصدق الفني؟ !

في رسالة من جميل حمداوي [1] إلى الناقد عبد الحميد عقار يتناول هذه القضية فيقول: "هناك ردود مختلفة للجواب عن هذه القضية العويصة، فهناك من يدعو إلى توظيف العامية فقط كما فعل عبد الرحمن الشرقاوي في روايته(الأرض)، وهناك من يدعو إلى تفصيح الرواية "ثم يستشهد برأي الدكتور عبد الملك مرتاض الذي يقول: " ينبغي أن نكتب الحوار باللغة العربية الفصحى وأن نكتب لكل مستوى مقامي باللغة المناسبة، فالقراء هم طلبة جامعيون فلماذا لا نكتب لهم بالعربية؟ فمن يفهم العامية

الجزائرية/المصرية/ الأردنية /المغربية. إذاً، لابد من تفصيح اللغة الحوارية أو سردنة الحوار بلغة شعرية جميلة. ولا يعني أن الكتابة بالعامية هي كتابة واقعية تعبر عن مستوى المتكلم الاجتماعي والثقافي .إن هذه الظاهرة المزعجة عرفت في بعض الكتابات الأدبية الأخرى حيث كاد بلزاك Balzacوهيجو Victor Hugo وسواهما ينادون بالويل والثبور، وعظائم الأمور، مما قد يلحق الأدب الفرنسي من مصائب العاميات المحلية الفرنسية، إلى أن جاء مارسيل بروست فحاول أن يقيس اللغة على مقدار الوضع الاجتماعي للشخصية في كتاباته الروائية. و هذا ما عمل به الدكتور مرتاض في رواياته وبالأخص في رواية مرايا متشظية، وهي قناعة نقدية وفنية عند الرجل .

ويرى جميل حمداوي أن" من الأفضل أن نقوم بتفصيح الرواية وجميع الفنون والأجناس الأدبية وخاصة السينما. وذلك لأننا لا نفهم ما يقوله العراقيون ولا الكويتيون ولا الأردنيون ولا التونسيون. فكم من مسرحيات هادفة وجادة لا تحقق التواصل بين المغاربة والمشارقة !والسبب يعود إلى كثرة العاميات واختلافها من بيئة إلى أخرى. لذلك لابد من استخدام اللغة العربية في جميع المقامات التخاطبية لنحقق التواصل بين المرسل والمتلقي، ونرفع من مستوى الثقافة والتواصل الأدبي والفني في عالمنا العربي. وينبغي كذلك أن تكون اللغة الروائية خاضعة لقواعد البيان العربي وقابلة لتفجيرها انزياحا وإبداعا واشتقاقا وتوليدا لخلق حداثة فنية ".و إن كنت لا أتفق مع هذا الرأي في بعض الجوانب على أن أساس العامية فصيح يجمع أكثر مما يفرق، ثم إن ما كان لا يحقق التواصل بين المغاربة والمشارقة أصبح الآن متداولا لدي الجمهور العربي كالعامية الخليجية والعامية الشامية وهلم جراً، وذلك بفضل الأعمال الدرامية وما تقدمه الفضائيات العربية .

1- **عبد الملك مرتاض:** ارتبط وجود الرواية الجديدة بقدرتها على التعامل مع اللغة تعاملا منتجا، والروائي عبد الملك مرتاض من الذين استطاعوا أن يتعاملوا مع اللغة من موقع العالم الذي يمارس التجريب ويتفنن فيه، ولعل القارئ لهذا النص

الروائي يلاحظ التدفق اللغوي والزخم مـن التنويعـات اللغويـة إلى درجـة أن اللغـة تصبح تجريبا في شكل تداعيات لغوية ومتتاليات سردية لا تكاد تنتهي. ويقول عبد الملك مرتاض:" إنا نطالب بتبني لغة شعرية في الرواية، ولكن ليست كالـشعر، ولغـة عالمية المستوى، ولكن ليست بالمقدار الذي تصبح فيه تقعرا وتفيهقـا... غـير أن عـدم علوها لا يعني إسفافها وفسادها وهزالتها وركاكتها..., ذلك علـى أسـاس أن أي عمـل إبداعي حداثي هو عمل باللغة قبـل كـل شيء ." ويتفـاوت التجريـب اللغـوي في النصوص الروائية في الجزائـر، فقـد عمـد بعـض الـروائيين إلى محاولـة تحديـد اللغـة وتحييدها إلى درجة قد نجد عنتا في تقبل هذه اللغة؛ ذلك أن الروائي يسعى إلى تفريـغ اللغة من أبعادها النمطية الدلالية المعروفة ويحاول إعطائها أبعـادا أخـرى جديـدة، ومن ثم تصبح لغة متحررة من أي مدلول مسبق. ولكن ألا يؤدي غيـاب إيديولوجيـة عن النص إلى ولادة نص ميت؟، ويصبح الحديث عن يتم النص أمرا مرغوبا فيه كـما يعرف في الدراسات الحداثية؛ إننا لا نستطيع في الواقع، مهما حاولنا، أن نفـرغ الـنص من إيديولوجيته، وأي نص هو لغة، واللغة هي إيديولوجية وهي نمط تفكير ومستوى من الإحساس والشعور. وأظن أننا إذا أفرغنا النص من محتواه الأيديولوجي ربـما ولـد النص ميتا، وربما أدى إلى يتمان النص لأن ليس له انتماء وكل خطاب من وجهة نظري الخاصة، وكل نص يحوي إيديولوجية بالمفهوم الفني وليس بـالمفهوم المـذهبي المتميـز، وإنما لكل نص أدبي رؤية فنية خاصة به. وإذا ما عدنا إلى الخطـاب الـروائي الجديـد نجد أن زعماءه، وعلى رأسهم نتـالي سـاروت وكلـود سـيمون، يرفـضون التعامـل مـع الواقع، ويرفضون الالتزام بالمفهوم القديم ليطرحوا مفهوما جديـدا لـه، فقـد ربطـه ألان روب قريي بالأيديولوجية. إن الالتزام يجب أن يكون بالأدب وهو الوعي وهـو اللغة ويجب أن يستمد الأدب حضوره من الداخل من خـلال الـنص والبنـاء وهـذا الكلام يفضي بنا إلى الحديث عن دور القارئ .

إن المتتبع للنص الروائي يلاحظ تدفقا لغويا وزخما من التنويعات اللغويـة إلى درجة أن اللغة تصبح تجريبا في شـكل تـداعيات لغويـة ومتتاليـات سرديـة لا تكـاد

تنتهي .. و إن الالتزام في الأدب هو الوعي باللغة، ويجب أن يستمد الأدب حضوره من الداخل من خلال النص والبناء، ويتقاطع مرتاض الروائي مع مرتاض الدارس الذي يقول:" إن اختيار لغة الرواية ليس أمرا ميسورا اذ هل أن نراعي، ونحن نكتب، مستويات المتلقين الذين نفترض وجودهم افتراضا ما، وذلك على مذهب الأدب التعليمي الذي يذهبه النقاد العرب التقليديون والمتمثل في أن الأدب يجب أن ينهض بوظيفة تنويرية في المجتمع ى. ومع أننا لا نذهب هذا المذهب العليل، ومع أننا أيضا نرى بأدبية اللغة حين تنشط عبر نفسها، من أجل نفسها؛ فإننا مع ذلك نميل إلى لا تكون هذه اللغة عامية ملحونة، أو سوقية هزيلة، أو متدنية رتيبة، ولكننا نميل إلى إمكان تبني لغة شعرية ما أمكن، مكثفة ما أمكن، موحية ما أمكن، تصطنع الجمل القصار ما أمكن، وتكون مفهومة ى إنا نطالب بتبني لغة شعرية في الرواية، ولكن ليست كالشعر ولغة عالية المستوى ولكن ليست بالمقدار الذي تصبح فيه تقعرا وتفيهقا.. غير أن عدم علوها لا يعني إسفافها وفسادها وهزالها وركاكتها.. وذلك على أساس أن أي عمل إبداعي حداثي هو عمل باللغة قبل كل شيء."

إن "صوت الكهف" نص يستع لأ بمناعته على القراءة من خلال ذلك الزخم اللغوي المتدفق بسهولة ويسر وعبر تلك السيولة الشعرية حتى أن الصفحات الأولى كانت عبارة عن تداعيات لغوية تشعر القارئ بالمتعة وتولد لديه معرفة وتدفعه إلى حب الاكتشاف والتطلع إلى ما يحمله النص من تنويعات لغوية تقوم على مبدأ التشابه والاختلاف.

إن مما يتميز به عبد الملك مرتاض هو تلك المقدرة على جعل اللغة طيعة مطواعة يشكلها كما يريد، وهي لا تع لأ له أمراً لأنه يتعامل معا تعامل العالم العارف بكل خباياها والمتحسس لمواطن الجمال فيها، والكاشف عن تلك القدرات التعبيرية الكامنة وراء توظيف الألفاظ توظيفا فنيا راقيا، وتتصف هذه اللغة بأنها لغة حضارية غير منفرة.

وتكاد رواية صوت الكهف أن تكون عبارة عن تـداعيات لغويـة يجـد القـارئ صعوبة في متابعتها، ويشعره ذلك بالمتعة والجمال وبالانسيابية والسهولة في توارد الألفاظ وتجاورها انطلاقا من مبدأ الاختيار والتوزيع والتأليف. وقد اسـتطاع الـروائي مرتـاض أن يتخصص في نوع من الكتابة الـسردية يقـوم عـلى الـسعي نحـو التأسـيس لخطـاب روائي يتعامل مع الرواية بوصفها تجربة لغوية قبل أي شيء أخر، إنها تجربة في الكتابـة وسـؤال يبحث عن جواب، وجواب لا يملك سؤالا واحدا. وإذا كان الأمر كذلك ألا يمكـن عـدّ هذه التجربة إسرافا لغويا أو نوعا من الترف اللغوي القائم على شعرية اللغة العربيـة، أو استثمارا لتنويعات لغوية تسعى إلى تركيب يتما يجوالأثر المرغوب في الوصول إليـه عـبر تلقي النص ؟ إن هذا الروائي يحاصر المعنى ويحيط به من كل جانب بتلك الثروة اللغويـة التي يمتلكها، من خلال تجربته في الكتابة، يحسن توظيفها توظيفا جماليـا حتـى أن الـنص يغطي كل الوظائف التعبيرية واللغوية والجمالية المرغوب فيها.

و تتصف هذه البنية بأنها بنية منغلقة لا تمدك بما تريد؛ لأنهـا تقبـل أكـثر مـن قراءة وتخريج، ثم إنها نص متجدد في بنيته وتركيبه ولا يسلمك نفسه بسهولة ويسر، وفي الوقت ذاته يغريك بمستوى من التقرب والتودد حتى تقع في شركه. يقول مرتاض عن علاقة المبدع باللغة:" ىبينما اللغة الإبداعية ى قابلة للتغير بحكم زئبقية الخيال العامل فيها، وبحكم الحرية الفنية التي يتمتع بها الأديب حـين يكتـب وهـو يلعـب بلغته وهو ينفخ فيها من روحه معاني جديدة، ويحملها طاقات دلالية لم يعدها أحـد فيها من ذي قبل ى يمنح ألفاظه دلالات جديدة فإذا هو كأنه يُنشئها لأول مرة؛ أي أنه يتبع في الكتابة ما يطلق عليه في اللغة النقدية المعاصرة الانزياح"..

إن اللغة العربية بالنسبة لهذا المبدع مسألة تـذوق ومعرفـة وحـسن اسـتغلال للقدرات الكامنة وراء كل تركيب، إنه يتعامل معها تعامل العالم العـارف بخباياهـا؛ فالعربية هي التي تحدد الخصوصية والهوية الحضارية و" من أجل كل ذلك يجـب أن تكون اللغة عظيمة الشأن، رفيعة القدر، كريمة المكانة، عالية القيمة: لدى كل الأمة، لأنها هي مضطرب تاريخها وحضارتها، وجراب رقيها وانحطاطهـا، ومـن أجـل ذلـك

كله يجب أن نعير أهمية بالغة للغة الإبداع، أو للغة في الإبداع؛ وذلك على أساس أنها هي مادة هذا الإبداع وجماله، ومرآة خياله، فلا خيال إلا باللغة، ولا جمال إلا باللغة ى. فهل بعد كل هذا يمكن أن ندبج كتابة، أو نكتب أدبا، أو نقرأه، خارج اللغة ؟ ."

و استفادت هذه البنية من حمولة النص الشعبي الفنية والجمالية لما استطاعت أن توظف الأمثال والحكايات الشعبية وكذا الخرافات كقصة ودعة، وقصة عزة ومعزوزة، مما ولّد حركة تناصية مهمة تجلت مظاهرها في تقاطع بين هذه النصوص المختلفة، كما تخفف الحوار من الفصحى ما أمكن ليسمح لبنية لغوية أخرى من مد النص بطاقة تعبيرية أخرى تغطي مساحة أخرى من إمكانات النص الجمالية، تم تكسر نمطية السرد وتسمح للقارئ باسترجاع الأنفاس لتتبع الحدث في الرواية.

ومن جمالية البنية اللغوية في هذا النص استعمال لغة صوتية استعمالا سيميائيا متميزا حيث استطاعت أن تشحن النص بحمولة فنية أخرى؛ من ذلك ما جاء في الرواية" وصوت الكتلة العجينية يسمع من خارج الدار"طاق.. طاق... طاق.."،صمت الليل يحمل الصوت إلى بعيد. بعيد بعيد"، وهو تعبير صوتي يدل على الحدث في مستوى معين قد لا يستطيع تعبير أخر أن يعبر عنه كمثل ما دل عليه هذا المستوى الصوتي، من ذلك أيضا ما جاء في الرواية". لحذائها العالي الكعب وقع موقّع. يحدث صوتا فوق بلاط البهو "طق.. طق ..طق .."..".وهو دليل حركة تنقل وعدم ثبات، وعاكس لحالة نفسية قد تدل على كبرياء جاكلين واستعلائها.

هذا وقد وظفت الرواية حمولة النص الشعبي من خلال مرجعية المؤلف الغنية بكتاباته المتعددة والمتنوعة، فقد أعطى هذا الالتقاء عالية بنت منصور بعدا آخر من الأبعاد التي حملتها داخل هذا النص، فكانت الحافز والمحرك و" ليس هناك بطل من أبطال السيرة الشعبية لا تقف وراء بطولته امرأة إما لتحققها وتؤكد وجودها، و إما لتعاديها وتدمير قيمتها وأهميتها، وللمرأة في السيرة الشعبية دور أساسي لا يقل في خطورته عن دور الرجل، بل إن هناك سيرة شعبية كاملة عقد لواء بطولتها للمرأة،

ولعب الرجال فيها أدوار التابعين والمعاونين هي سيرة ذات الهمة ى والمرأة في السيرة الشعبية لعبت أدوارا عديدة وهامة في تكوين البطل، وفي رسم صراعه وفي تحديد نهاية هذا الصراع."

ب ـ **البنية اللغوية للنص:** كانت البنية اللغوية الرهان الكبير الذي رفعه المؤلف وأزعم أن النص كان تجربة لغوية في الكتابة؛ فمنذ البداية نجد حرصا على إنتاج نص سردي متميز ينتج متعة جمالية ومعرفة قد ترضي القارئ كما قد تقلقه أو تزعجه، وقد تهادنه فتدعوه إلى المساهمة في بناء الفراغ، في بناء عالم مرغوب في وجوده. إن رواية "مرايا متشظية " نص يحتفل باللغة وينتصر لها ويرتقي بها إلى آفاق سامية؛ ولهذا كان الروائي حريصا على ضبط اللغة ضبطا دقيقا عبر الاختيار المدروس للمعجم المستعمل، ويعكس هذا حرصه على أن تؤدي اللغة وظيفتها التبليغية والإبلاغية، ويكاد الوصف أن يكون من أهم جماليات البنية اللغوية لهذا النص، فقد استثمره المؤلف استثمارا جيدا، وكأنه يريد إعلان الحياد مما جرى ويجري؛ يقول:" الشيخ يتهدّج صوته، تطول لحيته البيضاء. يغمض عينيه. يسترجع أنفاسه. كأنه كان يحكي لأهل الحلقة منذ دهر طويل. أجهده التعب. يسترسل وكأنه يهمس."...

ولعل هذه التقنية الموظفة بعناية واهتمام تشعرنا بتلك الفخامة اللغوية، فقد أسهم الوصف في رسم بنية لغوية تعكس لنا سلطة نصية عبر هذا التصوير الجامع بين الشيخ وأهل الحلقة لسرد أخبار وقعت، أو أنه رسم لها أن تقع، أو تصور المؤلف وقوعها، ثم إن الوصف لم يكن عاديا ولا موظفا توظيفا سمجا، بل إن المؤلف أضاف إليه مسحة خاصة لما زينه بتلك القدرة والتمكن على تطويع اللغة لتخدم الوصف، ومن ثم تنتصر بانتصاره وتفرده وتميزه. كما تزين الوصف بمسحة أسطورية في بعض المواقف، من ذلك ما نصل إليه لما نقترب من عالم " عالية بنت منصور" هذا العالم السحري الأسطوري الذي يصفه السارد بقوله:" يا الله ... يا لروعة هذه الصبية الحسناء الهيفاء الفاتنة الساحرة الآسرة وهي تطوف بك في أرجاء قصر عالية بنت منصور الذي لا يوجد له نظير في القصور، فهو يبدو من قمم الروابي السبع مجرد قصر

واحد ولكنه ضخم فخم. وجليل جميل، حتى إذا دخله الداخل ولم يدخله من أبناء البشر قبلك أحد. ولن يدخله بعدك أحد... رأى العجائب التي لا توصف...أنت أول من دخله من البشر"...، ويبدو أن المؤلف وقع تحت سحر هذه الشخصية الأسطورية ، فكأنه وقع مع اللغة في حرب وتحدٍ حتى يطوعها لتكون في خدمة عالية بنت منصور التي تتجمع من حولها كل الأبعاد السيميائية للنص .

السائح الحبيب: وتحقق ذلك على مستوى لغة الوصف كما تحقق في لغة الحوار؛ يقول نص تماسخت واصفا:" أمسكت يدها تقودها خلفك طفلة، وفي الحوش استوقفتك تخلص أصابعها، مبهورة بالليل الملون، مسحورة بأنوار القناديل ذات التراصيع المشعة، حمرة في خضرة في صفرة، متقاطعة في الزوايا فوق رأسها، ممزوجة بدخان احتراق الجاوي وعود القماري، معروكة بعطر الياسمين، توهج النضارة، توشح السلام في وجوه رجال، صفوفا ثلاثة جلسوا فتراتبوا بتصدرهم صف الجوق بالعمائم التوتية والعبايات التبرية، وعن شمالهم نساء في أعينهن تفتق اللهفة، يجاوز استطلاعهن حدود حواشي المحارم الزاهية بانسياح الخصلات فوق حواجب شهشها المرود كما الجفون كحلا.... هكذا يرسم هذا النص السردي خصوصية من احتفالية مغاربية أنتجت لغة واصفة مميزة. هذا وقد احتوى هذا النص على ثلاثة مستويات حوارية جزائرية ومغربية وتونسية. يقول:" ـ خدمت في صفوف الطاغوت ؟

ـ أسفل قدميّ بلاطة.

ـ ماذا تشتغل عند الطاغوت ؟

ـ أنا بطّال.

ـ درست في وكر الكفر ؟

ـ طردوني من الثانوية.

ـ ستصلك بطاقة الهوية الإسلامية ."

إن هذا المقطع الحواري يعكس جانبا من محنة الجزائر، والطاغوت هاهنا هو السلطة الجزائرية.

وينقل النص مستوى آخر من الحوار حيث يقول":

ـ مرحبا.

ـ كيراك؟

ـ أعتذر.

ـ ما عليهش.

ـ جئتنا بالخير.

ـ أه، نو يوة دافية.

ـ كيف الحال ؟

ـ شوية شوية.

ـ شيء فظيع ما يحدث عندكم..

ـ ديناميا الجنون.

ـ اعلى من الجنون.

ـ ما لا يرى أو يسمع عنه أشنع.

ـ قلوبنا معكم.

ـ ربي يحفظك.

ـ تكلمت مع الأخوة في الجمعية.. تشرب قهوة وبعد نروح للفندق.

ـ ولكن..

ـ لا تهتم .. الأخوة يتكلفون.

ـ الواصلي مسلم عليك.

ـ كيف حاله.

ـ كحالنا جميعا.. شبه سرية، خوف، تحايل على الموت المبرمج بخنجر أو محشوشة.

ـ المكاوي هنا..جاء من مكناس.

شيء جميل. لم نلتقِ منذ وجدة ونحن نقيم في مدينة واحدة.

ـ وجدة كانت بداية مجهضة.. المثقفون لا يملكون مجالا للتحرك إلا في حدود السياسي.

ـ كأنه قدر. الواصلي حثني على الاتصال بك في حال خروجي.

ـ صديق. أنا وأنت لم نتعارف بما يكفي في وجدة

صحيح ولكني عرفتك من خلال كتابك الذي مرره لي الواصلي وأنت في السجن. قرأته باهتمام.

ـ شكرا. خرج جذاذة.

ـ كذلك حدثني الواصلي.. وحالك الآن؟

ـ ليس أسوأ. وعدت بوظيفة في كتابة حقوق الإنسان ستكون أنت أولى حالة يحصل لي شرف التكفل بها.

ـ شكرا، يحصل لي أنا الشرف، ولكن أنت أولى بحالك مني.

ـ أمزح.

ـ مهما يكن، مؤسسات كثيرة، لكن ما أقل التفاتتها إلى ما يعانيه إنساننا في جسده وضميره وحقه.

ـ لأن تلك المؤسسات لا تستطيع التأثير في الرأي العالم ولا أن تـشكل رقابـة على أجهزة القمع ."

لعل هذا المقطع من حوار مطول نوعا ما، يكشف عن خصوصية الحوار في الكتابة المغاربية على وجه العموم، وعند السائح الحبيب، وهو حوار اشتغل عليه المبدع، أنتجه وولده، فهو يشبه لغة الشارع المتداولة يوميا بين الناس، ولكنه مختلف عنها، إنه شفاف نقي سلس. وهو متباين عن الحوار في الرواية المشرقية حيث يكون الحوار في الكثير من المدونات السردية مشابها للغة الحوار اليومي في الشارع، فكأن الروائي يأخذ من هذه اللغة ما يناسبه دون أن يشتغل عليه أو أن يمارس عليه فعل التجريب. ومع ذلك قد نشعر بنوع من التدخل والتصرف لخدمة التوجه الفني للنص؛ من ذلك قوله: المثقفون لا يملكون مجالا للتحرك إلا في حدود السياسي، وقد لا ينتبه القارئ إلى نتوء هذه العبارة التي تنقل بصدق مستوى النقاش بين المثقفين المغاربة داخل حدود السياسي الذي هم أحد مكوناته الفاعلة.

إنّ هذا الحوار صورة تفاعليـة بـين الـذات الوافـدة المثقلـة بـالهموم، والـذات المستقبلة للبطل لما انتقل إلى المغرب، وعندما تحول هذا إلى تـونس اسـتطاع الـنص أن يرصد لنا مستوى آخر من الحوار يشترك فيه الجزائري والتونسي

إن هذا الحوار صورة تفاعلية بين الذات الوافـدة المثقلـة بـالهموم، والـذات المستقبلة للبطل لما انتقل إلى المغرب، وعندما تحول هذا إلى تـونس اسـتطاع الـنص أن يرصد لنا مستوى آخر من الحوار يشترك فيه الجزائري والتونسي. يقول:

" ـ ماذا قال لك إمام الزيتونة المعين؟

ـ أوصاني بشيئين لا يمتكلهما الإيمان والشجاعة.

ـ أنا أبعدت يده من على رأسي.

ـ حدثته كيف انفجر الدم من رأسي عمار بطلقة من كابوس فرانكي.

ـ سألني هل أحفظ الشهادة.

ـ قلت له: عمري عام واحد وربي ما يحاسبني.

ـ أحنا قراين.

ـ عرفت ذاك الذي دخل علينا بعد وكيل الجمهورية ؟

ـ الباشطر؟

ـ كنية اقل من مقامه.

ـ سنصل.

ـ سألني عن لذة طعم اللحم البشري التي يحسها الحديد فقلت له: رقبتك يا كل منها الموس ولا يشبع. واستجمعت نخامي ولكنه لم يقترب الخبيث.

ـ رأيت البارحة طيرا يشبه لونه الحديد يأكل من قفاي, وأنا على صدري كأني أسبح وراء أمي التي تناديني غارقة.

ـ أنا بت أطارد علياء بلباسها البيض في حقل قمح أحمر.

ـ هل رأيت الملائكة يوما؟."...

هكذا يبدو جليا أن السائح الحبيب يشتغل على حواره ولا يخرجه إلا بحسب الصيغة المرغوب فيها والبنية التي يريد. إنه يمارس التجريب في كل جزء من النص، ونشعر أن الحوار حاصل بين المتحاورين، وفي الوقت ذاته هو تلفيقة من تلفيقات المبدع .

وشّح السائح الحبيب حوارته ببعض الخصوصية اللهجية في رواية "تماسخت"، فلما كان البطل في الجزائر استعمل خصوصية لهجية جزائرية" ـ أنت كما، صاحبك..هيا، الدوزيام ـ في غرضك.. أطلقني. ـ تربحوا. ـ بعد يدك. ـ حاسب روحه حكومة" ، ولما رحل على المغرب نجد خصوصية لهجية مغربية" ـ أيوه دبه، آش هذا

الشي للي كتعمل؟..... وفي حواراته اعتمد على العامية واللهجة المحلية حتى يطبع العمل بخصوصية محلية تقربه من الواقع باختياره بنيات لغوية قصيرة جدا مكثفة تكثيفا فينا ممارسا فعل التجريب.

إنّ السائح الحبيب بهذا العمل يؤسس لكتابة تجمع بين المتفرق والمتعدد فشخصية كريم في تماسخت عاشت في الجزائر ثم انتقلت إلى المغرب، ومن ثم إلى تونس فالعودة إلى الجزائر. وبذلك كان النص نصا للجزائر وعنها كُتب، وفيها وفي المغرب وتونس دُوّن، نص سردي اعتمد على الوصف ونقل الأحاسيس والمشاعر بلغة عربية فصيحة مشتركة بين البلدان الثلاث، وفي حواراته اعتمد على العامية واللهجة المحلية حتى يطبع العمل بخصوصية محلية تقربه من الواقع باختياره بنيات لغوية قصيرة جدا مكثفة تكثيفا فنيا ممارسا فعل التجريب. وهو بذلك قريب من النتيجة التي توصل إليها الناقد التونسي بوشوشة حيث يقول: " إن أسلوب التعامل مع اللغة يختلف على الرغم من تشابه الأجواء الروائية لهؤلاء الكتاب، فاللغة أكثر رصانة ومتانة عند المشارقة، بينما نجد الكتاب المغاربيين يمارسون نوعا من الصعلكة اللغوية مما يجعل كتاباتهم تحمل الكثير من الشراسة والاستفزاز اللغوية .فالأديب المغاربي له أسلوبه الخاص في التعامل مع اللغة واختيار الألفاظ وبنية الجملة".

مَسَالِكُ الـتَّعَامُل بَيْنَ
العَرَبيَّة الفُصْحَى وعَامِّيَّاتِهَا

د. توفيق قريرة- الجامعة التونسية

مقدّمـــة

تهدف هذه المداخلة إلى إثبات فكرة حولها خلاف : أنّ العربيّة الفصحى ما تزال في حركة تعامل مع لهجاتها الكبرى والصغرى وأنّها بحكم هذا التعامل ما تزال تؤثّر في تلك اللهجات ولكن أيضا تتأثّر بها. ونحن نبيّن في فقرات العمل اللاّحقة مسالك هذا التعامل الذي وإن كنّا نعتقد أنّه قد يمرّ بفترات من الفتور فلا نظنّ أنّه ينقطع.

غير أنّنا نرى من المفيد قبل الدخول في مسالك هذا التعامل المتشعبة أن نذكّر بمبادئ تخصّ طبيعة العربيّة الفصيحة وبخصوصيّة علاقاتها بأشدّ العاميّات انتشارا في الأقطار العربيّة. واعتمادنا سيكون في الأصل على العاميّة التُّونسيّة لوثوق معرفتنا بها أكثر من غيرها.

المبدأ الأوّل: أنّ مانسمّيه اليوم عربيّة فصحى إنّما هي في الأصل خليط لهجي عربيّ قديم هيمنت فيه لهجتان :الحجازيّة والتميميّة على بقيّة اللهجات المتداولة في شبه الجزيرة العربيّة.

وهذا المبدأ يناقض الفكرة التي روّج لها بعض المستشرقين من أنّ العربيّة الفصحى هي لغة راقية يسمّونها "الكوينيّة" koiné لا نجدها إلاّ في الخطابات الراقية من شعر وقرآن وغيرها . وهي على بناء على ذلك لغة لم تتكلّم بها العرب في تخاطباتها اليوميّة. لكن يكفي أن نلقي نظرة على "كتاب" سيبويه لا باه يستشهد من كلام العرب اليومي بل يقيم تنظيره على هذا الرصيد شأنه شأن الشعر والقرآن؛ بل يمكن لغير المختصّين أن يلاحظوا في كتب الأخبار صدى لهذا الكلام الحيّ اليومي وتعليقا

على اللهجات المتعاملة فيما بينها.و قديما قال دارسو النصّ القرآني إنّه نزل بلغات العرب الكثيرة.

المبدأ الثاني: نحن نستعمل اليوم عبارة **عاميّة** استعمالا متّسعا وغير دقيق لوسم مستويات كثيرة من إنجاز المتكلمين في قطر من الأقطار أو في جهة من الجهات في مقابل إنجاز العربيّة الفصيحة. دون أن يدور في خلدنا هذا التقاطع -الحاضر في بعض الأحيان بكثافة- بين الفصيح والعاميّ ودون أن نفصل بين المستوى العاميّ أهو صوتي أم معجميّ أم صرفيّ أم تركيبيّ ...كما أنّ استعمالنا للفظ عاميّة قد يختلط عن وعي أو لا وعي بلفظ لهجة الأكثر دقّة منه.و إذا كانت اللهجة قد اكتسبت ضبطها العلمي من الدراسات اللّسانيّة على اختلاف اتّجاهاتها وخصوصا منها اللسانيّات الاجتماعيّة والتاريخيّة والجغرافيّة ، فإنّ العاميّة التي اشتقّت من "العاميّ" قد أكّدت من حيث لا تدري هذا التقابل بين مستوى من اللغة راق وفصيح وآخر متداول كالمبتذل والحقّ أنّ في العاميّة مستويات من الفصاحة ودرجات من الفنيّة ولا مجال للحديث علميّا عن ابتذال أو سوقيّة أو غيره من النعوت الأخلاقيّة التي ربّما مسّت العاميّة دون غيرها. إنّ أغلب تعاملنا اليوم مع الفصحى أو العاميّات يتجاوز التعامل الوظيفي إلى تعامل تقييمي أي من تعامل يرى اللسان في الدور الذي يؤديه تواصلا وتفاهما وتعبيرا..إلى تعامل ربّما يعظّم من شأن لسان أو يحقّر من شأن آخر؛ ونسبة مهمّة من عدم تفاهمنا بلهجاتنا يعود إلى حاجز نفسي أساسه الحكم المسبق على لهجة ما بالغموض..

المبدأ الثالث: أنّ البحوث الحديثة تفرّق بين مستويات من اللهجات فاللساني الفرنسي ج.ك.كورباي J.C .Corbeil(In La norme .. ;283) مثلا يميّز بين مستويات لهجيّة بحسب الحجم البشري والاتّساع الثقافي الذي تمتدّ عليه ولذلك كانت قسمته تلك المستويات اللهجيّة كالتالي:

- لهجة الفرد و يسميّها Idiolecte تتحدّد ثقافيّا بشخصيّة الفرد.

- لهجة صغرى يسمّيها Infralecte تتكلمها مجموعة صغرى داخل مجموعة أكبر منها مثل لهجة الجريد في تونس أو الصعيد في مصر وكان بعض النّحاة القدامى يسمّيها لُغيّة.

- لهجة اجتماعيّة ويسمّيها Sociolecte وتتكلمها مجموعة متجانسة الثقافة وهنا يمكن أن نطلق لفظ العاميّة باعتبارها لهجة تخصّ جماعة معلومة.

- لهجة كبرى Supralecte وهي تمتدّ على مجموعة كبرى بينها تجانس ثقافي كما هو الحال اليوم في العاميّات الخليجيّة التي يمكن عدّها لهجة كبرى.

وفائدة هذا التقسيم تكمن في محاولة الكشف عن دور كلّ مستوى لهجي في إبانة التعامل بين اللهجة بجميع مستوياتها واللغة العربيّة الفصحى مصدر تلك اللهجات.

وبناء على هذه المبادئ الثلاثة التي نعتبرها منطلقات منهجيّة لبحثنا في التعامل بين الفصحى وعاميّاتها فإنّنا نعتبر تعاملا في هذا البحث كلّ الإجراءات أو التّأثيرات أو القيود أو التوجيهات التي تظهر بصراحة أو تكمن عند التقاء العربيّة بعاميّاتها التي تفرّعت منها. وهذا التعامل سوف يلحظ من زاويتي نظر متكاملتين :زاوية الفصحى وهي تتعامل مع لهجاتها ، وزاوية العاميّات وهي تتعامل مع العربيّة في هذا العصر.

1- العربيّة الفُصحى ومسالك التّعامل مع العــاميّات: لو اعتبرنا العاميّات بمثابة لهجات لاقتبسنا تعريف اللسانيّات العامّة في ربطها اللهجة باللغة ونعني في سياق الحال العربيّة الفصحى . فـ" اللهجة هي نظام من العلامات والقواعد الترابطيّة لها نفس المصدر الذي لنظام آخر يعتبر بمثابة لغة ويكون تطوّرها مستقلاّ عنها.") (Dubois et al. 143 غير أنّ تعريفا مثل هذا لا يقنعنا قسمه الأخير الذي يرى أنّ تطوّر اللهجة يحدث باستقلال عن اللغة التي انبثقت منها ذلك أنّنا سنبيّن في الفقرات اللاّحقة كيف أنّ العاميّات في أغلبها- ومثالنا العاميّة التونسيّة- لم يعرف تطوّره إلاّ باحترام آليّات هي في أصلها مستوحاة من النظام اللغوي للفصحى.

1-1 – المسلك الأوّل: النقلُ

1-1-1 في المُعْجــَمُ: على الرغم من أنّ العاميّات العربيّة تتعامل اليوم مع لغات أجنبيّة من فرنسيّة أو أنقليزيّة أو غيرها فإنّ الغالب على معجمها العبارة العربيّة المورد وكثيرة هي العبارات التي نجهل مصادرها فإنّ الأصل العربيّ القديم هو الذي يبرّرها.

لكنّ العاميّة لا تأخذ العبارة العربيّة دون أن تتصرّف فيها ويهمّنا ههنا أن نبيّن آليّات التصرّف وأسبابه اعتمادا على أمثلة من العاميّة التونسيّة.

سوف نختار للغرض حقلا دلاليّا معلوما لـ بين كيفيّة تدخّل الفصيح في تشكيل المعجم العاميّ.

الحقل الذي اخترناه هو *حقل السياقة* وهو من الحقول الدلاليّة التي يستعملها التونسي يوميّا ويساهم في إثراء معجمه باستخدام عبارات دخيلة وأخرى عربيّة ..

1-1-1 -2- الآليّات المستخدمة: (*)- *تعجيم الصيغة العربيّة بمادّة دخيلة* : ونعني بها أنّ التونسي يأخذ العبارة الأعجميّة ولكنّه يعيد تشكيلها بصوغها بأحد القوالب العربيّة وبذلك تحدث معجمة Lexicalisation صيغة عربيّة بمادّة أجنبيّة أو دخيلة وهذا يظهر في النماذج التالية:

ء- شوف كيفاش *يزقزق* بالكرهبة!

ب- ماتفرنيش بالقوي في الحدرة.

فصيغتا الفعل في (ء) و(ب) صيغتان عربيّتان معروفتان في الفعل على وزن (يُفَعْلل) الأولى رباعيّة مضاعفة أخذ فيها الاسم zigzag أو الفعل zigzaguer الفرنسيّان مأخذ فعل أو اسم عربي مضاعف وأمّا الثاني فبني من freiner على صيغة الفعل الرباعي غير المضاعف.

(*) *إضفاء مقولات صرفيّة عربيّة على عبارات دخيلة:*

ج- شوف لي *البوجيات* وبدلي *الفلتروات*

د- *دماري* و*أكسيليري* شوي.

في (ج) أضفيت مقولات تصريف الاسم العربي على أسماء دخيلة وهي التعيين (لام التعريف) والعدد(تاء جمع المؤنث السّالم) ؛ وفي (د) صرّف الفعل الأعجمي بمقولات التصريف العربيّة في صيغة الأمر (التي في العاميّة وليست تلك التي في العربيّة وإن كانت مأخوذة منها).

*- *نقل العبارة العربيّة بإدخال تغييرات صوتيّة أو بعدم إدخالها:*

هـ- *سُوقْ* بالسياسة .. يا ولدي *نقّص*، قدّامك فيراج.

و- دوّر *المفتاح* قبل ما *تشعّل الضوّ*.

الفعل(سوق) في صيغة الأمر نقل من نظيره العربيّ لكنّه أشبع بإطالة المقطع الأوّل من قصير [cv] إلى طويل[cvv] ولكنّ الفعل(نقّص) و(دوّر) والاسم (مفتاح) حافظت على نظامها التعاملي الذي لها في الفصحى.

على أنّه من المفيد أن نلاحظ اعتمادا على مثالي (دوّر) و(الضوّ) في (و) أنّ العاميّة التونسيّة قد تصرّفت صوتيّا في إمكانات يتيحها النّظام الصرفي أو الصوتي في مستوى البنية النظريّة ولكنّ الإنجاز ينكّب عنها. فالفعل (دوّر) وهو على زنة (فعّل) ممكن في العربيّة نظريّة وإنجازا ولكنّ الفصحى تخيّر استخدام صيغة أخرى هي (أفعِلْ) ولا توجد أسباب تعامليّة تمنع مثل (فعّل) فالمسألة اختيار بنية اشتقاقية دون أخرى ولذا جاءت العاميّة لتستفيد من هذا الإمكان ففرّت من ثقل الهمزة الافتتاحيّة إلى خفّة التضعيف وهو كما هو معلوم ثقل ولكن في وسط الكلمة.

وأمّا عبارة (الضوّ) ففيها قلب للمماثلة إذ أبدلت الهمزة من الواو لطلب الخفّة بالمماثلة. هذا الإجراء مألوف في التعامل بين الواو والهمزة في كثير من الكلمات العربيّة التي يتجاور فيها الصوتان، غير أنّ العربيّة الفصيحة تختار الإبقاء على التباين

الصوتي الذي في الحروف الأصول ولا ترضاه العاميّة التونسيّة وإن كانت بعض العاميّات الأخرى (المصريّة) لا تخالف الفصحى في ذلك. إنّ الأبنية التي تأخذها العاميّة التونسيّة من العربيّة الفصحى وتملؤها بمادّة صوتيّة ذات أصول عربيّة أو دخيلة تمثّل النواة الصلبة في مسلك التعامل المعجمي بين العربيّة والتونسيّة. ومعنى الصلابة أنّ التونسيّ لا يمدّ يده إلى لغة غيره إلاّ بعد أن يكون قد مهّد لاقتراضه ببناء لغويّ لا يمكن أن يستقيم من غير صيغة تشدّه ومهاد يقوم عليه.

غير أنّ كثيرا من دارسي "الاقتراض" في العاميّات يتغاضون عادة عن الجسم الذي لفّ فيه الثوب الإفرنجيّ الدخيل ولا يلتفتون إلاّ إلى الأصول الأعجمية في عبارات من نوع العبارات التي أوردناها في الحقل المعجمي السّابق. إنّ الحقيقة التي نقف عليها في هذه الفقرة أنّ العربيّة الفصحى ورّثت عاميّاتها (ومثالنا هنا من التونسيّة) آليّة قلّما يمرّ اقتراض ودخيل من غير بوّابتها نعني الصبغة الاشتقاقيّة للغة العربيّة.كأنّنا نقول بذلك إنّ الانتقال من اللغة الأجنبيّة إلى العاميّة لا يمرّ إلاّ بآليّات هي في الأصل ملك عربيّة فصيحة. وهذا القول وصل إليه من قبلنا الطيب البكّوش وهو يدرس الاقتراض في العربيّة المعاصرة فقال: " إنّ المعالجة الاشتقاقيّة للاقتراضات في العربيّة هي بلا منازع مقياس الإدماج الأمثل؛ لانّ الاقتراض يضيع ، بما هو وحدة، كلّ سماته الأجنبيّة بيد أنّه يندمج في النظام الصيغي العربي الأساسي ويخضع لآليّة الاشتقاق ذات الركيزتين الرئيستين: الجذر والصيغة."(Baccouche : 1994 ;150) [1]

1-1 – 2: **في التركيب**: ما من شكّ في أنّ السمة الأساسيّة للغة العربيّة الفصيحة هي أنّها لغة إعرابيّة.ولكنّ العاميّات في نظر أغلب الدّارسين قد أبطلت دور الإعراب فلم يعد متكلّم العاميّة التونسيّة يحتاج الرفع والنصب والجرّ ولاغيره من العلامات يبني

---

[1] « Le traitement dérivationnel des emprunts en arabe est incontestablement le critère le plus parfait carnon seulement l'emprunt perd , en tant qu'unité tout ses traits étrangers , mais il s'intègre ai système morphologique arabe le plus fondamental et subit le mécanisme de la dérivation dont les deux principaux piliers sont la racine et le schème . »

جملته بناء هندسيّا يراعي فيه المحلاّت والوظائف.إلاّ أنّ هذا التأويل يصحّ في جانب من تركيب العاميّة التونسيّة ولا يصحّ في آخرى: هو يصحّ فيما يتعلّق بغياب الإعراب بما هو حركات أواخر الكلم الذي عوّضه البناء اللازم على السّكون ولكنّه لا يصدق على أركان أخرى من الإعراب التي تتجاوز مجرّد إجراء الحركات على أواخر الكلم إلى بناء تجريدي لهندسة الجملة العربيّة.

لنأخذ على سبيل المثال العبارة التالية من الفصحى: *- ضْرَبْنِي وِبْ َع

لا يمكن أن ينكر نحويّ أو لسانيّ أن الإعراب موجود في الجملتين على الرغم من عدم وجود حركات إعراب ظاهرة ، فالإعراب الذي هو ضدّ البناء مقدّر فيها ؛ والإعراب الذي عليه الاتّكال في تقسيم الجملة إلى محلاّت إعرابيّة مجرّدة موجود ومؤسّس على الإسناد (الفاعليّة والمفعوليّة في الجملة الأولى والفاعليّة في الثانية وما ارتبط بها من علاقات عمل إعرابي وإسناد..). ولسنا نجد من فروق إعرابيّة كبرى في قول التونسي في سياق مثلي رمزي: *- ضربني وبـ ع ..سْبَقْنِي وشْكَا. وقولنا في الفصحى : *- ضَرَبَني وبَ َع ، سبقني وشَكَا.

ففيما عدا الفروق الصوتيّة التي تمسّ البنية الصيغيّة للكلم ، لا نجد من فارق في نظام بناء الجملة تركيبيّا بواسطة الإعراب الأكبر المتعلّق بهندسة الجملة المجرّدة. حتّى إنّه من الممكن أن نقترض آليّات تحليل الجملة الفصيحة وبها نحلل الجملة العاميّة كالتالي :

ضَرَبَنِي [محلّ رفع (فعل رافع *فاعل مرفوع) *محلّ نصب (فعل ناصب*مفع منصوب)]
ضْرَبْني

إنّ العاميّة التونسيّة قد أخذت من العربيّة الفصحى نظامها الإعرابي وبه بُنيت هندسة الجملة الكبرى وإن كنّا نجد فروقا كبيرة في بعض التراكيب الفرعيّة داخل الجملة.

فمثلا إذا ما نظرنا إلى المركّب الإضافي في العاميّة التونسيّة وجدناه متنوّعا فيه نسبة من التجديد حتّمها الاستغناء الجزئي عن العلاقة الإعرابيّة الظاهرة التي تسمها علامة الجرّ الظّاهرة في المضاف إليه كما في المثال التالي:

*- غلامُ زيدٍ / خَاتَمُ فِضَّةٍ

في مثل هذا المركّب استخدم التونسيّون علاقتين تركيبيّتين:

- علاقة الإضافة القديمة وفيها إبطال الحركة الإعرابيّة : دارِ الشَّعْبْ/ دَارِ الثقافَة / دار الحزب، دار الضَّوْ، دار المَا..
- علاقة جديدة لا صلة لها بالإضافة القديمة بأن عجّموا ما عبّرت عنه العلاقة ضمنا نعني علاقة النسبة أو الملكيّة المضمرة في القول السابق فنجد عبارات من نوع (متاع، ..) كما في (أعْطِينِي القْلَمْ مْتَاعِي). مثل هذا التعجيم لعلاقة النسبة التي كانت مضمرة في الإضافة نجده في عاميّات عربيّة أخرى كاللبنانية التي تستعمل عبارة (تبع) (القلم تبعي)، أو المصريّة التي تستعمل العبارة بقلب مكاني طريف (بتاعي) والمغربيّة التي تستعمل عبارة(ديالي)...

على أنّ الإضافة التي تفيد الجنسيّة أو التبعيض انقلبت في اللهجة التونسيّة إلى علاقة نعت فلا يقول التونسي (خاتمْ فضَّة)أو (بابْ حْدِيدْ) إلاّ وهو يعني الوصفيّة فمقولة الجنس صار يعبّر عنها بالوصفيّة لا بالإضافة.

إنّ تعجيم العلاقة التركيبيّة بابتداع عبارة صريحة تعبّر عنها وعدم الاتّكال على العلاقة الإعرابيّة هو بقاء داخل مقتضيات المقولة التركيبيّة وإن جدّدت الآليّة في التعبير عنها وقديما كان المناطقة يلومون النّحاة على هذا الاختزال الذي اعتبروه " تسامحا" في التعبير عن العلاقة النسبيّة أو الإضافيّة. (1) لقد حدث كثير من التغيير

(1) يعتبر المناطقة أنّ البنية المثلى للإضافة ليست ما نجده لدى النّحاة ، فالفارابي مثلا يرى أنّ الأسماء الدّالة على الإضافة ضربان : أسماء دالّة على ذات المتضايفين وأسماء دالّة على معنى الإضافة ، ففي قولنا : (ثور زيد) فأنّ (ثور) و(زيد) يدلاّن على ذات المتضايقين ولا يوجد في المثال ما يدلّ على=

في التراكيب العاميّة التونسيّة بالمقارنة إلى العربيّة الفصحى وهي تغييرات يمكن ردّها إلى طرفين :جدولي ونسقي ، ولكن مهما كان التغيير فإنّ روح التركيب العربي تظلّ حاضرة:

*-*التغيير الجدولي* Paradigmatique :

- بإحلال فعل قريب من جدول آخر فصيح: (مستوى معجمي)

الفصيح	العاميّ التونسي:
*اتركني هادئا	خَلِّينِي رَايِضْ
*- خلني هادئا	* اتركني رايض

اللاّنحويّة Agrammaticalitéفي الفصيح والعاميّ ليست أسبابه تركيبيّة بل معجميّة فلا الفصيح يستعمل فعل العاميّة ولا العاميّة يستعمل فعل الفصيح ولكنّ الإجراء التركيبي واحد بين الاستخدامين.

- اعتماد وزن قريب من آخر فصيح (مستوى اشتقاقي)

التعامل بين فعّل وأفعل : تميل الفصحى إلى أفعل وتميل العاميّة التونسيّة إلى فعّل.

الفصيح	العامي التونسي
أَخْرَجَنِي عنْ طَوْرِي	خَرِّجْنِي مِنْ عَقْلِي
*خرّجني عن طوري	* أخرجني من عقلي

=اسميهما من حيث لهما ذلك النوع من الإضافة ؛ فإذا قلنا "(الثور المملوك زيدٌ مالكُهُ) كان (المملوك) و(المالك) هما اسماهما من حيث لهما ذلك النوع من الإضافة" (كتاب الحروف للفارابي :86). وبهذا الاعتبار عدّ "تسامحاً منوال الإضافة النّحوية الأوّل فقال في المصدر ذاته : (صص 87-88) : "وجميع ما تسمع نحويّي العرب يقولون فيه إنّها مضافة فإنّها داخلة تحت المضاف الذي ذكرناه على الجهات التي عند الخطباء والشّعراء." (انظر:تفصيلنا هذه المسألة في: دلالة المصطلح على المعنى النحوي، في: أعمال الندوة: "المعنى وتشكّله ، 2/ 671-719).

إنّ الفارق بين البنية التركيبيّة العربيّة والفصيحة معدوم فهما ينتميان إلى المثال الموحّد التالي: [فعل مزيد متعدّ إلى مفعول واحد + فاعل ضمير مستتر + مفعول به ضمير متّصل + حرف جرّ + مفع به مركب بالإضافة].

بيد أنّ الاختلاف يكمن في جريان (أَفْعَلَ) في الفصحى وعدم جريانه في العاميّة التونسيّة والعكس بالنسبة إلى (فَعَّل).

*- *التغيير النسقي* Syntagmatique :

قد تعود كثير من الاختلافات التركيبيّة الجزئيّة بين العربيّة والعاميّة إلى أسباب تلحظ في النّسق Syntagmeوتردّ إلى أسباب صوتيّة كالتالي:

- تخفيف حرف الجرّ : إلى ـــ لـ:سافرتُ إلى/سافرت لـ

على ــ عا : على الطاولة/ عالطّاولة.

- عدم انتظام بعض المفاعيل : المفعول المطلق:

قتلتني قتلان ، هدهدني تهدهيد، كلاني ماكلة (تستعمل في الشكوى من العقوبة بالضرب ودون غيرها).

- التكثيف من الحذف وبالخصوص في العناصر الأساسيّة : ظاهرة الكلمة الجملة:Mot-phrase

في المحاورات اليوميّة بين التونسيين عادة ما تختصر الجملة في عبارات واحدة في سياقها ارتكاز على الحذف المعتمد على القرينة النصيّة والمقاميّة. والحذف ظاهرة شائعة في اللغات ولكنّ الذي يميّز العربيّة في شأنهاهو الهروب من الحذف غير المقيّد بالقرينة الحاليّة أو المقاميّة فلا يوجد حذف إلاّ إذا أمن اللبس وهذا ما نجد العاميّة الحديثة تتقيّد به وخصوصا ما تعلّق بالقرائن المقاميّة. لنستمع إلى التونسي يحاور مُلاسنه على مائدة الأكل:

العاميّة التونسية	المقابل الفصيح
- صَحَّة.	- صحَّةً وعافيةً
- يَعْطِيكْ الصَّحَّة	- منحك اللّه الصحّة
- بَاهِي ؟	- هل الأكل لذيذ؟
- أُو ! حْلُو !	- آه !ما أطيب طعمه !
- إيحَلِّي أَيَّامَكْ	- جعل الله أيّامك حلوة
- هانُو عَنْدِكْشْ عَنْدِي..	- هكذا هو أكلي متوسّط لا غير.
- لا ؛ عَادْ..	- لا ، أنت تبالغ..

المحاورة التي قد تحدث قي سياق التعليق على جودة الطعام مئات المرّات يوميّا لم تستعمل الجمل التّامّة بل اقتصرت على المفردة المقطوعة عن سياقها المقدّر كما في عبارة (صحّة). لكنّ الغريب أنّ الجمل المحذوفة (صحّة) والجمل التامّة (يعطيك الصحّة) لا تعملان بالشكل النظامي الذي تقرّه العربيّة فلو قال المتكلّم الأوّل الجملة تامة في سياق الدعاء للآكل المتمّ لما قبلت منه وعدّت لاحنة في العاميّة التونسيّة التي تقسّم نظاميّا بين الجملة المحذوفة أو المختزلة والجملة التّامّة تقسيما تداوليّا بحيث يدل كلّ منهما على عمل لغويActe de langage كالتالي:

الجملة المختزلة (صحة) ← العمل اللغوي: الدّعاء للآكل بالصحة والعافية.

الجملة التامة (يعطيك الصحّة) ← العمل اللغوي: الشكر والثناء

فلو جعلت المختزل تامّا والتّام مختزلا لناقضت بين ما يطلبه المقام وكلامك الذي تقوله.

وعلى النقيض من ذلك في العربيّة الفصحى ، فإنّه من الممكن أن تستبدل المحذوف من المختزل وتجري أحدهما في مقام الثاني دون أن يؤدّي إلى ما يؤدي إليه العاميّ من إخلال و إلباس.

فما حدث في العاميّة هو أنّ النقل لم يكن بالنسخ بل لعبت اللهجة على ما وجد به من تقابل بين المختزل والتّامّ وأسندت إلى كلّ منهما عملا لغويّا مخالفا.

ومن جهة أخرى يلاحظ الفارق بين العربيّة والعاميّة في التخلص من بعض البنى الثابتة كبنية المدح الإنشائيّة في العربيّة (ما أفعله) الذي عوّضته المفردة وكإسقاط البنية الاستفهاميّة التّامّة (هل...) والاقتصار على إيراد المسؤول عنه . وربّما كان للنغمة دور كبير في هذا لكنّ الميل إلى الإيجاز في المحاورات اليوميّة عندنا له دور اقتصادي في الآداء ولكنّه يتّكل أكثر فأكثر على الجهد الإدرا ، فما من شكّ في أنّ البحث عن الحذوف وعن روابطها وعن إحالاتها يتطلب جهدا إدراكيّا أكبر من ذاك الذي يُبذل لو كانت الجملة تامّة بعناصرها. كلّ ذلك يضاف إلى ما تحدثه المحاورات المطوّلة (بواسطة الإسناد التّامّ) من أجواء ألفة مع الكلام وربّما مع المتكلّم لا تحدثها المحاورات القصيرة.

إنّ القول بأنّ أحاديثنا اليوميّة فيه كثير من الترثرة كلام ظالم لأهله إن هو قصد الطول اللفظي وفراغ المحتوى فمن وجهة نظر لسانيّة تميل أحاديثنا العاميّة (إذا ما قورنت بالفصحى) إلى جعل اللفظ مختزلا مكتنزا فيحمل اللفظ أكثر من معناه الحرفيّ حتّى إنّ الجمل تستحيل في الغالب إلى مفردات أو بعضها ممّا يقرب من مفهوم الكلمة الجملة : الكلمة الواحدة تحمل ما يجب أن تحمله سلسلة من الكلمات.

خلاصة الأمر في هذا الباب أنّ العاميّة التونسيّة قد أخذت من الفصيح الآليّات الاشتقاقيّة والصرفيّة والتركيبيّة قبل أن تأخذ منها الوحدات المعجميّة أو تعجيم البنى التركيبيّة في الجمل.ومثل هدا الأخذ من شأنه أن يسم العاميّة التونسيّة

بنفس السّمات الكبرى التي توسم بها العربيّة فالعاميّة لهجة اشتقاقيّة dérivationnel ولهجة إعرابيّة flexionnel .

غير أنّ أخذ العربيّة في تعاملها مع العاميّة هذه الآليّات لا يعني البتّة خلوّها من تحديثات أو تهيئ خاصّ بها. ففي العاميّة قدرة على المُلاءمة بين متطلبات اللغة المصدر واللغات الأخرى التي تتعامل معها كالفرنسيّة والإنقليزيّة لكنّ الأمر يكاد يتوقف في هذه اللغات على المعجم أو العبارات الجاهزة أو التركيب المازج بين نصف الجملة العربيّة ونصفها الأجنبي أمّا الآليّات الكبرى فما زال الاتّكال فيها على الفصحى.

على أنّه تجدر الإشارة ههنا إلى أنّ الأجيال النّاشئة التي تقطن في أحياء العاصمة التونسيّة الرّاقية أو الاجيال المقلّدة لها ممّن يسكنون الأحياء الشعبيّة أو الأحواز باتت تليّن من بصماتها الصّوتيّة تليينا نراه منحدرا من ألفة اللغة الفرنسيّة من خلال التواصل مع الآباء أو من خلال الميل الوجداني تجاه اللغة الفرنسيّة وإتقانها. ونحن نسمع اليوم في بعض إذاعاتنا أصواتاً شبابيّة تنطق العاميّة التونسيّة بتصويت فيه إجناح إلى الترقيق المطلق وربّما عدّ ذلك من سمات التحضّر وعدّ التفخيم حتّى في مواضع التفخيم من سمات الاخشيشان والتعجرف. فلا ينطق الحضري اليوم العبارات التالية (الصباح، الطبّال ،) نطقا تقتضيه قواعد الجوار الصوتي: (سريان التفخيم إلى المقطع كاملا) بل يُرقّق غير عابئ بمثل هذه القواعد التي التبس فيها اللغويّ المحض بالحضاري والثقافي . وقد يتعامل مع الترقيق تعاملا ثقافيّا بقطع النظر عن أصل القاعدة في التعامل الصوتي فيفخّم ما ينبغي تفخيمه (خارج) أو ما ينبغي ترقيقه.

ولربّما تهكّم الحضريّ على تفخيم الريفيّ وعدّها منه عجرفة أو تهكّم الريفيّ على ترقيق الحضريّ وعدّها ميوعة. ولكنّ النطق الفصيح بالقواعد التصويتيّة الصحيحة لا يلاقي هذا الموقف أو ذاك. هكذا يكون الانتقال من العاميّة إلى الفصحى انتقالا لا يخلو من ترسّبات ومن مواقف وابتداعات..

2-1- المسلك الثاني: التوسّط / الوساطة Médiation: نقصد بالتوسّط في هذا السياق أنّ العربيّة الفصحى تستخدم وسيطا في التعامل بين اللهجات وذلك يكون بعمليّة ذهنيّة ضمنيّة وسريعة يترجم بها من يتلقّى لهجة عربيّة ما لا يفهمه بيسر من تلك اللهجة. ولت تحدّثت اللسانيّات العامّة عن لغة وسيطة Interlangue وظيفتها التوسّط في تعليم لغة جديدة شرط وجود عناصر تقاطع بين اللغتين Dubois et al. ;dictionnaire ..253) فإنّ العربيّة تلعب هذه الوساطة ولكن لا في تعلّم لغة جديدة بل في فهم عاميّة غريبة. ونحن نقدّم مثلا النماذج التالية من الجمل العاميّة التونسيّة لنبيّن من خلالها هذا المسلك الذي تقوم فيه الفصحى بدور الوسيط بين متكلّمي عاميَّتَيْن وسوف نقدّم قطعا من الأشعار العاميّة المغنّاة بلهجات مختلفة نبيّن كيف تتمّ الوساطة :

ء- هِنّي كَانُوا زَعْلاَنِينْ، أنَا شُو بِدِّي فِيهُنْ

إلْتْ بْرَادِي العِشْآنِينْ ، زِعْلُوا أَهَالِيهُنْ

حَطُّوا الحَأْ عْلَيِّ ، آلُو هَا الحِشْرِيّ

يَصْطَفْنِي شُو مَا صَارْ يْصِيرْ

وخَلِّي هَا الزِّيرْ بْهَا البِيرْ (من أغنية لفيروز بالعاميّة اللبنانية).

حين نستمع إلى هذا المقطع لأوّل وهلة ونحن خاليي الذهن من اللهجة اللبنانيّة فإنّ اللجوء إلى التوسّط بالفصحى سيكون سبيل من يعرف الفصحى وسيمرّ عمله بالمراحل التالية التي تشبه مراحل الترجمة أو نقل نصّ من لغة إلى أخرى.

*- التقريب الصوتي: هنّي ، فيهن ، أهاليهن ← هُنَّ ، فِيهِنَّ ، أَهَالِيهُنَّ.

*- القلب الصوتي: الهمزة تصبح قافا بعد التقليب : إلت: قلت، عشآنين: عشقانين...

*- تصحيح العدول: هنّ ، فيهنّ.....هم ، فيهم ، :المسألة راجعة إلى إبدال حرّ :/م/ انقلبت /ن/.ويوجد تصحيح آخر للعدول في عبارة (الحشريّي) التي انقلبت التاء

فيها إلى ياء للتماثل لتؤول العبارة إلى (الحشريّة) وهي صيغة مرتجلة بنيت على هيأة اسم النسبة إلى من يحشر نفسه بناء لا تجريه الفصحى ولكنّها تبرره وتوفر له الحافز Motivation الاشتقاقي. والكلام نفسه يقال عن (بدّي) التي ينبغي أن تقاس على العبارة الأصليّة (بودّي) وفيها حدث حذف غير قانوني للحرف الأصل (و) وبقي حرف الجر (ب) بدلا منه يعامل معاملة الحرف الأصلي.

الإجراءات السابقة جميعا وهي صوتيّة قامت على المقايسة بين العبارة الفصيحة والعبارة الدارجة في اللهجة اللبنانيّة ولكنّ هذه الإجراءات لا تنفع شيئا بالنسبة إلى عبارات لا عهد للغة بها ولا حتّى للهجة التي تتقبّل هذا النصّ (وفي قضيّة الحال اللهجة التونسيّة). نحن نعني العبارات التالية: - زعلانين، شو، بدّي ..

عبارة (زعل) تستخدم في الفصحى استخداما نادرا في معنى النشاط والخفة والتضوّر (لسان العرب: 11/303-304).ولكنّ عبارتي (شو) و(بدّي) لا تستخدمان ولا تعرفهما العاميّة التونسيّة . في هذه الحالة يتعطّل دور التوسّط الذي نقيمه بواسطة العربيّة وكذا في حالة (يصطفني) التي لا يمكن ردّها إلى أصل اشتقاقي وإن كان التصريف فيها مفهوما.

في هذه الحالة ليس لنا إلاّ أن نبحث من داخل اللهجة نفسها عن تفسير بأن نقارب من السياق الدلالة المقصودة أو نطلب الشرح من عارف بهذه اللهجة أو من لهجة مجاورة تستخدم مثل هذه العبارات.

فباعتماد اللهجة المصريّة ،التي يعرفها التونسيّ أكثر من اللبنانيّة ، يمكن أن نعرف معنى (زعل) بذا تصبح المصريّة وسيطا بديلا من اللغة العربيّة الفصحى . وباعتماد تقريب للعبارة التونسيّة (شنوّة) التي تستخدم في الاستفهام والقادمة من تحريف مركب طويل هو (أيّ شيء هو؟) يمكن أن نعرف ولو بالتقريب معنى (شو) التي تستخدم في الاستفهام كما تستخدم في الموصوليّة.

ولنثنّي لتفسير إجراءات أخرى تخصّ التوسّط بأغنية تونسيّة من التراث تقول كلماتها الأولى

بخنوق بنت المحاميد عيشة

ريشة بـــــــ ريشـــة

عامين ما يكملوشي نقيشة

موضوع الأغنية المركزي هو (البخنوق) ولا يمكن أن نفهم الأغنية إلاّ بفكّ الرمز عن دلالة هذه الكلمة المفتاح. في هذه الحالة لا بدّ من التأثيل للعبارة في الفصحى بالرّجوع إلى مادّة (ب. خ. ن.ق) وفي اللسان (13/10):" البُخْنُق : بُرْقُع يغشّي العنق والصدر، والبرنس الصغير يسمّى بخنقا..والبخنق خرقة تلبسها المرأة فتغطّي رأسها ما قَبَل منه وما دبر غير وسط رأسها ، وقيل خرقة تقنّع بها وتخيط طرفيها تحت حنكها وتخيط معها خرقة على موضع الجبهة ....." الرجوع إلى المعجم العربيّ لا يفسّر البخنق إلاّ بعض تفسير بأن يقدّم لنا السمات التالية:

- [قطعة قماش، توضع على الرأس، تغطيه، وينزل منه على العنق والصدر]

غير أنّ التغيير الصوتي الذي طرأ على العبارة الفصيحة وهو كالتالي:

[بـــُ خ. نـــُ ق] ←―― [ب ـــَ خ . نـــُا ق]

جعلها توازن بالتونسي عبارة برنوس الثوب الرجالي المعروف في البلاد المغاربية وهذه الموازنة لعلّها تؤكّد معنى من المعاني المشروحة في اللسان. فالصيغة التي طالت لم تبتعد كثيرا عن أصلها مما يجعل الوساطة سهلة وواضحة لوضوح المرجع.

لكنّ أمر الفعل المنفيّ يبدو أكثر عسرا فهو وأن حافظ على أداة النفي ما فإنّ اللاحقة (ـــُاش) بدت غريبة عن أصل بنية النفي الذي صار في بعض الدارجات بنية مزدوجة فيها عنصر سابق وهو النفي وعنصر لاحق هو المدّ والشين. فالتوسّط هنا وهناك كان بتقريب صيغة الأصل وتعجيمها وهذا يقرب ممّا يسمّيه النحاة القدامى

بلمح صورة الأصل.قد تكون هذه اللاحقة الدالّة على النفي جاءت اللهجة التونسيّة لا من طريق الفصيح بل من طريق بعض اللهجات العربيّة القديمة المعروفة بالكشكشة (وهي لغة لربيعة ولذلك يقال كشكشة ربيعة) وهي إلحاق صوت الشين للكاف المكسورة كما في (أكرمتكِ) التي تصبح (أكرمتكشْ) وهذه البنية التي عدّت من غير فصيح العربيّة أخذتها لهجات مثل التونسية واستخدمتها في النفي كما في القول التونسي (مَا أَكْرِمْتْكْشْ). [1]

على أنّه من الممكن أن يقال إنّ فهم اللهجات الغريبة عنّا بتوسيط الفصحى لا يكون من أمر غير سائد إلاّ لمن أتقن العربيّة وهولا يشمل بالتالي طائفة من متكلّمي اللهجات التي لا تتقن العربيّة الفصيحة ممّا قد يؤدّي إلى القول بأنّ التوسّط -إن كان أمرا حقيقيّا - لا يكون إلاّ بالعاميّات. وهذا الاعتراض و إن كان وجيها في الأصل فإنّه يقصر النظر على العاميّة أصلا غير منحدر من أصل أعلى منه هو الفصحى فأن يفهم التونسي عن اللبناني بترجمة ثنائيّة من اللهجة إلى الأخرى فذلك يكون باعتماد مناطق التقاطع اللغويّة بين اللهجتين وهي ليست إلاّ من آثار اللغة التي انحدرت منها العاميّتان وليس من محاسن الصدف اللهجيّة.

والوساطة بين العاميّة وجاراتها من خلال العربيّة يبدو أظهر حين نستخدم في عاميّتنا العبارات الاصطلاحيّة العربيّة أو المعرّبة.

من الأسماء الاصطلاحيّة ما هو موحّد بين العاميّات أو ما فيه اختلاف لهجي يفهم فيه في الغالب بالرجوع إلى العربيّة الفصيحة.

من الأسماء الاصطلاحيّة الموحدة بين العامّيات عبارات تستخدم في تقنيات الاتّصال والإعلاميّة مثل (المحمول) و(الجوّال) و(الحاسوب) و(الدّماغ) في عبارة

---

[1] قال سيبويه:" واعلم أنّ ماسا من العرب يُلحقون الكاف السّين ليبيّنوا كسرة التأنيث ... وقوم يلحقون الشين ليبيّنوا بها الكسرة في الوقف ...وذلك قولهم: (أعْطَيْتُكشْ) و(أكْرَمْتُكِشْ)." (الكتاب:4/ 199-200).

الدماغ الألكترونين والإعلاميّة، و(الشبكة)و(الإبحار) ومن ذلك أيضا عبارات أخرى تستخدم في تعيين الآلات الحربيّة كـ(الدبّابة) (و إن كنّا في تونس نقول أحيانا طانقو ولكنّه استعمال خفّ اليوم كثيرا) و(البارجة) و(الصّاروخ) .وفي مثل هذه الأسماء الموحّدة توفّر الفصحى لعاميّاتها وسائل التسمية والتعيين وتقوم بالتوحيد بينها في استخدامها العربيّة ما تزال المعين الأوحد بالنسبة إلى هذا الضرب من التسميات الاصطلاحيّة. فالمؤسسة (إعلاميّة كانت أم إداريّة أم سياسيّة) ما زالت تثق في العربيّة بما هي لغة مهيكلة للقيام بهذا الدّور.

أمّا المصطلحات التي تتعيّن بالعاميّة فإنّ الفصحى و إن كانت لا تقوم بالتوحيد ، فإنّها تتوسّط في تيسير التفاهم بين اللهجات.

من ذلك أنّ اسم (السّيارة) قد يختلف بين العاميّات فيقول المصريّون (عربيّة) والخليجيّون (سيّارة) والتونسيّون(كرهبة) وللعربيّة أن توفّر التحفيز الاصطلاحيّ والسرّ الذي لأجله سمّت العاميّات هذه الآلة بتلك الأسماء كأن نقول مثلا إنّ عبارة (العربة) هي الأصل في اشتقاق الاسم المصري وأنّ التسمية الخليجيّة حافظت على أصلها الفصيح وأنّ العبارة التونسيّة أخذت من المعجم المعرّب عبارة (كهرباء) وقلبت بعض حروفها قلبا مكانيّا من نوع الذي حدث في عبارة (مرسح) في الشّام ومصر في بدايات القرن العشرين.

إلاّ أنّ هذه الوساطة التي تقوم بها العربيّة من خلال التحفيز الاصطلاحيّ قد تتعطّل إذا تعلّق الأمر بعبارات أخرى قادمة من المجهول مثل أسماء (القنينة) التي نصطلح عليها في تونس باسم (دبّوزة) وفي مصر بـ(الإزازة) وفي الخليج بـ(الغرشة) وفي المغرب بـ(القرعة) فلا تسعفنا معرفتنا ببعض الأصول العربيّة في هذه الكلمات (القزاز، الغرش القرع) بالعلاقة بين الاسم الأصليّ في المعجم العربيّ والاسم الاصطلاحيّ المتداول في العاميّات المذكورة.

2- العــاميّات ومسالك التّعامل مع الفصحى:

2-1: العربيّة والبصمات الصوتيّة اللّهجيّة: قد يستغرب بعض من يعتقد بأنّ العربيّة لغة مكتملة وأصلٌ للعَاميّات كيف يمكن أن تتفاعل مع عاميّاتها وتتعامل بالأخذ منها . والحقّ أنّ هذا التّعامل موجود وإنْ كنّا لا نلمسه عن كثب ولا نعاينه إبّان وقوعه.فيكفي أن يقرأ القارئ منّا نصّا عربيّا أو يتكلّم باللّغة الفصيحة مدرّسا أو محاضرا حتّى تظهر عاميّته من خلال إنجاز الفصحى بالنظام الصوتيّ الذي في العاميّة وليس بنظام العربيّة الصوتي. لسنا نعني ههنا فقط ما يظهر من نبرات التصويت اللهجي كالذي يُلمح في بعض اللهجات أكثر من بعض، بل نعني به تسامح بعض اللهجات –كالمصريّة- بأن تقلب -ومن غير وجه حقّ- القاف إلى همزة والجيم إلى قاف والذال والظّاء إلى زين ومثل هذا الإنجاز يبرز في كثير من الأعمال الفنيّة السنيمائيّة والغنائيّة والمسرحيّة التي حفظها لنا التاريخ شاهدا على إخضاع العربيّة إلى قواعد اللهجة. إنّ نطق العربيّة الفصيحة ببصمات التصويت اللهجي قد يبدو أمرا جبريّا لدى من أخذ لسانه على طريقة في التصويت اللهجي لم تهذّبها التنشئة الأولى كما كان يحدث في الكتاتيب قديما ولم تلتفت إليها المدرسة تعفُّفا أو تنصّلا أو تجاهلا أو تسامحا ولكنّ النطق بإبدال أصوات الفصحى بأصوات اللهجة أمر اختياري فيه مخاطر من أهمّها إزالة الدور التمييزي بين الأصوات العربيّة وهو ما يعرف بالإبطال Neutralisation ، هذا ما نجده في تحميل الهمزة الدور الذي تلعبه القاف فضلا عن دورها الخاصّ فيحدث إبطال دور القاف العربيّ كما في العبارات التالية: أوقاتي /أوآتي؛ قلعة/ ألعة ،وبهذا التماثل يبطل التمييز بين (مقال ومآل) و(قرض وأرض) و(قلم وألم) وغيرها من الكلمات العربيّة التي يحفظ لها التقابل بين الصوتين القاف والهمزة تقابلها الدلالي. ونفس ما قيل عن القاف يقال عن الجيم التي تنطق قافا كما في: *قلست والخوف بعينيها..* في القصيدة المشهورة المغنّاة. وفي هذه الحالة تبدل الجيم من القاف من غير علّة إذ ليس في الأمر جبر في النطق وإنّما هي العادة التي صارت ثقيلة كالجبر.

صحيح أنّ العربيّة الفصحى قد عرفت في تاريخها نطقا لهجيّا من هذا النّوع لكنّ النّحاة ذكروه وقرّروا بالحجّة عيبه وساهموا في إبطاله فلم تعد العربيّة تعرف عنعنة تميم ولا عجعجة قضاعة ولا كشكشة بكر ولا كسكسة هوازن ولا نطق اللام باء (*ليس من أمبر امصيام في امسفر*) فالذي حدث في تاريخ كامل من التنظير للعربيّة أنّ هذه الشواذّ نُصَّ عليها ولم يتمّ إدخالها ضمن دائرة العربيّة الرسميّ رغم أنّ هذه الظّواهر الصوتيّة ممّا حمل ريح اللهجة وأسقط على نظام اللغة.

2-2 – **العاميّة تحفظ معجم العربيّة الفصيحة وتنشره:** لقد بيّنّا في فقرة سابقة أنّ اللهجات العربيّة قد استمدّت أغلب معجمها من الفصحى ومنها استمدّت قبل ذلك القوالب الاشتقاقيّة التي تبني بها الألفاظ المعرّبة والدخيلة وغيرها. لكنّنا ما قلنا وقتها إنّ انبناء معجم العاميّة بمفردات الفصحى من شأنه أن يجعل وحدات معجم اللغة الأصليّة متواترا ومعروفا وقريبا من الأفهام. وهذه الحقيقة التي تبدو بديهيّة إلى حدّ الابتذال لا تفهم إلاّ إذا تصوّرنا أنفسنا نتعامل مع أيّ مقطع من الكلام من غير وجود تجربة لنا مع العاميّة. لنفترض أنّنا نسمع المقطع العربيّ التالي وذهننا خال من معرفة العبارات العاميّة المتقاطعة معها: *-في بيته يؤ 7 الحكم

تجربتنا مع العاميّة ستجعلنا في غير حاجة إلى شرح المفردات التي تضمّنها هذا المثل العربيّ القديم فهي منتشرة بواسطة العاميّة قريبة من أفهامنا.وهذا المقطع قد يختلف من جهة الوضوح من المقطع التالي الذي يدور حول شكوى أعرابيّ من ازدحام الناس عليه ويدعوهم إلى التنحّي عنه بعيدا: *- مالكم تكأكأتم عليّ تكأكأكم على ذي جنّة ؟ افرنقعوا عنّي.

باستثناء أداة الاستفهام ومركب الجر لا يمكن أن تفيدنا تجربتنا مع العاميّة شيئا من فهم هذه العبارات لأنّها غير مستعملة فيها. وفي مقابل ذلك يمكن أن نفهم بالرجوع إلى عاميّاتنا بعض العبارات الفصيحة الغريبة من نوع : البرذعة (الحِلْسُ الذي يلقى تحت الرحل : ل.ع.8/8)

والجردقة (الجردقة الرغيف ، فارسيّة معربة: ل.ع 35/10): فال الجاحظ : إذا كان في غداة كلّ جمعة حمل معه منديلا فيه جردقتان ..وصرّة فيها ملح.(البخلاء، 24). والعبارتان اللتان يضعف تواترهما في الفصحى تستخدمان في العاميّة التونسيّة وخصوصا في الريف لتعيين خبزه اليومي وبعض أجزاء ركوبته. ونحن نرى في أيّامنا الآباء يبحثون عن المعاني اللطيفة لتسمية الأبناء ويتساءلون في معاني أبناء الآخرين وربّما قلّدوهم في التسميات وصرنا نجد اليوم من يسمّي بألفاظ قديمة لا تتواتر في مألوف الأسامي فيقولون في الذّكور: مهيار ووليم وأيهم ويقولون في الإناث منيار وكون وحذام وغيرها من الأسماء التي يكفي أن تتسمّى بها الأشخاص حتّى أصبح أكثر تواترا وتدخل بحقّ أو بغيره مجال التداول العاميّ.

ومن النّادر أنّ بعض الجاهلين بالفصحى يسعى إلى استخدام ألفاظها لتحلية كلامه ولتدبيج عاميّته بلغة يراها رفيعة فلقد بلغنا أنّ بعضهم كان يتباهى أمام نظرائه ومعارفه فيقول :

*- الأنانية اللي عندي ما تلقاها عند حدّ (الأنانيّة التي لي لست تجدها عند أحد) فيعتقد أنّ الفخامة التي في لفظ "الأنانيّة" لا يمكن أن تدلّ إلاّ على الرفعة والخلق الحسن. وما زال الاعتقاد إلى يومنا سائدا بأنّ الخطابة لا تكون إلاّ بالفصيح وبذا يتّجه غير العارفين إلى لغة ثالثة لا هي فصيحة ولا هي عاميّة وإنّما يفصّحون العاميّة أو هكذا يعتقدون.ومن النكت المتداولة في هذا المجال هنا وهناك ما يدلّ على أنّ الفصحى مهيمنة في الأذهان وأنّها هي التي تستحقّ -لا غيرها- أن تكون لغة الخطابة والمنابر. ومازال الفنّ وخصوصا الشعر العاميّ يقدّم وجها جيّدا من تعامل العاميّة مع العربيّة ويكفي أن نقدّم ههنا مثالين اثنين من هذا التعامل:

*-أوّلهما: اتّكال الشعر العاميّ على العربيّة معجما وصورا وبلاغة :

فالشّاعر العاميّ يقول في الأغراض العربية الفصيحة ويعيش تجارب العربية الفصيحة ويأخذ صورهم ومعجمهم كما في المثال التالي من الشهر العامّيّ التّونسي:

دِزِّي رْسِيــلِــــكْ وَاعْطِيهْ سِرّْ يْبَلّْغُو لِخْلِيلِكْ

فِي غْرَامْ حُبِّكْ عَاذْرِكْ يَا حْلِيلِكْ نَارْ الْمْحَبَّه أَشْكُونْ يِدَّفَّاهَا (طاع الله:النجع،78)

في البيت معجم مألوف في الشعر الفصيح: (رسيل =رسول الغرام، سرّ خليل ، غرام حبّ ..) وفيه صور أيضا توجد في ثقافة الشاعر الفصيح وهي صورة نار المحبّة وقد أخرجت مخرجا بليغا يربط بين مفعول النار الكاوية وطالب الدفء.

*-ثانيهما: استخدام العاميّة عتبة للنصّ الشعري الفصيح وهو الذي نجده في فاتحة قصيدة لشاعر جامعي تونسي هو حسين العوري قالها في رثاء والدته: (مجموعة: ليس لي ما أقول:39)

استهلال:

كَوَّايْ هَالْمُوتْ يِكْوِيهْ

كْوَانِي وْعَاوِدْ كْوَانِي

فِي القَلْبْ خَلَّى مْذَارِيهْ

نَشَّابْ مَسْمُومْ جَانِي

جُرْحِينْ فِي الصَّدْرْ سِكِّينْ

آ..هَ ، مُحَرّْ جُرْحِي الثَّانِي

نحن نجد في العاميّة - بالإضافة إلى التعامل المنظّم بين العاميّة والفصحى في هذا النصّ (العتبة بلغة والمتن بأخرى) - استخداما لأساليب وصور هي في الأصل حكر على الشعر العربيّ الفصيح ، وأشدّ ما في هذا النصّ لفتا للانتباه هو التلاعب برُتب الألفاظ في الجملة وهي رتب تكون في العاميّة التونسيّة محفوظة عادة (في القلب خلّى مذاريه، نشّاب مسموم جاني) فالعاميّة روّجت لآليّة التقديم والتّأخير التي يرعاها الإعراب في الفصحى ولا يستطيع أن يفعل ذلك في العاميّة للأسباب التي ذكرناها في

فقرة سابقة. فكأنّ الذي يتكلّم بالعاميّة ههنا هو الخبير بالعربيّة الفصيحة وبالشعر الفصيح وليس أيَّ متكلّم وهذه الخبرة قد رشحت على سطح النصّ. والوجه الآخر الذي نرى فيه العاميّة تنشر أساليب الفصحى هذا العدول من التعامل مع الآلة أداةً للحدث إلى جعلها وصفا في قوله (جرحين في الصدر سكّين) حيث تصبح السكين صفة لا آلة وهذا من قولهم في العربيّة (ضربته سوطا) تجعل السوط لا آلة الضرب بل مفعولا مطلقا.

3-2: **العاميّة تتوسّط لتوضيح العربيّة:** كثير منّا ينتمي إلى أسر يدمن فيها كهول الرّجال على نشرات الأخبار والأطفال على أفلام الكرتون النّاطقة بالعربيّة. فئة من رجالنا المدمنين على نشرات الأخبار الفصيحة لا يعرفون الفصحى قراءة وكتابة ولكنّهم يفهمون ما يحدث في العالم. وأغلب أطفالنا الذين يشاهدون أفلام الكرتون لم يدرسوا أسرار الفصحى بعد أو هم بالكاد يفكّون بعض حروفها ولكنهم يفهمون ما يشاهدون بل قد ينطقون بعربيّة بيّنة ليس فيها من عوج.هذا التفكيك العجيب لرموز لغة لا يعرفها هذا الجمع الهائل يمرّ من بوّابة العاميّة. فالعاميّة – وأنا أتحدّث عن التونسيّة – تقوم بدور الوساطة المعقّدة والتي تجري عمليّاتها في الغالب ذهنيّا بواسطة مرحلتين:

*- مرحلة الدَّخْلَنَة: أن يدخل الفصيح بمستوياته (أصوات، معجما، تراكيب)الذاكرة الحافظة فتنشّط معجمه الذهني المعجمي الذهني من خلال ضرب من المماثلة أو التقييس بين العبارات الفصيحة المسموعة والعبارات العاميّة المخزّنة.

*- مرحلة الخَرْج: أن تخرج العبارات خروجا فيه تصفية filtration للتمثيلات اللغويّة التي دخلت دخولا قد يشوبه الغموض أو الانبهام أو الضبابيّة بعد أن تمّت ترجمتها إلى اللغة الهدف وبذا يتمّ فهم الرّسالة أو الاعتقاد في فهمها. قد تشبه هذه العمليّة ما يحدث في الترجمة لكنّها تختلف عنها في أنّ عمليّة الترجمة من لغة إلى أخرى تكون بعمليّات تفكيك تعتمد الانتقال من نظام ترميزي لغوي إلى آخر مختلف عنه ولكنّ النقل من العربيّة إلى العاميّة يكون من نظام ترميزي إلى آخر متفرّع عنه قد

يحمل كثيرا من خصائصه.ولذلك يمكن أن نسمّي هذا النقل بإعادة التهيئة.ونحن نقدّم عيّنات نصيّة من الإعلام مع ترجمتها إلى العاميّة التونسيّة لبيان إعادة التهيئة الحادثة فيها: وهذه نصوص من أخبار يوم 24 ماي 2007 :

1 مجلس الأمن يندّد بما وصفها اعتداءات ضدّ الجيش اللبناني.

2 البرادعي يعرب عن اعتقاده بأنّ إيران قادرة على امتلاك أسلحة نوويّة خلال 8 سنوات.

3 ساركوزي يجدّد رفضه انضمام تركيا للاتّحاد الأروبي.

4 وزير الخارجيّة الإيطالي يدعو إلى تأييد بلاده مشروع استقلال كوسوفو ..

نحن نعتقد بأنّ تعامل العاميّ الذي يجهل العربيّة مع الأخبار يؤدّي إلى محاولة لتكوين نواة دلاليّة Sémantiqueأو تمثيليّة Représentativeهي جوهر الخبر ولا نظنّ أنّه يستوعب الخبر بتفاصيله ويربط بين العبارة وما تدلّ عليه. ففي الخبر يلتقف عبارة (مجلس الأمن) -وهي في ذهنه تشبه اسم العلم أو تعامل معاملته- ولا يحللها إلى مكوّناتها كما نفعل.

وقد ترتبط لديه ذهنيّا بشخص أمينه العامّ أو بجنسيّته أو بلونه أو بالرئيس الأمريكي أو العراقي الأسبق أو بالزّعيم الفلسطيني الرّاحل عرفات .. المهمّ أنّ (مجلس الأمن) عنده هو "علامة واسمة" Etiquette فعمليّة التهيئة عنده تقوم على نقل اسم المنظّمة إلى واحد من المواقف أوالتمثيلات الذهنيّة فنمر من التسمية إلى الوسم .Etiquetage

العبارة الثانية المتلقفة في (1) هي (الجيش اللبناني/اعتداءات) وهي عبارة يحافظ لها على تعيينيّتها لأنّها تستعمل استعمالا مماثلا في لهجته العاميّة فيمكن أن نسمي هذه العمليّة بالنّسخ. غير أنّ عبارة (يندّد) التي يعتقد متكلّم العاميّة أنّها لا تتواتر إلاّ في السياق السياسي وتحمل علامة سالبة قد يترجمها إلى ما يدلّ على الغضب

الذي يقوي مفعوله أو يضعف حسب من يندّد. فإعادة التهيئة حدثت بزحلقة دلالة العبارة الفصيحة إلى موقف انفعالي لا تهمّ العبارة التي تسميها المهمّ أنّه في دائرة الغضب الدلاليّة.

لكنّ في الخبر (1) عبارةً لا يلتفت إليها هي (بما وصفها) فيسقطها من الخبر لاعتقاده أنّها شيء ثقيل الحمل قليل الفائدة. ولذلك سنسمّي العمليّة المتعلّقة بهذه العبارة "الإبطال" Neutralisation. وفيما يلي جدول فيه جميع هذه العمليّات الحادثة نتيجة التهيئة والعبارات المناسبة في الأخبار من (2-4) دون تحليل:

*- الوسم: (البرادعي/ إيران/ساركوزي/ تركيا/ الاتحاد الأروبي /وزير الخارجية الإيطالي/ كوسوفو)

*- النسخ:(امتلاك أسلحة نوويّة خلال 8 سنوات/ رفضه انضمام/ بلاده استقلال)

*- الإبطال :(يعرب عن اعتقاده بأنّ/ يجدّد/ يدعو ..مشروع).

على أنّ عبارة (أسلحة نوويّة) في الخبر (2) لا يفهمها جاهل الفصحى أو العارف بها لأنّها من المصطلحات التي تسوّقها الصحافة وتدور على ألسنتها ولكنّنا لا نكتسب لها المعرفة الدقيقة. وقس على ذلك عبارات من نوع "أنفلونزا الطيور" ، " السيدا" ، " اليورانيوم المنضّد" وغيرها من العبارات التي تكون موضوع أخبار أيّامنا الخوالي والتوابع.

إنّ ما يثقل في ترجمة الخبر العربيّ إلى العاميّة هو حفظ الأسماء وليس نقل الفحوى وهذا أمر يثقل أيّة ذاكرة عليها حفظ أسماء أصحاب القرار وأسماء المنظّمات والأقاليم غير المستقرّة وغيرها من الأسماء التي عشّشت في أذهان متتبعي الأخبار. وقد يجد العاميّ في إبطال مفعول العبارات التي يعتقدها غير مفيدة راحة تخلّصه من ثقل المضامين. لكنّه قد لا يعلم أنّ جوهر الخبر فيما أسقطته ذاكرته المثقلة.

2-4: العاميّة " تقتحم" الفصحى: بعض الذين يدّعون الصّفويّة وينصّبون أنفسهم مدافعين عن العربيّة فيلحّنون النّاس أو يرمونهم بجهل الأصول " الصحيحة" للعربيّة قد يتناسون وهم يصدرون أحكامهم بأنّ من حقّ العربيّة أن تتطوّر بتفاعل مع اللغات المجاورة واللهجات. فمن الممكن أن تدخل التراكيب المستحدثة والعبارات المولّدة من باب هذا التفاعل الذي يقبل في لغات أخرى ولا يقبل في العربيّة. قديما دخلت عبارات من اللهجات العربيّة وقبلها كبار الكتّاب والفصحاء وتعامل معها اللغويّون على أنّها تطوّر مقبول للعربيّة من ذلك عبارة (أيْش) المتداولة إلى أيّامنا في العاميّات والمعدودة في اللغات غير الفصيحة. وفي كتب النحو القديمة تعريف باللّهجات العربيّة التي دخلت الإنجاز الفصيح كما في حديث النّحاة عن تراكيب غيرمألوفة تؤثر عن بعض القبائل كنا في قول الأستراباذي التالي :(شرح الكافية 471/4):" والدليل على أنّه يجوز عند بني تميم نصب معرّف المصدر أنّهم جوّزوا على ما حـ ع سيبويه عنهم (أمّا العلْمَ فعالمٌ بزيد) أي هو عالمِ بزيد العلمَ ....فيكون نصب المصدر المعرّف على أنّه مفعول مطلق" . فهذا التقديم للمفعول المطلق غير مقبول في أصل القاعدة النحويّة العربيّة ولكنّ النّحاة رضوه وجها من وجوه الاستعمال اللهجي الذي لا يستثني القاعدة ولا يضعفها.

ومن ذلك ما نقله صاحب "الكتاب" من روايات متعدّدة للهجات تقرب من إنجازنا اليوم فإذا كنّا اليوم نقول في تونس (ضْرَبْتِيهْ) بدل (ضَرَبْتِهِ) فلسنا نجري ذلك الفعل بذلك الوجه من غير ذاكرة، يقول سيبويه:" وحدّثني الخليل أنّ ناسا يقولون:(ضَرَبْتِيهِ) فيلحنون الياء. وهذه قليلة." (الكتاب، 200/4).فهذه اللهجة الصغرى أو اللغيّة قد تطوّرت وفشت حتّى صارت من المظاهر التي قد تميّز عاميّة عن أخرى. ومن جهة أخرى فإنّ العاميّات المعاصرة ما تزال فاعلة بالفصحى مثل فعل اللهجات العربيّة القديمة بها وأهمّ مظاهره الوقوف على السّكون في غير الوقف (موضعه الأصليّ)والوقوف على السّكون الذي ليس اضطرارا إنّما هو من سمات اللهجة التي لا تحرّك معربا وإنّما تستبدل منه السّكون. وبالإضافة إلى ظاهرة الوقف

المفرط على السّكون وتغييب حركات الإعراب نجد في إنجاز العربيّة اليوم كثيرا من الظواهر اللهجيّة المنتقلة إلى الفصحى ونحن نستعرض هذه الظواهر تباعا ودونما تحليل:

*- *تقديم الحال المركّب بواو الحال على النّواة:*

من ذلك قول نجيب محفوظ :*وهو واحد* خسر الكثير (اللصّ والكلاب:5)

وهذه الظاهرة داخلة في ظاهرة أعمّ نجدها في العاميّة المصريّة هي الجنوح إلى تقديم المتممات من المفاعيل على نويّها كما في العبارة التّالية المغنّاة:

:" علشان الشوك اللّي في الورد بحبّ الورد".

ومثله في روايات محفوظ هذه الأمثلة التي يتقدّم فيها المفعول لأجله على النّواة ويحمل بلا سبب حرف العطف"

- *ومن شدّة ضيقه* زار مصطفى بمكتبه بالمجلّة (الشحّاذ، 96)

- *ولأنّه لا يوجد وحي في عصرنا* فلم يبق لأمثالك إلاّ التسوّل (الشّحّاذ 100).

*- الوصل في مواضع الفصل:

من ذلك اربط بالواو بين أسلوبين بينهما انقطاع كامل مثل الذي يكون بين الاستفهام والإخبار في قول محفوظ التالي:

- وهل يوجد ما هو أهمّ منه؟ وكنت أقول لنفسي لعلّ قلبه حجر ..(اللصّ والكلاب: 60)

- كيف حال الشغل؟ فلوى طرزان شفته السفلى في امتعاض (اللصّ..40)

*- تعجيم دلالة الزيادة: تعجيم معنى المطاوعة :

الأصل أن يدلّ الاشتقاق على معنى المطاوعة في الفعل كأن تقول مثلا دفعت الباب فاندفع فدلّ الفعل الثاني على أنّ الباب طاوع الحدث.ولكنّنا في العاميّة قد ندلّ على المطاوعة اشاقاقا بأوزان أخرى ويمكن أن نعجّمها في مثال نجيب محفوظ:

- دفع باب مسكن الشيخ *فأطاع* دون مقاومة ثمّ دخل وردّه وراءه (اللصّ والكلاب 51)

- الإكثار من حذف المبتدأ من غير قرينة دالة عليه:

*- صوت رجل ، صوت عليش سدره (اللص..50)

- إكساء التعابير العاميّة بثياب عربيّة:

*- يا أرض احفظي ما عليك؟

ليلة بيضا بالصلاة على النبي (اللص 39)

ومن الأمثلة الدالّة على هذه الظاهرة في الصحافة هذا المقطع الذي فيه تبعيّة مطلقة للعاميّة :

" ما شاء الله ما شاء الله على هذه الإسقاطات التي جعلت الدّماء تغلي وتفور وتمور في عروقي وأنا الذي أجريت لي عمليّة تغيير أربعة شرايين بالقلب (القدس العربي:2005/12/20، ص8)

إنّ هذه الظّواهر وغيرها كثير دليل على أنّ العاميّة قد أدخلت كثيرا من نظامها على العربيّة الفصحى ومن هذه الأنظمة ما قد ترفضه القواعد التركيبيّة أو الاشتقاقيّة الصريحة.

غير أنّ مثل هذا الإجراء قد يدفع المشتغلين بالعربيّة تدريسا أو كتابة يخلطون بين العاميّ المفصّح والفصيح الذي انتقل إلى العاميّة فإذا كتب في نصّ عربيّ اعتبر لاحنا أو لهجيّا ونحن نقدّم الأمثلة التّالية منه:

1- أنا اليوم <u>*مارُض*</u>.

2- لا أريدُ <u>عَرْكًا</u> اليومَ

3- لنا شجَرَةُ <u>توثٍ</u>

لو كتب لنا تلميذ أو طالب عبارةً من العبارات المسطّرة لشطبناها واعتبرناها من العاميّة التي تطفّلت على الفصحى أو من التحديث الذي لا يليق بالفصاحة العربيّة والحقّ أنّ جميع هذه العبارات من العربيّ المستخدم في القديم . ففي *مارض* روي عن بعض الشعراء وهو سلامة بن عبادة الجعديّ قوله(نقلا من التنبيهات لأبي القاسم علي بن حمزة:179):

يريننا ذا اليسر القوارض   ليس بمنهوك ولا *مارض*

و في عرْك يُتمثّل بقول زهير بن أبي سلمى (المصدر السّابق: 182):

فتعْرُكُكُمْ عَرْكَ الرّحى بثفالها

وعن التوث الذي هو التوت قال أبو حنيفة :" توث بالثاء وقوم من العرب يقولون التوت ولم يسمع به في الشعر إلا بالثاء ...وقد روي عن الأصمعيّ أنّه قال : التوث بالفارسيّة والتوت بالعربيّة والقول الأوّل هو الصحيح"(التنبيهات: 168-187). وأمثال هذا الذي نعتقده عاميّا وهو فصيح أو تكلّم به فصحاء الشعراء كثير ولكنّنا قد نغترّ بمعرفتنا الدقيقة بالحدود الفاصلة بين الفصيح والعاميّ فنق لأ من الفصحى ما هو منها ونلحقه بالعاميّة وكأنّها مهاده الأوّل.

خاتمة البحث

لقد قادنا بحثنا في التعامل بين العربيّة ولهجاتها المنبثقة منها أو المتطوّرة من لهجات قديمة إلى أنّ العربيّة ليست بمعزل عن حركة تطوير تأتيها من لهجاتها كما أنّ هذه اللهجات ليست بعيدة إن في توليدها للعبارات أو التراكيب الدخيلة من أن تأخذها بآليّات هي في الأصل مستمدّة من مقولاتها التركيبيّة والصيغيّة والتصريفيّة. وبهذا التعامل الذي لا يعيه الكثير منّا أو لا يعترف به من هو على وعي به تحقّق

العاميّات أهمّ سماتها النّظامية فهي عاميّات اشتقاقيّة فيها شيء من النحت والتركيب كما أنّها تعتمد في هندستها التركيبيّة على هندسة الجملة الإعرابيّة. وبهذا التعامل أيضا تبدو العربيّة اللغة المهيكلة أكثر من غيرها ولهذه السّمة تقدّم في الخطابات الرسميّة وفي العلوم وفي الإعلام ووجه من تقديمها هذا أنّها تُفهَمُ في مستوى أوسع ممّا تفهم فيه اللّهجات المحليّة بل بها تُفهم اللّهجات. لكن هل نتحدّث ههنا عن العربيّة التي يكتب بها الشعراء والأدباء أو التي تُدبْلَجُ بها الأفلام أم عن تلك التي تقرأ بها صفحات الأخبار أو التي بها يعلّق الرياضيّون على مقابلة رياضيّة أو عن تلك التي يخطب بها الزّعماء والرّؤساء والوزراء والعمداء والمدراء أم عن العربيّة التي نتكلّم بها بيننا في هذه الندوات..هذه مستويات متعدّدة من العربيّة تتطلّب منّا دراسات تقول لنا: هل عربيّة أئمّة الجُمَع كعربيّة معلّقي الرياضة وهل أنّ عربيّة أفلام الكرتون كعربيّة المسلسلات التاريخيّة وهل أنّ عربية التحاور بالأنترنيت كعربية من يتحاورون على الفضائيّات لمناقشة مسائل سياسيّة؟ بلغة أخرى هل أننّا على وعي بأنّا عدنا إلى زمن انشطار الفصحى ولكن بفعل ثقافي غير ثقافة القبيلة أو البطن الذي يؤدّي العربيّة بشكل فيه اختلاف طفيف بل بفعل ثقافة الجماعة التي تستهلك الإنتاج الثقافي الذي لا ينبغي أن ينتج إلا بالعربيّة.بلغة أخرى هناك العربيّة التي **بها** نُمتع بالفنّ وهناك العربيّة التي **بها** نُؤدلج وهناك العربيّة التي **بها** نسفسط وهناك العربيّة التي **بها** نفكّر ونجادل ونحبّ .. فما الفرق بين هذه **العربيّات الأدوات**؟ وهل توجد عربيّة **فيها** نمتع ونفكّر و.. أي هل توجد **عربيّة / إطار** نمارس فيها البحث عن همومها الخاصّة قبل أن نرى منها همومنا؟

المصادر والمراجع

1- الأقوال والخطابات والمحاورات والفنّ المنتج بالكلمة:

المسموع :

- محاورات التونسيين بلهجتهم.
- أغان تونسيّة بالعاميّة.
- أغان لبنانيّة
- أغان مصريّة.

المرئيّ /المسموع:

- أفلام مصريّة ، سوريّة ، لبنانيّة ، تونسيّة .
- نشرات أخبار بالقنوات التالية : الجزيرة ، العربيّة ، تونس7 ، الجزائريّة 3 ، المغربيّة

المكتوب:

- نجيب محفوظ:الشّحّاذ.
- =====: اللصّ والكلاب، الدار التونسيّة للنّشر ، ، تونس 1989.
- العوري حسين : ليس لي ما أقول ، مجموعة شعريّة، ط. دار الشباب للنشر والتوزيع، تونس 2006.
- طاع الله محمّد الحفناوي: النجع والجمل والجحفة (شعر شعبي)، دار سنابل للنشر سليانة ، تونس د.ت

2- الأمّهات والبحوث:

العربيّة:

-الاستراباذي، رضيّ الدين :شرح الكافية ، تصحيح وتعليق يوسف أسعد داغر ، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي،ط.2 ، ليبيا 1996، ج.4 .

- الفرّاء + علي بن حمزة: المنقوص والممدود+ التنبيهات ،تح. عبد العزيز الميمني الراجكوتي، دار المعارف ، مصر ، د.ت.

-سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر : الكتاب، تح. عبد السلام محمد هارون، دار الجيل بيروت ، 1991، 4/199-200.

- قريرة، توفيق: دلالة المصطلح على المعنى النّحوي، في: أعمال ندوة المعنى وتشكلّه ، نشر كليّة الأداب بمنّوبة، مونس 2003، 2/671-719.

الأجنبيّة:

-Taieb Baccouche (1994) :L’emprunt en arabe moderne , A.T. « Beit al-hikma » & I.B.L.V ,Tunisie.

-Jean Dubois et al.(1994) :Dictionnaire de linguistique et des sciences du langage ,Larousse , Paris .

-Danièle Dubois (dir. :1977) :Catégorisation et cognition :de la perception au discours ,ed . Kimé ;Paris

- Guy Tiberghien Dubois (dir. :2002) :Dictionnaire des sciences cognitives ;Armand Colin ,Paris .

فصيح العامية الجزائرية

د :عبد الملك مرتاض- جامعة وهران

للمجلس الأعلى للغة العربية كل الشكر والتقدير، وكل الفضل والتنويه، على التفكير في معالجة موضوع مثل هذا: من خلال المحاضرات التي سيلقيها العلماء في ندوة علميّة متخصصة، وذلك لأهّميّة المسألة اللغوية، وجدْوى البحث فيها، إذ كانت اللّغة هي مفتاح المعرفة ولا يتأ 7 لنا امتلاك هذا المفتاح إلاّ بمعرفة ودراية بلغتنا من حيث أصولُها ومن حيث تأثيرُها في سواها، وتأثّرها أيضاً بما جاء في سواها، ذلك بأنّ العامّيّة هي امتداد للفصحى، وهي لغة التخاطب اليوميّ بين كلّ أفراد الشعب الجزائريّ، وليس ينبغي، نتيجة لذلك إهمال هذه الأداة التواصليّة العظيمة. ولقد شاء الله لأهل هذه الأرض الطّيبة أن تنطق ألسنتهم باللّغة العربية الصافية، بعد أن امتزج العرب بالأمازيغ، والأمازيغ بالعرب فتزاوجوا وتجاوروا، واندمج بعضهم في بعض بالتصاهر والتّآخي، مع من ظلّ منهم ممّن لا يزال محافظاً على اللّغة الأمازيغيّة يصطنعها في حياته اليوميّة، وحتّى في التعبير عن عواطفه وآلامه وآماله.

وشاءت المصادفة أن نكون أوّل من يكتب بحثاً منهجياً فينشره، منذ اثنين وثلاثين عاماً عن العاميّة الجزائريّة وصلتها بالفصحى، وعلى الرغم من كلّ هذه المدّة الطويلة التي مرّت على ظهور كتابنا ذاك، فإنّ الواقع يصدّق ما كنّا ذهبْنا إليه من أنّ العاميّة الجزائريّة هي أنقى العامّيّات العربيّة على الإطلاق (ولسنا هنا نتحدّث عن عامّيّات المدن الجزائريّة الكبرى فهي خليط عجيب من الفرنسيّة والتركيّة والإسبانّية، وهو ما ركّز عليه إبراهيم السّامرّائي في أحد كتبه بسخريّة وسوء نيّة، وبدافع النيل من كرامة الشعب الجزائريّ، وبلا رغبة نبيلة في البحث والتطلّع لمعرفة الحقيقة المجرّدة ... وقد رددنا عليه في مقالة لنا نشرت بإحدى الجرائد العربيّة الصادرة بلندن)؛ ولكنّا إنّما نتحدّث عن هذه العاميّة في القُرى والأرياف والبوادي الجزائريّة،

بل حتّى في بعض المدن العريقة في الثقافة والفنّ والتاريخ مثل مدينتيْ قسنطينة وتلمسان.

وقد أتيح لنا أن نمسح المعجم العربّي متابعة وملاحظةً، فألفينا كثيرًا من الألفاظ المستعملة في عاميتنا اليوميّة في طبّ المعدة، والجِلد، وفي الطبّ العام، وفي الزراعة والرّيّ، واللباس، والخياطة، والحياكة، والحليّ، والمائدة.. وفي المعارف العامّة المختلفة الحقول: هي عربية فصيحة لا ينقصها إلاّ الإعراب، وذلك مثل الهُرْيِ (الكيس الكبير الذي يُجمَعُ فيه الطعام) والخابية، والجابية، والتّنبيت (أول خروج النبات) وتوْقيح البرهِ والعيْن (أي المبالغة في استنفاد مائهما عند السقْي) وتلبّد الصوف، والخيط، إذا تداخلا وتلاصقا فعسُر إصلاحهما، واللَّزُّ في المجالس وقاعات الدرس، وهو مصدر لَزَّهُ يَلُزُّهُ لَزًّا: شدّه وألصقه، وكلّ شيء دُونِي بين أجزائه أو قُرِن فقدْ لُزَّ، وهو مستعمّل في لغتنا اليوميّة إلى اليوم، ولِسان النّار: وهو ما يتشكّل منها على هيئة اللسان عند اشتعالها في الحطب اليابس الجزْل، ومن ذلك أيضاً : لسان الميزان (الميزان التقليديّ الذي لا يزال مستعمّلاً في بعض الأسواق الريفيّة) " التَّلْقاط" (والتَّفعال صيغة من صيغ المصدر تدلّ على الكثرة في الفعل)، ويطلقه الفلاّحون الجزائريّون على تعقّب الأطفال والنساء الفقراء حصيدةً بعد أن يحصد الفلاح غلتّه ويجمعها فيلتمسون فيها ما تساقط من السنابلُ التي لم تأخذها المناجل، فيجمعون منها طائفة ينفضونها ثمّ يَذْرونها ثمّ يتّخذونها مدَّخَرًا لهم من الطّعام، وكلّ نثارة، كما ورد في لسان العرب، من سنبل أو ثمر فهو: لَقط، والواحدةُ لَقْطَةٌ، يقال في لغة الفلاحين (ج) : لقّطنا اليوم تلقيطاً كثيراً وتشديد الفعْل للزيادة في معناه. وعلى أنّ الأمثلة من ذلك كثيرة، والبحث الذي نقدّمه إلى الندوة، إن شاء الله، يحاول التركيز على هذه الأطروحة التي نعتقد أنّها صحيحة، والشواهد اللغويّة من المعجم العربيّ، تثبت ذلك وتؤيّده تأييداً.

إشكالية الفصيح والعامي في الأدب الشعبي

(مقاربة نصّية من مارون عبود)

د/سالم المعوش جامعة بيروت

القسم الأول: إشكالية الفصيح والعامي:

اللغة العربية ظاهرة صراعية: ترتسم في البحث اللغوي آفاق متعدّدة لتناول اللغة.. وهي مفتوحة على كل احتمال.. وتناولها ينطوي على جملة من الاتجاهات التي تعبر باللغة إلى مديات واسعة تجد نماءها في خصب الحياة وتجدّدها، دلالة من دلالات الانتشار وفاق الأوساط الاجتماعية ووفاق الموضوعات والعلوم والنظرة إليها بحسب الجوانب المختلفة سواء أكانت بنّاءة أم غير بنّاءة.

واللغة، على ذلك، ظاهرة صراعية ترافق الإنسان في تدرّجه وارتقائه، ويقع عليها ما يقع عليه من مواجهات ومصائر في سياق إثبات الوجود وصراع البقاء والحفاظ على الذات من عاديات الزمن. وأصبح ارتقاء اللغة يعبّر عن ارتقاء الإنسان نفسه وتراجعها من تراجعه وقوّة شخصيتها من قوة شخصيته..

ولقد كانت وظيفة اللغة مهمة في عملية البناء الاجتماعي وتطوره.. وفي نشوء الكائن الحيّ وتحوّله إلى بشري.. ومواجهته المستمرّة لقوى مماثلة له أو لقوى الطبيعة..وكفاحه الطويل من أجل تثبيت إنسانيته، فرداً اجتماعياً بعلاقاته البدائية أولاً والمتطورة إلى أشكال أخرى أرقى ثانياً..

ولقد رافقت اللغة الإنسان من بدء صراعه المتعدّد الوجوه.. فكانت حافزاً لتجمع الناس وتقاربهم، حيث تجاربهم ونشاطهم، ومفهوماً مشتركاً لبناء الحاضر والتطلّع إلى المستقبل، وسجلاً لا خلاف عليه لتدوين تاريخهم وعاداتهم وتقاليدهم وثقافتهم وتراثهم وحضاراتهم وأديانهم و إبداعهم عموماً..

وبما أنّ اللغة مرتبطة بالحياة هذا الارتباط الوثيق، كان لها المفهوم الموازي للبناء.. الكلمة هي البناء، حيث كانت في البدء هكذا وإلى الآن تستمر، وكما ورد في انجيل يوحنا: "في البدء كان الكلمة، والكلمة كان الله، وكان الكلمة الله [1]...

وقد "جعلت الكلمة معتمد الوحي وإيذاناً بولادة الوجود[2]في الإسلام، وكانت "إقرأ "[3] الكلمة الأولى في النظام البنائي الأخير للكون، وقد تمثّل في القرآن الكريم.

الكلمة إذاً تعادل البناء.. والبناء هو ما قام به القوم من معنوي ومادي.. وهو دائماً في خطر من صراعات أهله أو صراعاتهم مع الآخرين.. وهو معرّض للسلب والنهب والتدمير والإلغاء.. وأشدّ ما يصاب به هذا البناء هو الافتئات على اللغة التي ارتبطت بها حياتهم واختزنت سياقاً تاريخياً وتراثياً واجتماعياً وأسهمت في تكوينهم عضوياً وذهنياً.. في نضجها يتجلى الاستقرار وتتحدّد شروط البقاء.. فهي قوة أساسية من قوى العمل الاجتماعي وأداة لتنظيم مواجهة البشر للطبيعة وتحويلها إلى ثروة[4].. وهي الأداة التي تكتب بها الثقافة والتراث. سواء أكان شعبياً أم رسمياً أم لنخبه.. وهذا كلّه يتسم بالصراعية، أكانت ضمن المجتمع الواحد أم في غير مجتمع.. ذلك أنّ لكل جماعة مفرداتها المؤدية إلى تكوين لغتها.. وهي تحمل التطلعات والهموم والآمال.. ومن الطبيعي أن يحصل التلاقي أو التنافر بين هذه الجماعة أو تلك أو هذه الثقافة أو تلك، أو بين الطموح والأهواء لكل فئة ضمن المجتمع الواحد أو في مجتمعات مختلفة.

وغالباً ما تتدخل السياسة وحبّ السيطرة في تكوين المنطلقات الفردية والجماعية، وغالباً ما يؤدي ذلك إلى تعدّد الانتماءات وتعدّد التعبير عنها والتعصب لها والانصراف إلى تكوين بدائل تخلخل ما هو قائم وتبتدع أشياء جديدة توافق الأهواء والميول.. وهو ما حصل في لبنان في غير زمن، حيث أدّى الانتماء السياسي إلى فرز

---

(1) انجيل يوحنا، الآية الأولى، والكلمة تعني المسيح، عليه السلام

(2) مقدمة في نظرية الأدب، د. عبد المنعم تليحة، ص11، دار العودة، بيروت 1983

(3) قرآن كريم، سورة العلق، الآية الأولى، 96-1.

(4) مقدمة في نظرية الأدب، د. عبد المنعم تليحة، ص11، دار العودة، بيروت 1983.

حالات طائفية ارتكزت على الصراع وأدخلت فيه عنصر اللغة عاملاً أساسياً من أجل دعم الانتماء المزعوم.. لذلك كانت الدعوات المختلفة للإطاحة بالفصحى العربية والبحث عن بدائل تذ هذا الانتماء.. وهو ما واجهته العربية في هذا القطر من الوطن العربي..

كما يمكن أن تكون هذه السياسة استعمارية فتسعى إلى السيطرة والتخريب وهدم بناء المجتمع لخدمتها.. وهو ما شهده القرنان الماضيان في غير قطر من الأقطار العربية، حيث جرت المحاولات العديدة لانتزاع العربية من أبنائها وإحلال لغات أجنبية محلها..

وهو كذلك ما أذ ة نيران الصراع حول التمسّك باللغة العربية من أبنائها، والذي جعل من اللغة ميداناً فسيحاً لتعدّد وجوه الصراع حولها وجعلها إلى الآن متماسكة وقادرة على المواجهة على الرغم من تكثيف التجنّي عليها..

ولقد كانت حملات الافتئات على اللغة العربية تكتسي دائماً بأوهام ناتجة عن عدم فهم قدرة اللغة العربية على التعبير عن مجريات الكون والحياة.. فألصقت بها التهم المختلفة وقادها البعض إلى انزياح أدائي محاولاً إبعادها من أصولها وأجوائها ومعاجمها وحياتها وتراثها وحضارتها وخصوصيتها وأديانها قسراً وبغياب التركيز عليها من أبنائها العلماء والباحثين والأساتذة والمتعلمين في معاهد العلم.. الأمر الذي أدخلها في شيء من الوهم الذي صدّقه البعض وانبرى يعمل على أساسه.. وكان المقصود هدم البناء الاجتماعي العربي بهدم لغته.. وهو أمر تنبّه له العرب فحاولوا إيقافه ولا يزالون بالوسائل المتاحة.. وكانت الشعوب العربية هي الساعي الكبير إلى ذلك.. فاستمرّت تعبّر بفصحاها، وكتبت تراثها وإبداعها بها.. وصنعت ثقافتها الشعبية والنخبوية التي راجت في معظم أرجاء الوطن العربي... بينما ظلّت محاولات الافتئات شحيحة المدر ومحدودة الأثر.. على الرغم من الإنتاج الأدبي الشعبي المحلّي العفوي الذي ليس له غاية اعتدائية على اللغة. كما كانت حملات الافتئات تكتسي دائماً بطابع الهجوم من أجل الإلغاء أو التهميش أو التقزيم.. وهو ناتج عن الطمع

الاستعماري في بلاد العرب وضرب سبب أساسي من أسباب لحمتها وقوّة تواجدها على الساحة العالمية.. وهي محاولات بدأت منذ قرون، ولم تفلح حتى في أشدّ أزمان التغييب العربي حتى عن أرضهم.. والمتجدّد فيها ما تطرحه العولمة اليوم من نظريات جديدة تؤول إلى إلغاء اللغات والخصوصيات والحضارات والهويّات والأديان والتراثات.. بهدف خلق الإنسان الكوني في القرية الكونية المزعومة.

من أجل ذلك كلّه اكتسبت اللغة العربية طابع الصراعية منذ زمن طويل.. ولقد أوجدت النوافذ الكثيرة لمحاربتها، وليس أقلّها نافذة الفصيح والعامي التي سجلّت المزيد من الوقائع الصراعية على مدى قرون، تناوبت عليها العفوية حيناً والتآمر حيناً آخر..

البناء في إنجاح اللغة العربية: مرّ زمن طويل على اللغة العربية، لغة الدين والتراث والعلم والإبداع والحضارة والثقافة، عرفت فيه أوج ازدهارها كما عرفت فيه بعض التراجع.. نستحضر هنا التاريخ العربي القديم حيث قامت اللغة العربية بالأكثر أهمية من أدوارها منذ الجاهلية ومروراً بالعصور المتعاقبة في زمن الإسلام.. كما نستحضر تاريخ الانحطاط حيث غيّبت العربية عن المستوى الرسمي وحلّ بالعرب ما حلّ بهم من ركود وتراجع..

كانت العربية تمثّل حركة الواقع في تطوره واستلهامه المعطيات الاجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية.. وهي التي تحتوي القدرة الكامنة في رحم التعبير عن غدٍ تلمع فيه الحياة أو تخفت أنوارها. حملت الخطاب الممكن لما يجري في الحيّزين: الواقعي والنفسي عبر الانعكاس المتوثب قولاً وعملاً، جهاداً وكفاحاً.. من أجل التغيير ورفع لغة التخاطب والكتابة إلى مستوى من المقدرة تكمن فيها الحاجات الضرورية للبناء. من هذا المنطلق يمكن قراءة وجود الكتابة العربية، منذ القديم وصولاً إلى العصر الحديث وابتداء من عصر النهضة العربية، في محاولته المحافظة على التراث ومقاومة التيارات المفتئتة عليه: إمّا للقضاء عليه أو الاستفادة من معطياته وفق المتطلبات الجديدة للحياة العربية. وهذا كان يقتضي الإمعان في دراسة التراث،

وبشكل أساسي اللغة في محاولة عصرنتها عن طريق بثّ الحياة فيها وإغنائها والاستفادة من الطرق المعروضة في قواعدها وعلومها..

ولقد شكّلت محاولة العودة إلى التراث بمختلف وجوهه مادة خصبة ينهل منها المقبلون بإخلاص على تجديد حياة أمّتهم.. حيث تجلّى عملهم في امتطاء صهوة المواقف الكتابية والتعبيرية المختلفة، يحدوهم في ذلك بثّ الروح القومية وبعثها والكتابة في الوطنيات والإصلاح الاجتماعي والفكري والسياسي والتنديد بالاستعمار ومن يتبعه.. ولقد نتج عن ذلك أدب يبهج الشعب ويرضي شيئاً من طموحه ويدعو دعوته إلى الحرية والاستقلال والتوحد، عبر إعادة مجد اللغة، جامعة القوم وتقديم الأفضل في مجالاتها التقعيدية والتعبيرية والمعجمية وملاءمة الحياة. ومعروف أنّ النثر العربي، قبيل النهضة العربية قد وصل إلى حالته الدنيا من الانحطاط.. حيث نجد أنّ اللغة العربية قد أبعدت من الدواوين، وورث المتأدبون ما آلت إليه اللغة من أساليب التصنّع وعدم وضوح الفكرة، كما أنّ العامية سيطرت على أقلام الناس وألسنتهم، الأمر الذي أبعد الكاتب عن خصوصية التعبير العربي الفصيح وأغرقه في دوامة العام والمتكرّر وغياب القضايا الرئيسة وفقدان التعبير عن الذات. ولا ريب في أنّ ذلك كان حالة استثنائية تولّدت من إنعكاس الأوضاع السياسية التي باشرها الأتراك وقبلهم المغول في بلادنا، حتى أصبحت الأمية مستحكمة في بعض المدن العربية، وأنّ تجارها كانوا يعتمدون في كتابة رسائلهم.. على نفر قليل قدّر لهم أن يقرأوا ويكتبوا[1].

ولم تلبث النهضة أن خطت خطواتها الأولى حتّى أصابت اللغة العربية حركة واسعة من النهوض للتعبير عن الحياة الجديدة والتخلّص من العامي واعتماد الفصيح.. وكانت الصحافة وحركة إحياء التراث وبروز الذات القومية واختيار اللغة القادرة على مماشاة العصر بعيداً من التقعّر والعامية على حدّ سواء وقريباً من الحياة وعملية بنائها.. كانت محور الحركة البنائية الايجابية للتطوير على مختلف مستويات الخطاب.. وكان الصراع حين ذاك يقوم بين القديم والجديد وليس بين العامي

---

[1] الحلقة المفقودة، محمد جميل بيهم، ص 192، صدر عام 1950 في لبنان

والفصيح على وجه التحديد، حيث كان عامل ترقية اللغة هو الأساس بين المحافظين والمجدّدين، حتى كانت الكتابة النثرية، كما يقول العقاد "تخطو خطاها الواسعة إلى مدى لم يسبق للعربية به عهد. [1]ولقد شمل هذا الإحياء التراث العربي والإسلامي.. ولم تكن قصدية الباحثين في شؤونه ترمي إلى إبراز فرع من فروعه بقدر ما كانت تهدف إلى تقديمه بكل ما فيه، لاسيّما ذلك التراث الشعبي الذي صنعته الأجيال العربية على مرّ الزمان..

وقد قامت حركات كثيرة بناءة لتطويع العربية وجعلها في متناول الكتّاب والأدباء والشعراء والمؤرخين وصوغ العلوم الأخرى الإنسانية والبحتة.. وهو ما جعلها متماسكة، تمضي في التعبير عن أحوال الأمة والعصر والذات... ولقد كثرت التآليف اللغوية في قواعد الصرف والنحو والشروح وتقديم كتب التراث اللغوية والبلاغية والنقدية.. حيث برزت صورة اللغة زاهية مشرقة بقدرتها الواسعة على التعبير واهتمام الباحثين بها في المجالات كلها.

غير البنّاء في دعوات إصلاح العربية:

اللغة والقوم: ولا تزال اللغة العربية في الزمن الأخير تشكّل أرقاً دائماً يتعدّى الحرف ليعانق الإيمان والقيم والمبادئ والمقدّسات. وهو أرق يتضاعف غير مرّة ليخرج من دائرة التمنّي إلى دوائر الواقع الذي يسجّل التقهقر فيه أرقاماً قياسية في مجالات استعمال اللغة، لاسيّما في هذا الزمن الذي وسم باختلاط الأوراق وضياع الكثير من خصوصيات الشعوب وهوّياتها وتطلعاتها إلى غدٍ مشرق تعلو فيه قيمة الإنسان وما يستتبعه من عوامل رقي الأمة التي تغدو فيها اللغة عنصراً رئيساً من عناصر تكوينها.. والأمة العربية هي بحاجة ماسة للقبض على مسلّماتها وإدارة شؤونها بما يحفظ شخصيتها على مختلف الصعدان.. يقول الفيلسوف الألماني فينحته: " إنّي لا أتصوّر أن يعلّم المعلّمون، وتؤلف الكتب المدرسية بلغة أخرى غير اللغة

---

[1] ساعات بين الكتب، عباس محمود العقاد، ص 195، المطبعة التجارية الكبرى مصر 1924.

القومية، وذلك إنّي لا أتصوّر كيف يكون الأمر غير ذلك، إني لا أتصوّر أن تكون التربية بلغة أخرى. إن هذه التربية يجب أن تكون وطنية بمعنى الكلمة، لا مواد أجنبية مترجمة، بل باللغة القومية، تتدفق من ينابيعها وتستمد قوتها من حياة هذه اللغة التي سمّيناها القوة الطبيعية للأمة. ومن المسلمات التي أيّدتها تجارب الأمم في الماضي والحاضر أن العلم لا ينتشر في مجتمع ولا يتأصل في شعب إلا بلغته القومية، ولا يتم الأساس الأول لشدّ أية أمة إلى تراثها وثقافتها وعقيدتها إلا عن طريق اللغة القومية. كما أنّ المتعلم باللغة الأم أكثر استيعاباً لمادة التعليم من المتعلم بغيرها، والاستيعاب عون على التمثل، وتمثّل المعرفة هو السبيل إلى الابتكار والإبداع.. وموت لغة يتمّ عندما يتخلى أهلها عنها لفائدة لغة أخرى تستعمل كوسيلة اتصال و إعلام، وأداة تربية وتثقيف وبحث وتعليم مكان اللغة القومية"[1].

يرسم هذا النص إشكالية تعاطي الأقوام مع لغاتهم. وهي إشكالية تضع أولوية الارتباط باللغة في الواجهة، وتنطلق من طرح الأسئلة المكثّفة حول مصير اللغات، خصوصاً اللغة العربية في مواجهة المستجدات التي تميّزت بحضورها منذ ما قبل النهضة إلى يومنا هذا، وارتقت في أحيان كثيرة إلى سدّة التفكير العربي في إقباله على الأخذ من الجديد بما لا يتعارض مع الموجود والموروث من دين وثقافة وحضارة وعادات وعلم وأدب.. في سياق التطور الإنساني[2]..وبما لا يتعارض بشكل أساسي مع اللغة العربية المقدّسة التي ترتبط حكماً بمنطلقات الرقيّ والتقدم والحاجات والتفكير وتهذيب الاتجاهات النفسية.. فارتقاء اللغة من ارتقاء الأمة التي ينبغي "أن تكون كما يريد لها أبناؤها وليس كما يريد لها الآخرون" [3]. وهو أمر لا تجدي فيه العفوية والتبسيط، بل هي على اتصال وثيق بجذور تكوين المجتمعات العربية

(1) المجلة العربية للعلوم، ملف العدد، التعريب والمصطلح، العدد 9، تونس، 1986، ص 20-21.

(2) التحدّي الحضاري الاسلامي، من أجل مستقبل انساني أفضل، عدنان الحاج، ص 30-31 مؤسسة الرحاب الحديثة بيروت 2001.

(3) اللغة العربية في عصر العولمة، د. أحمد بن محمد الضبيب، ص 34، مكتبة العبيكان، الرياض 2001..

وعقلية الإنسان العربي ونمط تفكيره واتجاهاته الفكرية والنفسية والطائفية والسياسية والاجتماعية والثقافية، ومدى التأثّر بالخارج والارتباط به، وفاعلية البرامج التي تتبنّاها الدولة في الحقول المختلفة، ومدى ما حصّل من علوم عصرية أُدخلت في بُنى المجتمع غير المتعارض مع تطوره وأديانه وثقافته وحضارته وقيمه الاجتماعية والنفسية والروحية والتربوية ومدى تواصله مع التكنولوجيا وتوافرها في بلاده، ومدى جدّية البرمجة والتخطيط للوصول إلى النتائج المرجوّة الملائمة للسياق العربي والإسلامي خصوصاً.. ذلك أنّ جزءاً كبيراً من مجتمعاتنا لايزال تسيطر عليه نزعات بعيدة من العلم والتقنية الحديثة في زمن تتحول فيه هذه التكنولوجيا (التقنية) إلى أيديولوجيا تجتاح في طريقها كل شيء وتوحد العالم في نمط خاص من التفكير الرقمي، وبتعبير آخر المادي الذي يسود الجزء الأكبر من الحياة الإنسانية، فتغدو أكثر تسمّراً أمام الوسائل الإعلامية المتاحة، لاسيّما الفضائيات وما عرف بالستلايت والحاسوب والانترنت بالإضافة إلى الإذاعات المرئية والمسموعة..

إنّ التفكير السليم في موضوعات مصيرية يكون على مستوى أمة وليس على مستوى فرد أو قطر من الأقطار، على الرغم من أنهما يشكّلان عنصرين رئيسين من عناصر وجود الأمة وتطورها.. ويصبح أمر الاهتمام باللغة العربية جماعياً يطال الأفراد والجماعات والأقطار مجتمعة وعلى حدة.. والاقتراب من المشكلة أكثر يرينا أنّ الأمور إذا تُركت على غاربها فإنّ النتائج ستكون وخيمة.. من أجل هذا يقتضي البحث عن حلّ جماعي تتنكّبه الأمة، وهذا لا يتسنّى إلا باتخاذ قرار جماعي ملزم ينطلق من الواقع الراهن ويستجيب للطموحات الآيلة إلى الحفاظ على جملة من الثوابت التي تعدّ أساسية على مختلف الصعد. وهو قول يتخذ أهميته من خطورة الأحوال التي بدت عليها اللغة العربية في المستويات المختلفة.. وهي أحوال تنسجم مع الأوضاع العامة التي يمرّ بها العرب والتي تتمثل على شكل مشكلات حادة يعانون منها منذ قرون.. فهم أمة في قيد التبعثر الكيفي، في حالة تفكك، في حالة قوى لا تخفي خوفها أحياناً من جبروت سلطة العولمة وتأثيرها في واقعهم ومصيرهم مادياً

ومعنوياً، في صورة السطح وعمق الجوهر. يأتي هذا الكلام في إطار السؤال عن مصير اللغة العربية، في ظلّ المتغيّرات المحلية والدولية.. وهو سؤال يكتسب شرعيته من التساؤل حول مصير العرب أنفسهم، العرب الذين عليهم الاهتمام بلغتهم الدينية والقومية والحضارية والإبداعية في ظلّ هجمات العولمة المتعددة النواحي، ومنها على سبيل المثال اللغة. ذلك أنّ منظّري العولمة ومنهم صموئيل هنتغتون يرى أنّ "العناصر الرئيسية لأي ثقافة أو حضارة هي اللغة والدين، إذا كانت هناك حضارة آخذة في الانبثاق، فإنه ينبغي أن توجد اتجاهات نحو انبثاق لغة عالمية وديانة عالمية وأن لغة العالم هي الانكليزية" [1] والسؤال حول مصير العرب قديم جديد، طرح في بدايات النهضة بالحدّة نفسها، وأمام الهجوم المتعدد النواحي على الأرض والقيم والفكر واللغة والدين.. لذلك كان انبثاق حركة النهضة العربية على غير صعيد، ولذلك انبرت الكفاءات العلمية والدينية والفكرية والأدبية واللغوية لتردّ على الآتي الجديد...

من أجل ذلك، فإنّ الحديث عن واقع العرب ومن ثمّ عن واقع اللغة العربية اليوم يلقى جذوره في هذه البدايات الأولى لتوثب المجتمع، حيث كانت إعادة التكوين تظهر على غير صعيد.. ومنذ ذلك الحين ظهرت تيارات واتجاهات تتبنّى سياسات معينة ومقولات فكرية وحضارية متنوعة.. وهو ما شكّل إفرازاً من إفرازات الفسيفساء الثقافية المختلفة التي توزّعت على المجتمعات العربية، خصوصاً المجتمع اللبناني وما عرف عموماً بالمجتمع السوري أو الشامي..

أظهرت رقعة الفسيفساء هذه ألواناً مختلفة انعكست صورتها على المجتمع اللبناني إذاً، وكان ثمة نوع من الانفتاح على الغرب متعدد الوجوه أيضاً بتعدّد وجوده.. وما إن خطت هذه النهضة العربية خطواتها التالية حتى كشفه نموّ بعض الظواهر الثقافية عن اتجاهات موالية تماماً للغرب، عملت على نشر ثقافة أحادية الجانب دون الالتفات إلى ثمرة هذه الثقافة إن كانت أينعت أم لا..

---

[1] صدام الحضارات، صموئيل هنتغتون، ترجمة د. مالك أبو شهوة ود. محمود محمد خلف، ص 133، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والاعلان، الجماهيرية العظمى، 1999.

ولقد انسحبت بعض جوانب هذه الثقافة على اللغة العربية وأحدثت انشقاقاً بيّناً في الدعوة إلى تجديدها أو تطويرها، تمثّل في تقديم اقتراحات لا تعدّ بنّاءة فيما هدفت إليه.. بينما ارتسم بالمقابل تيار الحياة العربية الدافق وتسنّم الأمور الطبيعية الصحيحة التي ينبغي أن يؤول إليها مصير تطور الأمة الحقيقي.. فكان تياراً قوياً على الرغم من تعثّره، يقدّم الذي يجب أن يحيا ويبقى، ويقزّم الدعوات الأخرى غير البنّاءة، إن كانت على صعيد الحياة أم على صعيد اللغة..

الدعوات غير البنّاءة لتطوير اللغة العربية في لبنان بين القديم والحديث:

من العرض السريع السابق يتبيّن أن جذور المشكلة اللغوية العربية في العالم العربي عموماً وفي لبنان خصوصاً، ترتبط بالتطور السياسي والاجتماعي والثقافي والاقتصادي لبلاد العرب وعلاقتها بالغرب الذي حاول السيطرة منذ أمد بعيد على إمكاناتها في نهايات الهيمنة التركية وتحفّز الدول الاستعمارية لاقتسام مغانمها، حيث حوربت اللغة العربية على غير صعيد[1].

اهتمام الغرب باللغة العربية: جذور الدعوات اللبنانية: وإذا كانت تركيا قد قامت بمحاولات تتريك المناطق العربية التي كانت تحت سيطرتها فباءت بالفشل، فإنّ الدور الخطير الذي أدّاه الغرب، في هذا المجال، كان أكثر خطورة، لاسيّما عندما أسلم الزمام إلى ثلّة من الباحثين اللغويين العرب وعلى الأخص اللبنانيين...

ومن دلائل الاهتمام الغربي باللغة العربية إنشاؤه مجموعة كبيرة من المعاهد والجامعات والمدارس لتعليمها.. ففي سنة 1754 أنشئت مدرسة القناصل في فيينا، وكانت تعلم القناصل لغات الشرق ومنها اللغة العربية بعاميتها وفصحاها، وفي فرنسا دُرّست اللهجات العربية العامية في مدرسة باريس للغات الشرقية الحيّة التي أُنشئت عام 1759، وفي روسيا أُنشئت مدرسة لازاروف للغات الشرقية في موسكو عام 1814

[1] صدام الحضارات، صموئيل هنتغتون، ترجمة د. مالك أبو شهوة ود. محمود محمد خلف، ص 133، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والاعلان، الجماهيرية العظمى، 1999.

وكانت تدرس العربية، وفي عام 1909 خصصت فرعاً لها لتدريس العربية ولهجاتها المحلية، وفي المجر أنشئت عام 1891 الكلية الملكية لعلوم الاقتصاد الشرقية وتدريس اللهجات ومنها العربية، وفي بريطانيا أنشأت جامعة لندن في أوائل القرن التاسع عشر فرعاً فيها لتدريس العربية الفصيحة والعامية. كما ظهر كثير من المؤلفات باللهجات العامية العربية منها: لهجة بغداد العامية (ماسينون) ولغة بيروت العامية (مانويل ماتسون) ولغة مراكش العامية وقواعدها (ابن سميل) وقواعد العامية الشرقية والمغربية (كوسان دوبرسفال) وعامية دمشق (برغستراسر) وقواعد العربية العامية في مصر (ولهم سبيتا) واللهجة العربية الحديثة في مصر (كارل فولرس) والعربية المحكية في مصر (سلدن ولمور) والمقتضب في عربية مصر (فيلوت وباول) [1].

وينبغي لفت الانتباه إلى أنّ المستشرق الألماني في مصر (ولهلم سبيتا) هو أول من بادر إلى تأليف كتاب في العام 1880، في مجال اللهجة العامية العربية هو "اللغة العامية في مصر [2] وتبعه بعد عشر سنوات (كولرس) الألماني في العام 1890 بتأليف كتابه (اللهجة العامية الحديثة في مصر).

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحدّ، بل صاحب هذا التأليف والنشر دعوات إلى الابتعاد من الفصحى والاقتراب من العامية.. والمطلع على مجمل هذه الكتب وعلى نظم المدارس والمعاهد والجامعات التي أنشئت في الغرب لتعليم اللهجات العامية العربية يجد أنّ هناك محاولات لإلغاء اللغة العربية الفصحى وإحلال العاميات محلّها.. وهي دعوة خطيرة تترافق مع دعوى الاستعمار لطمس الوجود العربي والشخصية العربية المستقلّة وبتر العلاقة بين المسلمين وكتابهم المقدس القرآن الكريم.. محاولات تجد صداها في الخطوات العملية التي بوشرت منذ زمن طويل للاستيلاء كلياً على بلاد العرب وإحلال كيانات مزعومة مكانها.. فالاستيطان الصهيوني في فلسطين وطمعه في أجزاء أخرى من الوطن العربي من هذا القبيل، ومحاولة ايطاليا تحويل ليبيا إلى شاطئ

---

[1] اللغة العربية والوعي القومي، د. حاتم صالح الضامن، ص23.

[2] الاعلام في ديار الاسلام، يوسف أبو هلاله، ص112، الرياض، 1408هـ.

رابع لها تؤول إلى الهدف نفسه، وكذلك محاولة فرنسة المغرب العربي ودوله كافة لاسيما الجزائر.. لذلك وجدنا هذه الدعوات لضرب العربية تدريجاً يتزامن مع هذه الاحتلالات والنوايا.. إن أي محاولة لفهم هذه المسألة بعيداً من هذا التزامن يلقي بها خارج الإطار الصحيح.. لذلك كانت مقالة المهندس الانكليزي (وليم ولكوكس) التي نشرها في مجلة الأزهر في العام 1892،أثناء سيطرة الانكليز على مصر، تصب في الاتجاه الداعي إلى إلغاء العربية الفصحى عندما رأى أنّ هذه اللغة الفصحى هي التي أعاقت المصريين عن الاختراع وأنّ التأليف باللهجة العامية هو الأفضل في التعبير [1].

الأمر الذي استتبع هذه الدعوة ردود فعل عربية حادة ورافضة بشدّة لهذا الاتجاه حيناً ومستجيبة ملبية حيناً آخر، كما هو الأمر عند الكاتب والناقد المصري لويس عوض الداعي إلى ترجمة القرآن الكريم إلى اللهجة العامية المصرية بحجة أن الشعب يجب أن يقرأ بلغته[2].

واقع الاستجابة لهذه الدعوات غير البنّاءة:

1- الاستجابة المشوّهة: وقد شملت الاستجابة لهذه الدعوات العديد من الكتاب الذين أخذوا يروّجون للعامية ويبينون محاسنها وابتكار المصطلحات وتهيئة النفوس لتقبلها.. فقد شهدت صفحات مجلة "المقتطف" التي كانت تصدر في مصر هذه الدعوة ونشرت أقوالاً تحثّ الكتاب على الكتابة بالعامية.. ففي سنة 1881 اقترحت كتابة العلوم باللغة التي يتكلمها الناس في حياتهم العامة، مدّعية أن الخلاف بين لغة النطق ولغة الكتابة عندنا هو علّة تأخرنا، ثم دعت رجال الفكر إلى بحث اقتراحها ومناقشته[3]... وقد استجاب لهذه الدعوة كثيرون من الباحثين اللغويين منهم

---

[1] الاعلام في ديار الاسلام، د. يوسف أبو هلاله، ص 113.

[2] المرجع نفسه، ص 114.

[3] اللغة العربية والنجاح، خليل البازي جي، مجلة "المقتطف"، القاهرة، تشرين الثاني 1881، ص 352 – 354.

أسعد داغر في مقالته: "إستحالة الممكن إذا أمكن[1]، وكاتب آخر نشر مقالة بعنوان "مستقبل اللغة العربية" ووقّعه باسم "الممكن" [2]. وقد عارض الشيخ خليل اليازجي هذه الدعوة في مقالته "اللغة العربية والنجاح "[3]. ولا يخفى ما كان لدور كاتب ومفكر مثل لطفي السيد بالدعوة إلى استخدام العامية ولقد كتب في العام 1913 سبع مقالات في موضوع تمصير اللغة العربية في صحيفة الجريدة رأي فيها أنّ الطريقة الوحيدة لإحياء اللغة العربية هي إحياء لغة الرأي العام من ناحية، و إرضاء لغة القرآن من ناحية أخرى، وذلك باستعمال العامية في الكتابة [4]، وما كان من دور للكاتب سلامة موسى في هذا المجال لاسيّما في كتابه "اليوم والغد" وما أفصح عنه الناقد لويس عوض في مقدمة كتابه "بلوتو لاند وقصائد أخرى من شعر الخاصة" من تفضيل الكتابة بالعامية المصرية ولا بأس من ترجمة القرآن إليها [5].

وكأنّي ببعض اللبنانيين كانوا ينتظرون أصواتاً عربية تدعو إلى مثل هذه الدعوة حتى يجهروا بدعوتهم التي خلطت الكثير من نواحي الحرص على تطوير اللغة العربية وبين الدعوة إلى إضعافها بل ربما إلغائها..

وقد انطلقت دعوات اللبنانيين عموماً لتطوير العربية من منطلقات عديدة منها السلبي ومنها الايجابي وأكثرها بروزاً اثنتان:

أ- الرغبة الحقيقية في تطوير اللغة العربية وجعلها سليمة التعبير عن العصر ومتطلباته وهو التيار الأقوى والمستمر والصحيح..

(1) نشرت في مجلة المقتطف، الجزء، العدد 9، القاهرة شباط 1883، ص556..

(2) مستقبل اللغة العربية، الممكن، مجلة المقتطف، الجزء 6، العدد8، القاهرة كانون الثاني، 1882، ص 494.

(3) مجلة المقتطف، القاهرة، تشرين الثاني 1881، ص 352- 354.

(4) فقه اللغة العربية وخصائصها، د. إميل بديع يعقوب، دار العلم للملايين، بيروت 1982، ص 153.

(5) المرجع نفسه، ص115.

ب- العمل على إضعاف اللغة العربية بإحلال العامية محل الفصحى أو بتبسيطها أو تيسيرها، أو بإبدال رسم الحرف العربي بالحرف اللاتيني وهو الطريق الموصل إلى إلغائها.. وكان تياراً نشازاً يغرّد في سربٍ خارج الحياة العربية.

وقد برزت في هذا الصدد جملة من المقولات التي تحل مصطلحات تُفلسف للعامية وتكسبها شرعية في التداول والكتابة.. فإذا كانت الفصحى هي لغة العرب القدماء ولغة القرآن الكريم والتراث العربي جملة ولغة الشعر والنثر والفكر والعلوم الإنسانية والبحتة عموماً فإنّ العامية في أقرب مدلولاتها هبوط الفصحى إلى مستوى متدنٍ من التعبير اضطرت المجتمعات العربية إلى اللجوء إليه تمشياً مع الفئات البشرية الطارئة على المجتمع العربي وغير القادرة على نطق الفصحى نطقاً سليماً، الأمر الذي أوجد خللاً بيّناً في التداول اللغوي لفظاً وكتابة.. ودفع بالبعض إلى القول بجدوى العامية.

2- العامية بأسماء مختلفة:

وقد أطلق بعض الباحثين اللغويين المحدثين عدة أسماء على هذه العامية مثل: "اللغة العامية" [(1)] و"الشكل اللغوي الدارج" [(2)] و"اللهجة الشائعة"[(3)] و"اللغة المحكية" [(4)] و"اللهجة العربية العامية" [(5)] و"اللهجة الدارجة" [(6)] و"اللهجة

---

(1) أنظر مثلاً: "حياة اللغة وموتها: اللغة العامية، الأب مارون غصن، ص 8، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1925.

(2) معجم المعجم، الشيخ د. عبد الله العلايلي، ط2ن ص 4، دار المعجم العربي، بيروت 1954.

(3) مقال بعنوان، حقوق اللغة العامية بإزاء اللغة الفصيحة، الأب لويس شيخو، مجلة المشرق، الجزء 23، العدد3، بيروت، آذار 1925، ص162.

(4) مقالة بعنوان "اللغة المكتوبة واللغة المحكية، بقلم أسعد داغر، مجلة المقتطف، الجزء 27، العدد3، القاهرة آذار 1902، ص257.

(5) مقالة بعنوان، اللهجات العامية في لبنان وسوريا، عيسى اسكندر المعلوف، مجلة المجتمع اللغوي في القاهرة، العدد 4، القاهرة، تشرين الأول، 1937.

(6) مقالة "الوسائل لترقية اللغة العربية، الأب لويس شيخو، مجلة "المشرق الجزء 20، العدد 12، بيروت، كانون الأول 1922، ص 1047.

العامية" [1] و"اللهجة الدارجة"[2] و"الكلام الدارج" [3] و"الكلام العامي" [4] و"لغة الشعب"[5].

3- نتائج غير بنّاءة في الاستجابة للتسميات:

تتضح من هذه التسميات للعامية عدة أمور:

أ- الأشكال المختلفة للعامية:

أنها تشيع نوعاً من الثقافة اللغوية تكرّس إلى حدّ بعيد وجود أشكال مختلفة من اللهجات العامية.. وهي ثقافة أسهمت في إيجاد قاعدة مادية معرفية غير بناءة لتطوير اللغة العربية بل لترسيخ مقولات في الذهن الشعبي والطريقة البحثية بأنّ هناك حقاً للعامية ينبغي أن تأخذه من الفصحى كما يذهب الأب لويس شيخو[6] وأنّ اللغة الفصحى تموت وينبغي إحياؤها بالعامية- [7]، وأنّ هذه العامية هي من وسائل ترقية اللغة العربية[8].. ولا ريب في أنّ ذلك مردّه إلى بعض الاتجاهات التي ظهرت في العالم العربي منطلقة من دعوات انطلقت من هامش خاطئ مقابل الدعوة

---

(1) معجم عطية في العامي والدخيل، رشيد عطية، ص12، دار الطباعة والنشر العربية، سان باولو، 1944

(2) حقوق اللغة العامية بإزاء اللغة الفصيحة، الأب لويس شيخو، مجلة المشرق، ص 165.

(3) المرجع نفسه، ص 161.

(4) علاقة التاريخ باللهجات العربية، شكيب أرسلان، مجلة المقتطف، جزء 80، العدد 3، القاهرة، آذار 1923،

(5) حياة اللغة وموتها، مارون غصن، ص10.

(6) حقوق اللغة العامية بإزاء اللغة الفصيحة، الأب لويس شيخو، ص 162.

(7) حياة اللغات وموتها، اللغة العامية، الأب مارون غصن، ص8.

(8) الوسائل لترقية اللغة العربية، الأب لويس شيخو، مجلة 'المشرق'، الجزء 20، العدد 12، بيروت، كانون الأول 1922، ص 1047.

القومية العربية، فكانت "أعراقاً سياسية" [1] تغذي أفكاراً إقليمية الهدف منها النيل من الوجود العربي الموحد حول لغة عربية واحدة، وفي مرحلة دقيقة من تاريخ العرب الحديث، حيث تصاعدت أصوات تدّعي وجوداً قومياً مغايراً للقومية العربية، وتذهب إلى اصطناع كيانات تسهم في التجزئة أو ترتبط بفكرة عامة مفادها استبدال العربية بأخرى أجنبية..

ومن ذلك كلّه غدت الدعوة إلى العامية، في نظر البعض، طريقاً إلى "لغة الحداثة والمعاصرة" [2] وأنّ الفصحى عاجزة عن التعبير عن حاجات العصر وحاجات ذويها، لاسيما في ميدان العلوم ومواكبة الحياة الجديدة التي يقتضيها التطور الإنساني[3]..

ب- انقسام اللغويين:

أحدثت هذه الدراسات انقساماً بين الباحثين اللغويين في النظرة إلى اللغة:

أ. الجدّيين الغيورين على تطوير اللغة العربية وتنقيتها من الأدران والعمل على إعادتها إلى مكانتها اللائقة بها حيث أدّت من خلال هذه المكانة دوراً رائداً في جميع المجالات وحفظت تراثاً إنسانياً فائق الأهمية يعدّ مصدراً واسعاً للمعارف الإنسانية على مختلف الصعدان..

ب. والعاملين بقصد على إسقاط اللغة من مكانتها وزعزعة الثقة بها من ذويها والانتقال بها إلى حيّز آخر تغدو فيه مشوّهة، فاقدة أساليبها الأصيلة وتعبيراتها البيانية الراقية وأدائها اللفظي الغنيّ بالدلالات..

---

[1] رأي في الصراع بين العامية والفصحى، مقال لمحمود تيمور نشر في مجلة المجمع اللغوي بالقاهرة، الجزء 11، ص 65.

[2] اللغة العربية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها جورج الكفوري، ص 99، مطبعة نصار، ط1، بيروت 1948.

[3] نحو عربية ميسرة، أنيس فريحة، ص 27-28، دار الثقافة، بيروت 1955.

ج- العامية حلم كسول:

أصبحت العامية حلما كسولا يلجأ إليه بعيداً من كدّ الذهن وقريباً من التواكل والتعبير الهجين الذي لا يراعي أصولاً ويدّعي الحياة وهو يسعى حثيثاً نحو الموت..

د- انعكاسات سلبية من هذه الدعوات:

شكّلت هذه الإسقاطات على اللغة العربية قاعدة معرفية تف ّق اللجوء إليها في مجمل التعبير الكتابي والشفوي.. وخطورة هذه القاعدة تجلّت في اعتمادها من قبل الإعلام وسيلة لسرعة إبلاغ الخبر وشرح القضايا، سواء في الصحافة المكتوبة أم في وسائل الإعلام المسموعة والمرئية.. ولقد تفاقم هذا الخطر في الزمن الأخير في شبه حسم لموضوع الأداء الإعلامي بالفصحى، حيث أثمرت جهود العاملين على إسقاط اللغة من مكانتها وأصبح اللجوء إلى العامية مسوّغاً له، لاسيّما إذا عرفنا أنّ المثقفين أنفسهم باتوا في مناقشاتهم، وعبر الإعلام، يستخدمون هذه العامية، وإذا ترقّى حوارهم فإنّهم يلجأون إلى أداء لغوي هو ما بين الفصحى والعامية، يركن إلى السهولة ويبتعد من القواعد اللغوية[1]، حيث تبتلع حروف وتضيع الحركات ويتعثّر النطق ويشوّه مدلول الكلمات انطلاقاً من الفكرة القائلة: إنّ "العامية هي اللغة الحيّة القادرة على التعبير بيسر وهي التي تتلاءم مع الحضارة لأنّها خلوٌ من الأعراب" [2]

وقد ابتعدت هذه الطروحات في تنظيرها للعامية، ونالت من قواعد الصرف والنحو و"أخذت كما يقول د. رياض قاسم ناقداً هذه الطروحات، ما في العامية" من خصائص هي نظامها الصوتي والتركيبي والمعجمي، وما لهذه الخصائص مجتمعة من تأثير أدّى إلى جعل العامية لغة مرنة مطواعة.. وأنّ التطور الصرفي والنحوي في

---

(1) اللغة العربية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها، جورج كفوري، ص 89.

(2) – نحو عربية ميسرة، أنيس فريحة، ص 125.

"العامية" زاد من السير بها "نحو الأسهل لاقتصادها على عدد قليل من الضمائر وتصريف الفعل واستعمال اسم الفاعل والمفعول"[1].

هـ- انقسام التفكير العربي:

غذّت هذه الطروحات مقولة الانقسام العربي سياسياً.. ولعلّ الخطورة هنا تأتي من تبنّي بعض الفئات الشعبية لها وليس من الأنظمة السياسية الحاكمة في الوطن العربي.. وكانت هذه الطروحات تستجيب لعامل الثقافات المختلفة التي تجلّت في الفكر العربي الحديث لاسيّما في لبنان.. ويرى د.رياض قاسم، في هذا المجال، أنّ بين دعوة ترمي إلى إحلال العامية محل الفصحى نطقاً وكتابةً ودعوة ترمي إلى الإفادة من العامية ابتغاء التيسير في الفصحى و إنمائها، فرقاً كبيراً. فالأخيرة منهج يساير النشوء والارتقاء وناموس التطور، حيث تأخذ اللغة على يد علمائها بالتكيف والتطور، كما يساير متطلبات التغيّر الإنساني في تقدمه. أما دعوى إحلال العامية محل الفصحى فترجع إلى أعراق سياسية قومية، بزغت مع فكرة تقويم الشخصية العربية بحدود الوطن الجغرافي، إمّا بتشجيع من المستعمر إذ كان محتّلاً الأرض، و إما بدافع النعرة الإقليمية والانكماش الذاتي الضيّق.. [2]

و- خلافات مفتعلة:

إنّ هذه المقولات فتحت بعض المغاليق أمام بعض الكتاب والشعراء والباحثين، ودلّتهم إلى طرق لم يكونوا يعرفونها سابقاً، فانبرى قسم كبير منهم يبتدع أساليب بعيدة كل البعد من العربية الصحيحة، إنطلاقاً من القول: "إنّ الفصحى لغة أجيال مضى عهدها"[3]، علاوة على كونها عاجزة عن التعبير عن الحياة الجديدة للأجيال الجديدة، وأنّها صعبة التعليم لصعوبة نحوها وصرفها ومفرداتها بخلاف العامية

---

(1) - اتجاهات البحث اللغوي الحديث في العالم العربي (لبنان 1901-1960) ، الدكتور رياض قاسم، ص 383-384، من الجزء الثاني، مؤسسة نوفل بيروت 1982.

(2) المرجع نفسه، ص 384.

(3) نحو عربية ميسرة، أنيس فريحة، ص 117.

السهلة التي تسيل على الألسن بلا عسر ولا تصنّع لخلوّها من الاعراب والمفردات المبيّتة الغريبة ومرونتها في قبول الأوضاع الأجنبية بلفظها العجمي وميلها إلى إطلاق القياس في الاشتقاق للنموّ والتوسع[1] .

ولقد قاد هذا الاعتقاد البعض إلى القول: إنّ ثمّة مسلمين كثيرين (وكأن اللغة العربية لغة المسلمين فقط) لا يتوسلون العربية الفصحى أداة للتعبير نطقاً أو كتابة، ومن ثمّ، لا مسوّغ لتعلّق المسلمين بها، أما لغة القرآن فتبقى من اختصاص رجال الدين والاختصاصيين اللغويين[2]، كما قادهم إلى الاعتقاد بأنّ اعتماد العامية هو اقتصاد لوقت طويل وثمين يهدر في تعلم الفصحى وأحكامها[3]، وأنّ من أسباب التخلّف في بلادنا اختلاف لغة الحديث عن لغة الكتابة.. وهذه المشكلة لا تحلّ إلاّ باعتماد العامية[4].. وهو ما دفع أحد الشعراء اللبنانيين الذين استضيفوا على إحدى المرئيات الفضائية اللبنانية إلى القول: "إنّ اللغة العربية ميّتة، فكيف نعبّر بالميت عن الحيّ، فالأفضل أن نعبّر بالعامية لأنها حيّة[5]..

ز- عدم فهم ازدواجية اللغة:

وقد قاد هذا الاعتقاد أيضاً إلى بدء الحديث المغلوط عن إطلاق أوصاف على اللغة العربية بغية الفصل الرسمي بين الفصحى والعامية، وهذا الفصل أدّى بدوره إلى إنقسام الكتاب والشعراء إلى قسمين رئيسين: من تولّى العامية ومن تولّى الفصحى..

---

(1) اللغة العربية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها، جورج الكفوري، ص 85، مطابع نصار، بيروت 1948.

(2) اللغة الفصحى واللغة العامية، اسكندر المعلوف، ص 373 – 377.

(3) مقدمة لدرس لغة العرب وكيف نضع المعجم الجديد، الشيخ الدكتور عبد الله العلالي، ص 99-100، القاهرة بدون تاريخ طبع.

(4) نحو عربية ميسرة، أنيس فريحة، ص 134-166.

(5) برنامج أذيع من على شاشة الإذاعة المرئية MTV (لبنان) الفضائية واستضافة في شهر كانون الأول من سنة 2001.

والفصل نفسه أدّى إلى مقولة ازدواجية اللغة، حيث قصد البعض منها إلى حسبان أنّ هناك لغتين ضمن اللغة الواحدة[1] le Bilinguisme..استناداً إلى معايير ثلاثة: اللغوي والنفسي والاجتماعي[2].. فالازدواجية اللغوية تعني أن يتحدث المرء لغتين مختلفتين كالعربية والفرنسية مثلاً[3].. وليس أن يتكلم ضمن اللغة الواحدة، كالعربية مثلاً، الفصحى والعامية ونقول عنه: إنه يجيد لغتين، وبالأحرى أن يُسمى هذا ثنائية اللغة وليس ازدواجية اللغة [4].. وإذا استند البعض إلى ما كان في قبل الإسلام ليتحدثوا عن ازدواجية اللغة أو اللهجة، حيث كانت للقبيلة لهجتها وللعرب لغتهم أو لهجتهم (لهجة قريش) التي يتخاطبون بها وينظمون شعرهم ويقولون نثرهم بها فهي أوضاع خاصة أملتها الظروف التي كان يحياها العرب. أضف إلى ذلك أنّ هذه اللهجات أو اللغات فيما قبل الإسلام هي عربية فصحى وقد أقرّها القرآن الكريم وأورد الكثير منها وتلي بقسم كبير منها.. أما ما استجد فيما بعد من ثنائية اللغة داخل العربية فهو من قبيل استحداث اللهجات العامية التي عبّرت عن هبوط الأداء اللغوي العربي لأقوام دخلت المجتمع العربي وأحدثت ما أحدثته من إلتواءات في النطق وأخطاء في الإعراب وما سمي عموماً باللحن.. وبقي مدلول اللهجة في الجاهلية مختلفاً عنه فيما بعد الإسلام.. فإذا كانت قبل الإسلام تعني اللغة وهي عربية فصحى فإنّها بعده عنت اللهجة وليس اللغة[5]..

4- تأثير هذه الدعوات في الشخصية: وبديهي القول: إنّ هذه الدعوات غير البنّاءة قد خلقت أجواء من النفور من الفصحى وأثّرت تأثيراً مباشراً في الشخصية

---

(1) Dietirnaire de linguistique- Jeau Dubois et autres-Page 65-larousse-paris 1973.

(2) le bilanguisme arabe – Française au liban- sélim Abbou- page 3-7 –P.U.F. – Paris 1962.

(3) في فلسفة اللغة، د. كمال الحاج، ص 156 ، ط2، دار النهار للنشر، بيروت 1967.

(4) L'arabe moderne –vencent Moteil – page 69 – Librairie C. Kineksieck – paris 1960.

(5) أنظر تفصل هذا الموضوع في كتاب، فقه اللغة في الكتب العربية لعبده الراجحي، ص 120، دار النهضة العربية، بيروت 1979.

العربية وأسس تكوينها. ولعلّ أبرز ما أورثت هذه الدعوات الشخصية العربية عدم الثقة بلغتها.. وهو أمر ينسحب على أمور كثيرة تأتي قضية الانتماء إلى الأمة في طليعتها، علاوة على ما يؤثر في القيم والمبادئ والتطلعات والأديان والتراث والتاريخ والأرض.. ذلك أنّ اللغة هي أبرز ما يميّز شعباً من الشعوب من سواه.. فبها يحفظ تاريخه وتراثه.. وبها يكتب حضارته ويتفاهم مع أبناء شعبه ويقيم التواصل بين الماضي والحاضر والمستقبل، في آفاق لا تستهين بذرّة مما لدى هذا الشعب في سياق تطوره وانتقاله من مرحلة إلى أخرى..

علاوة على ذلك، فإنّ للغة في اتفاق كثير من الباحثين علاقة مباشرة بالشخصية، إذ هي المعبّر الرئيس عنها.. لذلك كانت هذه الدعوات غير البنّاءة تنال من قريب أو بعيد من هذه الشخصية، وتجعلها في ارتباك تعبيري في مجالات عديدة.. وإذا كان ابن جنّي قد عرّف اللغة بأنّها "أصواتٌ يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم"[1]، فحسم الكثير من جوانب النقاش حول ماهية اللغة وأهميتها وانتمائها إلى قوم من الأقوام يتفاهمون بها ويبنون حياتهم وشخصيتهم بموجبها، وجعلها محور القول في التعبير عن الأغراض، سواء أكانت باطنية معنوية أم خارجية مادية.. نقول إذا كان ابن جني قد أوضح بالدلائل والقرائن مفردات هذا التعريف، فإنّ علم اللغة الحديث لا يبتعد كثيراً من مقولته، لاسيّما في مسألة علاقة اللغة بالفكر.. وهي المسألة التي أودت بأصحاب هذه الدعوات إلى إيجاد قاعدة مادية مغلوطة حول تأثير اللغة في الفكر والوجدان والاحساس.. الأمر الذي جعل مقولاتهم تسهم في خلخلة الشخصية الابداعية العربية في ميادين مختلفة، لاسيّما الفكرية والاعلامية والأدبية والاختراعية..

أ- إنّ الرأي الشائع حول صلة اللغة بالفكر يقيم علاقة وثيقة بينهما. وبحسب الفيلسوف الانكليزي جون لوك في قوله: "إنّ الكلمات إنما هي علامات

---

[1] الخصائص، ابن جني، تحقيق محمد علي النجار، الجزء الأول، ص 33، دار الكتاب العربي، بيروت 1952.

حسّية على الأفكار، وهذه الأفكار هي معناها المباشر، فاللغة هي وسيلة المواصلات للفكر، أو هي التمثيل الطبيعي والخارجي لحالة داخلية، أو اللغة عبارة عن سلسلة من الكلمات عن تفكير كامل[1].. والذي يُؤْثَر أنّ الفكر الراقي ينبغي أن يُعبّر عنه بلغة راقية، لأن "اللغة قضية مفيدة دالة، والقضية حكم، ومتى قلنا "بالحكم" فقد قلنا بالربط الفكري، لأنّ أهم شيء في الحكم هو التعبير عن قرار، جوانيّ، حرّ، عضويّ.. والحرية والعضوية سمة من سمات اللغة إذا كانت مطابقة للفكر لا مجرّد مجموعة محنطة محفوظة في زجاجات الدراسة والكليشيهات[2]...

بينما يرى أنيس فريحة[3]، أنّ اللغة العربية الفصحى تؤثّر تأثيراً سلبياً مباشراً في الشخصية، لاسيما شخصية الطفل العربي الذي يعيش في ثنائية اللغة منذ بداية لغوه حتى تمكنّه من النطق السليم.. كما يرى أنّ المتكلّم بالفصحى عندما يبحث في قضايا علمية وفلسفية واجتماعية يضطر إلى التضحية بالفكر في سبيل استقامة التركيب، كما أنّ أكثر المذيعين والمحاضرين والواعظين ينفقون الجهد الكبير في الشكل على حساب المعنى، إن طلب منهم أن يُذيعوا أو يحاضروا أو يعظوا ارتجالاً. وهو أمر لم تشهده العربية الفصحى في تاريخها الطويل حين عبّرت عن واقع الإنسان العربي وهمومه ومشكلاته وعلومه وتراثه وحضارته وأديانه.. بل كان هذا الفكر الذي كان عماده الفصحى ولا يزال منهلاً للإنسانية تأخذ منه ما تشاء.. وإن لم تكن الفصحى هي الصورة التعبيرية للفكر العربي، فإنّ ذلك يعني، في دعوة فريحة، إلى تحوّل التفكير من الفصحى إلى العامية.. فأي عامية يريد؟ فهي على امتداد الوطن العربي كثيرة ومتنوّعة ومحلّية في معظم تراكيبها وأدائها.. وهذا من شأنه أن يحدث خلخلة في الشخصية العربية ويبعثرها تبعثراً كيفياً يؤدي في النتيجة إلى فقدان توحدها.. ولم نشهد أمة من الأمم عبّرت عن فكرها وحضارتها ووجدان أبنائها بالعامية.. خصوصاً

---

[1] عن كتاب فقه اللغة في الكتب العربية، د. عبده الراجحي، ص 74.

[2] في اللغة والفكر، د. عثمان أمين، ص 20-21، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة 1967.

[3] لغوي لبناني، له عدة مؤلفات في اللغة ومنها الدعوة إلى العامية.

عند الغربيين الذين حملوا على اللغة العربية وروّجوا لعاميتها وفتحوا الباب واسعاً للبحث فيها.

ب- لقد أسهمت هذه الدعوات غير البنّاءة في تشتت الشخصية العربية بدل العمل على توحدها وانسجامها مع لغتها الموحدة.. فعندما يقول فريحة: "إنّ الوضع اللغوي الحالي للعرب أسهم في ازدواج شخصيتهم اللغوية، وأنّ الأب والأم في المجتمعات العربية يشعران بأنّ العامية ليست اللغة الراقية التي يجب أن ينشأ عليها الطفل، لذلك يتركان الأمر للمدرسة، التي تتولّى تلقينه لغة عربية غريبة عنه، بعيدة من حياته، فينشأ مزدوج الشخصية واحدة محببة طبيعية عندما يتكلم بلغته الخاصة، وأخرى مصطنعة عندما يتكلم الفصحى في مواقفه الرسمية[1]، عندما يقول ذلك، فإنّه يلقي بالمعادلة الصحيحة لتكوين الشخصية خارج إطار التطور الحقيقي للأسرة والمجتمع والدولة.. إنّ الانسياق وراء ما ينتجه الاهمال للتدليل به على ضرورة الهرب من اللغة الفصحى أمر لابدّ من إعادة النظر فيه تخطيطاً واقتصاداً وسياسية وتربية واجتماعاً.. ذلك أنّ هذه المسألة لم تطرح ولم تحلّ بهذا الشكل الموسوم بالعجز حتى في أكثر البلدان تخلّفاً.. والتفكير السليم يحمّل المسؤولية إلى الرعاية بمختلف مستوياتها وأنواعها.. رعاية تخطط للنشء والمجتمع يأخذوا العلم من منابعه الصحيحة وليس عبر تلفيق وادّعاءات مضللة..

ج- وبالطبع فإنّ الخلل العام في ميدان التخطيط سينعكس على التربية السليمة.. ولقد رأى فريحة أنّ العربي يصرف وقتاً أطول من الغربي في تعلّم لغته، كما يرى أنّ هذا الوقت يُصرف على تعلّم الشكل اللغوي دون المعنى، وهو أمر ينفّر الطلاب من التعلّم ويجني على الصغار في زجّهم في تعلّم الفصحى الصعبة على النطق[2].. فإلى أي جهة يريد فريحة أن يقود المجتمع؟ إنّ المتفق عليه أن التربية الصحيحة لدى شعوب العالم بأسره تعوّل على التعلّم الصحيح للغة، وهذا بدوره

---

[1] نحو عربية ميسرة، ص 156.

[2] نحو عربية ميسرة، فريحة، ص 143-153.

يستغرق وقتاً في المراحل الأولى من حياة الإنسان.. وما من طفل في العالم يولد مجيداً لفصحى بلده، وهو ما يجعل التعلّم ضرورياً.. وبدل الهرب إلى العامية ينبغي تنظيم الوقت وسلامة التخطيط والاهتمام بإعداد المعلم واستخدام الطرق التدريسية الصحيحة ووضع الكتب المدرسية الملائمة لمبادئ التربية وأوضاع المجتمع وتطور أبنائه نفسياً وعلمياً واجتماعياً.. والانكباب على دراسة اللغة وتعزيز دور المجامع اللغوية تقوم بدورها الذي يلاحق مراحل التطور على غير صعيد.

هـ- ومن تأثيرات اللغة في الشخصية ما يرصد من الألفاظ وتعابير تعود إلى السلوك الأخلاقي.. وهي مسألة يوليها فريحة أهمية بالغة في حسبانه أنّ الازدواجية هي في أساس خشونة الطباع وفظاظة الأخلاق في مجتمعنا.. وهو يسوّغ لضرورة اعتماد العامية بقوله: إن مجتمعنا لا يستعمل الفصحى إلاّ في المواقف الرسمية، بينما يستعمل في حياته العادية لغة عامية يحسبها سمجة ركيكة، لا يضيرها، لكونها عامية، أن تكون خشنة غنّية بالمسبّات [1].. وهو إدّعاء غير مسوّغ، لأنّ الفصحى غنيّة بالمفردات والتعابير التي تحمل الشيء الكثير من هذه المسبّات.. أما ألاّ يضير العامية أن تمتلئ بهذه المسبّات فهو أمر جدير بالاهتمام لاسيما في حقل بناء الشخصية على أسس أخلاقية سليمة.. فإذا كان فريحة يعدّ ذلك فضيلة للعامية فهو يقدّم الدليل على إسهامها في الانحطاط من وجوهه كافة.

و- ومن المعروف أنّ الخوض في موضوع الابداع الأدبي والفنّي وأدائه قديم.. وقد نوقش من الزوايا المختلفة.. إلاّ أنّ القول بضرورة إسقاط الفصحى وإحلال العامية محلّها، لاسيّما في الأعمال القصصية والروائية والمسرحية بحجة أنّها تصوّر قطعة من الحياة الواقعية وأن الفصحى لا تقوى على ذلك لأنّها لغة أجيال غابرة [2]. فهو أيضاً مسألة خطيرة تسهم في نشر الدعوات غير البنّاءة لتطوير العربية.. فالعامية لا تخدم إلاّ قطراً واحداً، ونحن نكتب لأمة هُيئت لها الظروف اللغوية لتكون

(1) المرجع نفسه، ص 159-163.

(2) المرجع نفسه، ص 166

موحدة.. وإذا كانت الفصحى تنفع في المسرح التاريخي فإنّ كلّ اللحظات الآنية تتحول إلى تاريخ، وخيرلنا، ونحن نصنع تاريخنا الحالي أن نصنعه بكلمة راقية سليمة كما فعل السالفون.. ولنا أمثلة كثيرة على استعمال الفصحى والدعوة لها في الأعمال القصصية والمسرحية.. ويكفي أن تدلل على استعمال الدكتور طه حسين لها في مجمل مؤلفاته القصصية ونجيب محفوظ في استعماله للغة المفصّحة [1].. ومارون عبود في معظم كتبه التي حمل فيها قضية تفصيح العامي وإعادته إلى أصوله اللغوية العربية. وماذا يضير إذا استعملت العامية المفصّحة في الأعمال القصصية بعامة، بدل اللجوء إلى العامية الشديدة المحلّية..

ماذا يعني هذا كلّه في ميدان التطور اللغوي العربي؟

في البداية ينبغي التركيز على أنّ هذه الدعوات غير البنّاءة خلقت أجواء من الصراع، انتقلت رحاه من ميدان اللغة إلى ميدان الواقع، وصار لقطبيّ الصراع أنصار من عامة الشعب وهي قضية كبيرة تواجهها اللغة العربية، ليس في لبنان وحسب، على جدّية بعض باحثية في مسألة استبدال الفصحى بالعامية والذهاب بعيداً في تنظيراتهم، بل في أقطار عربية أخرى تناولت القضية بفتور حيناً وحماس حيناً آخر.. ويمكن تلخيص هذه الدعوات بما يلي:

أولاً: العامية بديل الفصحى، على أن تكون كتابتها بالحروف العربية التقليدية..

ثانياً: العامية بديل الفصحى، على أن تكون كتابتها بالحرف اللاتيني: وتتمثل بحوث هذا الاتجاه في كتابات أنيس فريحة والشاعر سعيد عقل..

ثالثاً: الاقرار بازدواجية الفصحى والعامية دون الاستغناء عن أحد منهما [2]..

---

(1) فنّ القصة، محمد يوسف نجم، ص 115-117، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت 1955.

(2) اتجاهات البحث اللغوي الحديث في العالم العربي، الجزء الثاني (لبنان)، ص 388-396.

أما كتابة اللغة العربية الفصحى بالحرف اللاتيني، وهي غير ما دعا إليه كلّ من أنيس فريحة والشاعر سعيد عقل، فحمل لواءها في مصر عبد العزيز فهمي باشا، ووضع نظريتها كاملة في كتابه "الحروف اللاتينية لكتابة العربية" [1].. وقد بدأ دعوته في أربعينات القرن الماضي وتقدم بها إلى مجمع اللغة العربية بعد أن فرغ من طباعة كتابه في سنة 1944، حيث يورد بياناً لما جرى بالمجمع اللغوي في مسألة رسم الكتابة، وكيف اقترح لها الحروف اللاتينية وكيف أنّه في كلامه على صعوبات العربية ونسبتها إلى غيرها من اللغات ونسبة أهلها إلى غيرهم من الأمم، قد لقي معارضة شديدة من المجمع[2].. وبعد ذلك يحمّل الكتاب ما يزيد عن مئة وخمسين صفحة من الردود والمناقشات التي أثيرت ضدّه.. ومن ثم يتحدّث، في نظريته، عن رسم الحرف العربي الذي هو الأكثر أهمية في أسباب مرض اللغة العربية ووجوب تغيير هذا الرسم [3].. ويتحدث عن مزايا الحروف اللاتينية [4]ويبيّن أفضليتها على الحرف العربي الحالي.. ويختم بأنّه يقدّم خدمة للشعوب العربية وكتابتهم الشعبية تيسر لهم الابداع فيها[5]..

وإذا كان لنا من كلمة سريعة تعليقاً على هذه النظرية، فإنّني أضمّ صوتي إلى صوت الملايين من العرب الذين رفضوا هذه النظرية، وهم الذين أ 7 مؤلف الكتاب على ذكرهم بالأسماء، كما ذكر أعدادهم الكبيرة.. والتعليق هنا يكون على ما ورد في الخاتمة، حيث يدّعي الكاتب أنّه يخدم الأدب الشـعبي والكتابات الشعرية ويتحدث باسـم المسلمين الذين يرضون بهذه النظرية.. فالأدب الشعبي، بشقّيه العامي والفصيح، هو براء من هذه الدعوة.. خصوصاً ذلك الذي كتب بعفوية تامة ليس لها هدف إلاّ الفنّ والتعبير عن الميول الشعبية الحقيقية..

---

[1] صدر الكتاب عن دار العرب في القاهرة من دون تاريخ طبع، إيداع رقم 93/ 5362

[2] المرجع نفسه، ص أ من المقدمة.

[3] المرجع نفسه، الصفحات من 145 إلى 154.

[4] المرجع نفسه، ص 169.

[5] المرجع نفسه، أنظر الخاتمة.

وللأمانة العلمية أثبت بعض الملاحق التي توضح نظرية فهمي، وهي تتوزع على لائحة الحروف العربية وبدائلها، وعلى بعض النماذج الكتابية بهذه الحروف..

والاستنتاج الذي يمكن أن نستنتجه من جملة هذه الدعوات هي أنّها تنحو نحواً مغايراً لحياة اللغة الصحيحة التي هي صورة لحياة الأمة.. وهي الصورة التي ينبغي أن تبقى مشرقة تعبّر عن سمّو القوم وليس عن انحطاطهم.. وهو أمر ينقل الصراع إلى ميدان آخر، هو بين الرقيّ والتخلف.. ولقد اختار هؤلاء المنظّرون آراءهم في لحظة تاريخيه بدت فيها قسمات المجتمع العربي مربدّة وقلقة ومضطربة.. في لحظة اشتدّ عليها التآمر وغزتها الجيوش والأسلحة.. كما غزاها الفكر بمختلف وجوهه.. بالاضافة إلى محاولات طمس اللغة العربية واستبدالها بأخرى.. والأمثلة على ذلك كثيرة..

أقول إنّ اللحظة التاريخية التي اعتلت فيها أصوات هذه النظريات هي من زمن التخلّف.. فكان لها أن تصبّ في تغذيته وتتعامل معه كشرط أساس وواقعي وصحيح، وهو في الواقع غير ذلك.. هو استثنائي ومختلق ومفروض.. ولا يمكن للاستثناء والاختلاق والفرق أن تبني حقائق سليمة لأنّها بُنيت على أساس غير سليم.. والصحيح الذي نعتقده هو أنّ اللغة العربية في تاريخها الطويل عبّرت عن قوّتها وقدرتها وجمالها وأجوائها وحياتها الراقية.. لذلك ينبغي البناء على هذا الرقي.. وما يلجأ إليه البعض من قول: إنّهم يرضون الشعب ويعملون على تطوره، فهذا ليس من الحقيقة في شيء.. الشعب يستوعب لغته في أرقى صورها وهو القرآن الكريم والتراث والابداع الراقي.. كما ينسج على منوالها في مجمل قوله الفكري حتى فيما سمّي أدباً شعبياً يحمل طابع القوم ومزاجه وتراثه وفلكلوره وأزياءه القولية كلّها.. وهذا الشعبي هو أقرب إلى العربية الفصحى منه إلى العامية التي أرادوها هي أيضاً غريبة عن عامية بلادهم.. تسودها العجمة وتسيطر عليها الألفاظ الأجنبية وتلغى منها حروف وتضاف إليها أخرى ليست منها في شيء.. ولفهم ذلك لابدّ من العودة إلى النصوص (وهذا ما سنقدّمه فيما بعد) الشاعر والتأكد من أنّ عامياتنا العربية هي ليست إلا

كلاماً فصيحاً في أصله يحتاج إلى الاخلاص في النظرة إليه.. وهو ما فعله مارون عبود في تجربته الكتابية الرائدة. وما اتّبعه فيما بعد الأديب والكاتب والباحث واللغوي اللبناني أحمد أبو السعد في انجازه الكبير عندما وضع "معجم فصيح العامة" محاولاً وصل المحكي بالمكتوب..

القسم الثاني: الأدب والتراث الشعبي واللغة:

ما هو التراث الشعبي؟ نعوّل هنا في الإجابة على تعريف مستمدّ من داخل عملية صنع التراث الشعبي نفسه وبالتالي الصيرورة التي آل إليها وموقف الناس منها.. فالتراث الشعبي هو النشاط الشعبي المقبول من عموم الناس، هو تقليدي وبسيط، يركن إلى بعض الممارسات القروية في أحيان كثيرة ولا يهمل النشاطات الأخرى لباقي الشعب في المدن والأرياف وعلى المستوى العادي أو النخبوي، وشرطه الاتفاق في الذوق والقبول من الجميع انطلاقاً من الملاءمة بين ما يرتضيه الشعب في ميوله ورغباته وعاداته وتقاليده ومسرّاته وأحزانه وقيمه وأديانه وفنونه وآدابه ومشاعره وأحاسيسه وذاته الخاصة.. وهو مقبول سواء أكان في الأرياف أم في المدن، لاسيّما الذي نقله الريفيون إليها، فتقبلته كما هو وأضافت إليه، أم لم تتقبله ولم تطبعه بطابعها.. وبهذا المعنى يمكن أن يكون التراث الشعبي سلوكاً ونشاطاً يقوم بهما الإنسان بالفطرة والعفوية والسليقة، هو نتيجة زمن غابر، توغل في النفوس وأصبح عادة وتقليداً يثير في أصحابه شعور الرغبة في ممارسته واستحضاره دون نفور ودون تعارض مع المعاصر وشكلاً من أشكال التكيّف ومحاولة من المحاولات لتناول المظاهر التراثية الشعبية متقاربة، ويتفق عليها على أنّها تمثل وحدة الشعور ووحدة الاحترام وتجلي الإجماع حولها على الرغم من قدمها وتقليديتها وبساطتها وتأثرها أو عدم تأثرها بمستجدات العصر.. فهذا التراث الشعبي يبقى المنتج الثقافي الآيل إلى الحاضر والموروث من الجماعات القديمة في بوتقة العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية والفنية والأدبية.. التي تراودنا من حين إلى آخر كمؤثر عاطفي

يشخص حاملاً بقايا موسومة بالخصوصية لفئات اجتماعية صنعتها أو أسهمت في إبقائها على مرّ الزمن.

في المواقف: دوّامة القبول والرفض والتصويب:في مثول هذا التراث الشعبي اليوم ثمة مواقف متباينة منه، تتوزع بين القبول والرفض والتعديل والملاءمة لما فيها من تباعد بين ما يجري عصرياً من تطورات أحدثت الأفضل كما يعتقد البعض، وبين من يعتقد أنّها ينبغي أن تحيا لما تحمله من خصوصية تعبّر عن الصدق في التكوين والأداء وسلامة القيم وقرب التناول وتأثيرها الطبيعي في العقول والنفوس.. وهذا إن دلّ على شيء فعلى الابتعاد من زمن الخلق وانقطاع التواصل وإيجاد بدائل يظنها البعض أجدى وأنفع لهذا العصر..

وفي التقدير أنّ هذا الموقف المتردد من التراث الشعبي تنقصه جملة من التحديدات والاتفاقات حول ماهيته وفائدته والنظرة إليه.. إنّ فقدان عنصريّ التاريخ والأرض واللغة يؤول إلى فقدان جوانب مهمة من شخصية الإنسان وبالتالي المجتمع.. ومفهوم التاريخ ينبغي ألاّ يؤخذ بسطحيته.. بل يجب الغوص في أعماقه لاستخراج هذا السلوك الموحد للناس والذي ربطهم برابطة الشعبية والاتفاق والالتحام والوقوف في وجه المخاطر والبحث عن العوامل المشتركة التي دفعت بالناس إلى إنتاج هذا التاريخ، والتي هم بحاجة إليها في كل زمن لإحداث التواصل وإبقاء اللحمة.. والتراث الشعبي ليس إلاّ عاملاً رئيساً في هذا التوحد.. لذلك ينبغي التركيز على هذه الأهمية، وهي لن تكون ما دام الموقف من التراث الشعبي غير واضح لناحية تصنيفه وتقسيمه إلى أنواع ومدى ملاءمة هذه الأنواع للحاضر وتناولها متفرّقة حيناً وفي علاقات متينة فيما بينها في حين آخر، حتى نستطيع تعيين مدى جدواها في التوجه نحو المستقبل بما يفيد الأمة..

بذلك تصبح العودة إلى التراث الشعبي مهمة مزدوجة على صعيد الوطن وعلى صعيد الحضارة والثقافة والبناء والتواصل وإيجاد ألوان التقارب بين فئات الشعب.. وهذه المهمة المزدوجة تجد فعاليتها وأرضها الخصبة فيما يواجهه العرب من عقبات

ومـشكلات حـادة تعـصف بمجـتمعهم.. ألم يعـد الـصهاينة إلى التـاريخ والـتراث ليستحضروا عوامل توحدهم ويقدّموا مزاعمهم التي ارتكزوا عليها لإيجاد كيانهم..؟ ألا يشكّل ذلك حافزاً لنا للعودة إلى ثقافتنـا الوطنيـة الموغلـة في القـدم والتـي تنتظـر الإحياء والتواصل كما فعل روّادنا في عـصر النهـضة العربيـة؟ إن عـودة سريعـة إلى بعض تقارير اليونسكو تثبت أنّ العدوّ الصهيوني يحاول اقـتلاع كـلّ مـا هـو عـربي فلسطيني في فلسطين وإحلال بعض مزاعمه محلّها. نقتطف هـذا المقطـع مـن تقريـر اليونسكو للتـدليل عـلى فداحـة الأمـر:" إنّ الثقافـة الفلـسطينية في الأراضي المحتلـة تواجه مشروعاً منظماً يستهدف الحطّ مـن شـأنها وتزييفهـا واسـتلابها، وأنّ الـتراث الفلسطيني يتعرّض للنهب والممتلكات الثقافية تهدّدها المخـاطر"[1]. وهـذا مـا يـبرز أهمية التراث الشعبي والثقافة الشعبية التي صنعتها الأجيال المتعاقبة عـبر الـزمن.. إنّ محاولة محوهما يعني محو الشخصية والتاريخ والخصوصية وإلغاء جهـود آلاف الـسنين وإفقاد الأمة بريقها الذي ازدهت به عبر الزمن، هذا البريق الذي هو بمثابـة الـروح والجسد لأمّة تعتزّ بأنّها من خير الأمـم.. وعـلى ذلـك ينبغـي اسـتعمال سـلاح الـتراث الشعبي والثقافة الشعبية في وجـه المفتئتـين علـيهما.. وأعتقـد أنّـه سـلاح مـاض أولى إيجابياته الإبقاء على وحدة الأمة وبالتالي تاريخها وتراثها وخصوصيتها وهويتها.

على أنّ الأجدى دائماً الاتجاه نحـو التوحـد.. فلـيس عنـدنا ثقافـات بـل ثقافـة واحدة ولا تراثات بل تراث واحد.. ولا بأس أن تكون قديمة، فهي لم تأت من العدم.. ولم تحكم بالجمود في أي حقبة من حقبات التاريخ بل كانت متحركة تتناقل الأجيال عبرها القيم التي تؤمن بها وتحفظ بوساطتها صورة ذاتها وخصائصها ومميّزاتهـا، وهـو ضروري للحاضر والمستقبل، ولن يكون هذا الضروري جدّياً ما لم يفعّـل ويوظّـف في خدمة التحـديث والتطـور، دون أن يعـني ذلـك الانكفـاء عـلى الـذات والتقوقـع والثبات بداعي الاحتفاظ بهذا التراث الشعبي، بل الإنطلاق إلى الفضاء الأرحـب مـع صانعي الخير للإنسانية. على ذلك ينبغي إعـادة النظـر بهـذا الـتراث ومـضامينه وفـق

[1] من توصيات مؤتمر اليونسكو العام المنعقد في المكسيك سنة 1982.

الخصوصية التي دأبنا على التنادي بها وقدّمت الأمة من التضحيات ما لم تقدّمه أمّة أخرى في سبيل قضاياها.. عنيت بذلك كلّه تحويل الثقافة الشعبية إلى موحدة للشعب والوطن وإلى أداة مقاومة ثقافية في زمن تعبر الحدود فيه وتطغى ممارسات العولمة وتطبيقاتها على ما عداها فتتعرّض للهوّية بشكل رئيس، شرط تصحيح بعض المفاهيم حول التراث واللغة والشعبي والبناء وغير البنّاء..

إشكالية الأدب الشعبي: الفصيح والعامّي: في ضوء ما تقدم يمكن العودة إلى موضوع التراث الشعبي والهوّية في فرع من فروعه المهمة، ألا وهو الأدب.. وفي ضوء الإشكالية نفسها، فإنّ النظرة إلى الأدب تبدو في شيء من الإرباك لناحية التصنيف والتسمية: تراث شعبي وأدب شعبي.. وهي إشكالية وقف عندها كثير من الباحثين في نطاق حديثهم عن هذا النوع من الأدب. ولقد طغت عند قسم كبير منهم وعند من يتمتّعون بموهبة شعرية وقدرة على صوغه باللهجات العامية، مسألة التفريق بين الأدب الذي كتب بالفصحى والآخر الذي كتب باللغة العامية.. فأصبحت عبارة "أدب شعبي" وكأنّها تطلق على ذلك الجزء الذي يقال بالعامية..

ولقد ولّد ذلك نوعاً من الانصراف عن هذا الأدب لدى دارسين كثر حسبوه انحطاطاً للأدب واللغة والفنّ.. ولشدّ ما قوي هذا الانصراف في مرحلة اشتداد الصراع بين الفصحى والعامية وتصاعده إلى حدّ حسبان العامية وتبنّيها هي مؤامرة على الفصحى، اللغة المقدّسة التي تسم العرب بسمات خاصة وكانت ولا زالت عاملاً رئيساً في توحدهم، فيها يتمّ الإبداع وفي أجوائها وقواعدها يستقيم التعبير.. ولقد وجد هؤلاء مسوّغهم في الدعوات التي ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر وعلى مدى قسم كبير من القرن العشرين ودعت إلى إحلال العامية محلّ الفصحى أو إلى استبدال الحرف العربي بالآخر اللاتيني[1].. بالإضافة إلى حسبان اللغة العربية لغة ميّتة، فكيف نعبّر بالميّت عن الحيّ.. علاوة على تعدّد اللهجات العربية ووصول بعضها إلى

---

[1] وهو الاقتراح الذي قدّمه عبد العزيز فهمي إلى مؤتمر اللغويين في مجمع اللغة العربية في مصر بتاريخ 24 يناير 1944، وهو الاقتراح الذي تبنّاه سعيد عقل في لبنان.

حدّ الانغلاق في تعبيرها وألفاظها، بحيث لا تعـود مفهومـة مـن قبـل شـعوب عربيـة أخرى.. في هذا المجال ينبغي التمييز بين أمرين: الأول مـسألة التـآمر والثـاني مـسألة الإبداع والتعبير عن الوجدان بطريقة عفوية وساذجة وقريبة مـن الواقـع أي البيئـة التي أنتجته والشخص القادر على إبداعه والتعبير عنه..ففي الأمر الأول وجد الـبعض أنّ سلطان العامية قد يقهر سلطان الفـصحى لمـا لهـا مـن رواج لـدى الأكثريـة مـن العرب، لا تقتصر على عامة الشعب بل على المثقفـين الـذين يتـداولونها بـدورهم مـع الناس وفي أوساطهم الخاصة[1].. وقد نتج عن ذلك التفكير بأنّ سـواد الأمّـة هـم مـن الناطقين بالعامية، المعبرين عن أغراضهم بها، وأن فئة قليلـة مـن النـاس هـم الـذين يعبّرون بالفصحى عن بعض تلك الأغراض عند الكتابة بها أو النظم بها، فقـد ترتـب على كل هاتيك المعطيات أنّ الأدب هو الشعر والنثر الفني هـو أدب الخاصـة أو أدب فئة قليلة، وأن الأدب الذي يعبّر عمّا يخالج نفوس السواد الأعظم من الأمـة هـو شيء آخر غير هذا الأدب الفصيح أو الرسمي[2].. ويجد هـؤلاء مـسوّغهم في الأمثلـة التـي يستقونها من واقع اللهجات العربية المتفرّقة وما أنتجته من أنـواع شـعرية كالزجـل والموالي والمذاهب والأدوار والملحون وسواها من أنواع الأدب الشعبي[3]..

وفي الحقيقـة، إن الـدخول إلى هـذا الـسجال في مـسألة الـصراع بـين العاميـة والفصحى هو أمر مهم.. وقد كان التقدير أنّه ينبغي على البـاحثين التمييـز بـين هـذه الاتجاهات فيما يخدم الأمّة وفيما لا يخدمها في تاريخ ابداعها الطويل، بعيداً من التآمر وقريبـاً مـن مجريـات الواقـع، دون الـسقوط في المبالغـات التـي وقعـت فيهـا بعـض المداخلات.. ذلك أنّ المختصين في دراسة الأدب الشعبي يميّـزون بـين الأدب الـشعبي

---

(1) أدبنا القومي، مجموعة مقالات نشرت في مجلة "الباحث"، مجلة المجتمـع العلمـي العربـي بدمـشق، المجلـد 11، العام 1931، ص87.

(2) الأدب الشعبي، أحمد رشدي صالح، ص31، مكتبـة النهـضة 1981- وانظـر "الـصراع بـين القـديم والجديد في الأدب العربي الحديث"، ج2، د. محمد الكتاني، ص694، دار الثقافـة ، الـدار البيـضاء 1982.

(3) المرجع نفسه، ص694.

وبين الأدب العامي. الأوّل يصدر عن وجدان الجماعة ولا يميّز بين المنشئ وبين المردّد، بل ربما حسبوا الجهل بالمؤلف أو المبدع أحد مقوّماته أو شروطه.. أما الثاني فهو لا يتميّز عن الأدب الفصيح إلاّ باللغة، فهو يعبّر عن وجدان صاحبه، ويمكن دراسته على هذا الأساس من التعبير الذاتي ودراسة المقوّمات الفنية[1].. إلاّ أن الإمعان في هذه الإشكالية قد يفقد النوعين من الأدب أصالتهما ويضعهما في قفص الإتهام.. وهو ما نوّهت به في المفهوم الذي تحدثتُ عنه للتراث الشعبي.. وهو الذي لأمّة وليس لجزء منها، لأمّة تتقبله ضمن عناصر تجمّعها وليس ابتعادها كلّ قطر على حدة.. ولا يزال الأدب العامي يعبّر عن قطر أو قرية منه أو قبيلة من قبائله.. أدب يقال لفئة ولا يقال للمجموع.. ثمّة كثيرون في العالم العربي، وحتى الدارسين منه، لا يسمعون بالشعر النبطي الذي ينشأ في بعض أقطار الخليج العربي أو شبه الجزيرة العربية.. وثمّة كثيرون من لا يفهم بعض اللهجات العربية الشديدة الخصوصية كما في المغرب العربي والجزائر وموريتانيا.. فكيف يكون ذلك كلّه معبّراً عن تراث الأمّة، لاسيّما الموحد.. وهل فقدت هذه الأمّة عناصرها المشتركة بحيث أصبحنا نطلق، حتى على أدب الفصحى، تسميات قطرية فنقول الأدب المصري أو اللبناني.. مع العلم أنّ هذا النوع من الأدب هو اللسان الناطق باسم الأمّة يقرأه كلّ مواطن وكأنّه كتب في داره..

الأدب العامّي يعبّر إذاً عن قطر وربما عن فئة ضيّقة فيه.. ولا بأس أن يعبّر عن وجدان صاحبه أو عن مجموعة من الناس تستعذب فنّه.. وهو في هذا جزء من تراث شعبي لفئة أو منطقة، وهو من الأمّة لكنّه ليس المعبّر عن جميعها..أما الأدب الذي يكتب بالفصحى، ولن أجد حرجاً في تسميته الشعبي، فإنّه المعبّر عن جماع الأمّة.. أدب يكتبه الشعب لنفسه وتاريخه وحضارته وتراثه وقيمه وعاداته وتقاليده وأديانه وجغرافيته وأوضاعه عموماً.. تتقبله الأمّة كما تقبلته في السابق وباهت به وأعطته لسواها من الشعوب ضمن التلاقح الحضاري الإنساني.. وهو إلى الآن، لم يقصّر في تعبيره عن طموحات الأمّة وأوضاعها فصوّرها في الحقب المختلفة ونهض بها في

[1] دفاع عن الفولكلور، عبد الحميد يونس، ص104، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1973

بدايات النهضة العربية ورفض أن يكون عامياً ركيكاً ومبتذلاً، لأنّ ذلك لا يلائم وضع الناهضين ولا هو من اللغة المقدّسة ولا صيغ به التراث الذي مثّل هويّة الأمّة عبر القرون الطويلة..

أما ما يطلق على الأدب من أنّه رسمي أو غير رسمي (أي شعبي)، فإنّ هذه التسمية، قد تواجدت فيما عرف من أدب نشأ داخل البلاطات المختلفة أو وافق حاكماً من الحكام أو تحدّث بلسان نخبة من النخب.. فإنّه أيضاً يبقى أدباً عبّر في حقبة من الزمن عن حاجات أو واقع فرض عليه ذلك.. لكنّه أثرى الأدب القومي العربي بالكثير من فنون القول بما حملت من مضامين وما صيغت به من أشكال تعبيرية عدّت من قبيل الأدب الراقي: المتنبي مثلاً.. لذلك نرى الأدب الجمعي، المقبول من الأمّة كلّها، والمعبّر عن هويتها القومية، "ينهض دائماً بالوظيفة الجمعية التي تحافظ على تراث الجماعة من ناحية وعلى مزاياها وأمجادها من ناحية أخرى" [1].

صراع البقاء والأدب الشعبي:على أنّه كان لبعض الدراسات في الأدب الشعبي العامي اسهامات تحاول أن تخرجه من نطاقه الضيّق إلى نطاق أرحب.. وهي تعوّل في ذلك على بعض اللهجات العربية الأكثر رواجاً في العالم العربي وهي المشرقية.. لا أريد أن أفاضل في هذا المجال بين لهجة وأخرى، فالبدوية تستحوذ على القسم الأكبر من اللهجات العربية.. وإن كانت لهجات المغرب العربي أقلّ ذيوعاً وانتشاراً.. مثل ذلك محاولة الدكتور خليل أحمد خليل في كتابه:" الشعر الشعبي اللبناني: دراسة ومختارات" (2)، فعلى الرغم من تعاطفه مع النوعين من الشعر فإنّه يحاول أن يوجد بطاقة هويّة للعامي بإبراز أهميته تراثياً وشعبياً وإبداعيا.. يقول:"يطمح الشعر عند الشعب إلى أن يكون واحداً متنوّعاً مثله: إلاّ أنّه وهو يغامر بهذا الطموح البعيد، عبر الولادة التجربة-الدائمة، يتبعّض، يتنوّع، يجـ ء، ينشد، يكتب ويقرأ، ويسقط على الحضارة وفرعها الثقافي الاجتماعي، فيغنّي ويمسرح، ويمثّل في العادات والطقوس

(1) دفاع عن الفولكلور، عبد الحميد يونس، ص111.

(2) صدر عن دار الطليعة، بيروت، من دون تاريخ طبع.

والحركات والثورات معاً، بكلمة أقول: إن الشعر الشعبي هو المروي- المكتوب معاً، وهو الفصيح- العامي معاً، والقديم المتجدّد معاً، وهو إلى جانب ذلك الحامل ثقافياً لطموح عام لدى الشعب الناشط في كافة الميادين، شأنه في ذلك شأن شقيقه الفصيح الذي بدأ خاصاً ثم تعمّم، وبدا خروجاً، ثم تقنّن في شرع الثقافة وصار جزءاً من مشاريعها العامة، والذي عانى جدلية الخلق الإبداعي فكان أداة لنقل الأفصح والأقلّ فصاحة عند الشعب"[1].

يوحي هذا الاستشهاد والمطوّل بالكثير من حسنات الشعر العامّي، وهي حقيقة وواقع في قطر مثل لبنان.. ذلك أنّ الدكتور خليل يتحدّث في كتابه عن لبنان، وهو القطر الذي كان معملاً لكثير من التطورات الثقافية عبر تياراتها المختلفة.. مرّة جديدة أؤكد أن دراسة الدكتور مغرية وموضوعية في آن واحد.. وبنوايا الباحث الطيّبة أظهر جدوى الإفادة من هذا الأدب في صنع التراث اللبناني وطموحه ليكون تراثاً عربياً على مستوى أمّة.. هذا الطموح الذي يزاوج بين الفصيح والعامّي، فيجعل من الثاني لاهثاً لتحسين شروطه الإبداعية يلحق بالأول الذي صوّره في انحداره من الأفصح إلى الأقلّ فصاحة، يستلفت النظر ويوحي بأنّ المستقبل سيكون للعامي في معركته لتحسين شروطه.. وهو مستقبل قابل للمناقشة فيما ترسم الأمّة من طموحات نحو التقدم وليس نحو التقهقر.. وكأنّ التعاطف مع العامي أصبح ميزة يسعى إليها من يريد الكتابة والإبداع.. مع العلم أنّ هذا السعي يقف المفكر الدكتور خليل أمامه ليقدّم لوحة عن الإبداع الشعري اللبناني في شبه خلط بين العامي والفصيح وفي شبه تسابق لإبراز التراث الشعبي، مع الاعتراف أنّه يعدّ الفصيح شعبياً أيضاً:"هذا الشعر الشعبي اللبناني هو مجمل الإبداعات الجمالية الشعرية لدى اللبنانيين بعامة، وهو متميّز عن الشعر الشعبي الآخر، المترسّم تقليداً وتراثاً، المتفصّح وزناً ولغةً، بأنّه موضع صراع ثقافي حاد، يبحث عن مستوى أدبيّ يستلّ به شرعيته، ويبحث عن لغة تعبيرية تحفظه ضمن التراث الشعبي اللبناني، ويبحث أخيراً عن مجتمع جديد يتحاور معه،

---

[1] الشعر الشعبي اللبناني، د. خليل أحمد خليل، ص5.

ويستقبله باسم الآتي إبداعاً" [1]. الإبداع الشعبي الشعري اللبناني يشمل النوعين إذاً وربما متساويين، كما تشير الفقرة السابقة[2]، إلا أنّ العاميّ يظهر قصوره أمام الفصيح، فهو يكافح من أجل إيجاد شرعيته، ولا يزال فاقد لغة التعبير الذي تحفظه كتراث لبناني وهو لم يجد مجتمعه الجديد الذي يتحاور معه ولم يجد آتيه (مستقبله) حتى اللحظة.. في هذا التصور عدة ملاحظات تؤكد على ما سقناه سابقاً عن ذلك الأدب الشعبي العربي الأصيل والفصيح الذي شقّ طريقه كأدب أمّة مقبول من الجميع.. من هذه الملاحظات:

1- أنّ هذا الأدب يعيش في الصفوف الخلفية ولم يجرؤ على التقدم أدباً يمثل أمّة وتراثاً يفهمه ويتعامل معه جميع أبنائها: هو لبناني، فكيف بالأقطار الأخرى إذاً..

2- وهو أدب يكافح من أجل ذاته، من أجل إبراز نفسه، وليس من أجل قضايا أخرى مرتبطة بالهويّة القومية. وهذا تجنّ على الشعر العامي نفسه لأنّه لم يكن في يوم من الأيام في النقيض لأدب الأمّة المعترف به بوجه عام.

3- أدب لم يجد شرعيته إلى الآن، فكيف يتمّ التحدّث عنه تراثاً شرعياً.. وهو ما يمكن أن يعكر صفو الصورة التي برز عليها هذا الأدب كونه تعبيراً وجدانياً عن حالة من الحالات التي تنتاب المرء.

4- إنّ المستقبل الذي ينبغي النضال من أجله هو الذي يتما يجمع طموح الأمّة، ولا أجد مسوّغاً للقول "يستقبله بالإسم الآتي إبداعاً".. لأنّ ذلك يستتبع بسؤال: هل الآتي المبدع للأمة هو في ابداعات كل قطر على حدة أم البحث الجمعي في هذا التراث عن الأصول التي توحد والجواهر التي ينبغي أن تشكّل هذا الآتي (المستقبل).

وقد نقرأ في كتابات أخرى عن التراث الشعبي مقولات أكثر تقدّماً في فهمه ووضعه في نطاقه الصحيح.. من ذلك كتاب محمد حسن عبد المحسن الذي بعنوان

---

[1] الشعر الشعبي اللبناني، د. خليل أحمد خليل، ص6.

[2] المرجع نفسه، ص6.

"الأدب الشعبي في حلب: دراسة وتحليل"[1]، حيث نجد في مجموعة الدوافع التي دفعت الكاتب إلى الاهتمام بالتراث الشعبي الحلبي رؤية أخرى تنحو بالأدب الشعبي نحواً خاصاً ينطلق من أهمية هذا التراث في مواجهة ما يحصل على الصعيد العالمي من إلغاء للثقافات وتقزيم لجهود الشعوب وهي تبني خصوصياتها.. ويرى الكاتب: أنّ الزحف الحضاري والمدني المعاصر الذي لا يقف عند حد هو الذي دفعه إلى ضرورة انقاذ التراث من النسيان.. فكثير من هذه المأثورات باتت تحت رحمة عالم متغيّر، والأيدي العابثة ما برحت تحرّف وتبدّل فيها.. ففي حفظها وصونها وتذكير الجيل الراهن بها وبصور الحياة الماضية التي بدأت تتلا يجي لاسيّما الخلفية الثقافية الصلبة التي تنطلق منها إلى المستقبل[2].. محاولة للإبقاء على أشياء جميلة في تاريخ الأمة. وهي مداخلة تظهر الحرص على التراث الشعبي وتضعه في سياقه الطبيعي الذي ينبغي أن يكون فيه، في زمن غدا فيه التغيير عنواناً لكلّ شيء والاجتياح الثقافي مستنفراً على غير صعيد.. علاوة على أنّ حلب بحدّ ذاتها كانت ولا تزال مركزاً ثقافياً على المستويين الشعبي والرسمي، وأنّ ما أنتجه أدباؤها وشعراؤها يعكس المستوى البلاغي الرفيع والأسلوب الفنيّ لسكان هذه المنطقة، وهو ما يترك تأثيره في النفوس والإبداع..

إلاّ أنّ الأمر المهم في هذه الدوافع هو انطلاق المؤلف للإسهام في الحفاظ على قيم الشعب وتراثه والتعرّف إلى الصلة التي تربط الماضي بالحاضر وتربط حلب ببقية المدن السورية والمدن العربية الأخرى[3].. وهي غاية نبيلة تفصح عن الاتجاه نحو توحد الهويّة العربية عبر خصوصياتها المشتركة، وتدفع إلى البحث عن كنوز التراث الفعلية في مدينة مثل حلب كانت مدة طويلة عاصمة الثقافة العربية.. والملفت في هذه الدراسة أنّها تربط الأدب الشعبي بالتطورات الحديثة في الإصرار على دراسة

---

(1) منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق، 1994.

(2) المرجع نفسه، ص9.

(3) المرجع نفسه، ص10.

الأدب الـشعبي في نطـاق التطـور والتواصـل والاسـتمرار، حتـى تواكـب التطـور الحضاري التكنولوجي.. "فكلما زادت التقنية العلمية تقدّماً زادت الدراسات التراثية تألقاً [(1)]..

في الخصائص والدلالات:عندما نتحدث عن الأدب الشعبي يكون قصدنا نوعيه: الشعر والنثر.. وهو كثير على امتداد الوطن العربي.. والملاحظ فيه أنّه يستقي موضوعاته من الحياة نفسها في معظم ما يطرحه من قضايا ويدور حوله من دلالات تقربه من الحياة الواقعية في تناوله مضامين يشعر المجتمع أنّ الحاجة الجمالية والمعرفية تدعوه إليها.. وهو ككل الآداب ينهل من لحظات الزمن الذي يقال فيه أو يطوّر ما كان موجوداً.. وإذا كانت وسائل الإعلام والطباعة ورواج الكتابة لم تكن متوافرة فإنّ جلسات السمر وحكايا المحدّثين وما عرف بالحكائين (الحكواتية) قد كانت تعويضاً وسائلياً لإيصال الحقائق إلى الناس.. وهو ما كان يعطيها الحيويّة والاستجابة والرواج.. علاوة على كونها تمثّل جانباً من جوانب الحياة وإن جاءت مجهولة المؤلف على الأغلب، تنقل حكاية أو خرافة أو سيرة أو مثلاً أو حكمة أو نادرة أو مقطوعة شعرية أو قصيدة طويلة وسوى ذلك من الفنون الأدبية التي كانت رائجة في عصر من العصور.. وهي إما أن تكون بالفصحى أو بالعامية أو من مزجهما معاً.. وهو بذلك انحراف غير مقصود.. بل يعبّر عن شعبية التعاطي مع هذا النوع.

وأبرز الخصائص التي تلاحظ في هذا الأدب **واقعيته** والتزامه بموضوعات تهمّ الناس يعرضها **بحيوية** فائقة تتجسّد بالحادثـة واللغـة والجديـد الـذي يحملـه نـاقلاً **جوانب الحياة** كلّها بما فيها من مظاهر.. لذلك قابليته على الرواج والديمومـة وتجـدّده وقدرته على كسب المزيد من الأصدقاء، كلّ يتفاعل مع جانب ويرى نفسه أو شـيئاً من ماضيه وبطولاته وأمجاده معروضة شفاهاً أو كتابةً أمامه وكأنّه يغرف مـن منهـل ثرٍ دائم الرفد بدوام وجود الإنسان الذي أجاد الحديث عنه وصوّره في مختلف أوضاعه لاسيّما ذلك الذي يغدو أنموذجاً بطولياً أو تاريخياً أو اجتماعياً.. ينبثق مـن بيئـة معينـة

(1) المرجع نفسه، ص16.

حاملاً سماتها ومميّزاتها المادية والمعنوية.. فهو بذلك يحمل من السمات العامة ما يحمله الأدب عموماً في غوصه في أسرار المجتمع ونوازعه واهتماماته وميوله ورغباته مادة وقيماً.. ولا يقتصر على ذلك بل يستعير من الشعوب بعض ما هو قابل للحياة في بيئة هذا الأدب نفسها..ويمكن لمتتبع آثار هذا الأدب الشعبي أن يلمس الجوانب العديدة المكوّنة للشخصية في سياق إيجاد الخصوصية لشعب من الشعوب وبالتالي رصد المعالم التي تشكّل هويّته على غير صعيد لاسيّما الاجتماعية والثقافية والمعرفية والسياسية..

الإهتمامات: ومن خلال رصد نماذج من هذا الأدب سواء أكان شعراً أم نثراً يمكن استخراج جملة من الاهتمامات التي يدور حولها.. فنحن أمام كمّ هائل من هذه النماذج، سواء أكانت بالفصحى أم بالعامية، ونحن أمام تصوير للاهتمامات الثقافية والأخرى الحضارية والسياسية والاجتماعية.. كما نحن أمام رسم للنطاق القومي الذي يتجلى فيه عامل الشعب والأرض واللغة والتاريخ المشترك والوحدة الشعبية.. تجدها في ثنايا هذه المأثورات من أنواع أدبية فنّية مختلفة.. كما نحن أمام آثار تفوح منها السمات الإنسانية التي تعدّ وثيقة أساسية تصوّر الهمّ العام للناس في كل مكان.. وهو ما جعل آثاراً مثل "البخلاء" للجاحظ و"كليلة ودمنة" لابن المقفع، و"ألف ليلة وليلة" و"سيف ذي يزن" و"الزير سالم" وسيرة "بني هلال" و"عنترة"... والحكايا الأخرى الخاصة تصبح في بواطن كتب الآداب العالمية: نسخاً أو احتذاء أو تقليداً أو تحويراً أو مادة مطوّرة تتحدث عن جانب من جوانب الحياة..

ويكاد يشترك في هذا الرأي كثير من الباحثين في الأدب الشعبي، لاسيّما عندما يحسبون هذا الأدب نوعاً من تصوير حالة الأمة في أدق مراحل تطورها وتصديها لأعدائها وانتقالها من وضع إلى آخر.. وهو ما يستهل به شوقي عبد الحكيم كتابه:"السير والملاحم الشعبية العربية" [1]، قائلاً: "الاعتداءات والأخطار الطامعة والمتربصة بأمتنا العربية تاريخياً كانت على الدوام القاسم الرئيسي لمعظم تركتنا

[1] صدر الكتاب عن دار الحداثة، بيروت 1984.

الشعبية الفولكلورية العربية، من السير والملاحم والقصص الشعرية المعروفة بالبالادا أو البالاده كما أسماها الكلاسيكيون العرب" [1].

ويمضي شوقي عبد الحكيم في تعداد هذه المظاهر القومية التي وقفها العرب ضدّ أعدائهم ودفاعاً عن نفوسهم، قبل الإسلام وبعده.. ويظهر بجلاء هذا العامل القومي الذي أدّى إلى تجمّع العرب في القديم في حروبهم ضد الفرس والرومان والبيزنطيين وكيف أن سيرة الأميرة الفلسطينية "ذات الهمّة" التي يصل حجمها إلى ست وعشرين ألف صفحة تحكي بتفصيل وبدقة تاريخ هذه المنطقة (سوريا) [2]..

وهو ما يفصّله تحت عنوان:"القسمات القومية المشتركة لسيرنا وملاحمنا"[3]، راصداً فواصل تاريخية معينة تجلّت في الحروب والهجرات الجماعية المتتالية وردّ الاعتداءات المتكررة على أرض العرب، وأحوال العرب في استقرارهم وتنقلهم ومواقفهم من الحياة عموماً نشاطاً وسلوكاً وقيماً وأدياناً واجتماعاً وسياسة وثقافة ومأثورات شعرية ونثرية.. الأمر الذي يسجّل هذا التاريخ العربي ويحفظه ويظهر تراثه جلياً فيه رائحة الأرض ومعاناة الناس وفرحهم وتعايشهم وانطلاقهم في إبداع الجديد.. وهو ينتقي نصوصه من الفصيح والعامي، ملتزماً بالأمانة العلمية، بالإضافة إلى دلالات الوثيقة- الاستشهاد.

أما الدكتورة نبيلة إبراهيم، فإنها تستفيد في معالجتها للقصص الشعبي من المناهج الحديثة الباحثة في التراث الشعبي عموماً، لاسيّما كتاب:"مورفولوجية الحكايات الخرافية" لـ "بروب".. ولفرط إعجابها بالأدب الشعبي تستنتج: "أن الأدب الشعبي ليس مجرّد تعبير يحتفظ به الشعب لنفسه، بل هو صرخة عالية تدعونا إلى أن نستمع إليها، وأن نتفهمها وأن نتعاطف معها، فإذا فعلنا ذلك أمكننا أن ندّعي أننا

---

(1) المرجع نفسه، ص5، والبالادا أو قصة الحب والعشق الشعرية الملحمية وأمثالها: "حسن ونعيمة" و"عزيزة ويونس" و"يوسف وزليخة" و"شفيقة ومتولي" و"سارة وهاجر" و"عالية وأبو زيد الهلالي"...

(2) المرجع نفسه، من صفحة 5 إلى صفحة 12.

(3) المرجع نفسه، ص13.

نصنع بقدراتنا العلمية شيئاً إيجابياً يسهم في الكشف عن نفسية الشعب وما يختلج بها من آلام وآمال" [1].

الأهداف: ولا ريب في أنّ التراث الشعبي، بما يتضمنه من سمات له أهدافه الواضحة.. وقد تبيّن لنا مما تقدّم جزء يسير من هذه الأهداف.. وإذا حسبنا أنّ الأدب الشعبي يأتي للتعبير عن حاجة جمالية معينة أو سدّ نقص في سياق التطور الفنيّ للموروث، فإنّ الأهداف بهذا المعنى لا تنفصل عن الواقع الذي أبدعه، تراثاً ينشد إرضاء الشعب فيعيش في وقائعه، وفنّاً يريد لنفسه الحياة فهو مضطر إلى أن يكون واقعياً في نماذجه وأبطاله وموضوعاته وعلاقاته، عموماً بالوسط الذي أنشأه.. لذلك كانت جوانب الحياة المختلفة تهمّ الناس، ولذلك كانت تترسم في هذا التراث.. وهي أهداف ركّزت على الجانب الأخلاقي الواقعي: في إبراز حسناته ومساوئه، وهي هنا تنطلق من البوتقة القيمية للمجتمع التي هي نتاج آلاف السنين مضافاً إليها كل طارق وجديد. وربما كانت هذه الأهداف في أبرز صورها تتجلى في عكس صورة الواقع الاجتماعي بكل ما يمور بالحياة عبر العلاقات الاجتماعية وأوضاع الناس وفئاتهم وطبقاتهم ومشاغلهم وهمومهم.. وصولاً إلى الواقع السياسي، حيث "لا يعيش الإنسان الشعبي منشغلاً بمشكلاته الخاصة أو بمشكلات جماعته فحسب، بل إن أحداث الحياة التي تجري خارج بيئته المحدودة تشغله كذلك إلى حدّ كبير، وحيث أنّ الأدب الشعبي لا ينسب إلى مؤلف بعينه، فإنّه لهذا السبب يتسم بالصراحة والصدق والحرية في التعبير عن مشكلات الحياة التي يعيشها الناس" [2].. لذلك كان المجتمع المحلّي ينتج أبطالاً من صلبه، من داخل عملياته الخاصة، فكان هؤلاء الأبطال: إمّا مميّزين بالقوّة المزدوجة: الجسدية والعقلية أو من الشيوخ والشجعان والمدافعين عن الحقوق إجمالاً.. وربما لجأت الحكايا الشعبية إلى الغيب تستلهمه حلّ المشكلات التي تبرز لديها.. وهو جانب مهم في حياة العربي، يؤكده في نشاطه ويعود إليه دائماً ويعتمد عليه في حلّ

---

[1] قصصنا الشعبي من الرومانسية إلى الواقعية، د. نبيلة إبراهيم، ص 7-8، دار العودة، بيروت، 1974.
[2] قصصنا الشعبي، د. نبيلة إبراهيم، ص160-170.

مشكلاته.. لذلك كان اعتقاده مصوباً نحو الأعمال الخيّرة التي تدوم ويكافأ عليها.. ومن هذا المأثور الغيبي ما يتعرّض لبعض المعتقدات الشعبية في مسائل مثل الأولياء والأرواح والجنّ وانقسامهم إلى خيّرين وشرّيرين وتأثيرهم في الإنسان وتحكّمهم أحياناً به.. وهي منها ما يدخل في المعتقد الديني أساساً وما هو من خلق الشعب على مرّ الزمن، حيث يصل الخيال به إلى حدّ الخرافة والأسطورة التي ليست من الدين في شيء.. وهي مدخلات بعيدة التصديق وغالباً ما ترافق نوعاً معيناً من الشعوب التي لم يسد فيها الوعي إلى زمن وضع متخيلها هذا.. ولا تخلو المأثورات الشعبية من روح الدعابة وخلق أجواء المرح، وهو ما عرف بالجوانب الهزلية في التراث الشعبي للترويح عن النفس والانصراف عن الجدّي إلى ما يدخل البهجة في النفوس.. وهو غالباً ما ينحو مناحي مختلفة أبرزها: إيجاد الهزل من أجل الهزل أو تغطية أمر من الأمور الجدّية التي لا يستطاع تأديتها بشكل مباشر خوفاً من سلطان جائر أو ابتعاداً عن الأذيّة لشخص مضحك تقال عنه الدعابات بطريقة غير مباشرة..

الاهتمام بالأدب الشعبي: وهذه الجوانب كلّها هي التي حفزت الناس إلى الإهتمام بالأدب الشعبي وجعلت هذا الأدب "يحتفظ بنكهته رغم زوال الأسباب التي اقتضت ظهوره ولازمته، حيث لا يزال قسم كبير منه موضع إقبال القرّاء عليه والاستمتاع به، وموضع التفات الأدباء والفنانين: معاودة الأصل واقتباساً منه أو استلهاماً لبناء جديد يقوم عليه"[(1)]. ليس هذا فحسب فوراء الأدب أمور لا يستطيع أن يقولها الإنسان كتابة أو شفاهاً، وإنما ينحصر قولها في مجال الشفاه أكثر.. لذلك كانت الحكايا الشعبية تميل إلى المشافهة.. وكما في الشعر كذلك في النثر يستطيع الراوي أن يبدع وهو يروي، أن يضيف كلّ مرّة ما يراه ضرورياً، وقد يضيف ما يضير السلطان خفية وسط أناس يثق بهم، أو يضيف مواقف معينة إلى أبطال السير يراها مناسبة لوضع الأمّة.. هكذا كان في "سيرة عنترة" وسواها من السير، حيث يجد الراوي أجواء من الحرية لا تتوافر في ظروف أخرى، وكلّما كانت إضافته صادقة كان يقترب من

(1) الثنائية في ألف ليلة وليلة، إحسان سركيس، ص ، دار الطليعة، بيروت 1979.

الشعور الجمعي والتعبير عن الخصوصية والكشف عن الهويّة الحقيقية لقومه ببساطتها وقرب متناولها وصدقها.

وهذا ما لا يتوافر للكاتب في أيّ زمن.. لاسيّما إذا عرفنا أنّ معظم الأدب الشعبي يصدر عن شخصية موهوبة أو جماعة على قدر واف من الوعي، بحيث يصبح هذا الأدب قادراً على السفر عبر الزمن واختراق الحدود إلى الأمم الأخرى. وبهذا يكون الأدب الشعبي "مرآة الماضي وصورة التاريخ كما فهمه الشعب أو كما أريد له أن يفهمه، تتمازج فيه الحقيقة والوهم، والواقع والخيال والعلم والسحر والغيبيات"[1].

التراث الشعبي والتجديد: وهذا الاهتمام بالتراث تجلّى في إعادة إحيائه على غير صعيد ابتداء من النهضة، وقد ركّزت الاتجاهات الكبرى على إحياء الخصوصية في هذا الأثر أو ذاك.. ولا ريب في أنّ الأديب رئيف خوري كان من أبرز العاملين في هذا النوع من التراث الشعبي، إذ إنّه حاول التجديد وتقديم النصوص التراثية في قوالب فنّية جديدة أبرزها القصصية.. فهو علاوة على إبرازه بعض الشخصيات الأدبية العربية مثل امرئ القيس وعمر بن أبي ربيعة وديك الجنّ... فقد أعاد كتابة بعض حكايا التراث الشعبي مثل "مجوسي في الجنّة" التي التقط فيها الخوري بعض الحكايا وصاغها بما يناسب الواقع، لاسيّما عندما كان في فلسطين يكافح ضد الصهيونية في العام 1936، ومثلها "ثورة بيدبا" التي تدور حوادثها حول قضية الشعب الفلسطيني ومؤامرة الإنكليز والصهاينة على فلسطين.. و"مع العرب في التاريخ والأسطورة" حيث يعيد صوغ بعض الحوادث التراثية العربية القديمة بأسلوب قص لأ فنّي فكري في آن عماده فيه قوله:"النظر إلى الوراء جزء من النظر إلى أمام"، و"صحون ملوّنة"، هي قصص من التراث يستفيد منها القارئ في إذكاء روحه الكفاحية واثبات هويّته

[1] المرجع نفسه، ص7.

القومية[1].. منطلقاً من القيم المتعارف بها المشتقة من فاعلية الشعب:"إنّ هذه القيم بالنسبة للأديب العربي هي النابعة من الرسالة القومية العربية التحررية، القيم المشتقة من الطموح الشعبي الأصيل إلى العدل والحرية، وإلى الخير والجمال، إلى الحق والسعادة" [2]، وهو في ذلك كلّه يدعو أن يكون الأدب مستمداً من الواقع الشعبي، ومن مشروع الثقافة الشعبية-الوطنية التي تستمد مرجعيتها من "وحدة الشعب والتاريخ وتبتعد من المراجع الذاتية المنغلقة" [3]، وكان ديدنه في ذلك قوله:"ينبغي على المثقفين أن ينزلوا إلى الشعب فيعلّموه ويتعلموا منه" [4].. إلى غير ذلك من الآراء والمواقف التي استمدها من التراث العربي مثل تصويره انتصار الضعفاء في قصة النبي صالح (عليه السلام) وثمود، بينما عنترة في السيرة يمثل في نظره قضية السود المضطهدين الذين يحاولون أن يتخلصوا من العبودية والفقر[5]، كما هو الأمر في قصة العبد الزنجي الذي فاق كرمه كرم معن بن زائدة [6].. وغيرها من الإحياءات التي وضعها رئيف خوري في أحضان العصر وبين أيدي أحفاد التراث الأدبي العربي لينهلوا منها الحكمة والأصالة والقيم والعادات والمواقف القومية ويتشبثوا بخصوصيتهم ويبرزوا معالم هويّتهم على حقيقتها متمثلة بهذا التراث الهائل على غرار ما فعلت الأمم الأخرى في حكاياها وملاحمها وشعرها. "إنّ السير البطولية الشعبية، كما يقول هاوزر على لسان أندرياس هويسلر، تنتقل أولاً بطريقة مجهولة المصدر من فم إلى فم بوصفها سيراً بطولية شعبية.. وهي تبدأ بوصفها أنشودة أو قصيدة، وتعاد روايتها

---

[1] راجع في هذا المجال كتاب الأدب العربي الحديث: نماذج ونصوص، د. سالم المعوش، ص 238-264.

[2] من مقال له بعنوان:"الأدب والرسالة القومية"، نشر في مجلة الآداب عدد أيار/ مايو، بيروت 1959.

[3] رئيف خوري وإشكالية النقد الشامل. د. فيصل دراج، مجلة "الطريق"، عدد شباط، بيروت 1989، ص48.

[4] أعمال مختارة، رئيف خوري، ص 165.

[5] مع العرب في التاريخ والأسطورة، ناقة الفقراء، ص 127، دار المكشوف، ط2، بيروت، 1963.

[6] المرجع نفسه، ص 174.

وتضاف إليها عناصر جديدة بهذا الوصف.. تحلّ محلّ الصيغة الأصلية الأقصر منها، ولكنها لا تختلف عنها اختلافاً أساسياً" [1]. ولقد استطاع رئيف خوري في تقديمه للتراث أن يخرجه بحلّة جديدة تسقط منه الصوغ العامّي وتفصّح ما جاء من مفردات قابلة إلى أن تكون كذلك.

وهي الطريقة نفسها التي ينهجها الأدب الفلسطيني المعاصر في إثبات الشخصية الفلسطينية الضاربة في أعماق التاريخ والمتوحدة مع الأصول العربية العامة.. ولقد دأب الشاعر توفيق زياد على هذا النهج وكان ديدنه إحياء التراث الشعبي في مجمل أعماله الشعرية[2].. وهو توظيف للتراث الشعبي، أو قل هو عامل قوي من عوامل الصمود والتصدي والتمسّك بالأرض والهويّة والخصوصية العربية. وقريب من هذا الجهد نجده في شعر عز الدين المناصرة، حيث تكثر الألفاظ والعبارات العامية المفصّحة في شعره.. وهو ما ذهب إليه الدكتور حسين مروّة عندما دعا إلى استخراج السمات الثورية في التراث الأدبي العربي من خلال نظرة علمية تحليلية تقيم وزناً للذي يجب أن يحيا ويمدّ الحاضر بالطاقة الثورية، لاسيّما البطولة والقيم والعلم والمعرفة والمظاهر الموحدة لمجموع الأمّة[3].. فبهذا التراكم المكشوف عنه في التراث يستمد الحاضر ألقه من الماضي في ضوء الخصوصية والهوية. ومن الواضح أنّ هذا الأدب الشعبي الذي نتحدّث عنه قد حمل موضوع الفصحى والعامية على كاهله، ونحا به نحواً مغايراً لما طرح من دعوات حديثة في هذا المجال.. فكان أدباً أو دراسات تحاول أن تبرز إمكانات اللغة على غير صعيد.. فلقد تبدّت قدرتها التعبيرية عن مساحات واسعة من الوطن العربي، حيث استطاعت أن تختار من الألفاظ القريبة من العامية ما هو مفهوم من العرب كلّهم، ألفاظ هي فصيحة لكنّها

---

(1) الفن والمجتمع عبر التاريخ، أرنولد هاوزر، ص 43، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1981.

(2) عن الأدب والأدب الشعبي الفلسطيني، توفيق زياد شاعر الأرض المحتلة، ص 6، دار العودة، بيروت 1970.

(3) تراثنا كيف نعرفه، د. حسين مروّة، ص327، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت 1985.

تحولت عبر الزمن إلى ألفاظ متعارف بها في اللهجات العربيـة المحليـة كلّهـا.. فبـدت مفهومة وواضحة.. هذا ما كـان مـن أمـر المفـردات التـي وردت في الـسير الـشعبية العربيــة الموروثــة.. حيــث يقرأهــا العــربي في أمــاكن تواجــده ويفهمهــا فهــماً عميقاً..وبذلك تكون هذه العامية التي ارتقت إلى سدّة التعبير العربي المفهوم، عـاملاً موحداً للعرب وليس مفرّقاً كما هي بعض اللهجات الشائعة اليوم وتحمل من المحلّية ما جعلها غير مفهومة في أماكن أخرى..

إنّ الأدب الشعبي الذي نريده، بخاصـة ذلـك الـذي يعتمـد الزجـل والنبطـيّ والمواليا والقصيد والعتابا... ويعتمد على العامّيات المحليـة، هـو الأدب الـذي يختـار ألفاظه المفهومة والمعروفة والمرتكزة على الفصحى.. وأعتقد أن أغلبية شعراء العـرب وكتّابهم ينحون هذا المنحى وعليهم أن ينحـوه يكـون إبـداعهم المحـلي فعـلاً مـن اشتقاقات الفصحى.. وهو ما حاوله د. خليل أحمـد خليـل ومحمـد المحـسن ود. نبيلـة إبراهيم ورئيف خوري وتوفيق زياد وعزّالدين المناصرة ومارون عبود وشـوقي عبـد الحكيم..

مقاربة تراثية شعبية

في قصة "الأمير الأحمر"

لمارون عبود (مشروع تفصيح العاميّ)

مدخل توضيحي للمرحلة: دأب مارون عبود[1] في مجمل أعماله النقدية والقصصية على إلتزام أسلوب واضح يكسبه لوناً خاصاً قريباً من الدعابة متسربلاً بسربال الواقع الذي قرّبه من المحلّية والخصوصية.. كتب مارون عبود ما يزيد عن الخمسين كتاباً معظمها في الدراسات والنقد، وبعضها في القصة القصيرة والطويلة وفي التمثيليات والسياسة والاجتماع والشعر..

يجمع دارسو أدب عبود على أنّه حا ة في مجمل كتاباته المثال الشعبي فصوّره في أوضاعه المختلفة.. فكانت القرية اللبنانية بطلة في مجمل أقاصيصه وقصصه التي بلغت خمساً. والجدير بالذكر أنّ معظم أعماله القصصية تلفت نظر القارئ في محاولتها رسم صورة واقعية للقرية تتجلى بواقعيتها التي تنقل القارئ إلى أجواء تفوح منها رائحة العادات والتقاليد وتتركّز فيها اللوحات الهادئة حيناً والصاخبة حيناً آخر.. وفي كل ذلك نلمح إصرار عبّود على إحياء هذه المظاهر التراثية المحببة التي تكاد تفقد يوماً بعد يوم.. لقد بدأ عبود كتاباته في العقد الثالث من القرن العشرين.. وهو

---

[1] صدر لمارون عبود في النقد: مجددون ومجترون، دمقس وأرجوان، جدد وقدماء، نقدات عابر، على الطائر، على المحك، في المختبر، وفي الدراسات: الرؤوس، الشعر العامي، زوبعة الدهور أو أبو العلاء المعري، صقر لبنان أو أحمد فارس الشدياق، بشارة الخوري، أمين الريحاني، بديع الزمان الهمذاني، روّاد النهضة الحديثة، المحفوظات العربية، أدب العرب. وفي القصص: توادوسيوس قيصر، جواهر الأميرة، الأمير الأحمر، فارس آغا، ربة العود، رينيه وآتالا، الحمل. وفي الأقاصيص: أقزام جبابرة، وجوه وحكايات، أحاديث وحكايات، أحاديث القرية. في الاجتماع: الأكليروس في لبنان، سيرة البابا بيوس، سبل ومناهج، كتاب الشعب، تذكار الصبا. في النقد السياسي: من الجراب أشباح ورموز، حبر على ورق، قبل انفجار البركان. في التاريخ: بيروت ولبنان. في الشعر: نوابع. في التمثيل: أشباح القرن الثامن عشر، كريستوف كولومبس، الأخرس المتكلم، مغاور الجن، مجنون ليلى. وغيرها من الكتب المنوّعة.

تاريخ له دلالته التاريخية والسياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية.. حيث كانت البلاد العربية خارجة للتوّ من سيطرة الحكم التر وداخلة إلى ظلام آخر، إلى ما يسمّى بالانتدابات المختلفة التي اضطرت هذه البلاد أن تخوض معارك أخرى في سبيل استقلالها.. وهي المرحلة التي عرفت باسم "ما بين الحربين العالميتين: الأولى والثانية".. وهي التي تناولتها بعمق في كتابي "صورة الغرب في الرواية العربية" [(1)]، ومن أبرز ما أظهرته أوضاع الثقافة العربية والمثقفين العرب في تلك المرحلة وما قبلها وما بعدها، حيث غلب النهل عن الغرب والإعجاب به إلى حدّ الانغماس لقسم كبير من هؤلاء المثقفين فيما قبل الحرب العالمية الأولى، حتى إن وقعت الحرب فبرز الغرب على حقيقته، أي أنّه يصدر الحضارة كما يصدر الحرب والدمار والقتل والتشريد، لا يهمّ فئة منه إلاّ مصالحها وأنّ ما تعد به الشعوب أوهام وأباطيل تتحطم على صخرة الواقع..

وكان من الطبيعي أن يشهد هؤلاء المثقفون وفي طليعتهم الأدباء والمفكرون والشعراء أسئلة مكثّفة حول ما يجري أمامهم.. فإذا هم على مفترق الحياة للمجتمعات العربية.. أسئلة تطرح على صعيد الذات الفردية.. فتعاظم هذا الإحساس وانبرى العديد من الأدباء يعبّر عن الواقع مروراً بذاته، ولقد كانت هذه الذات مخزن ألم عميق وفكر مشوّش مرتبك قلق حيناً وضائع في ثنيات ما يردهم من مجتمعات أخرى تبرز عجزهم عن مماشاة الواقع وتصوير مشكلاته عن كثب.. وكان ذلك يقتضي خلع نظاراتهم الغربية ليلتمسوا الأرض ويتحسسوا مواقعها تنجلي الحقيقة أمامهم.. لذلك تميّز أدبهم في تلك الحقبة بالعودة إلى الذات والحديث عن التجارب الخاصة[(2)].

ولقد أنتجت تلك المرحلة أعمالاً تتحدث عن الذات فيما عرف بالسيرة الذاتية وإبراز الشخصية الفردية (الأيام لطه حسين و"سارة" للعقاد و"إبراهيم الكاتب" للمازني و"زهرة العمر" لتوفيق الحكيم، وسواها كثير).

---

(1) صدر الكتاب عن دار الرحاب الحديثة، بيروت، 1998.

(2) المرجع نفسه، ص 283-284

وكان من الطبيعي أيضاً أن يشعر الكاتب بضرورة الإنطلاق من الذات الفردية والعبور إلى الذات الجماعية، فبدل الذات الفردية الذات الجمعية، وبدل الحديث عن تاريخ فرد كان الحديث عن تاريخ مجتمع وأمّة.. لذلك كانت الأعمال الأدبية والفكرية تركّز في تلك المرحلة على تاريخ الذات العامة، فكتب توفيق الحكيم سلسلة رواياته ومسرحياته عن تاريخ مصر وتاريخ العرب والإسلام، وكتب محفوظ عن تاريخ مصر وعن القاهرة الجديدة وعن بعض الأحياء فيها.. كما كتب العقاد سلسلة العبقريات الإسلامية، وكتب عوّاد "الرغيف" عن تاريخ لبنان وسوريا الحديث، وعاد جبران ليكتب عن الخصوصيات اللبنانية والعربية، وكذلك فعل نعيمة ليكتب عن صنين ويهاجم الحضارة الغربية ويفضّل الحضارة الشرقية، وكتب معروف الأرناؤوط عن سادة العرب المسلمين: "سيد قريش" و"عمر بن الخطاب" [1].. ولقد عمّت الدعوة إلى العودة إلى التراث فكانت شبه شاملة، تتوسل الأدوات الحديثة وتبني المضامين القديمة والواقعية. وكان للظروف "أثر في تعميق الشعور المحلي في لبنان والنظر إلى الواقع الخاص وتمثّل البيئة المحلية وتدبّر الروابط والعلاقات التي تربط بين أفرادها وطبقاتهم في نطاق الظروف الخاصة بها، أعان على إيجاد تيار روائي له أبعاد فنية تحمل طعم التربة والأرض والشخصية والروح الإنسانية الخاصة" [2]. في ضوء هذا المدخل يمكن أن نضع قصة مارون عبود "الأمير الأحمر" في تلك المرحلة التي عمّت البلاد العربية من التعبير عن المحلّيات والخصوصيات والشخصية العربية والتوليد الثقافي الجديد الذي اعتنق نظرة جديدة إلى الأحداث والوقائع وأصبح أكثر التزاماً بالقضايا التي تعيشها الأمّة.. ذلك أنّ القصة صدرت في العام 1948 أي في أعقاب الحرب العالمية الثانية مباشرة وفي ظلّ المؤامرات الدولية لاغتصاب فلسطين، فكان لزاماً على الأدباء تمثّل المرحلة وإيقاظ الروح الوطنية والقومية عبر بعث التراث، انطلاقاً من الكنوز الكامنة فيه من القيم التي تحتاجها المرحلة.. وبالطبع كانت اللغة العربية

---

(1) المرجع نفسه، ص ص 287-289.

(2) الجهود الروائية، عبد الرحمن ياغي، ص 68، دار العودة، بيروت، ط2، 1979.

المفتاح الأكبر للمغاليق التي استجدّت، وجرى حولها مزيد من الصراع.. وقد تيسّر لها كتّاب مخلصون يدفعون عنها المخاطر ويبيّنون قدرتها وقابليتها على الحياة، وأنّ الإنحراف بعاميتها أمر من الخطورة بمكان يستهدف تقزيمها وإلغاءها.. وقد كان عبّود واحداً من هؤلاء الذين قدّموا وثائق مهمة عن العربية بعاميتها وفصحاها وجدواهما في التعبير.. لذلك كان مشروعه يركز على أصولها ويردّ العامي إلى مصادره ويجلسه في مكانه الصحيح من التعبير الفصيح.

فكرة القصة: يسمي مارون عبود "الأمير الأحمر" [1] قصة وليس رواية، مع العلم أنّها تحتمل أن تكون كذلك أي رواية.. والأمير الأحمر هو الأمير بشير الشهابي الثاني الكبير الذي حكم إمارة جبل لبنان في النصف الأول من القرن التاسع عشر إلى حين نفيه إلى جزيرة مالطة في العام 1840.، نفهم من سياق القصة أنّه سمي أحمر نظراً للدماء الغزيرة التي أهرقها ظلماً من الشعب مجموعين ومنفردين.. فالأحمر هو الدم.. والأمير ظالم، الأمر الذي استدعى عبود ليقيم ثنائية الصراع بين الشعب من جهة والسلطة المتمثلة بالأمير وبطانته.. وظلمه يتمثّل في سلسلة من الأعمال الانتقامية الدموية.. وهو ما جعل الشعب يتحرّك ضدّه في شبه تجمّعات سمّاها عبود عصابات كان أبرزها التي يرأسها الشدياق سركيس أحد الفلاحين المتنوّرين المتمتعين بشدّة الحساسية والجرأة. يظهر الكاتب هذا الفلاّح قائداً شعبياً قروياً يقوم بسلسلة من الأعمال الانتقامية ضدّ عساكر الأمير الذين أثقلوا على الناس بالقتل والتشريد والنفي وكثرة الضرائب وفرض الأتاوات، الأمر الذي أحدث إدقاعاً إضافة إلى الفقر الموجود أساساً.. يظهر الشدياق سركيس في عدة صور، تارة فلاحاً وطوراً رجل دين وحيناً فناناً نورياً فولكلورياً وحيناً آخر مفكراً وواعظاً ومصلحاً.. وبعد سلسلة من المواقعات بين العصابة ورجال الأمير بشير، يقع ابنه الأمير قاسم في شراك العصابة-المقاومة التي تتخذ من أحد الكهوف مخبأ لها، فيعفو الشدياق عنه بعد أن يلقنه درساً في أصول

---

[1] سأعتمد في هذا البحث على طبعة القصة الصادرة عن دار مارون عبود ودار الثقافة في بيروت، طبعة ثانية في العام 1974.

المعاملة المستمدة من عادات القرية وتقاليدها وقيمها عموماً وفي مقدمتها: التسامح والعفو عند المقدرة.. بعد ذلك يشتدّ التعامل مع العصابة ويتصاعد الانتقام من الفلاحين في منطقة جبيل قتلاً واثقالاً بالجعالات والضرائب والسلب والمصادرة.. ونفاجأ بالكاتب يوجّه القصة نحو الحلّ المفاجئ، حيث يظهر الأمير بشير في ضيقه وتبرّمه من الشدياق فيشدّد في طلبه ويستخف بابنه قاسم الذي وقع أسيراً وأطلق والذي لم يقوَ على القضاء على الفتنة في بلاد جبيل ولم يعتقل الشدياق.. المفاجأة تكون في إظهار الأمير بشير شديد التأمل فيما يدور حوله من جهة من أحداث وما يرتسم حوله من المشاهد والمناظر في قصر بيت الدين وما يحيط به من حدائق وأشجار وطرق ووديان وجبال وتلال، فيبدو مفتوناً بذلك.. ويقرر الخروج في جولة في المنطقة القريبة منه مع بعض أعوانه، لاسيّما الشاعر بطرس كرامة، فيقع نظره على فرقة من النوَر تقوم ببعض العروضات الفولكلورية.. فيستوقفه المشهد ويطلب من الفرقة أن تأتيه إلى القصر، فتفعل وتقدم عروضها. في المشهد الأخير نفاجأ بشخص يدّعي الثقافة فيقرّبه الأمير على أساس أنه صديق للشدياق سركيس وقادر على الاتيان به إلى القصر.. وبعد حوار طويل يطلب هذا الشخص المدّعي أنّه كان مسافراً في الخارج وعاد إلى لبنان، الأمان من الأمير في حال أحضر له الشدياق، ويلح في هذا الطلب حتى يجهر الأمير بذلك الأمان موقّعاً وأمام شهود بألاّ يؤذي الشدياق إذا حضر.. وتكون المفاجأة أنّ هذا الشخص المدّعي يكشف عن شخصيته فيكون نفسه الشدياق سركيس وينال الأمان..

الغاية من القصة: تبرز القصة مجموعة كبيرة من اللوحات القروية، الأمر الذي جعلنا نقول: إنّ القرية هي الشخصية الرئيسة للقصة.. ذلك أنّ تطوّر الحدث هو على سبيل العرض لعدة أمور أراد عبّود إبرازها والتي تدور في أماكن معينة من منطقة الجبل اللبنانية.. وفيها نرى قرى عديدة على بساطتها تهدهد حياتها وتقوم بأعمالها بفطرة نادرة تحمل ألوان الناس وعاداتهم ونشاطاتهم وقيمهم ومخاطباتهم وأثاث بيوتهم ومزارعهم وحقولهم ومواسمهم وتعاملهم مع انتاجهم وعلاقاتهم مع الحكام في مرحلة

تاريخية كان المجتمع فيها مقسوماً بين فلاح وإقطاعي.. وبينهما تأتي الشرائح الاجتماعية الأخرى، لاسيّما رجال الدين الذين انقسموا بدورهم إلى موالٍ ومعارض، وتحوّل التركيز عليهم إلى نوعٍ آخر من عرض العادات الكنسية وفصول الصلاة والإيمان ومواقف الناس منها..

ويبدو للمتصفح القصة أنّها صفحات تراثيـة شـعبية مكثّفـة، تعكـس مـضيّ الناس في صنعها والتمسّك بها والدفاع بالقوّة عنها.. كما تعكس تمسّكهم بالأرض ومـا أقاموه عليها من منشآت ملائمة لزمنهم.. وهذا ما يظهر أنّ تركيـز عبّـود عـلى الحـدث كان متراجعاً عن تركيزه على معالم تراث القرية كلّه حيث تغدو القصة عملاً أدبيـاً شعبياً تراثياً يظهر اقتناع الناس بما لديهم وأنّ التطوّر يخرج من جواهرهم، هم الذين يصنعوه، والجديد يبنى عليه ولا يسقط إسقاطاً.. مع العلم أنّ عبّود نجح في رسم الإطار التاريخي لزمن قصّة، فأبرز سلطة الإقطاع وتعاملهم فيما بينهم، ومن ثم علاقة الحكام فيما بينهم والاستئثار بالـسلطة واللجـوء إلى الانتقـام والقتـل في سـبيل الحفـاظ عـلى مكتسباتهم: هذا ما نراه في علاقة الأمير بشير بالاقطاعيين المعاصرين حيـث سـادها القتل وسمل العيون والنفي والتشريد، وفي علاقتـه أيـضاً مـع والي عكـا أحمـد باشـا الجزّار في الصراع على السلطة..تجليات التراث الشعبي في "الأمير الأحمـر": في خمـسة أعمال قصصية شكّل عبّود تعاطيه مع التراث الشعبي.. وأقـصد بـالتراث الـشعبي مـا نقلته هذه الأعمال من إلحاح على التمسّك بالألوان المحلّية والخصوصية.. وكأنّي بعبّـود يقدّم لنا بطاقة هويّة لهؤلاء الناس الذي تحـدّث عـنهم.. وهـم في الأغلـب واقعيـون، مختارون من أفراد وجماعات كانت لهم حياتهم في التاريخ اللبنـاني في القـرن التاسـع عشر، وربما لازالت هذه الجماعات تمارس قريباً من تلك الأساليب الحياتيـة العامـة.. وفي هذه العجالة سوف أتوقف عنـد بعـض التجلّيـات التراثيـة التـي قـدّمها عبّـود في لوحاته القروية فيما قدّم:

الدلالات البيئية القروية: في الحقيقة، إنّ القصة حافلة بهذه الدلالات وربما كانت كلّها كذلك. وعبّود يصرّح في بداية القصة بهذه الحقيقة عندما يعلن:"على هذا درج

اللبنانيون القدامى الذين جعلوا من هذه الجبال حصوناً منيعة لهم، وأحبّوا أرضهم بقلوبهم وسواعدهم، فما تغنّوا بها، بل استنبتوها مواسم وخيرات، وجعلوها أمّاً يفيض حنانها لبناً وعسلاً وزيتاً، فتمتلئ الخوابي وتكتمل المؤن، وإذا بالقروي سلطان في بيته، يهزأ بالأزمات والأعاصير"[1]. وإذا ما عاد هذا القروي بغلاله يحصر تفكيره "بما عساه يبقى له ولأولاده من تلك الغلّة التي سقى أشجارها بعرق الجبين وزوم[2] العينين"[3]. وهو ينقل خطاه يستريح لبعض الوقت في الطريق،"يحطّ السلّ على حائط ليستريح قليلاً"[4]، إلاّ أن تعبه يزول عندما ينظر إلى "التينات الخضر المشققة الأفواه، فخالها تضحك له ولأهله، فهزّ رأسه بحسرة وقال:"ما أكرم الأرض وما أوفاها أطعمها تطعمك"[5].

إذاً هي المسافة بين الكرم وبين منزل أبي ناصيف، والزمن هو في أمسية من أماسي أيلول، حيث السماء مغبرّة، وهو "لا يحمل جندلاً" [6]، ولا حديداً، بل سلاً من التين المشرّح[7]، يشدّه إلى صدره بحبل من الشعر، ليحمل في يده اليمنى قفّة[8] فيها الزبيب ونوع آخر من التين المجفف، فالتين والدبس والجوز والزبيب حلاوة الفلاح اللبناني ونقله[9]، شاتياً ومربعاً، يأكل بعضها ويدّخر البعض الآخر لقرى الضيوف وسلوى السامرين عنده في ليالي الشتاء المعربدة"[10]. بين الحقل والمنزل لوحة ريفية

---

(1) القصة، ص10.

(2) زوم: عصارة.

(3) القصة ص 10.

(4) القصة، ص11.

(5) القصة، ص11.

(6) جندلاً: صخراً أصمّ.

(7) التين المجفف شرائح كبيرة.

(8) قفة: وعاء من ورق النخل.

(9) النقل: ما يتنقل به على التراب من فستق وغيره.

(10) القصة، ص10.

يقدّمها عبّود لذلك الفلاّح اللبناني الذي يعـود مـسروراً وكأنّـه امتلـك الـدنيا بأسرهـا بامتلاكه هذه الغلّة وتلك الأرض المعطاءة، ينوء تحت عبء سـلّه الزاخـر بـالخيرات وملابسه القروية (السروال والصدرية...) اصطبغت بلون التراب الأحمـر وتغلغلـت فيها رائحة الحقول فغدت مزيجاً من بقايا رائحـة شـجرة التـين والزيتـون والكرمـة والخرنـوب.. ومـا علـق بهـا مـن الأعـشاب حيـث انطـوى عـلى شروالـه[1]ينقّـي القطريب[2]والشوك العالق بأذياله ونظر إلى ساقه التي هشّمها العلّيق والقنـدول ولم يبال" [3]. يرسم عبّود تلك اللوحة بتعبير يقترب كثيراً مما أنتجته الأرض من أشياء ومـا حاكته من لوازم غدت وسائل لدى الفلاح اللبنـاني فـشكّلت محيطـه وكونـه الخـاص فأخذ يخاطبها بلغتها الخاصة أيضاً لا يستعير لها أي لفظ غريب عنها، ولا بحركـة إلاّ ضمن مكانها المحدّد فيصبح بذلك أكثر انسجاماً وأشدّ ولوعاً بها لأنها غدت جزءاً منه بل غدا هو جزءاً منها، بعض أشيائها فيه: شكلاً ومعنى..

ولا تكتمل هذه اللوحة إلاّ بأجزاء أخـرى مـن الحيـاة القرويـة، يمعـن عبّـود بإبرازها ليقول ما يود قولـه ببـساطة وعفويـة، فيـدخل إلى منـزل القـروي ويفـيض بالحديث على محتوياته ويتركز حديثه على فعل المرأة الريفية التي تـشارك الفـلاح في معظم أعماله في الحقل والبيت وأحياناً في الأمور العامة، فإذا أم ناصيف تنتظر عـودة زوجها إلى المنزل، وإذا بها تبتسم لدى وصوله، كما تبتسم التينات في الـسلّ، وتتنـاول الحمل مشاركة زوجها في إنزاله وهو يقول لها: "صحيح قول المثل يـا لولـو، لـو كـان للصيف أم كانت تبكي عليه"، فتستضحك لولو (أم ناصيف) قائلة "لولا الشتاء، يا ابن عمّي، ما كان الربيع ولولا الربيع ما كان الصيف"[4].

---

[1] لباس قروي فولكلوري قبل شيوع البنطلون.

[2] نوع من النبات الشوكي.

[3] القصة، ص12.

[4] القصة، ص12.

فانظر إلى تلك المداعبة:"لولو" وأنظر إلى ذلك الرد "يا ابن عمّي"، لتر أي حميمية بريئة تخالط سلوك هؤلاء الناس ساعة الإياب من رحلة التعب التي تخفف وطأها هذه المداعبة ليغدو الطرفان قريري العينين ولينتقل المشهد إلى صورة أخرى حيث تتناول أم ناصيف الإبريق والصابون وتبدأ بصبّ الماء على رأس زوجها الذي أخذ يزيل بعض ما علق على هامته من غبار الحقول وترابها وبقايا الأعشاب.. وهي تتأمل الصابون يكسو وجهه ورأسه، فيزيّن عبّود المشهد بدعابته المعتادة "راحت المرأة تتأمل زوجها والصابون يكسو وجهه ورأسه، رأت شاربيّ الزناتي خليفة نائمين تحت أنفه الأفطس، وقد بانت أذناه بوضوح حين نام الشعر تحت الماء والصابون، فخالتهما مروحتين صغيرتين.. وبلا وعي صبّت الماء بغفلة فانتفض أبو ناصيف بعنف..."[1].

يمضي عبّود في معظم القصة على هذا المنوال فيدخل إلى التفاصيل الدقيقة ويرسم مزيداً من اللوحات للحياة الشعبية القروية مبرزاً في شبه سلك طويل دلائل بيئية شكّلت التراث الريفي اللبناني على مدى قرون طويلة.. وإذا كان أبو ناصيف قد دخل إلى المنزل محتفظاً بحرارة أساليب الحياة العامة للقروي في عمله، فها هو ذا يعود إليه مرّة ثانية بعد اجتماعه ببعض أبناء القرية الحانقين على سياسة الأمير بشير وظلمه للناس ونهبه ثمرة أتعابهم. دخله، كما يقول عبّود "بلا حيّا الله ولا سلّم الله، وأخذ غدّارته وطبنجته وخنجره ومجهريته، ولبس عباءته الجديدة وتلثّم بكوفيته، وأغرق ساقيه في جزمته..."[2]. نجد في هذه الصورة مزجاً لعدّة أمور في سياق واحد.. ولقد حرص عبّود على إبرازها بشقّيها المادي والمعنوي. فهو من جهة يستعرض بعض لوازم المحارب القروي في تعابير وألفاظ أكثر خصوصية وأشدّ التصاقاً بالواقع، ومن جهة ثانية يظهر داخل القروي المتقد حماسة من أجل قضاياه الكبرى وهي الدفاع عن حقوقه، فتراه فارساً مغواراً، فانظر إلى "بلا حيّا الله ولا سلّم الله" وأنظر إلى

---

[1] القصة، ص13.

[2] القصة، ص18. الغدّارة: مسدس بدائي وطبنجة: على شكل البندقية، والمجهرية: البندقية أو البارودة بالشائع اللبناني.

"أخذ" و"تلثّم" و"أغرق" كيف تعبّر عن عنفوان ذلك القروي وهبوبه لنصرة المظلوم ومحاربة الظالم.. بل كيف تعبّر عن العادات التي اعتـاد عليهـا وكأنّهـا أمـر كـامن في نفسه.. يستحضره عبّود ليعكس الأجواء الخاصة بتلك البيئة التي لم يطمع أبناؤها بغير القوت ولم تمدّ يدها إلى معجن فقير[1].. وعبّود كدأبه يلبس موصوفاته اللباس المحلي، فتغدو متممة لبعضها، ليس فيها تنافر وغرابة أو إدخال عناصر خارجية إليهـا، فهـو إذا وصف الدير في قرية "دير القطين" فيقول عنه:"فهذا الدير المكفهرّ الوجه، الملثّم ببرقع من شجر السنديان" و"موقعه الطبيعي صالح لإشعاع الفضيلة والتقوى، تـزيّن جدرانه البرّانية والجوّانية أعشاب مختلفة، منها ما يتدلى ومنها ما يـنكمش عـلى ذاتـه كالشعب حيث يغلب على أمره.. وهو دير عتيق، قائم على كتف غابة من الـسنديان فنسب إليها، وكأنّ بابيه عينان تحدّقان إلى دير معاد الجاثم قبالته على الرابية المناوحة، تنبسط تحت أقدامه بطحاء عين كفاع التي يسمّونها "الوطا" وهي بـستان فيـه التـين والزيتون والعنب والسفرجل والإجاص والتفاح وحواليها من الجهات الأربـع تقـوم قمم رائعة المنظر، فكأنّ تلك الجبال المختلفة الأشـكال حيطـان رفعتهـا يـد الطبيعـة لصون هذه الجنّة الأرضية.. ولقد بني، كما يقول عبّود، على الطراز اللبناني في القـرون الوسطى، وأمامه قبو فيه صفّة من حجر و إلى جانبه آبار عميقـة لجمـع ميـاه الـشتاء وبقايا حجارة معاصر..."[2]. تحتشد هذه الصور بغزارة، تتراص جنباً إلى جنب، يحبس القارئ فيها أنفاسه، ولا يكاد يتوقف عن ملاحقة الصور كما هو الكاتب تماماً الـذي يطربه أن يستعيدها في قالبها الخاص، فتحسّ بالخير العميم يغمرك وتقتطع في خيالـك جانباً مهماً لتسرح في هذه الربوع وتلك الرؤى كأنه عالم من الأحـلام يـستيقظ مـن دفتر الذكريات ويوقظ الحنين إلى الهدوء والبـساطة والطلى نينـة و إلى التقاليـد التـي يتناقلها الناس جيلاً بعد جيل[3]، لتمكث في الوجدان هويّة لم تستكمل ضياعها بعد، فيصرّ عبّود على تقديمها بحلّتها كما خلقتها الأجيـال ونمـا عليهـا الـشعب واعتـزّ بهـا

[1] القصة، ص25.

[2] القصة، ص25-29، والمعاصر: جمع معصرة وهي للزيتون

[3] القصة، ص28.

وافتخر.. أما ساكن هذا الدير فهو كاهن، سمّاه عبّود "الحبيس" لابتعاده مـن البـشر، ليس فقط لأنّه كاهن، بل لأنّه ثائر على الظلم يدير نشاطه من هـذه الـصومعة التـي تذكّر بالصمت الأزليّ للغابات والحقول والبطاح.. صمت لا يقطعـه إلاّ حـسّ البـشر الذين لا تنفكّ أصواتهم تقع في أذن "الحبيس" ليلاً ونهاراً، ضوضى قائمـة قاعـدة، فـإذا نام في الليلة الباردة على الصفّة خفت رنين أجراس البغال وجلاجلها وسباب المكارين وأحاديثهم الماجنة، وإذا كانت الليلة حـارة ونـام الكـاهن عـلى سـطح الكنيـسة في عرزاله..."[1] ، و"الناس هنا وهنـاك في خيـامهم وعـرازيلهم ينطـرون كـرومهم.. ونواطير تروح وتجيء، تسعل وتتنحنح لـيعلم الـسارق أنّ النـاطور سـهران.. وهنـاك فريق من الشباب يعقدون حلقات السمر على التلال والرجامي، شاربين مغنّين.."[2]، أما هذا الكاهن فيصفه عبّود ويضيف إلى وصفه شيئاً من دعابته في حـوار بـين أحـد الفلاحين وأفراد عائلته الذين يقيمون في عرزال يحرسون كرمهم ليلاً، يقول الصغير:

– فزعت يا أمي، طويل، طويل، طويل!

– فقال الأب "قل مثل المارد".

– فضحك الإبن وقال:" أطول يابا، لحيته ذراع، مروّسة تصل إلى زنّـاره، حـسبته بلا بوز قبلما تكلم، الـشرار يطـير مـن عينيـه، مـا تطلعـت صـوبه حتـى رجفـت عظامي"،

– فقاطعه الأب وقال:"مثل الحشيش يبست"[3].

---

[1] القصة، ص28، ضوضى: وردت هكذا وهي في الأساس ضوضاء والمكـارين: مـن ينقلـون الأمتعـة على ظهور البهائم لقاء أجر، والعرزال: غرفة صيفية محبوكة من أغصان الأشـجار وورقهـا، تقـام عـلى سطح البيت أو أي محلّ مرتفع، وهي عادة شائعة في القرى اللبنانية.

[2] القصة، ص29.

[3] القصة، ص30.

ولا تمضي الليلة القروية دون غناء وعزف.. فتلك من تسليات المجتمع آنـذاك يلجأ إليها الناس وكأنّها أمر ثابت في تعاطيهم اليومي بعد العنـاء وصـولاً إلى الراحـة، وكأنّها تحلّ اليوم محلّ الوسائل الإعلامية التـي أخـذت تعـوّض النـاس فنيـاً عـن تلـك السهرات الساذجة والعفوية.. ففي هذه اللوحة القروية التي يرسمها عبّود في ليلة من ليالي زمان، يصوّر معظم الناس خارج بيوتهم في ليلة صـيفية، ينـامون في الحقـول، في حضن الطبيعة لهم شأن واحد هو الوفاء بحاجاتهم والسهر عليها، فالكـاهن مكلّـف بشؤونه الدينية والأخرى الثوريـة، والمكـاريون بنقـل الحـوائج، أمـا الأسر فتقـضي لياليها في السهر والسمر والحراسة.. وقد يجتمـع "زمـرة" مـن الـشباب مـن عـدّة أسر وتتعاون على الحراسة، وتقضي الليل في أنس وسمر وغناء، فكانت هناك أيضاً تـستمع إلى صوت أحد المكارين الرخيم، هي زمرة من الشباب الساهرين على البيادر أصغت متعجبة بصوته، وما سكت حتى صاح به شاب من فوق ذروة: عشت، عشت، سمّعنا. سكتنا حتى نسمعك، فلا تسكت أنت، فيئس الشباب من المكاري فاستأنفوا أغانيهم من عتابا وميجانا ومواليا، أغاني عشق وغرام[1].. لا تغادر صفحة من صفحات القصة إلاّ ويطالعك مشهد قروي.. وهذا يتما يج مع وصفها بأنّها قروية، بطلتها القرية، وما الحدث فيها إلاّ محطات يجعلها عبّود استثنائية، لا تنمّي الـسياق كثـيراً بقـدر مـا هـي إشارات لمتابعة عبّود حكايته عن القرية بكل ما فيها.. فهو، كما هو وصـفه، الآنـف الذكر، يعود إلى عادات أخرى فيصوّر الطقوس الدينية ويتوغّـل في عـادات الأعيـاد ويـذكر التفـصيلات الدقيقـة حـول مقتـضيات هـذه الأعيـاد والمناسـبات بأسـلوبه المداعب والمتهكم والمنتقي لكلام خـاص معـبّر عـن خـصوصية القريـة[2]، لاسـيّما قريته "عين كفاع" حيث يستعد الناس للعيد، لهذا اليـوم المحجّـل[3]، فغـسل بيـاض

[1] القصة، ص30-31.

[2] القصة، ص: 34-35-36-47-48...

[3] المشرق.

الفرش، ونظفت البيوت ورتبت أحسن ترتيب، وهرم [1] التبغ الجبلي، وعين كفاع أشهر قرية بهذا الانتاج، وفي ذلك قال الزجّال في ذلك الزمان:

خد عملّك سيكاره — تتنـــات رفـاع [2]

من دارة حنّا بشارة — في عيـــن كفاع

يصف عبّود حال الناس في احتفالهم الجماعي بالعيد ويذكر التعاون والروح المشتركة التي تحدو الجميع في تقديم صورة تراثية شعبية اعتاد الناس تقديمها: أشرفت الشمس على الغروب فامتلأت الضيعة ناساً حتى كادت تضيق.. ارتفع الغناء فسكت الجرس واشتدت العربدة.. حلقات حلقات على الرجامي[3] وعلى مصاطب [4] البيوت.. النبيذ والعرق[5] يصبّان كالماء، ورائحة اللحم المشوي تملأ الأنوف، وقرع مدقات الكبّة[6] يصم الآذان.. واشتد الرقص حول الكنيسة على وقع التصفيق والزمر والغناء، فاختلط كلّ ذلك حتى ألف وحدة لا تتجزأ، وكان أبرز شيء رقصتنا البلدية: الدبكة، شباب وفتيات، بجانب كل فتاة فتى يمسك بيدها بأطراف أنامله.. يكرون ويفرون، يقبلون ويدبرون، يشرئبون وينكمشون.. والزامرون تنتفخ بطونهم كالقرب من شدّة النفخ[7]..

يطول بنا الحديث عن هذه الصفحات التراثية الشعبية في "الأمير الأحمر"، صورة تجلب أخرى ومشهد يغري بالانتقال إلى آخر، وحنين داخلي يصحو مع كل لفظة وعبارة ومشهد، يذكرها عبّود إمعاناً بإثبات الشخصية التراثية وتأكيداً على أنّ

---

[1] قطع قطعاً صغيرة.

[2] القصة، ص49؟ تتنات: تبغ.

[3] الرجامي ثلة من الحجارة.

[4] مكان ممهد قليل الارتفاع عن الأرض.

[5] العرق والنبيذ من مصنوعات الخمور اللبنانية.

[6] نوع من المآكل اللبنانية يصنع من اللحم النيء والسميد وبعض التوابل.

[7] هذه المقتطفات من القصة، ص 48-49و 50.

كثيراً منها يجب أن يحيا لاسيّما تآلف النـاس وتعـاونهم عـلى صـنع الفـرح وتقـديمهم أنفسهم وبيئتهم وما صنعوه على مرّ الزمن مشرقاً حيّاً على أنه الأفضل والذي ينبغي أن يبقى.. يـستوقفك في ذلـك كلّـه عـادات القريـة وتقاليـدها وشـكل أبنائهـا وطرقهـا ومعابدها وأحوال الناس وتأبطهم بعضهم كما يتأبطون أشياءهم الـصغيرة والكبـيرة، المادية والمعنوية، فإذا منازلهم على طراز معين وسطوحها من طين وثريّاتها مـن قـش وقطن وعجين وتربتها حمراء وبهائمها واضحة كأهلها، هي بقر وماعز وخرفان وحمير وبغال، تشارك الناس حياتهم وتعيش في منازلهم.. أناس يفترشون التراب ويجعلون من الحجارة مقاعد لهم ومن جذوع الـشجر بيوتـاً (عرازيـل) ومـن الكهـوف والمغـاور أماكن للعبادة والثورة والسكن.. ومن الطيور المنوّعة أصـدقاء وأعـداء، مـن حجـل وغراب وترغلّ وأبو زريق وحسّون.. أطيار مختلفة في أصواتها وأشكالها وأحجامها.. وحيوانات صغيرة تسرح في الحقول حيث القرقضون (السنجاب) يناجيك، ويترنم لك ليلفت نظرك ويغريك جماله الفتّان.. والماء يسير رقراقاً ينسلّ من الينابيع ويترقـرق في جداول وسواقي وأنهار.. ومواسم الخروج إلى الحقول لا تنقطع للعمل حينـاً والـصيد حيناً آخر والتنزّه والسهر والحراسة بشكل دائم على تلك الأرض التي اخـتلط ترابهـا الأحمر بصخورها الصماء الأزلية التي تشهد وطـأ النـاس وقيـامهم وقعـودهم ونـومهم وأجيالهم المتعاقبة.. كل يترك أثره.. وكلّ يتحوّل معطاء وكريماً وذا أخلاق وقيم كريمة مثلها.. دلالات بيئية كثيرة ومكثّفـة تـشير إلى عظمـة الإنـسان وتفانيـه في المحافظـة عليها، حشدها عبّود وفي ظنّه هي الأبقى وهي ما ينبغي البحث عنه بديلاً لكثـير مـن الأمور أو أساساً لما ينبغي أن يتطوّر ويبقى شاهداً على أصـالة الإنـسان وخـصوصيته التي لا تجدها في مكان آخر غير المكان الـذي ولـدت ونمـت فيـه.. وهـي مـن صـنع مواكب كثيرة من الناس ارتضوا بها وجعلوها عنواناً لتقدمهم ورمزاً لوحدة مشاعرهم وأحاسيسهم وعقولهم ولصنع أيديهم.. ولابتهاج نفوسهم في جماعية نادرة تتحـد لتقـدم

القيم والأشياء المفيدة من البسيط إلى المعقد، من التباري بحمل الجرن وضرب السيف[1] إلى الثورة ضد الظلم ورموزه.

الأمثال التراثية الشعبية: وإذا كانت هذه الدلالات البيئية شديدة الكثافة، فإنّ الأمثال الشعبية في القصة أكثر كثافة وأكثر تركيزاً.. ترد بشكليها الفصيح والعامي وتكسب أثر عبّود لوناً خاصاً هو لون القرية اللبنانية وما استفادته من خبرة وتجارب وصاغته ملخصاً على شكل أمثال ومواعظ وحكم، تزخر بدورها باللون المحلّي الذي يحا الناس والأرض والبيئة الاجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية.. كما تعكس أوضاع الناس وتعطي وصفاً قريباً من أساليب حياتهم ونشاطهم وقيمهم وعاداتهم وتقاليدهم..

هذه الأمثال التي اكتنزت بها القصة عند عبّود لا تختلف كثيراً عن أسلوبه هو بالذات، مع العلم أنّها مأثورات شعبية هي من صنع الناس وليست من صنع عبّود نفسه.. وهو الذي يحاول أن يفصّح العامي ويعمّم الفصيح، وهاجسه في ذلك هو الالتصاق بالتجربة الشعبية والنسج على منوال الحياة كما تجري في الواقع، فغدت نسيجاً خاصاً بعبود وعامّاً من عمومية الناس. اختار عبّود أمثاله لتوافق مزاج بطلته الرئيسة القرية، فكساها بلونها ووضعها في حضنها، فجاءت ملائمة لما يذهب إليه في نسقه القصـ لأ.. فمن الأمثال التي اختارها في سبيل الملائمة قوله:"ما أكرم الأرض أطعمها تطعمك" و"بعد الصليب كلّ أخضر يسيب" و"لو كان للصيف أم كانت تبكي عليه"[2]، "أكبر منك بيوم أخبر منك بسنة" و" العين لا تقاوم المخرز" و"العامية عمى" ولكل "ساقطة لاقطة"، و"قيل: سأل الحيط الوتد: لماذا تشتكي؟ فقال له: إسأل من يدقني" و"بساط الصيف واسع" و"فلان كرم على درب" و"النجيب لا ينجب" و"الدارس غلب الفارس"[3]..

---

[1] القصة، ص63.

[2] القصة: على الصفحات: 11و 12.

[3] القصة: الصفحات: 17، 19، 23، 39، 42، 52، 94، 122، 154.

وهذه الملائمة نجدها باللغة الفصحى، وتتواجد في سياق القصة عندما يتولى عبّود الحديث عن شخصياته سردياً، فيبسط في تاريخ الحوادث ويقدّم معلومات خاصة عن شخص أو ظاهرة أو تقديم معارف معينة يراها مناسبة، وكأنّي به يتبع قاعدة البلاغة "لكل مقام مقال"..

على أنّ فصحى عبّود هي خاصة أيضاً، يختار ألفاظها وتعابيرها من معجم خاص مبسّط، مما يتداوله العامة، لكنّه فصيح، بحيث تشعر وأنت تقرأه بأنّه عامي، ولو تأملت فيه وتقصّدت قراءته بالفصحى تجده فصيحاً.. تلك هي محاولة عبّود الناجحة في حديثة عن التراث الشعبي. لقد استطاع أن يعبّر عن التراث بلغة التراث نفسه، فنقله كما هو بغية الحفاظ على الألوان والأشياء والأحداث والشخصيات والبيئة وهو ما وصفته الدكتورة يمنى العبد "بالدور اللغوي الهام"[1] في مهمّة عبّود التطويعية للغة تماشي التراث، وهي اللغة "المحلّية الفصحى"[2] وبهذا المستوى "استطاع عبّود، وهو المتضلّع بالفصحى، المعايش بوعي للعامية، المعلّم الخبير بأصول الكتابة، أن يردم الهوّة التي حاول البعض إقامتها بين العامية والفصحى، ومع ذلك يبغون قطع فئات الشعب، عن جذورها التاريخية، وعزلها عن هذه الجذور ومن ثم تمكين أصحاب المصالح المرتبطين بالاستعمار، من توجيه هذه الفئات في الاتجاه الذي يودّون"[3].

ولقد أشار نظير مارون عبّود في مقدمة "الأمير الأحمر" إلى هذه المسألة، فوصف كلام والده بأنّه "أدب ريفي لبناني مطبوع بالعفوية واللون المحلّي".. وكلماته منحوتة من الفصحى بالأسلوب العامي الطريف الذي اختصّ به.."[4].

---

(1) ممارسات في النقد الأدبي، د. يمنى العبد، ص 245، دار الفارابي، بيروت، 1975.

(2) المرجع نفسه، ص 245.

(3) المرجع نفسه، ص246.

(4) القصة، المقدمة، ص7.

أما اختيار عبّود من الأمثال العامية فقد كان أيضاً من لوازم الصورة القروية وألوانها المحلية، ولم يجد بدّاً لعبّود من إدراجه على هذا الشكل، لا حبّاً بالعامية وهرباً من الفصحى، بل إمعاناً في الواقعية التي امتاز بها وحرصاً على نقل الحقائق كما هي.. ومن ذلك :" أيلول طرفه بالشتا مبلول" و"أكلة تين مشبعة، ودّعوا الصيف" و"لا نعرف أصله وفصله" و"إنّ رصّ البصلة على الميز أصعب من رصّ الهامة" و"مثل الحجر بين شاقوفين" و"انخلي يا ليلى واعجني يا زمرّد" و"يديه التنتين" و"اسقيك بالوعد يا كمّون" و"وعد بلا وفا"[1].. المتأمل في هذه الأمثال وسواها يجدها كما قال نظير مارون عبّود أنّها فصحى منحوتة، فكلمة بالشتا أصلها الشتاء، سقطت منها الهمزة وأصبحت تلفظ بالعامية على هذا المنوال "شتا"، والمثل الثاني، إن شئت تقرأه بالفصحى وإن شئت تقرأه بالعامية والثالث والرابع والسادس والثامن.. فهي أمثال تقرأ على الوجهين.. أما مضامينها ومفرداتها وتعابيرها فهي مستقاة من الحياة القروية، تمثّلها في وقائعها وتداولها وأمثلتها وتصويرها.. فالحرص على أكلة التين في نهاية الموسم مهمة للقروي، بها يعرف انتهاء الصيف ومجيء الخريف، وهي مقولة تغوص في أعماق العادات لتظهر أمراً يتباهى به القروي ويتحسّر عليه في الوقت نفسه.. أما أنخلي يا ليلى..." فهو أيضاً من العادات القروية إذ دأب هؤلاء على صنع خبزهم بأيديهم، وهي عادة شعبية فولكلورية عند اللبنانيين، فقبل وضع العجين على "الصاج" أو في "الطابون" ينبغي أن ينخل الدقيق ومن ثم يعجن.. وهي لوحة أخرى من لوحات الحياة الريفية تعطي مثال عبّود من الحيوية والتتبع ما يفتح أغلاق النفوس على زمن مضى كانت فيها الأمهات تصنع الخبز وتطعم الأولاد والمارّة منه وهو ساخن.. وهي حفلة صغيرة لها من الاعتبار الشيء الكبير.. في هذه الأمثال يبدي وفاءه للتراث الشعبي والقيم التي رافقته، فيعود بنا إلى القرية، لنتحسس الصدق والبساطة والجمال والطبيعة.. وقد يجري عبّود بعض التعديلات على أمثاله وعلى لغته عموماً، فيقربها من

---

[1] هذه الأمثال تجدها في القصة على الصفحات: 11، 12، 39، 75، 88، 94، 96.

هذه الطبيعة التي أرادها كما هي دون تعديل، فيجـري التغيـير في الألفـاظ لـصالحها لتبقى في رونقها ونكهتها الخاصة.. وتبقى الألفاظ في أصالتها دون ابتذال أو إسفاف..

شعبية الأماكن: وللتدليل على واقعية الحادثة وشعبية المنحى وإبراز التراث على حقيقته، لجأ عبّود إلى المكان وانطلق منه أرضية صالحة للوصول إلى ما يريد، فكان المكان الإطار المنطلق لإثبات ما يذهب إليه، بل غدا هذا المكان مرتكزاً يشدّ إليه كلّ الظواهر واللوحات والصور والأقوال.. لتكون القرية-المكان البطلة التي أرادها، مشرقة تنضح بالحياة وتقف دليلاً على الأصيل وإمكانية إدخاله في مجال المعاصرة عنصراً أساسياً في تركيبها، وأنّ ما تغيّر هو الإنسان نفسه في مظهره وفيما تلقّاه من أمور نمت على هامش تطوره الحقيقي..

والمكان العام للقصة مجاله بلاد جبيل، والرحلة الأولى تبدأ من مكان ضيّق، من بيت أبي ناصيف، لتتسع وتشمل مجمل القرى التي تضمّها بلاد جبيل ولتكون مسرحاً متعدّد الغايات، يحتوي على القرية- الشخصية الرئيسة وعلى الأشياء المتشابهة في القرى المنتشرة وعلى وحدة التراث الشعبي المتمثّل بمجموعة كبيرة من متعلقاته التي أجملها أبو ناصيف بقوله:"ما أكرم الأرض وما أوفاها" [1]، وأوضح السرد الزمن الذي حدّده بالخريف، فأظهر تلازم كلّ من المكان والزمن ليستقيم الحديث عن تاريخية الأماكن وأساليب حياة الناس العامة.

ثم يتحرّك الحدث وينتقل إلى أماكن أخرى كثّفها عبّود إشـارة منـه إلى إنعـاش البيئة القروية كلّها.. ويمكن أن نثبت قائمة طويلة بأسماء هذه القرى والأمـاكن وفي مقدّمتها عين كفاع وحاقل وجبيل وقراها والبترون وكسروان وجبّـة بـشرّي وولايـة صيدا ودير القطين ووادي الرهيب ودير مـار عبـد الحـرش وضـهر صـغار وكفيفـان ووادي حربا وأضاليا والكراسي وترتج وبجّة وتولا وبلاطة الـشالوق وبـسبينا وعـين

---

[1] القصة، ص11.

شـمونا والخاربـة والـسبيل واللقلـوق وقرطبـا وبعـشتا وأسـكلة وقـصر بيـت الـدين والمختارة وبعقلين ودير القمر..

ولقد استفاد عبّود من هذه الكثرة المكانية ليسمح لنفسه بالتبسيط فيما يذهب إليه في رسم صورته للقرية وليتيح التحرّك في غـير اتجـاه وهـو يلـمّ شـتات خـصائص القرية وخـصوصيتها والانجـذاب باتجاهها والتعلّـق بهـا.. وأبرزهـا في تقديمـه هـذا تاريخية المكان وتفاعل الزمان والمكان.. وهو تفاعل يمتد إلى المـاضي الغـابر ليلتـصق بالحاضر ويؤسس للمستقبل المتمثّل بضرورة تحرير هذا المكان.. وجـاء هـذا المكـان على أشكال متعدّدة.. فثمّة المكان الذي يرد اسمه وروداً عابراً، والمكان الـذي يجـري فيه الحدث ويركز عليه الـضوء ويـشكّل وقفـات مـن الكاتـب يغـوص في تفاصـيل الحديث عنه، والمكان الذي وضعه عبّود في مخيلته وهو القرية اللبنانيـة التـي أراد أن توضحها التفاصيل الأخرى ليخرجها بالحلة التي يريد، صانعاً مكاناً جديداً مركباً من كل هذه التفاصيل التي سمحت له أن يخرج سماته مـن المـاضي والحـاضر والمـستقبل المجهول..

وفي هذا التنوّع المكاني كان عبّود يسلّط الضوء على أمكنة بعينها، لا يغادرهـا إلا وقد استوفى الحديث عنها: بيت أبي ناصيف وديـر الكـاهن الحبـيس وقـصر بيـت الدين وكنيسة عين كفاع والساحات العامة.. كلّها شكّلت رؤيا عبّود فجعلته يركـز ليستطيع إلتقاط الصور ويجمعها في نطاق واحد. وهذا يعني في رؤية عبّود أنّ المكـان يحتفظ بدور خاص أو وظيفة خاصـة أسـهمت في نقـل المـادي والروحـي وأطلقـت دلالات وإيحاءات خاصة شعورية تعاطفية مع الجميل في التراث الشعبي مـن خـلال جمالية المكان نفسها ومن خلال التمسّك بها والحفاظ عليها، ذلك مـا ظهـر في الثـورة على ممارسات الأمير الأحمر لدى تعاظم استغلاله للناس ولهذا المكان على حدّ سـواء.. وذلك ما ظهر في تعلّق الناس ببعض الأمكنة، بالإضـافة إلى دربـة عبّـود الفنّيـة التـي أوحت للقارئ بأنّ المكان كان واقعياً ملموساً وليس مهجّساً.. مع العلم أنّه أضاف إلى

هذا المكان من الأوصاف والسمات التي جعلت القارئ يحسّ بوجودها فعلاً في مكان واحد هو القرية.

الصورة الدينية: عندما نتحدث عن التراث الشعبي لا تغيب الصورة الدينية بل تشكّل عنصراً أساسياً في التعاطي مع موضوع التراث.. ذلك أنّ الشعور الديني رافق الإنسان منذ وجوده واستمرّ بنمو ويتعاظم إلى وقتنا الراهن، ضمن مفاهيم ومنطلقات متغيّرة ومتبدّلة عبر الزمن. وهذا العنصر حاضر من بداية القصة حتى نهايتها على شكل أماكن عبادة وعلى شكل رهبان وقساوسة وكهنة وفي تعابير دينية مختلفة وطقوس وأناس عابدين واعترافات وعادات وتقاليد وأشياء عديدة تدخل في طريق التدين وتعين عليه..

والملفت في "الأمير الأحمر" أنّ رجال الدين يسهمون من قريب أو بعيد في الأحداث.. وعمّ أبي ناصيف خوري متهاون ينصحه بأن يكون انتهازياً، أي الخوري مع الأمير بشير والشدياق مع الأمير يوسف، وهكذا ينجيان إن وقعا في مشكلة كل يدبّر أمر الآخر.. وبالطبع يرفض الشدياق هذا العرض ويصرّ على موقفه في مقاتلة الأمير..

أما حبيس دير مار عبدا الحرش فهو خوري أصيل جنّد نفسه من أجل الأرض ومن عليها وقرّر محاربة الظلم.. يظهره عبّود تقياً ورعاً يتناول سبحته الطويلة من جيبه الرهباني البعيد القعر ويصلّب يده على وجهه ويشرع في الصلاة ويظلّ حتى الفجر"[1]. يحبّه الناس ويثقون به.. أما الخوري يوسف اسطفان فهو شخصية متنقلة متغيرة، تارة هو مؤمن وطوراً هو ثائر.. أحياناً هو انتهازي ووصولي ونادم على بعض أفعاله.. يظهر بغير اسم، وكل اسم له مميّزات مختلفة.. فهو في حيرة من أمره، مطارد من الأمير لكنه يطمع في رضاه والعفو عنه"[2]. والخوري بطرس متذبذب يخاف سطوة الأمير فيطيعه لتأمين مصالحه[3].. أنماط عديدة من رجال الدين يظهرهم عبّود لغرض الكشف عن

---

(1) القصة، ص32.

(2) القصة، ص31.

(3) القصة، ص36.

مواقفهم.. وهي مواقف تتحدد بناحيتين أساسيتين: الإيمان الحقيقي والآخر الموظّف في سبيل الغايات الشخصية.. وفي الأغلب هي مواقف تتحدد بالموقع من السلطة الجائرة.. والملفت في الموقف الديني هو الدور الذي يؤدّيه الحبيس.. وهو يمثّل التراث الحقيقي والدائم للدين.. ذلك أنّه جمع بين الإيمان ومرضاة الله والناس، فغدا في نظرهم المثال الذي يجب أن يتّبع.. فهو الذي يقيم الصلاة بشكل دائم ويتلو فرضه، ويتجمهر الناس لسماع قدّاسه، ويتلو الإنجيل ويستجيب لطلبات الناس دون مقابل[1]، وهو الذي يقرن قوله بفعله ولا يكتفي بوعظ الناس بل يشترك مع الثائرين بأعمال المقاومة ضد عسكر الأمير.. وهكذا فإنّه يجمع الدين والسياسة مع أنّه يعتقد أنهما لا يجتمعان إلاّ لغرض غير ديني.. والقصة تنقل لنا أجواء المعابد الدينية، عادات الصلاة واللوازم والإجراءات وعلاقة الخوري بالناس وبالعكس، وهو واقعي يبعد الناس عن الترهات والأباطيل والأوهام[2].. أما الخوري بطرس فيبدو من وصف عبّود له أنّه وصولي وانتهازي ومتذبذب في مواقفه، وهو يمثّل الوجه الآخر للحبيس، وينال الكثير من تهكم عبّود عليه[3].. على الرغم من أنّ ماضيه كان يشهد بتقواه وحرصه على الدين ومحبة الله والشعب، وكيف كان يعمل على بثّ روح مبادئ الثورة الفرنسية بين الشباب وكيف حاول أن يعظ الأمير ليكفّ عن ظلم الشعب، وأنّ الشعب خير له من الإقطاعيين الذين يستعين بهم على تدويخ الرعية وإذلالها، ثم كيف كان الأمير لا يعمل بهذه النصائح ولا يبالي إلاّ بالكرسي، ولا يهمه إلاّ استرضاء هذا الزعيم، وذلك لإشراكهم في المنافع والحكم لتظل له الكلمة الأولى.. فأصبح بذلك يمتلك الشريعة والحكم[4].. إلاّ أنّه يندم على تركه الأمير لأنّه كان أميراً في ظلّه[5].

---

[1] القصة، ص32.

[2] القصة، ص32.

[3] القصة، ابتداء من صفحة 34 التي بعنوان "سياسة الخوري بطرس".

[4] القصة، ص39-40.

[5] القصة، ص40.

الشخصية التراثية: غدت القرية في هذه القصة الشخصية التراثية الشعبية الأساسية ترفد المقولات المختلفة عن الزمان والمكان والشخصيات الحقيقية القروية.. وقد انجلت صورتها التراثية الشعبية في وضوح تام، على الرغم من توظيف عبّود الإمكانات كلّها من أجل إبراز هذه الصورة.. أما الشخصيات التي انتدبها عبّود ليدير الحديث حولها فأكثرها أهمية شخصية الفلاح التي بدت واضحة القسمات في شكلها ومظهرها.. ففيها عنفوان القرية، ترتسم على وجهها الملامح الأساسية التي تؤهلها لتكون كذلك، فهي خشنة الوجه واليدين، قوية الساعدين تقوم بالأعمال القاسية لأنّها تلائمها، وتحمل الأحمال الثقيلة دون شكوى، تتحلى بالصبر والكفاح من أجل العيش الأفضل، ملابسها تقليدية: عبارة عن سروال وعباءة وكوفية وجزمة ولبادة.. عملها الأساسي في الفلاحة والزراعة، تطوي النهار برفقة الأرض والشجر والأعشاب والبهائم، تغدو باكراً وتعود مساءً.. وعدتها هي عدة القرى من معول ومنجل ورفش ومقص وبعض البهائم كالحمير والبغال، والحيوانات الأخرى الأليفة كالبقر والخرفان والماعز.. وبيتها من صخر مبني بطريقة تراثية خاصة، وسقفه من جذوع الشجر ومن تراب الأرض المحوّل إلى طين، تستقر عليه محدلة تسوِّيه وتحفظه من عاديات الزمن..

هذا القروي مسلح بقيم خاصة كالشعور بالعدل وكره الظلم والتمسك بالقيم الخاصة التي ورثها القروي وأضاف إليها ما يعزز انسانيته وتعامله الطيب مع الآخرين.. لذلك بدا بسيطاً وقوياً في آن، مستكيناً وثائراً في آن آخر، مقتنعاً بأساليب حياته وغير مقتنع بمن يفتئت عليها.. لذلك تراه كريماً يحب قرى الضيف، شجاعاً يحل مشكلاته بنفسه.. ترافقه شريكة حياته المرأة وأولادهما إن كان لهما من أولاد، وهي بدورها مطيعة تقوم بعملها في البيت وتشارك زوجها في الحقل.. تصون الشرف وتأو ذلّه.. ومن خلال قراءة القصة يتبدى أن الأمير بشير هو من الشخصيات التي تدور حولها الأحداث وتتجه إليها.. إلا أن المتابعة حتى النهاية تظهر أن عبود لم يضف جديداً إلى شخصيته.. فما ورد عنه معروف في التاريخ..إلا أنّ عبود استفاد من

شخصيته ليسهب في الحديث عن القرية متمثلاً ببعض الشخصيات وبعض الأحداث ليظهر الحركة التراثية الشعبية القروية في كل ما يمت إليها بصلة. لذلك بدت بعض الشخصيات غير تراثية، نصادفها في كل زمن، أي تحمل السمات العامة التي تتجلى في الحاكم الظالم وربما كان الاقطاعي على وجه التحديد.. أما الشخصية الدينية فهي أيضاً منقسمة منها ما هو تراثي ومنها ما هو مستمد من واقع جديد فرضته الظروف ليؤدي دوراً معيناً..

وثمة الشخصية الشعبية العامة، فهي تظهر مجتمعه في أحيان كثيرة.. وهذا ما ينطبق على العصابة أو مجموعة الشدياق سركيس المتمردة الثائرة الفقيرة.. وهي مثل رئيسها في مواصفاتها، قروية وفلاحية وتراثية شعبية بريئة تثور ضد الظلم وضد الفقر وتتمسك بالموروث والعادات وتحاول المحافظة عليه.. كما ينطبق أيضاً على جموع الناس الذي يتجمهرون في ساحة الدير وداخل الكنيسة. فهم يحملون التقاليد الدينية التراثية ويؤدون فريضتهم عن طيب نفس ويبحثون عن رجل الدين المخلص لإيمانه يمثلهم أو يقودهم أو يعترفوا له ويكون موجها لهم، يدلهم على الاصالة ويعيدهم إلى سيرة المسيح عليه السلام. وتستمر "العصابة" في تأدية دور تراث شعبي آخر، علاوة على دورها المنوّه به آنفاً.. فهي تتمثّل في مكان آخر بجوقة من النّوَر التي تجوب البلاد مقدمة عروضها الفنية التراثية.. وقد قدّمها عبود استكمالاً للصورة التراثية التي أراد إبرازها.. ففي جولة الأمير بشير في القرى المجاورة كان يرى في طريقه العطارين يحملون الأقمشة وغيرها من لوازم أهل القرى ليبيعوهم ما يحتاجون إليه منها، إما مقايضة أو بالمال.. وسمع من هؤلاء بائعاً ينادي: معنا حلاوة راسين براس يا حلاوة .. ولما وصل كفرنبرخ رأى تحت سنديانتها جوقة نَوَر معهم دب وسعدان يرقصونهما... فأدرك المعلم بطرس أن حركات رقصهم وطبلهم وزمرهم وألعاب قردهم ودبهم تروق لصاحب السعادة، فغمز النوَرِي الأكبر، فهب ذاك مثل النسيم وصاح: على شان سعادته. فانتفخت القربة، في فم أحد رجال الجوقة، وانتفخ معها خداه وبطنه، فضحكت الحاشيه وانبسط وجه الأمير.. وعاونه – الزمار والدف

المخشخش، ثم رج الطبل، فترجل الأمير لأنه كان يحب المطربات البلدية، وخصوصاً الضخم من أصواتها.. ولما رأت جوقة النور أن سعادته مرتاح إلى حركاتهم استخفهم الطرب، فكان دبهم أخف من الطير، يقولون له امش مشية العجوز فينحني على عصاه ويكاد يدب، ويقولون له امش مشية الصبايا، فيتغندر ويتخطر مثل بنت خمسة عشر، هازاً المحرمة وفي رقبته فوطة.. ويسألونه: كيف عجن الصبايا، فيقعي (جلس على مؤخرته) ويأتي بتلك الحركات، ويطلبون منه أن يمشي مشية الناطور فيفعل[1]...وهو مشهد التقطه من عدة صفحات بهدف تقديم لوحة أخرى من اللوحات التي أراد عبود أن تكون سمة من سمات القرية وناحية فولكلورية من نواحيها ومظهراً من مظاهر تجمع الناس حولها وانسجامهم معها.. وقد كانت وجها آخر للعصابة تظهر تأصل هذا الفولكلور في فئات الشعب..

اللغة الحوارية والسردية: سأتناول هذا العنوان في ضوء ما أداه عبود في قصته أسلوبياً من وجهة تراثية شعبية وهي ميزة من ميزاته في مجمل كتاباته القصصية. ومن الواضح أنه لابراز موضوعه الرئيس: القرية قد عاد إلى أجوائها واستقى منها فضاءه النثري فأخرج قطعة أدبية شديدة التلائم مع عالم القرية في كل ما عرفته من أساليب الخطاب.. وهو بداية قد غرف من هذا المعين الشعبي المحلي المختزل بعادات وتقاليد وقيم وجَّه خطابه باتجاهها.. ولقد جاءت لغة السرد بعدة أشكال: الحوار المباشر والسرد غير المباشر وتقديم المعلومات والاعتماد على إيحاءات وصور استعمل فيهاخياله الخصب الذي ساعده على إخراج اللوحات القروية، فغلف بها الحدث وأوحى بواقعية الوصف. بالإضافة إلى اعتماده على التداعي واستعمال الزمن في صِيَغه الثلاث: الماضي والحاضر والمستقبل.. وقد عوّل عبود على أسلوب خاص هو من ابتكاره يقوم على عملية المزاوجة بين الفصحى والعامية وتفصيح العامي. وتحويل العامي إلى فصيح.. ولقد عكس هذا الأسلوب قدرة عبود الابداعية التي وظفها ليخرج أثره قريباً من الواقع القروي بغية إخراج هذا التراث الإنساني بصيغ قريبة من الفهم والتداول،

(1) القصة،ص132 و133 و143.

بحيث يدرك القارئ أنه يعيش في أجواء خاصة مستمدة من الواقع، فغدت العبارة قروية واللفظة مشدودة إلى عرف لغوي تأصل في فئات معينة من المجتمع والتصق إلتصاقاً واضحاً بالشخصية التي تؤدي دورها ولا تخرج عن نطاق بيئتها.. فيكون بذلك قد سجل للفصحى " طاقة التطور وطواعية في التعبير على مختلف مستوياته، كما أثبت للعامية قدرة على انتظام قواعد الفصحى، والتهذيب بقوانينها، تكتسب بهما نصاً أدائياً ومنطقاً تعبيرياً، فإذا هي في الفن أداء يحقق للعربية تطوراً وللتراث استمراراً، وللشعوب العربية الواسعة مشاركة.."[1]

ولقد حقق عبود ما ذهب إليه في كتابه "في المختبر" عندما قال: شرط التأليف كشرط الجمال والنسق ثم التناسب والتلاحم"[2].. عاكساً بذلك دأبه في الكتابة بوضع شروط معينة لإخراج الأثر الأدبي، حيث تضافر الأداء اللغوي مع الشروط التي وضعها ليكون أسلوبه الفني جامعاً بين عدة أمور قصدية في الكتابة.. فيكون الخلق الفني هدفاً رئيساً لديه: "علينا أن نخلق كما خلق القدماء"[3]، بحيث يصبح "الأسلوب هو الكاتب"[4].. والكاتب مارون عبود أحب البساطة وأحب القرية وأولع بالجمال والتناسب والتلاحم والتآلف، وجبلت ثقافته بالتراث العربي، فأراد أن يحقق شخصيته في الكتابة فكانت تتأرجح بين العامية والفصحى، العامية التي عرفّها بقوله "لغة تدور على الألسنة وبها تتفاهم الأمة المختلفة الأقاليم"[5]، ولقد كان ابتكار مارون عبود، كما يقول رئيف خوري أنه "رفع كثيراً من العبارات والكلمات، بل الألفاظ العامية اللبنانية إلى مستوى اللغة الأدبية الراقية"[6]، وهو ما أراد عبود التعبير عنه ليلائم بين الحياة والفنّ في الدور الذي تؤديه اللغة "إن الشعور بالحياة

---

[1] ممارسات في النقد الأدبي، يمنى العيد، ص 246.

[2] في المختبر، مارون عبود، ص 74، دار مارون عبود، بيروت.

[3] في المختبر، مارون عبود، ص74.

[4] المصدر نفسه، ص115.

[5] الشعر العامي،ن مارون عبود، ص39 دار مارون عبود، بيروت.

[6]من مقال لرئيف خوري حول مارون عبود نشر في "التلغراف" في بيروت بتاريخ 20/ 5/ 1963.

و إدرا كهــا الكامــل لا يكونــان تــامّين إذا عــبّرت عــنهما بغــير اللغــة الــدائرة عــلى الألسنة"[1].. وكان يقينه يؤكد له أن "على ألسنة اللبنانيين تدور تعابير قرشية النـسب لا تحصى"[2].. وأنه يكتب في هذه المزاوجة بين العامية والفصحى انطلاقاً من اعتماده على التراث الشعبي اللبناني اللغوي، المستمد من أرض الواقع قبـل أن تـدخل الحـضارة الحديثة إليه: "فقد تكون لهجة لبنان أنقى اللهجات وأقربها إلى الفـصحى لانكـماش اللبنانيين وتقلصهم في جبال وعرة. هذا ما كان أما ما سيكون، فمن يدري؟ إن سهولة المواصلات ومطامع الشركات والمهاجرة، قد تؤدي إلى إفساد لهجتنا، واللـه أعلـم"[3].

و يسوّغ لنفسه استعمال اللغة بهذا الشكل الجديـد الـذي ابتكـره، وضـع في كتابـه "الشعر العامي" نظرته المرتكـزة عـلى أمـرين أساسـيين: حيويـة اللفظـة أو التعبـير وتراثيته الشعبية من جهة ومن جهة ثانية استنتج، عبر دراسة موثقة للعامية اللبنانية، بأنها في الأساس فصحى قواعدها ترتكز في تحويلها إلى العامية على: "النحت والقلب والابدال والاختزال" أو الميل إلى "الخفة والتثقيل والتحريف والتليين"[4]..إضـافة إلى الكلمات التي دخلتها من لغات أخرى. عند ذلك تسهل المهمة في نظر مـارون عبـود، فتصبح العامية بذلك: "طيّعة، لينة، لا تحتاج إلا إلى عناء لتصير فصيحة"[5].

في قصة "الأمير الأحمر" التزم عبود بما ذهب إليه في كتبه النقدية، وقد جعل في حسبانه أن "ملاك القصة شيئان: المحيط والعالم الذي يعيش فيه"[6]..وعلى ذلك فقـد ورد في أثره الأدبي كمّ كبير من الألفاظ والتعابير التي عرفـت طريقهـا إلى الفـصحى بعد أن حسبها القارئ عامية.. فألفاظ مثل "تقرقر" و"القوال" "و يطمه" "وبحـصة" "وزوم" " وخَـبّر" "وصـحتين" "وهـسّ" "والقـاطع" "وحـدّي" "و يطبـل و يزمـر"

---

[1] الشعر العامي،مارون عبود، ص63.

[2] المصدر نفسه،ص40.

[3] المصدر نفسه،ص40.

[4] المصدر نفسه ص 44،ص50و51.

[5] في المختبر، مارون عبود، ص121.

[6] في المختبر، مارون عبود، ص120.

"وحولي وحوالي""ويرمل"[1].. ألفاظ يخالها القارئ أنها مأخوذة من تخاطب الناس بالعامية، لكن الامعان فيها و إعادتها إلى أصلها يبديان أنها في الأساس فصيحة.. وهي ألفاظ محلية، ومستعملة في معظم الأراضي اللبنانية وربما في المشرق العربي كله.. لا سيما إذا وضعت في سياقها اللغوي والتصويري وأجوائها القروية التي تقال فيها.. في لفظة "حدّي" (أي جانبي) من الحدّ وجمعها حدود.. وقد استعملت في العامية بهذا المعنى. و"حولي وحوالي" عندما تلفظ يظنها السامع بأنها عامية وأساسها في الفصحى واضح.. و"القاطع": (اسم مكان) من قطع واستعملت في الفصحى على أنها الفاصل.. وفي القرية هناك أراض يطلق عليها هذا الاسم، وهي التي تفصل بين منطقتين "وخبّر"، جذرها معروف أيضاً، وهي على وزن فعِّل.. وتجد هذه الأفعال كثيرة ومتنوعة في القصة، وقد انتقاها المؤلف من المحيط نفسه، ذلك أنّ المحيط في نظر عبّود " لا يخلقه المؤلف خلقاً بل يصفه ويصوّره بألوانه وأشكاله ومميّزاته"[2].. ولإظهار هذه الألوان والأشكال والمميزات انتقى عبود من الألفاظ ما يوافق هذه العناصر، فجاءت متطابقة معها، تستقى من المحيط بألوانه الحقيقية نفسها. فلنقرأ هذا المقطع: "فاستغرق الخوري في الضحك، ثم شال قاووقه عن رأسه ووضعه حده قائلاً: أقعد يا خوري! ثم حَسَرَ جبته فبان خنجره وغدارته وطبنجته من تحتها.." في هذا المقطع من الحوار، بين الحبيس والشدياق سركيس، الذي يكشف فيه الخوري الحبيس عن شخصيته، مجموعة من الألفاظ والتعابير ذات الدلالة الخاصة.. فالقاووق هو غطاء رأس الكاهن، وحدّه: جانبه، وحسر: كشف وجبته: لباسه الكهنوتي وغدارته: مسدسه البدائي وطبنجته، بندقيته، ومن تحتها: أي من تحت الجبة.. ألفاظ مستقاة من الواقع الذاتي الشعبي القروي، تجتمع لتشكل صورة الخوري الذي يخفي سلاحه تحت ثوبه، وحركته وهو يظهر هذه الأشياء.. جمعها عبود تمشياً مع أسلوبه القريب والبسيط من حياة الناس وأشكالهم، فهم الذين يتحركون ويفعلون وهم

---

[1] تجد هذه الألفاظ على الصفحات: 52و60 و82 و85و 10و 20 97و 98 و106 و111 و122 و124 و127 (ويرمل معناها: ينشف الحبر بالرمل).

[2] في المختبر، مارون عبود، ص 120.

الذين يتكلمون وهو الذين في النتيجة تـبرز ألـوانهم.. فالحركـة التـي تتمثـل في شَـالَ (نزع) ووضعه حَدّهُ وأقعد يا خوري وحسر جبتـه، فبـان خنجـره، بـدت واضـحة وسهلة وغير معقدة، تنتظم في سياق تمثـيلي عـادي لتعـبر عـن كـشف لـسرّ الخـوري الحبيس.. وهي في تناولها قريبة من العامية، لكنها في الأساس فصحى سليمة، انتقاهـا عبود لتكمل الشكل الحر الذي أراده.. بينما المفردات الأخرى فهـي أسـماء لأشـياء تراثية مستعملة في القرية اللبنانية، فبدت في جماع الصورة تؤدي مـشهداً تراثيـاً مـن جهة ومن جهة ثانية تحمل ألوان وأشكال صاحبها الذي هو رجـل ديـن حـافظ عـلى قسماته وألوانه وأشكاله التراثية المعروفة..

تكثر هذه المقاطع في القصة، يحشدها عبـود ليقـدم صـورة القـروي اللبنـاني، وعلى لسانه كثير من الألفاظ والتعابير المحلية. فنحن أمام كمٍّ هائل منهـا تنتقـل بـين الأدوات والسلوكات والمشاهد والحركات.. فمن الأدوات: مـدقات الكبـة والمحدلـة والخابية والجرن وخفارة (الحراسة) والتتن (التبغ) والشبق (الغليون) والدريس(لعبـة قروية) والبحصة (الحصاة) والجندل والسل وقفة الزبيب والتـين المجفـف والـدبس والجـوز والخـوابي والغلـة وزوم العينـين (الـدموع) والمـصطبة والـشروال والغنبـاز والشرانق.. وتجد في صفحات القصة على امتدادها التعابير الكثيرة التي لا تقـال إلا في الأجواء القروية وربما في سواها، على لسان من غادر القرية إلى المدينة.. وهي تعابير تخالها أيضا عامية لكنها غير ذلك: "التفت نحو الغرب فرأى الناس قادمة مثل النمل.. سلسلة طويلة أشخاصها تمشي واحداً خلـف واحـد، لأنهـا طريـق رِجْـل لا طريـق حافر.."[1] وهي تمثل البعد الذي أراده في حلول هـذه التعـابير في منزلـة بـين المنـزلتين: الفصحى والعامية، من حيث سـهولتها التـي تفـضي بهـا أحيانـاً إلى الركاكـة.. عنيـت التركيب العام، وحشد تعابير مثل: "لأنها طريق رجل" أو "مثل النمـل". أضـف إليهـا التعابير الأخرى التي تجدها مبثوثة هنا وهناك من القصة مثل: السطوح ممهدة مطينة- لم يغمض لعين كفاع جفن- قوموا امشوا- خاطركم يا شباب- فرجـت ان شـاء اللـه-

---

[1] القصة ،ص48.

طالت أعمار البقر والمعزى والغنم والدجاج- ثم حطّ السلّ على حائط ليستريح قليلاً وقال: ورابعة تفك رقابهم من كبيرهم إلى صغيرهم، ما خبَّرَنَا أحد من جدودنا بمثل ظلم المير بشير قاسم: الله لا يردّه- رمية حجر- لا تهدأ الرجل فيها لا ليلاً ولا نهاراً[1]... ينبغي التأكيد على قروية هذه التعابير أولاً وعلى طريقة مارون عبود في تفصيح الكلام ثانياً. فهو في التعبير الأول يسقط حرف الواو بين ممهدة ومطينة، وكذلك في قوموا امشوا، كما يسقط الباء من خاطركم وهي في الاساس بخاطركم.. وكذلك ينبغي التأكيد أيضا على اختيار عبود للتعابير المعبرة بألفاظ ملائمة: فتفك رقابهم، فصيحة، استعملها بدل قطع، لأن الأولى أكثر استعمالاً في العامية.. بينما يلجأ عبود إلى استعمال العامية حين يكون لا بد من عودة إليها.. فتراه يدس بين المقاطع ألفاظاً وعبارات تمعن في الدلالة الاجتماعية القروية: أخبار سودا يا رجال- الضيعة قائمة قاعدة- ما اقلّ عقلك[2]- خذها من هذه اللحية – هذي إهانة معناتها أن الحبيس أفضل مني- ماش.. ماش- طيب طيب- كلوا معنا لقمة حتى يصير بينا خبز وملح – هسّ هسّ[3].. وهو استعمال لا يبتعد كثيراً من الفصحى، ذلك أنّ الملاحظ هو إدخال كلمة معينة مثل : "معناتها".. أما الباقي فهو محوّل عن الفصحى..

هذه نماذج من استعمالات عبود وهي كثيرة في صوغه، لا سيما في أعماله القصصية..

الدعابة : وثمة ملاحظة عامة في كتابات عبود هي السخرية والدعابة والتهكم.. وهي ميزة صبغت أدبه كله حتى نقده لم يخل منها.. وهو في هذه القصة يستعمله نوعاً من الدعابة المحببة في أحيان كثيرة.. على أنك تحس قهقهة موجعة عندما يمسّ عبّود حالات تستدعي السخرية من شخصية أو موقف من المواقف.. جاء في "الأمير الأحمر": "فصاح أبو ناصيف: لا بارك الله بلحيتك يا عمي، هتكت سبيلنا.. خائف

---

[1] هذه التعابير تجدها على الصفحات: 52 و53 و64 و75و77 و11 و28 و29.

[2] القصة- على الصفحات 14و19.

[3] القصة على الصفحات: 19و35و36و97و101.

على دمك.. فوقعت كلمته في آذان عمه، فرد عليه وهو داخل: سلم بوزك (بوز:الفم)، لحية الخوري ترد عنه ضربات كثيرة..".

وجاء في مكان آخر[1]:"فالذي يعتدي على أملاكه وأشيائه يصاب بالفتق حالاً، ولا يعصمه منه عاصم، لا حزام باربر (طبيب فرنسي مختص بالأحزمة) ولا جد جده. إنه لا يشفي ما لم يعوّض أو يرد المسلوب". ففي هذين المقطعين دعابات استلها عبود من روح الحياة القروية وأضاف إليها من روحه ما أضفى عليها جواً خاصاً لا يخرج عن نطاق القرية واستعمالاتها حتى في ساعات لهوها ومسراتها وفي الحديث عن المسؤولين والمتنفذين فيها.

البعد الثالث للغة: ولقد كان عبود يعي صنعته ويدرك ما يذهب إليه.. فقد كان سلوكه هذا في إيجاده البعد اللغوي الثالث رداً على التشكيك في اللغة العربية، لا سيما على الذين قالوا بإخفاقها وسلبيتها وضرورة تحولها إلى العامية.. ولقد رأى عبود أن في هذا البعد العامي الفصيح الثالث "طرائق شائعة ممتعة غزيرة المعاني لا يتجلى فيها الروح القومي فحسب، بل تترجم من جهة ثانية عن النفس الإنسانية على إطلاقها"[2]..مع العلم أن عبود لم يكن متحمساً لاستعمال العامية وربما رفضها خوفا منها على الفصحى: "لا أحب أن أسمع أن فينا من يدعو إليها (العامية) في الأدب لأنني أخاف على مجد لبنان الأدبي أن يتزعزع من أساسه"[3] ذلك أنه رأى "أن العامية اللبنانية لغة دف ومزمار ودربكة وناي ولغة عاطفة وحب"[4] هذا هو دأب عبود في صوغه الأدبي والنقدي ومجمل القول عنده.. ولقد كان مثال الكاتب المبدع الذي خلق لنفسه دوائر خاصة انطلق منها إلى الكون والأرض. وكان هذا الانطلاق يعوّل على القاعدة –المرتكز- الأساسي، ألا وهو الدائرة المحلية في أضيق معانيها.. لأنه رأى فيه

---

[1] القصة،ص 49.

[2] في المختبر، عبود،ص 114.

[3] الشعر العامي، عبود،ص68.

[4] المصدر نفسه، ص 74.

البذور الصالحة للنبت الخالد الذي يغرف منه الانسان خلقاً وابداعاً وقيماً وأفكاراً وتوجهات.. ولقد كان في "الأمير الأحمر انساناً يبحث عن هوية، لتكون مرجعاً تعود إليه الأمة، فأرانا من ألوان التراث وأشكاله صفحات تهوى الخلود وتدعو الانسانية إلى مائدتها لتطعم من الأرض الخيرة وتروى من الينابيع الصافية في شبه تقديم للإنسان في أصالته وجوهره وقابليته على الاستمرار في العيش حاملاً كنوز معرفته المضيئة، مؤكداً أن هناك أشياء جميلة ينبغي أن تحيا وتنتشر بين الناس الذين بدأوا يفقدون الجذور والينابيع فكيف بهم يكونون أمام الخطى الحثيثة العولمية التي تجرف في طريقها كل شيء..

وإذا كان مارون عبود وسواه من المبدعين الذين حاولوا تفصيح العامي قد اقتصرت تجاربهم على استعمال الفصيح الذي تداوله العرب على أنّه عامّي، فإنّ

الأديب والشاعر والباحث واللغوي اللبناني أحمد أبو السعد [1] قد خطا بإشكالية الفصيح والعامي خطوات مهمة استطاع بها أن يحقق انجازاً فريداً من نوعه، ربما لم يسبقه إليه أحد، وهو تكريس النقلة النوعية في فرز العامّي وتبيّن أصول فصحاه ووضعه في معاجم تحسم الكثير من اللّغو الذي كان يدور حول

---

[1] ولد في العام 1921 في قرية المغيرية، لبنان، كتب في مجالات كثيرة ومنها:

في الشعر: ديونان: "قصائد دافئة" ,"حمم"، وتمثيلية شعرية: "هند أم معاوية".

في البحث الأدبي: "فن القصة" و"أدب الرحلات"

في نقد الشعر وتاريخه: "الشعر والشعراء في السودان" و"الشعر والشعراء في العراق" و"الشعر العربي الحديث في حركة تطوره".

في دراسة التراث الشعبي: "أغاني ترقيص الأطفال عند العرب".

في موضوعات مختلفة: "كلمات من القلب"، وسبعة أعلام من لبنان، وحوار مع الصحافة ووسائل الإعلام.

في التأليف المعجمي: قاموس المصطلحات والتعابير الشعبية، معجم التراكيب والعبارات الإصطلاحية العربية، معجم فصيح العامة، معجم أسماء الأسر والأشخاص ولمحات من تاريخ العائلات، أغاني ترقيص الأطفال عند العرب.

الإشكالية المعجمية. ولقد جاء هذا التكريس في مجمل ما كتبه، لاسيّما تلك المعجمية التي أسهمت إلى حدّ كبير في حلّ كثير من المسائل الصراعية بين الفصحى والعاميـة، وبيّن أن المتداول في لهجاتنا العربية، في مختلف مواقعها، أنّه متحدر مـن الفـصحى أو هي الفصحى بعينها.. لكنّ النطق بها، كلّ بطريقته الخاصة ووفـاق تـأثّره بـالظروف المحيطة، قد أوهم بأنّها عاميّـة.. وهـي في الحقيقـة ليـست كـذلك.. ودراسـة الجهـود المعجمية التي قام بها "أبو السعد" تقتضي وقفة متأنية ومجالاً أكثر اتساعاً، ليس مكانه في هذه العجالة.. على أننا يمكن إلقاء الضوء باقتضاب على هـذا الجهـد، متـوخّين مـن ذلك أمرين أساسيين:

الأول: إثبات خاتمة لهذا البحث حلاً لإشكاليته و إمكان إنهاء الصراع القـائم بين الداعين إلى العامية والمتمسّكين بالفصحى وتعزيز مقولة البعد الثالث للغة الـذي عمل عبّود من خلاله وأبرزه قدرةً تعبيرية هي مـن صـميم اللغـة العربيـة وتطورهـا وحياتها عموماً، وبالتالي إقامة العلاقة السليمة بين التعبير المستجدّ في هذا الزمن وبين التراث الشعبي في جانبه الأكثر تداولاً: الأدب.

الثاني: التعريف بجهد "أبو السعد" اللغوي-المعجمي، حيث تختزل المسافة بين ما هو عامّي وما هو فصيح، وأنّ الإثنين من نبع واحد.. وهو لغة العرب الأصيلة.

1- "معجم التراكيب والعبارات الاصطلاحية القديم منها والمولّد"[(1)]:

لا يدّعي الباحث "أبو السعد" أنّه أوّل من ألّف في هذا الموضوع.. لكنّ المؤكد أنّـه كان أولهم في العصر الحديث.. بينما نجد مجموعة من النقاد والبلاغيين القدماء قد تطرقـوا إليه في تصانيفهم.. وقد قال عنهم "أبو السعد": إنّهم تناولوه عرضاً[(2)].. ومنهم ابن الـسكيت وابن قتيبة وابن عبد ربّه والقالي والجوهري والثعالبي والخفاجي وقدامة ابـن جعفـر وأبي هلال العسكري والجرجاني والزمخشري والـرازي "الـذين عرضـوا للكـلام وتحـدّثوا في

[(1)]صدر عن دار العلم للملايين في بيروت في العام 1987(طبعة أولى).

[(2)] المصدر نفسه، المقدمة.

مستوياته حديثاً يقرب من حديث الألسنيين المحدثين في تحديدهم ماهية الأسلوب"[1].. إلاّ أن هؤلاء لم يضعوا تصنيفاً مستقلاً في موضوعه.. وكانت اللغة العربية واستعمالاتها في زمن قريب من منابعها.. ولقد قطعت الآن مسافة زمنية كبيرة وصولاً إلى الوقت الراهن وتناوب عليها الكثير من التغيير وعاشت حياة مختلفة عمّا كانت عليه في السابق.. لذلك اقتضى ضبط هذه التراكيب والعبارات الاصطلاحية على مرور الزمن.. وقد انطلق المؤلف في عمله هذا من نقاط أساسية[2] وهي:

أ- من حيث "توزّع أشكالها من حيث الصوغ على أنماط تركيبية ثلاثة"، وهي الجملة والتركيب الاضافي والتعبير الأحادي.

ب- من حيث "خضوعها عند مقارنتها بالكلمات المفردة لبعض الظواهر اللغوية التي تخضع لها هذه الكلمات.

ج- من حيث تداخل التركيب السياقي فيها مع العبارة الاصطلاحية.

د- من حيث استمدادها عناصرها الدلالية من بيئتها بجانبيها المادي والمعنوي وتلوّنها بألوانها..

وكان هدف المؤلف في ذلك كلّه دمج ما استحدث ويستحدث من التراكيب والعبارات في صلب اللغة، سواء أكانت مولدة بالترجمة أم بالاستعارة من التراكيب العامية ومجازاتها المبنية على صور الحياة اليومية وإضفاء أن نضفي صفة الفصاحة عليها إذا كانت غير مخالفة لقواعد اللغة.. ويضرب أمثالاً كثيرة على ذلك ومنها: " يذرّ الرماد في العيون" و"يصطاد في الماء العكر" و"يضع النقاط على الحروف" و"يقرا ما بين السطور" و"يضرب الرقم القياسي" و"يلعب بالنار" و"تكهرب الجوّ" و"جلب الدبّ لكرمه" و"حطه على الرف" و"ضرب عصفورين بحجر". ولعلّ الأكثر أهمية في هذا الجهد هو

---

[1] المصدر نفسه، المقدمة.

[2] أحمد أبو السعد: شهادات وسيرة مصوّرة، مجموعة من الباحثين، ص35، دار الحداثة، بيروت، 1998.

الاضافة التي عمل من أجلها المؤلف وهي وضع ما صحّ من التراكيب العامية وعباراتها الاصطلاحية المفصّحة بين أيدي القصصيين والروائيينن عند الوصف والتصوير.. وهي إضافة تحاول أن تنجي من الارباك الحاصل في استعمال العاميات العربية في الاعمال القصّية والمسرحية، وتقدّم لهم النماذج العامة المفصّحة المقبولة من العرب كلّهم..

2- **معجم "فصيح العامة"**[1]: محاولة ناجحة يقوم بها "أبو السعد" لجمع الألفاظ الفصيحة من العامّيات العربية، ويبيّن أنّ معظم ما نتحدث به في لهجاتنا المحلّية هو فصيح وارد في معاجم اللغة العربية، ولا يستعمل لاعتقاد الكتاب والشعراء بعامّيته وعدم فصحاه.. بالاضافة إلى ما احتفظت به العامة في كلامها من فصيح اللغة الذي لا يعرفه الخاصة من الكتاب ويعدّونه عامياً ما ولدته العامة نفسها من الكلمات بطريق الاشتقاق والتجوّز أو بتطوير الدلالة وعدّه إيّاه من الفصيح الصحيح لجريانه على أقيسة اللغة وعدم مخالفته أصولها.. كما هي محاولة لنفي الخلاف بين الفصحى والعامية وتبيان تحدّرهما من أصل واحد.. وعلى ذلك فإنّ المؤلف يحدّد عمله منطلقاً من المقاييس التالية:

- توحد معاجم اللغة.. فما ينقص هذا تجده في ذاك.
- إنّ الفصاحة ليست فصاحة واحدة، إنما هي فصاحات.
- إن اللغات كلّها حجة.
- إنّ مفهوم اللغة مفهوم غير جامد وغير نهائي وغير مطلق.
- إنّ للمحدثين حقّ الوضع كما كان للأقدمين.
- الأخذ بما أقرّته مجامع اللغة العربية..

والكتاب في خمسمئة واثنتي عشرة صفحة (512) من القطع المتوسط، وفيه تقديم طويل يشرح الأسس التي اتبعها المؤلف وطريقة تصنيفه للألفاظ والمواد.

(1) صدر عن دار العلم للملايين في بيروت في العام 1990.

وفيه ثلاثة آلاف وأربعمئة واثنتين وثلاثين مادة (3432) والألفاظ مرتّبة وفق الترتيب الحديث للمعاجم أي بحسب الحروف الهجائية ترتيباً ابتداء من أوائلها من الهمزة إلى الياء.. والمعجم يخصّ العامّي الفصيح بحسب استعماله الوارد قديماً وحديثاً.. ونماذج الكتاب كثيرة، تعتمد على الشرح الوصفي التوثيقي وايراد المعاني المستعملة أساساً والمنتقلة إليها إذا كان ثمّ انتقال.. من هذه النماذج مثلاً:

– أحّ: بمعنى سعل وردّد التنحنح في حلقه. وهو استعمال فصيح صحيح، ففي اللغة "أح" يؤحُّ أحّاً: سعل كما في (المرجع واللسان). واستشهد ابن منظور على صحة استعماله بما ورد لرؤبة من شعر في وصف بخيل كان إذا سئل أكثر التنحنح والسعال، وهو قوله:

– يكاد من تنحنح وأحّ/ يحكي سعال الشرق الأبحّ

– التقشيط: وهم يستعملون التقشيط بمعنى سلب الناس أشياءهم عنوة وقهراً. واستعمالهم صحيح فصيح، ففي اللغة قشط الجل (أي الجلال عن الفرس) نزعه كما في (اللسان). والعامة شدّدوا فقالوا: قشّط فلان الناس تقشيطاً، إذا انتزع منهم أموالهم بالقوّة. وقولهم جائز على التجوّز ولا لحن فيه.

أكتفي بهذين المثالين للتدليل إلى طريقة "أبو السعد" في ايراد المفردات ومعانيها وأساسها الفصيح وكيف وصلت إلى العامية.. وهو دأبه في مؤلفه كله.. كما أكتفي بالحديث عن هذين المعجمين طلباً للاختصار ووصولاً إلى الاستنتاج...

إنّ ما عرض في ثنايا هذا البحث يشكّل مدخلاً لإعادة النظر بمجمل الدعوات التي طرحت من أجل الاهتمام باللغة العربية وإصلاح حالها وإعادتها إلى النسق الأساسي لها.. وقد توسّلت إلى ذلك عرض أهمية اللغة قديماً وحديثاً، وكيف أنّها اصبحت موضع هجوم من المفتئتين عليها من الغربيين والعرب من الزاوية الأوسع مساحة ألا وهي مقولة "الشعب" و"الشعبي" بما تعنيه الكلمة من دلالات واسعة في غير مجال.. ولقد تبيّن أن الاعتداء يولّد حالات من الذعر، كما يولّد حالات من الارباك والانحراف

بعيداً من البحث الجدّي الـصحيح.. وكانـت إشـكالية البحـث تـدور حـول الفـصيح والعامي.. وأنّها إشكالية مصطنعة في بلادنا دون سائر بلدان العالم.. وقد كان لهـا إطـار نظري تستّر داخل الاصلاح والتيسير والتبسيط ليصل إلى الالغاء أو التهميش أو إحلال لغة أخرى محلها.. وهو عمل قصدي كانت مهمّتـه التـآمر عـلى اللغـة وإخراجهـا مـن ديارها كما حاول البعض إخراج العرب من ديارهم.. وقد تبيّن من ثنايـا البحـث أن ثمّـة مفاهيم مغلوطة قد طرحت سواء أكانت عن قصد أم غير قصد.. ذلك أن طبيعة الحيـاة وتطورها تواكب تطور اللغة وحياتها.. وأنّ التقصير من أبناء اللغة فاقم الحملة عليهـا.. وبالتالي فإنّ إخراجها من دائرة الجامعات ومعاهد العلـم وإخـراج الكتـب مـن عـالم العربية إلى عالم اللغات الأجنبية وترهل المجامع اللغوية العربية وترك الحبل على غاربه للدعوات غير البنّاءة في لحظة عدم اسـتقرار المجتمعـات العربيـة وقلقهـا وإضـطرابها والحروب والحوادث المتكررة على أرضها.. إنّ ذلك كلّه قد أدّى إلى انبثاق هذه الظـاهرة التـي اتهمـت اللغـة العربيـة بالتقـصير وعـدم القـدرة عـلى مجـاراة العـصر وصـولاً إلى الاستعاضة عنها بغيرها أو تغيير رسم حروفها أو استعمال العامية بدل الفصحى استناداً إلى حجج واهية ليست من الحقيقة في شيء..

ولقد كان اقتراحي الأساسي يعوّل في حلّ إشكالية الفصيح والعامي، سـواء في الأدب الشعبي أم سواه، على درس الظاهرة بحدّ ذاتها، من داخلها وليس من خارجهـا، اعتماداً على النصوص.. لأؤكد على أنّ الحلّ بين ظهرانينا وعلى لساننا وأقلامنا.. وقدّمت الأدلة على ذلك وتوقفت ملياً عند مارون عبود الذي اقترحت بعد دراسـته أن يكـون للغة بعد ثالث يتمثل بلغة الحياة الجديدة التي هي فصحى تامّة لا ينقصها إلاّ العلم بها والوقوف على تراكيبها وألفاظها لنتبين أننا في عاميتنا العربيـة نتحدث بالفصحى دون أن نعلـم.. حتى تكـرّس هذا العلـم في جهود أحمـد أبـو الـسعد وغـيره، حيـث صـار للمفردات العامية وتراكيبها معاجم تؤكد فصاحتها وأن تنكّر المتنكرون...

خلاصة الندوة الدولية

حول الفصحى وعامياتها

"لغة التخاطب بين التقريب والتهذيب"

في يومي الثامن عشر والتاسع عشر من عام 1428 هـ، الموافق الرابع والخامس يونيو 2007، وتحت الرعاية السامية لفخامة رئيس الجمهورية السيد عبد العزيز بوتفليقة، وضمن فعاليات الجزائر عاصمة للثقافة العربية نظم المجلس الأعلى للغة العربية ووزارة الثقافة ندوة دولية موضوعها: الفصحى وعامياتها: "لغة التخاطب بين التقريب والتهذيب"

بعد الاستماع إلى النشيد الوطني، قدم رئيس المجلس موضوع الندوة وأهدافها حيث رحب بالضيوف من أشقاء وأصدقاء، مشيرا إلى مكانة اللغة العربية في الهوية الوطنية، وهوية الأمة العربية والإسلامية ، باعتبارها لغة القرآن الكريم واللغة الرسمية لكل البلدان العربية مشرقا ومغربا.

ثم ألقت وزيرة الثقافة كلمة الافتتاح منوهة بجهود المجلس وبالأعمال التي يقوم بها، شاكرة الحضور على المساهمة والاهتمام بموضوع الندوة الهام الذي يدخل في صميم انشغالات الدول العربية، ومعلنة عن الافتتاح الرسمي لأشغال الندوة.

بعد ذلك، تناول الكلمة كل من ممثل السيد: الأمين العام لجامعة الدول العربية والممثل الشخ لأ للسيد المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم حيث تقدما بالشكر والعرفان للمجلس ووزارة الثقافة ومن خلالهما إلى الجزائر شعبا وحكومة وعلى رأسها فخامة رئيس الجمهورية السيد عبد العزيز بوتفليقة، على حفاوة الاستقبال وكرم الضيافة وعلى حسن اختيار الموضوع في الوقت الراهن إذ أصبحت العاميات والتهجين اللغوي من السمات المميزة للشارع العربي، ولا سيما في وسائل الإعلام.

وقبل انطلاق الجلسة العلمية الأولى، خص رئيس المجلس الأعلى للغة العربيـة ووزيرة الثقافة نخبة من المثقفين الجزائريين الذين خدموا الوطن والعربية وثقافتها بتكريم رمزي للسيدة والسادة:

- فضيلة الشيخ عبد الرحمن الجيلالي،
- فضيلة الشيخ عبد الرحمن شيبان،
- الأستاذ عبد الحميد مهري،
- الأستاذ الدكتور عبد الله شريط،
- الأستاذة زهور ونيسي.

وعلى هامش الندوة انبثقت لجنـة علميـة لـصياغة الاقتراحـات، مكونـة مـن السادة:

- عبد الجليل مرتاض أستاذ بجامعة تلمسان، مقررا عاما للندوة
- محمد عباس ، إعلامي ، رئيس الورشة الأولى، عضوا
- مخلوف بوكروح، أستاذ بجامعة الجزائر، رئيس الورشة الثانية، عضوا
- أحمد عزوز، أستاذ بجامعة وهران، مقرر الورشة الأولى، عضوا
- محمد تحريشي، أستاذ بجامعة بشار، مقرر الورشة الثانية، عضوا
- علي القاسمي، خبير بمكتب تنسيق التعريب بالرباط ، عضوا
- طاهر ميلة، أستاذ بجامعة الجزائر، عضوا
- صالح بلعيد، أستاذ بجامعة تيزي وزو، عضوا

حيث اجتمعت لجنـة الـصياغة في أمـسية يـوم 5 يونيـو، وتـداولت وضـمنت خلاصة تقريرها ما يلي:

إن أعضاء لجنة الـصياغة وبعـد دراسـة مستفيـضة للمـداخلات والمحـاضرات والتعقيبات التي ميزت الجلسات العلمية الخمس ، وما دار في الورشتين :

1 - الوسائل السمعية البصرية في ضوء الفصحى والعامية،

2 - والإنتاج الأدبي والفني، أهو عامل وحدة أم فرقة ؟،

من نقاش مثمر وحوار بناء، فإنهم يتقدمون بما يلي:

يتشرف المشاركون في الندوة الدولية: الفصحى وعامياتها، بأن يوجهوا شكرهم وتقديرهم الخالصين إلى *فخامة رئيس الجمهورية السيد: عبد العزيز بوتفليقة*، الذي أسبغ رعايته السامية على الندوة، وهو أول مسؤول دولة دق ناقوس خطر التهجين الذي أعترى اللغة في أكثر من موقف ومناسبة.

وقد أسعد المشاركين حضور *معالي رئيس الحكومة السيد: عبد العزيز بلخادم* جانبا من أشغال الندوة تعبيرا منه عن اهتمامه بموضوعها وتقديرا للمشاركين فيها.

ويتقدم المشاركون في الندوة بخالص الشكر والامتنان إلى *السيدة: وزيرة الثقافة وإلى السيد: رئيس المجلس الأعلى للغة العربية* على سهرهما على إنجاح هذه الندوة العلمية،

كما يحيون كلا من معالي الأمين العام لجامعة الدول العربية، ومعالي المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم على إيفاد ممثلين عنهما للمشاركة الفعلية في أشغال الندوة

ويو ذ المشاركون بضرورة تقديم المجلس للتوصيات والاقتراحات المنبثقة عن الندوة إلى الجهات المختصة والتي يمكن إيجازها فيما يلي:

1 – تكوين الإعلاميين في الجوانب اللغوية، وفنيات التحرير

2 – اعتماد مصححين في اللغة العربية في وسائل الإعلام المسموعة والمرئية

3 – تضمين قانون الإشهار الاستخدام السليم للغة العربية مع مختلف المتعاملين والدعوة للالتزام بذلك

4 – تفضيل البرامج والأشرطة المنجزة بالعربية الفصحى وتشجيع التأليف بها كتابة وإخراجا

5 –وضع سياسة ومخطط تعتمد العربية وسيلة من وسائل التنمية البشرية

6 – وضع برامج ثقافية تعنى بالاستخدام اللغوي السليم في مختلف الفنون، ولاسيما المسرح والسينما والتلفزيون،وبخاصة في الترجمة والاقتباس

7 – تنقية العربية من التهجين والتشويه اللغويين في الوسائط السمعية البصرية بتهذيب العاميات وتقريبها من الفصحى في البرامج والحصص الموجهة للفئات الشعبية

8 – تعزيز مكتسبات الطفل اللغوية عن طريق البرامج الثقافية والترفيهية، بما يساعده على استعمالها بيسر من حيث الاستيعاب والتعبير

9 – إنشاء مسابقة وطنية لنصوص درامية لتحقيق التقريب بين العامي والفصيح، يتكفل المجلس الأعلى للغة العربية بتنظيمها

لائحة المشاركين

من جهة أخرى صادق المشاركون في الندوة على لائحة موجهة للمؤسسات والهيئات التي ساهمت في إنجاح الندوة وفي مقدمتهم فخامة رئيس الجمهورية السيد عبد العزيز بوتفليقة هذا نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم

نحن المشاركين في الندوة الدولية حول الفصحى وعامياتها: لغة التخاطب بين التقريب والتهذيب، المنظمة تحت الرعاية السامية لفخامة رئيس الجمهورية السيد عبد العزيز بوتفليقة، وضمن فعاليات الجزائر عاصمة للثقافة العربية 2007 **من طرف المجلس الأعلى للغة العربية ووزارة الثقافة في يومي 4 و5 يونيو 2007 بفندق الأوراسي - الجزائر**

بعد الاستماع إلى كلمات الجلسة الافتتاحية المعبرة عن انشغال الهيئات والمؤسسات العربية بمستويات الخطاب في الفصحى وعامياتها في الوطن العربي بالحرص على ضرورة تضافر الجهود للرقي باستعمال العربية الفصحى في مختلف الميادين وجعلها وسيلة لنقل المعرفة في المجتمع، والعمل على تهذيب العاميات وتقريبها من الفصحى.

افتتحت الندوة معالي وزيرة الثقافة السيدة خليدة تومي بكلمة رحّبت فيها بممثلي الهيئات العربية المشاركة : جامعة الدول العربية والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وبالأساتذة المشاركين وبضيوف الشرف الذين حضروا الندوة، وقد نوّهت بأعمال المجلس الأعلى للعربية، فضلا عن التركيز على أهمية الندوة ومغزاها في هذا الظرف الذي تعرفه العربية، وكان قبلها رئيس المجلس قد حدد أهداف الندوة ومحاورها والآمال المعلقة على ما ينبثق عنها من اقتراحات بناءة بالإضافة إلى هذا

وتلك تدخل ممثل جامعة الدول العربية وممثل المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بالتركيز على التنسيق فيما بين الهيئات والمؤسسات المتخصصة للنهوض باللغة العربية وترقية استعمالها باعتبارها وسيلة للتعليم والاتصال والتواصل.

وقد شرّف الندوة دولة رئيس الحكومة السيد عبد العزيز بلخادم، الذي حضر جانباً من أعمالها. وعلى هامش أشغالها تمّ تكريم عدد من الشخصيات العلمية والثقافية البارزة، التي خدمت اللغة العربية وعلومها وثقافتها.

بعد الاستماع إلى محاضرات الأساتذة التي تميزت بطرح قضايا تتعلق بواقع العربية ومستويات الخطاب، وبمناقشات ثرية ومقاربات للراهن والمأمول، حيث ركزوا على ضرورة بقاء وتطور لغة موحدة وموحدة بهدف تأسيس مجتمع المعرفة، لغة جامعة للأقطار العربية، بغية الانسجام والتكامل، كما بينوا أن النقص الملاحظ لا يكمن في اللغة العربية في حد ذاتها، التي حفظها كتاب الله العزيز وإنما التقصير نابع من أهلها، لذلك ينبغي العناية بالعربية المشتركة في التعليم والإعلام وفي كل وسائل التواصل مما يقربها من المستعملين ويقربهم منها.

يبارك المشاركون في الندوة التوصيات والاقتراحات التي توصلت إليها أشغال الندوة، ويوصون بالحرص على تجسيدها في الميدان بما يهذب العامية ويقربها من الفصحى في مختلف ميادين العمل، والتأكيد على تكاتف الجهود لتفعيل هذه الاقتراحات مع مختلف الهيئات والمؤسسات القطرية المتخصصة بما يضمن استثمار الجهد والوقت والمال، لتحقيق النتائج المتوخاة، ويتوجهون بالشكر والامتنان إلى معالي السيد عمرو موسى الأمين العام لجامعة الدول العربية ومعالي السيد المنجي بوسنينة المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم على اهتمامهما بموضوع الندوة وبنشاطات المجلس، وإيفادهما لمثلين عن الهيئتين العربيتين.

يثمن المشاركون في الندوة الرعاية السامية لفخامة رئيس الجمهورية السيد عبد العزيز بوتفليقة التي أحاط بها هذه الندوة، ويدعمون فخامته في مسعاه الرامي إلى المصالحة مع ذاتنا الحضارية بمكوناتها الثلاثة: الإسلام والعربية والأمازيغية وإخراجها من دائرة الصراعات والمزايدات الظرفية، والتصالح مع رهانات عصرنا.

تكريم الأساتذة المشاركين

في نهاية أشغال الندوة قدم المجلس هدايا رمزية للأساتذة المساهمين في الندوة بمداخلات وأوراق في الورشتين ، وفي هذا الإطار شمل التكريم المتكون من شعار للمجلس منقوش على النحاس وشهادة مشاركة وشهادة شرفية، السيدات والسادة الأساتذة الآتية أسماؤهم :

1 - علي فهمي الخشيم رئيس المجمع الليبي للغة العربية

2 - عبد الرحمن الحاج صالح رئيس المجمع الجزائري للغة العربية

3 - علي القاسمي باحث بمكتب تنسيق التعريب بالرباط

4 - محمود الموصلي ممثل معالي الأمين العام لجامعة الدول العربية

5- محمد الدالي ممثل معالي الأمين العام لجامعة الدول العربية

6 - محمد صالح الجابري ممثل المدير العام للألسكو

7 - توفيق قريرة ممث المدير العام للألسكو

8 - نجيب زكا - جامعة ليل بفرنسا

9 - عبد الكريم أمين (ميشال باربو)- جامعة ستراسبورغ بفرنسا

10 - نهاد الموسى - جامعة عمان بالأردن

11 - عبد الكريم بكري - جامعة وهران

12- عثمان سعدي رئيس الجمعية الجزائرية للدفاع عن اللغة العربية

13- الطاهر ميلة - جامعة الجزائر

14- خولة طالب الإبراهيمي - جامعة الجزائر

15- مختار نو يوات - جامعة عنابة

16- عبد الجليل مرتاض - جامعة تلمسان

17- صالح بلعيد - جامعة تيزي وزو

18- محمد تحريشي - جامعة بشار

19- أمين الزاوي المدير العام للمكتبة الوطنية

20- عبد الرزاق عبيد عميد كلية الآداب - جامعة الجزائر

21- محمد خان عميد كلية الآداب- جامعة بسكرة

22- أحمد عزوز - جامعة وهران

23- خالد عيقون - جامعة تيزي وزو

24- مخلوف بوكروح - جامعة الجزائر

25- محمد عباس كاتب صحفي

26- عبد المجيد حنون عميد كلية الآداب - جامعة عنابة

شهادات بعض المشاركين

في الندوة

FROM :ARABIC-LANGU-ACADEMY FAX NO. :00218214440126 Jun. 10 2007 11:47AM P1

المعرفة حق طبيعي لكل إنسان

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى
مجمع اللغة العربية

طرابلس

التاريخ : / / 137و.ر
الموافق: / / 200م

الأستاذ الدكتور / محمد العربي ولد خليفة
رئيس المجلس الأعلى للغة العربية - الجزائر

تحية طيبة وبعد

فأشكر لكم كل ما لقيته لديكم من حفاوة الاستقبال وكرم الضيافة في أثناء حضوري الندوة التي عقدها مجلسكم الموقّر عن(العربية الفصحى وعامياتها) التي كانت على مستوى رفيع من حسن التنظيم وجيد الإدارة ، كما اتسمت البحوث التي قدمت فيها بالجدية والفائدة . ولقد استفدت كثيراً مما سمعت ، واستمتعت كثيراً بالرفقة الطيبة لتلك الشخصيات الجزائرية والعربية التي حضرت الندوة وحاضرت فيها .

كنت - أيها الأخ الفاضل - قد تركت لدى الأستاذ الدكتور صالح بلعيد مجموعة من الإصدارات هدية لمجلسكم ، آمل أن تتفضلوا بتوزيعها وإهدائها لمن ترون .

أكرر لكم الشكر والتقدير ، راجياً أن أراكم ثانية في أسعد الأوقات .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أ.د. علي فهمي خشيم
أمين عام مجمع اللغة العربية
الليبــــي

بسم الله الر...

المنظمة العربية للتربية وا...

إدارة مكتب المدير العام

معالي الأستاذ محمد العربي ولد خليفة
رئيس المجلس الأعلى للغة العربية
2، شارع أحمد باي – الجزائر
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

تحية طيبة وبعد،

لم أعُد إلى تونس إلاّ مؤخرا من بعض المهمات إلى الخارج. ويسعدني أن أبادر بتوجيه الشكر لكم عمّا حظيتُ به ومرافقي الأستاذ توفيق قريرة من رعاية ولطف وكرم ضيافة واستقبال حفي ليس غريبا عنكم شخصيا وعن الجزائر العزيزة دائما على قلب كلّ مغاربي وكلّ عربي وقلبي بصورة خاصة.

لقد كانت ندوة ناجحة بكلّ المعاني السياسية والعلمية والأكاديمية، وأذكر بالتقدير كلمتكم الختامية التي كانت المسك الذي عطر الندوة، فبارك الله فيكم وسدد خطاكم، وأمدكم بعون منه للاضطلاع بالمهمة النبيلة التي تنهضون لها بكفاءة وانتماء وتواضع جمّ، وكياسة نادرة.

اطلعتُ على رسالتكم لمعالي المدير العام، ونسخة التقرير المحال عليه وقد كلفني بأن أنقل إليكم تحياته وشكره، وحرص المنظمة على التواصل معكم ودعم جهود المجلس الأعلى للغة العربية الموقر.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام والتقدير.

د. محمد صالح الجابري
مدير موسوعة أعلام
العلماء والأدباء العرب والمسلمين

ص.ب. 1120 تونس الشباطة الأصلية- الهاتف: 466 784 72 216+ - تليفاكسميلي: 962 784 71 216+
البريد الالكتروني: Alecso@Emailati.tn - انترنت: www.alecso.org.tn

Hotel El-Aurassi

بسم الله الرحمن الرحيم

معالي أ.د. محمد العربي ولد خليفة
رئيس المجلس الأعلى للغة العربية

تحية وتقديرا ساميتين تسمو منا بكم

وبعد،

يسعدني أن أعرب لكم، وأنا أغادر بلدا شقيقا سامحا عزيزا، عن عميق تأثري بما وجدته منكم من الرعاية والاهتمام والتشجيع، وأن أقول لكم إن اللغة لترتبك حين تريد أن تنصفكم العبارة ولتعجز الألسن عن أن تصف مقدار الإكبار والإجلال الذي يستكين في النفس تجاه ما تفعلون من أجل خير العربية والناطقين بها.

رجائي أن يتجدد التعاون بيننا وتقووا الذي أصبحت منكم جزءا ومن عملكم مقدارا

وفي انتظار تجدد اللقاء بكم، دمتم لسيدي خيرا حافظا للغة والثقافة العربيتين
حفظكم الله ورعاكم.

والسلام
د. توفيق قريرة

العنوان الإلكتروني grira_taoufik@yahoo.fr ص ب 9 المزيدي 6170 برغوث ج تونس
الهاتف 00216 98582263

El-Aurassi
Bd. Frantz Fanon - Les Tagarins, Alger - Tél : 021 74.82.52 - Fax : 021 71.72.87 / 71.72.90

بسم الله الرحمان الرحيم

الرباط في 2007/6/6

معالي الأستاذ الجليل الدكتور محمد العربي ولد خليفة المكرم
رئيس المجلس الأعلى للغة العربية
رئاسة الجمهورية ـ الجزائر ـ الجمهورية الجزائرية

الموضوع: الندوة الدولية حول "الفصحى وعامياتها"، الجزائر، 1 ـ 2007/6/5

معالي الأستاذ الجليل
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

يطيب لي بعد التشرف بالمشاركة في ندوة "**الفصحى وعامياتها**" التي نظّمها مجلسكم الموقر في الجزائر العزيزة، أن أعرب لمعاليكم عن عميق الشكر وصادق الامتنان لما غمرتموني به من حسن الاستقبال وكرم الضيافة وطيب المعاملة. وقد امتازت هذه الندوة الدولية بدقة التنظيم وجودة البحوث التي أُلقيت فيها، ومكانة الباحثين الأكاديميين الذين شاركوا في أشغالها، بفضل توجيهاتكم الصائبة وجهود مساعديكم الكرام المخلصة.

وتفضلوا ـ معالي الرئيس ـ بقبول أصدق عبارات المودة والتقدير والاحترام.

علي القاسمي

المرسل: علي القاسمي، 372 شارع الدار البيضاء، شاطئ الهرهورة، تمارة 12000، المملكة المغربية
رقم الهاتف والفاكس: 58 06 61 37 (212) رقم الهاتف المحمول: [illegible]

مع تحياتي وشكري للإخوة والأخوات في المجلس الموقر لكل ما قدموه لي من [illegible]

برقية أ. د . أمين عبد الكريم . (ميشال باربو)

أشكركم على استقبالكم الأخوي وأهنئكم جميعا على إنجاز ندوة الفصحى وعامياتها في الأسبوع الماضي ، وقد كنت على وشك إرسال هذه الرسالة لما وصلتني كلماتكم الطيبة . فلا بد أن أرسلها لكم بعد نهاية الامتحانات أي في أوائل يوليو إن شاء الله...

وحيث إنني لم أقرأ نصا مطبوعا جاهزا فيبقى لي أن أترجم وأضبط وأحرر المعطيات والملاحظات المسجلة على المسودة. كما أسمح لنفسي أن ألح على شيء هام جدا : هو لزوم طبع الرسوم المرفقة كما تفضلتم به سابقا عند إصدار مقالة للعبد الفقير في مجلة اللغة العربية اقتباسا من أعمال ندوة مجادلة السائد بتونس ... لا سيما بعد فوات أكثرية النصف الثاني من المادة المكتوبة عند إلقاء المداخلة ....

سأرسل الكل من مصيف العائلة في جنوب فرنسا وأتمنى لكم الهناء والتوفيق

أ.د. أمين عبد الكريم barbot@umb.u-strasbg.fr

ملحق عن الندوة
من زاوية وسائل الإعلام

المساء

الندوة الدولية حول الفصحى وعامياتها بالأوراسي

اللغة العربية إلى أين؟



الأحداث 24
الثلاثاء 05 جوان 2007
الموافق لـ 19 جمادى الأولى 1428 هـ

للتكفل بالراهن اللغوي العربي

تومي تدعو إلى تبني استراتيجيات عربية موحدة



دعت وزيرة الثقافة خليدة تومي أمس الأول بالجزائر العاصمة إلى ضرورة تبني الدول العربية لاستراتيجيات أخرى للتكفل بمسألة الراهن اللغوي. وأوضحت الوزيرة لدى افتتاحها لدورة دولية حول الفصحى وعامياتها لغة التخاطب بين التقريب والتهذيب، التوصل على الدول العربية تبني استراتيجيات أخرى تشترك فيها كل الدول العربية بمؤسساتها العلمية والبحثية والأكاديمية لتقديم تصور شامل للتكفل بمسألة الراهن اللغوي العربي، كما دعت الوزيرة بهذه المناسبة الأكاديمية التي ينظمها على مدى يومين المجلس الأعلى للغة العربية - إلى تهذيب العاميات المتداولة في المجتمعات العربية من خلال التقريب للعربية وتحبيبها للناشئة والكبار بواسطة أساليب وبرامج عصرية.

وألحت في السياق ذاته على وجوب أن تتبع الجهود المبذولة في اتجاه عمل للتكفل مع مجامع اللغة والجمعيات التي يتعين عليها أن تسير قدما في المقام الأول لقواميس اللغة العربية تتضمن كل ما يستجد في الاستعمال اليومي من مصطلحات ومفاهيم يتم إدماجها في الميادين المختلفة.



المجلس الأعلى للغة العربية في ندوة دولية حول: العربية الفصحى وعامياتها...

خبراء وعلماء يشخصون واقع اللغة العربية ويقترحون طرق معالجة الوضع اللغوي الراهن

البلاد
WWW.AL-BILAD.COM

في أشغال الملتقى الدولي حول الفصحى واللهجات العامية

العربية بين سندان التغريب ومطرقة التذويب





الشعب

يومية وطنية إخبارية تأسست في 11 ديسمبر 1962

الملتقى الدولي حول «الفصحى وعامياتها»

ضرورة تبني استراتيجية عربية


الجزائر
news
المجلس الأعلى للغة العربية يناقش
تقريب العاميات من اللغة الفصحى

صوت الأحرار
يومية إخبارية وطنية
SAWT AL-AHRAR
www.sawt-alahrar.net sawtalahrar@hotmail.com
الثلاثاء 19 جمادى الأولى 1428 الموافق لـ 5 جوان 2007 - السنة العاشرة - العدد 2822

افتتاح الندوة الخاصة باللغة العربية وعامياتها

المجلس الأعلى للغة العربية يدق ناقوس الخطر

أكد الحاضرون في الندوة التي ينظمها المجلس الأعلى للغة العربية على أن مستقبل اللغة العربية هو إحدى الرهانات التي يتوقف عليها مشروع الحداثة الذي لم تتضح معالمه ومازال العالم العربي بين قدم في ماض لم يستوعبه وأخرى في حاضر لا يملك وسائله ولا تكنولوجياته كما طالب الحضور بوضع استراتيجية كبرى للتكفل بأسئلة الراهن اللغوي.

■ بوطلعة م

■ تصوير. نبيل نقمي



جانب من الافتتاح

■ في إطار الجزائر عاصمة الثقافة العربية ومن تنظيم وزارة الثقافة والمجلس الأعلى للغة العربية، وتحت رعاية رئيس الجمهورية عبد العزيز بوتفليقة، أشرفت وزيرة الثقافة خليدة تومي رفقة رئيس المجلس الأعلى للغة العربية على افتتاح الندوة الخاصة باللغة العربية الفصحى وعامياتها تحت عنوان "الفصحى وعامياتها لغة التخاطب بين التقريب والتهذيب" وهذا بقصر الأوراسي يومي 4 و5 جوان الحالي بحضور وجوه ثقافية ومهتمة بالواقع اللغوي في الوطن العربي على رأسهم ممثل الجامعة العربية وممثل المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

وأكدت خليدة تومي في كلمتها أن طرح إشكالية علاقة اللغة العربية بعامياتها يأتي في صلب "الانشغالات التي أصبحت تطرح بإلحاح، ويتطلب فيه نقاش جاد يسمح بإيجاد حلول عاجلة للواقع اللغوي الذي يميزه الاضطراب والفوضى الناتجين من عدم أخذ مسألة تحديث اللغة وفتحها على الراهن المعرفي والتداولي بالمكانة المهمة. كما قدمت تومي مجموعة من الاقتراحات على رأسها مساهمة الجامعات العربية في وضع قواميس اللغة، تدخل فيها كل ما يستجد من مفردات على مستوى الاستعمال اليومي أو المصطلحات أو المفاهيم المستجدة كذلك الاهتمام بحركة الترجمة، وهي الوسيلة المثلى لترقية العربية بالإضافة كما قال إلى تحديث أساليب تعليم اللغة وتبسيط قواعدها مع عصرنة المفاهيم اللغوية المرتبطة بها.

وفي كلمته الترحيبية أشار رئيس المجلس الأعلى للغة العربية من خلالها إلى دور المجلس في ترقية لغة القرآن وتحسين مكانتها وتقريبها من المجتمع كلغة تداول وعلم كما أكد على تمسك الشعب الجزائري بها ولا أدل على ذلك كما قال من صمود الشعب الجزائري أمام الاحتلال الفرنسي وحفاظه على هذه اللغة خاصة مع تنامي الوعي لدى النخبة الجزائرية وما عرفته الحركة الوطنية التي أكدت دائما أن القضاء على اللغة العربية هو القضاء على الشخصية الجزائرية واعتبرها جزءا لا يتجزأ من شخصيته وانتمائه.

كما اعتبر أن تدهور حال اللغة العربية ليس عيبا منها ولكن من مستعمليها الذين أصابهم التخلف والجمود فتخلفت اللغة معهم. وتساءل لماذا تفقد اللغة المكانة الراقية في العصر الذهبي للإسلام، وخلص إلى أنه لا يوجد تنافس بين الفصحى والعامية، لأن هذه الأخيرة تمثل عامل إثراء إذا عمل الخبراء على استثمارها وإدخالها في اللغة العربية بطريقة سليمة. كما دعا إلى محاربة الأمية لأنه الطريق الأسلم لترقية مكانة اللغة العربية. كما أشار إلى أنه هناك علاقة وطيدة بين المستوى التعليمي واللغوي والثقافي للمتحدثين، وأوضح ولد خليفة في نفس السياق أن المصالحة التي دعا إليها رئيس الجمهورية تعني أيضا المصالحة مع ذاتنا الحضارية ومع عصرنا ومع لغتنا وذلك بحبها وخدمتها بالعلم والعمل.

ومن جهة أخرى أكد ممثل "المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم" أن اللغة العربية في خطر وطغيان العامية في التداول العام هو خطة مدروسة من جهات يهمها أن تتقهقر العربية الفصحى، وهذا من أجل تحقيق أهداف أهمها قتل الشخصية والهوية العربية المسلمة، بالإضافة إلى تفرقة العالم العربي لأن اللغة العربية تبقى دائما عامل توحد وانصهار روحي وتاريخي وثقافي. كما أشار إلى جهود المنظمة والجزائر على رأسها المجلس الأعلى للغة العربية في الحفاظ عليها رغم ما عانته الجزائر بعد الحقبة الاستعمارية الطويلة.

وبالمناسبة كرمت الجزائر مجموعة من الشخصيات التي دافعت على اللغة العربية وكانت منبرا من منابرها على رأسهم عبد الرحمن الجيلالي، عبد الرحمن شيبان، عبد الحميد مهري، زهور ونيسي، عبد الله شريط، أبو القاسم سعد الله، عبد الله الركيبي.

المستقبل
إن كنت ناقلا فالصحة
أو مدعيا فالدليل
يومية إخبارية وطنية
www.elmoustakbel.com

ندوة دولية بالجزائر حول اللغة العربية الفصحى وعامياتها

انطلقت أول أمس الاثنين بالجزائر العاصمة فعاليات ندوة دولية حول موضوع «الفصحى وعامياتها: لغة التخاطب بين التقريب والتهذيب» ويشارك في هذه التظاهرة نخبة من الأساتذة المتخصصين من مختلف الأقطار العربية إلى جانب ممثلي جامعة الدول العربية والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. كما ستعكف هذه الندوة التي تنظم في إطار تظاهرة «الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007» على دراسة مجموعة من المحاور منها «العاميات العربية وانشطارها عن الفصحى» و«العاميات العربية وعلاقتها بالفصحى» و«جهود المجامع العربية وغيرها من الهيئات للتقريب بين الفصحى وعامياتها» إلى جانب «مستقبل العربية الفصحى في خضم عامياتها».

وبالموازاة مع هذه المواضيع سيتم على هامش الندوة تنظيم ورشتين للممارسين وذوي التخصص، تتناول الأولى موضوع «الوسائل البصرية في ضوء الفصحى والعامية»، فيما تتناول الورشة الثانية «الإنتاج الأدبي والفني بالعاميات: عامل وحدة أم عامل فرقة».

ق. ث

■ الأربعاء 20 جمادى الأولى 1428 هـ ■ الموافق لـ 06 جوان 2007 م ■ العدد [illegible]

المساء

ندوة الفصحى وعامياتها في يومها الثاني والأخير

الخطر على الفصحى لا يأتي من عامياتها

هل تشكل العاميات خطرا على الفصحى، وهل يمكن تبسيط الفصحى حتى تصبح لغة سهلة من الناحية النحوية، واللهجات التي أصبحت تهيمن على الفضائيات العربية في بثها للمسرحيات والأفلام والمسلسلات وحتى الأحاديث الدينية، هل تساهم في تهديم الفصحى وتجعل لكل بلد عربي لغته الخاصة به، خصوصا إذا كانت هذه اللغات العامية هي المستعملة في حياتنا اليومية. هذه الأسئلة وغيرها من الإشكاليات التي تم طرحها في جلسة يوم أمس اليوم الثاني والأخير للندوة الدولية "الفصحى وعامياتها" التي حضر جانبا من مداخلاتها صباح أمس الأربعاء عبد العزيز بلخادم رئيس الحكومة.

■ ابن تريدة

تميز اليوم الثاني والأخير بجلستين علميتين، الرابعة والخامسة، ترأس الأولى الدكتور أمين الزاوي، واستهلها الدكتور عبد الجليل مرتاض بمداخلة عنوانها [illegible] العربية والعاميات وعامياتها في السيادة اللغوية، وعرض من خلالها المراحل التي مرت بها اللغة العربية واحتكاكها بالمجتمعات الأخرى وبروز ظاهرة اللحن والتهجين اللغوي الذي أصبح متداولا في الساحة [illegible] ليخرج بعضها بموازنة بين اللهجات المشرقية التي يراها ابتعدت عن [illegible] إطار [illegible] النحوية [illegible] اللهجات المغاربية بكونها أقرب، من خلال الكلام ليطرح في الأخير عدة أسئلة منها: هل يمكن [illegible] العلمية؟ ويجيب عبد الجليل مرتاض أنه من غير الممكن القضاء على العامية التي هي بحاجة الآن إلى العناية والدراسة.

أما الدكتور محمد [illegible] موضوع دراسة قام بها بمنطقة [illegible] تحت عنوان "العامية وصلتها بالفصحى في منطقة [illegible]" مؤكدا أن العامية لا يمكن أن تكون لغة العلوم والمعرفة، ولكن لغة [illegible]، متسائلا في نفس الوقت عن [illegible] الفصحى اللغة الرسمية، ليؤكد في الأخير أن الخطر لا يكمن في الدوارج وإنما في البلدان التي تغزونا [illegible] وتكنولوجياتها وثقافتها.

أما الأستاذ أحمد عزوز فقد طرح للتحليل والدراسة موضوع "التواصل بالعامية بين الأثر والعجز عن التعبير" والتي حضر جانبا منها رئيس الحكومة السيد عبد العزيز بلخادم، ليأتي بعد ذلك الدكتور عبد الكريم بكري في موضوع عنونه "نحو وعي لغوي: نظرات في مستويات التخاطب بين المجتمعات في الجزائر والعالم العربي". وبعد الاستراحة القصيرة تواصلت المحاضرات من خلال الجلسة العلمية الخامسة، شارك فيها كل من الدكتور أمين الزاوي والذي لاحظ ظاهرة التلوث اللغوي، مشيرا إلى أن اللغة السليمة هي تلك التي تبثها عبر التلفزيون خصوصا بعض التعاليق على المباريات الرياضية.

أما الأستاذ عبد الرزاق عبيد فقد عالج في مداخلته موضوع "الفصحى والعامية من خلال [illegible] اللغة [illegible]"، أما الدكتور خالد عيقون فاختار لمداخلته موضوع "تواصل الخطاب الشفوي بالمدونة العربية القديمة". وهكذا يختتم اليوم الثاني والأخير [illegible] ورشة الوسائل السمعية البصرية في ندوة الفصحى والعامية، وورشة الإنتاج الأدبي والفني بين عاميات [illegible] وحدة أم [illegible]؟ هذا بعد النقاشات الثرية التي ميزتها هذه الندوة على مدى يومين والتي انصبت كلها في موضوع الفصحى وعامياتها في الوطن العربي.

صوت الأحرار AL-AHRAR
الاربعاء 20 جمادى الاولى 1428 الموافق لـ 6 جوان 2007
السنة العاشرة العدد 2823

تسونامي العامية

■ يوسف شنيتي

■ كثر المحذرون من الدور الهدام الذي تقوم به الفضائيات باتجاهين خطيرين هما: الترويج لثقافة استهلاكية رخيصة وتهديم اللغة العربية الفصحى من خلال تعميم العامية الدارجة، وبدا التحذير قبل سنوات خلت من قبل الناقد الكبير ورئيس المجلس الأعلى للثقافة بمصر الدكتور جابر عصفور الذي اعتبر الفضائيات معول الهدم الأول للغة العربية الفصحى، ونفس المواقف تبناها مفكرون آخرون وعلى رأسهم الدكتور الليبي البارز علي خشيم، من المهم الاعتراف بأن مسألة إحلال العامية مكان العربية الفصحى مسألة سجال قديم بين مفكرين وأدباء كبار قبل نصف قرن تقريبا، وخاصة طه حسين وسلامة موسى وأحمد مندور والعقاد وغيرهم، ومن الغريب حقا أن التهديد يبدو كـ"تسونامي" قادم من المشرق ليجرف قلاع العربية في كل مكان.

لقد استمر تهميش الفصحى لصالح العامية وهو اليوم في المشرق أشبه بالمستوطنات اليهودية فوق الأراضي العربية المحتلة وأمر واقع مرير مع فارق في القياس طبعا، تكاد العربية الفصحى تنحصر في المدارس والجامعات فقط، ومن العجب أن تشاهد برامج ثقافية تستضيف أدباء ومفكرين لا يتحدثون إلا بالعامية المصرية تحديدا وكأنهم لا يقوون على التحدث بالفصحى حتى ولو كتبوا بها، ويسري هذا الحكم على كبار الأدباء والمفكرين بدءا بالراحل نجيب محفوظ وسمير أمين وانتهاء بالجيل الجديد، وهو ما دفع أحد كتابنا المشهود له بسحر البيان يقول لي وإثقال أهل المغرب أكثر الناس إجادة للعربية من أهل المشرق اليوم!!

ولأن الموضوع لا يتعلق هنا بمن يخدم العربية الفصحى أكثر لأن أعظم ما يضعف اللغة عندنا هو العامية الدارجة من جهة ولغة المستعمر التي نتعامل معها كغنيمة حرب، وحتما سنكتشف متأخرين أن الفصحى مهددة في عقر دارها بعامية هجينة بلا سحر أو بيان، ثم سندعو إلى تقريب الفصحى لتصبح سلسة وبسيطة ولا نخرج بذلك من المربع الأول للنقاش الفكري الذي قام في الستينيات من القرن الماضي.

إن مشروع الحداثة ونجاح التنمية في الوطن العربي لن يتم دون اللغة وانسجام الهوية، وتبقى صرخة تحذير المفكرين من "تسونامي" العامية القادم من هذه الفضائيات مجرد صيحة في بيداء مقفرة.

[illegible]

الخبر
EL KHABAR
الثلاثاء 5 جوان 2007 م الموافق ل 19 جمادى الأولى 1428 عدد …031

الندوة الدولية حول الفصحى وعامياتها بالأوراسي

خنشيم يدق ناقوس الخطر ويحذر من عامية الفضائيات



[illegible]

اليوم
إخبارية وطنية
السنة الثامنة العدد 2534 الثلاثاء 05 جوان 2007

من تنظيم المجلس الأعلى للغة العربية

ندوة لمناقشة واقع الازدواجية بين الفصحى والعامية في العالم العربي



صوت الأحرار
SAWT AL-AHRAR
يومية إخبارية وطنية

الاربعاء 6 جوان 2007 العدد 2823

الندوة الدولية للغة العربية وعامياتها

المشاركون يطالبون ببعث قانون تعميم استعمال اللغة العربية





الأحرار

الدكتور حاج صالح : في مداخلته حول "العاميات العربية ولغة التخاطب الفصيحة"

"المدرسة اللسانية الحديثة بحاجة إلى إعادة نظر"

الشروق
الأربعاء 06 جوان 2007م / الموافق لـ 20 جمادى أول 1428 هـ /2012

الخبراء في الندوة الدولية حول "العربية وعاميتها"

العربية ليست بخير والفضائيات في قفص الاتهام



أجمع خبراء اللغة العربية في الندوة الدولية التي اختتمت أمس أشغالها بالأوراسي، أن العربية ليست بخير وأن الوضع اللغوي في البلدان العربية هو انعكاس لما يعيشه العالم العربي من انقسام وتجزئة وتخلف علمي.

زهية منصر

حيث شدد المتدخلون في الندوة الدولية التي نظمها المجلس الأعلى للغة العربية على ضرورة توحيد الجهود من أجل النهوض بالواقع اللغوي العربي لأن مكانة اللغة هي من مكانة أهلها ثقافيا وعلميا وحتى سياسيا، كما شدد الخبراء على ضرورة الاستفادة من اللهجات المحلية في خدمة اللغة العلمية التي هي بالأساس فضاء لغوي غني وثري بإمكانه تقديم أشياء إضافية لخدمة اللغة العلمية وإثرائها، لأن لغة الهامش بإمكانها أن تكون لغة الإبداع إذا انخرطت في الأهداف العليا للمجتمع مع وجود سياسة لغوية للدولة، على حد تعبير الخبير علي القاسمي من المغرب الذي أكد في مداخلته الموسومة بـ "العربية الفصحى وعاميتها في السياسة اللغوية" أن كل الدول العربية اليوم تفتقر إلى سياسية أو تخطيط لغوي بإمكانه ترقية مكانة اللغة العربية وتعزيزها علميا وثقافيا، مستشهدا بالواقع اللغوي في الدول العربية ومستعرضا تقرير التنمية البشرية الأخير الذي أكد أن 80 عربيا فقط يقرؤون كتابا في العام، في الوقت الذي يقرأ فيه كل إسرائيلي أربعين كتابا في العام وكل أروبي 35 كتابا في العام. وقد ربط المحاضر بين هذه النتائج وبين السياسات اللغوية في الوطن العربي التي لا تصب في مجملها في أهداف واضحة ومنهجية هادفة لتطوير اللغة العربية.

نفس الرأي تقريبا تقاسمه معه الأستاذ علي خشيم من ليبيا الذي أضاف للمسألة أزمة الفضائيات العربية التي يمكن أن تكون -كما قال المحاضر- سلاحا ذا حدين بإمكانها المساهمة في ترقية اللغة العربية أو المساهمة في تعقيد المسائل، خاصة في ظل تواجد سياسة أمريكية في المنطقة تعمد إلى اللعب على الفروقات اللغوية في اللهجات لزيادة تأزيم الوضع العربي، يضيف الأستاذ القاسمي ضاربا المثال بما يحدث اليوم في العراق. وتجدر الإشارة إلى أن الندوة الدولية كانت قد افتتحتها وزيرة الثقافة التي أكدت على ضرورة تنشيط دور الترجمة في الجزائر للنهوض بالواقع اللغوي وكذا اعتماد منهج علمي للاستفادة من الفضاءات التي تفتحها اللغة الشعبية أو العامية من أجل تجاوز مأزق الهوية اللغوية في الجزائر والتي تأججت بفعل الاستعمالات السياسية للمسألة. يقول الدكتور ولد خليفة الذي خلال تدخله في الندوة أشار إلى أن الأمازيغية مثلا في الجزائر لم تكن يوما ضد العربية بل احتضنتها وساهمت في تطويرها.

19 Djoumad El Aouel 1428 - Mardi 5 Juin 2007 - N° 12985 - Nouvelle série - www.elmoudjahid.com

EL MOUDJAHID

LA REVOLUTION PAR LE PEUPLE ET POUR LE PEUPLE

Alger, capitale de la culture arabe 2007

Conférence internationale sur la langue arabe classique et ses différents dialectes

La conférence internationale sur "La langue arabe classique et ses différents dialectes : langue de communication entre conciliation et réforme" a ouvert ses travaux hier à Alger.

Une pléiade d'enseignants spécialisés venus de divers pays arabes et des représentants de la Ligue arabe et de l'organisation de la ligue arabe pour l'éducation, les sciences et la culture (Alesco) prennent part à cette manifestation.

Organisée dans le cadre de la manifestation "Alger, capitale de la culture arabe 2007", cette conférence verra l'examen de plusieurs thèmes dont "la langue arabe et ses différents dialectes", "les efforts des institutions arabes visant à concilier la langue arabe classique et ses dialectes" et "l'avenir de la langue arabe classique".

Deux ateliers seront organisés, en marge de la conférence, sur "les supports visuels et la langue arabe classique et dialectale" et "la production littéraire et artistique en arabe dialectal, un facteur d'union ou de division".

LE DROIT DE SAVOIR, LE DEVOIR D'INFORMER

LIBERTE

QUOTIDIEN NATIONAL D'INFORMATION. 37, RUE LARBI BEN M'HIDI ALGER - TEL. : (021) 64 34 35 (LIGNES GROUPÉES)
FAX : (021) 64 34 29 - N° 4472 MARDI 5 JUIN 2007 - ALGÉRIE 10 DA - FRANCE 1 € - GB 1£ 20 - ISSN 1111-4290

CONFÉRENCE INTERNATIONALE SUR LA LANGUE ARABE CLASSIQUE ET SES DIALECTES

"La nécessaire simplification de la langue arabe"

Depuis hier se tient à Alger une conférence internationale organisée par le Haut-Commissariat de la langue arabe ayant pour thème la langue arabe et ses dialectes. Si l'arabe classique est la langue officielle de l'ensemble des pays appartenant à cette région du monde, il existe autant de dialectes et également de variantes propres à chaque région d'un pays. Mais ce n'est pas de ce constat, établi depuis des lustres, que doivent débattre les intervenants lors de cette rencontre organisée par le Haut-Commissariat de la langue arabe. Deux jours durant, ces universitaires, arabes et européens, évoqueront les moyens de rallier et de rapprochement de ces dérivés de la langue officielle qui restent le seul moyen de communication véritablement utilisé au quotidien. En dehors des relations politiques ou économiques jusqu'à présent inexistantes entre les pays arabes, la langue arabe reste le seul lien qui unit ces pays, a notamment déclaré le Libyen Abdelmalek Mourtadh, premier à prendre la parole. Avant lui, Mohamed Ould Khalifa, président du Haut-Commissariat de la langue arabe a attiré l'attention de l'assistance sur les dangers qui guettent cette langue. Ces menaces émanent, de son point de vue, des autres langues diffusées à travers le monde par les nouvelles technologies de la communication. Sur cet aspect, la langue arabe accuse un retard considérable, a souligné Mme Khalida Toumi, ministre de la Culture. *"Nous avons un pied dans le passé que nous n'avons pas maîtrisé et un autre dans l'avenir dont nous ne dominons pas les outils nécessaires à sa maîtrise".* La ministre a suggéré une simplification de la grammaire pour un meilleur enseignement de cette langue et a donné l'exemple des *Mille et Une Nuits*, une des plus merveilleuses histoires de l'humanité, rédigée dans la langue arabe proche de celle couramment utilisée. De son côté, Abdelkader El-Fassi El-Fehri, du bureau de coordination de l'arabisation de Rabat a pris comme exemple la Corée qui connaît *"une croissance appuyée qui la classe parmi les pays où le bien-être est des plus appréciables"*, a-t-il souligné. *"Le rapport du programme des Nations unies pour le développement se base aussi sur le niveau des connaissances et la rapidité avec laquelle ce savoir est diffusé. Ce degré d'évolution est passé par la simplification et l'unification de la langue. Il existe dans ce pays 120 chaînes de télé privées. Mais toutes diffusent en* [illegible]". En effet, il souligne le retard qu'accusent les pays arabes dans la transmission du savoir. Il dira qu'en Israël, par exemple, un individu lit 80 livres par an alors que dans les pays arabes *"80 individus lisent un seul livre par année"*. En attendant que ces proportions se renversent, les intervenants traiteront aujourd'hui des relations des dialectes avec l'arabe classique et des efforts, jusque-là fournis par les organismes spécialisés dans le rapprochement entre l'arabe et ses dialectes. Cette rencontre entre dans le cadre de la manifestation *"Alger, capitale de la culture arabe"* et comporte également deux ateliers qui traiteront de la production littéraire en dialectal et des perspectives qu'offrent les supports audiovisuels.

SAMIR BENMALEK

ملحق عن معرض للكتاب

نظم المجلس بالتنسيق مع وزارة الثقافة ، معرضا للكتب التي صدرت في إطار الجزائر عاصمة للثقافة العربية 2007، تنوعت مواضيعها بين التاريخي والاجتماعي والسياسي والإبداعي بمختلف فنونه ومجالاته، وخاصة العناوين التي لها صلة مباشرة بالجزائر وبموضوع الندوة مثل: الأمة الجزائرية: نشأتها وتطورها، ابن باديس ، معجم الشعراء الجزائريين في القرن العشرين، الأمير عبد القادر: مؤسس دولة وقائد جيش، المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة، بالإضافة إلى هذا، تم عرض منشورات المجلس التي أصدرها في سنتي 2007/2006 وخاصة البحوث التي فازت بجائزة اللغة العربية في مجالات: علوم اللغة العربية منها: أنوار التحلي على ما تضمنه قصيدة عبد الله بن الحلي للأستاذ محمد مرزوقي وهو كتاب يتناول بالدراسة فن البديع في البلاغة وعلاقة ذلك باللغة العربية ، وكتاب الطب الشرعي ويعتبر مرجعا مهما للباحثين وطلاب العلوم الطبية باللغة العربية ، وكتاب علامات الحياة والممات بين الفقه والطب ، كتاب جمع فيه مؤلفه التوفيق بين الفقه والطب في كل ما تعلق بعلامات الحياة والممات بما في ذلك شرعية نقل الأعضاء البشرية من الميت إلى الحي وشروطها ومقاييسها، أما في الجوانب الإدارية فقد عرض المجلس الأدلة التي لها علاقة مباشرة بالتسيير منها: الدليل الوظيفي لإدارة الموارد البشرية ، والدليل الوظيفي للتسيير المالي والمحاسبة ودليل المحادثة الطبية الذي يعتبر وسيلة أساسية في ترقية لغة المحادثة بين الطبيب والمريض بالإضافة إلى كونه مرجعا للباحثين في مجال المصطلحات الطبية باللغات الثلاث: عربية فرنسية وإنجليزية ، وكذا الكتب الأخرى من مجلة المجلس المتخصصة، ودفاتر الجيب التي لخصت المحاضرات والموائد المستديرة والأمسيات الأدبية التي سبق للمجلس أن نظمها في مناسبات عديدة ضمن منبريه: حوار الأفكار وفرسان البيان.

ملحق : إعلان الرياض

صدر عن القمة العربية في اختتام أعمال دورتها التاسعة عشرة في الرياض «إعلان الرياض» وفيما يلي نصه:

نحن قادة الدول العربية المجتمعين في الدورة التاسعة عشرة لمجلس جامعة الدول العربية على مستوى القمة بالرياض عاصمة المملكة العربية السعودية يومي 9 و10 ربيع الأول 1428هـ الموافق 28 و29 مارس (آذار) 2007. استنادا إلى الأسس والمقاصد التي نص عليها ميثاق جامعة الدول العربية والمواثيق العربية الأخرى، بما فيها وثيقة العهد والوفاق والتضامن بين الدول العربية، ووثيقة التطوير والتحديث في الوطن العربي.

واستلهاما للقيم الدينية والعربية التي تنبذ كل أشكال الغلو والتطرف والعنصرية، وحرصا منا على تعزيز الهوية العربية، وترسيخ مقوماتها الحضارية والثقافية، ومواصلة رسالتها الإنسانية المنفتحة، في ظل ما تواجهه الأمة من تحديات ومخاطر تهدد بإعادة رسم الأوضاع في المنطقة، وتمييع الهوية العربية، وتقويض الروابط التي تجمعنا.

وتأكيدا على الضرورة الملحة لاستعادة روح التضامن العربي وحماية الأمن العربي الجماعي والدفع بالعمل العربي في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والتنموية والالتزام بالجدية والمصداقية في العمل العربي المشترك والوفاء بمتطلبات دعم جامعة الدول العربية ومؤسساتها.

نعلن عزمنا على:

ـ العمل الجاد لتحصين الهوية العربية ودعم مقوماتها ومرتكزاتها وترسيخ الانتماء إليها في قلوب الأطفال والناشئة والشباب وعقولهم، باعتبار أن العروبة ليست مفهوما

عرقيا عنصريا بل هي هوية ثقافية موحدة، تلعب اللغة العربية دور المعبر عنها والحافظ لتراثها، و إطار حضاري مشترك قائم على القيم الروحية والأخلاقية والإنسانية، يثريه التنوع والتعدد، والانفتاح على الثقافات الإنسانية الأخرى، ومواكبة التطورات العلمية والتقنية المتسارعة، دون الذوبان أو التفتت أو فقدان التمايز، ولذلك نقرر:

ـ إعطاء أولوية قصوى لتطوير التعليم ومناهجه في العالم العربي، بما يعمق الانتماء العربي المشترك، ويستجيب لحاجات التطوير والتحديث والتنمية الشاملة، ويرسخ قيم الحوار والإبداع، ويكرس مبادئ حقوق الإنسان والمشاركة الإيجابية الفاعلة للمرأة.

ـ تطوير العمل العربي المشترك في المجالات التربوية والثقافية والعلمية، عبر تفعيل المؤسسات القائمة ومنحها الأهمية التي تستحقها، والموارد المالية والبشرية التي تحتاجها، خاصة فيما يتعلق بتطوير البحث العلمي، والإنتاج المشترك للكتب والبرامج والمواد المخصصة للأطفال والناشئة، وتدشين حركة ترجمة واسعة من اللغة العربية وإليها، وتعزيز حضور اللغة العربية في جميع الميادين بما في ذلك في وسائل الاتصال والإعلام والانترنت وفي مجالات العلوم والتقنية.

ـ نشر ثقافة الاعتدال والتسامح والحوار والانفتاح ورفض كل أشكال الإرهاب والغلو والتطرف وجميع التوجهات العنصرية الإقصائية وحملات الكراهية والتشويه ومحاولات التشكيك في قيمنا الإنسانية أو المساس بالمعتقدات والمقدسات الدينية والتحذير من توظيف التعددية المذهبية والطائفية لأغراض سياسية تستهدف تجزئة الأمة وتقسيم دولها وشعوبها و إشعال الفتن والصراعات الأهلية المدمرة فيها.

ـ ترسيخ التضامن العربي الفاعل الذي يحتوي الأزمات ويفض النزاعات بين الدول الأعضاء بالطرق السلمية وفي إطار تفعيل مجلس السلم والأمن العربي الذي أقرته

القمم العربية السابقة، وتنمية الحوار مع دول الجوار الإقليمـي وفـق مواقـف عربيـة موحدة ومحددة، و إحياء مؤسسات حماية الأمن العـربي الجماعـي وتأكيـد مرجعياتـه التي تنص عليها المواثيق العربية والسعي لتلبية الحاجات الدفاعية والأمنية العربية.

ـ تأكيد خيار السلام العادل والشامل باعتباره خيارا استراتيجيا للأمـة العربيـة وعـلى المبادرة العربية للسلام التي ترسم النهج الصحيح للوصول إلى تسوية سلمية للـصراع العربي ـ الإسرائيلي، مستندة إلى مبادئ الشرعية الدولية وقراراتها ومبدأ الأرض مقابـل السلام.

ـ تأكيد أهمية خلو المنطقة من كافـة أسـلحة الـدمار الـشامل بعيـدا عـن ازدواجيـة المعايير وانتقائيتها، محـذرين مـن إطـلاق سـباق خطـير ومـدمر للتـسلح النـووي في المنطقة، ومؤكدين على حق جميع الـدول في امـتلاك الطاقـة النوويـة الـسلمية وفقـا للمرجعيات الدولية ونظام التفتيش والمراقبة المنبثق عنها.

إن ما تجتازه منطقتنا من أوضاع خطيرة تستباح فيها الأرض العربية وتتبدد بهـا الطاقات والموارد العربية، وتنحسر معها الهوية العربيـة والانـتماء العـربي والثقافـة العربية، يستوجب منا جميعا أن نقف مع النفس وقفة تأمل صادق ومراجعـة شـاملة. و إننا جميعا قادة ومسؤولين ومـواطنين آبـاء وأمهـات وأبنـاء شركـاء في رسـم مـصيرنا بأنفسنا، وفي الحفاظ على هويتنا وثقافتنا وقيمنا وحقوقنا. إن الأمم الأصيلة الحيـة تمـر بالأزمات الطاحنة فلا تزيدها إلا إيمانا وتصميما. وان أمتنا العربيـة قـادرة بـإذن اللـه حين توحد صفوفها وتعزز عملها المشترك أن تحقق ما تستحقه من أمن وكرامة ورخاء وازدهار.

الفهرس